

بمناسبة مرور ستة عشر قرنًا
على نياحة القديس يوحنا الذهبي الفم

من كتابات
القديس يوحنا الذهبي الفم

إعـداد: القمص تادرس يعقوب ملطي
وآخـرين

بمناسبة مرور ستة عشر قرنًا

على نياحة القديس يوحنا الذهبي الفم

من كتابات

القديس يوحنا الذهبي الفم

٢٠٠٧

إعداد

القمص تادرس يعقوب ملطي

وآخرين

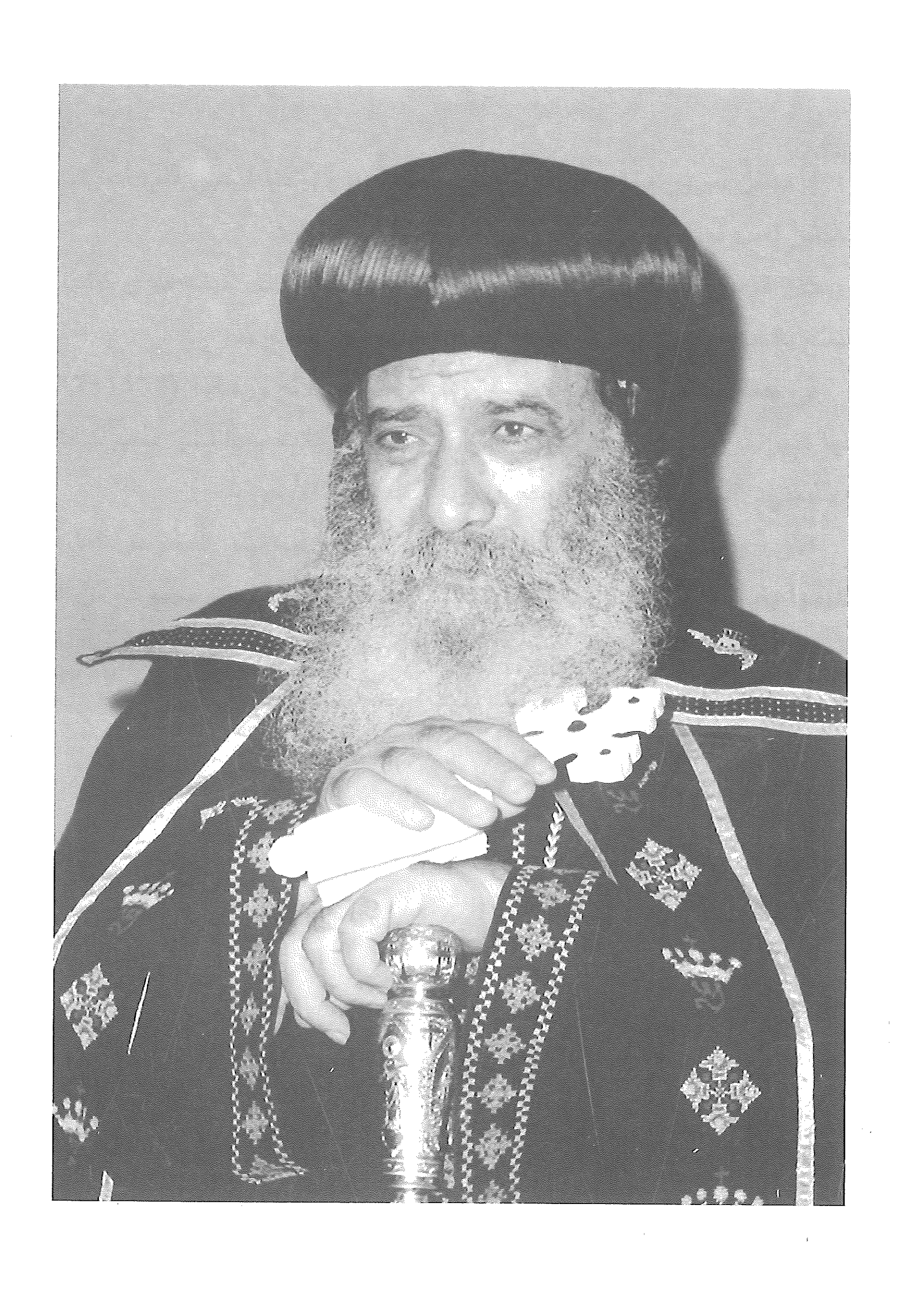
كنيسة الشهيد مارجرجس بسبورتنج

باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد. آمين.

اسم الكتاب : من كتابات القديس يوحنا الذهبي الفم - الجزء الأول.
إعداد : القمص تادرس يعقوب ملطي وآخرون.
الطبعة : الأولى ٢٠٠٧م.
الناشر : كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس - سبورتنج.
فصل ألوان، وطباعة :
مطبعة دير الشهيد العظيم مارمينا العجائبي بمريوط.
ت: ٠١٢٢١٥٢٨٥٦ تليفاكس: ٠٣٤٥٩٦٤٥٢
رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٢٤١٧٣
الترقيم الدولي : I.S.B.N. : 977 - 392 - 041 - 0

من كتابات القديس يوحنا الذهبي الفم /
تادرس يعقوب ملطي ... (واخ) . ـ الإسكندرية :
كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس ـ سبورتنج ، ٢٠٠٧
ج ١ ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٠ ٠٤١ ٣٩٢ ٩٧٧
١ - أقوال الآباء
٢ - ذهبي الفم ، يوحنا
أ - ملطي ، تادرس يعقوب (مؤلف مشارك)

٢٧٤/٣



صاحب الغبطة والقداسة

البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الـ ١١٧

إذ نحتفل بمرور ستة عشر قرنًا على نياحة القديس يوحنا الذهبي الفم، أعترف بأنني مدين بالكثير لعمل نعمة الله في حياته وكرازته وكتاباته وعظاته.

كان الذهبي الفم كارزًا حكيمًا بقلبٍ ناري، لا يشغله في كل حياته سوى كسب كل نفسٍ للتمتع بالحب الإلهي، وتذوق عذوبة الحياة الجديدة في المسيح يسوع.

في بداية خدمتي الكهنوتية قمت بتعريب بعض مقالاته ورسائله (١٩٦٣-١٩٦٦)، وكان لها الثمر الروحي في حياة الكثيرين من الشباب. كما كانت سندًا لي في كتاباتي، خاصة سلسلتي: "الحب المقدس" و"من تفسير وتأملات الآباء الأولين".

الآن أعيد نشر بعض هذه الكتابات، التي لا يشغلني فيها نشر النصوص كما هي، **إنما تقديمها بغية تمتع الكثيرين بالفكر الإنجيلي العذب**. هذا وقد قامت مجموعة من أبناء الكنيسة بتعريب بعض كتاباته.

أرجو أن يستخدم الله هذه الكتابات لمجد اسمه القدوس وبنيان كنيسته.

بركة أبينا القديس يوحنا الذهبي الفم ترافقنا جميعًا. آمين.



رسالتك في الحياة

للقديس يوحنا الذهبي الفم

طبعة منقحة

٢٠٠٧

تعريب

القمص تادرس يعقوب ملطي

مُعرب عن:

Nicene and Post-Nicene Fathers, Series 1 Volume 9.

To Those Who Had Not Attended The Assembly.

رسالتك أيها المسيحي

"الله بعد ما كلم الآباء بالأنبياء قديمًا بأنواع وطرق كثيرة، كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه" (عب ١: ١-٢) حديثًا عمليًا على الصليب، مكتوبًا بالدم.

على الصليب أحني رأسه في حبٍ، لتضع كل البشرية أياديها عليه، فيحمل شوكة لعنة خطايانا في رأسه، لنشاركه نحن إكليل مجده.

تمزق كفاه بالمسامير، ليعلن أن أسماءنا نحن الخطاة، منقوشة عليها بالجراحات.

وتسمرت رجلاه، مصرًا ألا يفارق بيت خطايانا، بل في لجاجةٍ يتوسل أن يأخذنا معه حيث هو كائن.

وانفتح جنبه لندخل ونهيم في أحشائه الملتهبة بنيران حبه المتأججة.

ذُبح وانحنى على الصليب، وانفصلت نفسه عن جسده، لكنه كأسدٍ رابضٍ مخوفٍ (تك ٤٩: ٩)، إذ لاهوته لم يفارق ناسوته قط. أقام بموته المحيي أجساد الكثيرين، وبدخوله إلى الجحيم فجّر أبوابه، وأخرج الذين ماتوا على رجاء ليدخل بهم إلى الفردوس.

فتح الرب الهيكل السماوي، طالبًا بسلطانٍ غفرانًا من أجل البشرية الجاحدة العاصية.

هذا هو عمل الرب المتجسد، شاهدًا لمحبته الإلهية العملية، إذ **"ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا"** (رو ٥: ٨). **"ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه"** (رو ٥: ١٠).

بهذا الحب اجتذب اللص القاتل، ولازال بنفس الحب يجتذب الخطاة والزناة والعشارين، ليصعدوا به إلى حيث موضع قدسه، كأعضاءٍ في جسد الرب المحب.

أنت رائحة المسيح الذكية

كل من يتلامس مع محبة ربنا، يقول مع الرسول: **"الذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه، ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة..."** (يو ١: ٣). وإذ يدرك عمل الله في حياته، يشهد بذلك أمام إخوته مهما بلغت نجاسات قلبه، قائلاً: **"فإن الحياة أظهرت. وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا. الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به، لكي يكون لكم أيضًا شركة معنا"** (١ يو ١ : ٢-٣).

المسيحي الحقيقي الذي يدرك نعمة الله الفياضة التي تنتشله على الدوام من هوة الخطية وتقدم له كل رجاء، لا يكف عن أن يشهد للرب وسط أحبائه السالكين في الظلمة.

كيف تشهد للرب؟

شهادتك للرب أيها العزيز ليست أمرًا صعبًا كما قد تظن، لأن كرازتك "**لا بحكمة كلام لئلا يتعطل صليب المسيح**" (١ كو ١: ١٧)، بل بإعلان عمل الصليب في حياتك العملية. بالصليب تدوس على سطوة الخطية، شاهدًا للرب في حياتك الداخلية وسلوكك الخارجي، في أفكارك الخفية وتصرفاتك الظاهرة، في عواطفك وأحاسيسك.

بالصليب تقبل وصايا ربنا يسوع الصعبة، فترى أن "**حملها خفيف، ونيرها هين (حلو)**"، خاصة تلك الوصية التي بها يكمل كل الناموس والأنبياء "**تحب الرب إلهك من كل قلبك... وقريبك كنفسك**". تحب قريبك مهما ضايقك، ودبر لك من مكائد، وحاول أذيتك.

هكذا تجتذب نفوس الآخرين بالوصايا العملية التي تحيا بها، لأن "**ناموس الرب بلا عيب يرد النفوس... وصايا الرب مضيئة تنير العينين عن بعد**" (مز ١٨) . فمن غير أن تتكلم ترد النفوس المتعبة، وتنير العينين المظلمتين. لأنك بالمسيح يسوع تصير نورًا للعالم الذي يضيء بالعمل أكثر من الكلام، وخميرة مقدسة تخمر العجين في صمتٍ، وملحًا روحيًا يُصلح الغير خفية. ربما لا تنطق بكلمة، لكن حياتك تكون عظة قوية، كقول المرتل: "**لا قول ولا كلام. لا تسمع أصواتهم. في كل الأرض خرج منطقهم، وإلى أقطار المسكونة بلغت أقوالهم**" (مز ١٨).

باختصار، إنك كعضو حي في جسد الرب – الكنيسة الحقيقية – يلزمك أن تكون مثل رأسك الحقيقي – ربنا يسوع – سالكًا بروحه المتسع لمحبة الجميع.

هذه هي شهادتك له، أن تكون سفيرًا للرب، لك رائحة الحب الذكية نحو البشرية كلها. يتسع قلبك للمسيئين إليك وناكري الإيمان حتى المُجَدفين أيضًا. "**لأنه إن كنت تحب الذين يحبونك فأي أجر لك، أليس العشارون يفعلون ذلك. وإن سلمت على إخوتك فقط، فأي فضل تصنع... فكن كاملاً مثل أبيك السماوي**" (مت ٥: ٤٦-٤٨).

لقد أرسلك الرب حملاً بين ذئاب[1] (مت ١٠: ١٦)، يفترسونك ويلتهمونك، لكن – كما يقول **القديس أغسطينوس** – سرعان ما تتحول الذئاب إلى حملانٍ.

---

[1] تضم هذه الذئاب كل مضايقيك الذين من بينهم كثير من المسيحيين بالاسم ولا يسلكون حسب الإيمان الحي.

لا تخاف البذرة الحية من الأرض التي تُدفن فيها، فإنهـا إن لـم تمـت لا تـأتي بثمرٍ كثيرٍ.

تشبه بسيدك، لأنه "**ليس التلميذ أفضل من المعلم، ولا العبد أفضل من سيده. يكفي التلميذ أن يكون كمعلمه، والعبد كسيده**" (راجع مت ١٠: ٢٤)، فإنك بهذا تعلن نور الـرب للجميع.

هذا هو موضوع العظة التي ألقاها **القديس يوحنا الذهبي الفم** على جماعة المؤمنين المترددين على اجتماعات الكنيسة من أجل الذين لا يحضرون الاجتماعات.

الرب قادر أن يستخدم كلماته لنفع نفوسنا جميعًا ببركة وصلوات آبائنـا القديـسين وأبينا الحبيب غبطة البابا المعظم البابا شنودة الثالث بابا الإسـكندرية وبطريـرك الكـرازة المرقسية.

الرب معك،

المُعرِّب

عظة القديس يوحنا الذهبي الفم

أريد عملكم لا مديحكم

يبدو أن مقالي الأخير الطويل الذي ألقيته لإشعال غيرتكم تجاه هذه الاجتماعات لم يكن نافعًا، لأنه لا تزال كنيستنا مهجورة من أبنائها. لهذا أجد نفسي ملزمًا أن أتضايق وأتكدر، فأوبخ الحاضرين وأخطِّئ الذين تخلفوا عن الحضور. أولئك بسبب عدم قيامهم من كسلهم، وأنتم بسبب عدم تقديمكم يد المعونة في خلاص إخوتكم.

حقًا أن من يتطلع إلى تكدري بطريق خاطئ يدعوني سليطًا. لكن هذا لا يمنعني من إثارة روحه لتحقيق نفس الغرض (أي الاهتمام بخلاص اخوته)، لأنه لا شيء عندي أفضل من هذا النوع من (اللجاجة). ليحدث ما يحدث، مادمتم في النهاية تخجلون وتعتنون بإخوتكم بسبب لجاجتي الدائمة. **لأنه ماذا يفيدني مديحكم إذ لا أراكم تتقدمون في الفضيلة؟! وماذا يضرني في صمت السامعين (عن مدحي) إن كنت أرى تقدمكم؟!**

فمدح المتكلم لا يكمن في كلمات ثناء السامعين، بل في التهاب غيرتهم نحو الصلاح. ولا يكمن في الصوت الذي يحدثونه أثناء سماعهم له، بل في الغيرة الباقية (العاملة). لأن كلمات الثناء الخارجة من الشفاه سرعان ما تنتشر في الهواء وتتبدد. أما تقدم المستمعين في الفضيلة، فيهب مكافأة أبدية غير فانية لكلٍ من المتكلم والمطيعين له.

ثناء هتافكم يهب شهرة للمتكلم هنا. أما ورع نفوسكم فيزكيه بالأكثر أمام عرش النعمة. فمن كان محبًا للمعلم، يشتاق إلى نفع السامعين له، لا إلى مدحه بالكلام. إهمالنا لإخوتنا ليس بالخطأ الهين، إنما يجلب علينا عقوبة عظيمة، وتأديبًا بغير رحمة.

تاجروا في الوزنات

لقد وُبخ الرجل الذي دفن الوزنة، إذ لم يجاهد لأجل تغيير إنسان شرير... وبهذا صار هو شريرًا، لأنه لم يضاعف ما قد عُهد إليه به، فاستوجب العقاب. **لا يكفي لخلاصنا أن نكون غيورين مشتاقين إلى سماع الكتب المقدسة، إنما يلزمنا مضاعفة الوديعة. فمع اهتمامنا بخلاصنا الخاص بنا نتعهد أيضًا بما هو لخير الآخرين.** لقد قال الرجل المذكور في المثل "**هوذا الذي لك**" (مت ٢٥: ٢٥)، لكن هذا الدفاع لم يُقبل، إذ قيل له: "**فكان ينبغي أن تضع فضتي عند الصيارفة**".

أرجوكم أن تلاحظوا كيف أن وصايا السيد سهلة، فالبشر يسألون المقترضين إيفاء الدين (ولا يبالون بشخص المقترض)... لكن الله لا يفعل هذا، إنما يأمرنا أن نأخذ الوديعة ولا يحاسبنا عليها بقصد استردادها... يستجوبنا بخصوصها دون أن يطلبها منا.

أي شيءٍ أسهل من هذا؟! ومع ذلك يلقب (الإنسان المهمل) سيده الوديع الرحيم قاسيًا (مت ٢٥: ٢٤). لأن هذه هي عادة الإنسان الجاحد الكسلان، يخفي خجله من أخطائه بنسبها إلى سيده. لهذا أُلقي خارجًا في قيود الظلمة الخارجية.

فلكي لا نسقط تحت العقاب، يلزمنا أن نودع تعاليمنا لدى إخوتنا، سواء كانوا يقبلونها أو يرفضونها. فإنهم إن قبلوها ينتفعون، ونحن نربح معهم. وإن رفضوها يسقطون تحت العقاب غير المحتمل دون أن يصيبنا أي ضرر. إذ نكون قد صنعنا ما يجب علينا من جهة تقديم النصيحة. لكنني أخشى أن يبقوا على حالهم بسبب تراخيكم وإهمالكم.

لا تيأسوا من خلاص أحد

مداومة النصيحة والتعليم تجعل الإنسان مجتهدًا، وتصيره إلى حالٍ أفضل، وفي هذا أقتبس المثل العام الذي يؤكد هذه الحقيقة، وهو أن "قطرات الماء المتواترة تشقق الصخر". أي شيء ألين من الماء؟! وأي شيءٍ أصلب من الصخر؟! ومع هذا فموالاة العمل باستمرار يغلب الطبيعة. إن كان هذا بالنسبة للطبيعة، أفليس بالأولى تغلب الطبيعة البشرية؟!...

أنتم نور العالم

كم أنا مغموم، إذ أرى في أيام الأعياد الجموع المحتشدة كالبحر المتسع الأرجاء، والآن لا أجد ولا القليل من الجموع لتجتمع هنا. أين ذهب أولئك الذين يزحموننا بوجودهم في أيام الأعياد؟! إنني أتطلع إليهم متحسرًا عليهم، حزينًا من أجل تلك الجموع التي تهلك بعيدًا عن طريق الخلاص[1].

يا لها من خسارة عظيمة في الإخوة! قليلون هم الذين يهتمون بالأمور الخاصة بالخلاص. **يا له من جزء كبير من جسد الكنيسة يشبه الميت الذي بلا حراك!**

تقولون: وماذا يخصنا نحن في هذا؟ لديكم إمكانية عظمى بخصوص إخوتكم. فإنكم مسئولون إن كنتم لا تنصحونهم، وتصدون عنهم الشر، وتجتذبونهم إلى هنا بقوةٍ، وتسحبونهم

---

[1] الكلمة اليونانية تعني " أعضاء الكنيسة" كوزنة للخلاص.

من تراخيهم الشديد. لأنه كيف يليق بالإنسان أن يكون نافعًا لنفسه وحده، بل ليكن نافعًا لكثيرين أيضًا. ولقد أوضح السيد المسيح ذلك عندما دعانا "**ملحًا**" (مت ٥: ١٣)، و"**خميرة**" (مت ١٣: ٣٣)، و "**نورًا**" (مت ٥: ١٤)، لأن هذه الأشياء مفيدة للغير ونافعة لهم.

فالمصباح لا يضيء لذاته، بل للجالسين في الظلمة. أنت مصباح، لا لتتمتع بالنور وحدك، إنما لترد إنسانًا ضل، **لأنه أي نفع لمسيحي لا يفيد غيره؟! ولا يرد أحدًا إلى الفضيلة؟!**

مرة أخرى، الملح لا يُصلح نفسه، بل يصلح الطعام لئلا يفسد ويهلك... هكذا جعلك الله ملحًا روحيًا، لتربط الأعضاء الفاسدة، أي الإخوة المتكاسلين المتراخين، وتشددهم وتنقذهم من الكسل كما من الفساد، وتربطهم مع بقية جسد الكنيسة.

هذا هو السبب الذي لأجله دعانا الرب "**خميرًا**"، لأن الخميرة أيضًا لا تخمر ذاتها، لكن مع صغرها، تخمر العجين كله، مهما بلغ حجمه. هكذا افعلوا أنتم أيضًا. فإنكم وإن كنتم قليلين من جهة العدد، لكن كونوا كثيرين وأقوياء في الإيمان والغيرة نحو الله. وكما أن الخميرة ليست ضعيفة بالنسبة لصغرها، إذ لها قوة وإمكانية من جهة طبيعتها... هكذا يمكنكم إن أردتم أن تجتذبوا أعدادًا أكثر منكم، ويكون لهم نفس المستوى من جهة الغيرة.

قد يعتذرون بأن الوقت صيف، إذ أسمع أمثال هذه الكلمات بأن الحر زائد، وحرارة الشمس غير محتملة، ولا نقدر على الزحام... صدقوني إني أخجل منها. فإن مثل هذه الاعتبارات مخنثة، لا يليق أن يحتج بها حتى أصحاب الأجساد الرقيقة وذوي الطبيعة الضعيفة، فإنها لا تبررهم. فإن قدموا مثل هذه الأعذار بغير خزيٍ، يلزمنا ألا نخجل من إجابتهم. وماذا أقول للمتقدمين بمثل هذه الأعذار؟ إنني أريد أن **أذكرهم بالثلاث فتية في أتون النار**، الذين إذ أحاطتهم النيران من كل جانب، تغمر أفواههم وعيونهم وتنفسهم، ولم يكفوا عن التغني بالتسبحة السرية المقدسة لله.

أظن أنه يليق بنا أن نضيف إليهم **الأسود التي كانت في بابل ودانيال في الجب** (دا ٤: ٢٤). ليس هذا وحده، بل وفي جبٍ آخر **كان النبي إرميا حيث كان الوحل قرابة رقبته** (إر ٣٨: ٥).

أليس من المدهش حقًا أن هؤلاء القديسين الذين كانوا في أتون النار أو في جب أو بين الوحوش، وفي الوحل، وفي السجن، وتحت الضربات والجلدات والآلام غير المحتملة، لا يتذمرون، بل يتغنون بالتسابيح المقدسة في حيوية وبغيرة متقدة، بينما نحن

الذين لم نقع تحتها - لا في كثير ولا في قليل - نهمل خلاصنا، محتجين بسخونة الشمس وحرارة الجو قليلاً وبعض التعب، هاجرين اجتماعنا، مفسدين أنفسنا بذهابنا إلى اجتماعات مهلكة تمامًا؟!

فمن الواضح إذن أن هذه الأعذار غير المعقولة هي وليدة الكسل والتراخي، مفتقرة لنيران الروح القدس.

لتدعوا الجميع

إن ملاحظاتي هذه ليست موجهة إليهم، بل بالأكثر إليكم يا من تتقدمون بهم، وتقيمونهم من كسلهم، وتأتون بهم إلى مائدة الخلاص هذه. حقًا إن العبيد عندما يقومون ببعض الخدم العامة يستدعون زملاءهم العبيد، أما أنتم فعندما تذهبون لتجتمعوا في الخدمة الروحية تحرمون زملاءكم من بركاتها بسبب إهمالكم.

تقولون: "وماذا نعمل إن كانوا لا يرغبون في المجيء؟" حثوهم بلجاجتكم الدائمة، فمتى رأوكم مصرين على هذا يرغبون هم أيضًا. إنها مجرد أعذار تقدمونها. فكم من آباء يجلسون هنا، ولا يرافقهم أولادهم؟ هل من الصعب أيضًا أن تأتوا ببعضٍ من أولادكم؟!

ليشجع كل واحدٍ غيره، ويحثه على الحضور. فالأب يشجع ابنه، والابن أباه، والأزواج زوجاتهم، والزوجات أزواجهن، والسيد عبده، والصديق صديقه، بالحري ليس فقط أصدقاءه بل وأعداءه أيضًا... داعيًا إياهم لينهلوا من الكنز المقدم لخير الجميع. فإن رأى العدو اهتمامكم بما هو لخيره فسينزع عنه بغضته لكم[1].

لا تأتي فارغًا

إنني أقول إن الذين تخلوا عن هذا الاهتمام (بخلاص الإخوة) ينالون صفعة في أكثر أجزائهم حيوية، محتملين خسارة أبشع مما تحدث بأي سبب آخر، لأن من يحضرون معهم أحدًا يقتنون ربحًا أعظم مما يقتني أي شيء آخر، كما يعلن الكتاب المقدس... "**لا يظهروا أمامي فارغين**" (خر ٢٣: ١٥)، بمعنى ألا يدخلوا الهيكل بغير ذبائح. فإن كان لا يجوز دخولنا الهيكل بغير ذبائحٍ، فكم بالحري يليق بنا ألا نأتي ونحن غير مصطحبين

[1] أطال القديس في حثنا على الجهاد مذكرًا إيانا كيف أن اليهود الذين بطلت طقوسهم وانتهت عبادتهم بمجيء الرب يسوع وإتمام الفداء... لا يزالون مدققين في كثير من الأمور الجسدية والعبادات... بينما نحن الذين تمتعنا بالخلاص نهمل عبادتنا للرب وشهادتنا له وكرازتنا به.

إخوتنا، لأن هذه التقدمة أفضل من تلك. ليتنا نقتدي ببعض المخلوقات غير العاقلة، إذ تصطاد فريسة لتقدمها لمن هو من جنسها، فأي عذر لنا نحن الذين قد كُرمنا بالعقل وبحكمة كهذه إن كنا لا نعمل مثلها؟

لقد نصحتكم في العظة السابقة وقلت لكم: "اذهبوا كل واحدٍ إلى بيوت أقربائه، وانتظروهم حتى يخرجوا وامسكوهم واقتادوهم إلى بيت أمهم العام. امتثلوا بالمجانين الذين يقابل كلٍ منهم الآخر مبكرًا لكي يقتاده للمشاهد الشريرة. وها أنا أكرر النداء، ولا أكف عنه حتى أدخل بكم إلى العمل.

اجذبوهم بالعمل لا بالكلام

لا يفيد السماع شيئًا ما لم يصحبه التنفيذ، بل يجعل دينونتنا أشد. اسمع ما يقوله السيد المسيح: "**لو لم أكن قد جئت وكلمتهم لم تكن لهم خطية. وأما الآن فليس لهم عذر في خطيتهم**" (يو ١٥: ٢٢). ويقول الرسول: "**لأن ليس الذين يسمعون الناموس هم أبرار عند الله**" (رو ١٢: ١٣). هذا قيل من أجل السامعين، لكن الرب يريد أن يُعلم المعلمين أنهم لا ينتفعون من تعليمهم شيئًا ما لم تنطبق تعاليمهم مع سلوكهم، وكلماتهم مع حياتهم... إذ يقول النبي: "**وللشرير قال الله: مالك تحدث بفرائضي، وتحمل عهدي على فمك، وأنت قد أبغضت (التعليم)**" (مز ٤٩: ١٦-١٧) ويقول الرسول: "**وتثق إنك قائد للعميان، ونور للذين في الظلمة، ومهذب للأغبياء، ومعلم للأطفال، ولك صورة العلم والحق في الناموس. فأنت إذًا الذي تعلم غيرك ألست تعلم نفسك؟!**" (رو ٢: ١٩-٢١)...

لهذا ليت شغفنا لا يكون متزايدًا إلى مجرد الاستماع، فإنه بالحق حسن جدًا أن نقضي وقتنا دائمًا في الاستماع للتعاليم الإلهية، لكنها لا تفيدنا شيئًا إن لم ترتبط بالرغبة في الانتفاع منها. من أجل هذا لا تجتمعوا هنا باطلاً. بل لا أكف عن أن أتوسل إليكم بكل غيرةٍ كما كنت أفعل من قبل قائلاً: "تعالوا بإخوتكم إلى هنا. أرشدوهم إلى هنا. أرشدوا الضالين. علموهم بالعمل لا بالكلام فقط".

هذا هو التعليم ذو السلطان، الذي يأتي خلال سلوكنا وأعمالنا. فإنك وإن كنت لا تنطق بكلمة، لكنك بعدما تخرج من هنا تعلن للبشر الذين تخلفوا عن الربح الذي اقتنيته هنا وذلك بواسطة طلعتك ونظراتك وصوتك وكل تصرفاتك، وهذا كافٍ لإرشاد والنصح.

يلزمنا أن نخرج من هذا الموضع كما يليق بمكانٍ مقدسٍ، كأناسٍ نازلين من السماء عينها، وقورين وحكماء، ناطقين وصانعين كل شيءٍ بلياقةٍ.

فعندما ترى الزوجة رجلها آتيًا من الاجتماع، والأب ابنه، والصديق صديقه، والعدو عدوه ، يرون فيهم أثار البركات التي تمتعوا بها. فيدركون أنكم قد صرتم ودعاء وأكثر حكمة واتزانًا.

تأملوا أية امتيازات تتمتعون بها خلال الأسرار المقدسة؟! **علموا الذين** "**هم في خارج**" **أنكم في صحبة طغمة السيرافيم، محسوبين مع السمائيين، معدين في صفوف الملائكة، حيث تتحدثون مع الرب، وتكونون في صحبة السيد المسيح.** فإن تهيأت نفوسكم هكذا، فلا حاجة إلى ما ننطق به مع من تخلفوا عن الحضور، لأنهم يرون ما نلناه، ويلمسون خسارتهم، فيسرعون إلى الحضور ليتمتعوا مثلنا.

إنهم يُحثون بجمال نفوسكم المتلألئة، فتلتهب قلوبهم بمظهرنا الصالح مهما كانوا أغبياء، لأنه إن كان جمال الجسد يغري ناظره، فكم بالحري يهز جمال النفس وتناسقها ناظرها، وتجذبه لتكون له نفس الغيرة؟! إذًا فلنزين إنساننا الداخلي، ولنفكر فيما يقال ههنا عندما نخرج... لأنه إن كان المصارع يصارع حسبما تدرب عليه في مدارس المصارعة، إلا أننا نحن في تعاملنا مع العالم لم نستخدم ما نسمعه ههنا!

اجذبوهم بالحب

تذكروا ما يُقال لكم، حتى عندما تخرجون، ويلقي الشيطان يديه عليكم عن طريق الغضب أو المجد الباطل أو أية شهوة أخرى، فإنه بتذكركم ما تعلمتموه هنا تقدرون أن تفلتوا من قبضته الشريرة بسهولة. ألا ترون كيف أن المتمرنين حسنًا، بعد ممارستهم المصارعة زمانًا طويلاً وقد أعفوا منها بسبب كبر سنهم، يجلسون خارج الحلبة وينادون من يعلمونهم قائلين هكذا: "امسك يده، اسحب رجله، اضغط على ظهره، إلى غير ذلك من التوجيهات"... أليسوا بهذا يقدمون خدمة عظيمة لتلاميذهم؟! وأنتم أيضًا تطلعوا إلى مدربكم - بولس الطوباوي - الذي بعدما نال نصرات كثيرة، يجلس خارج الحدود - أي هذه الحياة الزمنية - ويصرخ إلينا برسائله. فإذ يرانا في غضبٍ أو مستاءين مما يلحقنا من الأضرار، يقول: "**إن جاع عدوك فأطعمه، وإن عطش فاسقه**" (رو ١٢: ٢٠). وصية جميلة خاصة بالحكمة الروحية، نافعة لمنفذها وللمستفيدين بها! لكن بقية النص يثير حيرة عظيمة، ويبدو كأنه غير متفقٍ مع نية ناطق الكلمات السابقة... إذ يقول: "**لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نارٍ على رأسه**".

بهذه الكلمات الأخيرة يصيب الفاعل والمستفيد شرًا. الأخير لأنه توضع على رأسه جمر نار... فما المنفعة له من الطعام والشراب إن كان يجمع على رأسه جمر نار؟!...

أما مقدم المنفعة فهو أيضًا يصيبه ضرر بطريقٍ آخر، لأنه أية فائدة يجتنيها من صنعه الخير لعدوه إن فعل هذا بقصد جمع جمر نار على رأسه؟! إذ لا يكون بهذا رحومًا ومترفقًا بل قاسيًا ومتوحشًا.

فما هو الحل؟

لقد كان هذا الرجل العظيم والحكيم (بولس) عالمًا تمامًا بهذه الحقيقة، وهي أن مصالحة العدو بسرعة أمر خطير وصعب، لا بحسب الطبيعة، إنما بسبب تراخي الإنسان. وهو لا يأمرنا فقط أن نصطلح مع عدونا، بل وأن نطعمه أيضًا، الأمر الأكثر صعوبة، لأنه إن كان البعض لا يقدرون حتى على معاينة من يضايقونهم، فكيف يرغبون في تقديم الطعام لهم وهم جائعون؟! ولماذا أقول إن النظر إليهم يثيرهم، بل مجرد ذكر اسمهم يعيد إلى ذاكرتهم جراحتهم ويلهب نيران حنقهم.

لقد كان بولس عالمًا بهذا، وهو يريد أن ما كان قاسيًا وصعبًا يصير سهلاً وبسيطًا. يريد أن يقنع من لا يحتمل معاينة عدوه أن يقدم له خيرًا، لذلك أضاف قوله: "**يجمع جمر نار**"، حتى يسرع محب الانتقام إلى صنع الخير لعدوه.

كما أن الصياد يحيط الصنارة بطُعم من كل جانب، فتسرع سمكة لتأكل منه كعادتها (في أكل السمك الصغير) للحال يأسرها الصياد ويمسكها بسهولة، هكذا يصنع بولس الذي يريد أن يقود الإنسان إلى تقديم الخير لمضايقيه، إذ لا يقدم صنارة الحكمة الروحية عارية، إنما يغطيها بمثل هذا الطعم أي "**جمر النار**"، فيدعو الإنسان المُهان الراغب في الانتقام إلى تقديم الخير لمضايقه. وإذ يأتي الإنسان بهذا الفعل يصطاده الرسول ولا يتركه يهرب.

كأن الرسول يقول لمحب الانتقام: "**إن كنت لا تقدم الطعام للمخطئ إليك من باب الشفقة، فقدمه من أجل رغبتك في الانتقام**". يعلم الرسول إنه متى بدأ الشخص في هذا العمل يكون هذا بداية انطلاق للمصالحة بينهما (ويختبر حلاوة فضيلة محبة الأعداء).

إنه بهذا يعين الإنسان الذي غضب، لكن لاحظ كيف يربط بين الاثنين.

أولاً: عن طريق صنع الخير (لأنه مهما كان الإنسان دنيئًا وبلا إحساس، فإنه بعدما يتقبل الطعام والشراب يصبح خادمًا وصديقًا لمن قدمهما إليه).

ثانيًا: عن طريق الخوف من الانتقام. لأن العبارة: "**لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه**"، تبدو كأنها موجهه لمقدم الطعام، لكنها هي بالأكثر تخص مسبب المضايقة.

فبخوفه من العقاب يكف عن العداوة، لأنه يعلم إن أخذه الطعام والشراب يزيد جرمه إن بقي في العداوة. لهذا يصرف غضبه للحال، مطفئًا جمر النار.

فالعقوبة المقترحة والانتقام المُعلن يقنعان الطرفين: الذي أهين لكي يقدم الخير لمضايقه، ومسبب الغضب نصده ونجبره أن يصطلح مع من قدم له الطعام والشراب.

هكذا يربط بولس الاثنين برباط مزدوج. الأول يعتمد على تقديم المنفعة لمضايقه، والثاني الخوف من العقاب. لأن الصعوبة تكمن في أن يبدأ أحدهما ويفتح باب المصالحة، وعندئذ يكون الباقي سهلاً وبسيطًا.

اهزم شرك لا أخاك

لم يقف بولس عند هذا الحد في نصحه، بل عندما يفرغ كلاهما من الغضب يقدم الوضع السليم قائلاً: "**لا يغلبنك الشر**". كأنه يقول: "إن كنت تحمل غيظًا، وتبحث عن الانتقام، فإنه حقًا يبدو كأنك تهزم عدوك. لكن في الحقيقة تكون أنت المغلوب بالشر أي بالغضب". فإن أردت الغلبة، اصطلح مع خصمك ولا تهاجمه. فإنها **نصرة عظيمة أن تغلب الشر وتطرد الغضب والحنق، بصنع الخير أي الاحتمال.**

إذًا هل أدركت حكمة المشرع؟! لكي تتعلم أنه جاء بهذه الوصية هكذا بسبب ضعف الذين لا يقتنعون أن يصطلحوا... اسمع ما قاله السيد المسيح عندما شرع وصية في نفس الأمر دون أن يضع نفس الجزاء، بل قال: "**أحبوا أعداءكم... أحسنوا إلى مبغضيكم**" (مت ٥: ٢٢) أي قدموا لهم طعامًا وشرابًا... "**لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات**" (مت ٥: ٤٥) موضحًا لهم هذا الجزاء، لأنه كان يحدث بطرس ويعقوب ويوحنا وبقية الرسل...

مثال عملي

اقتبس الرسول نفس كلمات سليمان (أم ٢٥: ٢١-٢٢) ليقنع المستمع الذي بلغ درجة روحية عالية، هكذا أن يراعي ما جاء في الناموس القديم كأمرٍ نفذه أناس من رجال العهد القديم. كثيرون نفذوا هذه الوصية، من بينهم داود الذي نفذها في صورة سامية، إذ بالحقيقة لم يقدم لعدوه طعامًا وشرابًا فحسب، بل وأنقذه دفعات كثيرة من الموت. فعندما كان في جبعة، وكان في إمكانه أن يقتله لم يفعل هذا مرة ومرتين... نعم بل ومرات كثيرة.

وبقدر ما كان شاول يكرهه ويضايقه، كان هو يقدم له خيرًا وصلاحًا كثيرًا. فبعدما انتصر داود انتصارًا باهرًا أمام شاول... لم يطق شاول أن يذكر اسمه، بل كان يدعوه

باسم أبيه. فبعدما أُعدت الوليمة، ودبر قتله، ونفذت الخطة، قال شاول: "**لماذا لم يـأتِ ابـن يسى**" (١ صم ٢٠: ٢٧)، إذ لم يطق أن ينطق اسمه الحقيقي... كما أراد أن يحطم مركز هذا الرجل المرموق بذكر أصله.

يا له من فكرٍ بائسٍ ومحتقرٍ، لأنه إن كان في الأب عيوب، فهذا لا يسيء إلى داود، لأن كل إنسان يُسأل عن أعماله هو، وبها يُمدح أو يُذم.

لقد دعاه "**ابن يسى**" (للتحقير)، أما داود فعندما وجد شاول نائمًا فـي الكهـف لـم يدعه "ابن قيس"، بل كرمه قائلاً: "**حاشا لي من قبل الرب أن أمد يدي إلى مـسيح الـرب**" (١ صم ٢٦: ١١). هكذا كان داود في نقاوة متحررًا من الغـضب أو اشـتهاء الأضـرار (لعدوه)، يدعو هذا الذي ارتكب ضده شرورًا كثيرة، وكان متعطشًا لسفك دمه، ومحاولاً أن يهلكه: "**مسيح الرب**". **إنه لم يهتم بما يستحقه شاول، بل فكر فيما يليق به هو أن يفعلـه، حسبما تمليه عليه الحكمة.** لم يتطلع إلى الظروف أنها تسهل عليه عملية قتل شـاول، بـل كانت ملاحظته دقيقة من جهة الحكمة التي تكون له.

هل استطاعت نصيحة القائد له وحثه على ارتكاب الجريمة، وتذكره للماضـي أن يغريه على القتل؟! لم يستطع شيء من هذا أن يثيره. لكن الفرصة المهيأة له للقتل بـسهولة حولته عن ارتكاب الفعل، إذ **فكر هكذا أن الله وضع شاول تحت يده ليختبر حكمته.**

ربما تعجب من داود لأنه لم يفكر في أي شيء سابق، لكن الذي يدهشني أنـه لـم تقسُ يده على شاول خوفًا من الظروف المقبلة. لأنه يعلم تمامًا أنه إن فلت شاول من يديـه فسيكون فيما بعد خصمًا له... لكنه استحسن أن يعرض نفسه للخطر، مسامحًا من أساء إليه، على أن يضمن لنفسه أمانًا مستخدمًا العنف مع عدوه.

يا لعظمة هذا الرجل! ويا لسمو روحه! هذا الذي كان الناموس يطالبه: "**عين بعين، وسن بسن**" (تث ١٩: ٢٢)، لم يبلغ إلى هذه الدرجة فحسب، بل نـال درجـة عاليـة مـن الحكمة. **ولم تقف حكمته عند عدم قتل شاول، الخصم العنيف، بل ولم ينطق بكلمـة غيـر لائقة ضده، مع أنه لو تكلم ما كان شاول يسمعه. أما نحن فكثيرًا ما نتكلم بالشر حتى ضد أصدقائنا عندما يكونون غائبين.** يا لحنان روحه! إنه بحق قد تبرر كما جاء في القول: "**أذكر يا رب داود وكل دعته (وداعته)**" (مز ١٣٢: ١).

ليتنا نقتدي به، فلا ننطق بكلمة ضد عدونا، ولا نصنع به شرًا، بل نقدم له الخيـر قدر المستطاع، بهذا نصنع خيرًا مع أنفسنا أكثر مما نصنعه معهم. فقـد أمرنـا أن نغفـر

لأعدائنا فتغفر خطايانا (مت ٦: ١٤). ليتنا نشتاق بشغفٍ أن نتصالح مع مـن يـضايقوننا، سواء كانوا يفعلون هذا بعدلٍ أو بظلمٍ. فإننا إن اصطلحنا هنا نخلص من الدينونة في العـالم الآتي... ولكن إذا جاء الموت في الفترة التي فيها البغضة قائمة، وحمل معه العداوة، فسيُنظر في القضية في الدهر الآتي.

كما أن كثيرين عندما يكونون في نزاعٍ مع غيرهم، يتلاقون مع بعـضهم الـبعض بروح الصداقة خارج المحكمة، فيخلصون أنفسهم من الخسارة والخطر والمتاعب التي تلحق الطرفين، أما إذا تُرك الأمر أمام القاضي، فستلحق بكلاهما خسارة مادية، كما قـد يلحقهمـا عقوبة، وتبقى العداوة بينهما دائمة.

هكذا نحن أيضًا إذا بقينا في العداوة، فسنرحل إلى المحكمة المهيبة في العالم الآتي، وندفع حتمًا العقوبة حسب أمر الديان. ويخضع للعقوبة المحتملة كل من الذي غضب ظلمًـا لأنه فعل هذا، والذي غضب بعد لأنه أبقى الحنق. لهذا يلزمنا إذا عوملنا معاملة رديئة ظلمًا، أن نغفر لمن يخطئ في حقنا.

لاحظوا كيف يحث المتألمين ظلمًا ويشجعهم للمصالحة مع من أساءوا إليهم. "**فـإن قدمت قربانك على المذبح، وهناك تذكرت إن لأخيك شيئًا عليك، فاترك قربانك قدام المذبح، واذهب أولاً اصطلح مع أخيك، وحينئذ تعال وقدم قربانك**" (مت ٥: ٢٣-٢٤). إنه لم يقـل: "اجتمع معه وقدم قربانك"، بل اصطلح وقدم قربانك.

انظروا أيضًا كيف يدفعكم مرة أخرى للذهاب إلى مـضايقيكم، بقولـه: "**فإنـه إن غفرتم للناس زلاتهم، يغفر لكم أيضًا أبوكم السماوي**" (مت ٥: ١٤)، مقدمًا مكافأة عظيمـة ليست بهينةٍ.

تأملوا هذه الأمور جميعها، واحسبوا قدر المكافأة العظيمـة، وتـذكروا أن غـسل الخطايا يتوقف على غفراننا للمسيئين إلينا...

ليت إله السلام والمحبة، الذي ينزع عن أرواحنا كل حنق ومرارة وغضب، يتنازل ويهبنا - بارتباطنا مع بعضنا البعض في وحدة تامة كما ترتبط الأعضاء مع بعضها البعض (أف ٤: ١٦) - أن نقدم له باتفاقٍ واحدٍ، وفم واحدٍ، وروح واحدٍ، تسبيح شكرنا الواجب له. لأن له المجد والقوة إلى أبد الأبد. آمين.

القديس يوحنا الذهبي الفم

ستعود بقوة أعظم

رسالتان إلى ثيؤدور بعد سقوطه

للقديس يوحنا الذهبي الفم

طبعة منقحة

٢٠٠٧

تعريب

القمص تادرس يعقوب ملطي

مُعربتان عن:

Nicene and Post-Nicene Fathers, Series 1 Volume 9.

Two Letters To Theodore After His Fall.

مقدمة

كان ثيؤدور صديقًا للقديسيْن يوحنا الذهبي الفم وباسيليوس (غير باسيليوس الكبير) في الحياة النسكية، ولكن أغواه جمال امرأة شابة حسنة الصورة تدعى *Hermoine*، فسقط في حبها ورغب في الزواج منها. سقط ثيؤدور الناسك في حب هذه المرأة، لكن سقطته الكبرى كانت تتركز في يأسه من قبول الله له وإمكانية عودته إلى حياته النسكية الأولى. رُفعتْ لأجله الصلوات، وبُذلتْ المجهودات، وأخيرًا أرسل إليه القديس يوحنا الذهبي الفم رسالتيْن سجلتا لنا أروع ما تحتاج إليه النفس اليائسة من علاج. كشفتا لنا عن مراحم الله غير المحدودة، وأحضانه المفتوحة على الدوام لقبول الخطاة والزناة، مهما بلغت خطاياهم، مع الحذر من أبشع شيطان، ألاّ وهو شيطان اليأس.

وقد أثمرت هاتان الرسالتان، فتاب ثيؤدور بل ورُسم قسًا وهو في الثالثة والثلاثين من عمره سنة ٣٨٣م، وأسقفًا على المصيصة (ما بين النهرين) *Mopsuestia* سنة ٣٩٢م، وتنيح سنة ٤٢٨م.

رسالة لك

هذه مقتطفات من الرسالة الأولى، سجلها لنا بطريرك مختبر إلى نفس حزينة منكسرة، أحست بخطاياها وخجلت من العودة إلى ربنا يسوع حبيبها وفاديها. فاستغل الشيطان الفرصة حتى يحرمها من مصدر حياتها.

وحاولت أن أقوم بتبويب الرسالة ووضع عناوين جانبية والاستغناء عن بعض العبارات للتبسيط، وأرجو ألاّ تفقد الرسالة بهذا كيانها كوحدة واحدة تتحدث عن موضوع واحد هو "**عدم اليأس**" أو "**الرجاء**". وفيما يلي أهم النقاط الواردة في هذا الكتيب:

أولاً: لا تيأس.

ثانيًا: لا تيأس فإن الله محب في تأديباته.

ثالثًا": لا تيأس قائلاً: هل تُقبَل توبة مؤمن سقط؟!

رابعًا: لا تيأس بينما الله يطلب جمالك.

خامسًا: لا تيأس، لماذا تستسلم؟!

سادسًا: لا تيأس من قوة التوبة.

المُعرِّب

لا تيأس!

اعرف قيمة نفسك

"يا ليت رأسي ماء، وعينيَّ ينبوع دموع" (إر ١: ٩). إنه الوقت المناسب لكي أنطق بهذه الكلمات الآن. نعم أكثر مما كان للنبي في أيامه. فإنني وإن كنت لا أبكي على خراب مدنٍ كثيرة بل وجميع المدن، فإنني **أنتحب من أجل النفس التي توازي كل هذه، بل وأكثر جدًا...**

إنني لا أحزن لأجل دمار مدينة أو أسرها بواسطة الأشرار، بل أحزن لأجل تدمير روحك المقدسة... وهلاك الهيكل الحامل للسيد المسيح وإبادته... هذا الهيكل أقدس من ذاك (هيكل العهد القديم)، فإنه لا يتألق بذهبٍ وفضةٍ، بل بنعمة الروح القدس، وبدل تابوت العهد وتمثاليْ الكاروبيم يوجد في القلب السيد المسيح وأبوه والباراقليط...

أما الآن بعد سقوطك، فالكل قد تغير، الهيكل خرب، وزال جماله وبهاؤه، ولم يعد بعد مزينًا بالزينات الإلهية غير المنطوق بها، بل صار مفتقرًا إلى كل حمايةٍ وحصانةٍ. فلم يعد له باب ولا متراس، بل صار مفتوحًا لكل سلوكٍ مدمِّر للنفس ولكل فكرٍ معيبٍ. فإن أراد فكر حب الظهور أو الزنا أو حب المال أو أكثر من هذه الأفكار دنسًا أن تدخل فيه، فليس ما يمنعها. أما قبل السقوط فقد كانت الروح في حصانة السماء التي لا يدخلها شيء من هذا.

يسوع قادر أن يقيمك

ربما يبدو كما لو كنت أنطق بأمور لا يصدقها من شاهد انحلالك وخرابك، فمن هذه الناحية أبكي منتحبًا، ولا أكف عن ذلك حتى أراك قائمًا في بهائك السابق مرة أخرى. فإنه وإن كان هذا يبدو مستحيلاً بالنسبة للبشر، لكن كل شيء مستطاع لدى الله. فهو "المقيم المسكين من التراب؛ الرافع البائس من المزبلة، ليجلسه مع أشراف شعبه" (مز ١١٣: ٧-٨). وهو "المُسكن العاقر في بيت أم أولاد فرحه" (مز ١١٣: ٩).

إذَن لا تيأس من تغَيُّيرك تغيُّرًا كاملاً.

إن كان الشيطان لديه هذه القدرة، أن يطرحك أرضًا من العلو الشامخ والفضيلة السامية، إلى أبعد حدود الشر؛ فكم بالأكثر جدًا يكون الله قادرًا أن يرفعك إلى الثقة السابقة، ولا يجعلك فقط كما كنت، بل وأسعد من ذي قبل.

لا تيأس، تطلع إلى الله!

لا تيأس ولا تطرح الرجاء الحسن، ولا تسقط فيما يسقط فيه الملحدون. فإنه **ليست كثرة الخطايا هي التي تؤدي إلى اليأس بل عدم تقوى النفس.**

توجد فئة معينة هي التي تسلك طريق اليأس عندما يدخلون طريق الشر، غير محتملين النظر إلى فوق، أو الصعود إلى فوق ما سقطوا إليه.

هذا الفكر الدنس (اليأس)، يثقل على عنق النفس كالنير فيُلزمها بالانحناء، مانعًا إيَّاها من أن تنظر إلى الله. لهذا فعمل الإنسان الشجاع والممتاز هو أن يكسر هذا النير قطعًا، ويزحزح كل ثقلٍ مثبتٍ فوقه، ناطقًا بكلمات النبي: "مثل عينيّ الأمة إلى يديّ سيدتها، كذلك أعيننا نحو الرب إلهنا، حتى يتراءف علينا. ارحمنا يا رب ارحمنا، فإننا كثيرًا ما امتلأنا هوانًا" (مز ١٢٣: ٢-٣).

يقول: "امتلأنا هوانًا"، وإننا تحت ضيقات لا حصر لها، ومع هذا لن نكف عن التطلع إلى الله، ولا نمتنع عن الصلاة إليه، حتى يستجيب طلبتنا. لأن **علامة النفس النبيلة، هي ألاّ تنحني من كثرة الكوارث التي تضغط عليها، أو تفزع منها، ولا تتراجع بعد عن الصلاة دفعات كثيرة... بل تثابر حتى يرحمها الله** كقول داود الطوباوي السابق.

تمسك بالرجاء عوض أفكار اليأس

يسحبنا الشيطان إلى أفكار اليأس، حتى يقطع رجاءنا في الله. **فالرجاء هو مرساة الأمان، ينبوع حياتنا، قائدنا في الطريق المؤدي إلى السماء، خلاص للنفوس الهالكة...** فقد قيل: "لأننا بالرجاء خلصنا" (رو ٨: ٢٤).

الرجاء، بالتأكيد يشبه حبلاً قويًا مُدلًّى من السماء، يعين أرواحنا، رافعًا من يمسك به بثباتٍ، فوق هذا العالم، وتجارب هذه الحياة الشريرة. فإن كان الإنسان ضعيفًا وترك هذه المرساة المقدسة، يسقط للحال، ويختنق في هوة الشر.

يعلم الشيطان ذلك، فعندما يدرك أننا متضايقون بسبب شعورنا بأعمالنا الشريرة، يضع في نفسه أن يلقي علينا حملاً إضافيًا أثقل من الرصاص، وهو القلق الناشئ عن اليأس. فإن قبلناه يتبع ذلك حتمًا سقوطنا إلى أسفل بسبب الثقل، تاركين ذلك الحبل، ساقطين في عمق البؤس الذي أنت فيه الآن، ناسين وصايا الله الوديع المتواضع، متوقعين إنذارات الطاغية القاسي وعدو خلاصنا الذي لا يغفو، كاسرين النير الهين وملقين عنا الحِمل الخفيف، لنضع بدلاً منهما طوقًا حديديًا، معلقين على رقابنا حجارة طاحونة ثقيلة...

لا تغلق الباب... أفرحني معك

المرأة التي وجدت الدرهم الواحد، دعت جاراتها ليشاركنها فرحتها قائلة: "**افـرحن معي**". وأما أنا فأستدعي كل أصدقائنا - أنا وأنت - لهدف مخالف، غير قائل لهم: "افرحـوا معي"، بل "ابكوا معي"، لأنه قد حدثت لي أشر خسارة. إنها ليست وزنات مـن ذهـب، أو كميات ضخمة من حجارة كريمة سقطت من يديّ، بل ما هو أثمن من كل هذا، فذلك الـذي كان يبحر معي في نفس البحر وعلى نفس القارب لست أعرف كيف انزلق من على ظهـر السفينة وسقط في هوة الهلاك...!

علينا فقط ألاّ نيأس، ولا ننمي فينا الخوف من الرجوع، لأنه من كان كذلك، فإنـه حتى إذا نال قوة وغيّرة بلا حدود تصير بلا فائدة...!

لا تكف عن الصراع

من يغلق على نفسه باب التوبة، ويمتنع عن الدخول في ميدان السباق، كيف يمكنه أن ينال أمرًا صالحًا، قليلاً كان أو كثيرًا، وهو في الخارج مربوط؟!

يستخدم الشرير كل الحيل ليزرع فينا فكر اليأس، فإن نجح في ذلك، لا يحتاج بعد إلى جهاد أو تعب في صراعه ضدنا، مادمنا منطـرحين وسـاقطين وغيـر راغبـين فـي المقاومة...

من يقدر أن يتخلص من هذه السلسلة، ويستعيد قوته، ولا يكف عن المقاومة ضـد الشيطان حتى آخر نسمة، حتى ولو سقط مرات كثيرة بلا عدد، مثل هـذا يقـوم ويـضرب عدوه. أما من كان في عبودية أفكار اليأس... فكيف يقدر أن يغلب وهو لا يقاوم بل يهـرب من أمام عدوه؟!

لا تيأس فإن:

الله محبُ في تأديبَاته

مفهوم غضب الله

غضب الله ليس انفعالاً، وإلاّ كان يحق للإنسان أن ييأس لعدم قدرته على إطفاء لهيب غضب الله المشتعل بسبب أعماله (أي الإنسان) الشريرة. لكن الله بطبيعته خالٍ من الانفعال حتى إن عاقب وإن انتقم، فإنه لا يصنع ذلك حنقًا، بل عن اهتمام بنا فيه حنان وعفو عظيم. وهذا يدفعنا إلى أن تكون لنا شجاعة عظيمة صالحة، وأن نثق في قوة التوبة.

لماذا يؤدب؟

الذين أخطأوا ولو في حقه، لا يرغب في معاقبتهم انتقامًا لنفسه، لأنه لا يصيب لاهوته ضرر، إنما يفعل ذلك لأجل نفعنا، لكي يمنع انحرافنا الذي يتزايد باستهتارنا وعدم مبالاتنا به.

فكما أن الذي يبقى خارجًا بعيدًا عن النور، لا يضر النور في شيء، بل تقع الخسارة العظمى عليه بكونه في الظلام، هكذا من اعتاد أن يحتقر القوة القادرة، لا يضر القوة بل يضر نفسه بأكبر ضرر ممكن. لهذا يهددنا الله بالعقوبات، بل وقد يصبها علينا، ليس انتقامًا لنفسه، بل كوسيلة لجذبنا إليه.

مثال

إننّي أسأل: مَنْ مِنَ الناس فسد أكثر من ملك بابل (نبوخذنصّر)، هذا الذي اختبر قوة الله بغزارة، حتى خضع لنبي الله (دانيال)، وأمر بتقديم تقدمات وبخور لله، لكنه عاد مرة أخرى إلى كبريائه السابق مُلقيًا في الأتون (الثلاثة فتية) الذين لم يمجدوه أكثر من الله؟!

ومع هذا كله، فقد دعا الله هذا الرجل القاسي، عديم التقوى، الذي هو بالأحرى حيوان مفترس أكثر منه مخلوق بشري، دعاه إلى التوبة، معطيًا إياه فرصًا كثيرة لذلك (للتوبة).

فالفرصة الأولى هي تلك المعجزة التي تمت في أتون النار(أي ظهور ابن الله مع الثلاثة فتية في وسط النار - دا ٣).

والفرصة الثانية هي تلك الرؤى التي ظهرت له، والتي فسرها له دانيال، هذه الرؤى الكفيلة بأن تسحق أي قلب حجري (دا ٤).

وبعد ذلك نصائح النبي نفسه الذي قال له: "أيها الملك، فلتكن مشورتي مقبولة لديك وفارق خطاياك بالبرّ وآثامك بالرحمة للمساكين لعله يُطال اطمئنانك" (دا ٤: ٢٧). ماذا تقول أيها الرجل الحكيم (دانيال) الطوباوي؟! هل يمكن أن تكون له فرصة للرجوع إلى الله بعد هذه السقطة العظيمة؟! هل تعود إليه الصحة بعد مرض كهذا؟! وهل يمكن أن تعود إليه رزانة عقله بعد جنون مطبق كهذا؟!...

مع هذا كله لم يعاقبه الله، بل استمر يُطيل أناته عليه ناصحًا إيَّاه تارة بالرؤى وأخرى على لسان نبيّه. ولكن إذ لم يحدث له أي صلاح، بأي طريق من هذه الطرق، أخيرًا صب الله عليه العقاب، "طُرد من بين الناس وتساوى قلبه بالحيوان وكانت سكناه مع الحمير الوحشية فأطعموه العشب كالثيران وابتلَّ جسمه بندى السماء" (دا ٥: ٢١). ولم يكن هذا العقاب للانتقام منه عما سبق أن فعله، بل لأجل قطع أسباب الخطية المقبلة، وليمنع تماديه في الشر.

ولم يصُب الرب عليه العقاب إلى الأبد، بل بعد أن استمر تأديبه له سنوات قليلة، أعاده ثانية إلى مركزه الأول دون أن تصيبه خسارة بسبب العقاب، بل على العكس استفاد أكبر فائدة ممكنة إذ نال إيمانًا بالله، وتوبة عن أفعاله الشريرة.

الله منتظر توبتك

هذا هو حنو الله أنه لن يُدير وجهه عن أية توبةٍ صادقةٍ، فحتى إذا كان الإنسان قد اندفع إلى أقصى حدود الشر، فعندما يعود إلى طريق الفضيلة، يقبله الله ويرحب به، ويصنع معه كل شيءٍ إلى أن يعيده إلى حالته الأولى.

يعمل الله بأقصى حدود الرحمة، حتى ولو لم يُظهر الإنسان توبة كاملة، فهو لا يتجاهل أمرًا صغيرًا أو زهيدًا، بل يعطى عن هذا جزاءً عظيمًا. ويظهر ذلك من قول النبي إشعياء: "من أجل إثم مكسبه غضب وضربته، استترت وغضبتُ، فذهب عاصيًا في طريق قلبه. رأيت طرقه وسأشفيه وأقوده، وأرد تعزيات له ولنائحيه" (إش ٥٧: ١٧-١٨).

وسنقتبس مثلاً آخر، وهو أشر الملوك كفرًا، الذي كان يخطئ بتأثير زوجته، لكنه ما أن تأسف ولبس المسوح، ودان أخطاءه حتى ربح لنفسه مراحم الله... فقد قال الله لإيليا: "هل رأيت كيف أتضع آخاب أمامي، فمن أجل أنه قد اتضع أمامي لا أجلب الشر في أيامه" (١ مل ٢١: ٢٩).

ليس فقط ما حدث مع هؤلاء، بل كلمات النبي تشهد بإبادة الله لأفكار اليأس، إذ قال: "اليوم إن سمعتم صوته. فلا تقسُّوا قلوبكم كما في مريبة" (مز ٩٥: ٧-٨). وكلمة "اليوم" هنا يقصد بها أية لحظة من لحظات الحياة، حتى ولو كنت في سن الشيخوخة، إن أردت. فالتوبة لا تُحسَب بعدد الأيام بل بحالة الروح.

لم يكن أهل نينوى بحاجةٍ إلى أيامٍ كثيرةٍ لإزالة خطاياهم، بل جزء صغير من يومٍ كان كافيًا لسحق شرورهم.

واللص أيضًا لم يكن محتاجًا إلى فترة طويلة للدخول إلى الفردوس، بل في تلك اللحظة القصيرة التي احتملت كلمة واحدة، غُسلتْ خطاياه التي ارتكبها كل أيام حياته. لقد نال المكافأة الموهوبة له من الله قبل أن ينالها الرسل.

ونحن نرى **الشهداء** وقد نالوا أكاليل المجد لا بعد عدة سنوات، بل بعد أيام قليلة، وغالبًا ما كانت تتم في يوم واحد (أي كان بعضهم يَقْبَلُ المسيحية ويستشهد في نفس اليوم).

لذلك فنحن في حاجة إلى غيرة في كل اتجاه، واستعداد عظيم للفكر، فإن هيأنا الضمير لكي يكره شرورنا الماضية، ويختار الطريق الآخر بأكثر نشاط، بحسب إرادة الله ووصاياه، فسننال خيرًا كثيرًا في فترة زمنية وجيزة، فكثيرون كانوا آخرين لكنهم سبقوا الأولين.

لا تيأس قائلاً:

هل تُقبَلُ توبة مؤمنٍ سقط؟!

الرجوع أمر طبيعي

السقوط في ذاته ليس بالأمر الخطير، بل يكمن الخطر في البقاء منطرحًا بعد السقوط، وعدم القيام مرة أخرى. فالجُبن، أي الخوف والكسل يخفيان نيّة الضعف الخلقي تحت حجة "اليأس".

لهؤلاء أيضًا ينطق النبي في حيرة قائلاً: "هل يسقطون ولا يقومون، أو يرتد أحد ولا يرجع" ؟! (إر ٨: ٤).

فإن طلبت منيّ أمثلة عن أشخاص سقطوا بعد الإيمان، فإن كل ما كُتِبَ في الكتاب المقدس يخص هؤلاء الأشخاص، لأن الذي يسقط ينتسب سابقًا إلى الذين لازالوا قائمين، وليس إلى الذين مازالوا مطروحين، لأنه كيف يسقط أحد من المطروحين؟!

أمثلة

١. **الخروف الذي انفصل عن التسعة والتسعين** ورجع ثانية (لو ١٥: ٤-٥)، لا يُمَثِّل لنا سوى السقوط ثم العودة إلى الإيمان. لأنه لم يكن خروفًا من قطيعٍ غريبٍ، بل ينتمي إلى نفس قطيع المؤمنين، وكان يرعاه نفس الراعي، ولم يضل في مكانٍ عامٍ، بل تاه بين الجبال في الوادي أي في رحلة طويلة، بعيدًا جدًا عن الطريق المستقيم...

لقد أعاده الراعي دون أن يطرده أو يضربه، بل حمله على كتفيه!

فكما يتعهد الأطباء بعناية من طالت مدة مرضهم كثيرًا، غير مستخدمين قوانين وفنون الطب فحسب بل وأحيانًا يعطونهم هبات، هكذا يقود الله من سقطوا بعيدًا جدًا، لا بقسوةٍ شديدةٍ، بل بلطفٍ وبتدرجٍ، ويعينهم من كل جانبٍ، حتى لا يزداد انفصالهم أو تتكاثر أخطاؤهم.

٢. ونفس الحقيقة تنصب على **مثل الابن المُسرِف.** فهو أيضًا لم يكن غريبًا، بل كان ابنًا وأخًا لابن يُسرّ أبوه به جدًا، وقد غرق في رذيلة شاذة، وذهب إلى أرض بعيدة جدًا، أي أرض الخطية.

لقد سقط الابن الغني، الحر، المهذب، في أشد درجات البؤس، أشد مما كان عليه العبيد والغرباء والأجراء! ومع ذلك فقد رجع إلى حالته الأصلية، وأُعيدتْ إليه كرامته

السابقة. فلو تطرق إليه اليأس من هذه الحياة، واغتم بسبب ما سقط فيه، لبقي في الأرض الغريبة ولم يحظَ بما ناله، ولهلك من الجوع، وسقط في الموت الذي يُرثَى له. لكنه إذ تاب ولم ييأس، أنقذ ما هلك هلاكًا عظيمًا، ورجع حائزًا على نفس المقام الأول، لابسًا الثوب الجميل، متمتعًا بالكرامات العظيمة التي لم ينلها أخوه الذي لم يسقط...

عظيمة هي قوة التوبة!

٣. **الشاب الساقط:** اسمعْ الآن بعضًا مما قد حدث في أمثلة واقعية. فقد ارتكب شخص معروف من أهل كورنثوس في خطية لا تُسمى (لا تحدث) بين الأمم. هذا الشخص كان مؤمنًا وينتمي إلى بيت السيد المسيح، ويقول البعض إنه كان في ذلك الوقت من رجال الكهنوت.

ماذا إذن؟ هل قطعه القديس بولس الرسول عن الشركة مع من هم في طريق الخلاص؟ كلا. فإن القديس بولس الرسول الذي انتهر أهل كورنثوس مرات عديدة لأنهم لم يقدموا له فرصة للتوبة، كان يرغب في أن يبرهن لنا أنه ليست خطية بلا علاج، فقد قال عن ذلك الرجل الذي كانت خطيته أشنع من أن يفعلها الأمم: "أن يُسلَّم مثل هذا للشيطان لهلاك الجسد لكي تخلُص الروح في يوم الرب يسوع" (١ كو ٥: ٥). لكنه بعد ما تاب قال: "مثل هذا يكفيه هذا القصاص الذي من الأكثرين" (٢ كو ٢: ٦)، موصيًا إيّاهم في رسالته الثانية أن يقبلوا ذلك الشخص مرة أخرى ويرحبوا بتوبته حتى لا يهلكه الشيطان...

جهنم لم تُعَد لنا

ليتنا نرجع إلى الله، أيها الحبيب، ونتمم مشيئته. فقد خلقنا وأوجدنا لنكون شركاء في الحياة الأبدية وليس لكي يطرحنا في جهنم أو يُسلِّمنا للنار. لأن **جهنم للشيطان وليست لنا، وأما نحن فقد أُعِدَّ لنا الملكوت منذ زمن بعيد.**

وفي شرح هذه الحقائق، قال السيد للذين عن اليمين: "تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المُعدّ لكم منذ تأسيس العالم" (مت ٢٥: ٤٠). وأما الذين عن اليسار، فيقول لهم: "اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية"، وهنا لم يقل: "المُعَدَّة لكم"، بل "المُعَدَّة لإبليس وملائكته" (مت ٢٥: ٤١).

ليتنا لا نحرم أنفسنا من الدخول إلى حجرة العروس. فطالما نحن في هذا العالم، مهما كانت خطايانا بلا حصر، فيمكن غسلها بالتوبة الصادقة عما ارتكبناه.

أما عندما نرحل إلى العالم الآخر فلن تنفعنا أعمق توبة، ولو صررنا على أسناننا وقرعنا صدورنا ونطقنا بكل عبارات الاستغاثة. فإنه لن يبرد أجسادنا المحترقة بقطرة ماء ولا بطرف إصبعه، ولن نسمع سوى تلك الكلمات التي قيلت في مَثَل الغني: "بيننا وبينكم هوَّة عظيمة" (لو ١٦: ٢٦).

لذلك أطلب إليك أن تشفي حواسك حتى تعرف الله كما ينبغي أن يُعرَفَ. لأن الرجاء لا يتبدد إلا في الهاوية، حيث يصير العلاج عديم الفائدة... أما هنا فمتى استخدمناه، ولو كنا مُسنين، فإنه يجلب لنا قوة عظيمة.

لهذا فإن الشيطان يستخدم كل الطرق حتى يبذر فينا بذور اليأس، لأنه يعلم أننا إن تُبنا، ولو قليلاً، فسننال مكافأة. وكما أن الذي يقدم كوب ماء بارد لا يضيع أجره. هكذا مَنْ يقدم توبة عن شروره التي ارتكبها ولو لم تكن بقدر ما تستلزم شروره، فإنه لا يضيع أجره. فالحاكم العادل لا يغفل عن أي شيء صالح، مهما كان صغيرًا. لأنه إن كان في يوم الدينونة يدقق في خطايانا، حتى أنه يحاسبنا عن كل كلمةٍ وكل فكرٍ، فبالأكثر جدًا يدقق في أعمالنا الصالحة، سواء كانت كبيرة أو صغيرة...

عليك فقط أن تتقدم للعمل، وتفتح باب الدخول إلى موضع الجهاد، وبقدر ما تتأخر في الخارج سيبدو لك العمل صعبًا وغير عملي.

فقبل القيام بالعمل تبدو لنا الأمور البسيطة والسهلة بحسب مظهرها، أنها صعبة علينا جدًا. لكننا إذ بدأنا نعمل تزول المخاطرة، وتحتل الثقة مكان الريبة واليأس، ويقل الخوف، وتزداد سهولة العمل ويقوى رجاؤنا الصالح...

لو كنتُ بالحقيقة أطلب منك أن تصعد إلى حالتك الأولى دفعة واحدة، لكان من الطبيعي أن تشتكي بأن هذا صعب، لكن كل ما أطلبه منك هو أن تستعد وترتد إلى الاتجاه المضاد، فلماذا تتردد وترتجف وتتقهقر؟!

تذكَّرْ يوم الدينونة: زُرْ المدافن

ألم تنظر أولئك الذين ماتوا وهم في ترفهم وسكرهم ولعبهم وغير ذلك من حماقات هذه الحياة؟! أين هم الآن أولئك الذين اعتادوا أن يتبختروا زهوًا في الأسواق في أُبّهة وقد تجمهر حولهم أتباعهم؟! الذين لبسوا الحرير وتعطَّروا بالروائح وامتلأتْ موائدهم من الفراديس وشاهدوا المسارح بلا انقطاع؟! ماذا صار إليه كل ما استعرضوه؟!...

لتذهب إلى التابوت (نعش الميت) ولتتأمل التراب والرماد والدود، فكرْ في المكان الذي تعافه النفس؛ وتنهد بمرارة.

اذكر نهاية الأشرار

ليت الجزاء يقف عند حد الرماد! والآن فلتنتقل أفكارك من التابوت، ومن ذلك الدود إلى الدود الذي لا يموت، والنار التي لا تُطفأ، وصرير الأسنان، والظلمة الخارجية والحزن والضنك، انتقل بأفكارك إلى مثل لعازر والغني. الذي بالرغم مما كان يملكه من الغنى وما يلبسه من الأرجوان، لم يقدر أن ينال حتى قطرة من الماء.

عندما تسمع عن النار لا تظنها كنار هذا العالم. لأن نار هذا العالم تحرق وتبيد ما اشتعلت به، أما تلك فتحرق على الدوام أولئك الذين أمسكتْ بهم ولا تكف عن ذلك، لذلك دُعِيتْ "لا تُطفأ". لأن أولئك الذين أخطأوا سيبقون فيها على الدوام، لا للمجد بل ستصير لهم مادة دائمة لنوال العقاب الذي يعمل فيهم إلى الأبد.

ياله من أمر مرعب! إن اللغات تعجز عن التعبير عنه! ستصرُّ أسناننا بسبب أعمالنا وآلامنا التي لا تُطاق، وليس هناك من ينقذنا!

نعم، سنتنهد بقوة حيث تصيبنا النيران بقسوةٍ، وليس من منقذٍ من أولئك الذين يُعاقَبون معنا وهم في خراب عظيم!

كيف يمكن لأحد أن يصف رعب النفوس من الظلام؟! فكما أن النار ليس لها سلطان أن تبيد، كذلك ليست لها قدرة على الإضاءة، وإلاّ ما كان هناك ظلام...

أي ترف (في هذا العالم) وكم من الزمن تظن أنه يعادل هذه العقوبة وذلك الانتقام؟ أتظن أن مائة عام أو مائتين تعادل ذلك؟ وماذا يساوي هذا الزمن بجوار الزمن غير المحدود؟!

فالتمتُّع بالأمور الزمنية عند مقارنتها بحالنا في العالم الآتي ليس إلاّ حلمًا في يومٍ واحدٍ وسط كل الحياة. فمن منّا يقبل أن ينال عقابًا أبديًا لأجل رؤية حلم طيب؟!

اذكر سعادة الأبرار

أطلبُ إليك أن تتأمل الحياة الأخرى، ما أصعب أن نتأملها! لا تستطيع لغة أن تُعَبِّر عنها، لكننا نحاول أن نأخذ لها صورة ولو غير واضحة، مستعينين بما أُخبرنا به، كما لو كان خلال ثقوب...

أية حياة مباركة هذه؟ لا يمكن أن يوجد فيها خوف ولا فقر ولا مرض. ويستحيل أن نجد إنسانًا يضره أحد أو يضر أحدًا، ينتهر أو يُنتهر، غضوب أو حاسد، أو محترق بأية شهوة مشينة، أو يقلق لأجل نوال ضروريات الحياة أو يتحسر على فقدان كرامة أو سلطان. لأن كل الآلام تُقمع وتزول، ويصير الكل في سلامٍ وسرورٍ وفرحٍ، وتسير كل الأمور في هدوء، وتكون في نهارٍ دائمٍ وضياءٍ ونورٍ ليس مثل هذا النور الذي في العالم... فلا يكون ليل غروب، لا برد ولا حر، ولا تعاقب مواسم...

وأما ما هو أعظم من هذا كله، فهو الفرح الدائم في الشركة مع السيد المسيح، في صُحبَة الملائكة ورؤساء الملائكة والقوات السمائية...

حقًا إن أغلب الذين ليس لهم هدف سليم معقول، يصارعون من أجل الهروب من جهنم، لكنني أقول بأن **العقاب الأشد من الجحيم هو حرماننا من أمجاد العالم الآتي. وأظن أن من يفشل في بلوغها ينبغي ألاّ يحزن بسبب ما يعانيه في جهنم بقدر ما يحزن على طرده من السماء. لأن هذا في ذاته أقسى عقوبة...**

لماذا تيأس بينما:

الله يطلب جمالك!

مقدمة[1]

خلق الله النفس البشرية على صورته ومثاله، وهذا الخلق لم يكن بإرادة الإنسان، إذ كان عدمًا. أما بعد خلقته، فقد صارت له إرادة حرة لأنه على مثال الله. بهذه الإرادة الحرة كان يمكن أن يسمو ويتقدم في المعرفة والمجد خلال الالتصاق الدائم بالله. لكن للأسف أفسدت النفس جمالها، واحتاجت إلى يد الخالق أن تعمل فيها، وذلك إن أرادت النفس، لأن لها مطلق الحرية.

بالصليب صار للنفس البشرية أن تطلب - إن أرادت - يد الخالق ليعيدها إلى جمالها الأول. وهي في ذلك تنمو يومًا فيومًا، وتبرز فيها ملامح صورة الله إلى أن يأتي يوم الدينونة فتكون لنا صورة كاملة له، فننعم بشركة المجد. نحن الآن في العالم في دور التكوين، إما أن نطلب يد الله حتى ينمو الإنسان الجديد الذي له صورة الله ويُغلب الإنسان القديم، أو نرفض عمله فيّنا، فنفك رباطات الإنسان القديم أي الصورة المشوهة فيّنا ولا يكون لنا نصيب مع الفادي.

وقد قارن القديس يوحنا الذهبي الفم بين خلقة الإنسان وهو في الرحم، وخلقة الإنسان الجديد (نموها كل يوم) في هذا العالم. فرأى أن كليهما يعيشان في عالم ضيق مملوء بالمتاعب، وأن كليهما تبرز فيهما الملامح يومًا فيومًا. وأنه إذا وُلد أحدهما قبل الموعد ينزل من ضيق إلى ضيق أخطر.

غير أن هناك فارقًا شاسعًا بين الاثنين، فالإنسان يُخلَق في رحم أمه رغم إرادته، ولا يُؤخذ رأيه في لونه أو جمال وجهه أو طوله الخ. أما النفس البشرية فلها أن تمسك يد الفادي ليخلق لها الصورة التي تطلبها، إن اشتاقت إلى ملامح المحبة الإلهية أو ملامح السلام أو الوداعة أو التعفف أو الصلاح. كل هذا ترسمه يد الله في القلب. فالله ساكن فيه ومستعد أن يعمل، لأنه "يريد أن جميع الناس يخلصون، وإلى معرفة الحق يقبلون" (١ تي ٢: ٤)، لكنه ينتظر قبول النفس البشرية لعمله فيها.

---

[1] هذه المقدمة من وضع المعرب لتبسيط فكرة القديس يوحنا الذهبي الفم.

يؤكد القديس يوحنا الذهبي الفم أن الله لم يهبنا السلطان لتشكيل أجسادنا بالجمال الذي نشتهيه حتى لا ننشغل بها عن الانشغال بتشكيل أرواحنا بالجمال اللائق بها خلال نعمته الإلهية.

نحن في دور الخلقة

إننا في هذا العالم نشبه الجنين في الرحم. فنحن قاطنون في هذا العالم الضيق، وغير قادرين هنا أن ننال مجد الحياة الأخرى وحريتها (مهما فعلنا). لكن متى جاء موعد رحيلنا، يوم يقذف هذا العالم بالإنسان إلى يوم الدينونة (كما يقذف الرحم بالجنين). فإن الذين أجهضهم العالم (أي كانوا سقطًا لم يكتمل نموهم)، يخرجون من الظلمة إلى ظلمة أحلك، ومن حزنٍ إلى حزنٍ أشد؟

أما الذين كمُل تكوينهم (أي يُولدون أحياء) لهم ملامح الصورة الملوكية، فإنهم يُقدمون إلى الملك ويقومون بالخدمة التي للملائكة ورؤساء الملائكة نحو إله الكل.

لذلك أطلب إليك أيها الصديق ألاّ تزيل تلك الملامح (العلامات) تمامًا، بل أصلحها بسرعة، واختمها على نفسك بأكثر كمال.

تستطيع بالنعمة الإلهية تشكيل روحك

حقًا لقد ثبَّت الله الجمال الجسدي في حدود الطبيعة (أي لا يقدر الإنسان على تشكيل جسده)، أما نعمة الروح فتُعتق من الحبس والعبودية، صاعدة من هذه الحالة، بقدر ما تسمو كثيرًا عن أي تناسق جسدي، وهي **تعتمد في ذلك علينا (أي إرادتنا) وعلى نعمة الله.**

فسيدنا، بكونه رحيمًا، شرّف جنسنا في هذا الطريق الخاص، تاركًا للطبيعة أن تختص بتشكيل الأمور الصغيرة (الجسد) التي لا تساهم كثيرًا في نفعنا. ففي سلطانها أمور غير هامة، **أما نحن فقد جعلنا فنانين فيما يختص بالأمور التي هي بحق هامة (أي بإرادتنا نُسلِّم لنعمة الله أن تشكل النفس وتجمّلها).**

فلو ترك الله لنا أن نشكل أجسادنا، لأصبحنا في قلقٍ متزايد، وأضعنا كل أوقاتنا في أمور لا تنفع، وبالتالي كنا سنهمل الروح إهمالاً زائدًا.

وبالرغم مما نحن عليه، من عدم إعطائنا هذا السلطان (في اختيار وتشكيل أجسادنا)، نقوم بمجهودات جبارة، **وإذ لا نقدر أن نحصل على جمالٍ جسدانيٍ حقيقي، ندبِّر بدهاء تقليدات كثيرة، باستخدام المساحيق والأصباغ، والتزين بشعر مستعار، والحُليّ،**

واستخدام أقلام للحواجب... وكثير من الحيل. فلو أعطيت لنا القدرة على تشكيل الجسد تشكيلاً حقيقيًا، فهل سيكون لنا الوقت الذي نخصصه للنفس وللأمور الخطيرة؟!

لو فرضنا أن هذا هو عملنا، ما كان يشغلنا عمل آخر، بل كنا نقضي كل زماننا فيه، مُزينين الجارية (الجسد) بزخارف لا حصر لها، تاركين سيدتها (النفس) في حالة مشوهة ومهملة. لهذا السبب أعفانا الله من العمل غير المفيد، واضعًا فينا قوة العمل في العنصر النبيل (النفس).

فمن لا يقدر أن يغيّر جسده القبيح إلى شكل جميل، يستطيع أن يسمو بالنفس، حتى ولو كانت قد انحدرت إلى أقصى حدود القبح، ليصل بها إلى قمة الجمال. ولا يجعلها محبوبة ومرغوبًا فيها من الصالحين فحسب، بل ومن الله ذاته سيد الكل وإلههم، حتى أن المرتل عندما نطق بخصوص هذا الجمال قال: "فيشتهي الملك حسنك" (مز ٤٥: ١١).

الله يقبل الزناة

ألا ترى أنه حتى في بيوت العاهرات، بصعوبة يقبل الفائزون في المصارعة والعبيد الهاربون النساء قبيحات المنظر؟!

وإن سقطت إحدى النساء الجميلات الصورة، ذات الأصل الطيب، الوديعة، لظروف سيئة، أفلا يخجل أي شخص من العظماء أن يتزوج منها؟!

وكما أن بعض الرجال المملوئين شفقة ذوي الأمجاد العظيمة، يعتقون نسوة من عبوديتهن، اللواتي كن بلا كرامة في بيوت العاهرات، ويقبّلونهن زوجات لهم، هكذا يصنع الله أكثر من هذا مع تلك النفوس التي اغتصبها الشيطان، فسقطت من حالتها النبيلة الأولى وصارت زانية في هذه الحياة.

لقد امتلأت أسفار الأنبياء بأمثلة من هذا النوع، عندما خاطبوا أورشليم التي سقطت في الزنا... فكما يقول حزقيال: "لكل الزواني يعطون هدية، أما أنتِ فقد أَعطيتِ كل محبيك هداياكِ، ورشيتِهم ليأتوكِ من كل جانب للزنا بك" (حز ١٦: ٣٣). وقال آخر: "في الطرقات جلست كأعرابي في البرية" (إر ٣: ٢). وهذه الإنسانة (أورشليم) التي ارتكبت الزنا بهذه الصورة، دعاها الله مرة أخرى، وحتى عندما سمح بأسرها لم يكن للانتقام منها بقدر ما كان لإصلاحها...

إن كان الله لم يتخلَ عن توبة هذه التي ارتكبت الزنا دفعات كثيرة، كم بالأكثر يقبل نفسك التي سقطت لأول مرة؟!

انظرْ إلى مقدمة إرميا وإلى أسفار الأنبياء، عندما احتقر الشعب الرب وذمُّوه، كيف أسرع هو إليهم وجدَّ في طلب صداقة من تركوه.

وهذا أيضًا ما أظهره بوضوح في الأناجيل قائلاً: "يا أورشليم، يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا" (مت ٢٣: ٣٧). وكما كتب القديس بولس الرسول إلى أهل كورنثوس قائلاً: "إن الله كان في المسيح مصالحًا العالم لنفسه غير حاسبٍ لهم خطاياهم، وواضعًا فينا كلمة المصالحة، إذ نسعى كسفراء عن المسيح كأن الله يعظ بنا. نطلب عن المسيح تصالحوا مع الله" (٢ كو ٥: ١٩-٢٠).

تأمل فإن هذا قد قيل لأجلنا.

جمال الجسد

إنني أعلم أنك مُعجَبٌ الآن برشاقة هيرموان *Hermoine* (المرأة التي كان يحبها)، وقد حكمت عليها بأنه لا يوجد في العالم من يضارع جمالها.

أيها الصديق... إن أردت، تقدر أنت نفسك أن تضارعها في حُسنها وجمالها، كما تضارع التماثيل الذهبية تلك التي من الطين. لأنه إن كان جمال الجسد يسحر عقول الرجال ويثيرها، فكم يكون جمال الروح وحسنها عندما تتألق؟!

ما هو مصدر هذا الجمال الجسدي، إلاَّ ما فيه من لعاب ودم وعصارة صفراء وطعام ممضوغ؟!... إن تأملت ما في داخل العينين الجميلتين والأنف المستقيم والفم والوجنتين، فسوف لا تجد هذه الأعضاء الجميلة سوى كونها قبورًا مبيضة مملوءة في الداخل قاذورات.

تصور أنك رأيت خرقة بها قليل من اللعاب، أما تأنف من أن تلمسها حتى ولو بأطراف أصابعك؟! لا بل ولا تحتمل النظر إليها، ومع ذلك تنخدع بتأثير مخزن هذه الأشياء؟!

جمال الروح

أما جمالك أنت فليس من هذا النوع، بل يفوق جمالها، كما تسمو السماء عن الأرض، بل بالحري أكثر من ذلك وأبهي ... وان كان لم يرَ أحًد روحًا بذاتها منفصلة عن الجسد، إلاَّ أني مع هذا سأحاول أن أُقَدِّمَ لك جمال الروح بطريق آخر، أقصد حالة القوات السمائية العظيمة.

اسمعْ فإن جمال هذه القوات بهر دانيال الرجل المحبوب. فمع أنها (الملائكــة) لــم تظهر له في طبيعتها الأصلية كما هي، بل في ظلام وبطريقة قاتمة، إلاَّ أنها أضاءت بلمعان عظيم هكذا، فكم بالأكثر تكون صفات طبيعتها عندما تتحرر من هذا الحجاب؟!

إن هذا يُظهر إلى حد ما صورة جمال الروح "لأنها مثل ملائكة الله" (راجع لو ٢٠: ٣٦)...

لماذا تستسلم؟!

لا تقف جامدًا

إن كل ما أسألك إياه، هو أن تحرر نفسك من عبوديتك الشريرة، وأن تسترد الحرية القديمة، آخذًا في اعتبارك العقاب الناجم عن فجورك، والمجد الذي كان لـك فـي حياتـك الأولى. فإن غير المؤمنين لا يبالون بالقيامة ولا يخافون الدينونة، وهذا لـيس بعجيـبٍ... أما نحن الذين سرنا بثبات وراء العالم الآتي أكثر من الأمور الزمنية، فإن قضينا حياتنا في طريق البؤس المُحزِن ولا نتأثر قط بذكر الأمور السماوية، بل نسقط في جمود زائد، فإن هذا يكون أمرًا سخيفًا إلى أبعد الحدود. لأننا إن كنا نحن المؤمنون نصنع ما يفعله غير المؤمنين بل نكون أحيانًا أبأس منهم، لأن من بينهم من يسلك في الفضيلة، فأية تعزية تكون لنا، وأي عذر نقدمه؟

حقًا إن كثيرين من التجار الـذين غرقـت سـفنهم، لـم يستـسلموا بـل كملـوا رحلاتهم. وهذا يحدث عندما تكون الخـسارة ناجمـة لا عـن إهمـال بـل بـسبب شـدة الرياح، فهل يليق بنا نحن الذين لنا ما يدعونا إلى الثقة بخصوص نهايتنـا، متأكـدين أننـا إن لم نشأ، لن يصيب سفينتنا أي هلاك، ولن يحدث لنا أي حـادث يـنجم عنـه خـسارة، ألاَّ نعود مرة أخرى إلى العمل ونستمر في الجهاد كما كنا في الماضي أم نتكاسـل وتقـف أيدينا؟!

وليت أيدينا تقف فقط بل نستخدمها ضد أنفسنا كمن هم في جنـون مطبـق! لأنـه لو ترك أي ملاكم رأسه بين يديّ خصمه، أما يحسب هذا جنونًا؟!

فالشيطان أسقطنا وطرحنا، أما نحن فعلينا أن نقوم ولا نسقط مرة أخـرى، غيـر طارحين أنفسنا لنضيف إلى ضرباته لنا ضربات أخرى.

داود لم يستسلم

داود الطوباوي، كانت له سقطة كتلك التي أنت سقطتَّ فيها، بل وتلاهـا سـقطات أخرى، أقصد بذلك أنه كان قاتلاً.

ماذا إذن؟ هل بقي منطرحًا؟

ألم يقم في الحال مرة أخرى بقوة ووقف يحارب العدو؟

حقًا إنه صارع معه بشجاعة، حتى صار حافظًا لنسله بعد وفاته. لأنه عندما أخطأ سليمان خطية عظيمة، كان يستحق ميتات كثيرة. لكن الله قال له إنه سيترك له المملكة بدون انقسام: "فإني أمزق المملكة عنك تمزيقًا وأعطيها لعبدك. إلاَّ أني لا أفعل ذلك في أيامك من أجل داود أبيك بل من يد ابنك أمزقها" (١ مل ١١: ١١-١٢).

ومرة أخرى، عندما أوشك حزقيا أن يسقط في خطر عظيم بالرغم من كونه إنسانًا بارًا،، أنقذه الله من أجل هذا القديس. "وأُحامي عن هذه المدينة لأخلصها من أجل نفسي ومن أجل داود عبدي" (٢ مل ١٩: ٣٤).

يا لعظمة قوة التوبة!... فلو ردد داود في نفسه، كما تفعل أنت الآن، قائلاً في نفسه: الله أعطاني كرامة عظيمة، ووهبني مكانًا بين الأنبياء، وائتمنني على حكم المدينة، وخلصني من بلايا كثيرة، فكيف أقدر أن أحوز رضاه بعد ما عصيته مرتكبًا أشنع الجرائم، رغم نعمه الكثيرة عليّ؟! لو فكر داود هكذا، لما فعل ما صنعه بعد ذلك، بل كان قد أضاف إلى ثقل خطاياه أثقالاً أخرى.

لا تستسلم بسبب الجراحات الروحية

ليس فقط الجراحات الجسدية، بل جراحات الروح تؤدي إلى الموت إن أُهملتْ.

لقد وصلنا إلى هذا الحد من الانحدار في الغباء، حتى أننا نعطي اهتمامًا للجراحات الجسدية ونترك الأخرى. وبالرغم من أنه كثيرًا ما تكون بعض الجراحات الجسدية صعبة الشفاء، لكن رجاءنا في شفائها لن يزول، فحتى إن سمعنا الأطباء يشهدون باستحالة علاجها بالأدوية فإننا نصمم أن نطلب نصيحة ولو للتخفيف عنها. أما بالنسبة للروح، فحيث لا يوجد فيها مرض يستحيل شفاؤه، إذ لا تخضع لقانون الطبيعة، نهمل ونيأس كما لو كانت ضعفات لا تُعالَج.

فحيث تقتضي طبيعة الفساد أن نيأس، نقبل الآلام كما لو كان هناك رجاء عظيم في العودة إلى الصحة، بينما حيث يوجد مجال للرجاء، لا ننقطع عن الجهاد ونتوانى!... إننا نهتم بالجسد أكثر بكثير من الروح، وهذا هو السبب الذي يجعلنا غير قادرين حتى على خلاص الجسد. لأن من يزدرى بعنصر القيادة ويصب اهتمامه على الأمور الصغيرة، يُهلك الاثنين معًا... وأما من يهتم بالعنصر الذي يقوم بالقيادة، فإنه حتى إن أهمل العنصر الثانوي، فإن الأول يحفظه...

وإن استسلمت، فأنا لي رجاء فيك

إن كنت تيأس من نفسك عشرة آلاف مرة، فأنا لن أيأس من خلاصك. إنني لن أخطئ هذه الخطية التي أنتهر الآخرين عنها. ومع ذلك فإن رجاء الإنسان في نفسه يختلف عن رجائه في آخر. لأن من يشك بخصوص آخر قد يكون له عذر، لكن من يشك في رجاء نفسه فهو بلا عذر.

لماذا أصلي؟... لأنه ليس لي سلطان للسيطرة على غيّرة الآخرين وتوبتهم، إذ لا يسيطر الإنسان إلاَّ على غيّرته وتوبته. **ومع هذا فأنا لا أيأس من خلاصك، حتى وإن سلكت أنت في طريق اليأس دفعات كثيرة.**

الأمميون لم يستسلموا !

عندما سمع أهل نينوى يونان النبي يعلن بلهجة قاسية ويهدد بشدة: "بعد أربعين يومًا تنقلب نينوى"، لم تضل قلوبهم، بالرغم من عدم وجود ثقة لديهم أنهم يقدرون على إزالة غضب الله.

لقد كان المتوقع هو العكس، لأن رسالة الله على فم يونان كانت واضحة ولم يذكر فيها شيء عن قبولهم إن رجعوا، لكنهم أعلنوا التوبة قائلين: "لعل الله يعود ويندم ويرجع عن حمو غضبه فلا نهلك. فلما رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة ندم الله على الشر الذي تكلم أن يصنعه بهم فلم يصنعه" (يونان ٣: ٩-١٠).

فإن كان الأمميون غير الفاهمين استطاعوا أن يدركوا هذا، كم بالأكثر ينبغي علينا نحن الذين تدربنا في التعاليم الإلهية، ورأينا أمثلة كثيرة من هذا النوع في التاريخ وفي اختباراتنا الحالية؟!...

إن كنا نقبل في بيوتنا عبيدًا سبق أن أعلنوا عصيانهم علينا، بمجرد وعدهم أنهم سيصيرون أفضل مما كانوا، فنردهم إلى مراكزهم الأولى، وأحيانًا نهب لهم حرية في الكلام أكثر من الأول، فإن الله يفعل بنا أكثر من هذا. لأن الله لو كان قد خلقنا لكي يعاقبنا لكان يحق لك أن تيأس، وأن تسأل عن إمكانيتك في الخلاص. لكن إن كان لم يخلقنا إلاَّ بحسب إرادته الصالحة، ويقصد أن يمتعنا بالبركات الأبدية، مدبِّرًا كل شيء لأجل تحقيق هذا الهدف، منذ اليوم الأول إلى وقتنا هذا، فكيف يتسرب إليك الشك؟!

استسلامك أشر من خطاياك

هل نحن أغظنا الله بقسوة لم يرتكبها أحد من قبل؟ إن هذا بالحري يجعلنا نكف عن أعمالنا الماضية، ونتوب عما سلف، ونُظهِر تحولاً عظيمًا. لأن الشرور التي ارتكبناها لا تغيظ الله قدر عدم رغبتنا في التغيير. لأن **من يخطئ يكون قد سقط في ضعف بشري، وأما من يستمر في نفس الخطية، فإنه يبطل إنسانيته ليصير شيطانًا.**

انظرْ كيف يلوم الله على فم نبيه العمل الثاني أكثر من الأول: "فقلت بعدما فعلت كل هذه ارجعي إليَّ، فلم ترجع" (إر٣: ٧).

قوة التوبة

ستعود بقوة أعظم

الذين أظهروا عنفًا زائدًا في شرورهم، يظهرون نفس الغيرة عند عودتهم إلى الحياة الصالحة، وذلك لشعورهم بثقل الدين العظيم المدينون به. هذا ما أعلنه السيد المسيح عندما حدَّث سمعان عن المرأة الخاطئة: "انظر هذه المرأة. إني دخلت بيتك وماء لأجل رجلي لم تعطِ. وأما هي فقد غسلت رجليَّ بالدموع، ومسحتهما بشعر رأسها. قُبلَة لم تُقَبِّلني. وأما هي فمنذ دَخلتُ لم تكف عن تقبيل رجلي. بزيت لم تدهن رأسي. وأما هي فقد دهنت بالطيب رجلي. من أجل ذلك أقول لك قد غُفرتْ لها خطاياها الكثيرة لأنها أحبت كثيرًا. والذي يغفر له قليل يحب قليلاً " (لو ٧: ٤٤-٤٧).

لهذا السبب أيضًا، إذ يعرف الشيطان أن الذين ارتكبوا شرورًا كثيرة، عندما يبدأون في التوبة يسلكون فيها بغيرةٍ أعظم، بقدر شعورهم بثقل خطاياهم، لهذا يُخيفهم ويرعبهم لئلا يبدأوا في العمل. فإن ابتدأوا لا يمكن صدهم بل يلتهبون كالنار تحت فاعلية التوبة. فتصير نفوسهم أنقى من الذهب النقي، مدفوعين بضميرهم وتذكرهم لخطاياهم السابقة، كما لو كانوا مدفوعين بعاصفة قوية نحو سماء الفضيلة.

هذه هي النقطة التي يستفيد منها الذين سقطوا عمن لم يسقطوا، إذ يعملون بنشاطٍ أوفر... لكن كما قلت، إن أمكنهم أن يبدأوا، فصعوبة العمل وقسوته هي في وضع القدم على البداية، والوصول إلى مدخل التوبة، ودفع العدو وطرحه، ذاك الذي يحنق علينا ويحاربنا. أما بعد الدخول فلا يعرض الشيطان حنقه الزائد بعدما فشل، وسقط حيث كان قويًا. فننال نشاطًا أوفر، ونجري بسهولة في هذا السباق الحسن.

ليتنا نضع أمامنا عودتنا. ليتنا نسرع إلى المدينة التي في السماء، التي فيها سُجلت أسماؤنا، واخترنا لكي نجد فيها مكانًا كمواطنين.

أما يأسنا من نفوسنا فلا يقف عند هذا الشر، وهو أن يغلق أبواب هذه المدينة في وجوهنا، ويجرنا نحو البلادة والاستهتار، بل يُسقطنا في الطيش الشيطاني أيضًا.

فالسبب الذي لأجله صار الشيطان كما هو عليه، أنه سقط أولاً في اليأس التام، ومن اليأس سقط في الطيش.

فعندما تُحرَم النفس من خلاصها، تبدأ تغرق إلى أسفل. مختارة لنفسها أن تفعل وتقول كل ما يضاد خلاصها.

فكما أن المجانين عندما يفقدون سلامة عقلهم، لا يعودون يخافون ولا يخجلون من شيء، بل بدون خوف يتجاسرون على صنع كل شيءٍ، ولو أدى إلى سقوطهم في النار أو ماء عميق أو هوة. فالذين أمسكوا بجنون اليأس من الآن فصاعدًا لا يمكن ضبطهم بل يسيرون مندفعين نحو الرذيلة من كل جانب. وإن لم يأتهم الموت كحدٍ فاصلٍ لجنونهم وعنفهم، يصنعون لأنفسهم أضرارًا لا حد لها.

لذلك أتوسل إليك قبل أن تنحدر بعمق في هذا السكر، أن تسترد حواسك، وترتفع بنفسك، وتنزع عنك تلك النوبة الشيطانية، منفذًا بهدوء وبالتدريج ما لم تستطع أن تنفذه دفعة واحدة...

ستنال مكافأة مضاعفة

إنني أتوسل إليك وأطلب منك أن تذكر سمعتك الأولى، وذلك الإيمان الذي كان لك. فإننا نريد أن نراك مرة أخرى على برج الفضيلة، وفي مثابرتك الأولى.

اذكرْ أولئك الذين يتعثرون بسببك، هؤلاء الذين يسقطون ويزداد توانيهم وييأسون من طريق الفضيلة.

لقد خيّم الحزن على رابطة أصدقائك ذوي السيرة الحسنة، بينما حلّ الفرح والسرور بين جماعات غير المؤمنين وأولئك الأحداث المتوانين. لكن إن رجعت مرة أخرى إلى استقامتك السابقة، فستنعكس النتيجة. فينتقل عارنا إليهم، بينما نفرح نحن بإيمانك العظيم ناظرين إليك متوجًا وحائزًا على النصرة في صورة أبهى مما كنت عليه. فإن مثل هذه النصرة تجلب شهرة أعظم وسعادة أوفر.

إنك لن تنال المكافأة عن إصلاحك فحسب، بل بما ستقدمه من نصائح وتعزيات للآخرين أيضًا، بكونك تصير مضرب المثل لمن يسقط مثلك، فيتشجع ويقوم وتُشفي نفسه.

إذن لا تهمل هذه الفرصة المربحة، ولا تسحب أنفسنا إلى الهاوية التي كنا فيها، إننا في حزن، بل دعنا نتنسم الحرية مرة أخرى، وتزول عنا سحابة القنوط التي تساورنا من جهتك.

والآن لندَعْ جانبًا موضوع متاعبنا، فإننا نحزن على ما يحلّ بك من المصائب، ولكن **إن أردت أن تعود إلى رشدك، وتنظر بوضوح وتسير مع الجمهور الملائكي، فإنك ستعتقنا من الحزن وتُزيل عنا النصيب الأوفر من الخطية.**

شهادة الكتاب المقدس

أما عن كونْ أولئك الذين يرجعون بعد التوبة يضيئون بلمعان مُضاعَف أكثر من أولئك الذين لم يسقطوا، فهذا أتيت به من الكتب المقدسة، فعلى الأقل أولئك العشارين والزناة ورثوا الملكوت قبل كثير من الباقين...

توبة واعتراف بلا رجاء

إنني أعرف حقًا أنك تعترف بخطاياك، وتُسَمِّي نفسك بائسًا بلا حدود. لكن ليس هذا كل ما أطلبه منك، **بل أشتاق أن تتيقن من أنك تتبرر.** لأنه طالما تقدم هذا الاعتراف دون أن تشعر بفائدته، فحتى إن أدنت نفسك، فإنك لن تتخلص من الخطايا المقبلة. فإنه لا يستطيع أحد أن يمارس شيئًا بغيرة وبطريقة مفيدة ما لم يقتنع أولاً بفائدتها.

فالزارع بعدما يبذر الحبوب، لن يحصد شيئًا ما لم ينتظر المحصول. لأنه من يقبل أن يتعب نفسه عبثًا، مادام سوف لا يربح شيئًا من تعبه؟! هكذا من يزرع كلمات ودموعًا واعترافًا، إن لم يصنع هذا برجاء حسن لن يستطيع أن يتخلص من كونه مخطئًا، إذ لا يزال يخطئ بخطية اليأس...

لا تقف عند حد اتهام نفسك بخطاياك، بل لتكُنْ كمن يريد أن يتبرر بالتوبة. لأنه بذلك يمكنك أن تُخجل نفسك المعترفة حتى لا تعود تسقط في الخطايا مرة أخرى. لأن اتهام الإنسان لنفسه بعنف واعترافه بأنه خاطئ أمر شائع حتى بين غير المؤمنين أيضًا.

فكثيرون ممن يعملون في المسارح، من رجال ونساء، هؤلاء الذين اعتادوا أن يقوموا بأعمال معيبة، يدعون أنفسهم بائسين، لكنهم لا يقولون هذا بقصد مفيد. فهذا لا أدعوه اعترافًا، لأن إعلانهم عن خطاياهم لم يصحبه تأنيب الضمير ولا دموع حارة ولا تغيير في السلوك، إنما **يقدم البعض هذا الاعتراف لمجرد نوال شهرة من السامعين لصراحتهم في الحديث...**

فالذين هم تحت تأثير اليأس سقطوا في حالة من البلادة، فيستهينون بنظرة أصدقائهم لهم، كاشفين لهم أفعالهم الشريرة كما لو كانوا يتحدثون عن خطايا الآخرين...

ما هي جذور اليأس وأصله؟

إنه التراخي.

إننا لا يجب أن ندعو التراخي جذور اليأس فحسب، بل هـو مربيتـه ووالدتـه... فالتراخي يؤدى إلى اليأس، وفي نفس الوقت يزداد باليأس. وكل منهما يقوي الآخر في تبادل شرير... فإن قطعنا أحدهما إلى أجزاء، فبسهولة نقدر على الثاني.

فمن ناحية نجد أن الإنسان غير المتراخي لن يسقط في اليأس.

ومن ناحية أخرى نرى أن الذي يتقوى بالرجاء الحسن ولا ييأس من نفسه، لن يقدر أن يسقط في التراخي...

مَن يقدر أن يؤذيك؟

لا يستطيع أحد أن يؤذي إنسانًا
ما لم يؤذِ هذا الإنسان ذاته

للقديس يوحنا الذهبي الفم

طبعة منقحة

٢٠٠٧

تعريب

القمص تادرس يعقوب ملطي

مُعرب عن:

Nicene and Post-Nicene Fathers, Series 1 Volume 9.

Treatise To Prove That No One Can Harm The Man Who Does Not Injure Himself.

من يقدر أن يؤذيك؟

البشرية في كل عصورها تشكو وتئن من كوارث طبيعية ومشاكل اجتماعية من الخارج، ومن آلام نفسية ومتاعب روحية في الداخل. من قحط وطوفان وزلازل وبراكين، ومن أمراض جسدية متنوعة، ومن أخطار لصوص وتعديات وافتراءات ومشاكل مع إغراءات مستمرة، ومن اضطرابات نفسية وقلق وخداع داخلي الخ، فلا تسلم نفس واحدة من الضيقات الخارجية والداخلية، منفردة أو مجتمعة.

هذا ما تلاحظه يا عزيزي عندما يستبد بك الألم ويساورك القلق في وسط دوامة هذه الحياة. وكثيرًا ما يشكو إليك أصدقاؤك مما تشكو منه نفسك، وحينئذ يخفف عنك ألم نفسك شعورك بشركة الجميع فيه، وفيما هو أشد منه. لكنك تحاول أن تعكس أتعابك الداخلية على أقرب حادث أو باعث خارجي كما يفعل الكثيرون ممن يحيطون بك. فقد تُبَرِّر تعب نفسك بظلم الآخرين لك، أو تعديهم عليك، أو حرمانك من العطف الأبوي أو الأموي نتيجة تقصير ممن تنتظر منهم حنوًا، أو تقصير زملائك في تقديرك، أو عدم عدالة رؤسائك في العمل والذين بيدهم حقوقك الخ. وأنت في هذا قلما تقدر أن تدخل إلى نفسك لتلتمس التعليل الحقيقي لحالك هذا. فما أسهل على النفس أن تخدع نفسها أكثر من أن تُخدَع من الآخرين. وما أصعب عليها أن تهتدي إلى حقيقة مصدر ضعفاتها الداخلية بسبب محاولتها نسب كل ضعف وضيق وتذمر إلى أمور خارجية أو مجرد مؤثرات اجتماعية.

لكن الحقيقة هي التي كشفها لنا ربنا يسوع خالق النفس والعالم أن السبب في داخلها في جميع الظروف والأحوال. فقد علَّمنا أن داء النفس في ذاتها وليس خارجًا عنها.

النفس البشرية تشبه إناءًا خزفيًا واحدًا لا يختلف إلاّ في طبيعة ما بداخله، فإن كان ما بداخل الواحد بنزين وبداخل الآخر ماء، سيصطحب اقتراب جمرة نار التهاب الأول وانفجاره، أما الثاني فيطفئ الجمرة. هكذا تنزل الكارثة الواحدة باثنين، تزداد نفس أحدهما إزاءها شجاعة وخبرة، بينما تتحطم نفس الثاني باليأس.

هكذا القلب الممتلئ بالمسيح سلامًا وفرحًا لا تقوى عليه الكوارث ومحاربات الشر بجميع مغرياتها أو تهديداتها على نزع سلامه منه، بل تزيده سلامًا بانتصاره في جهاده، ومقاومته لها بإيمانه، فتتحول التجربة إلى مصدر بركة وخبرة روحية في جهاده الحيوي. أما القلب المنصرف عن الرب يسوع، فإنه خالٍ من السلام والبركات النابعة من هذا الفيض

الإلهي. لهذا فإنه يسقط في ضيق نفسي تحت أعباء الخطية، لا بسبب مؤثر خارجي، إنما بالحقيقة لأجل التعب الداخلي.

إذن، فليكن لك سلام مع الله وشركة عميقة مع الثالوث القدوس، عندئذ لا تخف، لأنه لا يقدر شيء ما أو إنسان مهما بلغ إجرامه أو تدابيره وحيله أن يؤذيك. وهكذا إن لم تؤذِ نفسك بنفسك لا يقدر أحد أن يؤذيك. أما إن أضررتَ بنفسك بانصرافك عن الله، وإهمالك دعوته، واستهتارك بإمكانيته القوية القادرة أن تعمل فيك، عندئذ خف واضطرب، ولو لم يوجد مثير خارجي.

يقول قداسة البابا الأنبا شنودة الثالث[1]: [صدق القديس يوحنا الذهبي الفم عندما كتب مقالاً طويلاً عنوانه: "لا يستطيع أحد أن يؤذي إنسانًا ما لم يؤذِ هذا الإنسان ذاته".

والإنسان الذي يرتفع فوق مرتبة الأذى، **هو الذي حدد له هدفًا واضحًا في الحياة،** هدفًا واحدًا هو "الالتصاق بالله"، وليس غير هذا الهدف. لا يستطيع أحد أن يبعده عنه، لأن العلاقة بالله عمل داخلي في القلب. وهكذا يقول بولس الرسول متعجبًا: "من سيفصلنا عن محبة المسيح: أشده، أم ضيق، أم اضطهاد، أم جوع، أم عري، أم خطر، أم سيف... لكننا في هذه جميعها يعظم انتصارنا بالذي أحبنا".]

من ذا الذي يؤذيك إذن؟ تؤذيك خطيتك، لأنها تفصلك عن الله، وتؤدى بك إلى الهلاك الأبدي. إذن أنت إذا أخطأت تؤذي نفسك. أما إن كان قلبك نقيًا، فلا يمكن لأحد أن يؤذيك.

قد يسلبك البعض مالك، ولكنه لا يستطيع أن يسلب منك ملكوت الله. وسلب المال ليس أذى، لأنه لا يفصلك عن الله. فآدم وهو في الفردوس بعد السقوط قبيل أن يُسلبَ منه شيئ، كان الرعب يملأ قلبه، حتى عندما سمع صوت الله ماشيًا مناديًا إياه، إذ أجابه: "سمعت صوتك فخشيت". بينما بولس الرسول في وسط السجن، تحت حراسة مشدَّدة، ونفسه تحمل أعباء مسئولية كنائس هذا قدرها، مع سماعه عن انقسامات وانشقاقات وثورات يقوم بها الرعاة ضده، ومع ذلك يملأ الفرح قلبه، بل ويناشد المؤمنين جميعًا أن يفرحوا قائلاً: "افرحوا في الرب كل حين، وأقول أيضًا افرحوا" **(في ٤: ٤).**

وفي حياتنا اليومية نجد كثيرين لا يملكون إلاَّ كفاف يومهم، لكن بسلامهم الداخلي يؤمنون بالذي يعولهم، بينما كثيرون يملأ الغِنَى مخازنهم، ولكن لا يعرفون أن يناموا الليل.

---

[1] جريدة وطني ٧/ ١١ / ٦٥ عدد ٣٦٠.

[**قد يؤذي أحد جسدك**، بالضرب أو الجلد أو التعذيب أو القتل، كما حدث للشهداء أو المعترفين. ولكنه في كل ذلك لا يمكنه أن يؤذي روحك، بل على العكس يعد لك بذلك أكاليل مجد في السماء. وقد يطردك أحد من مكان أو من عمل، ولكنه لا يقدر أن يطردك من حضرة الله. بل بطرده إياك يُعَظِّم أجرُك في السماء. "لأنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم" فطوباك"[1].] أما الذي أراد أن يؤذيك، فيصيبه نفس الضرر الذي دبَّره. "حفرً فسقط في الهوة التي صنع. ويرجع تعبه على رأسه وعلى هامته يهبط ظلمه" (مز ٧: ١٥-١٦).

فهامان صُلِبَ على عود الصليب الذي صنعه لمردخاي، وقايين القاتل، صار تائهًا في الأرض بينما هابيل المقتول انتقل من أرض الألم والشقاء. ويوحنا المعمدان في وسط السجن يُقَدِّم رأسه للسياف بشجاعة مُرددًا كلمة الحق مُقَدِّمًا حياته بسلام، أما هيرودس الملك صاحب السلطان فيضطرب ويرتعب ويهاب يوحنا المعمدان المجرد حتى بعد قتله، إذ فقد سلامه الداخلي. ويوسف ارتقى إلى المنصب العالي، أما إخوته الحاسدون والحاقدون له فخرّوا عند قدميه.

حقًا كم من ظالمين كثيرين لا ينامون الليل رعبًا، يكرهون الحياة ويضطربون داخليًا رغم ما لهم من صورة العنف والقوة، بينما كثيرون في وسط المكائد المُدَبَّرة لهم ظلمًا ينامون مطمئني النفس لا يهابون أحدًا ولا يخافون الزمن، كبطرس الرسول النائم في وسط السجن!

[**وقد يتكلم عنك بعض الناس كلمة رديئة**. افحصها جيدًا، في قلبك، إن كانت كلمة كذب وباطل، فهو لا يؤذيك بها، بل ينطبق عليك قول الرب: "طوبى لكم إذا عيروكم... وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين، افرحوا وتهللوا، لأن أجركم عظيم في السماوات". أما إذا كانت هذه الكلمة الرديئة صدقًا وحقًا، فإنك إن دافعت عن نفسك، لا تدفع الأذى عنك، وإنما تؤذى نفسك بالأكثر، إذ ترتكب بدفاعك خطايا أخرى تزيد انفصالك عن الله. اعتبر ما سمعته عنك بمثابة اعتراف منك، أو كأنه جزاء (تأديب) عن خطيئتك، أو خذه كتنبيه لك أو نصح أو إنذار وهكذا تستفيد منه وتنتفع.

يا أخي، يسعد قلبك جدًا إن عرفت تمامًا ما هو الأذى في حقيقته، الأذى الحقيقي هو خسارتك لأبديتك. لا تهتم بتصرفات الناس من حولك، إن إتعابهم لك من الخارج لا تؤذيك

---

[1] عن المقال السابق ذكره.

مطلقًا، إن كان ذلك منهم بنوع الظلم. فهكذا حدث للأنبياء والرسل والقديسين جميعًا وللسيد المسيح نفسه. أما إن كانت مضايقاتهم لك بسبب خطيئة ارتكبتها أنت، فلا تُشَبِّه نفسك حينئذ بالقديسين الذين تألموا من أجل المسيح بسبب برّهم، بل تكون بخطيئتك قد جلبتَ الأذى إلى نفسك، وأيضًا أعثرت الآخرين[1].]

أخيرًا هل تستطيع قوة خارجية أن تجبرك على الخطية فتؤذيك؟ لا بالتأكيد، فإنه بالرغم مما لدى العالم من مغريات جذابة، وعند الشيطان من حيل وخداعات، لكن لا تستطيع قوة خارجية أن تنحرف بإنسان بغير إرادته، إلاَّ إذا ترك قلبه ينحرف داخليًا أولاً. فيوسف إذ كان في سلام مع الله لم تستطع الشهوة أن تسيطر عليه مع أنه كان شابًا، غريبًا، محرومًا من العطف الأبوي والأموي والأخوي، ليس لديه كتاب مقدس، ولا كاهن أو معلم، والخطية معروضة أمامه في أقوى صور الأغراء، في مكان مغلق، لا يعلم أحد بشيءٍ عنه، تغريه سيدته بل وتهدده ممسكة بثيابه، ومع ذلك لم تضطرب نفسه، ولا سقط في الشهوة بل في سلام كامل أجابها: "كيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله؟" وعلى العكس داود النبي، الذي أقامه الله من المزبلة إلى المُلك، المتزوج بأكثر من امرأة، صاحب المزامير الجميلة المُعَزِّية، في اللحظة التي نسي فيها الله وخرج يتنعم على السطح سقط في الخطية.

لذلك احذرْ يا أخي لئلا تقتل نفسك بنفسك، وتَرُد السبب على الآخرين أو على الظروف المحيطة بك.

هذا هو محور المقال الذي كتبه القديس يوحنا الذهبي الفم في منفاه، غالبًا قبل نياحته بفترة قصيرة. وقد قمتُ بتعريبه عن مجموعة: *The Writing of the Nicene & Post-Nicene Fathers.* مع تبويبه ووضع عناوين جانبية وقد ساهم الأخ نبيل يوسف بنصيب كبير من التعريب.

الرب قادر أن يستخدمه لمجد اسمه القدوس حتى يكون سبب بركة لكثيرين.

المُعرِّب

نياحة القديس يوحنا الذهبي الفم: ١٧ هاتور ١٦٨٧

٢٦ نوفمبر ١٩٧٠

---

[1] عن المقال السابق ذكره.

هدف المقال

إنني أعرف جيدًا أن جامدي الفكر، المتلهفين في جريهم وراء الأمور الزمنية، المربوطين بمحبة العالم، المأسورين تحت عبودية اللذات الجسدية، الذين ليس لديهم إدراك قوي للمفاهيم الروحية، هؤلاء إذ يرون أن ما أنطق به منذ بدايته غير معقول، لذلك يكون لهم هذا المقال غريبًا ومتناقضًا، ويفرطون في الاستهزاء به. لكن هذا لن يعوقني عن تحقيق ما وعدت به، بل بالعكس يدفعني إلى الاجتهاد في البرهنة عليه.

وإنني أرجو من أولئك الذين لهم وجهة النظر هذه في الموضوع الذي أتكلم فيه أن ينتظروا حتى نهاية حديثي. وأنا متأكد أنهم سيأخذون برأيي ويُدينون أنفسهم، مكتشفين أنهم كانوا مخدوعين حتى هذه اللحظة. وعندئذ ينتقدون اعتقادهم الخاطئ الذي تمسكوا به في هذا الشأن، معتذرين، طالبين الصفح، بل وشاكرين إيايّ كثيرًا، كما يفعل المرضى بالأطباء عندما يُشفوا من أتعاب أجسادهم.

لهذا لا تخبرني ما هو رأيك الآن، بل انتظر حتى تسمع مني براهيني، وعندئذ يكون لك حكم صائب، دون أن يعوقك جهلك عن ذلك. لأنه في القضاء، حتى في الأمور الزمنية، إذا رأوا الخطيب الأول يقدم حججًا قوية وينقد كل بند تمامًا، لا يكتفون بذلك معلنين حكمهم ما لم يستمعوا إلى الخطيب الثاني (المحامي) خصم الخطيب الأول. حتى وإن بدتْ ملاحظات الأول حقيقية إلى درجة كبيرة، لكنهم يحجزون الحكم حتى يستمعوا إلى الثاني. بالحقيقة تكمن عظمة القضاة أولاً في استماعهم بدقةٍ لكلا الطرفيْن، وبعدئذ ينطقون بالحكم.

هنا نستبدل الخطيب بالمفهوم العام الذي صار له مع مرور الزمن أساس عميق في داخل أفكار الجماعة، وصار له تأثير قوي في العالم. هذا المفهوم (الخاطئ) يقول: "كل الأشياء قد قُلِبَتْ رأسًا على عقب، وأن الجنس البشرى مشحون باضطرابات كثيرة، إذ كثيرون يخطئون كل يوم، كثيرون يشتمون، كثيرون يخضعون تحت العنف والشر. فالضعيف مذلول للقوي، والفقير يخضعه الغني".

وكما يستحيل إحصاء عدد أمواج البحر، هكذا لن يمكن إحصاء ضحايا الساقطين تحت أعباء المكائد والإهانات والآلام. ولا يمكن أن يوقف تيار هذا الوباء والاضطراب، لا بتعديل القانون، ولا بالإرهاب عن طريق القضاء، ولا بشيء من هذا القبيل، إنما في كل يوم

يتزايد الشر أكثر فأكثر. حتى أصبحت تنهدات المتألمين ونـــدبهم ونحيـــبهم أمـــرًا جماعيًـــا مألوفًا...

يوجد من يتمسكون بنوعٍ جديدٍ من الحماقة، وهو **اتهام عناية الرب**، عندما يـــرون الإنسان العفيف كثيرًا ما يكون ساقطًا تحت العنف ومضروبًا ومهانًا بشدة، بينمـــا الإنـــسان الوقح القاسي الوضيع يصب مضايقات لا تُحصَى على من هم أكثر منه عفة، ويتجنَّى علـــى من في المدينة أو في القرية أو في الصحراء أو في البحر أو البر.

هذا المقال الذي أدلي به ضروري حتى يصحح ما يزعمونه... مثبتًا **أن أي إنسان يخطئ يصيبه الضرر بيديه، ولم يبعثه على الخطأ إنسان آخر.**

لكل مخلوق عدو يؤذيه

ما هو الظُلْم؟

لكي أبرهن على ما قلتُ بوضوح أكثر، علينا أولاً أن نتساءل ما هو الظُلْم؟

من أي شيء تتكون مادته؟

وما هو الصلاح البشري؟

وما الذي يُدَمِّره؟

وما الذي يبدو أنه يُدَمِّره لكن في الحقيقة لا يُدَمِّره؟

وإذ يلزمني أن أؤكد حجتي بأمثلة، أقول بأن كل شيء له عدو شرير يؤذيه. فالحديد يفسده الصدأ، والخشب يفسده السوس، وقطيع الخراف تهلكه الذئاب، وخواص الخمر تَفَسَدُ بالاختمار حتى يصل إلى أن يصير طعمه لاذعًا، والعسل يفقد خواصه عندما يفقد حلاوته الطبيعية ويتحول إلى عصارة مرة، وسنابل القمح يهلكها اليرقان والجدب، وأشجار أخرى تؤذيها الديدان، ومخلوقات غير عاقلة يهلكها أنواع معينة من الأمراض. ولكي لا نطيل الحديث... نذكر أن جسدنا يتعرض للحُميات والشلل، ولكثير من الأمراض الأخرى.

إذن لكل شيءٍ ما يفسد خواصه أو صلاحيته. والآن لنفكر ما هو هذا الذي يُحَطِّم الجنس البشري، وما هو الذي يهلك صلاح الإنسان؟

يظن غالبية البشر أنه توجد أشياء كثيرة قادرة على إهلاكنا. فعلينا أن نُوضح الآراء الخاطئة في هذا الأمر... مظهرين بوضوح أنه لا يوجد شيء يقدر أن يجلب علينا ضررًا أو هلاكًا ما لم نَخُن نحن أنفسنا بأنفسنا. يتصور ذوو الأفكار الخاطئة، أنه توجد أشياء كثيرة تقدر أن تفسد صلاحنا. البعض ينظر إلى الفقر، وآخرون إلى الأمراض البدنية، وآخرون إلى فقدان الممتلكات، أو حلول المصائب، أو الموت. أمثال هؤلاء دائمًا يبكون ويندبون طالبين حلول لهذه الأمور. وبينما هم يرثون لحال المتألمين، ويسكبون الدموع، يقولون مضطربين: "يا لها من نكبةٍ حلَّتْ هكذا بالرجل، فقد تبددت أمواله"، وآخر يقول: "قد أُصيب رجل بمرض خطير ويئس الأطباء من علاجه!" وآخرون يبكون من أجل المسجونين، والبعض يندبون المنفيين... وآخرون يبكون الغرقى، والذين أصابهم الحريق، والذين ماتوا تحت أنقاض منزل، **ولكن لا يبكي أحد على السالكين في الإثم، الذين هم أردأ حالاً من الكل، بل بالعكس يهنئونهم مشجعين إياهم على ارتكاب كل الشرور.**

والآن يلزمني أن أؤكد... أن لا شيء من هذه الأمور يقدر أن يؤذي الإنسان الذي يعيش بوقارٍ، ولا يستطيع أن يفقده صلاحه.

مثال ذلك: أخبرني لو أن إنسانًا فقد كل ماله بواسطة محتالين أو لصوص. ماذا يمكن لهذه الخسارة أن تفعل بصلاحه؟!

وإن كنت أريد أن أوضح هذا الأمر، يلزمني أولاً أن أشير إلى مفهوم صلاح الإنسان معالجًا الموضوع بأمثلة أخرى من المخلوقات حتى يمكن أن يكون الأمر جليًا وأكثر إدراكًا لغالبية القراء.

صلاح الإنسان: ليكن له هدف واضح

ما هو صلاح الفَرَسِ؟ هل يَكمن في ما له من لجام مذهب وسُرج مناسبة وأربطة من خيوط حريرية لربط الجل، وأقمشة ذات ألوان مختلفة وما عليه من ثوب ذهبي، وعُدة للرأس مُرَصّعة بالجواهر، وغطاء فوق الشعر مُضَفَّر بحبل ذهبي؟! أم يكمن صلاحه في خفة حركته وقوة أقدامه وخطواته... وشجاعته، وقدرته على القيام بالرحلات الطويلة واستخدامه في الحرب، وقدرته على التصرُّف بهدوء في ميدان المعركة، وإنقاذه لصاحبه إن حدثت هزيمة؟! أليس من الواضح أن الأمور الأخيرة لا الأولى هي التي يكمن فيها صلاح الفرس؟!

وأيضًا ماذا تقولون عن صلاحية الحمير والجحش؟ أليست تكمن في القدرة على حمل الأثقال بلا اضطراب، والمثابرة على الرحلات الطويلة بسهولة، وصلابة حوافرها كالصخر؟! هل تستمد هذه الحيوانات صلاحيتها الحقيقية من الزينة الخارجية؟!

وأي نوع من الكروم تُعجَب بها؟! هل التي تحمل أوراقًا كثيرة أم المثقلة بالثمار؟! أي نوع من الصلاحية نعزي به الزيتونة، هل ما لها من فروع ضخمة وأوراق كثيرة، أم المحملة بثمار وفيرة من كل جانب من جوانبها؟!

حسنًا، إذن فلنسلك على نفس المنوال بالنسبة للمخلوق البشري، حتى نعرف مفهوم صلاح الإنسان، وما هو الشيء الوحيد الذي يقدر أن يؤذيه.

ما هو إذن صلاح الإنسان؟ لا يكمن صلاح الإنسان في الغِنَى حتى نخاف الفقر، ولا في الصحة البدنية فنرهب المرض، ولا في نظرة الناس إليك حتى تحذر ما يقوله الناس عنك بشرٍ، ولا في الحياة هنا في ذاتها حتى ترتعب من الموت... إنما يكمن صلاحه في

التَمَسُّك بالتعاليم الحقيقية، والاستقامة في الحياة، الأمور التي لا يستطيع أحد، حتى الشيطان نفسه أن يسلبها من الإنسان طالما كان حريصًا عليها كما ينبغي.

هذا الأمر يدركه تمامًا حتى أخبث الشياطين وأشدّهم. لهذا جرَّد الشيطان أيوب من مادياته لا ليجعله فقيرًا، إنما ليلزمه أن ينطق بكلمة تجديف على الله. وعذَّب جسده لا ليذلــه بالمرض، بل ليحبط صلاح نفسه. لكنه عندما نفَّذَ كل حيله، وجعل هذا الغني فقيرًا... وحرمه من أبنائه... ومزق جسده بوحشية لا يقدر الجلادون أن يفعلوها، لأن أدوات التعذيب لا تقــدر أن تمزق كل جانب من جوانب الجسد كما يفعل الدود الذي كان في جسده، وأفــسد الــشيطان سمعته حتى أعلن أصدقاؤه الحاضرون معه أن هذا جزاء له عن خطايــاه التــي يــستحقها، موجهين ضده اتهامات كثيرة، حتى طُرِدَ من مدينته وبيته لا إلى مدينة أخرى، بل صار بيته هو مزبلة مدينته... هذا كله لم يؤذِ أيوب بل بالعكس تمجد بالأكثر على حساب هذه المكائــد التي وُجِّهتْ ضده.

لقد أخذ الشيطان منه كثيرًا لكنه لم يسلبه شيئًا من صلاحه. بل دفعه بالأكثر لتزداد قوة صلاحه. لأنه بعد ما حدثت له هذه الأمور تمتع بثقة أعظم بقدر ما حاربه خصم قوي.

والآن إن كان الذي كابد آلامًا مثل هذه، التي ليست من عمل إنسان، بل من عمــل الشيطان الأكثر شرًا من كل البشرية، هذا لم يصبه أي ضرر، فهل تقول أنت بأن إنسانًا مــا قد أضرك أو حطمك...

إن كان الشيطان، المملوء مكرًا عظيمًا هذا مقداره، بعدما صبَّ كل ما في حقيبته، واستخدم كل أسلحته، وصبَّ كل شروره ضد إنسان ذي مركز سامٍ عائليًا، وبارٍ، ومع هذا لم يسبب له أذى، بل بالحري كما قلت أنه أفاده. **فكيف تقدر أن تتهم إنسانًا أو آخر أنه يحمــل في يديه ضررًا، لغيره، وليس لنفسه؟!**

لماذا تخاف من مفسد خارجي؟!

لماذا تخاف من الشيطان!

قد يقول قائل: ألم يؤذِ الشيطان آدم، إذ أفسد كيانه وأفقده الفردوس؟ لا، إنما السبب في هذا يكمن في إهمال من أصابه الضرر، ونقص ضبطه للنفس، وعدم جهـــاده. فالــشيطان الذي استخدم المكائد القوية المختلفة لم يستطع أن يخضع أيوب له، فكيف يقدر بوسيلة أقــل أن يسيطر على آدم، لو لم يغدر آدم بنفسه على نفسه؟!

لماذا تخاف من الظلم!

ماذا إذن؟! ألاَّ يصاب بالأذى من يتعرض للافتراءات، ويقاسي من نَهْبِ الأمــوال، فيُحرَم من خيراته، ويُطرَد من ميراثه، ويناضل في فقر فادح؟! لا، بل ينتفع إن كان وقورًا. لأنه هل أضرّت هذه الأمور الرسل؟ ألم يجاهدوا دائمًا مع الجوع والعطش والعُري؟! وبسبب هذه الأمور صاروا مُمَجَّدين ومشهورين وربحوا لأنفسهم معونة أكثر من الرب؟!

لماذا تخاف من المرض!

وأيضًا أي ضرر أصاب لعازر بسبب مرضه وقروحه وفقره وعــدم وجــود مــن يحميه؟ ألم تكن هذه الأمور تُضفِّر له إكليلاً من زهور النصرة؟!

لماذا تخاف من مديح الناس وذمهم!

وأي ضرر أصاب يوسف عندما اُتُهِمَ بسمعة شريرة، في أرضه أو في غربته، فقد اُتهم بالزنا والفسق؟! وماذا أصابه من الذين صيروه عبدًا منفيًا؟! أليس بسبب هــذه الأمــور صار يوسف موضع إكرام وتقدير؟!

لماذا تخاف من الموت!

ولماذا أتحدَّث عن النفي في أرضٍ غريبة، أو الفقر أو تشويه السمعة أو الأسر، فإنه أي ضرر أصاب هابيل بموته، مع أنه مات موتًا عنيفًا، في غير أوانه، وبيديّ أخيه؟! أليس بسب هذا صارت سمعة هابيل تجوب المسكونة كلها؟! أنظر إذن كيف أكد المثال أكثر ممــا وعدت، لأنه لم يقف عند حد أن الإنسان لا يضره غيره، بل ينال نفعًا عظيمًا علــى يــديّ مقاوميه.

فلماذا يعاقب الله مدبري المكائد؟

قد يُقال: إذن ما هو هدف التأديبات والعقوبات؟ ولماذا وُجِدَ الجحيم؟ وما فائدة التهديدات الكثيرة، مادام لا يضر أحد غيره ولا يصيبه ضرر من غيره؟... إنني لم أقل أنه لا أحد يضر غيره، بل لا أحد يُصاب بضرر من غيره. ولكن كيف لا أحد يصيبه ضرر من غيره مادام كثيرون يضرون غيرهم؟!... إخوة يوسف مثلاً أضرّوا يوسف، لكن يوسف نفسه لم يصبه الضرر. وقايين ألقى بشباكه لهابيل، ولكن هابيل لم يسقط فيها. وهذا هو السبب الذي لأجله وُجِدَتْ التأديبات والعقوبات.

فالله لا يرفع العقوبة عن مُدَبِّر الضرر لمجرد صلاح من يحتمل الضرر، بل يؤكد عقوبته بسبب شر صانع الإثم. فإنه **بالرغم من أن الذين يسقط عليهم الشر، يصيرون أكثر مجدًا على حساب المكائد المُدَبَّرة ضدهم، لكن هذا لم يكن في نية مدبري الشر، إنما بسبب شجاعة من هم ضحيتهم.** لذلك فإن الأخيرين تعد لهم أكاليل الحكمة، أما الأولون فتعد لهم جزاءات شرورهم.

هل سُلِبَتْ أموالك؟ اذكر تلك الكلمات: "عريانًا خرجتُ من بطن أمي، وعريانًا أعود إلى هناك" (أي ١: ٢١). وأضف إليها كلمات الرسول: "لأننا لم ندخل العالم بشيء وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشيء" (١ تى ٦: ٧).

هل أُسيء إلى سمعتك، وحملك البعض بشتائم لا حصر لها؟ اذكر العبارة القائلة: "ويل لكم إذ قال فيكم جميع الناس حسنًا" (لو ٦: ٢٦). وأيضًا إن "قالوا عليكم كلمة شريرة... افرحوا وتهللوا" (مت ٥: ١١).

هل أُخِذتَ إلى المنفي؟ اذكر أنه ليس لك هنا موضع، بل إن كنت حكيمًا يلزمك أن تنظر إلى العالم كله كأرض غربة.

هل أُصبتَ بمرض خطير؟ اذكر ما يقوله الرسول: "إن كان إنساننا الخارج يفنى، فالداخل يتجدد يومًا فيومًا" (٢ كو ٤: ١٦).

هل يعانى إنسان من موت عنيف؟ ليتذكر يوحنا الذي قُطِعَ رأسه في السجن، وأُخِذَ في طَبَقٍ وقُدِّمَ مكافأة عن رقص زانية.

تأمل المكافأة التي تنالها على حساب هذه الأمور، فإنه عندما تسقط كل هذه الآلام **ظلمًا** من إنسان على آخر تنزع خطايانا وشرنا (إذ نتقبل الظلم بلا تذمُّر مؤمنين بالله مترجين الحياة الأخرى تَعْمل على تزكيتنا). إذن عظيم هو نفع هذه الأتعاب للذين يحتملونها بشجاعة!

الأذى يصيب الظالم لا المظلوم!

إن كان ليس فقدان المال أو الافتراءات أو السب أو السبي أو الأمراض أو الاضطهادات بل ولا الموت الذي هو أفظع من هذا كله، يقدر أن يضر من يتعذبون به، بل بالحري يزداد نفعهم، فكيف تقدر أن تُثبتَ لي أن الإنسان لا يصيبه أذى متى حلَّ به شيء من هذا؟! إنني سأجتهد أن أثبت أكثر من هذا، أن الذين يصيبهم الأذى ويتألمون من الشر، هم أولئك الذين يصبون شرورهم على غيرهم. فإنه لا يوجد إنسان أكثر بؤسًا من قايين الذي صنع هكذا بأخيه (قتله)؟!

وما أكثر شقاء تلك المرأة التي لفيلبس (مت ١٤: ٣)، حيث قطعَتْ رأس يوحنا؟ وما أعظم شقاء إخوة يوسف الذين باعوه للغرباء وأرسلوه إلى أرض غريبة؟! وشقاء الشيطان الذي ضايق أيوب بهذه النكبات العظيمة؟! لأنه لا يدفع حسابًا عنيفًا عن شروره فحسب بل وبسبب ما فعله بأيوب أيضًا.

أترون كيف جاءت الأدلة أكثر مما نتوقع، إذ ظهر أن الساقطين تحت الظلم لا تصيبهم جراحات، إنما يرجع الأذى على رأس مدبري المكائد!

فإذ لا يقوم صلاح النفس على الغنى أو الحرية (الجسدية) أو عدم النفي وغير ذلك من الأمور التي أشرتُ إليها، بل على أفعال النفس، لذلك فإن أي ضرر يصيب هذه الأمور لن يلمس الصلاح البشري بأدنى أذى.

ماذا إذن؟ لنفرض أن إنسانًا يسئ إلى حياته الروحية، ثم يسيء إنسان إليه بضرر ما، فإن الأذى لا يأتيه من الغيرّ، إنما يكون نابعًا من داخل نفسه، من ذاته. ربما تتساءل: كيف ذلك؟ عندما يضرب إنسان آخر، أو يسلب ماله، أو يقذفه بشتائم قاسية أو يسبّه. فإن الإنسان الثاني يحتمل بالتأكيد ضررًا، بل وضررًا كثيرًا، لكن الأذى لا ينبع ممن أساء إليه بل من نفسه المتعبة. لأن ما سبق أن قلته أعود فأكرره. لا يوجد إنسان مهما بلغ شره يهاجم آخر بشرٍ أو عنفٍ، أشد من ذلك الشيطان الحاقد، العدو غير المُشفِق علينا، لكن حتى هذا الشيطان المتوحش لم يكن له سلطان أن يفسد ذلك الإنسان (أيوب) الذي عاش قبل الناموس وقبل عهد النعمة، رغم استخدامه أسلحة كثيرة حادة من كل جانب. هذه هي قوة نُبْل النفس!

وماذا أقول عن القديس بولس الرسول، ألم يحتمل أحزانًا كثيرة لا يمكن إحصائها: من إلقاء في السجن وتثقيل بالقيود ووضعه تحت حراسة مشددة، وجلد من اليهود ورجم

وتمزق ظهره لا بالسياط فحسب بل وبالعصي أيضًا، وغرق في البحر، ومهاجمة لصوص في مرات كثيرة، وصراع مستمر مع بني جنسه ومع الأعداء والمعاندين، ومكائد بلا عدد، وجهاد في جوع وعُري، وكوارث، وأحزان دائمة... يكفي أن أقول إنه كان يموت كل يوم. وبالرغم من هذه الآلام المبرحة، لكنه لم ينطق بكلمة تجديف، بل أكثر من هذا في وسط هذه كان فرحًا مفتخرًا، بها. إذ يقول: "أفرح في آلامي" (كو ١: ٢٤). ومرة أخرى: "وليس ذلك فقط، بل نفتخر أيضًا في الضيقات" (رو ٥: ٣). لقد كان فرحًا في أثناء تعذيبه بهذه الضيقات الشديدة، مفتخرًا بها. إذن فما هو العذر الذي تقدِّمه لتذمّرك بسبب عدم احتمالك لأمورٍ أقل من هذه؟!

هل الفقر يؤذيك؟

قد يقول قائل: لقد أصابني أذى بطريق أخر، وهو أنني وإن كنت لا أجدف بسبب سلب أموالي لكنى صرت عاجزًا عن تقديم الصدقة.

هذا اعتراض هيِّن وادّعاء بسيط. لأنك إن كنت تحزن بسبب هذا، فاعلم أن الفقر لا يقف حائلاً أمام العطاء. لأنه مهما بلغ فقرك لن يصل إلى فقر المرأة التي لم تملك إلا ملء كف من الدقيق (١ مل ١٧: ١٢)، أو تلك التي لم يكن معها سوى فلسيْن (لو ١١: ٢). هاتان المرأتان قدمتا كل ما لديهما. وقد كانتا موضع إعجاب فائق. ففقر عظيم كهذا لا يقف عائقًا أمام العطف، إذ إن صدقة من فلسيْن كانت وفيرة، تكشف عن كرم زائد يفوق كرم كل الأغنياء، وبالنية السليمة والغيرة المتقدة فاقت هؤلاء الذين ألقوا نقودًا كثيرة.

إذن، حتى في هذا الأمر لا يصيبك أذى، بل بالحري تكون قد انتفعتَ، نائلاً بتقديم صدقة صغيرة مكافأة أكثر مجدًا ممن يدفعون مبالغ ضخمة.

ملامح حياة محب المال

ومع ذلك فإنني أنطق بما أقوله دومًا. إن الشخصيات الحساسة التي تبتهج بأن تعفر وجوهها بتراب الأمور الزمنية، وتفرح بالأشياء الحاضرة، ليست مستعدة أن تتخلى حتى عن الورود الذابلة أو أن تترك مجرد ظلالها، لأن هذا هو حال الابتهاج بالزمنيات،... يوجد أناس جديرون بالرثاء وأكثر دناءة، يتعلقون بالأمور الزمنية أكثر من الأمور المستقبلة.

هيا نرفع الأقنعة (الأوجه الصناعية) المُفرِحة جميلة المنظر، التي تُغَطِّي عدم ضبط النفس القبيح المُزَيَّف.

لنفضح بشاعة هذه المرأة العاهرة. لأنه هكذا تشبه الحياة المتفرغة للتنعم وحب الغنى والسلطة (الكبرياء). إنها حياة خبيثة وقبيحة ومملوءة بغضة شديدة ومكروهة، مملوءة أثقالاً ومُحَمَّلة بالمرارة. لأنه بالحقيقة هذه هي ملامح الحياة التي من يتمسك بها ليس له أي عذر.

وبالرغم من أن هذا هو هدف اشتياقهم وسعيهم، إلاَّ أن حياتهم مشحونة بالمضايقات الكثيرة والكَرْب، ومملوءة بشرورٍ لا تُحصَى ومخاطر وسفك دم وفجوات هاوية ووعرة وقتل ومخاوف ورعب وحسد وسوء نية ومكائد، وقلق مستمر وهم دائم، ومع هذا كله لا يحصل على نفعٍ ولا يأتي من هذه المخاطر الكثيرة بثمارٍ سوى العقوبة والانتقام والعذاب المستمر.

ولو أن هذه هي صفات حياة محبي المال، لكنها تبدو لغالبية البشر أنها موضع طمع وشغف زائد. وهذا يكشف لا عن بركة المادة ذاتها بل غباوة الذين أُسِروا في حبها.

حقًا إن الأطفال الصغار يشتاقون إلى أدوات اللعب إذ هي تثيرهم، ولا يقدرون أن يدركوا من ذواتهم الأمور التي تجعلهم رجالاً ناضجين كاملين. هؤلاء الأطفال لهم عذرهم بسبب عدم نضجهم. أما هؤلاء (المأسورون بمحبة المال) فليس لهم حق الدفاع، لأنهم رغم نضوج سنهم إلاَّ أنهم لازالوا أطفالاً في طبعهم، وأكثر من الأطفال سذاجة في مسلكهم في الحياة.

والآن قل لي لماذا يكون المال هدفًا للطمع؟

لابد لي أن أبدأ من هذه النقطة حيث أن كثيرين قد أصيبوا بهذا المرض الخطير، فيبدو لهم أن المال أفضل من الصحة والحياة والسُمعة الطيبة والصيت الحسن، وأفضل من المدينة (المجتمع)، والعائلة والأصدقاء والأقرباء وأي شيء آخر.

أضف إلى هذا أن لهيب (محبة المال) صعد إلى السحب عينها، والحرارة القاتلة تملَّكتْ على الأرض والبحر. ولا يوجد من يطفئ هذه النار، بل يعمل الناس جميعهم على زيادة التهابها، سواء أولئك الذين لحِقَتْ بهم نيرانها أو لم تلحق النيران بعد بهم، حتى يصير الكل أسيرًا لها.

وها أنت ترى أن كل واحدٍ: الزوج والزوجة، العبد والحرّ، الغني والفقير... يحمل الكل قدر استطاعته وقودًا يزيد إشعال هذه النيران (محبة المال) نهارًا وليلاً. يحملون وقودًا لا من خشب أو عيدان، لأنها ليست من هذا النوع، بل وقودًا هو أرواح الأشرار الآثمة وأجسادهم. هذه هي المادة التي اعتادت هذه النار أن تشتعل بواسطتها.

لأن هؤلاء الذين لهم غِنًى لا يضعون حدًا لهذه الشهوة الرهيبة في أي مكان، حتى وإن طافوا العالم كله. كذلك الفقير يتضايق لكي يأخذ نصيبًا وافرًا، من الغِنَى وهكذا يسيطر على أرواح الجميع نوع من الخبل عديم الشفاء، والجنون الذي لا يمكن مقاومته، والمرض الذي لا علاج له.

هذا الميل النفسي (محبة المال) يتغلب على كل عاطفة أخرى وينزعها من النفس، فلا يعود يهمه صديقه أو قريبه... بل ولا يبالي بزوجته أو أولاده... فهل يمكن أن يكون له أناس أعزاء أكثر من هؤلاء؟!

عندما تأسر هذه السيدة (محبة المال) المتوحشة القاسية روح الإنسان، تتحطم بالنسبة لها كل القيم على الأرض، وتصير تحت موطئ الأقدام.

مقارنة بين السيدة القاسية ومحبة المال

كما أن السيدة القاسية القلب، الطاغية العنيفة، البربرية المتوحشة، التي تطلب ثمنًا غاليًا لشرها، هذه الشريرة تستنزف هؤلاء الذين يسقطون في أسرها، وتفسدهم وتسبب لهم أخطارًا لا حصر لها. وبالرغم من كونها مرعبة وقاسية القلب ومتوحشة وعنيفة، لها صورة البربري، بل بالحري صور الوحوش الضارية بل وأعنف من الذئب والأسد، إلاَّ أنها تبدو لمن أَسَرَتهم في حبالها كما لو كانت لطيفة ومحبوبة وأحلى من العسل.

وبالرغم من أنها تُشْهِر ضدهم سيوفًا وأسلحة وتحفر لهم حفرًا لاصطيادهم وتقودهم إلى أماكنٍ هاويةٍ وصخورٍ شامخةٍ وشباكٍ لا نهاية لها... ومع هذا فإنها تعمل على أن تجعل هذه الأمور موضع طمع للمأسورين في شباكها، والراغبين في هذا الأسر.

مقارنة بين الحيوانات غير العاقلة ومحبة المال

وكما أن الخنزير يفرح ويلهو بانغماسه في الوَحْل والطين، والحشرات تزحف دائمًا مبتهجة بالروث، هكذا المأسورين بمحبة المال هم أكثر بؤسًا من هذه المخلوقات. لأن الرجاسة هنا أعظم، والوَحْل أكثر قذارة، لأن المنهمكين في هذا الميل (محبة المال) يظنون أنهم ينالون فرحًا عظيمًا. هذا الفرح لا ينبع من المادة ذاتها، بل من فهمهم المتأثر بمثل هذا الميل السخيف. هذا التذوق أردأ من تذوق الحيوانات الأعجمية. فكما أنه لا يكمن الفرح في الوَحْل والروث بل في طبيعة المخلوقات غير العاقلة (الخنزير والحشرات) التي تنغمس فيها، هكذا أيضًا بالنسبة للمخلوقات البشرية.

محبة المال وليس سلب أموالك هو الذي يؤذيك[1]

وكيف يمكننا معالجة أولئك الذين هذا هو حالهم (كالخنزير والحشرات)؟ علاجهم يكون سهلاً إن أنصتوا بآذانهم لنا، وفتحوا قلوبهم، وقَبِلُوا كلماتنا. لأنه بالنسبة للحيوانات غير العاقلة يستحيل عليها الإقلاع عن عاداتها غير المُستحَبة، لأنها عديمة العقل. أما هؤلاء الذين هم أسمى المخلوقات الأرضية، الذين تشرّفوا بالعدل والنطق، أقصد البشر، يلزمهم إن أرادوا أن يستعدوا للهروب من الوحل والنتانة والروث ونجاسته، وهذا سهل عليهم.

لا يمكنك أن تعدد الأسباب (التي تدفعك لمحبة المال) سوى اللذة والكبرياء والخوف والقدرة على الانتقام.

فالثروة عادة لا تعمل على أن يصير الإنسان حكيمًا أو ضابطًا لذاته أو أكثر وداعة أو تعقُّلاً أو متحننًا أو محبًا أو متساميًا على الغضب والنهم واللذة. إنها لا تُدَرِّب الإنسان ليكون عفيفًا أو تُعَلِّمه التواضع، ولا تبدأ أو تزرع أي نصيب من الفضيلة في الروح.

وأظن أنه لا يقدر أن يقول عن أي شيء من هذه الأمور أنها تستحق أن يطلبها الإنسان ويشتهيها بكدٍ. لأن محبة الغِنَى لا تجعل الإنسان يجهل كيفية غرس أو زرع أية فضيلة فقط، بل وإن وَجَدَتْ فيه مخزنًا من الأعمال الصالحة، فإنها تعمل على إفسادها وتوقف نموها. بل وتقتلع بعض الفضائل ليحل محلها ما يضادها من تهوُّر غير محدود وحنق زائد وغضب شرير وكبرياء وحُب ظهور وغباء.

دعني لا أتكلم عن هذا، لأن أولئك الذين أمسكوا بهذا المرض (محبة المال) لا يقدرون أن يحتملوا السماع عن الفضيلة والرذيلة. إذ قد تشبّعوا باللذة واستُعبِدوا لها. فلنترك الزمن بنفسه يعلن هذه الأمور. والآن نتكلم عن الأمور الأخرى الباقية وهي "**هل الثروة فيها سعادة وكرامة؟**" لأنه في نظري أن الأمر على نقيض هذا.

[تكلَّم القديس يوحنا الذهبي الفم بإطالة مقارنًا بين طعام الغَنِي وطعام الفقير، مُظْهِرًا، الأمراض الفسيولوچية التي يخضع لها كثير من الأغنياء بسبب الشَرَه في الأكل، كما تحدَّث عن الاستعباد لشهوة الأكل والشرب. وأخيرًا قارن بين السعادة التي يشعر بها الغني والفقير أثناء الأكل، مؤكدًا أن اللذة لا تتوقف على نوع الطعام بل على اشتياق الإنسان

---

[1] أطال القديس الذهبي الفم الحديث عن الغنى قاصدًا محبة الغنى والمال، وأفاض عما يسببه من أذى للنفس، وكيف أن الفقر في ذاته لا يضر. وقد اختصرت هنا الحديث، مكتفيًا ببعض أقواله.

واحتياجه للطعام. وقد علّق على قول الرب بلسان النبي: "**من الصخرة كنت أشبعك عسلاً**" (مز ٨١: ١٦). قائلاً بأن الله لم يخرج لهم عسلاً بل ماء، لكن في إرهاقهم وتعبهم وجهادهم في السير صار الماء عسلاً في أفواههم. هذا بالنسبة لمائدة الفقير، أما الغني فمائدته لا يشعر الآكلون منها بالسعادة، حتى ما هو حلو فيها يصير بالنسبة لهم مرًا (راجع أم ٢٧: ٧)].

هل الثروة تجلب الكرامة؟

قد يقول قائل: لكن الثروة تضفي على صاحبها كرامة، وتُمكِّنه من الانتقام من أعدائه بسهولة. أسألك: هل هذا هو السبب الذي لأجله تبدو لك الثروة موضوع شوق يستحق النضال من أجلها. إذ تعمل على إثارة ميول خطيرة في طبيعتنا، فتقود الغضب إلى حيز التنفيذ، وتزيد فقاعات الطمع الفارغة، وتحث البشر وتثيرهم نحو الزهو؟! فلماذا لا يكون هذا هو السبب عينه الذي يدفعنا إلى أن نعطي للثروة ظهرنا بحزم، **لأنها تُدْخِل في قلوبنا حيوانات مفترسة قاسية وخطيرة، فتنزعنا من الكرامة الحقيقية التي يلزم أن تكون لنا وتُقَدِّم ما هو مضاد للكرامة الحقيقية لمن ينخدعون بواسطتها، ويكون عملها عندئذ أن تكسي ما هو مضاد للكرامة ألوانًا حتى يحسبونها كرامة مع إنها ليست كذلك في حقيقتها...**

فكما أن جمال العاهرات يكمن في طلاء الألوان والأصباغ، ومع أن وجوههن قبيحة دنسة مفتقرة إلى الجمال الحقيقي، لكنها تبدو لمن يُخدَعون أنها حسنة وجميلة... هكذا أيضًا (حب المال) يعمل على إظهار التملق أنه كرامة.

أتوسل إليك ألاَّ تعطي اعتبارًا للمديح الذي يُقَدَّم بسبب الخوف منك أو لتملقك، فإن هذا في حقيقته ليس إلاَّ ألوانًا ناصعة وأصباغ. فإن كشفتَ الضمير الداخلي لكل فردٍ من الذي يتملقونك بهذه الطريقة، تجد فيه اتهامات لا حد لها موجّهة ضدك، كما تجد شتائم وبغض أكثر مما يصبه لك الأعداء والمقاومون لك. فإذا حدث أن تغيرت الظروف بحيث تحرك وانفضح القناع (أو الوجه المستعار) الذي أوجده الخوف... عندئذ سترى بوضوح كيف يزدرى بك إلى أبعد حد أولئك الذين كانوا قبلاً يتوددون إليك، وتعرف أنك كنت متخيلاً أنك متمتع بالكرامة من هؤلاء الذين يكرهونك، هؤلاء الذين تغلي في داخل قلوبهم شتائم لا حد لها ضدك، ويشتاقون أن يروك وقد حلّتْ بك مصائب فادحة.

إذن لا يوجد مثل الفضيلة لتنال الكرامة، لا عن سلطة أو تصنُّع ولا تكمن تحت قناع الخداع، بل الكرامة التي بحق وأصيلة، وقادرة أن تثبت مع تجارب الزمن القاسية.

هل يساعدك المال على الانتقام؟

لكن هل ترغب في الانتقام من مُضايقيك؟ هذا هو السبب - كما كنت أقول حتى الآن- الذي لأجله يجب أن نتجنب المال (حب المال)، لأن هذا يجعلك تستل سيفك ضد نفسك، ويردك مطالبًا بحمِل ثقيل يوم الحساب الآتي، ويجعل عقابك غير مُحتَمل.

لأن الانتقام هو شر عظيم، حتى أنه يعمل على نزع المراحم الإلهية، ويفسد المغفرة التي وُهِبَتْ لك عن الخطايا غير المحصية. لأن الذي نال عفوًا عن دين من عشرة آلاف وزنة، هذا بعدما نال العفو العظيم بمجرد أن طالب العبد رفيقه بالديْن الذي له عنده وهو مئة دينار، كانت هذه المطالبة بالنسبة له بمثابة تعدٍ على نفسه، إذ بقسوته على زميله أخضع نفسه للإدانة (إذ عاد السيد يطلب منه الديْن الذي أعفاه منه) فلهذا السبب، وليس لسبب آخر سحبه المُعَذِّبون، وصار هناك مرهونًا ومطالبًا بتسديد العشرة آلاف وزنة، ولم يُسمَح له لا بالاعتذار، ولا بالدفاع، إنما نال عقوبة عظيمة، وطُلِبَ منه الدين الذي كان الحنان الإلهي قد أعفاه منه سابقًا (مت ١٨: ٢٣- ٣٥).

أسألك، هل لهذا السبب تطلب الثروة، مناضلاً بشوقٍ عظيمٍ هكذا، إذ تقودك إلى خطية من هذا النوع؟! نعم، بالحقيقة إنه السبب الذي لأجله يلزمك أن تشمئز من محبة المال كعدوٍ وخصمٍ، إذ تنتج جرائم لا حصر لها.

هل أضر الفقر بلعازر؟

قد يقول قائل: إن الفقر يجعل الناس متضجرين، وغالبًا ما يدفعهم إلى النطق بكلمات تجديف، وينزل بهم إلى الأعمال الدنيئة.

ليس الفقر هو الذي يفعل بالإنسان هكذا، بل دناءة النفس. لأن لعازر كان فقيرًا، نعم كان فقيرًا جدًا، ويعاني بجانب فقره من ضعف جسدي أقسى بكثير من الفقر في أي صورة من صوره، الأمر الذي جعل فقره قاسيًا جدًا. وبجانب هذا الضعف أيضًا، كان محرومًا تمامًا من الذين يعولونه، مع صعوبة إيجاد أية مؤونة لسد أعوازه، الأمر الذي ضاعف من مرارة فقره وضعفه... فعدم وجود من يعوله، يجعل ألمه أشد، واللهيب أقسى، والكارثة أمرّ والمُجَرِّب أكثر وحشية، والأمواج عنيفة والأتون أكثر اتقادًا...

وهناك أيضًا تجربة رابعة بجانب الجوانب الثلاثة السابقة، وهي عدم اكتراث الغَنِي به رغم ترفه.

وإن أردتَ، تجد أيضًا أمرًا خامسًا يزيد التهاب النار... وهو أن الغني ليس فقط يعيش في حياة ترف، بل ويرى الفقير مرتيْن وثلاثًا بل ومرات عديدة، يراه كل يوم مُلْقَى عند بابه، في مشهدِ خطيرِ لكارثةٍ يُرثَى لها، مجرد النظر إليه يكفي أن يلين القلب الحجري، ومع هذا فإن المنظر لم يدفع الرجل القاسي إلى مساعدة هذا الفقير إلى هذه الدرجة؛ إنما كان يقيم مائدته المترفة، عليها الكؤوس المُزَيَّنة بالورود، والنبيذ النقي يصب بغزارة، لديه جيوش من الطباخين والمتطفلين والمتملقين يعملون منذ الفجر المُبَكِّر، وفِرَق من المغنين وحاملي الكؤوس والمُهَرِّجين، ويقضي كل وقته منغمسًا في الملذات والسكر والأكل بشراهة، متنعمًا بالملبس والأكل وبأمور أخرى كثيرة. فمع أنه كان يرى هذا الفقير منكوبًا بالجوع الزائد والضعف الجسدي المُرّ وبالقروح الكثيرة، والحرمان والمرض الناتج عن هذا الحال، إلاّ أنه لم يفكر فيه. فالمتطفلون والمتملقون كانوا يتنعمون بأكثر من احتياجهم، أما الفقير الذي كان فقيرًا جدًا ومنكوبًا بمآسٍ كثيرة، لم يُعطَ له حتى الفتات الساقط من مائدته رغم اشتهائه له بشوق عظيم.

ورغم هذا كله، فإن شيئًا من هذه الأمور لم تؤذِ لعازر، إذ لم ينطق بكلمة قاسية، ولا تكلَّم بحديث دنيء، إنما **كان كقطعة الذهب التي تشع ببريق أعظم كلما تنقت بنار متزايدة.** بالرغم من هذه الضيقات التي أحاطت به ، إلاّ أنه تسامى عليها وعلى ما تنتجه هذه الأمور من هياجٍ.

فإن كنا نتكلم عن الفقراء عامة وما يثور في نفوسهم من حسدٍ وما يتعذبون به من تفكير الحقد الرديء عند رؤيتهم للأغنياء، ناظرين إلى أنه لا تستحق الحياة المتسمة بالفقر أن توجد. هذا ما يفكر فيه الفقراء الذين يجدون القوت الضروري ولهم من يعطيهم أعوازهم، فكم يكون هذا الفقير لعازر. ألم يكن بحق حكيمًا جدًا، طيب القلب. إذ يرى نفسه أفقر من كل الفقراء، بل وبه ضعف. وليس له من يحميه آو يعطف عليه. مُلْقَى في وسط المدينة وكأنه في وسط صحراء بعيدة، يتلوى من مرارة الجوع، ويرى كل الخيرات تتدفق على الغَني كما من نافورة، وليس له أية تعزية بشرية. لقد كان لعازر مُلقَى كغذاء دائم تلحسه ألسنة الكلاب، وبسبب ضعفه وجسده المُحَطَّم لم يكن يقدر حتى على طردها!

أما تدرك إذن أن الذي لا يؤذي نفسه لا يقدر أن يؤذيه شيء؟... لأنه أي ضـــرر أصاب هذا من ضعف جسمه، أو عدم وجود من يحميه، أو التفاف الكلاب حوله، أو من شر مجاورته للغني ورؤيته عظم الترف والتنعم والكبرياء الذي للأخير؟ هل هذه الأمور أضعفته ليضاد الفضيلة؟! هل أوهنتْ هدفه؟!

لم يؤذِه شيء بالكلية، بل كثرة أتعابه مع قسوة الغني زودته قوةً، وصارت بالنسبة له دُعَامة لنوال أكاليل النصرة غير المتناهية، كوسائل تزداد بها مكافأتـــه، وباعــث لنـــوال جزائه... **لأنه كان يحتمل تجربته بشجاعةٍ وثباتٍ عظيم...**

أنت بلا عذر!

أولاً: لا تحتج بعدم دعوتك!

بعدما عالج القديس يوحنا الذهبي الفم عدم إمكان إصابتنا بضررٍ، لا من إنسان ولا من شيطانٍ ولا بإغراء للخطية ولا بالتهديد بالحرمان من أمور هذه الحياة، طالما كان القلب ملتصقًا بالله وساهرًا ومتيقظًا، يجاهد متمسكًا بالنعمة الإلهية والإمكانيات الإلهية المُعطَاة لنا، خشي القديس يوحنا الذهبي الفم أن يعتذر أحد قائلاً: إنني لست مدعوًا لملكوت السماوات لأنني أسقط في الخطية.

والحقيقة أن الله "يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون" (١ تي ٢: ٤)، أما سقوطنا فليس لأن الله قد رفضنا، ولا لأنه سمح لنا بالتجارب، إنما لأن أساس قلبنا مبني على الرمل لا على الصخر... مبني على محبة العالم الواهية، لا على محبة ربنا يسوع الحقيقية.

دُعِيَ يهوذا ومات المسيح لأجله كما لأجل كل العالم، لكنه رفض بالرغم من كل الإمكانيات التي أُعطيتْ له أكثر من جميعنا. والشعب غليظ القلب رفض الله وعبد العجل الذهبي رغم المعجزات والبركات المعطاة له، بينما تاب سريعًا شعب نينوى الأممي[1].

يهوذا بلا عذر!

أخبرني ماذا كان حال الطوباوي بولس؟! لأنه لا يوجد ما يمنعني من الإشارة إليه مرة أخرى. ألم يعانِ من عواصف التجارب بلا حصر؟! في أي شيء أضرّته هذه التجارب؟! ألم يتوج بالنصرة بالأكثر إذ احتمل الجوع وعانى من البرد والعري، وتعذب بجلدات ورُجم وغرق في البحر؟!

لكن قد يقول قائل: **إنه القديس بولس الرسول، المدعو من المسيح!** وأيضًا يهوذا كان أحد الاثني عشر، ودعاه المسيح أيضًا، ولكن لم يكن مجرد حسبانه ضمن الاثنى عشر، ولا دعوته أفادته، لأن فكره لم يكن ثابتًا في الفضيلة.

فالقديس بولس الرسول بالرغم من مصارعته ضد الجوع وحرمانه من قوته الضروري مع تحمُّله لأتعاب كثيرة كهذه يوميًا، سلك في الطريق المؤدي إلى السماء بغيرة

---

[1] هذا التقديم من وضع المعرب.

عظيمة، بينما يهوذا رغم دعوته من الرب قَبْل القـديس بـولس الرسـول وتمتُّعـه بـنفس المميزات، وتعلَّم أسمى شكل للحياة المسيحية، وكان له نصيب في المائدة المقدسة[1]، التي هي أعظم الموائد المرهبة، وأعطيت له مثل هذه الموهبة أن يقيم الميت ويُطَهِّر البرص ويُخرج الشياطين، كما سمع الكثير عن موضوع الفقر، وقضى وقتًا طويلاً في معية السيد المـسيح نفسه، بل وكان موضع ثقة ليكون معه صندوق الفقراء، حتى تتلطف شهوته، إذ كان لـصًا، ومع هذا كله لم يتحسن، رغم ما وُهب له من لطفٍ عظيمٍ كهذا. فإذ عرف المسيح أنه طماع وأنه سيهلك بسبب محبته للمال، لم يعاقبه للحال، بل وأعطاه. صندوق الفقراء ليلطـف مـن شهوته، حتى تكون له بعض الوسائل لإبطال طمعه، لعله يخلص من السقوط في تلك الهـوة المريعة للخطية، ويوقف الشر العظيم...

على أي الأحوال، لا يمكن لأحد أن يؤذي إنسانًا لم يختر لنفسه أن يـؤذي نفـسه. ولكن إن كان الإنسان غير راغب في ضَبْطِ نفسه ولا يُعين نفسه من الداخل... لا يقدر أحد أن يعينه.

تلك القصة العجيبة الواردة في الكتاب المقدس، التي كما لو كانت في صورة شاهقة ضخمة متسعة، ترسم حياة رجال العهد القديم، ابتداء من رواية آدم حتى مجيء المسيح، هذه القصة تعرض لكم الذين هلكوا، والتي توجوا بالنصرة في المعركة. وهي تُعَلِّمكم أنه لا يوجد أحد يقدر أن يؤذي آخر، لو لم يضر هذا الآخر نفسه، حتى ولو شنَّ العالم كله حربًا قاسـية ضده. فلا ضغط الظروف ولا اختلاف الأزمنة ولا شـتائم البـشر الـذين لهـم سـطوة، ولا المكائد... ولا تجمهر الكوارث وتجمُّع الأمراض الكثيرة التي يخضع لها البشر، هذه كلها لا تقدر أن تقلق الإنسان الشجاع ضابط نفسه المتيقظ، ولو إلى درجة خفيفة. وعلى العكـس الإنسان المتراخي المستلقي على ظهره، الذي هو خائن لنفسه، لا يقدر أن يصير في حالـة أحسن مما هو عليها، ولو قُدِّمَتْ له خدمات لا حصر لها.

أمثلة

هذا على الأقل وضُح لنا من مثل الرجلَيْن، اللذيْن أحدهما أقام بيتًا على الـصخر، والآخر على الرمل (مت ٧: ٢٤.. الخ). ليس لنا أن نفكر في الرمل والصخر، أو في البناء

---

[1] يرى بعض آباء الكنيسة أن يهوذا خرج قبل التناول من الإفخارستيا، هذا الرأي تميل إليه الكنيسة، وتـرفض رأي الذهبي الفم.

أو الأمطار أو العواصف... بل أن ننتبه إلى الفضيلة والرذيلة كمعانٍ لهذه الأمور، مُدركين أنه لا يضر أحد إنسانًا لا يضر نفسه.

فلا المطر رغم سقوطه بغزارة، ولا العواصف التي تصد المباني رغم عنفها، ولا الرياح الشديدة التي تهاجم بعنف... استطاعت أن تهز البيت في أي درجة، بل بقي ثابتًا غير متزعزع. وهكذا نفهم أنه لا تقدر تجربةٌ ما أن تزعزع الإنسان الذي لا يخون نفسه.

أما منزل ذلك الرجل الذي سقط سريعًا، فإن سقوطه لم يكن بسبب قوة التجارب (لأن البيت الثاني عانى بنفس القدر)، لكن السبب هو غباوة صاحبه... لأنه بناه على الرمل، أي بالتراخي والشر. إنه قَبْل السقوط كان ضعيفًا ومستعدًا للسقوط. لأن المباني التي على الرمل ولو لم يضغط عليها شيء فإنها ستتدمر من نفسها وتتبدد في كل اتجاه...

فكما أن أنسجة العنكبوت تتمزق دون أية مقاومة (ملموسة) بينما لا ينكسر الماس حتى ولو طُرِقَ، هكذا أيضًا الذين لا يضرون أنفسهم يصيرون إلى حياة أقوى متى أصابتهم ضربات لا عدد لها. أما الذين يخونون أنفسهم، فإنهم يسقطون وينهارون ويهلكون ولو لم يثرهم أحد. هكذا هلك يهوذا مع أنه لم يتعرَّض لتجربة من هذا النوع (كالقديس بولس الرسول)، بل بالعكس أُعطيتْ له إمكانيات عظيمة.

ثانيًا: لا تحتج بضعف إمكانياتك

سِرّ سقوط الكثيرين عدم معرفتهم للإمكانيات القوية الممنوحة لهم من قِبَل الرب لكي يتوبوا ويعيشوا في حياة القداسة. فلا يصيبنا ضرر لا من الشهوات الجسدية أو العالم بمغرياته وتهديداته أو الشيطان بمكره. بقدر ما يعمل العدو باستمرار أن يجعلنا ننسى حقيقة أنفسنا، خاصة نحن أبناء العهد الجديد الذين قد أُعطيَ لنا الروح القدس ساكنًا فينا، وربنا يسوع مصلوبًا حبًا فينا، والكنيسة مثل أم تُقَدِّم لأولادها عمل الله في الأسرار...

إن عمل الشيطان في تجربته ضد ربنا يسوع كانت في محاولته تشكيكه في بنوته للآب. "إن كنت ابن الله..."، وهذه هي المحاولة المستمرة التي يصنعها معنا، وكثيرًا ما ينجح فيها... لذلك فإن صلوات الرسول من أجل شعبه هي لكي تكون مستنيرة عيون أذهانهم ليعلموا "ما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين حسب شدة قوته" (أف ١: ١٩).

فالسقوط هو من تراخينا وكسلنا وتهاوننا في استخدام الأسلحة الروحية القوية التي بين أيدينا بل في داخلنا، وليس في ضعف إمكانياتنا. إن شعب نينوى الأممي الذي لم يتذوق شيئًا مما سمعناه ورأيناه وتذوقناه سيكون مُوَبِّخًا لنا في يوم الدينونة[1].

هل انتفع اليهود قساة القلب بعطايا الله؟!

(قَارَنَ القديس يوحنا الذهبي الفم بين الشعب اليهودي العنيد رغم ما قُدِّمَ لـه من إمكانيات، وبين أهل نينوى سريعي التوبة رغم أنه لم تعطَ لهم عطايا كالأولين).

العطايا الإلهية لم تُلَيِّن عناد قلوبهم. أتريد أن أوضح لك هذا بأمثلة من جميع الأمم؟! أية عطايا قُدِّمتْ لليهود (عند خروجهم من مصر)؟ ألم تقم المخلوقات المنظورة كلها بخدمتهم، وأُعطيتْ لهم وسائل جديدة وفريدة للحياة؟ فإنهم (في البرية) لم يكونوا يذهبون إلى سوق، إنما يأخذون ما يُشترَى بمال مجانًا، ولم يفلحوا أرضًا، ولا استخدموا محراثًا ولا مهَّدوا الأرض للزراعة، ولا ألقوا بذورًا، ولم يحتاجوا إلى أمطار ورياح أو فصول للسنة للزراعة، أو أشعة شمس أو شكل معين للقمر أو طقس معين، ولا شيء من هذا القبيل. إنهم لم يعدّوا الأرض لدرس الحنطة، ولا درسوا حنطة، ولا استخدموا مذراة لفصل الحنطة عن القش، ولا طاحونًا ولا فرنًا ولا أحضروا خشبًا أو نارًا في بيت. ولم يحتاجوا إلى أدوات للعجن... ولا أي نوع آخر من الأدوات الخاصة بالنسج والبناء وصنع الأحذية، بل كانت كلمة الله هي كل شيء بالنسبة لهم.

لقد كانت لهم مائدة لم تعدها يد بشرية، أُعدتْ بدون جهادٍ أو تعبٍ. لأنه هكذا كانت طبيعة المن، إنه جديد، وطازج، ولا يحملهم أية مشقة أو جهاد.

أما ثيابهم وأحذيتهم وأبدانهم فقد فقدت ضعفها الطبيعي. فثيابهم وأحذيتهم لم تبلَ بعامل الزمن وأرجلهم لم تتورم رغم كثرة السير. ولم يذكر قط أن بينهم كان أطباء أو دواء أو أي شيء من هذا القبيل. وهكذا قد انتُزِع كل ضعف من بينهم. فقد قيل: "فأخرجهم بفضة وذهب ولم يكن في أسباطهم عاثر (هزيل)" (مز ١٠٥: ٣٧)... أشعة الشمس في حرارتها لم تضربهم، لأن السحابة كانت تظللهم وتحيط بهم كمأوى متحرك يحمي أجساد الشعب كله. ولم يحتاجوا إلى مشعل يبدد ظلام الليل، بل كان لهم عمود النار كمصدر إضاءة لا يُنطق به، يقوم بعمليْن: الإضاءة بالإضافة إلى توجيههم في طريق رحلتهم... قائدًا هؤلاء الضيوف

---

[1] هذا التقديم من وضع المعرب.

الذين بلا عدد في وسط البرية بدقة أفضل من أي مرشد بشري. ولم يرحلوا فقط على البـرّ بل وفي البحر كما لو كان أرضًا يابسة... فقد قاموا بتجربة جريئة تخالف قوانين الطبيعة. إذ وطأوا البحر الثائر، سائرين فيه كما على صخر يابس صلب. فإذ وضعوا أقدامهم فيه صارت مادته كالأرض اليابسة... وإذ وصل إليه الأعداء عاد إلى ما كانت عليه طبيعته، فـصارت للأولين مركبة وللأعداء قبرًا... فقام البحر الذي لا يفهم بدور مُحكَمٍ كأعقل وأذكى إنـسان، قام مرة بدور حارس، ومرة أخرى بدور منتقم، مُعلِنًا هذا العمل المتناقض في يوم واحد.

وماذا أقول عن الصخرة التي أخرجت ينابيع ماء؟ وسحاب الطيور الـذي غطـى الأرض بكثرته؟ وماذا عن العجائب التي حدثت في مصر؟...

إن هذه العجائب جميعها لم تكن لمجرد إشباع احتياجاتهم، إنما لكي يحفظ الـشعب التعاليم المُسلَّمة لموسى عن معرفة الله بدقة زائدة...

ومع ذلك فإنه بعد عناية ملموسة عظيمة هكذا، وبركات لا يُنطَق بها، ومعجـزات قوية، واهتمام زائد، وتعليم مستمر، وتحذيرات تارة بالكلام وأخرى بالأعمـال، ونـصرات مجيدة ونجاح غير طبيعي وشبع زائد لاحتياجاتهم من الطعام وفيض مياه غزيرة، ونظـرهم مجد غير منطوق به في أعين الطبيعة البشرية (موسى). **مع ذلك فقـد تـذمروا وبـلا أي إحساس عبدوا العجل وكرموا رأس الثور، رغم تذكرهم بركات الله... بل وكانوا لا يزالون يتمتعون بها.**

استعداد شعب نينوى للتوبة؟

وأما أهل نينوى فبالرغم من كونهم شعب بربري وغريب، ليست له أي شركة في البركات، صغيرة كانت أمْ كبيرة، لا بكلمات ولا بمعجزات ولا بأعمال، هؤلاء عنـدما رأوا إنسانًا منقذًا من الغرق، لم يلتقِ بهم من قَبْل ولا سبق لهم أن عرفوه، يدخل مدينتهم قائلاً: "بعد (أربعين) يومًا تنقلب نينوى" (يونان ٣: ٤)، رجعوا وتابوا... ونزعـوا شـرورهم القديمـة وتقدَّموا في حياة الفضيلة بالتوبة، حتى جعلوا العبارة (الخاصة بالغـضب الإلهـي) ينتهـي مفعولها... "فلما رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة ندم الله على الشر الـذي تكلم أن يصنعه بهم فلم يصنعه" (يونان ٣: ١٠).

كيف تغير هؤلاء رغم شرهم العظيم وقسوتهم غير المنطوق بها وقروح أخلاقهـم المستعصية العلاج، إذ مكتوب: "قد صعد شرهم أمامي" (يونان ١: ٢) مـشيرًا إلـى العلـو

المكاني كتعبيرٍ عن مقدار عظمة شرهم، إذ قد تكدَّس إلى علو هذا قدره، حتـــى بلـــغ إلـــى السماء...؟!

انظر إذن كيف يمكن للإنسان الساهر الضابط لنفسه المتيقظ ليس فقط لا تمتد إليـــه أيادٍ بأذى بل ويستطيع أن يرفع الغضب السماوي!...

فشعب نينوى رغم أنه لم يكن لهم أي نصيب من المعجزات التي للشعب اليهـــودي (القاسي القلب)، لكن بقدر ما كان لديهم من استعداد داخلي حسن، فإنه إذ أُعطيتْ لهم فرصة بسيطة استفادوا منها ليصيروا إلى حالة أحسن، رغم جهلهم بالوحي الإلهي وابتعادهم عـــن فلسطين!

موقف الثلاثة فتية

مرة أخرى أسألُ: هل فسدت فضيلة "الثلاثة فتية" بسبب المتاعب التي حلَّت بهـــم؟ فرغم صغرهم، بل صغرهم جدًا من جهة السن... ألم يخضعوا للأســـر المـــؤلم الخطيـــر؟ ألم يُقصوا بعيدًا جدًا عن بلدهم؟... ألم يُحرَموا من بلـــدهم وبيـــوتهم وهـــيكلهم ومـــذبحهم وذبائحهم وتقدماتهم حتى من أدوات الترتيل بالمزامير؟!... كنتيجة حتمية قد حرمـــوا مـــن كل أشكال العبادة. ألم يُسلَّموا في أيادٍ همجية هم ذئاب أكثـــر مـــنهم بـــشر؟ وحاقـــت بهـــم كوارث أعظم من الكل... محتملين الأسر الخطير بلا مُعَلِّم ولا نبـــي لا مرشـــد... عـــلاوة على هذا حُمِلُوا إلى القصر الملكي وصاروا كمن هم بين الـــشقوق والـــصخور، مبحـــرين في بحر مملوء بالشعاب والصخور، مجبَرين على الإبحار في بحر من الغضب بلا مرشـــد أو عامل للإشارات أو طاقم أو بحارة، محبوسين في القصر الملكـــي كمـــن فـــي ســـجن؟! ولكن بقدر ما عرفوا الحكمة الإلهية وسموا بالأمور الإلهية، واحتقروا كل كبريـــاء بـــشري، وصارت لهم أجنحة لأرواحهم يُحلِّقون بها عاليًا، معتبرين أن غربتهم هناك كأنهـــا تـــشديد لمتاعبهم.

لو كانوا خارج البلاط يقطنون في مسكن خاص، لكانوا أكثر استقلالاً، لكنهم بهـــذا أُلقوا كما في سجنٍ... خاضعين لأي أمر أو تدبير قاسٍ مباشرة. فإذ طلب الملـــك مـــنهم أن يشاركوه في مائدته وترفه وأطايبه الدنسة، الأطعمة المُحَرَّمة عليهم، كان هذا بالنـــسبة لهـــم أرعب من الموت. كانوا كحملان وسط ذئاب كثيرة، مُجبَرين إما أن يُعـــدَموا أو أن يـــأكلوا الطعام المُحَرَّم...

إنهم لم يبالوا بالسلطان القاسي المطلق، مع إنه كان لديهم ما يبررون به طاعتهم له، لكنهم قدَّموا نصيحة ورأيا مناسبًا حتى يتجنبوا الخطية رغم تجريدهم من كل شيءٍ. إذ لم يكن ممكنًا أن يغروا (رئيس الخصيان) بمالٍ، فكم بالأكثر وهم أسرى لا يملكون مالاً؟! ولا بصداقات أو صلات اجتماعية أن تتشفع لهم أمامه، فكم وهم غرباء؟ وما كان يمكن أن يتحسن موقفهم حتى وإن كان لهم سلطان، فكم وهم عبيد؟ وما كانوا يسيطرون عليه بكثرة العدد، فكم يكون موقفهم وهم ليسوا إلا ثلاثة؟!

ومع ذلك اقتربوا إلى الخصي المُوَكل إليه بهذا العمل، وأقنعوه بحججهم، إذ رأوه خائفًا ومرتعبًا... إذ يقول: "إني أخاف سيديّ الملك الذي عيَّنَ طعامكم وشرابكم. فلماذا يرى وجوهكم أهزل من الفتيان الذين من جيلكم، فتدينون رأسي" (دا ١: ١٠). أنقذوه من هذا الرعب، وأقنعوه أن يعطيهم مُهْلَة... إذ عملوا بكل قوتهم، ساهم الله أيضًا بقوته... وإذ أعلنوا نُبْلَهم وشجاعتهم ربحوا لأنفسهم العون الإلهي، وهكذا تحققت أهدافهم.

هل تدرك أن أي إنسان لا يضر نفسه لا يقدر أحد أن يضره؟ أنظر على الأقل إلى حداثة سن هؤلاء وأسْرَهم الخ. فإن هذا كله لم يضرهم، بل على العكس صار لهم بسببه سمعةً أفضل مما كانت لهم قبل حرمانهم.

وهكذا بعدما نفذوا عملهم خضعوا لأعداء آخرين، ومرة أخرى كانوا هم نفس الرجال، وقد خضعوا لتجربة أقسى من الأولى، إذ أُشعل لهم أتون، وتصدَّى لهم جيش من المتبربرين يصحب الملك، وكل طاقة الفُرْس قد وجهت لتمكر بهم وتضايقهم... ومع ذلك بقدر ما هم لم يخونوا أنفسهم، بل قدموا كل ما في طاقتهم، لم تصبهم أية خسارة، بل ربحوا لأنفسهم أكاليل نصرة مجيدة لم ينالوها من قبل. ربطهم نبوخذنصر، وألقى بهم في الأتون، لكنه لم يحرقهم، بل بالعكس أفادهم وردهم ممجدين. وبالرغم من حرمانهم من الهيكل والمذبح. مع إلقائهم في الأتون وقد التف حولهم كثيرون جبابرة والملك نفسه الذي سمح بهذا يتطلع إليهم؛ فإنهم شيدوا نصبًا تذكاريًا مجيدًا، ونالوا نصرة ملموسة، مرتلين بتسبحة عجيبة وغريبة، التي من ذلك اليوم إلى الآن ينشد بها في العالم، وستبقى إلى مدى الأجيال...

فإن كان السبي والعبودية... لم يقدرا أن يفسدا الفضيلة الداخلية للثلاثة فتية المأسورين، المستعبدين، الغرباء... بل صارت مقاومة الأعداء بالنسبة لهم بالحري فرصة لنوال ثقة (إيمان) أعظم، فأي شيء يمكن أن يضر الإنسان الضابط لنفسه؟ لا شيء يضره، ولو قام العالم كله في جيوشٍ ضده. لكن قد يقول قائل: إنه في حالة هؤلاء الفتية **كان الله**

واقفًا معهم، وحماهم من النيران. بالتأكيد هذا حدث، **فإن قمتَ أنت بواجبك قدر قوتك، فإن العون الإلهي حتمًا سيرافقك.**

ومع ذلك فإن السبب الذي لأجله أتعجب من هؤلاء الفتية، وأدعوهم طوباويين وأشتهي أن نقتدي بهم، ليس لأنهم تغلبوا على اللهيب، وأطفأوا حرارته، بل لأنهم رُبطوا وطُرحوا في الأتون... لأجل الإيمان المستقيم، فإن هذا هو الذي شيَّد كمال نصرتهم. وُضع على رؤوسهم إكليل النصر في اللحظة التي أُلقوا في الآتون، قبل أن تتم تلك الأحداث... بل وبدأت تضفر لهم هذه الأكاليل منذ اللحظة التي نطقوا فيها بتلك الكلمات المملوءة شجاعة وحرية في الحديث مع الملك، إذ كانوا في حضرته. "لا يلزمنا أن نجيبك عن هذا الأمر. هوذا يوجد إلهنا الذي نعبده يستطيع أن ينجينا من أتون النار المتقدة، وأن ينقذنا من يدك أيها الملك، وإلا فليكن معلومًا لك أيها الملك، إننا لا نعبد آلهتك، ولا نسجد لتمثال الذهب الذي نصبته" (دا ٣: ١٦– ١٨). بعدما نطقوا بهذه الكلمات أعلن نصرتهم. إذ أمسكوا بإكليل المكافأة وأسرعوا إلى إكليل الاستشهاد المجيد ملحقين شهادتهم بكلامهم بشهادتهم بأعمالهم...

ماذا إذن تقول عن هذه الأمور؟ هل أنت نفيت وأقصيت بعيدًا عن بلدك؟ انظر فإن هؤلاء أيضًا حدث لهم هذا.

هل أنت أُخِذتَ أسيرًا (في حرب) وصرت عبدًا لسادة متبربرين؟... أو هل ربطت وأحرقت وقدمت للموت؟ لأنك لا تستطيع أن تذكر لي أمورًا مؤلمة أكثر من هذه؟ ومع ذلك فإن هؤلاء الرجال اجتازوا هذا كله، وصاروا أكثر مجدًا بسبب كل ألم من هذه الآلام، نعم وأعظم شهرة وازدادت مخازن كنوزهم في السماء[1]...

---

[1] لم أترجم بعض الفقرات لعدم التكرار.

خاتمة

والآن فإنني أختم مقالي بتكرار ما قلته في المقدمة إنه إن أصاب أحدًا ضرر، فإنه يعانى هذا من صنع يديه، وليس من عمل آخرين، وحتى ولو وُجدتْ جموع حاشدة تسيء إليه وتسبه. وإذا لم يعانِ مما تصنعه يداه، فإنه وإن قامت جميع المخلوقات الساكنة في كل الأرض والبحر، إن اجتمعت جميعًا لمهاجمته، لا تقدر أن تؤذي إنسانًا ساهرًا، حكيمًا في الرب.

أتوسل إليكم إذن أن تكونوا حكماء ويقظين في كل الأوقات محتملينً كل الآلام بشجاعة، حتى تنالوا البركات الأبدية الطاهرة في المسيح يسوع ربنا، الذي له المجد والقوة الآن والى أبد الآبدين. آمين.

رسالة تعزية

إلى أرملة شابة

للقديس يوحنا الذهبي الفم

طبعة منقحة

٢٠٠٧

تعريب

القمص تادرس يعقوب ملطي

مُعرب عن:

Nicene and Post-Nicene Fathers, Series 1 Volume 9.

Letter To A Young Widow.

مفهوم التَرَمُّل في الكنيسة

تظهر حيوية الكنيسة الأولى في معرفة رعاتها لحقيقة رسالتهم، التي تتركز في تقديم الإمكانيات الإلهية للبشرية، والكشف عن قوة هذه الإمكانيات التي يمكن أن تعمل في كل عضوٍ.

تتركز رسالة القديس بولس الرسول في الكشف عن إمكانية عمل المسيح الساكن فينا. بل ويصلِّي إلى الله لأجل رعيته بهذا الهدف، "مستنيرة عيون أذهانكم لتعلموا ما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين حسب عمل شدة قوته" (أف ١:١٨-١٩).

فالرعاة الذين يركزون على مجرد مواساة المتألمين أو تعزية الحزانى أو إشباع احتياجات الأفراد، يحكمون على أولادهم هؤلاء بالخمول والضمور ثم الموت. لأنهم لم يعلنوا لهم القوة الساكنة فيهم القادرة أن تعمل فيهم ليشبعوا ويفيضوا على الآخرين.

هؤلاء الرعاة لم يدركوا أن الكنيسة عاملة على الدوام خلال كل أعضائها تحت كل الظروف وذلك بعريسها القدير، لذلك يليق بأولاد ربنا يسوع أن يكونوا عاملين، وإلا صاروا كالعبد الذي أخذ وزنته من سيده ولم يبددها، لكنه خبأها ولم يتاجر فيها. إنهم أعضاء خاملة، وحمل ثقيل على أنفسهم وعلى الكنيسة كلها. فالعضو الذي بلا عمل يموت ويفسد كما يفسد الأعضاء التي حوله.

رسالة الكنيسة توجيه كل عضو من أعضائها، من أطفال وشيوخ، شبان وشابات، رجال ونساء، أصحاء ومرضى ومقعدين، بتوليين وأرامل ومتزوجين، فقراء وأغنياء، رؤساء ومرؤوسين، كهنة وعلمانيين، نحو رسالته ومساعدته في إدراك إمكانية عمل الله فيه حتى يعمل بنعمة الله لأجل بنيان نفسه وبنيان الآخرين.

فالكنيسة لا تزدري بالشباب الساقط تحت ثقل الشهوة العنيفة، ولا تستخف به. بل ولا تقنع بعودته إلى حياة الطهارة، إنما عليها أن تكشف تلك الحقيقة أنه بمقدار بشاعة سقوطه يكون قيامه أعظم. وبمقدار تحطيمه لنفسه، يكون بنيانه لنفسه وللآخرين الساقطين مثله. لأنه كلما ازدادت الشهوة في عنفها فهذا إعلان عن إمكانية نشاط وحب تكمن فيه، ولكنها خاطئة التوجيه. مثل هذا الإنسان يحطمه الراعي الذي يطلب منه مجرد الامتناع عن الشر، لأن الكنيسة لا تقبل كبت أولادها ولا تقف عند السلبية، إنما تؤمن بالتسامي والتوجيه. فمثل هذا تعلن له أولاً أن يحب الله، فتتبدد الشهوة، أو بمعنى أصح تذوب الشهوة في الحب.

هذا ما صنعه القديس يوحنا الذهبي الفم في توجيهه للراهب ثيؤدور الساقط حين أعلن له بوضوح أنه بمقدار سقوطه سيكون قيامه أعظم، بل ويقيم الله بواسطته كثيرين.

أما بالنسبة للأرامل- اللواتي هن موضوع حديثنا - فقد نظن أن رسالة الكنيسة نحوهن تتركز في مواساتهن على نكبتهن، مع مراعاة أحوالهن والاهتمام باحتياجاتهن النفسية والمادية. أقول في خجل، إن هذه نظرة الكثير من الآباء الذين نحسبهم عاملين محبين، لكنها في الحقيقة نظرة جامدة تدفع بفئة الأرامل نحو الموت. لأن الترمُّل ليس نكبة يعمل الرعاة على مواساة من حلّ بهن، بل هو بركة وقوة وإمكانية جديدة، به قد تحرر الأرامل من الالتزامات نحو الأزواج، لتنطلق نفوسهن بحرية أعظم في عبادة الرب وخدمته.

رسالة الرعاة نحوهن أن يكشفن بصائرهن عن العريس الحقيقي يسوع، فيندفعن في حب عميق نحو التعبد والشهادة له.

يلزم للأرامل ألا ينظرن إلى أنفسهن كفئة منكوبة تتلمس عطف الجميع وترفقهم، فيعشن منكسرات القلوب، لا بل هن فئة تحتل الصف الثالث بعد رجال الكهنوت والمتبتلين - إن صح التعبير - لهن عملهن العظيم ورسالتهن في الكنيسة. وبهذا ترتفع روحهن المعنوية، وتنتفع الكنيسة بهن وبخدمتهن.

حقًا إن سرّ ضعفنا اليوم يكمن في نظرتنا الضيقة إلى فئة الخدام - رجال الكهنوت وخدام التربية الكنسية وبعض اللجان للخدمات - إنها تكاد تكون الفئة الوحيدة العاملة في الكنيسة. هذا المفهوم كفيل بأن يقضي علينا بالجمود. فالكنيسة في حيويتها لا تعرف الجمود "من لا يجمع معي فهو يفرق" (مت ١٢: ٣٠). فالأطفال في المدارس من يقدر أن يجذبهم إلى محبة الرب يسوع سوى إخوتهم الأطفال المؤمنين إيمانًا عمليًا، والشباب من يقدر أن يكسبهم لربنا يسوع إلا الشباب الذين لهم صورة السيد المسيح الحقيقية، والنسوة في زيارتهن لبعضهن البعض قادرات أن يعملن على نمو بعضهن البعض روحيًا، بل حتى المريض يقدر أن يربح نفوس زائريه، والعجائز لهم عملهم في الكنيسة.

هذا ما كشفته رسالة القديس يوحنا الذهبي الفم هذه إلى أرملة شابة حديثة الزواج، كان زوجها قد أوشك أن ينال وظيفة والي مقاطعة.

كشفت أولاً وقبل كل شيء عن حكمة رعاة الكنيسة الأولى ومعرفتهم، فيبدأ القديس يوحنا الذهبي الفم في مقدمة الرسالة بقلبٍ منكسرٍ، مشاركًا إياها آلامها وأحزانها، معترفًا لها

بقسوة التجربة. لكنه ينتقل بها من مشاعر الألم إلى مفهوم الترمُّل الحقيقي، وكأنه يقول لها: طوباكِ لأن شركتك بيسوع المسيح تزداد عمقًا الآن، وطوباكِ لأنه يهتم بـكِ كواحـدة مـن أخصائه، بل كعروسٍ له. وطوباكِ لأنكِ صرت أكثر كرامة بكونك أرملة عاملة في الكنيسة. أما مِنْ جهة المجد، فقد أخذ الرب زوجكِ الرفيع المقام، ليصير ربنا يسوع عريسك وفي الحياة الأبدية تلتقين بزوجك في اتحاد روحي عميق أبدي.

ومن جهة اضطراب نفسك وخوفك على مقتنياتك، فاسعي بنقلها إلى السماء حيث تَجِدينها في السماء عِند زوجك. الرب قادر أن يحكم الرعاة لأجل بنيان نفوس الكل.

المُعرِّب

نياحة القديس يوحنا الذهبي الفم: ١٧ هاتور ١٦٨٢

٢٦ نوفمبر ١٩٦٥

نكبة فادحة!

لماذا احتفظت بالصمت إلى حين؟

كلنا يُسلِّم بأنكِ تعانين نكبة فادحة، وأن السيف قد تسلط من فوق على جزء حيوي (زوجكِ)... الأمر الذي لا يقدر أحد أن ينكره، حتى ولو كان رجل كلام غليظ القلب.

وإذ يلزم على الذين قد ضربوا بالحزن ألا يقضوا كل حياتهم في النحيب والعويل، بل عليهم أن يعالجوا جراحاتهم لئلا بإهمالهم تزيد دموعهم من جراحتهم، وتلتهب نيران حزنهم، لهذا فإنه من الصواب أن ننصت إلى كلمات التعزية، حاجزين ينبوع دموعنا إلى حين، ناصتين إلى الساعين لتعزيتنا.

لهذا، فإنني قد امتنعت عن إزعاجكِ يوم كان حزنكِ في أوج شدته، عند حلول الصاعقة بكِ، منتظرًا فترة من الزمن، سامحًا لكِ أن تمتلئي حزنًا. أما الآن فإنك تستطيعين النظر خلال الضباب الخفيف، وأن تفتحي أذنيكِ لمن يحاولون تعزيتكِ. فإنني أريد أن أعضد كلمات خادماتك لكِ مع شيء من المشاركة من جانبي.

حينما تكون الزوبعة عنيفة، ورياح الحزن شديدة، فإن من ينصح غيره (في هذه الظروف) بالكف عن الحزن، يكون بالحري قد أثاره إلى زيادة الحزن، ويسبب له كراهية (نحو ناصحه)، وتكون كلمات الناصح بالنسبة له كوقود تشعل نيران الحزن، بجانب نظرته إلى الناصح كإنسان قاسي وغبي. ولكن إذ تبدأ المياه المضطربة أن تستكين، ويكون الله قد هدَّأ الأمواج، عندئذ يمكننا أن نبسط قلاع مراكب حديثًا بلا خوف. إذ في العاصف المعتدل يمكن للخبرة أن يكون لها نفعها. أما إذا كان هجوم الرياح عنيفًا، فالخبرة في هذه الحالة لا تجدي .

لهذا السبب، فإنني احتفظت بالصمت، أما الآن فقد تجاسرت لأكسر سكوتي، لأنني قد سمعت من خالك أنه يمكن للإنسان أن يبدأ في الحديث معكِ مستعيدًا شجاعته إذ أن بعض وصيفاتك الموقرات تجاسرن وفتحن الحديث معكِ في هذا الأمر، وأيضًا النسوة قريباتك القاطنات خارجًا عن مسكنك، كما لو أنهن قد تهيأن للقيام بهذا العمل.

والآن إذ قد سمحتِ لهن أن يتحدثن معكِ، فإن لي رجاء عظيم وثقة أكيدة أنكِ لا تحتقرين كلماتي، بل تصغين لي حسنًا.

ربنا يسوع عريس نفسكِ!

الحاجة إلى يد القدير

في أي ظرف من الظروف المرأة أكثر حساسية للألم، خاصة وإن كانت صغيرة السن، وترملت قبل الأوان، وليس لها خبرة في الأعمال الكثيرة، وعليها مسئوليات كثيرة جدًا. خاصة وإن كانت حياتها الأولى يحفها الترف، وتغمرها البهجة والغنى، فإن الضيق عندئذ يكون مضاعفًا جدًا. فإن لم تنل مثل هذه المرأة عونًا من الأعالي، يستطيع أي فكر طارئ أن يحطمها.

والآن فإنني أقدم هذه (الرسالة) لتكون الشهادة الأولى والعظمى عن عناية الله بكِ، حتى لا يبتلعكِ الحزن، ولا تهدمكِ أفكارك الطبيعية، عندما تعمل هذه المضايقات فجأة على غمك. فإنك لستِ محتاجة إلى يدِ بشريةِ، بل يد القدير التي لا حد لفهمها. وإلى الحكمة التي اكتشفت "أبو الرأفة وإله كل تعزية" (٢ كو ١:٣)، فقد قيل: "هو افترس فيشفينا" (هو ٦:٢)، "سيضربنا ويعصب جراحاتنا ويشفينا".

كرامة من قبل الله

لقد كنتِ تتمتعين بالكرامة بوجود زوجكِ الطوباوي معكِ، كما كنتِ موضع عنايته وغيرته. حقًا لقد تمتعتِ بما كنتِ تتوقعينه من زوج.

أما الآن وقد أخذ الله زوجكِ لنفسه، فإنه يحتل مكانه بالنسبة لك. هذا لا أقوله من عندي، بل يقول النبي الطوباوي "يعضد اليتيم والأرملة" (مز ١٤٦:٩). وفي موضع آخر يقول: "أبو اليتامى وقاضي الأرامل" (مز ٦٨:٥). وهكذا نجد الله يهتم بهذه الفئة من البشرية بغيرة كما عبر عن ذلك بعبارات كثيرة.

هل تخجلين من دعوتكِ "أرملة"؟

لقب "أرملة" المكرم

ربما كثرة ترديد اسم "أرملة" يضعف روحك ويبلبل فكرك، إذ صرتِ منكوبة وأنتِ في زهرة عمرك.

أريد أولاً وقبل كل شيء أن أناقش هذا وأبرهن لك أن **لقب** "**أرملة**" **ليس عنوانًا لمصيبة، بل هو لقب للكرامة.** نعم إنه لقب لكرامةٍ عظيمةٍ. فلا تأخذي مفاهيم العالم الخاطئة كشهادة تتمسكين بها، بل تمسكي بنصائح الطوباوي بولس، بل بنصائح المسيح، لأن الرسول إنما يتكلم بواسطة المسيح، إذ يقول "المسيح المتكلم فيّ" (٢ كو ١٣:٣).

شروط الأرملة

قال الرسول: "لتُكتتبْ أرملة إن لم يكن عمرها أقل من ستين سنة"، وأيضًا: "وأما الأرامل الحدثات فارفضهن" (١ تي ٥: ٩، ١١). قاصدًا بكلا العبارتيْن أن يشير إلينا بخطورة الأمر.

فعندما نظم موضوع الأساقفة لم يحدد لهم السن، أما هنا فحدّد السن، لماذا؟ ليس لأن الترمّل أعظم من الكهنوت، إنما لأن الأرامل لهن أعمال عظيمة... **فهن محاصرات بأعمال متنوعة، عامة وخاصة.** وكما أن المدينة غير الحصينة تكون نهبًا لمن يريد أن يسلبها. هكذا السيدة الشابة الأرملة، كثيرون حولها يترقبونها، ليس فقط أولئك الذين يرغبون في نهب أموالها، بل والراغبون في إفساد عفتها أيضًا. هذا بجانب خضوعها لظروف أخرى تشبه حالة سقوطها، فاستهتار الخدم وإهمالهم في العمل، وفقدانها للكرامة التي كانت لها قبلاً، وتطلعها إلى نديداتها أنهن مازلن في رخاء، واشتياقها إلى الترف؛ هذا كله يغريها إلى الزواج الثاني.

والبعض منهن لا يرغبن في الارتباط برجل في ناموس الزواج، وهن يفعلن هذا حتى يتمتعن بكرامة الترمّل.

فالترمّل ليس بمخجلٍ، بل هو موضع إعجاب الرجال وتكريمهم، ليس بين الرجال المؤمنين فحسب بل وغير المؤمنين أيضًا.

فعندما كنت شابًا عرفت أن الفيلسوف (ليبانيوس) الذي كان يعلمني، هذا الذي كان يوقر الآلهة أكثر من كل الرجال، هذا قد أظهر إعجابًا بأمي قبل أن تكون لنا رابطة قوية

معه. إذ في استفساره عني كما كانت عادته أن يستفسر عن كل من هم حوله، قيل له إني ابن أرملة. فسأل عن عمر أمي وفترة ترملها. وإذ عرف أن عمرها أربعين عامًا، حيث قضيت عشرين عامًا منذ فقدت أبي، تعجب قائلاً: "يا الله! أية نسوة هؤلاء اللواتي بين المسيحيين!"

هكذا عظيمة هي حياة الترمُّل ومكرمة. ليس في نظرنا نحن فقط، بل وفي نظر من هم خارج الكنيسة...

يقول الرسول بولس: "لتكتتب أرملة إن لم يكن عمرها أقل من ستين عامًا" (١ تي ٥:٩). ولا يكتفي بهذه التهيئة العظيمة من جهة العمر حتى تُحسب المرأة ضمن هذه الجماعة المقدسة (الأرامل)، بل يتطلب صفات أخرى إضافية. "مشهودًا لها في أعمال صالحة، أن تكون ربَّتْ الأولاد، أضافت الغرباء، غسلت أرجل القديسين، ساعدت المتضايقين، اتبعت كل عملٍ صالح" (١ تي ٥:١٠).

يا الله! أي اختبار هذا؟! وأي تقصٍ؟! كم من الفضائل العظيمة يتطلبها في الأرملة؟! واصفًا إياها بدقةٍ بالغةٍ! الأمر الذي ما كان يفعله لو لم يكن يميل أن يعهد إليهن بعملٍ عظيمٍ ومركزٍ مشرفٍ.

عريس سماوي

إنه يقول: "أما الأرامل الحدثات فارفضهن"، والسبب في هذا "لأنهن متى بطرن على المسيح يردن أن يتزوجن" (١ تي ٥:١١). بقوله هذا جعلنا **نفهم أن اللواتي فَقَدن رجالهن هن عروسات للمسيح بدلاً من رجالهن**. انظري كيف يؤكد هذا عن طريق توضيح طبيعة هذا الاتحاد بهدوء وبساطة. أقصد بذلك قوله: "متى بطرن على المسيح يردن أن يتزوجن"، كما لو أن المسيح زوجًا نبيلاً لا يريد أن يسيطر عليهن (جبرًا)، بل يريد لهن أن يعشن بحريةٍ.

سمات الأرملة وعملها

والرسول في مناقشته لهذا الموضوع لم يقف عند هذه العبارات، إذ أوضح في موضع آخر... "وأما المتنعمة فقد ماتت وهي حية"، "ولكن التي هي أرملة ووحيدة فقد ألقت رجاءها على الله وهي تواظب على الطلبات والصلوات ليلاً ونهارًا "(١ تي ٥:٥، ٦).

ويكتب إلى أهل كورنثوس قائلاً: "ولكن أكثر غبطة إن لبثت هكذا" (١ كو ٧:٤٠).

إنكِ ترين أية كرامة عظيمة تُمنَح للأرامل، وهذا في العهد الجديد عندما أضاء نور

البتولية أيضًا بوضوح. ورغم شدة بهاء هذه الفئة (البتوليين) إلا أنها لا تطغي على أمجاد الترمُّل، حيث تضئ للكل، محتفظة بقيمتها.

فعندما تتحدث عن الترمُّل من وقت إلى آخر، لا تتضايقي أو تخجلي منه كأمرٍ معيبٍ. لأنه لو كان الترمُّل معيبًا لكانت بالأكثر البتولية معيبة، ولكن ليست هذه هي الحقيقة. الله لا يسمح!

تكريم الأرامل العفيفات

فطالما نحن جميعًا نُعجب بالنساء اللواتي يعشن بعفةٍ أثناء وجود رجالهن وهم أحياء، ونحترمهن؛ ألسنا بالأكثر نُعجب بأولئك اللواتي يحتفظن بنفس المشاعر لرجالهن حتى بعد وفاتهم، ونمدحهن على هذا؟!

كما كنت أقول، إنه بقدر ما تتمتعين بكرامة أثناء وجودكِ مع الطوباوي *Therasius* ومكانته كأمر طبيعي تناله زوجة من زوجها، فإنه الآن لك الله، رب الكل، الذي هو من قبل حاميك ولازال يحميك، لكن بأكثر غيرة من قبل.

وكما سبق أن قلت، أعود فأقول إن الله يقوم بدور غير بسيط بخصوص عنايته بكِ، فيحفظكِ سالمة، لا يصيبكِ ضرر وسط مثل هذا الآتون من القلق والحزن، ولا يحملكِ أمرًا غير مفيد.

والآن، إن كان الله لا يسمح بأي تدمير للسفينة في وسط ماء هادئ، فكم بالأكثر يحمي روحك في جو هادئ، ويخفف حمل ترمُّلك ونتائجه التي تبدو لكِ أنها مرعبة!

ستلتقين به ممجدًا!

قام برحلة إلى الله

إن كان ليس اسم "أرملة" هو الذي يضايقك، إنما فقدانك لمثل هذا الـــزوج. فـــإنني أوافقك أن قليلين هم أمثال ذلك الرجل في عالم الرجال، في حبه ونبله وتواضعه وإخلاصـــه وحكمته وورعه.

حقًا، لو أنه هلك كلية أو انتهى أمره تمامًا، لكان ذلك كارثة عظمى، وكان الأمـــر محزنًا. لكن إن كان كل ما في الأمر أنه أبحر إلى ميناء هادئ **وقام برحلة إلى الله الذي هو حقًا ملكه، لهذا يلزمنا ألا نحزن بل نفرح.**

ليس بموت، إنما هو نوع من الهجرة

فإن هذا الموت ليس بموت، إنما هو نوع من الهجرة والانتقال من سيئ إلى أحسن، من الأرض إلى السماء، من وسط البشر إلى الملائكة ورؤساء الملائكة، بل ومع الله الـــذي هو رب الملائكة ورؤساء الملائكة. لأنه هنا على الأرض عندما كان يخدم الإمبراطور كانت تحف به مخاطر الأشرار ومكائدهم. وبقدر ما كان صيته يتزايد، كانـــت خطـــط الأعـــداء (الحاسدين) تلتف حوله، والآن قد انتقل إلى العالم الآخر، حيث لا يمكن أن ننتظر فيه شـــيئًا من هذا.

فبقدر ما تحزنين لأن الله قد أخذ إنسانًا هكذا كان صالحًا ومكرمًا، كـــان يجـــب أن تفرحي أنه رحل إلى مكان أكثر أمانًا وكرامة، متخلصًا من مـــضايقات الحيـــاة الحاضـــرة الخطيرة، إذ هو الآن في أمان وهدوء عظيم.

إن كان لا حاجة لنا أن نعرف أن السماء أفضل من الأرض بكثير، فكيـــف ننـــدب الذين رحلوا من هذا العالم إلى العالم الآخر؟!

لا نحزن على أصدقاء الله

لو كان زوجك سالكًا مثل أولئك الذين يعيشون في حياة مخجلة لا ترضي الله، كان بالأولى لكِ أن تنوحي وتبكي، ليس فقط عند انتقاله، بل حتى أثناء وجوده حيًا هنـــا، ولكـــن بقدر ما هو من أصدقاء الله، يلزمنا أن نُسَر به، ليس وهو حي هنا، بل وعندما يرقد مستريحًا أيضًا.

وإذ يلزمنا أن نفعل هذا، استمعي ما يقوله الرسول الطوباوي: "لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح، ذاك أفضل جدًا" (في ١: ٢٣).

لكن ربما تشتاقين إلى سماع صوت زوجك، والتمتّع بحبه الذي كان يحيط بكِ، والوجود معه، وتودين المجد الذي تنالينه بوجودك معه، والعظمة والكرامة والضمان وغير ذلك من الأمور التي بحرمانك منها تظلم حياتك وتتكدر.

يا لقوة الحب!

حسناً! إن الحب الذي كان يمن به عليك يمكنك أن تحتفظي به معك كما كان سابقًا، لأن هذه هي قوة الحب أنه يحتضن ويوحد ويربط لا الحاضرين معًا (جسديًا) فقط والقريبين مكانًا والمرئيين، بل والذين هم بعيدون عن بعضهم البعض مسافة طويلة، فلا يمكن لا لطول الزمن، ولا للبعد المكاني أو شيء من هذا القبيل أن يكسر محبة الروح أو يبددها.

أتودين أن تنظريه وجهًا لوجه؟

لكنكِ إن كنتِ تودين أن تنظريه وجهًا لوجه، وهذا كما أعلم أنه بغية شوقك، فأحفظي مخدعك في كرامة دون أن يلمسك رجل آخر، وابذلي كل جهدك أن تقتدي به، وعندئذ بالتأكيد سترحلين يومًا ما لتلتقي معه هناك، لا لكي تعيشي معه خمس سنوات كما حدث هنا، ولا عشرين عامًا ولا مئة بل آلافًا مضاعفة، لا بل أجيالاً مديدة بلا نهاية، لأنه لا تربطكما بعد علاقة جسدية، بل علاقة بطريقة ما تتناسب مع ما تتهيأين به لميراث مكان الراحة.

فإنه إن كان... قد جلب لعازر الغريب ليكون مع إبراهيم في السماء عينها في حضنه، ويتهيأ كثيرون من المشارق والمغارب للجلوس معه، فكم بالأكثر تنالين أنتِ مكان راحة ثراسيوس *Therasius* الصالح، إن كنتِ تسلكين مثله؟!

صار في بهاءٍ أكثر من أشعة الشمس

عندئذ تتقبلينه مرة أخرى لا في جمال زائل كان فيه عند الرحيل، بل في مجد من نوعٍ آخر، **في بهاء أكثر من أشعة الشمس.**

لأن هذا رغم ما فيه من قسط وافر من الجمال، لكنه زائل. أما أجساد أولئك الذين يَسرّون الله، فستكون مُمجَّدة حتى أن عيوننا هذه لا تقدر على معاينة مجدها.

وقد شجَّعنا الرب بأمثلة معينة وإشارات غامضة في العهدين الجديد والقديم.

ففي القديم **أضاء وجه موسى بمجد** حتى لم يستطع الإسرائيليون أن يتطلعوا إليـــه، أما في العهد الجديد فإن **وجه يسوع أضاء أكثر جدًا عن وجه موسى.**

صار ملكًا مع ملك الملوك

أخبريني. لو وعدك أحد أن يقيم زوجك ملكًا على المسكونة كلها على أن تتركيـــه لمدة عشرين عامًا لأجل نفعه، حتى يعيده إليك بالتاج والأرجوان، فتصيرين فـــي مرتبتـــه، أما كنتِ بوداعة تحتملين الانفصال عنه ضابطة نفسك؟!

أما كنتِ تفرحين حسناً بهذه العطية وتعتبرينها أمرًا يستحق التوسل لنوالها؟!

حسناً إذن أن تذعني لهذا، لا لأجل ملكوت أرضي بل سماوي، لا لتتقبليه مكتـــسيًا حُلَّة ذهبية، بل ثوبًا أبديًا ومجيدًا يتناسب مع الساكنين في السماء...

أتندبين مجد العالم؟!

ربما يكون حزنك أيضًا على فقدانك الطمأنينة التي كنتِ تتمتعين بها في وجود زوجك. وربما لأجل اشتياقك إلى تحقيق الأماني الواسعة في الرفعة التي كنت تنتظرينها. لأنني كنت قد سمعت أن زوجكِ كان سيُعطي له سريعًا أن يكون واليًا على مقاطعة، وهذا على ما أظن أنه يتعبكِ ويضايقكِ.

إنني أتوسل إليكِ أن تتأملي حياة أولئك الذين كانوا في وظائف أعظم من زوجك، وتنظرين كيف انتهت حياتهم بنهاية يُرثَى لها.

دعيني أُذَكِّركِ بهؤلاء. وربما تعرفين ثيؤدور الصقلي[1] لشهرته، إذ كان أحد العظماء البارزين، هذا كان يفوق الكل في قامته ووجاهته وثقة الإمبراطور به. وكان له سلطان في القصر الملكي أكثر من الجميع، لكنه لم يقدر أن يحتمل هذا الترف بوداعةٍ، إنما قام بتدبير مكيدة ضد الإمبراطور، فسجنه وصار حاله بؤسًا. أما زوجته التي لم تكن تقل عن زوجها النبيل في التعليم والمولد وكل الأمور الأخرى، فقد صودرِتْ أموالها جميعها في لحظة، بل وفقدت حريتها إذ صارت جارية، والتزمتْ أن تكون في حياة يُرثَى لها أكثر من كل العبيد...

وقد قيل أيضًا عن أرتميسيا *Artmisia* التي كانت زوجة لإنسان له شهرة عظيمة، هذا الذي أراد أيضًا أن يغتصب العرش، فسقطت زوجته كزوجة السابق بل وصارت عمياء بسبب شدة يأسها وغزارة دموعها. والآن هي تطلب من يمسك بيدها ويقودها حتى تطرق أبواب الآخرين ملتمسة القوت الضروري.

وإنني إذ أذكر لك كثير من العائلات الأخرى التي انحدرت في الطريق، لست أعرف عنكِ أنكِ غير تقية أو حكيمة حتى تطلبي تعزيتك في نكبتكِ بتطلعكِ إلى مصائب الآخرين. إنما السبب الوحيد الذي لأجله أشرت إليكِ بهذه الأمثلة... إنما لكي تتعلمي أن الأمور البشرية كلا شيء، إذ بالحق كما يقول النبي: "كل جماله (مجد الإنسان) كزهر الحقل" (إش ٤٠:٦). إذ رفعة البشر وعلوهم سيتحطم.

---

[1] ثيؤدورو هذا حسب قول *Ammianus Marcellinus 33* كان مواطنًا في الجليل. وربما دعاه القديس يوحنا الذهبي الفم بالصقلي لأنه حاول أن يجعل من نفسه جبَّار جزيرة صقلية. وقد دبَّر الخيانة عام ٣٧١ م.

هل تطلبين الغنى؟

(أدرك القديس يوحنا الذهبي الفم أن من أهم العوامل التي أحزنت هذه الأرملة أنها كانت تتوقع في القريب العاجل أن زوجها سينال مركز رئيس مقاطعة أو مدينة *prefect*. وقد وضعت أمامها أمنيات عظيمة من جهة شهرتها وعظمتها وغناها، بكونها زوجة له... وهنا رسالة القديس يوحنا الذهبي الفم أن يكشف لها ما قاله مار اسحق السرياني أن من يطلب الكرامة تهرب منه، أما من لم يجرِ وراءها تجري هي وراءه وتمسك به، فيذكر لها أن أمور العالم تهرب ممن يتمسك بها ويبحث عنها بقلقٍ واضطرابٍ. أما من يعمل ويجاهد ولا يهتم بكرامة الناس ومديحهم، فهذا تلتصق به الكرامة أكثر. كما يكشف لها أيضًا عن مفهوم المجد الحقيقي والغِنَى الحقيقي الذي ينتظرنا في الحياة الأخرى، فيقول:)

يبدو الغِنَى لغالبية البشر كأمر صالحٍ، لكن متى زالت شهوة المجد الباطل لا يعود الغِنَى كشيء محبوب.

على أي الأحوال، أولئك الذين سمحوا لأنفسهم أن ينالوا في وسط فقرهم مجدًا شعبيًا لم يفضلوا الغِنَى، بل كانوا يحتقرون الذهب عندما كان يقدم إليهم. وأظنكِ لستِ محتاجة أن تتعلمي مني عن أولئك الرجال الذين تعرفينهم أكثر مني، أمثال إباميننونداس *Epminondas* وسقراط وأرسطو ودموجين وكراتس *Krats*. الأولون (غير كراتس) بقدر ما كان يستحيل عليهم نوال الغِنَى نالوا مجدًا في وسط فقرهم. أما هذا الرجل *krats* فقد ترك ما يملكه. وهكذا قد كان شغف هؤلاء في مطاردة ذلك الوحش القاسي (شهوة الغنى والمال).

إذن ليتنا لا نبكي. لأن الله أنقذنا من هذه العبودية الثقيلة التي هي موضع هزء وتوبيخ شديد، لأنه لا يوجد في الغِنَى سموًا إلا فيما يحمله من اسم. وهو يضع صاحبه في مركز يناقض اسمهِ (الغني). ولا يوجد أحد لا يضحك مستهزئًا بمن يمارس أموره لمجرد نوال شهوة المجد (الباطل).

فالذي لا يتطلع مشتهيًا المجد الباطل (أي مديح الناس) هو وحده في استطاعته أن ينال مجدًا وكرامة. أما الذي يضع كل اهتمامه لنوال مجد باطل من العالم، فيعمل محتملاً الكثير لنواله. هذا الإنسان لا ينال كرامة، بل ينال ما هو عكس المجد، إذ يصير موضع سخرية واتهامات وازدراء وعداوة وكراهية.

هذا ما يحدث عادة ليس بين الرجال فقط، بل وبالأكثر بينكن أنتن أيتها النسوة. فالمرأة التي تترك نفسها على طبيعتها بلا تصنع في شكلها ومشيها وملبسها ولا تطلب كرامة

من أحدٍ، هذه المرأة تكون موضع إعجاب كل النساء، يعجبن بها مادحات إياها، ويلقبنها بالقداسة، وينظرن فيها كل صلاحٍ.

أما المرأة المغرورة بالمجد الباطل، فتنظر النساء إليها باشمئزاز ونفور ويتجنبن إياها كحيوانٍ مفترسٍ، ويصببن لها الشتائم والذم اللانهائي.

برفضنا المجد البشري، لا نتخلص فقط من الشرور، بل ونتال منافع غير التي ذُكِرَتْ، وهي التدرب التدريجي على حل ارتباطنا بالأرض، والتوجه نحو السماء، محتقرين الأمور الزمنية. لأن من لا يشعر بحاجته إلى الكرامة البشرية سيتمم كل ما يرغب في صنعه من صلاح بطمأنينة. فلا المضايقات ولا التنعمات تقدر أن تؤثر عليه. فالمضايقات لا تقدر أن تجعله يائسًا، فلا تحطمه، والتنعمات لا تغريه أو تزهو به، فهو يبقي ثابتًا بلا تغيير من أي جانب حتى في الظروف المزعزعة والمضطربة.

هذا ما أتوقعه بالنسبة لنفسكِ، إذ بسرعة ودفعة واحدة تنزعين ربح العالم من نفسكِ، وتقدمين لنا مثالاً للسلوك السماوي في الحياة. وبعد قليل تضحكين ساخرة بالمجد الذي تبكينه الآن، محتقرة خداعه وبريقه المزيف.

لماذا تخافين؟

إن كنتِ تتوقين إلى الطمأنينة التي كنتِ تتمتعين بها قبلاً بوجودكِ مع زوجكِ، وحماية ممتلكاتكِ وحفظكِ من مكائد أولئك الذين يرغبون في مصائب الآخرين؛ "ألقِ على الرب همك فهو يعولك" (مز ٥٥:٢٢). لقد قيل: "انظروا إلى الأجيال القديمة وتأملوا. هل توكل أحد على الرب فخزي، أو ثبت على مخافته فخذل، أو دعاه فأهمل" (سيراخ ٢:١١، ١٢).

فالله الذي هدَّأ هذه المصيبة غير المحتملة، معطيًا إياكِ الآن هدوءًا، هو أيضًا الذي يحصنك من الشرور التي تحدق بكِ. فلا تعودي تسقطين نفسك تحت ضربة أقسى من التي أنتِ فيها (بعدم اتكالك عليه).

فباحتمالك الضيقات الحالية بشجاعة، وأنتِ بعد ليس لكِ خبرة، يعطيك إمكانية لاحتمال الأمور التي تحدث مخالفة لإرادتكِ. الله لا يسمح!

لذلك اطلبي السماء وما يخص الحياة الأخرى، فلا يقدر شيء ما أن يضرك..، حتى ولاة عالم الظلمة (الشياطين) أنفسهم لا يقدرون أن يضرونا ما لم نضر نحن أنفسنا بأنفسنا. لأنه حتى لو نزع جسدنا أو مزقه إربًا إربًا، هذا لا يعنينا طالما روحنا سليمة.

انقلي ممتلكاتك!

والآن، إن كنت تريدين أن تحفظي ممتلكاتكِ في أمان، بل وأن تزداد، فإنني أُدَبِّـــر لكِ خطة، وأعرفك المكان الذي لا يقدر أحد من مدبري الشر أن يدخل فيه.

ما هو هذا المكان؟ إنه السماء. أرسلي مقتنياتك إلى زوجك الـــصالح، فـــلا يقـــدر لِصٌ أو مُدَبِّر مكائد أو أي مُخَرِّب آخر أن يَنْقَّضَ عليها. لأن ما نزرعه في الـــسماء يـــأتي بمحصول عظيم وغلة وافرة. وهذا أمر طبيعي نتوقعه في الأشياء التي جـــذورها مغروســـة في السماء.

فإن فعلتِ هذا، انظري بماذا تتمتعين؟!

أولاً: ستتمتعين بالحياة الأبدية، والأشياء الموعود بها للذين يحبهم الله "ما لـــم تـــره عين، وما لم تسمع به أذن، وما لم يخطر على قلب بشر".

ثانيًا: الاتصال الدائم مع زوجك الصالح، مـــع إراحـــة نفـــسك مـــن الاهتمامـــات والمخاوف والمخاطر والتدابير والعداوة والكراهية، هذه الأمور التي قد تحدق بكِ هنا. فطالما أنتِ محاطة بهذه الممتلكات يوجد احتمال وجود من يهاجمونك، أما إن أودعتِها في الـــسماء، فستنالين حياة الطمأنينة والسلام، المملوءة بالأكثر هدوءًا مـــع التمتُّـــع بالحريـــة المرتبطـــة بالصلاح...

حياة مُتَقَلِّبة!

حيث أن نفسك مضطربة جدًا ومتكدرة، بسبب توقعك القائم على أن زوجك كان قد أوشك أن يكون واليًا على مقاطعة وأنه قد أُخِذَ قبل الأوان... فتأملي أولاً هذه الحقيقة. إنه وإن كان رجاؤك هذا مبنيًا على أساس سليم جدًا، إنما هو رجاء بشري. الذي غالبًا ما يسقط على الأرض (أي لا يتحقق). ونحن نرى في هذه الحياة أولئك الذين لم يفكروا في أمرٍ ما إذ به يحدث لهم...

لذلك وإن كانت الفرصة لنواله هذه الوظيفة كانت قريبة جدًا، لكنه كما يقول المثل "كثيرًا ما يسقط الكوب من فم شاربه[١]"، ويقول الكتاب المقدس: "بين الغداة إلى العشى يتغير الزمان" (سيراخ ١٨:٢٦).

وهكذا من هو مَلِكٌ اليوم، قد يموت غدًا. وأيضًا يُعْلِنُ الحكيم نفسه قائلاً: "كثيرون من المتسلطين جلسوا على التراب، والخامل الذكر لبس التاج" (سيراخ ١١:٥).

فلم يكن هناك تأكيد مطلق، أنه لو عاش لنال هذه الوظيفة، لأن ما يخص المستقبل لا يمكن الجزم به، إنما يوقفنا أمام شكوك كثيرة.

لأنه على أي أساس تجزمين بنواله هذه الوظيفة، إذ ربما تأتي الحوادث بغير ما في الحسبان، بل ويوجد احتمال أنه كان سيفقد الوظيفة التي هو فيها بسبب مرضٍ أو تدبير مكيدةٍ ضده بواسطة الحاسدين له على غناه، أو بسبب كارثة خطيرة أخرى.

لكن، لنُسلم معك - إن أردتِ - أنه بالتأكيد لو كان حيًا لبلغ على أي الأحوال مركزًا رفيعًا. لكن بقدر ما يزداد المركز رفعة تزداد أيضًا مخاطره وقلاقله، ويُدس له ما لم يكن في الحسبان[٢].

لنترك هذا كله جانبًا، مفترضين أنه سيجتاز بحر المصاعب بسلام وهدوء كامل. لكن أخبريني وما هي نهاية هذا؟! أليست نهايته هي تلك النهاية التي وصل إليها الآن... لا بل وربما بلغ نهاية مؤلمة ومكروهة. فمن جانب، ربما مركزه الجديد (إغراء المركز) يلهيه عن نظرته إلى السماء والسماويات. الأمر الذي ليس بتافهٍ في نظر من وضعوا رجاءهم في الحياة الأخرى.

---

[١] يصعب ترجمة المثل حرفيًا وهو: "*Between the cup and the lip is many a slip*"

[٢] يلزمنا مراعاة ظروف الدولة الرومانية في ذلك الوقت وكثرة القلاقل وخطورة المراكز الرئيسية في ذلك الحين.

ومن جانب آخر، وإن كانت حياته ستبقى طاهرة كما هي، لكن طول الـزمن مـع ضروريات المركز السامي قد يعوقه عن البقاء في حياته التقية كما هو عليه الآن (لم يكـن العيب في المركز في ذاته، لكن ربما يخشى من الملتفين حوله من مرائين أو خـادعين، أو يخشى عليه من السقوط في الكبرياء والزهو مما يفقده نقاوة قلبه، أو لظروف أخرى خاصة بالدولة الرومانية في ذلك الوقت).

في الحقيقة أنه ليس مؤكدًا، إن كان لا يعاني من تغيرات كثيرة مستسلمًا للكسل (في العبادة) قبل أن يُسلِّمَ أنفاسه الأخيرة.

الآن نحن واثقون، أنه بنعمة الله قد صعد إلى مكان الراحة، لأنه لـم يرتكـب مـا يحرمه من دخول ملكوت السماوات. لكنه لو بقي... ربما كان قد سقط في معاصٍ كثيـرة، لأنه يندر أن يعمل إنسان بين شرور عظيمة هكذا[1] أن يسلك في طريق مستقيم، بل يـضل، بإرادته أو بغير إرادته كأمرٍ طبيعي...

ومادام الأمر هكذا، فنحن قد عُتقنا من هذا التوقع للشر، مقتنعين تمامًا، أنه سيظهر في اليوم العظيم في بهاءٍ أعظم، متلألئًا بجوار الله (الملك)، آتيًا مع الملائكة قدام المـسيح، ومكتسيًا بثوب مجده غير المنطوق به، جالسًا بجوار الملك كمن يحكم، عاملاً كأحد خدامـه العظماء.

لذلك فإنه إذ تكفين عن البكاء والنحيب، متمسكة بالحياة التي عاش هو بهـا، نعـم لتكوني مثله تمامًا، حتى تنالي بسرعة ما وصل إليه من مستوى الفضيلة، عندئذ تسكنين معه في نفس الموضع وتتحدين معه مرة أخرى طوال الأبدية، لا في اتحاد زوجي، بل في اتحاد أسمى كثيرًا. لأن الأول فيه اتصال من نوع جسدي، أما الثاني فيكون فيه الاتحاد بين الروح والروح أكثر كمالاً، وأعظم بهجة ومن نوع أنبل.

---

[1] تكشف هذه العبارة أن الولاة في ذلك الوقت كان يلتف حولهم جماعة من الأشرار.

العناية الإلهية

للقديس يوحنا الذهبي الفم

طبعة منقحة

٢٠٠٧

تعريب

عايدة حنا بسطا

كنيسة الشهيد مارجرجس بسبورتنج

بين يديك أيها الحبيب حديث بسيط شيق، سجّلته نفس شبعتْ من محبّة الله، وتفجّرتْ في داخلها ينابيع فرح بلا حدود. فقد لمس **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** - وسط الآلام التي عاشها - عناية الله به خلال الخليقة التي أوجدها الله من أجله، وأدرك اهتمام الله به خلال الناموس الطبيعي الذي أوجده فيه، ولمس كمال محبّته غير المنطوق بها في الخلاص المُعلَن على الصليب، ومواعيد الأبديّة التي ذاق عربونها في هذه الحياة.

ليعطنا إله السماء أن نلمس عناية الله ونخضع لأحكامه، ولا نعطي لأنفسنا مجالاً للتذمر عليه، مختبرين أبوّة الله وترفّقه بنا.

الرب يعوّض الأخت المباركة التي قامت بترجمة هذا المقال.

بركة آبائنا القدّيسين تكون معنا - مجدًا للثالوث القدّوس.

القمص تادرس يعقوب ملطي

ملاحظة

التبويب والعناوين ليست في أصل المقال.

١
مقدّمة

العناية الإلهية والعلاج من مرض العثرة[١]

يجدر بالإنسان حين يتعرّض لمرضٍ ما أن يتعرّف عليه، فإن هذه المعرفة تفيد في الشفاء... تعرفه عليه لا يفيده فقط في البرء منه، بل ويقيه في المستقبل، فلا يتعرّض للمرض مرة أخري.

لهذا فإنّني أشرح لمرضى "العثرة" علّة هذا المرض، حتى متى تعرّفوا على علّته، واهتمّوا بالوقاية منه، أمكنهم الشفاء منه، ومن غيره من الأمراض التي يسقطون تحتها الآن، كما تحصنّنهم ضدّ ما قد يحل بهم مستقبلاً...

والعثرة لا يسقط تحتها الضعفاء لعلّة أو اثنتين أو ثلاث، وإنّما لعلل كثيرة.

أما غاية حديثنا فهو إنقاذ الذين سقطوا فريسة لهذا المرض متى قبلوا نصائحنا وعملوا بها. نحن لا نقدِّم العلاج من الكتاب المقدّس وحده، وإنّما ممّا نختبره عمليًا في الحياة بصورة متكرّرة...

لكنّني لا أفتر عن أن أكرّر أن هذا العلاج ليس ملزمًا بالقوة بالنسبة للرافضين له، مستهينين بالوصايا الإلهيّة وقوّتها التي تفوق ما نتعلّمه خلال خبرتنا العمليّة. إذ يليق بنا أن نؤمن أن مواعيد الله جديرة بالثقة فوق كل ما هو منظور. أمّا من لا يقبل الإصلاح فإنّه يسقط تحت الدينونة غير منتفعٍ بالكتاب المقدّس الذي تَكْمُنُ فيه كل منفعة.

لنسرع إذن بإصلاح الذين يتعثّرون بسبب الضيق ناسين عناية الله وحبه، فنجنّبهم السقوط تحت هذه العقوبة، موضّحين لهم علّة دائهم.

---

[١] يقصد بمرض "العثرة"، التعثر في إدراك عناية الله ومحبته أثناء دخولنا نار التجربة.

٢

أحكام الله

بولس الرسول يرتعب قدام عناية الله اللانهائية

ما هي علّة هذا الخطر العظيم: تجاهل عناية الله؟!

إنّه طيش الفكر وفضوله. اشتهاء تفهّم كل علل الأحداث التي تحل بنا، والرغبة في مقاومة عناية الله غير المُدْرَكة ولا موصوفة، **تلك العناية التي تفوق كل فحص واستقصاء! ومع هذا لا يخجل الإنسان من هذا الموقف الفضولي المملوء تهورًا.**

تُرَى من فاق القديس بولس الرسول في حكمته؟

اخبرني، ألم يكن إناءً مختارًا؟

ألم يأخذ نعمة الروح الفائقة غير المنطوق بها؟

ألم يتكلّم المسيح فيه؟

ألم يكشف الله له عن أمورٍ لا يُنطَق بها؟

ألم يسمع ما لا يحق لإنسانٍ أن ينطق به؟

ألم يُختطَف إلى الفردوس ويرتفع إلى السماء الثالثة؟

ألم يجوب البحار والبر يجذب الوثنيّين إلى المسيحيّة؟

ألم ينل من مواهب الروح المتنوّعة؟...

ومع هذا كلّه، فإن هذا الرجل بعظمته وحكمته وقوّته وامتلائه بالروح، إذ خصّه الله بهذه الامتيازات، عندما يتطلّع إلى عناية الله، لا في كل جوانبها، بل في جانب واحد منها، تأخذه الدعوة منسحقًا، ويتراجع سريعًا خاضعًا لله غير المدرك. فإنه لم يبحث عن عناية الله بالملائكة ولا رؤساء الملائكة أو الشاروبيم والساروفيم وكل الطغمات غير المنظورة، ولا في عنايته بالشمس والقمر والسماء والأرض والبحر، ولا في سهره على الجنس البشري بأكمله واهتمامه بالحيوانات غير العاقلة والزرع والعشب والأهوية والينابيع والأنهار... لكنه بحث عن عناية الله الخاصة باليهود واليونانيين وأفاض في بحث النقطة، وشرح كيف دعا الله الأمم ورفض اليهود ثم أوضح كيف حقق الخلاص... وحينما أدراك هذا، اكتشف الرسول أنه أمام محيط واسع، وإذ حاول فحص أعماق هذه العناية ارتجف متحققًا استحالة تفسير عللها، وارتعب قدام عناية الله اللانهائية غير المحدودة ولا موصوفة ولا مفحوصة

ولا مُدْرَكة، فتراجع في مهابة متعجبًا، وهو يقول: "**يا لعمق غنـــي الله وحكمتـــه وعلمـــه**"! (رو ١١: ٣٣) لقد أوضح بعد ذلك كيف تلامس مع أعماقها دون أن يفلح فـــي استقـــصائها، قائلاً "**ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء؟!**"

إنه لم يقل إن أحكامه بعيدة عن الفحص فحسب، وإنما بعيدة أيضًا عن الاستقصاء. ليس فقط لا يقدر الإنسان على فهمها، بل ولا حق له أن يبدأ في استقصائها. يستحيل عليه أن يدرك غايتها أو حتى يكتشف بدء تخطيطها؟!

وإذ قال: "**ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء**" أنهى حديثه – وقـــد امتلأ عجبًا ورعدة – بأنشودة شكر قائلاً: "**لأن من عرف فكر الرب، أو من صار له مشيرًا. أو من سبق فأعطاه فيكافأ؟! لأن منه وبه وله كل الأشياء. له المجد إلى أبد الأبد. آمين**"

يريد القول إن الله ينبوع كل الخيرات ومصدرها، ليس في حاجة إلـــى شـــريكٍ أو مشير. هو بدء كل الخيرات وأساسها وموجدها. هو الخالق، دعا غير الموجود موجودًا. يدير ويُرتِّب ويحفظ كل شيء حسب إرادته!... "**منه وبه وله كل الأشياء**" هذه كلمات إنسان يـــود أن يؤكد أن الله خالق كل الكائنات ومبدعها، مُدَبِّر حياتها وحافظها.

وفي موضع آخر يتحدث بولس عن النعمة الموهوبة لنا، فيقول: "**شـــكرًا لله علـــى عطيته التي لا يُعبَّر عنها**" (٢ كو ٩: ١٥)، يؤكد أن سلام الله المُعطى لنا فائق لكـــل نطـــقٍ وكل وصفٍ وكل عقلٍ، قائلاً: "**سلام الله الذي يفوق كل عقل**" (في ٤: ٧).

فإن كان عمق غنى الله وحكمته وعلمه بلا حدود، وإن كانت أحكامه بعيـــدة عـــن الفحص وطرقه عن الاستقصاء، وإن كانت مواهبه لا يُنْطَق بها، وسلامه يفوق كل عقـــل... يفوق عقلي وعقلك وعقل كل أحد، بل وعقل بطرس وعقل بولس، وفهم رؤساء الملائكة وكل الطغمات السمائيّة، أخبرني أي عذر لك في محاولتك الغبيّة... لكي تتفهم ما لا يمكن إدراكه، محاسبًا أعمال عناية الله؟!

إن كان القديس بولس الرسول الذي أدرك الإلهيات بعمق وامتلأ رجاءً صادقًا غير منطوق به وغَمَرَته كل هذه المواهب تجده يتراجع، وإن كان قد ارتفع فوق حدود طاقته لعله يفهم فلم يقدر حتى أن يدرك مبادئ تدابير الله. فإن هذا محال، أفلا يحسب ذاك الـــذي يريـــد السير في طريق مناقض لترتيب العناية الإلهيّة أشقى الجميع وأكثرهم جنونًا؟!

بين معرفتنا الحالية ومعرفتنا الأبدية

لم يكتفِ الرسول بهذا، لكنه عندما تعرض لمعرفة الأمور الإلهية – في رسالته إلى

أهل كورنثوس - أكد أن معرفته، بالرغم مما ناله منها، لا تزال محدودة وغاية في الضآلة إذ قال: "**فإن كان أحد يظن أنه يعرف شيئًا، فإنه لم يعرف شيئًا بعد كما يجب أن يعرف**" (١ كو ١٣: ٩-١٠). لقد أكد لنا أننا الآن نعرف بعض المعرفة، أما الجانب الأعظم منها فسنعرفه في الدهر الآتي. "**لأننا نعلم بعض العلم، ونتنبأ بعض التنبؤ، ولكن متى جاء الكامل، فحينئذ يبطل ما هو بعض**" (١ كو ١٣: ١١-١٢).

وعندما أراد توضيح الفارق بين معرفتنا هنا ومعرفتنا في الحياة الأخرى لجأ إلى هذا التصوير: "لما كنت طفلاً كطفلٍ كنت أتكلم، وكطفلٍ كنت أفطن، وكطفلٍ كنت أفتكر، ولكن لما صرت رجلاً أبطلت ما للطفل. فإننا ننظر الآن في مرآة، في لغز، ولكن حينئذ وجهًا لوجه" (١ كو ١٣: ١١).

هل لمستَ مدى الفارق بينهما؟ إنه كاختلاف معرفة الطفل الصغير عن معرفة الرجل الناضج، وكاختلاف الرؤية في مرآة عن التطلع وجهًا لوجهٍ، إذ تشير المرآة إلى التعبير العميق لكن في غموضٍ!...

فلماذا إذن لا نصدق قول بولس: "**من أنت أيها الإنسان الذي تجاوب الله؟ ألعل الجبلة تقول لجابلها لماذا صنعتني هكذا؟!**" (رو ٩: ٢٠)

تأمل كيف يليق بنا الخضوع لإرادة الله في صمت! إنه بلا شك لا يقصد بقوله هذا أنه يود أن يفقدنا إرادتنا حاشا! لكنه يؤكد أنه ينبغي على الباحث الالتزام بالصمت، كالطين في يدّ الخزاف لا يقاوم ولا يجادل. وقد ذكر الخزاف والطين ليذكرنا بطبيعتنا، فإنهما في درجة واحدة من حيث وجودهما (لأن الخزاف مخلوق من التراب) ومع هذا يخضع الطين للخزاف، فأية مغفرة يترجاها الإنسان وهو يتجاسر بتهورٍ مجادلاً إرادة الله جابله، مع أن الفارق بينه وبين الوجود ذاته لا نهائي؟!

اذكرْ أيها الإنسان من أنت؟ ألستَ طينًا وترابًا ورمادًا؟ ألست بخارًا؟ ألست عشبًا؟ ألست زهرة عشب؟ هكذا يتسابق الأنبياء في رسم صور قدام أعيننا للتعبير عن حقيقة وجودنا. أما الله الذي تود أن تخضعه لفضولك الطائش فهو لا يخضع للموت أو التغيير. إنه سرمدي لا بداية له ولا نهاية، غير مُدرَك، فائق لكل فهم وكل مَنْطق، غير موصوف ولا منظور! هذه الصفات التي لا نقدر إدراكها أنا وأنت أو حتى الرسل والأنبياء، بل وحتى القوات السمائية، فبالرغم من طهارتها غير المنظورة وروحانيتها ومعيشتها في السماء على الدوام لا تقوى على إدراكها.

٣

أحكام الله والسمائيون

عندما نسمع عن السيرافيم أنهم يطيرون حول العرش في سموٍ ورفعةٍ، يغطون وجوههم بجناحين... ويسترون أرجلهم باثنين، ويصيحون بصوتٍ مملوءٍ رعدة، لا تظن أن لهم ريشًا وأرجل وأجنحة، فإنهم قوات غير منظورة...

حقًا إن الله حتى بالنسبة لهذه الطغمات غير مُدرَك، ولا يقدرون على الدنو منه، لهذا يتنازل ليظهر بالطريقة التي وردت في الرؤيا. فإن الله لا يحده مكان ولا يجلس على عرش... إنما جلوسه على العرش وإحاطته بالقوات السمائية هو من قبيل حبه لهم.

إذا ظهر على العرش وأحاطت به هذه القوات لا تقدر على معاينته، ولا تحتمل التطلع إلى بهاء نوره، فتغطي أعينها بأجنحتها، ولا يعد لها إلا أن تسبح وترنم بتسابيح مملوءة مجدًا ورعدة مقدسة، وبأناشيد عجيبة تشهد لقداسة الجالس على العرش.

حري بذاك الذي يتجاسر ليفحص عناية الله الذي لا تقدر القوات السمائية على لمسها أو التعبير عنها أن يختبئ مختفيًا تحت الآكام.

الابن والروح يعلنان أحكامه

لا يدرك كمال الله (الآب) إلا الابن والروح القدس. وقد كشف لنا يوحنا الحبيب الحقيقة الأولي (يو ١: ١٨)، وبولس الرسول الثانية (١ كو ٢: ١٠-١١).

ابن الرعد (يوحنا) الذي أحبه الرب جدًا، والذي دل لقبه على سمو فضيلته، الذي تمتع بالاتكاء على صدر الرب يقول: "**الله لم يره أحد**"، والرؤية هنا تعني المعرفة. "**الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو خبرٌ**"...

وعندما أراد الإناء المختار (بولس) أن يتحدث عن مقاصد الله ويشير إلى الأسرار كما عرفها، قال: "**تتكلم بحكمة الله في سرّ الحكمة المكتومة التي سبق الله فعينها قبل الدهور لمجدنا، التي لم يعلمها أحد من عظماء هذا الدهر، لأنهم لو عرفوا لما صلبوا رب المجد، بل كما هو مكتوب ما لم تره عين، ولم تسمع له أُذُن، ولم يخطر على بال إنسانٍ ما أعده الله للذين يحبونه**".

إذن كيف عرفنا حكمة الله يا بولس؟ ومن كشفها لنا؟ ومن أوضح لنا الأمور التي لم ترها عين ولم تسمع بها أذن ولم تخطر على بال إنسان؟ أخبرنا، من الذي وهب لنا هذه المعرفة العجيبة؟

يقول: "**أعلنه الله لنا بروحه**". ولئلا يظن أحد أن الروح القدس لا يعرف إلا ما قد أعلنه، وليس كل أسرار الله، قال: "**لأن الروح يفحص كل شيءٍ حتى أعماق الله. لأن مَنْ من الناس يعرف أمور الإنسان إلا روح الإنسان الذي فيه؟! هكذا أيضًا أمور الله لا يعرفها إلا روح الله**". هذه الكلمات تعني أنه كما يعرف روح الإنسان ما يخصه بدقةٍ، هكذا يعرف روح الله المعرفة الإلهية الكاملة بدقةٍ لا يُعبَّر عنها.

بقوله: "**أمور الله لا يعرفها إلا روح الله**" استبعد الإنسان وكل السمائيين عن هذه المعرفة. لهذا جاءت هذه النصائح المملوءة حكمة. "**لا تطلب ما يعييك نيله، ولا تبحث عما يتجاوز قدرتك، لكن ما أمرك الله به فيه تتأمل، ولا ترغب في استقصاء أعماله الكثيرة**" (ابن سيراخ ٣: ٢٢). هذا القول يعني إنه يليق بك ألا تنسب معرفتك لذاتك، فلا تكفي الطبيعة أن تُعلِّمك.. إنما تأخذ من فوق معرفة أكثر الأمور، إذ هي تفوق إدراكك.

لماذا تحاول استقصاء الأمور العميقة بقوتك الذاتية، مع أن غالبيتها يفوق قوة تفكيرك التي وهبها الله لك؟ ألعل بولس كان يحاول الإشارة إليك حين قال: "**أيّ شيء لم تأخذه؟ وإن كنت قد أخذت، فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ؟!**" (١ كو ٤: ٧)

إذن لتهرب من حب الذات واقبل هذه النصيحة المملوءة حكمة. لا تقل ما هذا؟ ولماذا حدث هذا؟ لأن "**أعمال الرب كلها حسنة جدًا، وجميع أوامره تجرى في أوقاتها، وكلها تُطلب في آونتها**" (ابن سيراخ ٣٩: ٢١).

٤، ٥

الخليقة وعناية الله[1]

عندما أكمل الله الخليقة كلها وزينها بالجمال، تطلع إلى هذا العمل العجيب المتناسق "**ورأي الله كل ما عمله حسن جدًا**" (تك ١: ٣). هكذا سبق الله فأثبط حكم مختلي العقل، المقاومين لعمله، فليتنا لا نقبل رأيهم المملوء تهورًا.

رأى الله النور والظلمة... رأى الأشجار المثمرة وأشجار البرية، والسهول المنبسطة والجبال، والوديان والشقوق، الإنسان والحيات السامة، الأسماك والحيتان البحرية، والأمواج الهادئة والعواصف العنيفة، والشمس والقمر والنجوم والرعد والبرق، الهواء العليل والعواصف، الحمام والطيور المغردة، النسور والحيوانات المفترسة، الغنم والبقر، الذئاب والفهود، العقارب والحيات، الأعشاب الشافية والأعشاب السامة... هذه كلها زينتها مجد الله. أقصد أنه مجدَّ كل شيء منها على انفراد، كما مجَّد الخليقة في كليتها. بهذا لا يجسر أحد، مهما كان تهوره، أن يفكر في فحص باقي الأمور ما دامت ترضي الرب. فبعدما قال: "**ليكن نور**"، أضاف: "**ورأي الله أن النور حسن**". وهكذا في خلقة كل شيء أعلن الله رضاه...

هذا لا يعني اكتشاف الله جمالها بعد خلقتها. كلا! لأنه إن كان الفنان يقدر أن يدرك جمال عمل يديه قبل تنفيذه، كم بالحري الحكمة الفائقة الذي بعث الحياة في الكل بإرادته وحده؟!

لقد عرف روعة خليقته قبلما يخلقها. وما كان قد جاء بها إلى الوجود لو لم يكن قد سبق فعرفها.

فإن سمعت قول النبي أن الله رأى كل شيءٍ ومدحه... اعلمْ أن هذا إعلان عن رأي الله وحكمة مبدعها...

إذن لا تحاول البحث في أمور الخليقة باندفاع، فإن لديك شهادة عالية تعلن امتيازها. فإن لم تكتف بهذه الشهادة باحثًا في الخليقة بأفكار متضاربة وسط جو عاصف، لن تتقدم في شيءٍ، إنما تهيئ لنفسك فشلاً مرًا، وتعجز عن إيجاد تفسير للخليقة، بل وما قد

---

[1] اهتم آباء الكنيسة الأولي بإبراز صلاح الخليقة المادية ردًا على البدع الكثيرة، خاصة الغنوصية، التي نادت بأن المادة شر، خالقها الشيطان.

تستحسنه من الخليقة الآن قد ترذله غدًا بسبب عقم تفكيرك. فإن فكر الإنسان ضعيف، ينجذب نحو اتجاهات متضاربة، وتتعارض وجهات النظر تجاه الخليقة الآن.

فاليونانيون بسبب شدة إعجابهم بها صيَّروها آلهة، وأتباع ماني ومعهم هراطقة آخرون حسبوها ليست من صنع إله محب... ولا تستحق أن تكون من عمل إله خلاق[1]...

فإن كنت تشك في عناية الله، اسأل الأرض والسماء والشمس والقمر.

اسأل الكائنات غير العاقلة والزرع...

اسأل الصخور والجبال والكثبان الرملية والتلال.

اسأل الليل والنهار.

فإن عناية الله أوضح من الشمس وأشعتها. في كل مكان، في البراري والمدن والمسكونة، على الأرض وفي البحار... أينما ذهبت تسمع شهادة ناطقة بهذه العناية الصارخة...

في كل موضعٍ ترتفع الأصوات مدوية بوضوح أعلى من أصوات البشر العاقلين، تعلن لكل من يريد أن يسمع عن محبة الله الساهرة! وإذ أراد النبي أن يسجل قوة هذه الأصوات قال: "**في كل الأرض خرج صوتهم، وفي أقصى المسكونة كلماتهم**" (مز ١٩: ٤).

لغتنا نحن لا يفهمها إلا أهل لساننا، أما الخليقة فتنطق بلغة تفهمها جميع الشعوب!

---

[1] تحدث بإسهاب عن الشمس والليل كيف يفيدان البعض ويضران البعض الآخر..

٦

الله يحبك

القلب أكثر استعدادًا للتلامس مع عناية الله وحبه العظـيم نحونـا خـلال صـوته الداخلي، من تلمسه خلال أعمال الله الخارجية. فهو ليس فقـط يعتنـي بنـا، لكنـه يحبنـا بلا حدود، حبًا مقدسًا ملتهبًا، حبًا شديدًا حقيقيًا لا ينفصم ولا ينطفـئ. ولكـي يكـشف لنـا الكتاب المقدس عن هذا الحب قارنه بحب النـاس، موضـحًا حـب الله الـساهر وعنايتـه بنا بأمثلة كثيرة، لا لنقف عند حـدود الأمثلـة، وإنمـا يـدفعنا أن نتعـداها أثنـاء تأملنـا فيها...

١. مقارنته بحب الأم والأب

يجاوب النبي الذين اكتأبوا مرة وأنّوا قائلين: "**قد تركني الرب، وسـيدي نـسيني**" قائلاً: "**هل تنسى الأم رضيعها، فلا ترحم ابن بطنهـا؟**" (إش ٤٩: ١٤-١٥) كأنـه يقـول: يستحيل على الأم أن تنسى رضيعها، فبالأولى لا ينسى الرب البشرية.

وهو بهذا لا يقصد تشبيه حب الله لنا بحب الأم لثمرة بطنها، وإنمـا لأن حـب الأم يفوق كل حبٍ، غير أن حب الله حتمًا أعظم منه. لهذا يقول: "**ولو نسيت الأم رضـيعها أنـا لا أنساك يقول الرب**". تأمل كيف تفوق محبة الله محبة الأم؟...

يؤكد رب الأنبياء وسيد الجميع أن حبه يفوق محبة الأب لأولاده كما يفوق النـور الظلمة والخير الشر. أنصتْ ماذا يقول؟ "**أم أي إنسان منكم إذا سأله ابنـه سـمكة يعطيـه حية؟! فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة فكم بالحري أبوكم الذي في السماوات يهب خيرات للذين يسألونه؟!**" (مت ٧: ٩-١١)

كاختلاف الخير عن الشر هكذا تعلو محبة الله عن عواطف الوالدين...

٢. الحب بين محبوبين

توجد أمثلة أخرى كحب الحبيب لمحبوبته، هذا بالطبع لا يعني أن حب الله لنا يعادل هذا الحب، وإنما هو مجرد مثال من قبيل التشبيه مع الفارق... لهذا يقـول داود: "**لأن مثـل ارتفاع السماوات فوق الأرض، قويت رحمته على خائفيه**" (مز ١٠٣: ١١).

كما أن الإنسان في حبه يراجع كلماتهِ... خشية أن يكون قد نطق بشيءٍ يجرح محبوبته، هكذا يقول الرب: "**ما أن تكلمت حتى ندمت على كلامي... رجع قلبي**" (هو ١١: ٨). فلا يستنكف الرب من استخدام هذه الصورة القاسية لإعلان حبه لمحبوبته.

٣. الحب الزوجي

لم يكتفِ بهذا، لكنه تعمَّق بالأكثر ذاكرًا مثالاً يخترق أعمق الأمور، قائلاً: "**كفرح العريس بالعروس، هكذا يفرح بك الرب**" (إش ٦٢: ٥). فالحب يكون في أوجه عند البداية (بين العروسين). وقد استخدم هذا الأسلوب، لا ليحمل شيئًا بشريًا، إنما لكي نلمس شدة التهاب محبته الحقيقية...

٤. حب الصانع لعمل يديه

لا تقف المقارنات الخاصة بحبه عند هذا الحد، لكنه يذهب إلى أبعد من هذا...

لقد تضايق يونان بعد هروبه ومصالحة شعب نينوى مع الله... متألمًا منفعلاً بطريقة بشرية مملوءة حزنًا. فأمر الله الأرض أن تنبت يقطينة ليونان تحمي رأسه، ثم أمر الشمس أن تزيد من حرارتها فتحرقها. فغضب يونان لهلاكها، لكن إذ عزاه الرب ثم جرَّبه اسمع ماذا يقول له: "**أنت تشفق على اليقطينة التي لم تتعب فيها ولا ربيتها، التي بنت ليلة كانت وبنت ليلة هلكت. أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي يوجد فيها أكثر من أثنتي عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم؟!**" (يونان ٤: ١٠-١٢) هذا ما أراد أن يقوله: ألم تفرح بظل اليقطينة، فكم بالحري ينبغي أن أفرح بخلاص أهل نينوى؟! ألم تتألم بهلاكها؟! **هكذا يؤلمني هلاك البشرية**...

لم يقل له: "**أنت شفقت على اليقطينة**" وتوقَّف.. بل أكمل "**التي لم تتعب فيها، ولا ربيتها**". لأنه كما يشفق البستاني على الشجرة التي تعب فيها أكثر من غيره، هكذا أراد الله أن يثبت محبته للبشر خلال هذه المحبة. كأنه يقول له: أنت تدافع بقوة عن عمل غيرك الذي لم تتعب فيه بالحري يليق بي الدفاع عن عمل يدي! ثم يخفف من حدة الاتهام الموجه ضدهم بقوله: "**لا يعرفون يمينهم من شمالهم**"، أي أخطأوا بغير معرفة...

ويعاتب الذين يئنون بأنهم متروكون قائلاً: "**من جهة بني، ومن جهة عمل يدي أوصوني!**" (إش ٤٥: ١١) وكأنه يقول: من يُذَّكر الأب بابنه أو يحثه ليفكر فيه؟ أو من يُذَّكر الفنان ألا يتلف فنه؟!

وهو لا يقول هذا ليمنعهم عن الصلاة، وإنما لكي يعرفوا أنهم قبل أن يصلوا يعمـل الرب ما يَحسُنُ في عينيه. لكنه يريدنا أن نصلي، لأن في الصلاة نفع عظيم...

لقد رأيت في الأمثلة السابقة كيف أن أعمال عناية الله أسطع من الشمس، إذ ذكـر مثل الأب والأم والعريس والبُعد بين السماء والأرض... وشبَّه نفسه بالبستاني الذي يتعب من أجل عمل يديه... وبالحبيب الذي يحزن لئلا يُحزِن محبوبته ولو بكلمة... مؤكدًا لنا أن محبته مختلفة عن كل أنواع الحب هذه كاختلاف الخير عن الشر.

٧

خَلَقَ الكل لأجلِك

الأدلة السابقة فيها الكفاية بالنسبة للقلوب المستعدة، لكن إذ يتمرغ البعض في الوحل... نثبت لهؤلاء عناية الله خلال أعماله قدر ما نستطيع، إذ يصعب علينا حصرها ولو في أقل جانب من جوانبها. عنايته غير المحدودة تظهر في أعماله العظيمة والصغيرة، الظاهرة والخفية. لكننا نكتفي هنا بالبحث في الأمور الظاهرة.

من أجلك أبدع الخليقة بهذا الجمال

الله لم يُوجد الخليقة الجميلة المتناسقة إلا لأجلك. من أجلك أبدعها بهذا الجمال وتلك العظمة والتنوع والغنى، حتى يُشبعَ احتياجات جسدك وينميه، وينمي فيك تقوى الروح، ويقودك بهذا إلى معرفة الله.

فالملائكة ليست محتاجة إلى هذه الخليقة (الأرضية)، وإلا ما خُلقوا قبلها! إذ يقول الله لأيوب: "**وعندما ظهرت الكواكب، سبحتني جميع الملائكة**" (أي ٣٨: ٧). بمعنى آخر لقد ذُهلتْ أمام كثرة الكواكب وجمالها ونظامها ونفعها وتنوعها ونورها!...

هل هناك جمال يفوق روعة السماء، إذ تتلألأ بأشعة الشمس، كأنها قد تلألأت بقطرة حب ملتهبة، تنير الأرض بعددٍ لا يُحصي من النجوم، تقود الربابنة والمسافرين، كأنها تمسك بيدهم[١]...

أيّ شيء يفوق جمال السماء وقد امتدت فوق رأسك تارة كغطاء طاهر شفاف، وأخرى كسهلٍ منبسط تزينه الورود!

المتعة بجمال الورود نهارًا لا يفوق تأمل جمال السماء ليلاً وقد تلألأت بآلاف زهور النجوم التي لا تذبل!

إن كنت لا تسأم التأمل، تستطيع أن تتطلع إلى عناية الله في شهود كثيرين: السحاب وفصول السنة، البحار وما فيها، الأرض وما عليها...

هل يوجد أصغر من الفراشة وأحقر منها؟ أو مثل النمل أو النحل؟ ومع هذا فهذه جميعها تتحدث عن عناية الله وقدرته وحكمته!

---

[١] أفاض القديس في الحديث عن فائدة الشمس والقمر والنجوم.

من أجل هذا إذ تأهل النبي بالروح للتأمل في الخليقة في كليتها صرخ، قائلاً: "**ما أعظم أعمالك يا رب كلها بحكمة صنعت!**" (مز ١٠٤).

حقًا من أجلك أهوية السماء خُلقتْ... ترطب أجسامنا المتعبة، وتجفف المناطق الوحلة، وتخفف حدة الصيف، وتنمي الزرع، وتساعد على الإبحار الخ...

وإن أردت البحث في الليل، فإنك تنظر فيه عناية الله القديرة، فإنه يعين جسدك المتعب، ويُهدئ أعصابك المجهدة... ينقذك من آلام النهار، واهتماماته المملوءة قلقًا... فمن يُحرم من راحة الليل يخسر النهار، ومن لا يعطى لعقله هدوءًا واسترخاءً يفسد عمله. هذا كله من أجلك يا إنسان[١]...

دعانا للوجود من أجل حبه وحده

الآن وقد فهمت عناية الله أنها تفوق أشعتها ضياء نور الحياة، لا تفحص بفضول الأمور التي تعلو قامتك ولا تسلك فيما لا ينفعك... فوجودنا ذاته هو هبة معطاة لنا من قبيل حبه الفائق، إذا هو ليس محتاجًا إلى عبوديتنا.

إذن فلنحبه ونعبده، لأنه خلقنا، لا لأنه وهبنا نفسًا روحية عاقلة، ولا لأنه جعلنا أسمي خليقته، ولا لأنه أعطانا سلطانًا على المنظورات، وإنما لأنه لم يكن محتاجًا إلينا. هذه هي علامة حبه العظيم أنه أوجدنا لخدمته بالرغم من عدم احتياجاته لعبوديتنا، فإنه قبل أن يخلقنا أو يوجد الملائكة والقوات السمائية كان كائنًا في مجده الذاتي وقداسته. لكنه دعانا للوجود من أجل حبه وحده. صنع هذا كله وأمورًا أخرى من أجلنا!

---

[١] تحدث عن الموت كعطية حسنة، إذ يعلمنا النمو الروحي، وينقلنا إلى عدم الفساد.

٨

قدَّم لنا خلاصًا

١. وهبنا نعمة الناموس الطبيعي

وهبنا الله ناموسًا مكتوبًا لنفعنا، وأرسل الأنبياء وتمم المعجزات، وقَبْل هذا كله قدَّم للإنسان بعد خلقته **ناموسًا طبيعيًا لخدمته**، يقوم بدور القبطان في السفينة، وكاللجام بالنسبة للحصان، مخضعًا له تفكيرنا.

هذا عَرَفَه هابيل قبل وجود الكتب المقدسة كما عَرَفَه الآباء والأنبياء قبل كتابة الناموس، وعرفة أيضًا قايين. عرفه الاثنان قايين وهابيل، لكنهما لم يسيرا في ذات الطريق... بل اختار أحدهما الفضيلة والثاني الرذيلة. ومع هذا لم يترك الله الإنسان في هذا الموقف، لكنه إذ سقط جذبه وأعاده إلى الطريق المستقيم، وحوَّطه بحبه، وأخذ يحثه وينصحه، وأنذره بالخوف والرعدة، وكان يُعَلِّمه ويُدَرِّبه.

غير أن غالبية البشر خانوا هذه النعمة العظيمة، أيّ الانتفاع مما يلقنه إيانا (الناموس) الطبيعي. وبالرغم من ذلك لم يترك الله البشرية، ولا أسلمهم للهلاك الأبدي، بل انتظر عليهم، وأخذ يُعَلِّمهم ويحثهم بأعماله وعطاياه وتأديباته...

٢. وهبنا الناموس المكتوب

أعطى ناموسًا، وأرسل أنبياء، وكان يضرب مؤدبًا، ثم يعود فيخفف التأديبات... لم يكف عن تدبير كل الأمور لصالحنا منذ البداية، وأخيرًا قدم كل مراحمه بإرسال ابنه الوحيد.

٣. تجسد الابن الكلمة

الابن المساوي للآب في الجوهر صار مثلي! كان يسير على الأرض، ويختلط بالبشر، ويصنع عجائبه بينهم، واهبًا خيرات هذا الدهر والدهر الآتي. وما قدَّمه على الأرض، إنما كان لتأكيد ما سيهبه في الدهر الآتي. وهكذا حقق الابن ما سبق إعلانه: **"من يتكلم بجبروت الرب؟! من يخبر بكل تسابيحه؟!"** (مز ١٠٦: ٢)

٤. الفداء الذي قدَّمه!

من لا ينسى نفسه ويقف مرتعدًا أمام حبه العجيب؟! متذكرًا أن الله بذل ابنه الوحيد للموت من أجل عبيد بطالين؟! بذله إلى موت اللعنة والهزء! موت اللصوص!

سُمِّر على الصليب المرتفع، وبصقوا على وجهه! ضربوه بالعصي ولطموه! استهزأوا به، وإذ أشفقوا عليه كفنوه وختموا قبره!

هذا كله احتمله من أجلك!

من أجل حبه المملوء رأفة، حتى يعتقك من عبودية الخطية، ويكسر سلطان إبليس، ويحطم شوكة الموت، ويفتح لنا أبواب السماء، ويزيل اللعنة، ويمسح الخطية الأولى، ويُعَلِّمك الصبر، ويقودك للاحتمال فلا تتضايق من أمور العالم: لا موت ولا لعنات ولا شتائم ولا هزء ولا ضربات ولا مكائد عدو ولا افتراءات وهجوم ولا اتهامات أو إساءة ظن ولا شيء من هذا القبيل.

لقد اجتاز هذا كله ليشاركك كل الآلام، غالبًا إياها بطريقة عجيبة حتى يرشدك ويُعَلِّمك ألا تخاف شيئًا من هذه المحن.

٥. إرساله الروح القدس

لم يكتفِ بهذا، بل إذ صعد إلى السماء وهبنا نعمة روحه القدوس العجيبة، مرسلاً تلاميذه لخدمته.

رأى أن يتألم صفوة قديسيه بآلام كثيرة، فقد ضُربوا بالعصي وأُهينوا وطرحوا في البحار وتألموا في جوعٍ وعطشٍ، وأحاطت بهم ضيقات كل يومٍ... وقد سمح لهم بهذا كله من أجلك، من أجل محبته لك المملوءة حنانًا.

٦. هيأ لنا ملكوت السماوات

من أجلك يا إنسان هيأ الملكوت! ولأجلك أعدَّ خيرات لا تُوصف، ونصيبًا معدًا في السماء، وحياة لا مثيل لها، وفرحًا لا ينطق به!

أمام هذه الدلائل العظيمة على عناية الله بنا كما جاء في العهدين، القديم والجديد، وفي حياتنا الحاضرة والعتيدة... في الأمور الجسدية والروحية، هل وأنت ترى في كل شيءٍ سحابة من الشهود تؤكد عنايته لا تزال تشك؟ كلا!.. فإن لك مُعَلِّم أكثر عطفًا عليك من والدك، وأعظم حنوًا من الأم، وأكثر حبًا من العريس أو العروس...

اذكر أن راحته بخلاصك، وسروره أعظم من سرورك وأنت هارب من الخطر والموت!... عنايته لا تُفسَّر، وحنانه غير مُدرَك، وصلاحه لا يُحد، وحبه لا يستقصى!

الآن، وقد عرفت هذه الأمور جميعها التي من خلالها يعلن الله لك عن ذاته وأعماله التي صنعها وسيصنعها معك... فلا تسمح أن تسأل نفسك: لماذا هذا؟ وما سبب ذاك؟ فإن هذا فيه جنون الكبرياء المُستبِد وعمل الشيطان!

لتخضع للطبيب السماوي والمهندس الخالق

إن كنت تصمت أمام الطبيب وهو يستأصل العضو الفاسد، ويأمرك بشرب الدواء المُر، حتى إن كان الطبيب عبدًا، فإن سيده يحتمله في صمتٍ، بل ويشكره، ويطيعه في خضوعٍ مهما أمره الطبيب، مع أن كثيرين ماتوا على أيدي أطباء، فكم بالأولي يليق بالإنسان أن يخضع للديان والمهندس وصاحب السلطان على كل شيءٍ؟!

إن كان من الغباء أن يستفز إنسان جاهل مهندسًا فيما يخص عمله، هكذا من الغباء أن يسأل إنسان طائش عن هذه الحكمة العجيبة غير المنطوق بها ولا محدودة، مستفسرًا عن عمل ما نحن متأكدون من حكمة صانعه التي لا تخطيء، وحبه الذي لا ينتهي، وعنايته التي لا توصف. فهو يصنع كل الأمور لأجل خيرنا، إذ لا يريد هلاك الإنسان بل خلاص الجميع!

أليس هذا انحراف في التفكير يفوق كل جنون، أن نبدأ نسأل ذاك الذي يريد خلاصنا وهو قادر عليه، عوض أن نتأمل ونرى أعماله؟!

٩
تأمل نهاية الأمر

احذر الأسئلة الفضولية التي تثيرها في بداية الطريق أو أثنائه، لكن انتظر حتى النهاية. لا تكن متهورًا ولا تنفعل سريعًا... فلو أن إنسانًا وُلد ونشأ في البحر، فإنه عندما يسكن في البر، ولم يكن قد سمع قبلاً عن الزراعة، ويرى القمح قد عُزل عن القش، وحُفِظَ في مخازن مغلقة بعيدة عن الرطوبة، ثم يعود الفلاح فيأخذه منه وينثره في الأرض ويلقيه في الطين والوحل... للحال يحكم بأن هذا الفلاح يفسد القمح. لكنه لو انتظر حتى الصيف لرأى الحصاد الكثير...

لا تسأل مُعَلِّمَ الجميع

وأنت يا إنسان لا تسأل مُعَلِّمَ الجميع... بل انتظر وتأمل النهاية... لست أقصد بالنهاية (الحياة الزمنية)، بل لنرى الحياة الأبدية، فمقاصد الله ترمي للحياتيْن من أجل خلاصنا ومجدنا...

الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص

حينما ترى الكنيسة مشتتة ومعرضة لإضطهادات كثيرة مرة، وقد طُرد رؤساؤها وضربوا بالعصي لا تحصر ذهنك في حدود هذه المحن، بل تطلع إلى النهاية لترى المكافأة والجعالة... ثمن الكفاح والنضال، كما يقول الكتاب: "**الذي يصبر إلى المنتهى، فهذا يخلص**" **(مت ١٠: ٢٢)**.

١٠

أناس وثقوا في المواعيد

١. آمن إبراهيم الشيخ أنه يصير أبًا لجمهورٍ كثيرٍ

كان إبراهيم شيخًا ولكِبَرِ سنه صار جسدُه مماتًا عن الإنجاب، كان كالأموات لا يمكن أن يكون أبًا... تخطَّى البار الزمان الذي فيه يمكن للطبيعة أن تهب نسلاً. وكان عُقْم زوجته سارة كعُقْمِ الحجارة حينما أعلن له الرب أنه يصير أبًا لجمهور كثير كنجوم السماء.. وقد وصف القديس بولس الرسول هذا الحال فقال: "**ولا مماتية مستودع سارة**" (رو ٤: ١٩)، إذ لم يقل: "ولا مماتية سارة" حتى لا يظن أحد أن العقبة هي في السن وحده بل والطبيعة أيضًا (عُقْرها). ولكن كما سبق أن قلت أنه بالرغم من وجود هذه العقبات عرف معنى وعد الله وطرقه الكثيرة وإمكانياته العظيمة التي لا تعوقها قوانين الطبيعة ولا صعوبة الأمر... إنما تسير بنا وسط العوائق لتحقق ما قد سبق أن عينته.

لهذا صدَّق إبراهيم ما قيل له، وآمن بالوعد دون أن يتأثر بسبب تضارب المَنْطِق... ولم يبحث كيف يتحقق هذا؟ ولا تساءَل: لماذا لم يأتِ الوعد في صباه، بل جاء في زمان متأخر بعد الشيخوخة!

من أجل هذا يذكر الرسول بولس اسمه بطريقة سامية قائلاً: "**فهو على خلاف الرجاء، آمن على رجاء، لكي يصير أبًا لأمم كثيرة**" (رو ٤: ١٨). وما معنى: "على خلاف الرجاء آمن على رجاء"؟ أيّ على خلاف الرجاء البشري آمن بالرجاء بالله الذي يغلب في كل شيء، ويستطيع كل شيء، ويعلو فوق كل شيء!

لم يؤمن فقط أنه يكون أبًا، بل وأبًا لأممٍ كثيرةٍ، وهو شيخ غير قادر على الإنجاب، وزوجته العجوز عاقر. "**كما قيل هكذا يكون نسلك. وإذ لم يكن ضعيفًا في الإيمان، لم يعتبر جسده، وهو صار مماتًا، إذ كان ابن مئة سنة، ولا مماتية مستودع سارة. ولا بعدم إيمان ارتاب في وعد الله، بل تقوّى بالإيمان معطيًا مجدًا لله. وتيقن أن ما وعد به هو قادر أن يفعله أيضًا**" (رو ٤: ١٨-٢١)...

لقد مجَّد الله لأنه لم يكن فضوليًا، ولا سأل في طياشةٍ، وإنما خضع لحكمته غير المُدرَكة وقدرته، بغير نقاشٍ فيما قيل له.

هكذا نُمَجِّد الله بخضوعنا له دومًا قدام حكمته غير المُدرَكة وقدرته غير المحــواة، ولا نسأل بتهوُّر: لماذا هذا؟ وما سبب ذاك؟ وكيف يتحقق؟!...

٢. قدَّم إبراهيم الشيخ ابنه الوحيد مُحرَقة

لم يستحق إبراهيم الإعجاب في هذا الموقف وحده، بل حينما لم يتعثر بأمر الرب له أن يُقَدِّم ابنه الوحيد، ابن الموعد، مُحرَقة، مع أن هناك أسباب كثيرة كــان يمكــن أن تعثــر الإنسان غير الساهر ولا متيقظ:

أ. إن كان الله يطلب مثل هذه المُحرَقات، فهو يطلب من الآباء قتل أبنائهم... بهــذا يجعل الآباء قتلة أبنائهم ويتنجس المذبح بدمائهم ويقسو قلب الآباء...

ب. لم يكن إبراهيم مُجَرَّد أب، لكنه أب للابن الذي يُسر به من يراه ويعرفه، الابن الشرعي الوحيد... فقد بلغ درجات عالية في الفضيلة، جميل الروح والجسد!

ج. كان محبوبًا جدًا إذ وُهب له على خلاف كل رجاء، ولعلك تعرف حب الآبــاء للصغار الذين يأتون في الشيخوخة على خلاف الرجاء...

د. كان يمكن أن يتعثر، فإن هذا الأمر يخالف الوعد "**وأجعل نسلك كرمــل البحــر**" (تك ٣٢: ١٢)... لكن البار لم يتعثر، ولا اضطرب، ولا انتابته المشاعر الطبيعية... لم يقل في نفسه: هل خدعني الله؟ هل ضلّلني؟ هل هذا الأمر من قِبَل الله؟... إنه يناقض العدل، إذ به أصير قاتلاً لابني وأخضب يدي بدمه! كيف يتحقق الوعد؟ إن أهلكت الأصل، مــن أيــن تأتي الأغصان؟ وكيف تأتي الثمار؟...

لكنه أطاع كل الطاعة، وقيَّد ابنه، ورفع يده، واخترقت السكين الرقبة... وإن كــان **هذا لم يتم فعلاً لكنه تحقق بالنية**، إذ كانت قائمة للعمل.

تأمل، فقد أطاع وأراد أن يذبح صاحب النسل الكثير... أطاع بحبٍ.. لهذا أعجب به القديس بولس الرسول وأعلن اسمه قائلاً: "**بالإيمان قدَّم إبــراهيم اســحق وهــو مجــرَّب" (عب١١: ١٧).**

وقد أظهر عمله العظيم وإيمانه بقوله "قدَّم الذي قَبِلَ المواعيد وحيده". وهكذا كما لم يعق إيمانه في الوعد بميلاد اسحق لا جسده الممات ولا عُقْم زوجته، هكذا الآن لم يزعــزع الموت إيمانه!

متى قارنت هذه الأحداث بما يحدث معك ترى جُبنَك، ترى صِغَر نفوس المتعثرين، مُدرِكًا بوضوح أن سبب العثرة هو عدم التسليم بين يدي العناية الإلهية غير المُدرَكة...

٣. آمن يوسف بالوعد الإلهي بالرغم من الأحداث المناقضة لرؤياه

٣. ألم يتعرض يوسف لأمرٍ مماثل؟ فقدِ أخذ وعدًا عظيمًا، لكن الأحدث جاءت مناقضة لما قيل له. فقد رأى في حلم إخوته يسجدون له، وعبَّرت له النجوم والسنابل عن ذلك، لكن جاءت الأحداث مناقضة لرؤياه.

أ. فقد قامت ضده حربٌ قاسية في بيت أبيه، وحلَّ إخوته رِباط الأخوّة وكسروا قوانين الطبيعة ونظامها، وصاروا بعد أحلامه معاندين وأعداء له بأكثر وحشية من الذئاب. كما تفتك الحيوانات المفترسة بالحَمَل، هكذا نصبوا له فخاخًا كل يومٍ. وكان مصدر هذه الحروب الجسد المملوء جنونًا والحقد الظالم والغضب المشتعل، وهكذا كانت تفوح منهم رائحة قتل كل يومٍ...

ب. وإذ فشلوا في الأذى به في بيت والديه هاجموا حُبَّ أبيه له...

ج. ثم جذبوه بعيدًا عن عناية والده، وإذ هو آتٍ إليهم بالطعام يطمئن عليهم قابلوه لا بالفرح من أجل ما أحضره لهم من طعام، بل سنّوا سيوفهم واستعدوا لقتله... لكنه بهذا كُلِّل وانتشر اسمه...

غنية هي طُرُق حكمة الله وإمكانياتها وسط المواقف المُعقَدَة، إذ خلَّصته من الجُب، وأنقذته من رحلة الموت، وسحبته من الأيدي القاتلة...

د. عروه من ملابسه وربطوه ورموه في الجب ثم جلس الإخوة القساة كالحيوانات المفترسة يأكلون من الطعام الذي أحضره لهم. كان يوسف في الجُب في رعدةٍ عظيمةٍ، أما هم فكانوا يأكلون ويمرَحون!

هـ. لم يكتفوا بهذا الجنون، إنما إذ رأوا البرابرة الذين تركوا بلادهم ذاهبين إلى مصر أخرجوا أخاهم وباعوه. وبهذا دبَّروا له موتًا بطيئًا قاسيًا مملوء آلامًا.

تخيل معي مشاعر يوسف صغير السن، الذي قد تربى في بيت أبيه في حرية كاملة، بلا خبْرَة في حياة العبودية واحتمال الألم، يُدفَعُ إلى العبودية بعد الحرية، والتغرُّب بعد البنوة... فلا يقف الأمر عند احتماله آلام العبودية فحسب، لكن صاحبتها آلام فراق أبيه وأمه وكل أقاربه بالإضافة إلى العري، والتغرُّب بلا منزل ولا مدينة، مُسلَّم للعبودية في أيادٍ بربرية!

أما يكفيه هذا ليمتلئ اضطرابًا: تراكم المحن، المفاجأة في الموقف، خيبة الأمل، قسوة التجربة التي هي من صنع أيدي إخوته المحبوبين لديه الذين لم يسيء إليهم في شيءٍ

بل بالعكس كان يحسن إليهم... ومع هذا لم يضطرب بل ذهب مع التجار... ولم يسأل: ماذا يحدث بعد؟!

عاش قتلة أخيهم كالذئاب المفترسة في حياة هنيئة في بيت أبيهم... أما يوسف المختار لكي يملك عليهم، فقد صار عبدًا، وذاق التجارب المناقضة للوعد... فقد حُرِمَ من وطنه، وفقد حريته ورؤية عائلته.

و. لم تتوقف حروبه، بل انفتحتْ له هوة أعمق تفوح منها رائحة موت وقتل... فقد نظرت إليه زوجة فوطيفار نظرات أثيمة. لقد أسرها جمال الشاب، واستعبدها منظره المنير، فكانت بالتالي تُدبِّر له خديعة وفخاخًا. وبعد ذلك أخذت تلح عليه يوميًا متربصة له كي تقتنصه في شباكها، وتسقطه في الزنا، وتُسلِّمه إلى موت لا يموت.

لقد كانت تخرج كل يوم تبحث عن فريستها وقد وخزتها الشهوة وحبها الأثيم. رأته مرة، وأرادت أن تجذبه لفراش الخطية، وترغمه على الاتحاد بامرأة غريبة تُدنِّس فضيلته، ومع هذا لم يصب هذا البار أذى: لا أسْر الشهوة، ولا اندفاع الشباب، ولا فخاخ سيدته، وهجومها بغير ضابط... لكنه خرج من هذه الظروف جميعها يفيض هدوءًا كالنسر الباسط جناحيه يرتفع بهما عاليًا، تاركًا قميصه في أيدي سيدته المتجاسرة. ترك ملابسه وهو عريان، لكن فضيلته البهية قد كَسَته!...

عادت فأشهرت سيفها ثانية، واستعد هو للموت. ارتفعت الأمواج عالية واشتعلت شهوة المرأة المجنونة بنار تفوق أتون بابل، والتهبت رغبتها، وثار غضبها وقسوتها المخيفة في وحشية بالغة، وأرادت قتله. فأسرعت إلى السيف واشتهت له موت الخزي وتاقت إهلاك بَطَل الفضيلة وبَطَل الصبر والجهاد. اندفعت نحو زوجها واشتكت دون أن تقص عليه حقيقة الأمر، وإنما مثّلتْ أمامه وأقنعت الحاكم بما أرادت... فما سمع الحاكم للمتهم ولا ترك له مجالاً للدفاع، ذاك الذي لم يبصر الحكمة دانه في هذيان فاضح، واقتنع بإثمه كأن هذا الشاب قد اعتاد الزنا، فرماه في السجن وسلَّمه للقيود.

هنا جلس ذاك الذي هيأ نفسه لأكاليل الفضيلة في السجن مع اللصوص والقتلة الذين تخضبت أياديهم بالإثم. وفي هذا كله لم يضطرب يوسف ولا تعثّر. لم يقل في نفسه "ما هذا؟ كان ينبغي أن أملك على إخوتي، لكنني لم أُحرَم من هذه الكرامة فحسب، بل وحُرِمت من وطني وأهلي وحريتي وهدوئي... هأنذا أعيش وراء القضبان مع الزناة والقتلة... أين تفسير

النجوم الكثيرة وحزَم السنابل؟ وماذا تحقق من الإعلانات؟ أين ذهبت الوعود؟ هل خُدعت وضُلل بي؟ كيف يمكن لإخوتي أن يسجدوا لي وأنا عبد سجين وإنسان مقيَّد؟"

لم يقل يوسف هذا، ولا فكرَّ فيه، إنما انتظر النهاية وعرف غِنَى طُرُق الله وإمكانيات حكمته الفياضة، فلم يعثر بل تهلل وقَبِل برضا كل ما حلَّ به.

٤. تعرض داود لآلام قاسية وهو الممسوح ملكًا

٤. كذلك **داود**، ألم يتعرض لآلام قاسية وهو الممسوح ملكًا وصاحب السلطان بإرادة الله؟... بل وقد صارت حياته في خطر، وأُرسل إلى الأعداء الألداء، وطُرِدَ إلى البرية تائهًا ومنبوذًا بغير مأوى ولا مسكن، منفيًا... ومع هذا لم يقل: "لماذا هذا؟ أنا الملك كان ينبغي أن أتمتع بالسلطان، أفلا أقدر حتى أن أعيش كإنسانٍ عاديٍ؟ هأنذا تائه منفي بلا مدينة ولا مأوى، مطرودًا إلى موضع قاسٍ، ليس لي حتى القوت الضروري... أرى الخطر يحدق بي كل يوم... أين الوعود؟ أين الإعلان بنوالي السلطة؟!" لم يقل داود هذا، ولا تعثر بسبب الأحداث، وإنما انتظر هو أيضًا تحقيق الوعد.

تمسك بكلمة الله

نستطيع أن نذكر آلاف آخرين حلَّتْ بهم صعاب مماثلة ولم يتأثروا بها، بل تمسكوا بكلمة الله، حتى ولو كانت الأحداث تأتي بما يناقض الوعود وبصبرهم العجيب هيأوا أنفسهم لأكاليلِ مضيئة.

وأنت يا عزيزي، انتظر النهاية، فبالتأكد تتحقق لك المواعيد في هذا الدهر والدهر الآتي. تَقَبَّل عناية الله غير المُدركَة تحت كل الظروف، ولا تقل: "ما هذه الخسائر" ولا تفحص طرق أعمال الله العجيبة.

١١

تَرَقّبْ الأبدية!

لم يبحث الأبرار كيف وبأية وسيلة تتحقق مواعيد الله. حتى عندما كانوا يرون كل الأمور قد تعقدتْ للغاية حسب الفكر البشري، لم يتأثروا ولا اضطربوا، بل احتملوا في سموٍ. ودليلهم على المستقبل المبشر هو قدرة ذاك الذي وعد، لهذا لم ييأسوا مهما كذّبتْ الأحداث الوعود. لقد عرفوا غِنَى طُرُق الله وحكمته، فإنه حتى إن بدا الموقف مناقضًا للوعد، لكن الله قادر أن يحوّلَه لحالٍ أفضل، وإن ما وعد به الله يمكن أن يتحقق في سهولةٍ بالغةٍ.

وأنت أيضًا يا عزيزي، إن زالت تجاربك في هذه الحياة مَجِّدْ الله، وإن ازدادت اشكره أيضًا ولا تتعثر. اعلمْ أن عناية الله لا نهائية، ولا يمكن تفسيرها، وإنها حتمًا تبلغ إلى الهدف اللائق في هذه الحياة الحاضرة والعتيدة.

نقول لمن فقد صبره وهو يسمعنا نتحدث عن الحياة العتيدة، مشتهيًا أن يرى تحقيق الأمور، إن الحياة الحقيقية والحقائق الدائمة تنتظرنا في المستقبل. فإن الحياة هنا وأمورها مجرد طريق، أما مسكننا ففي الدهر الآتي. أمور الحياة تشبه الربيع، أما الحياة الأخرى كالصخور لا تتهدم. هناك أكاليل وجعالة أبدية. هناك المكافأة، أما هنا فالتأديب...

اعتراض: ماذا تقول عن الكثيرين الذين تعثروا؟

الرد: ...عندما ترى عثرة هؤلاء، فَكِّرْ في كرامة الآخرين. لقد سقط البعض لكن كثيرين لا يزالون منتصبين، مُهيئين أنفسهم لأعظم جعالة، إذ لم تسقطهم قوة الأعداء (الخطية) ولا قسوة الظروف.

من تعثَّر بسبب ظروف خاصة، ليفكر في الثلاثة فتية وقد أبعدوا عن الكهنة والهيكل والمذبح وكل فروض الناموس وأُهملوا في بلادٍ غريبةٍ، ومع ذلك ظلوا متمسكين بوصايا الناموس بدقة. وأيضًا دانيال وغيره كثيرون لقد سُبي البعض ومنهم من لم يخطئ، بينما الذين بقوا في ديارهم وتمتعوا بخيرات بلادهم ضلوا واستحقوا التأديب.

١٢
الشر وعناية الله

إن كنت تفحص أمور الله، ولا تريد الخضوع لمقاصده العميقة غير المفحوصة، إن حصرت هدفك في مجرد التساؤلات المملوءة فضولاً، فإنك تظل تتساءل في أشياء أخرى كثيرة مثل:

لماذا ترك الله الباب مفتوحًا للهرطقات؟

لماذا أوجد إبليس والشياطين والأشرار الذين يُسقطون كثيرين؟...

لماذا ينبغي أن يأتي ضد المسيح، وتكون له القدرة على تضليل حتى المختارين كقول السيد المسيح؟

يجدر بنا ألا نبحث هذا كله، وإنما نُسلِّم أنفسنا لحكمة الله غير المُدركَة. فالإنسان المُحِب الملتصق بالله على الدوام لا تؤذيه الأمواج مهما هاجت ضده، وإنما على العكس يخرج منها بقوةٍ جديدةٍ. أما الشخص الضعيف المتخاذل فإنه حتى وإن لم يوجد ما ضايقه فإنه يسقط كثيرًا...

لماذا ترك الله الباب مفتوحًا للأشرار؟

أما إذا أردت معرفة السبب (لترك الأشرار) نقول ما نحن نعرفه:

١. يسمح الله بهذه العثرات لكي لا تقل مكافأة الأبرار. وهذا ما أكده الله في حديثه مع أيوب قائلاً: "**أتستذنبني لكي تتبرر أنت؟!**" (أي ٤: ٨) ويقول القديس بولس الرسول أيضًا: "**لأنه لابد أن يكون بينكم بدع أيضًا، ليكون المزكون ظاهرين بينكم**". وإذا سمعت "لابد أن يكون"، فلا تظن أن الرسول يأمر بهذا. كلا! إنما هو يتنبأ بما يحدث، ثم يعود فيشرح أن الإنسان الساهر يستفيد كثيرًا، إذ تتزكى فضيلة الثابتين.

٢. يسمح الله للأشرار بالعمل لسببٍ آخر، وهو أنه إن لم يظهر ضعفهم لا يمكن حصاد تجديدهم. هكذا تجدد بولس الرسول واللص والزانية والعشار وكثيرون غيرهم...

٣. يعلن الرسول سببًا آخر لمجيء ضد المسيح هو إغلاق الباب أمام اليهود. فما هو عذرهم برفضهم المسيح وقد كان يجدر بهم أن يؤمنوا به، إذ يقول: "**لكي يُدان جميع الذين لم يصدقوا الحق**" (١ كو ١١: ٩)، أيّ "المسيح"، بل "سروا بالإثم"، أيّ بضد المسيح.

هكذا لم يؤمنوا بالمسيح، لأنه قال عن نفسه إنه الله. قالوا: "**ترجمك لأنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهًا**" (يو ١٠: ٣٣)، مع أنه أثبت لهم بطرق كثيرة أنه جاء حسب إرادة الآب. فماذا يفعلون حينما يأتي ضد المسيح الذي يجعل نفسه إلهًا ولا يتكلم عن الآب، مناقضًا إرادة الآب؟ هذا ما أخذه عليهم السيد المسيح، إذ يقول: "**أنا قد أتيت باسم أبي ولم تقبلونني. إن أتى أحد باسم نفسه فذلك تقبلونه**" (يو ٥: ٤٣). من أجل هذا سمح لهم بالعثرات.

إن ذكرتم لي من تعثّروا، أذكر لكم الذين حصدوا منها مجدًا. لذا أعود فأُكرر أنه لا يجوز أن يتسبب إهمال البعض وكسلهم في حرمان الساهرين من الجعالة والإكليل بالنسبة للمتيقظين. فلو لم يتح لهم هذه الفرص من الحروب لأسيء إليهم!

١٣

أناس لم يتعثروا بالرغم من عدم وجود معلمين

من قام بإرشاد إبراهيم؟

١. أخبرني: هل كان لإبراهيم كاهنًا ومصلحون ومعلمون وأناس ينصحونه؟ لم يكن له في ذلك الوقت كتاب مكتوب ولا ناموس ولا أنبياء ولا شيء من قبيل هذا. كان يبحر في بحر غير صالح للملاحة، ويسير في طريق وعر. أبوه وأقاربه كانوا عبدة أصنام. ومع هذا فإن هذه الظروف جميعها لم تسيء إليه، بل زينته فضائله، حتى أنه بعد زمن طويل، بعد مجيء الأنبياء والناموس وتعليم السيد المسيح الرائع بالأعمال والمعجزات، ظهرت فضائله التي سبق فتزيَّن بها: من محبة حارة عملية واحتقار للغِنَى وحنانه الأبوي تجاه أهله. لقد سحق الترف تحت قدميه، وترك حياة المتعة الفانية، وعاش في تقشف يفوق نسك الرهبان في هذه الأيام الذين بلغوا قمم الجبال. فلم يكن له منزل، إنما كانت له ظلال أوراق الشجر سقفًا لهذا البار ومأوى له. وإذ كان غريبًا امتلأ غيرة نحو إضافة الغرباء. اهتم هذا الغريب في البلاد الغريبة باستضافة القادمين إليه ظهرًا... ولم يقم بخدمتهم وحده بل أشرك معه زوجته في هذا العمل الصالح.

خدم ابن أخيه مع أنه لم يكن قد تصرَّف معه حسنًا... مُعَرِّضًا حياته لخطر محقق من أجله؟

وعندما أمره الرب أن يترك البيت ليذهب في أرض غريبة، أطاع في الحال وترك وطنه وأصدقاءه وكل أهله، مرتبطًا بما لا يعرفه في يقين عظيم من أجل مواعيد الله. وكان هذا دليلاً على إيمان مملوء خضوعًا. ثم حدثت مجاعة فتغرب ثانية بغير انفعال أو اضطراب، مظهرًا ذات الطاعة، محتملاً الألم بصبر...

وعندما أمره الله بذبح ابنه أخذه سريعًا كمن يقوده إلى فراش الزفاف، كمن يُسَلِّم العريس عروسها. تخطى حدود الطبيعة وتحرر من الطبيعة البشرية مقدمًا ذبيحة جديدة تفوق العجب، مناضلاً بمفرده بغير معونة من زوجته أو خادم له أو أحد المحيطين به.

حقًا كان يعرف بوضوح خطورة الأمر وشدة المعركة... فواجه النضال وحده وركض وحارب وكلل واشتهر اسمه... أيّ كاهن علمه هذا كله؟! أو أيّ معلم أو نبي؟ لا أحد... لكن روحه المتيقظة جعلته هذا كله!

من قام بإرشاد نوح؟

٢. هل وَجَدَ **نوح** كاهنًا أو معلمًا أو مرشدًا؟ هذا الذي انفرد وحده، سائرًا في طريق مناقض للأرض كلها التي فسدت بالشر، صانعًا الفضيلة، فخلَّص نفسه ومعه آخرين من الغرق الذي كان يهددهم؟!... انظر كيف صار بارًا؟! كيف بلغ الكمال؟!...

من قام بإرشاد حام؟

٣. بالرغم من أن **حام** ابنه كانت فضيلة أبيه العملية هي معلمه... وكان يمكنه إذ رأى الحوادث بعينيه أن يستخلص دروسًا من كارثة الطوفان ونهاية الشر، لكنه كان شريرًا تجاه والده، فاستهزأ بعريه وعرضه للاستهزاء العام. لهذا يليق بالإنسان أن يكون قلبه مستعدًا على الدوام.

من قام بإرشاد أيوب؟

٤. أخبرني عن **أيوب**؟ هل سمع الأنبياء أو قرأ تعاليم ينتفع بها؟ كلا! مع أنه لم يجد عونًا من هذا القبيل غير أنه قدم مثالاً للفضيلة الكاملة الدقيقة. وزع أمواله على المحتاجين، ليس فقط ماله بل وبذل صحته. استضاف الغرباء في منزله... ودافع عن المسيئين إليهم، وبكلامه الرقيق سدَّ أفواه السفهاء، كان كملاكٍ في تصرفاته... تأمل قول السيد المسيح: "**طوبى للمساكين بالروح**" الأمر الذي حققه أيوب بتصرفاته (أي ٣١: ١٣-٢٥)... "**طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض**". من بلغ وداعة ذاك الذي قال عن عبيده بسبب حبهم له: "**من يأتي بأحد لم يشبع من طعامه؟!**" "**طوبى للباكين لأنهم يتعزون**" (أي ٣١: ٣١)، وقد اختبر أيوب هذه التعزية الداخلية. أنصتْ ماذا يقول: "**إن كنت قد كتمت كالناس ذنبي لإخفاء إثمي في حضني**" (أي ٣١: ٣٣)، إذ كان كثير البكاء على خطاياه. "**طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ**". انظر ما حققه من كمال، إذ يقول: "**هشمت أضراس الظالم، ومن بين أسنانه خطفت الفريسة**"، "**لبست البرّ فكساني كجبةٍ وعمامة كان عدلي**" الخ. (أي ٢٩: ١٤، ١٧)

حقًا، أحب (مضايقيه)، وصلى من أجلهم، وحوّل عنهم الغضب مع أنه لم يسمع نبيًا ولا إنجيليًا ولا كاهنًا ولا معلمًا، ولا أوصاه أحد بالفضيلة. تأمل سمو روحه، كيف اعتمدت على نفسها، فصنعت الفضيلة، حتى إن لم تجد من يحيطها بالعطف. ولم يكن حتى أسلافه صالحين، بل كانوا ثابتين في شرٍ عظيمٍ. إذ يقول بولس عن جده: "**لئلا يكون أحد مستبيحًا كعيسو الذي لأجل أكلة واحدة باع بكوريته**" (عب ١٢: ١٦).

١٤

هل تعثرت النفوس بسبب الاضطهادات في العصر الرسولي؟

الرسول بولس يعاني من شرورٍ كثيرة

وُجدت عثرات كثيرة في أيام الرسل وتأثر بها كثير من الناس وهلكوا، كما تعرض الكارزون للإضطهادات والموت.

أخبرني، ماذا حدث في أيام الرسل؟...

أنصت إلى قول بولس: "**أنت تعلم أن جميع الذين في آسيا ارتدوا عن الذين منهم فينحاس وهرموجانس**" (٢ تي ١: ١٥).

صارت السجون مسكنًا للكارزين وتثقلوا بالقيود. احتملوا الآلام من الأقرباء والغرباء، بل وبعد انتقالهم جاءت ذئاب خاطفة واحتلت أماكنهم في الحظيرة، إذ يقول بولس إلى أهل أفسس بعد استدعائهم إلى مليتس: "**لأني أعلم هذا أنه بعد ذهابي سيدخل بينكم ذئاب خاطفة لا تشفق على الرعية، ومنكم أنتم سيقوم رجال يتكلمون بأمور ملتوية ليجتذبوا التلاميذ وراءهم**" (أع ٢٠: ٢٩-٣٠).

وأظهر له اسكندر النحاس شرورًا كثيرة (٢ تي ٤: ١٤)، إذ هاجمه في كل مكان وحاربه، وتتبعه بالضيقات، وأثار ضده حربًا عنيفًا حتى حذَّر القديس بولس الرسول منه تلميذه قائلاً: "**احتفظ منه أنت لأنه قاوم أقوالنا بشدة**" (٢ تي ٤: ١٤).

مقاومة الإخوة الكذبة إيمان الكنيسة

كما أفسد بعض الإخوة الكذبة إيمان أهل غلاطية.

وفي بدء الخدمة حوكم اسطفانوس، ورُجم كمجدفٍ، هذا الذي فاضت بلاغته كالأنهار وأبكم كثيرين مبكتًا الألسن اليهودية الآثمة، ولم يقدر أحد على مقاومته... كان هو الإنسان النبيل الحكيم المملوء حكمة استفادت الكنيسة منه الكثير بالرغم من قصر مدة خدمته.

مقاومة الحكام الكنيسة إرضاء لليهود

ويعقوب قتله هيرودس ليرضي اليهود، وكان ذلك في البداية، فرحل عمود الحياة هذا وكرسي الحق.

آلت الضيقات بالأكثر إلى تقدُّم الإنجيل

لقد تعثر كثيرون بسبب هذه الأحداث، ولكن الواقفين ظلوا وقوفًا، وسيظلوا هكـــذا. اسمع ماذا يكتب بولس الرسول إلى أهل فيلبى؟ "**ثم أريد أن تعلموا أيها الإخوة أن أموري قد آلت أكثر لتقدُّم الإنجيل حتى أن وثقي صارت ظاهرة في المسيح في كل دار الولاية وفـــي باقي الأماكن أجمع وأكثر الإخوة وهم واثقون في الرب بوثقي يجترئون أكثر علـــى الـــتكلم بالكلمة بلا خوف**" (في ١: ١٢-١٤).

أترى هذه الشجاعة؟ أتنظر هذه الثقة؟ أترى القـــوة الروحيـــة وطريقـــة التفكيـــر المسيحي؟ لقد رأوا معلمهم في السجن مقيدًا، مُبكَم الفم، مضروبًا، متألمًا بكل أنواع الألم، فلم يعثروا، ولا تأثروا، بل بالحري زادت محبتهم، وصارت آلام معلمهم طاقة عظيمة للحروب (الروحية).

لست أنكر أن البعض هلكوا. فمن الطبيعي أن ينهار الكثيـــرون قُـــدَّام مثـــل هـــذه الأحداث، لكن ما سبق أن قُلتَه أعود فأكرره الآن وأبقى أكرره، أنه مـــن العـــدل أن يُرجـــع هؤلاء ضعفهم إلى أنفسهم ذاتها وليس إلى الأحداث.

لقد ترك لنا هذا الميراث بقوله: "**في العالم سيكون لكم ضيق**"، "**ســـتحاكمون أمـــام الولاة والسلاطين**"، "**يأتي وقت يظن فيه كل من يقتلكم أنه يؤدى خدمة لله**" (يـــو ١٨: ٣٣؛ مت ١٠: ٨؛ يو ١٦: ٢). فباطلاً تعترض على وجود أناس متعثرين، لأن الضيق مـــستمر على الدوام.

التعثر بسبب آلام السيد

ولماذا أذكر آلام الرسل؟! كم من أناسٍ تعثروا أمام صليب معلمنا كلنـــا، وازدادوا شرًا وسفاهة، وهم يجتازون قدامه مستهزئين، قائلين: "**يا ناقض الهيكل وبانيـــه فـــي ثلاثـــة أيام... خلَّص آخرين، وأما نفسه فما يقدر أن يخلصها... إن كنت ابـــن الله، فـــانزل عـــن الصليب لنؤمن بك**" (مت ٢٧: ٤)، مع هذا لا يمكن أن يكـــون لهـــم الـــصليب نـــورًا، لأن اللص سيُدِين هؤلاء، فقد نظر إلى الصليب ولم يتعثر، بل وجد فيه علة للبحث عن الحكمـــة الحقيقية. وبعدما تخطى الأمور البشرية ارتفع بجناح الإيمان متأملاً المـــستقبل. لـــم يتعثـــر بالرغم من رؤيته للسيد المسيح مصلوبًا، مضروبًا، مهانًا، يشرب الخـــل، ويُبـــصق عليـــه، يَستهزِئ به كل الشعب، وحكموا عليه بـــالموت. إذ رأى الـــصليب والمـــسامير فـــي يديـــه

والشعب الفاسد يستهزئ به، سار حسب الطريق المستقيم، قائلاً : "**اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك**".

لقد أبكم الشاتمين معترفًا بخطاياه!

تأمل القيامة دون أن يرى الموتى وهم يقومون، ولا رأى البرص يطهرون، أو العرج يمشون، أو البحر مبكمًا قدامه، ولا الشياطين يخرجون، ولا الأرغفة تتكاثر، وبقية المعجزات التي رآها اليهود ومع هذا صلبوا المسيح.

إذ رأى اللص المصلوب اعترف بالله وتذكّر ملكوته، وتأمل الأبدية، أما اليهود فقد رأوه يجري المعجزات وسمعوا تعاليمه بالكلام والعمل ولم ينتفعوا منه، بل انحدروا إلى أعماق الجحيم لهلاكهم برفعهم إياه على الصليب.

هل للشيطان سلطان عليك؟

للقديس يوحنا الذهبي الفم

طبعة منقحة

٢٠٠٧

تعريب

القس تادرس يعقوب ملطي

جورج فهمي حنا

مُعرب عن:

Nicene and Post-Nicene Fathers, Series 1 Volume 9.

Homily I: Against Those Who Say That Demons Govern Human Affairs.

Homilies II and III: On The Power Of Man To Resist The Devil.

إن كان الله محبًا للبشر، فلماذا خلق الشيطان الذي يبدو كأن لا عمل له إلا تحطـيم الإنسان؟

- ❖ لماذا يسمح الله للشيطان أن يحارب الإنسان؟
- ❖ هل من وجه للمقارنة بين قدرات إبليس وجنوده، والإنسان الترابي؟
- ❖ لماذا يسمح الله بالتجارب والضيقات؟
- ❖ وما هو ذنب الإنسان من جهة شهوات الجسد؟

كثيرًا ما عالج القديس يوحنا الذهبي الفم هذه التساؤلات وأمثالها في عظاته وكتاباته، خاصة في هذه المقالات الثلاث التي بين يديك.

القمص تادرس يعقوب ملطي

١٧ هاتور ١٦٨٦ ش.

٢٦ نوفمبر ١٩٦٩ م.

المقال الأول

بين العناية الإلهية وظُلم الشيطان [1]

[1] العنوان الأصلي للمقال: "رد على القائلين بأن الشياطين تحكم شئون البشر".

الحب الإلهي وآثار كسر الوصية

الله صانع الخيرات

الله كما اختبرته الكنيسة "صانع الخيرات"، لهذا فهي لا تكف عن أن تُعلِّم أولادها في كل مناسبة، في الأفراح والأحزان، في الصلوات الجماعية والخاصة، أن يصلُّوا إلى أبيهم قائلين: "فلنشكر الله صانع الخيرات".

الله صانع الخيرات، إذ خلقني على صورته ومثاله، أوجَد العالَم وما فيه من أجلي، ولم يدعني معوزًا شيئًا من أعمال كرامته، وفتح لي الفردوس لأتنعم.

وهبني وصية، هي في حقيقتها بركة من الرب نحوي، لأنني بدونه ليس لي وجود. فربطني به، ووهبني بطاعتي له أن تلتصق الصورة (أنا) بالأصل (الله)، فلا أستقل بذاتيتي التي هي العدم.

أحبني، فصرت أسير محبته، لذلك سمح لي بالوصية كعهدٍ وميثاقٍ أعبِّر فيه عن حبي له كما أحبني هو أولاً.

كشف عصياني وكبريائي عليه لأتمتع بأعماق حبه لي!

ماذا فعلت بي الخطية؟

الخطية الأولى، بل وكل خطية، تتركز في أمرٍ واحدٍ، هو أن يستقل الإنسان عن الله ليكوِّن لذاته كيانًا خاصًا. رأى الإنسان - في لحظات ضعفه - أن يتحرر من أبوة أبيه السماوي، وأن يهرب من لُجَة محبته، لأنه في ظلمته الذاتية لا يطيق أن يعاين النور، وفي بغضه لا يقدر أن يفهم الحب!

أقول، إن الإنسان في عصيانه على الله ورغبته في الاستقلال عن مصدر سعادته وشبعه وحياته سقط تحت نير الخطية، ونال العقوبة. هي في الحقيقة ليست عقوبة من قِبَل الله، لأن الله محب ويحب الإنسان حتى في لحظات ضعفه، إنما هي ثمرة طبيعية ذاقها الإنسان بقبوله للخطية.

فالخطية التي اختارها الإنسان، قدَّمتْ له ما عندها وهو:

(أ) **حرمان:** حرمان من السلام و الفرح والخير، حرمان من الفردوس، وحرمان من الشبع حتى من البركات الأرضية.

(ب) **ظُلم:** الخطية خاطئة، لا تعرف لها قانونًا إلا قانون الظلم وعدم العدالة.

(ج) **الموت**: الخطية هي انفصال عن الله مصدر الحياة.

ماذا فعل الله بنا؟

رأى الله صنعة يديه قد فسدت، إذ حمَّلت نفسها بنفسها حِملاً هي غير قادرة عليه.

والله الذي وهب الإنسان حرية الإرادة لا يجبر الإنسان على السلوك في طريق معيَّن، وفي نفس الوقت لا يمنع الإنسان من حمل آثار الخطية مادام قد قَبِلَ الخطية ذاتها. ولكنه كأبٍ حنونٍ وراعٍ صالحٍ صانع الخيرات، حوّل الشر ليكون فرصة لقبول الخير.

فمن جهة الحرمان: حُرِم الإنسان من **السلام الداخلي والفرح الحقيقي الدائم**. حرمانه هذا جعله - إن تعقل - أن يدرك أنه لا سلام ولا فرح إلا بقبوله العودة إلى الأحضان الإلهية.

والخطية حرمته من **الفردوس**، فصار ذلك بعناية الله لخيره، لأنه لو بقى آدم وبنيه في الفردوس يخطئون، أي رجاء بعد لهم؟! لكنهم طردوا، وفتح أمام أعين قلوبهم الرجاء في نوال فردوس سماوي غير منطوق به. يستطيع أي إنسان ولو كان لصًا منبوذًا من العالم، معلقًا على الصليب، في آخر نسمات حياته، أن يغتصبه!

وحرمت الخطية الإنسان من **الشبع من البركات الزمنية**، فمهما نال من مالٍ لا تشبع نفسه، ومهما تمتع بالشهوات لا تشبع شهواته، بل وكثيرًا ما يحرم حتى مما يبدو ضروريًا. وفي هذا كله يعلن الله للإنسان، أنه كصورة له لا شبع له إلا باتحاده مع خالقه. إن النفس شبه السمائية لا تشبع من الأرضيات، ولو وهبت لها الأرض وما عليها. لكنها تطلب من هو سمائي!

ومن جهة الظلم: فإن الإنسان بسقوطه تحت ناموس الظلم الذي لا يعرف العدالة ولا القانون، بل هو أشبه بنوع من الفوضى. فقد يولد الإنسان ليجد نفسه أحيانًا وسط عائلة فقيرة مثقلة بالديون، أو ليجد جسده مبتليًا بمرض وراثي لا ذنب له فيه، أو مشوه بعاهة تفقده سلامة صحته وسلامة نفسيته. وقد يجاهد وفي جهاده يمرض، فيفقد ثمرة جهاده ولا ينال من طموحه ما يناله غيره، وقد يفقد أحد أفراد العائلة فيحيا في بؤسٍ محرومًا من الأبوة أو الأمومة أو البنوة. هكذا حتى يظن الإنسان كأن أموره تسيِّرها الصدفة المحضة أو تخططها يدي الشيطان القاسي الذي لا يعرف للرحمة فهمًا.

فإن كان الإنسان قد أخضع نفسه بنفسه للظلم، لكن الله كأبٍ مترفقٍ وخالقٍ مدبرٍ للمسكونة لا يترك أولاده في يدي عدو قاسٍ كما يظن البعض.

سمح بالظلم، لأن الإنسان اختار الظلم لنفسه، لكن رغم ما للظلم من عدم تنظيم، إلا أن الله حوّل الظلم ليكون بركة للإنسان. جعله مجالاً يبحث فيه الإنسان عن خلاص نفسه، لا ليهرب من الظلم المادي أو الأدبي أو الاجتماعي، بل من ظُلم أبشع وأبقى هو الوجود في حضرة الشيطان، في الظلمة الأبدية بعيدًا عن الله العدل المطلق!

وفيما نراه ظلمًا، إذ بيد الله المترفقة تمتد وتعتني بنا في كل صغيرة وكبيرة. يهتم بحياتنا الروحية كما الجسدية، الأبدية كما الزمنية.

فالإنسان وسط ظُلم الخطية لم يُحرَم من العناية الإلهية، بل بالعكس يُسمح له بالفقر المادي أو المرض الجسدي أو الحرمان المعنوي أو الأدبي أو الاجتماعي، كي ترتد نفسه إلى خالقها تسأل وتطلب وتقرع، وهنا تأخذ. تأخذ مشتهى الكل، تنال وقفة جميلة في حضرة الرب، بل تنال عمل الله فيها.

وهكذا يُحرَم الجسد لكي تشبع النفس، ويتألم الإنسان هنا ليمسح الرب دموعه هناك!

قد يسمح الله بالحرمان لكي يتزكى الإنسان في إيمانه وتسليمه حياته في يدي الرب وعدم تذمره الخ.

لقد نظر الرسول هذا، فقال: "يا لعمق غنى الله وحكمته وعِلْمه! ما أبعد أحكامه عن الفحص! وطرقه عن الاستقصاء!" (رو ١١:٣٣) إذ يحوّل الآلام في يديه المباركتيْن إلى بركات مستترة وعلامات حب يدركها الإنسان إن أراد. إذ "قلب الإنسان يفكر في طريقه، والرب يهدي خطواته" (أم ٦:٩).

إنه لا يزال الله المترفق بأولاده، إذ به نحيا ونتحرك ونوجد (أع ١٧:٢٨). عيناه تترقبان آلام الإنسان، إذ يقول، "إني قد رأيت مذلة شعبي... أني علمت أوجاعهم" (خر ٣:٧)، مؤكدًا للإنسان: "عيني عليك من أول السنة إلى آخرها". وكما يقول الكتاب المقدس: "هو يعتني بكم" (١ بط ٥:٧). "الرب لي معين فلا أخاف" (عب ١٣:٦)، "حفظت عنايتك روحي" (أي ١٠:١٢).

أكثر من هذا، إذ رأى ربنا يسوع الظلم يهدد كيان البشر ويفسد سلامهم ويملأهم يأسًا، لم ينزع الظلم لكنه حمل ظلم البشرية بأجمعها، في كل الأجيال، في جسده. إذ وهو بار، حمل عار الصليب من أيدٍ أثيمة لا ترحم ولا تفهم! فلم يعد الظلم أثرًا من آثار الخطية، بل علامة حب واحتمال. أحبنا فاحتمل الظلم من أجل أحبائه. وصار كل من يريد أن يتحد

بالسيد المسيح المظلوم يقبل الظلم ويشتهيه. ومهما بلغ الظلم الذي نحمله، فإنه لا يُقارَن بالظلم الذي كيَّلته البشرية لخالق الكل!

ومن جهة الموت: صار موت الإنسان بالخطية فرصة يكتشف فيها الإنسان أعماق حب الله. لأنه "هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية" (يو ٣: ١٦). "لأن المسيح إذ كنا بعد ضعفاء، مات في الوقت المعيَّن لأجل الفجّار. فإنه بالجهد يموت أحد لأجل بار. ربما لأجل الصالح يجسر أحد أيضًا أن يموت، ولكن الله بيَّن محبته لنا، لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا" (رو ٥:٦-٨).

هذا ما صنعه الله بنا إزاء الخطية، كشف لنا أعماق محبته لنا. وكما يقول القديس غريغوريوس الثيؤلوغوس: "حوَّلتَ لي العقوبة خلاصًا. كراعٍ صالحٍ سعيت في طلب الضال. كأبٍ حقيقيٍ تعبت معي أنا الذي سقط. ربطتني بكل الأدوية المؤدية إلى الحياة". لقد مات يسوع وقام ليقيمنا معه، ويجعل موت الجسد شهوة للانطلاق إلى الفردوس.

هذا هو ما أراد أن يوضحه القديس يوحنا الذهبي الفم في رده على القائلين بأن شئون البشرية تسير وفق رغبة الشيطان.

الرب قادر أن يكشف عن عيوننا حتى ندرك حب الله لنا وترفقه بنا، عندئذ ندرك أن كل الأمور تعمل معًا للخير للذين يحبون اسمه[1].

---

[1] هذه المقدمة السابقة مأخوذة عن كتاب "الحب الإلهي" بتصرف.

العناية الإلهية وإهمال الإنسان

تقديم[1]

قدَّم الله محب البشر للإنسان كل شيء حسنًا، لكن الإنسان أفسد هذه العطايا، فخسر الفردوس وفقد وحدة اللغة. وفي هذا كله لازال الله يحب الإنسان ويحوّل ثمرة شره إلى خير.

العطية صالحة... والإنسان أفسدها

كان للبشر لسان واحد كما كان لهم طبيعة واحدة... لكن متى حدثت بلبلة الألسن؟ عندما أهمل الإنسان العطية (يوم فكر في بناء برج بابل للهروب من أي تأديب إلهي)... فكما ظهر حنو الله بإعطائه إيانا لسانًا واحدًا، كذلك ظهرت بلادة العبيد ببلبلة أسنتهم.

لقد رأى السيد مُقدَّمًا أننا سنفسد العطية، ومع ذلك وهبنا إياها... وهنا يظهر أن الله لم يحرمنا من العطية بل نحن الذين أفسدناها، (وحتى بعد أن أفسدناها) وهبنا عطايا أعظم من تلك التي خسرناها، فشرَّفنا بالحياة الأبدية بدلاً من الضيق، وأعد لنا ثمر الروح ينمو في نفوسنا عوض الشوك والحسك.

الله يعتني بنا رغم إفسادنا عطاياه:

لا شيء أتفه من الإنسان (باعتزاله خالقه)، ومع ذلك لم يُكرَّم أحد مثله!

لقد كان آخر المخلوقات العاقلة... لكن هوذا القدم صار رأسًا، وبواسطة الباكورة (كلمة الله المتجسد، السيد المسيح) صرنا نرتبط بالعرش الملكي.

إنه يشبه (ملكًا) غنيًا نظر إنسانًا عريانًا هاربًا من الدمار... استقبله بين يديه، وألبسه ثوبًا بهيًا، وقاده إلى أعلى الكرامات. هكذا صنع الله بطبيعتنا.

لقد فقد الإنسان كل ما كان لديه:

فقد حقه في التكلم بحرية،

فقد شركته مع الله،

---

[1] من وضع المعرب: قمت بحذف مقدمة المقال التي كتبها القديس يوحنا الذهبي الفم، إذ يلخص فيها العظة السابقة لها عن "التواضع". ويتكلم عن شوقهم لقبول الكلمة، مطالبًا أن يأخذ كل منهم قدر احتماله وشوقه.

خسر وجوده في الفردوس،

أفسد حياته النقية... لقد خرج من الدمار عريانًا! لكن الله استقبله، وألبسه للحال ثوبًا، واحتضنه بين يديه، وقاده تدريجيًا نحو السماء! ومع هذا لم يكن للإنسان في دماره عذرًا بالمرة، إنما ما حدث هو نتيجة إهماله كبحّار أساء (القيادة)، وليس بفعل شدة الرياح.

لم ينظر الله إلى إهماله... إنما تحنن عليه من قبل عظم الكارثة. تعطف على ذاك الذي تحطمت سفينته داخل الميناء. استقبله الله بحبٍ...

كان سقوطه في الفردوس بمثابة هلاك للسفينة داخل الميناء، لأنه لا يوجد في الفردوس حزن ولا اهتمام ولا أتعاب ولا مضايقات ولا أمواج للشهوة. ما كانت توجد مثل هذه الأمور التي تهاجم طبيعتنا، ومع هذا سقطت طبيعتنا وتدهورت!

الشيطان يخدع والله يحب

رأى الشيطان أن سفينة آدم، أي نفسه، محملة بالأعمال الصالحة، فجاء وثقبها، وذلك بمجرد الحديث معه (في شخص حواء عن طريق الحية)، وكأنه فعل هذا بعدة حربية حديدية صغيرة. فأفرغ ما بها وأغرق السفينة ذاتها... وذلك كما يفعل (القراصنة) الأشرار الذين يعملون في البحر، إذ غالبًا ما يثقبون السفن بعدة حربية صغيرة حديدية، وبهذا يسمحون (لمياه) البحر أن تدخل السفينة من أسفل...

لكن الله جعل الربح أعظم من الخسارة، إذ أحضر طبيعتنا إلى العرش الإلهي. لذلك يصرخ القديس بولس الرسول قائلاً: "أقامنا معه، وأجلسنا معه في السماويات في المسيح يسوع. ليظهر في آخر الدهور الآتية غنى نعمته الفائق باللطف علينا" (أف ٢: ٦-٧).

ماذا تقول "**ليظهر في آخر الدهور**"؟ لقد حدث فعلاً... فكيف تقول "ليظهر في آخر الدهور الآتية"؟ ألم يظهر الآن؟ لقد ظهر فعلاً، ولكن ليس لكل الناس، بل لي أنا المؤمن، أما غير المؤمن فلم ينظر بعد هذا العجب. لكن في ذلك اليوم تتقدم كل البشرية لترى وتتعجب مما حدث، أما بالنسبة لنا، فيزداد الأمر وضوحًا.

نحن الآن نؤمن، لكن السمع والنظر لا يضعاننا في التعجب على مستوى واحد. وذلك كما في حالة الملوك، فإننا نتعجب حقًا عندما نسمع عن الحلة الأرجوانية والتاج والثوب الذهبي والعرش الملكي... لكن يزداد اختبارنا بالأكثر عندما ترتفع الأحجبة ونراه جالسًا على كرسي الحكم العظيم. هكذا أيضًا بالنسبة للابن الوحيد، عندما ترتفع الأحجبة

السمائية، ويأتي ملك الملائكة ومعه الجنود الملائكية تحيط به... عندئذ نرى عجبًا أكثر...

تأمل معي ماذا نرى؟! **إن طبيعتنا البشرية التي أخذها منا صارت محمولة بواسطة الشاروبيم، وكل قوات الملائكة تحيط به!**

محبة غير منطوق بها

لكن تطلع معي أيضًا حكمة القديس بولس الرسول، كيف كان يبحث عن عبارات يوضح بها لنا عن لطف الله!

لأنه لم يقل مجرد كلمة "نعمة" أو "غنى" بل قال: "**غنى نعمته الفائق باللطف علينا**" (أف ٢:٦،٧). ومع هذا لازال تحت العلامة (أي لا تقدر العبارات مهما بلغت أن تعبر عنها كما هي)، وذلك كمن يقبض بأيادٍ كثيرة على جسم زلج (أملس)، فيفلت منه. هكذا نعجز عن أن نقبض على الحب الإلهي المترفق مهما بلغت العبارات التي نحاول أن نلحق به. فعظمة حنو الله الفائقة تحير نطقنا.

هذا ما اختبره بولس نفسه، إذ رأى أن قوة الكلمات تعجز أمام عظمة حنو الله، لذلك اكتفى بقوله... "فشكرًا لله على عطيته التي لا يعبر عنها" (٢ كو ٩:١٥). لأنه لا يقدر كلام أو عقل ما أن يوضح اهتمام الله المتحنن، لهذا يقول إن التعبير عنه فائق، وفي موضع آخر يقول: "وسلام الله الذي يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم" (في ٤:٧).



العناية الإلهية والحرمان

علامات عناية الله بنا

كما قلت قبلاً إن هذيْن الطريقيْن لإعلان (حب الله) وجدا في وقت واحد:

الأول: **أن الله لم يسلبنا العطية التي خسرناها.**

الثاني: **أن الأشياء الصالحة التي وهبت لنا أعظم حتى من تلك التي فقدناها.**

عناية الله وسحب ما قد أعطانا

أريد أن أوضح أمرًا ثالثًا... ما هو؟ إنه حتى وإن لم نُعطَ بعد تلك الأشياء التي هي أعظم من الأولى التي فقدناها، بل نزع عنا ما قد وهبنا، فإنه في هذا أيضًا الكفاية لإعلان عناية الله المترفقة بنا.

علامة حنو ترفق الله العظيم، ليس في العطاء فحسب، بل وفي سحب ما قد أعطانا. وإن أردت أوضح لك ذلك في حالة (الطرد من) الفردوس.

١. حب الله والطرد من الفردوس

وهبنا الله الفردوس، وهذا من قِبلْ عنايته المتحننة. ونحن أظهرنا عدم استحقاقنا للعطية، وهذا نتيجة إهمالنا الخاص بنا. لقد نزع العطية من أولئك الذين صاروا غير مستحقين لها. وهذا نابع عن صلاحه...

لكن قد يقول قائل: وأي صلاح هذا حتى ينزع العطية؟! انتظر فستسمع بما فيه الكفاية.

قايين والطرد من الفردوس

تأمل ماذا يكون موقف قايين لو بقي في الفردوس وهو سافك دم؟! تأمل، لو أنه استُبعد عن مسكنه، وحُكِمَ عليه بالضيق والتعب وحمل إكليل الموت على رأسه، ووجد نفسه يتلمس آثار غضب الله الناجم عن كارثة أبيه... إنه قد رُبِطَ في شرٍ عظيمٍ كهذا حتى أنه يجهل الطبيعة، فينسى من هو مولود مثله، ويقتل من لم يرتكب شرًا، ويقبض على أخيه، ويلطخ يده بالدم، وعندما يريد الله أن يهدأ من الأمر إذ به يرفض الخضوع مقاومًا خالقه محتقرًا والديه... تأمل ماذا كان الأمر لو حدث هذا كله في الفردوس!...

حواء... والطرد من الفردوس

أتريد أيضًا أن تتعلم من والدة هذا الإنسان أيضًا، كيف كان الطرد من الحياة في الفردوس له نتائجه الحسنة؟! قارن بين حواء قبل الطرد وبعد الطرد. قبل الطرد، كانت تنظر إلى الشيطان المخادع وإبليس الشرير على أنه يمكن تصديقه أكثر من وصية الله. فما أن نظرت الشجرة حتى وطأت تحت قدميها وصية الله. لكن بعد الطرد من الفردوس، تأمل كيف نمت حواء إلى حال أفضل وحكمة أعظم، لأنها عندما حملت قالت: "اقتنيت رجلاً من عند الرب" (تك ٤: ١). لقد هربت إلى السيد (الرب) تلك التي كانت من قبل تزدري به، فلم تنسب حبلها إلى مجرد الطبيعة، ولا نظرت إلى إنجابها (ابنًا) على أنه نتيجة طبيعية للزواج، بل أدركت رب الطبيعة، وعرفت كيف تُقَدِّم الشكر للرب من أجل ولادتها الطفل الصغير.

هذه التي قبلاً خدعت زوجها، صارت تعلم حتى ابنها الصغير، وتعطيه اسمًا (شيث) قادر على تذكيرها بعطية الرب.

مرة أخرى عندما حملت بآخر، قالت: "الله قد وضع لي نسلاً عوضًا عن هابيل، لأن قايين كان قد قتله" (تك ٤:٢٥).

تذكرت المرأة مصيبتها، ولم تعد بعد غير صابرة، بل تُقدم الشكر لله وتلقب الطفل الصغير بعدما نالته كعطية، منعشة إياه بالمادة (الاسم) التي تعلمه على الدوام.

هكذا فإن الله إذ يحرم، إنما يقدم نفعًا أعظم!

طردنا... لكي يردنا إليه

قد يقول قائل: إن كان الطرد من الفردوس مفيدًا، فما الداعي لإعطائه لنا منذ البداية؟!

صار الطرد من الفردوس مفيدًا للإنسان بسبب إهماله. فلو أن (أبوينا) كانا منذ البداية حذرين على نفسيهما، وعرفا سيدهما، وعرفا كيف يقمعان نفسيهما ويبقيان في حدودهما، بقيا في كرامتهما. أما وقد استهانا بالعطية التي وُهبت لهما، فقد صار طردهما لمنفعتهما. لأنه ما هو الدافع الذي جعل الله يعطيهما (الفردوس) منذ البداية، إلا لكي يعلن حنو ترفقه، إذ أعد لنا أن يحضرنا إلى شرفٍ عظيمٍ. لكننا نحن الذين كنا السبب في التأديب والعقاب من كل جانب، طاردين أنفسنا بسبب استهتارنا بالعطايا التي وهبت لنا.

فكما لو أن أبًا عطوفًا أسكن ابنه في البداية معه في منزله، ليتمتع بكل ما لأبيه، ولكنه إذ وجده غير مستحق للكرامة يطرده من مائدته ويبعده عن أنظاره، بل وأحيانًا يطرده من بيت الأبوة، حتى يعاني من الطرد. وبهذا الازدراء وتلك الإهانة يصير إلى حال يظهر فيها نفسه أنه مستحق للعودة وأخذ ميراث أبيه... هكذا صنع الله معنا.

لقد أعطى الفردوس للإنسان، وعندما أظهر الإنسان عدم استحقاقه طرده، حتى يصير ببقائه خارجًا، وبإهانته إلى حال أحسن (يظهر توبة) ويقمع نفسه أكثر، فيستحق العودة. وهكذا عندما صنع هذا وصار في حالٍ أفضل، أعاده مرة أخرى قائلاً: "إنك اليوم تكون معي في الفردوس" (لو ٢٣:٤٣).

هل رأيت كيف أنه ليس فقط إعطاء الفردوس بل وطردنا منه هو علامة عِظَم اهتمام مملوء ترفُّقًا! فلو لم يعانِ الإنسان الطرد من الفردوس ما كان يمكن أن يظهر مستحقًا له مرة أخرى!

✠ ✠ ✠

٢. العناية الإلهية وبلبلة الألسن

بلبلة الألسن[1]

"وكانت الأرض كلها لسانًا واحدًا ولغة واحدة... وقال بعضهم لبعض هلم نصنع لبنًا ونشويه شيًا. فكان لهم اللبن مكان الحجر، وكان لهم الحمر مكان الطين، وقالوا: هلم نبنِ لأنفسنا مدينة وبرجًا رأسه بالسماء... ونصنع لأنفسنا اسمًا لئلا نتبدد على وجه كل الأرض. فنزل الرب لينظر المدينة والبرج الذي كان بنو آدم يبنونهما. وقال الرب: هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض..." (تك ١١)

بلبل ألسنتهم حتى لا يكمل شرهم.

لنتمسك بهذا البرهان (السابق) في كل شيءٍ، ولنطبقه في الأمر المعروض علينا... (بلبلة الألسن).

لقد وهب الله البشرية أن تنطق بلسانٍ واحدٍ، وهذا من قبيل حبه وترفقه بهم غير أنهم استخدموا العطية استخدامًا غير لائق، بل بغباوة أخطأوا، لهذا عاد الله وسحب العطية منهم.

فإذ كان لهم اللسان الواحد، سقطوا في غباء عظيم راغبين في بناء برج إلى السماء. ولو لم يؤدبهم (الله) في الحال لما كفوا عن رغبتهم في البناء لعلهم يصلوا إلى السماء... وإذ كان بالحق يستحيل هذا عليهم، لكنه ما كان يمكن أن تزول أفكارهم الشريرة نحو تنفيذ الخطة. هذا كله نظره الله مُقدَّمًا، ففرقهم إلى ألسنة متباينة...

تأمل معي في حنو ترفقه، إنه يقول: "هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه" (تك ١١: ٦). فإنه ما الداعي في ألا يبلبل الألسنة ألا بعد أن يدافع عن تصرفه كمن يحاكم في ساحة قضاء؟! مع أنه لا يقدر أحد أن يقول له لماذا يفعل هذا؟!

نعم، إنه كان حرًا يفعل ما يشاء، ومع هذا فقد قدَّم حسابًا، مقيمًا دفاعًا، معلمًا إيانا النبل والحب. لأنه إن كان السيد يدافع عن (تصرفاته) أمام عبيده، حتى عندما أخطأوا

---

[1] لم يرد في أقوال القديس يوحنا الذهبي الفم نص الكتاب المقدس. وقد أوردته حتى يسهل على القارئ متابعة أقوال القديس.

في حقه، فكم بالأولى بنا نحن أن نظهر سبب تصرفاتنا أمام الغير، حتى وإن أخطأوا في حقنا خطأ جسيمًا!

انظر على الأقل كيف دافع عن نفسه، قائلاً: "هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل" (تك ١١: ٦). وكأنه يقول: لا يتهمني أحد عندما يرى انقسام الألسنة. ليته لا يظن أحد أن هذا التباين قد حدث منذ البداية، لأنه "**هوذا شعب واحد ولسان واحد**". ولكن هم الذين لم يحسنوا استخدام العطية.

ولكي تفهم كيف **لم يكن يقصد أن يؤدب بقدر ما كان يقصد إصلاحهم في المستقبل،** اسمع ما ورد بعد ذلك: "**والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه**" (تك١١: ٦). وكأنه يقول بأنه إن لم يوقع التأديب الآن، ويوقف جذور خطاياهم، لن يكفوا عن الشر، لأن قوله: "لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه" تعني كما لو أنهم مقدمون على القيام بأعمال أخرى أكثر شرًا. لأن هذا الأمر هو شر، إذ بدأوا فيه لا يوجد ما يمنعهم عن العمل، بل يكونون كالنار التي متى لحقت بالخشب ارتفع اللهب إلى علو غير منطوق به.

هل رأيت كيف كان الحرمان من وحدانية اللغة من قبيل حنو الله؟! لقد جعلهم مختلفي اللغة حتى لا يسقطوا في شرٍ عظيم!

تطلع معي إلى هذا البرهان، وليكن ثابتًا في ذهنك غير متزعزع، أن الله صالح ومحب، ليس فقط عندما يعطي عطايا، بل وعندما يؤدبنا أيضًا. فإنه **حتى تأديباته وعقوباته هي من قبيل جوده، ومظهر عظيم من مظاهر عونه لنا.**

إن رأيت مجاعات أو كوارث أو قحطًا وامتناع مطر أو تقلب في الجو أو غير ذلك من الأمور التي تؤدب البشرية، فلا تتضايق ولا تيأس، بل اعبد الله الذي سبّبها (أو سمح بها)، وتعجب من اهتمامه المملوء حنوًا. فإنه يصنع هذا لتأديب الجسد لأجل سلامة الروح.

قد يقول قائل: هل الله يصنع هذه الأمور؟...

إنني لا أقول بهذا زهوًا، بل مستعينًا بالنبي الذي يصرخ قائلاً: "هل تحدث بلية (شر) في مدينة والرب لم يصنعها" (عا ٣: ٦). وهنا كلمة "شر" تعبير غامض، أريدكم أن تفهموا بدقة حتى لا تخلطوا بين المعاني وتسقطوا في تجديف بسبب غموض اللفظ.

بلبلة الألسن عند القديس مار يعقوب السروجي

للقديس **مار يعقوب السروجي** قصيدة رائعة عن رعاية الله العجيبة في بلبلة الألسن، أقتطف منها هنا القليل:

[لقد أدب البابليين بتقسيم لغاتهم، وأصبح ذاك التأديب حجة ليعَمِر العالم.

بذلك الخصام الحادث هناك عمرت الأرض، وبتلك الحجة انتشروا في كل الجهات.

أتقنهم كما لو كان يضربهم لأنهم فسدوا، وبددهم وملأ الأرض من أسباطهم.

لو لم يشفق على السفهاء ويبددهم، لكانوا يختنقون بسبب كثرتهم في أرض بابل.

كيف يسكن جميع الشعوب على كثرتهم في بقعة واحدة؟ كيف تسكن خليقة غير محدودة في مكانٍ واحدٍ؟

أراد السفهاء أن يحددوا هذه القرى والمدن المليئة منها المسكونة بقرية واحدة.

لو لم يشفق الرب ويبددهم كيف كان يكفيهم المكان الذي تسلطوا عليه؟

بلبلهم وكان يُظن بأنه قصاص، إنما الفعل كان مليئًا بالمراحم للعالم كله...

قسم لهم البلدان مثل الورثة، ومن تهديده نبع فعل الحسنات.

هذه بركة كانت تُصنع بالقصاص ليسكنهم بدل شعب شعوبًا مختلفة.

هذا ما كان قد فعله مع إبراهيم عندما باركه: يدعى اسمك أبا الشعوب، وليس أبا الشعب.

ما حدث لإبراهيم كان يأخذه كموهبة، وأُعطي لهؤلاء الذين تمردوا بالقصاص.

ها قد ظهر بأن ضربته مليئة ضمادا، مبارك الحنان لأنه كله مراحم لخليقته![1]]

---

[1] القديس مار يعقوب السروجي: الميمر ٣٣ على بناء برج بابل (تك ١١: ١-٩) (راجع نص بول بيجان والدكتور بهنام سوني).

٣. العناية الإلهية والتأديب

هل التأديبات شر؟

يوجد شر هو بالحقيقة شر: الزنا، والدعارة، والطمع، وغير ذلك من الأمور المهلكة غير المحصية، هذه التي تستحق توبيخًا صارمًا وعقابًا عنيفًا. ويوجد شر، هو بحق ليس شرًا، إنما يدعى كذلك: المجاعات، والكوارث، والموت، والمرض، وما على شاكلته. هذه ليست بشرور، إنما تدعى كذلك. فلو أنها شرور، ما كان يمكن أن تكون مصدرًا لخيرنا، إذ تكبح كبرياءنا، وتنخس كسلنا، وتلهب غيرتنا، وتزيد يقظتنا. وكما قيل: "إذ قتلهم طلبوه، ورجعوا وبكَّروا إلى الله" (مز ٧٨: ٣٤).

يدعو ما يؤدبهم به وينقيهم ويشعل غيرتهم ويقودهم إلى حب الحكمة شرًا...! وهذا ليس من عمل الله، بل نتيجة اختلاف إرادتنا... يدعوه "شرًا" من قبيل آلامنا التي نتحملها في التأديب.

فالتأديبات ليست شرًا من حيث طبيعتها، بل من وجهة نظر الإنسان... وهكذا يدعوها الله أيضًا شرًا من حيث أنها وجهة نظرنا. هذا ما أوضحه الله في إشعياء قائلاً: "أنا الرب... صانع السلام وخالق الشر" (إش ٤٥: ٧). وهذا ما أشار إليه السيد المسيح أيضًا، قائلاً لتلاميذه: "يكفي اليوم شره" (مت ٦: ٣٤)، أي أحزان اليوم ومآسيه.

من الواضح إذًا من كل الجوانب، إنه يدعو التأديب شرًا، ويوقعه علينا، مُقدِّمًا لنا جانبًا عظيمًا من عنايته.

أمثلة

١. الطبيب

لا يُمدَح الطبيب فقط عندما يوصي المريض بالذهاب إلى الحدائق والمروج أو حتى الحمامات وأماكن السباحة ولا عندما يُقدِّم للمريض مائدة حسنة مملوءة، بل يُمدَح أيضًا عندما يأمر المريض بالامتناع عن الطعام، مثقلاً عليه بالجوع، ويتعبه بالعطش، ويأمره بعدم مغادرة فراشه، جاعلاً من منزله سجنًا له، مانعًا إياه من النور، طالبًا أن تظلل حجرته بستائر، بل وأيضًا عندما يقطع ويكوي ويقدم أدوية مُرَّة... هو أيضًا طبيب.

فكيف يكون من الصواب أن تدعو ذاك الذي يصنع هذه (الشرور) طبيبًا، بينما تُجَدِّف على الله إن استخدم شيئًا من هذا، في وقت من الأوقات، متى جلب مجاعة أو موتًا، رافضًا عنايته في كل شيء؟! مع أنه الطبيب الحقيقي وحده للأرواح والأجساد.

على هذا الأساس كثيرًا ما يُقَدِّم لطبيعتنا المنغمسة في الترف وهي تعاني من حمى الخطية، الاحتياج والجوع والموت وغير ذلك من الضيقات الأخرى، تلك الأدوية التي يعرف الله أنها تشفينا من المرض.

قد يقول قائل: ولكن الفقير هو وحده الذي يعاني من الجوع.

الله لا يؤدب فقط بالجوع، بل هناك طرق أخرى كثيرة لا حصر لها. فذاك الذي في فقر يؤدَّب بالجوع، والغني الذي في ترف يؤدَّب بالمخاطر والأمراض والموت المبكر. فإن لدى الله مصادر وأدوية كثيرة تُستخدَم لخلاصنا.

٢. القضاة

هذا أيضًا ما يصنعه القضاة، فهم لا يكرمون سكان المدينة ويكللونهم فحسب، ولا يقفون عند مجرد تقديم عطايا، بل وغالبًا ما يصلحونهم أيضًا (بالتأديب)، مستخدمين في ذلك السيف والعذابات المعدة ودولاب (الإعدام) وأدوات التعذيب وغير ذلك من طرق التأديب غير المحصية.

فالجوع في نظر الله، كأداة التعذيب في يد القاضي، يستخدمه لإصلاحنا لكي يقودنا بعيدًا عن الرذيلة.

٣. الكرَّامون

هكذا أيضًا يمكنك أن ترى نفس الأمر في حالة الكرَّامين، إذ لا يقف عملهم عند مجرد حفظ جذور الكروم أو حفظ فروعها، بل يقلمونها أيضًا، ويقطعون الكثير من فروعها... إنهم يستخدمون المنجل أيضًا للقطع. ومع هذا لا نجد خطأ في عملهم هذا نتمسك به عليهم، بل بالعكس نُعجب بهم عندما نجدهم يقطعون الكثير مما هو غير مفيد، ويزيلون ما هو زائد، مقدمين حفظًا أعظم للبقية.

إذن، كيف يكون من الصواب هذا في حالة الأب والطبيب والقاضي والكرَّام، فلا تنتقد الأب عندما يطرد ابنه من بيته، أو الطبيب عندما يقدم مرارة لمرضاه، والقاضي عندما يصلح (بالتأديبات)، بينما نلوم الله ونوجه ضده اتهامات لا حصر لها عندما يثير علينا شيئًا من هذا القبيل... وكأن عقلنا قد اختل بسبب سكرنا من الشر سكرًا شديدًا!

كيف لا يُحسَب هذا جنونًا مطبقًا عندما لا نبرر الله (في تأديبه لنـــا)، بينمـــا نبـــرر زملاءنا العبيد؟!

لا ترفس مناخس!

أقول لأولئك الذين يلومون الله خائفين من هذه الأمور، ألا يرفسوا مناخس، فتـــدمى أقدامهم، وألا يلقوا بحجارة نحو السماء، فترتد على رؤوسهم، وتسبب لهم جراحات.

أريد أن أقول ما هو أكثر من هذا. إنني أولاً كنت أقول بأنه مادام الله يأخذ منا لأجل خيرنا ليس لنا أن نتكلم... لكنني أقول بأنه وإن أخذ أيضًا ما قد أعطانا، فإننا حتى في هـــذا ليس لنا أن نلومه، فهو السيد له أن يتصرف فيما يخصه.

فلو ائتمننا البعض على مالٍ، وأقرضونا فضة، فإننا نشكرهم من أجل الفترة التـــي سمحوا لنا بها في القرض، وليس لنا أن نسخط عندما نرد إليهم ما هو ملكهم. فهل نلـــوم الله الذي يريد أن يسترد منا ما يخصه؟! أليس في هذا غباء فاحش؟!

حقًا إن أيوب النبيل لم يصنع شيئًا من هذا. فإنه قدم لله تشكرات عظيمة، ليس فقـــط عندما نال منه، بل وعندما سحب منه أيضًا، قائلاً: "الرب أعطى، الرب أخذ، ليكن اسم الرب مباركًا" (أي ١: ٢١).

أخبرني أي عذر لنا إن اتخذنا روحًا مضادًا، فلم نحتمل الله مع أنه يلزمنا أن نتعبـــد له، ذاك الذي هو لطيف ومحب ومهتم بنا وأحكم من كل طبيبٍ، وأكثر حنـــوًا مـــن أي أبٍ، وأعدل من أي قاضٍ، وأكثر غيرةً من أي كرَّامٍ، في شفاء نفوسنا؟!

من هم أكثر اختلالاً في عقولهم، وفقدانا لإنسانيتهم، مثل أولئك الذين يقولون بـــأنهم محرومون من عناية الله، مع إنهم هم في وسط نظام (دقيق) كهذا؟!...

هل يترك الله العالم للشيطان؟

إن الشمس ليست واضحة كوضوح العناية الإلهية، ومع هذا يتجاسر البعض قائلين بأن الشياطين تسيطر على شئوننا.

ماذا لي أن أفعل؟! إن لك سيد محب، قَبِلَ بالحري أن يُجَدَّف عليه بكلماتك هذه ولم يقبل أن يأتمن شئونك بين يدي الشياطين. (فلو إنه تركك بين أيديهم) لكنت تعرف شرورهم بالخبرة ولكن يمكنك أن تعرف ذلك بالمثال التالي:

١. المجنونان[١]

"ولما جاء إلى العبر إلى كورة الجرجسيين استقبله مجنونان خارجان من القبور هائجان جدًا حتى لم يكن أحد يقدر أن يجتاز من تلك الطريق. وإذا هما قد صرخا قائلين: ما لنا ولك يا يسوع ابن الله، أجئت إلى هنا قبل الوقت لتعذبنا؟ وكان بعيدًا منهم قطيع خنازير كثيرة ترعى. فالشياطين طلبوا إليه قائلين: إن كنت تخرجنا، فأذن لنا أن نذهب إلى قطيع الخنازير. فقال لهم: امضوا. فخرجوا ومضوا إلى قطيع الخنازير، وإذا قطيع الخنازير كله قد اندفع من على الجرف إلى البحر ومات في المياه" (مت ٨: ٢٨-٣٢).

هكذا تفعل الشياطين عندما تسيطر! هذا مع أن الخنازير بالنسبة للشياطين ليست بذات أهمية. أما نحن فبالنسبة لهم توجد بيننا وبينهم حرب بغير هوادة، ومعركة بلا حدود، وكراهية بلا نهاية. فان كان بالنسبة للخنازير التي ليس بينهم وبينها شيء، هكذا لم تحتمل الشياطين أن تتركها ولو نفسًا واحدًا، فكم بالأكثر تصنع بنا ونحن أعداء لهم، هؤلاء الذين ننخسهم دائمًا، ماذا يصنعون بنا لو كنا تحت سيطرتهم؟! أي مضار شديدة لا يحدقوننا بها! لهذا سمح الرب لهم أن يدخلوا قطيع الخنازير حتى نتعلم عن شرهم بما فعلوه بأجساد الحيوانات غير العاقلة، ونعرف ما يحدث لمن تمتلكهم الشياطين... إنه يحدث لهم ما حدث مع الخنازير...

إننا نستطيع من أمر إخراج الشياطين أن ندرك كلا الأمريْن:

ا. حنو الله.

ب. شر الشياطين.

---

[١] ذكر القديس يوحنا الذهبي الفم القصة باختصار، فاستحسنت أن أوردها بعبارات الكتاب المقدس... مكتفيًا بالتعليق الذي أورده القديس على القصة.

شر الشياطين بإقلاقهم نفسي المجنونين، وحنو الله عندما صد عنهما الشياطين القاسية ومنعهم.

فالشيطان الذي وجد له مسكنًا في المجنون، رغب أن يؤذي المجنون بكل قوته، لكن الله لم يسمح له أن يستخدم كل قوته بكاملها... بل ألزمه بالفضيحة بقوة، بعودة الإنسان إلى حواسه، وظهور الشر بما حدث في أمر الخنازير.

٢. أيوب

هل تريد أن ترى مثلاً آخر لكي تعرف كيف يدير الشيطان الأمور، عندما يسمح الله له باستخدام سلطانه؟ تأمل قطعان أيوب ومواشيه، كيف أبادها في لحظة من الزمن. تأمل موت أولاده الذين يُرثى لهم! تأمل الضربة التي لحقت بجسده!

هل يتركنا الله في أيديهم؟!

ها قد رأيت قسوة الشياطين وشراستهم التي لا ترحم. ومن هذه الأمور تعرف، إنه لو سمح الله لهم وائتمنهم على هذا العالم، كيف كانوا يفسدون كل شيء، ويقلقون الكل، ويصنعون بنا ما صنعوه بالخنازير والقطعان، وما كانوا يتركوننا نتنفس لحظة واحدة من الزمن إلا ويعملون على حرماننا من خلاصنا.

لو أن الشياطين هي التي تدير الأمور ما كان حالنا أفضل من حال المجنونين، لا بل بالحري أشر من حاليهما، لأن الله لم يسلمهما بالكامل لظلم الشياطين، وإلا كانا قد عانى أشر مما حدث لهما.

والطبيعة تشهد عن عناية الله

أريد أن أسأل القائلين بهذا: أي تشويش يرونه الآن حتى ينسبوا كل الأمور إلى تدابير الشياطين؟

ها نحن نرى الشمس منذ سنوات هذا عددها ومع ذلك لا تزال كل يومٍ فيوم تسلك بنظامٍ، ومجموعات الكواكب غير المحصية تحتفظ بنظامها. مواعيد القمر لا تُعاق، وتعاقب الليل والنهار لا يتغير. جميع الأمور العلوية والسفلية تسير في نظام متوافق منسجم... الكل يحتفظ بمكانه الخاص به ولا يتخلى عن النظام الذي وضعه له الله منذ البداية.

أحوالنا تشهد بعناية الله

اعتراض

قد يقول قائل: وما فائدتنا إن كان هذا كله من سماء وشمس وقمر ونجوم... الكل يحتفظ بنظامٍ حسنٍ، لكن أمورنا نحن مملوءة تشوشًا وارتباكًا؟

أي ارتباك أيها الإنسان؟ وأي تشويش؟ يقول بأن إنسانًا ما غنيًا لديه فوق ما يحتمل، هذا يكون جشعًا وطماعًا، ويسلب ما للفقير يومًا فيومًا، ومع هذا لا يعاني من أحزان مرعبة. وآخر يعيش في حرمان وهو ضابط لنفسه ومستقيم ومزين بكل بقية الصفات الحسنة، ومع هذا نجده مؤدبًا بالفقر والمرض وغير ذلك من الأحزان الكثيرة المرعبة.

هل هذه الأمور تضايقك؟ تجيب نعم.

إن كنت ترى أن الطماع يؤدب كثيرًا، والسالك في حياة الفضيلة يتمتع بأمور صالحة كثيرة، فلماذا لا تتخلى عن فكرتك وتكون مقتنعًا بالقدير؟

فإنني أنا أيضًا ما يضايقني بالأكثر هو أنه **لماذا يوجد شريران أحدهما يعاقب والآخر يهرب من التأديب، ويوجد صالحان أحدهما يكرم والآخر يبقى تحت التأديب؟** فان هذا أيضًا من الأعمال العظيمة التي لعناية الله.

لو عاقب كل الأشرار هنا، وكرم كل الصالحين هنا، فما الحاجة إلى يوم الدينونة؟!

وأيضًا لو أنه لم يؤدب أي شرير، ولم يكرم أي إنسان صالح، فإن الشرير يزداد في شره... والذين يُجَدِّفون على الله يسبّونه أكثر ويقولون بأن أعمالهم منعزلة عن عنايته.

كذلك إن كان بعض الأشرار يتعذبون وبعض الصالحين يُعاقَبون، فإنهم يقولون بأن شئون البشرية لا تخضع للعناية.

بل وحتى إذا لم يحدث شيء من هذا، فأي (شر) لا ينطقون به؟! وأي كلمات لا تخرج من أفواههم؟!

لهذا فان بعض الأشرار يتعذبون، وبعضهم لا يتعذب. وبعض الصالحين يكرمون، والبعض لا يعطيهم كرامة.

فهو لا يؤدب الكل لكي يحثك بأنه يوجد يوم للقيامة. لكنه يؤدب البعض لكي يحول بعض المهملين جدًا إلى غيورين بسبب الخوف النابع عن العقوبات التي تحل بهم.

كذلك يكرم بعض الصالحين لكي يحث الآخرين على مضاعفة الفضائل، لكنه لا يكرم الكل حتى نتعلم أنه يوجد وقت آخر يستردون فيه كل جزائهم. لأنه لو نال الكل استحقاقهم هنا، لما كانوا يؤمنون بيوم القيامة. وإن لم ينل أحد قط شيء من جزائه هنا، فستهمل الغالبية إهمالاً أعظم مما هم عليه.

موقف الله من الأشرار

لهذا فان الله يؤدب البعض، ولا يؤدب الآخرين، وذلك لأجل نفع كلٍ من المؤدبين والذين لم يخضعوا للتأديب. فيجعل الآخرين ينزعون شرهم بضبطهم لنفوسهم عندما يرون الأولين (تحت التأديب)، وهذا واضح من قوله "أولئك الثمانية عشر الذين سقط عليهم البرج في سلوام وقتلهم، أتظنون أن هؤلاء كانوا مذنبين أكثر من جميع الناس الساكنين في أورشليم كلا. أقول لكم: بل إن لم تتوبوا، فجميعكم تهلكون"[1] (لو١٣: ٢-٥).

هل ترون كيف هلك أولئك بسبب خطاياهم، والبقية لم تهرب من الهلاك بسبب برّهم، إنما لكي يصيروا إلى حال أفضل بنظرهم عقاب الآخرين؟!

قد يقول قائل: ألم يعاقب هؤلاء ظلمًا؟ لأن هؤلاء كان يمكنهم أن يصلحوا دون أن يعاقبوا بنظرهم عقاب الآخرين.

لكن لو أن الله يعلم أن هؤلاء سيصيرون إلى حال أفضل بالتوبة، ما كان عقابهم (هكذا). لكنه سبق فرأى أن كثيرين لا ينتفعون شيئًا من طول أناته، ومع هذا يحتملهم بطول أناة عظيمة، منفذًا ما هو من جانبه، ومعطيًا إياهم فرصة لعلهم يرجعون عن بلادتهم إلى إحساس سليم يومًا ما. فكيف يقدر أن ينزع هؤلاء الذين كانوا يصيرون إلى حال أفضل بنظرهم عقاب الآخرين بالتوبة... (لو لم يعلم أنهم لن يتوبوا)؟!

فمن جهة معاملتهم بالظلم، فإن شرهم انتهى بعقابهم (بالموت لم يعودوا بعد يخطئون أكثر)، ويصير عقابهم هناك أخف.

أما أن أولئك الذين لم يتأدبوا بتأديبات لم يعاملوا بعدل، فإنهم يستطيعون - إن أرادوا - أن يستفيدوا من طول أناة الله، وأن يتمموا تغيرًا فاضلاً جدًا، فيتعجبون من طول أناته ويخجلون من تسامحه الزائد، فيعودون يومًا إلى الفضيلة، ويكسبون خلاصهم بنظرهم عقاب الآخرين.

---

[1] لم يذكر القديس يوحنا الذهبي الفم النص كاملاً.

لكن إن بقوا في شرهم، فإن الله لا يُعاب عليه من أجل طول أناتـه علـيهم لكـي يشفيهم، إنما هم لا يستحقون العفو إذ لم يستفيدوا من طول أناته.

موقف الله من المستقيمين

هذا يمكن أن نستخدمه كبرهانٍ عن سبب عدم تأديب كل الأشرار، كـذلك يمكننـا استخدامه بالنسبة للآخرين (المستقيمين) أيضًا... فلو أن الله أوقع على الجميع العقوبات التي يستحقونها عن خطاياهم، لماتت كل البشرية.

ولكي تتعلم هذه الحقيقة اسمع ما يقوله النبي: "إن كنت تراقب الآثام يا رب يا سيد، فمن يقف" (مز ١٣٠: ٣). لتقدم لك تلك الخطايا التي يسقط فيها الكل، ومنها يظهر لنـا أنـه لو سقطت علينا تأديبات عن كل خطايانا، لكنا قد هلكنا منذ زمن بعيد. فالرب يقول بأن مـن يقول لأخيه يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم (مت٥: ٢٢)، فهل يوجد منا إنسان لم يخطئ قط بهذه الخطية؟!

أيضًا يقول بأن الذي يقسم حتى وإن أوفى بالقسم، إنمـا يرتكـب أمـرًا يخـص الإنسان الشرير (مت ٥: ٣٧)، فمن إذًا لم يسقط قط؟! نعم، بالحري من الـذي لـم يقـسم باطلاً قط؟!

يقول من ينظر إلى امرأة بشهوة يكون كله زانيًا... ومن هـذه الخطيـة يـستطيع الإنسان أن يجد في نفسه خطايا كثيرة.

إن كان هذا بالنسبة للخطايا التي نعرفها وهي لا تُحتمَل، كل منها تجلب علينا تأديبًا لا مفر منه، فماذا لو أننا أحصينا الخطايا السرية التي نرتكبها؟! عندئذ ندرك أن عنايـة الله تسمح ألا ننال تأديبًا عن كل خطية.

فعندما ترى إنسانًا جشعًا طماعًا ولم تقع عليه تأديبات، افضح ضميرك، ودقق فـي حياتك الخاصة، (فسترى) الخطايا التي أرتكبتها وتتعلم أن في حياتك أنت لم تُؤدب عن كـل خطية من الخطايا.

تنطق الغالبية بكلمات طائشة، لأنهم لا يتطلعون إلى حال نفوسهم قبل أن يتطلعـوا إلى أحوال الآخرين، لكننا نحن جميعًا نترك ما يخص نفوسنا لنفحص ما هو للآخرين.

لكن... إن رأيت إنسانًا بارًا يتأدب تذكر أيوب، فانه ليس مـن هـو أبـرّ منـه، ولا من يقترب إليه (من جهة برِّه)، وإن تحمل آلام لا حصر لها، فلا يوجـد مـن احتمـل مثله!

يؤدبك لأنه يحبك!

إذ تضع هذا في ذهنك، كف عن اتهام السيد (الرب)، متعلمًا أن الله يسمح للإنسان باحتمال الشرور، ليس لتركه إياه، بل رغبة في تتويجه، لكي يصير إلى حالٍ أفضلٍ.

وإذا رأيت خاطئًا يُعاقب، تذكر المفلوج الذي أمضى ثمانية وثلاثين عامًا على سريره. لأن هذا الإنسان قد أُسْلِمَ للمرض بسبب الخطية، اسمع ما يقوله السيد المسيح: "ها أنت قد برئت، فلا تخطئ أيضًا لئلا يكون لك أشر" (يو ٥: ١٤).

فعندما نسقط تحت التأديب، فإننا إما أننا نؤدب بسبب خطايانا أو نتقبلها كمجال لنوال الإكليل، وذلك باحتمالنا الشر ونحن نعيش في استقامة.

هكذا سواء كنا نعيش في برٍّ أو خطية، فإن التأديب نافع لنا. تارة يزيدنا استقامة، وأخرى يجعلنا نضبط نفوسنا، وتخف عنا العقوبة المقبلة. إذ الشخص الذي يقبل التأديب هنا بشكر تخف عقوبته هناك. اسمع ما يقوله الرسول بولس، قائلاً: "من أجل هذا فيكم كثيرون ضعفاء ومرضى وكثيرون يرقدون، لأننا لو كنا حكمنا على نفوسنا، لما حُكِمَ علينا. ولكن إذ قد حُكِمَ علينا نؤدب من الرب، لكي لا نُدان مع العالم" (١ كو١١: ٣٠-٣٢).

ما أبعد أحكامه عن الفحص!

فإذ نعرف كل هذه الأمور، لنتأمل في عناية الله ولنسد أفواه المعارضين. أما إذا صعبت هذه الأمور على إفهامنا، فلا نظن أن أمورها لا تدبرها العناية الإلهية. لكننا إذ ندرك عنايته الإلهية ولو جزئيًا في أمور تفوق إدراكنا، علينا أن نستسلم لحكمته غير المفحوصة.

إن كان ليس ممكنًا لإنسانٍ غير خبير أن يفهم فنًا بشريًا، فكم بالأكثر تكون الاستحالة بالنسبة للبشر أن يعرفوا كنه العناية الإلهية غير المحدودة. ما أبعد أحكامه عن الفحص، وطرقه عن الاستقصاء (رو ١١: ٣٣) ومع هذا يمكننا بعينات قليلة نفهم منها ما هو كل. فنشكره من أجل ما يصنع...

إننا نسأل المعارضين: هل يوجد إله؟ فإن أجابوا بالنفي، فلا حاجة لنا أن نجيبهم، لأنه من العبث أن نجيب مجانيين. هل يمكن لسفينة أن تسير بها البحارة والمسافرين من غير أن يوجهها القبطان؟! فكم بالأكثر بالنسبة للعالم المملوء بشرًا والمكون من عناصر مختلفة، كيف يستمر دون أن تحيطه عناية، تحكمه وتسند حركته!

وإن كان هناك إله، فهو بالحق عادل، وإن كان عادلاً، فهو يعطي كل حسب استحقاقه.

لكننا لا نرى هنا أن الكل يأخذ حسب استحقاقه. إذا لا بد أن يكون لنا رجـــاء فـــي المكافأة التي تنتظرنا، لكي يظهر عدل الله. وهذا يقودنا للتفكير لا في العناية الإلهية فحسب، بل وفي القيامة أيضًا.

فلنُعلِّم الآخرين، ونبذل كل جهدنا لسدْ أفواه المفترين ضد السيد الرب، ونمجده فينا. بهذا نقتني كثيرًا من عنايته، ونجلس في كنفه، فيصير لنا إمكانية الهروب من الشر الحقيقي، ونقتني الصلاح المزمع أن يكون بواسطة نعمة ربنا يسوع المسيح وحبه، الذي بـــه ومعـــه يتمجد الآب مع الروح القدس الآن وكل أوان وإلى أبد الأبد. آمين.

المقال الثاني

لماذا لا ينزع الشيطان عن العالم؟[1]

رد على المعترضين بحجة عدم خروج الشيطان من العالم، مع إثبات أن حيل الشيطان لا تؤذينا إن أخذنا حذرنا، وحديث عن التوبة.

---

[1] الترجمة الحرفية للمقال: "سلطان الإنسان على مقاومة الشيطان".

تقديم

اقبل يا رب مائدتي

في القديم عندما اشتهى إسحق أن يأكل من وليمة من صُنْعِ يدي ابنه، أرسل ابنه خارجا ليصطاد له. أما إسحق العهد الجديد فعندما اشتهى وليمة من أيدينا، لم يخرجنا خارجًا لنصطاد، بل جاء هو إلى مائدتنا.

أي حب أعذب من هذا؟! أي تواضع أعظم من هذا؟! إن الذي رأى أنه من اللائق أن يعلن عن حبه الحار، لم يستنكف عن أن ينزل إلينا نحن البعيدين!...

ونحن إذ رأينا وجهه الأبوي، نسينا بالتأكيد شرورنا وتركنا متاعبنا، وصارت لنا رفعة البهجة والسرور. وعندما رأينا رأسه الأبيض، امتلأت نفوسنا نورًا وإشراقًا.

على هذا الأساس أعددنا المائدة بفرحٍ ليأكل ويباركنا، لكن بغير خداعٍ أو مكرٍ كما في القديم. إذ بالحق أمر (إسحق) واحدًا (عيسو) بإحضار المائدة، لكن الذي أحضرها آخر (يعقوب). أما بالنسبة لي فانه قد أمرني أن أُحضر الوليمة، وها أنا أيضًا قد أحضرتها... "باركني يا أبي إذًا بالبركات الروحية التي نصلي لأجل نوالها، النافعة لكم كما لي أنا أيضًا، ولهؤلاء جميعًا".

والآن قد حان الوقت لإعداد المائدة، وهي بقايا ما كنا نتحدث عنه أخيرًا... إذ لا نزال نجدد الحديث عن "الشيطان" هذا الذي بدأنا الحديث عنه منذ يوميْن، وقد تحدثت عنه في هذا الصباح مع المبتدئين عندما كنت أُكلمهم عن "احتقار العالم والتوبة".

لماذا لم يستبعد الشيطان

لسنا نردد هذا الحديث عن الشيطان لأننا نحبه أو نستعذبه، إنما لأن في هذا التعليم أمان كامل لحياتكم. فهو عدو وغريم، وسلامكم وأمانكم يكمن في معرفتكم الصحيحة لحيل أعدائكم.

لا يجبرك على الهزيمة

لقد قلنا قبلاً إنه لا يهزمنا بالقوة أو بطغيان أو بالإجبار أو العنف، وألا لدُمِّرتْ البشرية كلها. وقد أثبتنا هذا من حادثة الخنازير (مت ٨: ٣١) التي لم تستطع الشياطين أن تدخل فيها إلا بعد استئذان السيد.

أما بالنسبة لقطعان أيوب، فلم تجرؤ الشياطين على إهلاكها إلا بعد أن أخذوا سلطانًا من فوق.

لقد علمنا أولاً أن إبليس لا يهزمنا عنوة أو بالعنف، وأضفنا أيضًا إنه حتى عندما يهزم ويغلب بخداعه، فإنه لا يسيطر على البشر جميعهم. ثم أوردنا قصة أيوب المناضل، الذي وُضِعَ وسط حيل لا حصر لها، ومع هذا لم يسيطر عليه إبليس، بل انسحب منه منهزمًا مغلوبًا على أمره.

لماذا لا يستبعد الشيطان؟

والآن بقى لنا سؤال واحد... إذ قد يقول قائل: إن كان الشيطان لا يتغلب علينا جبرًا بل بالمكر والخداع، أما كان من الأفضل أن يهلك؟ فإن كان أيوب قد هزم قوة إبليس إلا أن آدم خدع وطرد خارجًا. فلو أن إبليس قد طُرح خارجًا، واستقصى بعيدًا عن العالم، لما سقط آدم وطُرد، ولكن إبليس باق الآن، وان كان يغلبه واحد، إلا انه هو يغلب كثيرين. يصرعه عشرة، أما هو فيصرع عشرة آلاف. فلو أن الله طرحه خارجًا عن العالم، لما هلك هؤلاء العشرة آلاف. فماذا نقول عن هذا؟!

١. كرامة الغالبين أعظم من خزي المغلوبين

أولاً: نقول إن الذين غلبوا إبليس لهم كرامة أفضل بكثير من المغلوبين، حتى ولو كان المغلوبون كثيرين والأولون قليلين، إذ يقول: "(ولد) واحد يتقي الرب خير من ألف منافقين" (سي ١٦: ٣).

٢. أذى المغلوبين كسلهم وليس الشيطان

ثانيًا: لو استبعد الشيطان من العالم، تُجرح كرامة المنتصرين. لكن لو ترك الشيطان، فان الكسالى وذوى البطر لا يتأذون على حساب المتيقظين، إنما بسبب بطرهم وكسلهم. بينما لو استبعد الشيطان عن العالم، فإن المتيقظين يُغبنون على حساب المتهاونين، حيث لا تظهر قوتهم ويحرمون من الإكليل.

لعلكم لم تفهموا بعد ما قلته، لهذا يلزمني أن أكرر القول موضحًا ذلك.

لنفرض أن عدوًا يصارع اثنين في حلبة المصارعة، واحدًا منهما أنهكه النهم وعدم الاستعداد مما جعل قوته تخور ويفقد أعصابه، أما الآخر فقد كان يقظًا له عادات حسنة يقضي زمانه في التدرب على تمارين كثيرة في مدرسة المصارعة. فلو سُحب العدو من وسط الحلبة، مَنْ مِنْ الاثنين يصيبه الأذى؟ من يكون ضحية؟ الإنسان المتكاسل غير المستعد، أم الغيور المجاهد كثيرًا؟! من الواضح أن هذا الأمر يؤذي الغيور المجاهد ويضايقه. لأن المجاهد يُغبن بانسحاب العدو، أما المتكاسل فلا يصيبه أذى، لأن تكاسله هو سبب سقوطه.

٣. تهاون الإنسان جعل الشيطان يُدعى مضللاً

هنا أيضًا أتعرض لتوضيح آخر حتى نتعلم أن التراخي والكسل هما اللذان يصرعان غير المنتبهين وليس إبليس... إنما هو يسمح لإبليس لكي يفرط في الشر، ليس (كأمرٍ طبيعيٍ[١]) بل حسب الاختيار (أي قبولنا شره). فإبليس ليس طبيعيًا (إلزاميًا) مضر، إنما كما هو واضح من أسمائه، إذ يُدعَى "المضلل".

لقد أساء إلى سمعة الإنسان أمام الله، قائلاً: "هل مجانًا يتقي أيوب الله... ولكن ابسط يدك الآن، ومس كل ما له، فإنه في وجهك يجدف عليك" (أي ١: ٩-١١). ولقد ضلل إبليس أيضًا عندما قال: "نار الله سقطت من السماء فأحرقت الغنم" (أي١: ١٦). إنه كان يحاول إقناع أيوب بان هذه المصائب نازلة غليه من السماء من فوق، واضعًا العثرات بين السيد الرب وعبده. وهكذا حاول إبليس، لكنه فشل!

إنه في حالة نجاحه في محاولته مع آدم، وتصديق آدم لتضليله ينبغي ألا يُفهم أن انتصار إبليس وقوته يعودان إلى طبيعته، بل إلى كسل الإنسان وإهماله، لهذا دُعي إبليس.

---

[١] في النص الإنجليزي "بطبيعته"، وربما يقصد كأمر إلزامي طبيعي، أو يقصد أن الشيطان أصلاً ليس طبيعته الشر لأنه كان قبلاً ملاكًا.

إن التضليل وعدمه ليس أمرًا طبيعيًا، بل قد يحدث أو لا يتم حدوثـــه، دون أن يصل الأمر إلى درجة "الطبيعية". إن موضوع الأمور الطبيعية والأمـــور العارضـــة، موضوع يصعب على الكثيرين فهمه، ولكن هناك من ينصت إلينا بفهم، إلـــى هـــؤلاء نتحدث.

إننا نعرف بأنه ليس اسم من أسمائه أطلق عليه بالطبيعة، فقد دُعي "الـــشرير" لكن شرُّه ليس أمرًا طبيعيًا بل باختياره.

لم يكن منذ البداية هكذا، بل جلب الشر لنفسه، لذلك دُعي أيضًا "الجاحد"...

هل نستبعد الخليقة الجميلة أيضًا؟

لنترك الحديث عن إبليس الآن وننظر إلى الخليقـــة، حتـــى نعلـــم أن إبلـــيس ليس هو السبب في آلامنا لو أخذنا حذرنا منـــه، وحتـــى نعـــرف أن ضـــعيفي الإرادة وغير المستعدين والكسالى يسقطون حتى ولو لم يوجد إبليس ويسقطون بأنفـــسهم فـــي أعماق الشر...

الكل يعرف – كما قلت – أن إبليس شرير، ولكن ماذا نقـــول عـــن الخليقـــة الجميلة والعجيبة؟! هل الخليقة شريرة أيضًا؟ من هو هذا الشرير والغبي الـــذي يجـــرؤ ويدين الخليقة؟!

الخليقة جميلة، وهي علامة حب الله وحكمته وقوته. لنستمع إلى النبي الـــذي يتعجب، قائلاً: "ما أعظم أعمالك يا رب. كلها بحكمة صُنعت" (مز ١٠٤: ٢٤). وقد مر النبي على الخليقة واحدة تلو الواحدة في دهشةٍ. وأمام حكمة الله غير المنظورة تراجع، قائلاً: "فإنه بعظم جمال المبرءات يبصر ناظرها على طريق المقايسة" (حـــك ١٣: ٥). ولنستمع إلى القديس بولس الرسول الذي يقول: "لأن أموره غير المنظورة تُـــرَى منـــذ خلق العالم مُدرَكة بالمصنوعات قدرته السرمدية" (رو ١: ٢٠). فكل شيءٍ مـــن أمـــور هذه الخليقة – كما يقول الرسول – تقودنا إلى معرفة الله.

والآن إن رأينا نفس هذه الخليقة الجميلة والعجيبة تصير سببًا لشر الإنـــسان، فهل نلومها؟! حاشا. بل نلوم أولئك الذين لم يستطيعوا استخدام الدواء استخدامًا صائبًا.

إذًا متى تصبح الأمور التي تقودنا إلى معرفة الله علة شرنا؟ يقول الرسول، إن الحكماء "حمقوا في أفكارهم... وعبدوا المخلوق دون الخالق" (رو ١: ٢١–٢٥). لم يأتِ ذكر إبليس هنا، بل وضعت أمامنا الخليقة كمُعلِّمة لنا عن حكمة الله، فكيف صارت علة

شر؟! هذا طبعًا لا يرجع إلى طبيعتها، بل إلى إهمال الذين يحترسون لأنفسهم. لأنه ماذا يقول؟ هل ننزع الخليقة أيضًا؟!

وهل نستبعد أعضاءك أيضًا؟

لنترك الخليقة ونأتي إلى أعضائنا، فحتى هذه نجدها سببًا في هلاكنا، إذا لم نأخذ حذرنا. وهذا ليس عن طبيعة الأعضاء، بل بسبب تراخينا أيضًا.

لقد وهبنا عيونًا نعاين بها الخليقة، فنمجد السيد الرب. ولكن متى أسأنا استخدامها، تصير خادمة للزنا.

وقد أُعطينا اللسان لنُعَلِّم حسنًا، ونُسَبِّح الخالق، فإذا لم نحترز لأنفسنا، يصير علة تجديف.

وأخذنا الأيدي لنرفعها في الصلوات، ولكننا إذًا لم ننتبه، نجدهما تعمل في الطمع والجشع.

ووهبنا الأقدام لتسير في الصلاح، وبإهمالنا تتسبب في أعمال شريرة.

إن كل الأشياء تؤذي الإنسان الضعيف، حتى أدوية الخلاص (بالنسبة للرافضين إياها) تسبب له موتًا... لا بسبب طبيعة الدواء، بل بسبب الضعف.

خلق الله السموات لنعجب من أعماله، ونعبد الرب. لكن آخرون تركوا الخالق وعبدوا السماء. وعلة هذا إهمالهم وجمودهم.

حتى الصليب عند الهالكين جهالة

بالتأكيد لا يوجد شيء يؤدي بنا إلى الخلاص أكثر من الصليب. لكن هذا الصليب صار جهالة للهالكين: "لأن كلمة الصليب عند الهالكين جهالة، أما عندنا نحن المخلصين فهي قوة الله" (١ كو ١: ١٨). ويقول أيضًا: "ولكننا نحن نكرز بالمسيح مصلوبًا لليهود عثرة ولليونانيين جهالة" (١ كو ١: ٢٣).

والرسل صاروا رائحة موت لكثيرين. من يقدر أن يُعَلِّم أفضل من القديس بولس والرسل؟! لكنهم صاروا رائحة موت لكثيرين. إذ يقول الرسول بولس: "هؤلاء رائحة موت لموت، ولأولئك رائحة حياة لحياة" (٢ كو ٢: ١٦).

إن الضعيف (الرافض) يؤذيه حتى الرسول بولس، وأما القوى لا يقدر أن يؤذيه حتى إبليس؟!

وفي المسيح عثر كثيرون

لننتقل بحديثنا إلى يسوع المسيح نفسه. من يقدر أن يقدِّر خلاصه؟! ما أكثر النفع الذي جنيناه من حضوره معنا! لكن هذا المجيء المبارك بعينه صار علة دينونة لكثيرين. "فقال يسوع: لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم، حتى يبصر الذين لا يبصرون، ويعمى الذين يبصرون" (يو ٩: ٣٩).

ماذا نقول يا إخوتي: هل يصير النور سببًا في العمى؟! ليس النور بل الشر الذي ملأ عيون النفس فحجب عنها معاينة النور.

وهكذا نرى الضعيف (المُصر على شره) يؤذيه كل شيء، أما القوي فينتفع من كل أمرٍ.

ففي كل حالة، تكون الإرادة هي علة الشر، وتكون حالتنا هي السبب، فإن كنا في ضعفٍ ساد الضعف، وإن كنا في قوةٍ سادت القوة.

استفد من إبليس

حتى إبليس يمكن أن يكون سبب نفع لنا إن فهمناه... وهذا واضح في حالة أيوب. ويمكن أن نتعلم هذا أيضًا من القديس بولس الرسول إذ يكتب بخصوص الزاني قائلاً: "أن يسلم مثل هذا للشيطان لهلاك الجسد لكي يخلص الروح" (١ كو ٥: ٥). انظروا حتى الشيطان قد صار سبب خلاص، لا بطبيعته ولكن بمهارة الرسول كالطبيب الذي يحضر حية ويستخرج منها دواء.

فلنتعلم أيضًا أن إبليس ليس هو علة خلاص، لكن قدماه تسرعان نحو هلاك الجنس البشري... إذ يقول الرسول في رسالته الثانيةِ لأهل كورنثوس عن الزاني عينه: "أطلب أن تمكنوا له المحبة... لئلا يطمع فينا الشيطان لأننا لا نجهل أفكاره" (٢ كو ٢: ٨-١١).

وهنا يعتبر الرسول بولس الشيطان كمُنَفِّذ لأحكام الله... إذ قال الله للشيطان بخصوص أيوب: "ها هو في يدك، ولكن أحفظ نفسه" (أي ٢: ٥-٦).

هكذا أعطى الرب حدودًا لإبليس لا يتعداها، حتى لا يبتلع الإنسان بغير حياء...

لذلك لا نخاف الشيطان بالرغم من كونه روحًا بغير جسد. فليس شيء أضعف من ذاك الذي جاء بهذه الكيفية أنه غير جسدي، ولا شيء أقوى من الشجاع ولو كان يحمل جسدًا قابلاً للموت!

لنرجع ونتب!

لستُ أُبَرّئ الشيطان

لم أنطق بهذه الأمور لأُبَرّئ الشيطان من الذنب، لكن لكي أُحَذِّركم من الكسل. فإن رغبة الشيطان أن نلقي باللوم عليه في أخطائنا... وبهذا نغرق في كل صنوف الشر، ونزيد على أنفسنا العقوبة ولا ننال العفو، إذ ننسب العلة إليه (بغير توبة منا).

حواء لم تنل شيئًا (من العفو)، ليتنا نحن لا نصنع ما فعلته، بل لنعرف أنفسنا، ولنعرف جراحاتنا، وعندئذ يمكننا أن نستخدم الأدوية. لأن من يعرف مرضه لا يبالي بضعفه.

إننا نخطئ كثيرًا. هذا أعرفه جيدًا. لأننا جميعًا مستحقون العقوبة. لكننا لا نُحرم من العفو، ولا نُستبعد عن التوبة، إذ لا نزال قائمين كمن في مسرح للمصارعة وفي صراع للتوبة.

استعدْ للرحيل

هل أنت شيخ، وقد حان وقت خروجك من العالم؟ لا تظن حتى في هذا أنك تُحرَم من التوبة، لا تيأس من خلاصك. تأمل كيف تحرر اللص وهو على الصليب، فإنه أي وقت أقصر من تلك الساعة التي توّج فيها؟! ومع هذا فإن هذا كان كافيًا لخلاصه.

هل أنت حدث صغير؟ لا تثق في حداثتك، ولا تظن أنك ضامنٌ وقتًا ما تعيش به في الحياة. لأن "يوم الرب كلص في الليل هكذا يجيء" (١ تس ٥: ٢). لقد جعل نهايتنا غير منظورة (غير معروفة) لكي نبذل الجهد ونتطلع إلى قدام بجلاء.

أما ترى الناس يؤخذون يومًا فيومًا قبل الأوان؟! لهذا نصحنا الحكيم، قائلاً: "لا تؤخر التوبة إلى الرب، ولا تتباطأ من يومٍ إلى يومٍ" (سي ٥: ٨)، لئلا تتأخر في أي وقت فتهلك.

ليحفظ الشيخ هذه المشورة، وليقبل الشاب هذه النصيحة.

نعم، إنك الآن في أمان. هل أنت غني، ولديك ثروة وفيرة، ولا تصيبك أحزان؟ اسمع ما يقوله القديس بولس الرسول: "لأنه حينما يقولون سلام وأمان حينئذ يفاجئهم هلاك بغتة" (١ تس ٥: ٣).

طرق التوبة

هل تريد أن أُحَدِّثك عن طرق التوبة؟ إنها كثيرة ومتنوعة، وجميعها تقود إلى السماء.

١- الطريق الأول إلى التوبة هو **إدانة (النفس) على الخطية**. "ذكرني فنتحاكم معا. حدث لكي تتبرر" (إش ٤٣: ٢٦). كذلك يقول النبي: "قلت أعترف للرب بذنبي، وأنت رفعت آثام خطيتي" (مز ٣٢: ٥). بكتْ نفسك على خطاياك... لأن من يدين خطاياه لا يعود يسقط فيها.

٢- أيقظْ ضميرك، هذا الخصم الداخلي (الذي يتهمك) أمام منبر حكم الرب. هذا أفضل طريق للتوبة. لكن هناك طريق لا يقل عنه أهمية، وهو **ألا تحمل ضغينة ضد أعدائك منتصرًا على الغضب**، غافرًا خطايا العبيد رفقائك. فإنه بهذا تغفر الخطايا التي ارتكبناها في حق سيدنا. تأمل في هذا الطريق الثاني لمغفرة الخطايا، إذ يقول: "فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم، يغفر لكم أيضًا أبوكم السماوي" (مت ٦: ١٤).

٣- هل تريد أن تتعلم طريقًا ثالثًا للتوبة؟ **الصلاة الحارة بلجاجة**، النابعة من القلب. ألم ترَ كيف صنعت الأرملة حيال القاضي الظالم (لو ١٨: ٣). أما أنت فقاضيك لطيف، رحوم ورءوف. هي سألته ضد خصومها، أما أنت فتسأله ليس ضد خصومك، بل لأجل خلاص نفسك.

٤- سأتكلم أيضًا عن **الصدقة**، لأن لها قوة عظيمة غير منطوق بها. يقول دانيال لنبوخذنصر الذي ارتكب كل فنون الشر، وصار جاحدًا: "لذلك أيها الملك فلتكن مشورتي مقبولة لديك، وفارق خطاياك بالبرّ، وآثامك بالرحمة للمساكين" (دا ٤: ٢٧).

بماذا يقارن الحنو والشفقة؟ فبعدما ارتكب خطايا لا حصر لها، ومعاصي كثيرة، وعده بأنه إن أظهر عطفًا على العبيد رفقائه يغفر له.

٥- **الوداعة والتواضع** لا يقلان شأنًا عما تكلمنا به، فإنهما ينزعان طبيعة الخطايا. يؤكد العشار ذلك، فبكونه عجز عن ذكر أعماله الصالحة أمام الجميع، تقدم بتواضعه ملقيًا عنه ثقل الخطايا العظيم (لو ١٨: ١٣).

خاتمة

انظر فإننا أوردنا خمسة طرق للتوبة:

(أولاً) التبكيت على الخطايا...

(ثانيًا) المغفرة لأخطاء القريب...

(ثالثًا) الصلاة...

(رابعًا) الصدقة...

(خامسًا) التواضع...

إذًا لا تكن كسولاً. اسلك في هذه جميعها يومًا فيومًا. لأن الطرق سهلة، ولا تستطيع أن تعتذر بالفقر. لأنك وإن كنت تعيش كأفقر إنسان، تقدر أن تنزع عنك غضبك وتكون متواضعًا وتصلي بحرارة وتدين نفسك على خطاياك، فالفقر ليس بحجة للهروب.

ولماذا أتكلم عن هذه الأمور، بل حتى ذلك الطريق الذي للتوبة وفيه يصرف الإنسان مالاً (أي الصدقة) فإنه لا يعفينا الفقر عن إطاعة الوصية. فالأرملة التي دفعت فلسيْن هي برهان على ذلك (مر ١٢: ٤٢).

إذًا فلنتعلم شفاء جروحنا، ولنستخدم هذه الأدوية بثبات حتى تعود إلينا صحتنا ونتمتع بالمائدة المقدسة بالتأكيد، ونُصلِّي بمجد عظيم إلى المسيح ملك المجد، وننال الخير الأبدي، بنعمة ورأفة وحنو ربنا يسوع المسيح الذي به وله المجد والسلطان والكرامة، مع الآب والروح المحيي الكلي القداسة والصلاح، الآن وكل أوان وإلى أبد الأبد. آمين.

المقال الثالث

لماذا يترك الله الأشرار في العالم[1]

ينبع الشر عن الكسل، والفضيلة عن المثابرة. لا يقدر الأشرار أو الشيطان نفسه على أذية إنسان يقظ...

[1] العنوان الأصلي لهذا المقال كالعنوان الأصلي للمقال السابق.

هل تختلف طبيعة الصالحين عن الأشرار؟

لماذا لم يخدعكم الشيطان؟

لقد بدأنا أول أمس في الوعظ بخصوص "الشيطان"... وبينما كنا نبدأ في الوعظ، ذهب البعض إلى المسارح يشاهدون عروض الشيطان. لقد كانت لهم شركة في الأغاني الخليعة، أما أنتم فكنتم تشتركون في الموسيقى الروحية. كانوا يأكلون من نفايات الشيطان، أما أنتم فكنتم تتغذون بدسم روحي.

أسألكم من الذي خدعهم؟ من الذي فصلهم عن القطيع المقدس؟ هل الشيطان هو الذي خدعهم؟! فلماذا لم يخدعكم أنتم؟ مع إنكم وإياهم بشر متشابهون، أقصد لكم طبيعة واحدة... لكم نفس مشابهة، وغرائز (ميول)... واحدة بقدر ما خصتكم بذلك الطبيعة.

إذًا كيف لم يكن الكل في مكانٍ واحدٍ، إلا بسبب اختلاف الهدف. لهذا السبب بحق هم صاروا تحت الخداع، وأما أنتم ففوقه. لست أقول هذا لكي أُبرئ الشيطان من الاتهام، بل أشتاق بغيرة أن تتحرروا من الخطايا.

فالشيطان شرير، وأنا أسلم بهذا. لكنه شرير بالنسبة لذاته، وليس بالنسبة لنا مادمنا حذرين. لأن هكذا هي طبيعة الشر. إنها مهلكة للذين يتمسكون بها وحدهم...

أبكموهم بالقدوة الصالحة

هل تستخدم هذه الوسيلة (القدوة الصالحة) للبرهان، فإن رأيت إنسانًا يعيش في شرٍ، ويظهر كل صنوف الآثام، ملقيًا باللوم على العناية الإلهية، قائلاً بأن هذه مصادفة بحكم القضاء والقدر أو بسبب استبداد الشياطين، وأن الله وهبنا هذه الطبيعة... وكل الأمور التي ينزع بها اللوم عن نفسه، ليلقي به على الخالق المعتني بالكل؛ عندئذ أبكم فمه لا بالكلام بل بالعمل، مظهرًا للعبد رفيقك الحياة في الفضيلة والاحتمال.

إنه لا حاجة للأحاديث الطويلة أو عمل خطة معقدة، ولا حتى إلى قياسات منطقية، بل بالأعمال يتحقق البرهان.

قد تقول إنك عبد، وهو عبد مثلك. أنت إنسان، وهو أيضًا إنسان. إنك تعيش في نفس العالم، وتتنعم بنفس الأمور التي هي تحت السماء، فكيف تعيش أنت في الشر وأما هو فيحيا في الفضيلة؟!

لماذا لا يفصل الله بين الصالحين والأشرار؟

لم يعين عالمًا خاصًا كمستعمرة للصالحين

على هذا الأساس سمح الله للأشرار أن يختلطوا بالصالحين. ولم يعين عالمًا خاصًا كمستعمرة للصالحين، بل مزج هؤلاء بأولئك مقدمًا نفعًا عظيمًا.

١. نفع الصالحين من الأشرار

يتزكى الصالحون بالأكثر عندما يكونون في وسط أولئك الذين يريدون أن يصدوهم عن حياة البرّ، ويجذبوهم نحو الشر، وبالرغم من هذا يتمسكون بالفضيلة. يقول (الرسول): "لأنه لا بد أن يكون بينكم بدع أيضًا، ليكون المزكون ظاهرين بينكم" (١ كو ١١: ١٩).

لهذا ترك الله الأشرار في العالم حتى يزداد لمعان الصالحين. هل رأيتم عظم الربح؟! لكن لا يعود هذا الربح إلى الأشرار، بل إلى شجاعة الصالحين.

مثال:

لهذا نعجب أيضًا من نوح، ليس لأنه بار، ولا لأنه وُجِدَ كاملاً، بل لأنه احتفظ بفضيلته وسط جيل فاسد وملتو. لم يكن له مثال في الفضيلة (يقتدي به)، بل كان الكل يدفع به نحو الشر. فسلك الطريق مناقضًا الكل. وكأنه مسافر يسلك طريقًا وسط جموع حاشدة تصده بشدة. لهذا السبب لم يقل عنه "كان نوح رجلاً بارًا وكاملاً" فحسب، بل أضيف أيضًا: "في أجياله" أي في جيل فاسد ومنحل، حيث لا يوجد من يملك الفضيلة.

فبالنسبة للصالحين، هذا هو ما ينتفعون به من الأشرار.

على أي الأحوال، فإنه حتى الأشجار عندما تهاجمها الرياح المضادة تزداد قوة.

٢. نفع الأشرار من الصالحين

يوجد نفع للأشرار من مخالطتهم للصالحين. فإنهم يشعرون بالخزي ويكتنفهم العار، ويستحون من حضرتهم. فإن لم يكفوا عن الشر، يرتكبون الشر الذي يتجاسرون عليه خفية. وارتكاب الشر علانية ليس بالأمر البسيط.

إن حياة الآخرين (الصالحة) تتهم شرورهم. اسمع على الأقل ماذا يقولون عن الإنسان البار: "بل منظره ثقيل علينا" (حكمة ٢: ١٥). وهذه البداية للإصلاح بأن يتعذبوا بحضوره ليست بقليلة. فلو لم يكن نظرهم البار يعذبهم، ما كانت قد قيلت هذه الكلمات. فإذ

يكون الضمير منخوسًا ومعذبًا بحضور البار، فإن هذا ليس بعائق قليل عن انكبابهم على الشر بلذة.

هل رأيت عظم الفائدة التي يجتنبها الصالحون من الأشرار، والأشرار من الصالحين. لهذا فإن الله لم يفصلهم عن بعضهم البعض.

ليكن قصدك حسنًا، فلا تخاف حتى من الشيطان

لنطبق هذا البرهان أيضًا على الشيطان. فان الله قد تركه هنا لكي نعود إلى حال أقوى، لكي يجعل المصارع واضحًا والنزاع عظيمًا.

فعندما يسألك أحد: لماذا ترك الله الشيطان هنا؟ أجبه بهذه الكلمات، إنه ليس فقط لا يؤذي الشيطان إنسانًا متيقظًا وحذرًا، بل ويفيده أيضًا، ليس بقصد الشيطان (الشرير)، بل بسبب شجاعة ذاك الذي يستغل شر الشيطان استغلال حسنًا.

هكذا حتى عندما ثبت أنظاره تجاه أيوب، لم يقصد أن يزداد أيوب شهرة، بل أن يحطمه. على هذا الأساس، الشيطان شرير من جهة أفكاره ومقاصده، ولكنه لم يقدر أن يصد الإنسان البار، بل بالعكس في المعركة ازدادت بهجة (أيوب) كما ظهر بعد ذلك. **لقد أظهر الشيطان شره، وأظهر الرجل البار شهامته.**

قد يقول قائل: لكنه أسقط كثيرين! هذا بسبب شرهم، وليس (لمجرد) قوته الخاصة، وهذا يظهر من أمثلة كثيرة.

لتكن نيتك صالحة، فلن يؤذيك أحد قط، بل تنال ربحًا عظيمًا، لا من الصالحين فحسب، بل ومن الأشرار أيضًا. فإنه على هذا الأساس – كما سبق أن قلت – سمح الله للناس أن يبقوا مع بعضهم البعض وبالأخص الأشرار مع الصالحين، حتى يجذبهم إلى الفضيلة التي لهم.

الحاجة إلى خميرة صغيرة

اسمع أخيرًا ماذا يقول السيد المسيح لتلاميذه؟ "يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكيال دقيق" (مت ١٣: ٣٣). هكذا للأبرار قوة الخميرة في تحويل الأشرار إلى سلوكهم (الصالح).

الأبرار قليلون كالخميرة الصغيرة. إلا إن الصغير لا يُضر بحال الجموع، بل تحول الكمية الصغيرة العجين كله بفعل القوة الكامنة فيها. هكذا تكمن قوة الأبرار ليس في كثرة العدد، بل بنعمة الروح القدس.

لقد كانوا اثني عشر تلميذاً. هل رأيت كيف كانت الخميرة صغيرة؟ وكان العالم كله غير مؤمن. هل رأيت مقدار عظم الجموع؟ ولكن هؤلاء الاثني عشر غيَّروا العالم كله إليهم (ليكونوا مثلهم).

الخميرة والعجين من نفس الطبيعة، لكن ليس لهما نفس السلوك. لهذا ترك الأشرار وسط الأبرار مادام لهم نفس الطبيعة، حتى يصير لهم نفس هدف الصالحين.

لماذا تتهم سيدك؟

تذكر هذه الأمور، حتى تسد بها أفواه الكسالى والفاسقين والمتراخين وكارهي أعمال الفضيلة، هؤلاء الذين يتهمون سيد الكل.

أنت أخطأت. اصمت، ولكن "أخطأت؟ فلا تزيد أيضًا" (سي ٢١: ١). فليست هناك خطية أشر من أنك بعدما تخطئ تتهم السيد.

اعرف علة الخطية فستجد أنه لم يخطئ أحد إلا أنت.

الحاجة إلى القصد الصالح في كل وضعٍ. وأنا أظهر لكم هذا لا عقليًا فحسب، بل وبأمثله من العبيد رفقائكم السالكين في العالم ذاته. استخدموا أنتم هذه الوسيلة أيضًا...

هل أحد زان؟ قدِّم له إنسان آخر ضابط لنفسه.

هل أحد طماع وجشع؟ أره إنساناً يعطي صدقات.

هل يعيش في غيرة وحسد؟ عرفه إنساناً نقي من هذا الألم.

هل هو مغلوب من الغضب؟ احضر إلى الوسط إنساناً يسلك بحكمة.

يليق بنا ألا نقدم مثلاً قديمًا، بل أمثلة من الوقت الحاضر، لأن نعمة الله حتى اليوم تفعل أعمالاً حسنة لا تَقِل عن القديم.

هل هناك شاكٍ يظن أن الكتاب المقدس باطل؟

أفلا يصدق أن أيوب كان هكذا؟ قدِّم له إنساناً يسلك مثل ذلك البار.

هكذا أيضًا عندما يديننا السيد، فإنه يضع العبيد مع رفقائهم العبيد، ولا يقدم عبارة حسب حكمه الخاص[١]، حتى لا يقول أحد مرة أخرى كما قال ذاك العبد الذي لم يكن أمينًا في الوزنة فقدم اتهامًا بدلاً من أن يقدم وزنة، قائلاً: "إنك إنسان قاسٍ" (مت ٢٥: ٢٤).

---

[١] إنما يترك الأشرار يدانون بنظرهم الأبرار، فلا يكون لهم حجة.

كان يلزمه أن يحزن، لأنه لم يضاعف الوزنة، لكنه جعل خطيته أكثر خطورة، بأن رد كسله الخاص متهمًا السيد. لأنه ماذا قال؟ "عرفت أنك إنسان قاسٍ".

يا لك من إنسان بائس وشرير وناكر للجميل وكسلان! كان يلزمك أن تدين إهمالك... لكنك إذ تدين السيد تضاعف خطاياك بدلاً من أن تضاعف وزنتك.

سرّ صلاح الإنسان وشره هو هدفه

على هذا الأساس يترك الله العبيد مع بعضهم البعض، حتى يدين البعض الآخرين. وإذ يُدان الآخرون من بعض البشر لا يعودون قادرين على اتهام السيد. لهذا يقول: "فإن ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته" (مت ١٦: ٢٧). انظر إلى مساواته للآب في المجد، بل يأتي في مجد أبيه، ويجمع كل الأمم.

الاختلاف بين الخراف والجداء

مخيف هو كرسي القضاء، ومرعب بالنسبة للخطاة والذين هم تحت الدينونة. أما بالنسبة للمتيقظين لأنفسهم بالأعمال الصالحة، فإن كرسي الحكم موضع شوقهم، ويكون رقيقًا بالنسبة لهم.

"فيقيم الخراف عن يمينه، والجداء عن اليسار" (مت ٢٥: ٣٣). كلاهما بشر، فبالحقيقة لماذا هؤلاء خراف وأولئك جداء؟! لا لكي نتعلم وجود فارق في طبيعتهم، بل **بسبب اختلاف الهدف.**

ولكن لماذا يحسب الذين لا يظهرون حنوًا جداء؟ لأن هذا الحيوان بالنسبة لأصحابه غير مثمر، لا يساهم بنصيبٍ لا من جهة إنتاج اللبن أو إنجاب نسل أو من جهة الشعر (الصوف). فإذ ليس لهم ثمر، قارنهم بالجداء، أما الذين عن اليمين فدعاهم "خراف"، لأن هؤلاء تَقْدِمتهم عظيمة، من صوف طبيعي، وإنجاب نسل، وإنتاج لبن. ماذا يقول لهم؟ "لأني جعت فأطعمتموني، عطشت فسقيتموني. كنت غريبًا فآويتموني". مرة أخرى قال للآخرين العكس.

مع هذا فإن كلا الفريقين أناس متشابهون (كبشرٍ)، وكلاهما نالا نفس المواعيد، ووضعت المكافأة للجميع ليصنعوا خيرًا. وقد جاء نفس الشخص (الفقير) لهؤلاء وأولئك، بنفس العري، وجاءهم الجائع والغريب ذاته... إن كل الأمور مشابهة بالنسبة لهؤلاء أو أولئك. فلماذا لم تكن النهاية واحدة؟ **لأن الهدف (ليس واحدًا)...**

على هذا الأساس فريق يذهب إلى جهنم، والآخر إلى الملكوت. فلو كان الشيطان هو السبب في ارتكاب الخطايا، لما عين لهؤلاء العقوبة بينما (الشيطان) هو المخطئ والذي دفعهم (جبرًا) نحو الخطية.

الاختلاف بين العذارى الحكيمات والجاهلات

يقول بأنه يوجد عشر عذارى (مت ٢٥). هنا أيضًا توجد أهداف مستقيمة وأخرى خاطئة، كلاهما بجوار بعضهما جنبًا إلى جنب، خطايا البعض والأعمال الصالحة للآخرين...

هؤلاء وأولئك كانوا عذارى.

هؤلاء خمس عذارى، وأولئك خمس مثلهم.

الكل ينتظر العريس.

لماذا دخل البعض (العرس) والآخرون لم يدخلوا؟ إلا لأن البعض كانوا بخلاء (غير محبين) والآخرين نبلاء ومحبين.

ألا ترى أن الهدف وليس الشيطان هو الذي قرر مصيرهم.

هل ترى أن (الظروف) كانت مشابهة وأن القرار نتج عن أولئك المشابهين لبعضهم البعض. هوذا يدين العبيد العبيد رفقاءهم.

بين رجال نينوى واليهود الأشرار

هل تريد أن أورد لك مقارنة عن أمرٍ متناقض؟... إنه يقول: "رجال نينوى سيقومون في الدين مع هذا الجيل ويدينونه" (مت١٢: ٤١). الذين يدانون ليسوا مشابهين للذين يدينونهم، بل الأولون أمم والآخرون يهود.

واحد تمتع بالتعاليم النبوية، والآخر لم يكن له نصيب في التعاليم الإلهية.

وليس هذا هو الفارق الوحيد، فإنه في حالة (أهل نينوى) ذهب إليهم الخادم (يونان) كسيد (كان حديثه جافًا). وأما ذلك (الإله المتجسد) فقد أعلن بُشْرَى ملكوت السموات المفرحة. فنظن أيهما أكثر (قبولاً للكلمة)؟ البرابرة الجهلاء الذين لم تكن لهم شركة في التعاليم الإلهية أم أولئك الذين قد تدربوا منذ العصور الأولى على الكتب النبوية؟

من الواضح للكل أن اليهود كان يجب أن يكونوا أقرب إلى الإيمان، لكن حدث العكس. لقد رفضوا السيد عندما بشر بملكوت السموات، أما (أهل نينوى) فصدقوا العبد زميلهم عندما هدد بالدمار.

هذا يعلن صلاح (أهل نينوى) وغباء (اليهود) في درجة عظيمة.

هل الشيطان هنا (هو السبب)؟ أم الحظ؟ أم القضاء والقدر؟ أليس كل منهما (الشعبين) هما السبب في الشر أو الفضيلة؟!

بين ملكة سبأ واليهود الجاحدين

فلو لم يكن لهؤلاء أن يدينوا ما قال عنهم إنهم يدينون هذا الجيل، وما قال بأن ملكة التيمن (الجنوب South) ستدين اليهود، لأنه ليس فقط سيدين شعب شعبًا، بل ويمكن لإنسان أن يدين شعبًا. وذلك عندما لا ينخدع إنسان كان يمكن أن يُخدع، بينما أولئك كان يمكنهم أن ينتفعوا ويرجعوا إذا بهم يرفضوا...

الاختلاف بين آدم وأيوب

لهذا نشير إلى آدم وأيوب...

حقًا لقد **هاجم (الشيطان) آدم بالكلام المجرد، أما أيوب فهاجمه بالأفعال.** لأنه نزع عن واحدٍ كل ثروته وحرمه من أولاده، أما الآخر (آدم) فلم يأخذ كثيرًا أو قليلاً من ممتلكاته.

لنمتحن نفس الكلمات وطريقة الخطة. يقول (الكتاب): "فقالت (الحية) للمرأة أحقًا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة" (تك ٣: ١). **هنا نجد حية، أما بالنسبة لأيوب فنجد امرأة. بمعنى هناك فارق بين مقدمي المشورة.** إحداهما حية، والأخرى شريكة حياة الرجل (أيوب)، أي معينته، أما الأولى فهي خاضعة تحت سلطانه.

هل كان لحواء عذر؟

١. حقًا لقد خدعته حواء الخادمة في الخضوع، لكن (أيوب) لم تقدر أن تهلكه ولا حتى شريكته ومعينته.

انظر ماذا تقول الحية؟ "أحقًا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة". انظر إلى خبث الشيطان، لقد قال بما لم ينطق به الله حتى يتعلم ماذا قال الله لهما.

ماذا فعلت المرأة؟ كان يجب عليها أن تصمت. كان يلزمها ألا تبادلها الحديث، ولكن في غباء كشفت قول السيد، وبذلك قدَّمتْ للشيطان فرصة عظيمة...

انظروا أي شر هذا، أن نُسلِّم نفوسنا في أيدي أعدائنا والمتآمرين ضدنا؟! لهذا يقول السيد المسيح: "لا تعطوا القدس للكلاب. ولا تطرحوا دوركم قدام الخنازير (لئلا تدوسها بأرجلها) وتلتفت فتمزقكم" (مت ٧: ٦). وهذا ما حدث مع حواء. لقد أعطتْ القدس للكلاب والخنازير، فداست عليها بأرجلها والتفتت ومزقتْ المرأة.

٢. **انظروا كيف عمل الشيطان شرًا، بقوله لها "لن تموتا" (تك٣: ٤).** التفت معي إلى هذه النقطة، فإن المرأة كان يمكنها أن تفهم الخديعة. إذ أعلن الشيطان عداوته وحربه ضد الله، مناقضًا كلمات الله...

قبل هذا القول كنتِ تعلنين (قول الرب) لمن يريد أن يتعلم، ولكن لماذا تستمرين في الحديث مع من ينطق بما يضاد (قول الله)؟! لقد قال الله: "موتا تموت"، أما الشيطان فقد أجاب قائلاً: "لن تموتا". هل توجد عداوة أكثر من هذه؟! كيف يلزم على الإنسان أن يدرك العدو والخصم إلا من هذه الإجابة المناقضة لأقوال الله؟! كان يجب عليها أن تهرب للحال من الطُعْم، وتتراجع عن الشبكة.

لقد قال: "لن تموتا. بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله" (تك٣: ٤-٥). لقد طرحت بالخير الذي في يدها على رجاء نوال وعدٍ أعظم. لقد وعدها بأن يجعلهما إلهيْن، فطرحهما في جور الموت.

كيف إذًا تُصدِّقين الشيطان يا امرأة؟ أي خير تشاهدينه فيه؟ ألم تكن ثقتك في معطي الوصية كافية لتؤكد لك أنه واحد هو الله، هو خالق العالم ومنظمه، والآخر هو شيطان وعدو؟!

٣. وأنا لا أقول شيطانًا، فربما حسبته مجرد حية. فهل للحية أن تدَّعي المساواة (لحواء) حتى تطلب منها أن تعرف حكم الله؟

ها أنتم ترون أن حواء كان يمكنها أن تعرف الخديعة، لكنها هي التي لم ترد أن تعرف، وقد وهبها الله أدلة كثيرة عن إحساناته، وأظهر لها عنايته بعمل يديه. فقد خلق الإنسان الذي لم يكن له وجود من قبل، ونفخ فيه روحًا، وصوره على صورته، وأعطاه سلطانًا على كل ما على الأرض، ووهب له معينة، وغرس له الفردوس، وأوصاه أن يأكل من كل بقية الشجر، غير أنه لا يتذوق واحدة منها، وهذا التحريم ذاته كان لأجل خير الإنسان.

أما الشيطان فلم يظهر عملاً صالحًا، قليلاً كان أم كثيرًا، بل أغوى المرأة بالكلام المجرد ونفخها برجاءٍ باطلٍ، وهكذا خدعها. ومع هذا فإنها نظرت إلى الشيطان على أنه موضع ثقة أكثر من الله، مع أن الله أظهر إرادته الحسنة بأعماله.

لقد وثقت المرأة فيمن يمتهن الكلام المجرد.

هل رأيت كيف حدثت الغواية لا عن إلزام بالقوة، إنما كنتيجة للغباء والكسل؟ ولكي تتأكد من هذا بوضوح، استمع إلى اتهامات الكتاب المقدس للمرأة. "فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل... فأخذت من ثمرها وأكلت" (تك ٣: ٦).

يُلقى اللوم على عدم ضبطها للنظر، وليس فقط على الخداع الذي حدثه الشيطان.

لقد انهزمت من شهوتها المسيطرة، وليس بسبب شر الشيطان. لهذا لم يكن لهـــا أن تنتفع بالأعذار، فرغم قولها: "الحية غرتني"، إلا إنها سقطت تحت العقوبة تمامًا. لأنه كان لها القدرة ألا تسقط...

موقف أيوب

بالنسبة لأيوب نصب (الشيطان) فخاخه بعد هلاك ثروته وفقدان أولاده ونزع كـــل ممتلكاته. أما في الحالة الأخرى، فإنه لم يعانِ من دمار... بل كان ساكنًا في فردوس الترف، متنعمًا بكل صنوف الفواكه والينابيع والأنهار... حيث لا تعب ولا ألم ولا يأس ولا اهتمامات ولا توبيخات ولا سبٌّ وغير ذلك من تلك الشرور التي أحاقت بأيوب، ومع هـــذا ســـقط آدم وانهزم. إذًا أليس من الواضح أن سبب انهزامه هو تراخيه؟!

أما الآخر فعندما أحاطت به كل هذه وأثقلت عليه، وقف ثابتًا في نبلٍ، ولم يـــسقط. أليس من الواضح إذًا أن ثباته كان بفعل يقظة نفسه؟

خاتمة

لنقتد بأيوب المُجَرَّب

أيها الأحباء لنقتدِ بأيوب المُجَرَّب، فنجني أقصى ربح من كلا الحالتين (آدم وأيوب)، نجني التمثل بآدم، عالمين مقدار الشرور التي تتولد من التراخي، والتمثل بتقوى أيوب، عالمين عظم الأمور المجيدة التي تنبع عن الغيرة (اليقظة).

تأملوا ذاك الذي صار معدمًا في كل شيءٍ، فإنه سيكون مصدر تعزية بالنسبة لكم في كل ألمٍ وكل كارثة. إذ هو كمن يقف على مسرح العالم عامة، ويتحدث ذلك الرجل المبارك النبيل مع الجميع عن الآلام التي احتملها، حتى يحتملوا كل ما يحل بهم بنبلٍ ولا يستسلموا للمتاعب التي تحف بهم. لأنه لا توجد متاعب بشرية لا نأخذ عنها تعزية من هنا. إذ المتاعب التي تبعثرت في العالم كله، نجدها قد تجمعت هنا في جسد شخصٍ واحدٍ...

١. افتقر أكثر من الشحاذين

لنذكر تلك (الكارثة) التي تبدو للجميع أنها غير محتملة، أقصد الفقر وما ينشأ عنه من ألمٍ، لأنه في مكان ينتحب الناس من أجل الفقر.

من كان أكثر فقرًا من أيوب، الذي افتقر أكثر من (الشحاذين) السالكين في الطرق...؟! فهؤلاء لهم ثوب ممزق، أما هو فجلس عريانًا، إنما كان له ذلك الثوب الذي أمدته به الطبيعة، أي الجسد، وحتى هذا الثوب مزقه الشيطان من كل جانب، بل أصابه بالقروح...

هذا القطيع الفقير له على الأقل أن يستظل تحت سقفيه في الطرقات ولهم مأوى، أما أيوب فبقي لياليه في العراء لا سقف له يأويه.

وما هو أشد من هذا، إن هؤلاء ربما يشعرون بشرورٍ مرعبةٍ في حياتهم (هي السبب في التأديب)، أما هذا فلم يكن يشعر بشيءٍ في داخله... الأمر الذي سبب له آلامًا مبرحة، وأوجد فيه حيرة شديدة، وذلك لجهله سبب ما حدث له.

قلت إن هؤلاء لهم ما يوبخون به أنفسهم، وهذا يساهم بتعزيةٍ ليست بقليلةٍ في أثناء الكارثة، أن يشعر الإنسان أنه يعاقب بعدلٍ. أما أيوب فقد نُزعت عنه كل تعزية...

هؤلاء... فقراء منذ بداية حياتهم، اعتادوا على ذلك. إنما هو احتمل الكارثة التي لم يعتد عليها، مختبرًا الحرمان الشديد من الثروة (التي كانت له). وكما أن معرفة السبب

تعطي الإنسان تعزية عظيمة، فانه ليس بأقل منها أن يكون الإنسان قد ذاق الفقر منذ البداية واستمر فيها.

لقد حُرم هذا الرجل من كل هذه التعزيات ولم يقف أمره عند هذا الحد... نعم، إنه بالحري لم يكن له حتى في سلطانه أن يتمتع بالأرض المجردة، بل جلس في مزبلة.

لذلك عندما ترى نفسك تفتقر، تأمل ما احتمله هذا البار، وللحال ترتفع وتنفض عنك كل قنوط...

٢. احتمال الآلام الجسدية

والكارثة الثانية بعدها، بل بالحري قبلها (أي أشد من الفقر)، ألا وهي آلام الجسد. من هو عاجز مثله؟ من يحتمل أمراضًا هكذا؟ من يعاني، أو رأى إنسانًا يعاني من آلام مبرحة كهذه؟ لا أحد.

لقد كان جسده يخور شيئًا فشيئًا، وعواصف القروح تهب عليه من كل جانب، في كل أطرافه... والرائحة الكريهة تحيط به بعنف، والجسد يتحطم قليلاً قليلاً وتصيبه العفونة، لهذا صار الطعام بالنسبة له لا طعم له، أما الجوع فصار غريبًا وشاذًا بالنسبة له، فلم يكن فقط غير قادرٍ على التمتع بالقوت الذي يعطى له، بل قال عنه: "خبزي الكريه" (أي ٥: ٥).

أيها الإنسان، إن سقطت في ضعف، اذكر ذلك الجسم المقدس، لأنه كان مقدسًا ونقيًا حتى عندما أصابته جروح كثيرة!...

وإن أُخذ الإنسان ظلمًا بغير ذنب، ووضع في حناك[1]، وقُطعتْ أعضاؤه إلى أجزاء... فلينزع آلامه بتذكره هذا القديس.

لكن ربما يقول قائل: لكن هذا الإنسان كانت له راحة عظيمة وتعزيه، لأنه يعلم أن الله هو الذي جلب عليه هذه الآلام.

بالحقيقة هذا كان يقلقه بالأكثر ويضايقه، أن يفكر في الله العادل والذي يخدمه بكل الطرق يحاربه. ولم يكن لديه علة مقبولة لما حدث. لذلك عندما علم أخيرًا السبب، أنظر أي ورع أظهر... إنه يقول: "وضعت يدي على فمي. مرة تكلمت فلا أجيب، ومرتين فلا أزيد" (أي ٤٠: ٤-٥). ومرة أخرى يقول: "بسمع الأذن قد سمعت عنك، والآن رأتك عيني. لذلك أرفض وأندم في التراب والرماد" (أي ٤٢: ٥-٦).

---

[1] آلة تقمط على العنق واليدين (*pillory*).

ولكن إن حسبت أن هذا كان كافيًا للتعزية، فإنك تستطيع أنت أيضًا أن تختبر هذه التعزية. لأنه وإن لم تعانِ من هذه الكوارث (من يدي الله)، لكن كنتيجة لعجرفة البشر، قدِّم التشكرات لله ولا تُجَدِّف على هذا الذي هو قادر أن يمنعهم عنك، فتحصل على نفس المكافأة...

٣. احتمال موت أولاده

هل تريد أيضًا أن أريك القتال في أيدي الطبيعة التي ثارت ضد هذا النبيل بدرجة زائدة؟

لقد فقد أولاده العشرة، الكل اُكتسحوا دفعة واحدة، والكل في ريعان شبابهم، والعشرة كانوا فضلاء، ولم يموتوا موتًا طبيعيًا، بل موتًا قاسيًا يُرثى له. من يقدر أن يعبر عن كارثة كهذه؟! لا أحد! عندما تفقد ابنًا وابنة في وقت واحد، تطلع إلى هذا البار، فتجد عزاء عظيمًا لنفسك...

٤. احتمال سخرية البشر

كان أيضًا هروب أصدقائه منه واستهزائهم وسخريتهم وتهكمهم وتجريحهم له أمرًا لا يُطاق. فإن آلام الكارثة لا تعادل تلك التي من أولئك الذين يوبخوننا ونحن في كارثتنا...

ليس فقط لم يوجد من يلطف الكارثة، بل الكل كانوا يقرعون به. وها أنت تراه ينتحب بمرارة، قائلاً لهم إنهم هم أيضًا يعذبونه (أي ١٩: ١). وقد دعاهم غير رحماء بقوله: "أقاربي قد خذلوني، والذين عرفوني نسوني. نزلاء بيتي وإمائي يحسبونني أجنبيًا. صرت في أعينهم غريبًا. عبدي دعوت فلم يجب. بفمي تضرعت إليه"[1] (أي ١٩: ١٤، ١٦).

ويقول أيضًا أنه صار موضع حديث الكل يتسلون به (أي ١٩: ٩-١٠). بل ويقول: "حتى تكرهني ثيابي" (أي ٩: ٣١).

٥. احتمال أهوال الليل

لم يجد أيضًا راحة حتى في الليل، فان أهوال الليل المرعبة أقسى من مصائبه بالنهار... "ترعبني بالأحلام، وترهبني برؤى" (أي ٧: ١٤).

---

[1] استحسنت ذكر النص كاملاً.

أي رجل من حديد، أو قلب من فولاذ، حتى يحتمل هذه المصائب جميعها؟! إن كانت كل كارثة لا تُحتمل على حده... ومع ذلك احتمل الكل. وفي كل ما حدث له لم يخطئ، ولا نطق على شفتيه بشرٍ.

أنت بلا عذر

لتكن آلام هذا الرجل أدوية لأمراضنا، وأمواج بحره الهائج ميناء لأتعابنا، ناظرين إلى هذا القديس في كل ما يحدث لنا، فنراه يعلو على مصائب الحياة، فنسلك نحن بشجاعة.

ولكن إن قلت: انه أيوب! ولذلك احتمل كل هذا. أما أنا فلست مثله. فإنك بهذا تمدني باتهام عظيم ضدك، ومديح جديد له. لأنه كان الأجدر بك أن تحتمل أكثر منه.

قد تسألني: لماذا؟ لأنه **كان أيوب في عهد ما قبل النعمة وقبل الناموس،** حيث لم تكن هناك حياة صارمة ولا أُعطِيت نعمة الروح القدس العظيم، عندما كان يصعب محاربة الخطية، وكانت اللعنة سائدة، والموت مرعبًا. أما الآن فقد صارت المصارعة أسهل، وهذه الأمور (اللعنة) أُستبعدت بعد مجيء المسيح، حتى إنه ليس لنا عذر إن لم نصل إلى مستواه، بعد طول زمن ومزايا كثيرة نلناها، وعطايا وهبها الله لنا.

إذًا بالنظر إلى كل هذه الأمور، إنه كان الخصم أكثر خطورة، والإنسان أعزل أمام عدوه (الشيطان)، فعلينا أن نحتمل بنبلٍ كل ما يحل بنا، شاكرين على ذلك، حتى يمكننا أن نحصل على نفس الإكليل الذي لأيوب، بنعمة ورأفة ربنا يسوع المسيح الذي له المجد مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى أبد الأبد. آمين.

يعظم انتصارنا بالذي أحبنا" (رو ٨: ٣٧)

من كلمات يوحنا الذهبي الفم عن النصرة على الشيطان

❖ يصوب الشيطان سهامًا ضدي، لكن أنا معي سيف.
هو معه قوس، **أما أنا فجندي أحمل سلاحًا ثقيلاً**...
إنه حامل قوسٍ لكنه لا يجسر أن يقترب إليّ، إذ يلقى بسهامه من بعيد[١].

❖ عندما يرى أب محب الإنسان الذي قتل ابنه، فإنه لا يعاقب المجرم فقط، وإنما يدمر أيضًا السلاح نفسه الذي استخدمه. هكذا **عندما يجد المسيح أن الشيطان قد ذبح إنسانًا، فإنه ليس فقط يعاقب الشيطان، وإنما يدمر السلاح نفسه**[٢].

❖ هل كان الشيطان يهرب إن دعا أحد اسم اللص المصلوب أو أي **(شخص)** مصلوب آخر؟ بالطبع لا، بل كان سيسخر منه. لكنه عند سماع اسم يسوع المسيح الناصري يُدعى يهرب سريعًا كما من النار.

❖ لا نخشى شيئًا، فإننا لكي نقهر الشيطان يلزمنا أن نعرف أن مهارتنا لن تفيد شيئًا، وأن كل شيءٍ هو من نعمة الله[٣].

---

[1] *Baptismal Instructions, 3:11.*
[2] *Baptismal Instructions, 3:10.*
[3] *Ad. Pop PG 49: 66, 67.*

يسوع والمفلوجان[1]

القديس يوحنا الذهبي الفم

طبعة منقحة

٢٠٠٧

تعريب

القمص تادرس يعقوب ملطي

مُعرب عن

Nicene and Post-Nicene Fathers, Series 1 Volume 9.

On The Paralytic Let Down Through The Roof,

And Concerning The Equality Of The Divine Father And The Son .

[1] الترجمة الحرفية: "عظة عن المفلوج المُدَلَّى من السقف، وبخصوص مساواة الابن للآب".

المعجزة في المسيحية

ربنا يسوع ومعجزاته

الكلمة الذي "كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يو ١ :٣)، تجسد وأخلى ذاته، آخذًا صورة عبد، صائرًا في شِبْه الناس (في ٢ :٧). وفي دائرة إخلائه، يؤكد **القديس يوحنا الذهبي الفم**[1]، أن ربنا يسوع لم يصنع معجزة (تناقض قوانين الطبيعة) واحدة علنية في طفولته وصبوته، رغم كونه الخالق الذي يخلق اللبن في ثديي أمه وغيرها من الأمهات، ويخلق الأجِنّة في بطون أمهاتِهم، ويدير شئون المسكونة كلها. لكنه لم يُرِدْ أن يُبهر من هم حوله، بل أراد أن يصير مشابها لنا. وأن أول معجزة قدَّمها هي تحويل الماء خمرًا، إذ يُعَلِّق القديس يوحنا الحبيب عليها قائلاً "هذه هي بداية الآيات فعلها يسوع" (يو ٢ :١١).

❖ إن قال قائل: لا يوجد في هذا القول دلالة كافية على أن هذه الآية هي بداءة آيات المسيح لأجل إبداعها في قانا الجليل، لأنه من الممكن أن يكون فعل في غير ذلك المكان آيات أخرى غيرها.

نقول له: إن يوحنا المعمدان قد قال من قبل عن المسيح: "**وأنا لم أكن أعرفه، لكن ليظهر لإسرائيل، لذلك جئت أعمد بالماء**" (يو ١: ٣١)، فلو كان المسيح فعل في عمره المبكر عجائب لما كان الإسرائيليون قد احتاجوا إلى آخر يعلن عنه. لأن ذاك (يسوع) الذي جاء بين الناس وبمعجزاته صار معروفًا، ليس فقط للذين في اليهودية وإنما أيضا للذين في سورية وما وراءها، وفعل هذا في ثلاث سنوات فقط، فإنه ما كان محتاجًا إلى هذه السنوات الثلاث لإظهار نفسه (مت ٤: ٢٤)، لأنه كان من شهرته السابقة قد عُرف في كل موضع.

أقول إن ذاك الذي في وقت قصير أشرق عليكم بالعجائب فصار اسمه معروفًا للكل، لم يكن بأقل من ذلك لو أنه في عمره المبكر صنع عجائب وما كان يبقى غير معروف كل هذا الزمن (حتى بلغ الثلاثين من عمره). فإنه ما كان قد فعله لبدا غريبًا أن يفعله صبي...

في الحقيقة لم يفعل شيئا وهو طفل سوى أمرًا واحدًا شهد له لوقا (لو ٢: ٣٦) وهو في الثانية عشر من عمره حيث جلس يسمع للمعلمين وقد دهشوا من أسئلته. بجانب هذا

---

[1] *In Ioan. hom 21:1.*

فإنه من الأرجح والمعقول انه لم يبدأ آياته في عمره المبكر، لأنه بهذا لبدت أمرًا مخادعًا. إن كان وهو في سن النضوج تشكك كثيرون فيها، كم بالأكثر لو أنه صنع العجائب وهو صغير. فإن ذلك كان قد أسرع به إلى الصليب قبل الوقت المحدد، خلال سم الحقد، ولما قُبلت حقائق التدبير[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

هذا يكشف لنا عن هدف المعجزة بالنسبة لربنا يسوع، إنها لم تكن تحدث اعتباطًا وبلا هدف، ولا الظهور أو نوال كرامةٍ ومجدٍ بشريٍ، أو لإبهار الناس بها، إنما من قبيل حبه وترفقه وعطفه علينا، ولكي يكشف لنا عن مفاهيم روحية ولاهوتية عميقة تمس حياتنا وعلاقتنا به كما سنرى.

صنع الرب آيات كثيرة هذا عددها "وأشياء أخر كثيرة صنعها الرب يسوع، إن كُتِبَتْ واحدة فواحدة، فَلَسْتُ أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة" (يو ٢١:٢٥). بل وأعطى تلاميذه أيضًا سلطانًا أن يصنعوا باسمه أشفية ومعجزات (مت ١٠:٨، مر ١٦:١٨). فكان ظِلُ بطرس الرسول يُخَيِّمُ على المرضى فيبرأون (أع ٥:١٥)، وكان يؤتى عن جسد بولس المريض بمناديل أو مآزر إلى المرضي، فتزول عنهم الأمراض، وتخرج الأرواح الشريرة" (أع ١٩:١٠). ومازال وسيزال الله يعطي هذه الموهبة حسب إرادته، ووفق غِنَى حكمته، "فإنه لواحد يُعطَى بالروح كلام حكمة. ولآخر كلام علْم بحسب الروح الواحد. ولآخر إيمان بالروح الواحد، ولآخر مواهب شفاء بالروح الواحد. ولآخر عمل قوات، ولآخر نبوة، ولآخر تمييز الأرواح...." (١ كو ١٢:٨-١٠).

والكنيسة غنية بقديسيها الذين وهبهم الله صنع المعجزات، منهم القديس العظيم الأنبا أبرام أسقف الفيوم الأسبق (١٨٢٩-١٩١٤م) الذي ذاع صيته في المسكونة، والقديس أنبا صربامون أبو طرحه... هذان اللذان تشهد حياتهما والمعجزات التي تمتْ على أيديهما بعمل الله فيهما.

ولا نزال إلى يومنا هذا نسمع ونشاهد بعيوننا ما يتمجد به الله على يدي قديسيه. فكم من معجزات تحدث في أعياد القديسين أمثال السيدة العذراء مريم والشهيد العظيم مارجرجس الروماني والقديسة دميانة الخ. بل وأعرف كثيرين ممن تحققت معهم معجزات في بيوتهم بقوة الرب على يدي قديسيه.

---

[1] *Homilies on St. John, Hom. 21:2.*

لكن يلزمنا أن ندرك بأنه ليس كل من تقدَّس للرب قد أُعطِي موهبة الشفاء وصُنْع المعجزات، وأيضًا ليس كل من يصنع معجزات هو قديس. إذ يقول **القديس أغسطينوس** [علينا إلا نُخدَع لمجرد تسميتهم باسم المسيح دون أن يكون لهم الأعمال، بل ولا الأعمال ولا المعجزات أيضًا تخدعنا، لأن الرب الذي صنع المعجزات لغير المؤمنين، حذرنا أن نُخدَعَ بواسطة المعجزات، ظانين أنه حيثما وُجِدَتْ المعجزة المنظورة توجد الحكمة الغير منظورة. لذلك أضاف قائلاً: "كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم يا رب يا رب أليس باسمك تنبأنا، وباسمك أخرجنا شياطين، وباسمك صنعنا قوات كثيرة. فحينئذ أُصَرِّح لهم إني لا أعرفكم قط. اذهبوا عني يا فاعلي الإثم" (مت٧: ٢٢، ٢٣). فهو لا يعرف غير صانعي البرّ، لهذا منع تلاميذه من أن يفرحوا بصُنْعِ المعجزات مثل خضوع الشياطين لهم قائلاً: "بل افرحوا بالحري أن أسماءكم كتبت في السماء" (لو ١٠:٢٠)، أي في مدينة أورشليم التي لا يملكها سوى الأبرار والقديسين، كما يقول الرسول: "ألستم تعلمون أن الظالمين لا يرثون ملكوت الله" (١ كو ٦:٩)[1].]

قد يقول قائل بأن الظالمين لا يستطيعون فِعْل هذه القوات المنظورة، وإنهم يقولون كذبًا "باسمك تنبأنا، وباسمك أخرجنا شياطين، وباسمك صنعنا قوات". لكننا لننظر ما صنعه سحرة مصر المقاومين لموسى خادم الله " (خر ٧:٨).

ويقول **القديس يوحنا الذهبي الفم** تعليقًا على قول الحبيب "وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضًا كما أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضًا بعضكم بعضًا. بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حب بعض لبعض." (يو ١٣:٣٤-٣٥) إنه إذ أغفل الرب يسوع الحديث عن المعجزات التي يلزمهم أن يصنعونها، جعل الوصف الخاص بهم هو "الحب" ولماذا؟ لأن الحب يحتل المكان الرئيسي في إظهار القديسين وهو ينبوع كل الفضائل.

[أليس بالأولي أن تكون المعجزات هي علامة تَلْمَذتهم له؟ لا لأن كثيرين سيقولون... أليس باسمك أخرجنا شياطين (مت ٧:٢٢). الحب حقًا هو الذي يجعلهم للحال كاملين. ويجعل لهم جميعًا القلب الواحد والروح الواحد. لكن إن انقسموا كل واحدٍ على الآخر يفقدون كل شيءٍ.]

وأخيرًا بقي لنا أن نتساءل عن:

---

[1] الموعظة على الجبل، ج ٢ ف ٨٤.

١- المعجزة في نظر الله والإنسان.

٢- ارتباط المعجزة بالإيمان.

٣- نزول الزيت من أجساد البعض وصور القديسين

المعجزة في نظر الله والإنسان

"أي إله عظيم مثل الله. أنت الإله الصانع العجائب، عَرَّفتَ بين الشعوب قوتك." (مز ٧٧: ١٣-١٤).

الله خالق السماء والأرض وما فيها وما عليها بدقةٍ عجيبةٍ وتدبير مُحْكَم، تقف البشرية والقوات السمائية حائرة أمام أصغر الأمور فيها، من قوانين الفلك والطبيعة والبيولوجيا والذرة... تلك التي مهما بلغت أبحاثنا فيها نقف على حافة شاطئ بحر معرفتنا.

لقد تقدمت المعرفة العلمية في هذا القرن تقدُّمًا لم يكن متوقعًا، وفي كل تقدُّم نكتشف حقائق أخرى كثيرة لازال الإنسان يجهلها. وفي كل اكتشاف حديث تزداد مشاعر الإنسان رهبة أمام ذاك الخالق الـ "صانع عجائب وحده" (مز ٧٢: ١٨).

لكننا إذ نحيا في هذا العالم، الذي من صُنْع يد الله، كل يوم لا نُفَكِّر إلا قليلاً، ولا ندرك إلا قدر ضعفنا. لهذا يود الإنسان أن يرى الله كصانع عجائب لا من حيث خلقته لهذه الطبيعة العجيبة بل بكسره قوانينها.

فالله كخالق للطبيعة ليس تحت إلزام لقوانينها، لكن بحكمته يريدها أن تعمل ولا يريد أن يكسرها، لأنه أوجدها من قبيل حبه لنا، ولنفعنا. لكنه إن رأى أن من منفعتنا، حسب رأيه وحكمته السمائية، أن يكسر هذه القوانين فإنه يكسرها. وهذا نسميه معجزة بالنسبة لنا، ولكن ليس بالنسبة لله، لأنه ليس شيء غير مستطاع لديه.

مثال ذلك إذا تعرَّض إنسان، بسماح إلهي، لميكروب قاتل، يسمح الله بانتقاله من هذه الحياة. وهذا هو الوضع الطبيعي العام، لكنه إن إراد أن يشفيه يقدر. وهنا لا أنكر أن الله قد وهبنا فهمًا وحكمة لمقاتلة الميكروب أو الوقاية منه. وإن لم نستخدم ما أعطانا من حكمة وفهم في معالجة المرض أو الوقاية منه، يسمح بانتقالنا كنتيجة لاهمالنا، اللهم إلا إذا رأى بحكمته غير المفحوصة ولا مُدْرَكة أن يعطيه فرصة أخرى في هذه الحياة.

مرة أخرى أريد أن أؤكد أن الله في خلقته لنا وفي خلقته للعالم من أجلنا، لم يرد أن يجعلنا نتلمس حبه لنا بكسره قوانين الطبيعة إلا عند الضرورة ولخيرنا. لكننا نتلمس المعجزة في أعماله العجيبة فيما هو حولنا.

رأى المُرَتِّل الله صانع المعجزات في خلقته للمسكونة بدافع حبه للبشرية، فترنم قائلاً:

"احمدوا الرب لأنه صالح **لأن إلى الأبد رحمته...**

الصانع العجائب العظام **لأن إلى الأبد رحمته.**

الصانع السموات بفهم **لأن إلى الأبد رحمته.**

الباسط الأرض على المياه **لأن إلى الأبد رحمته.**

الصانع أنوارًا عظيمة **لأن إلى الأبد رحمته.**

الشمس لحكم النهار **لأن إلى الأبد رحمته.**

القمر والكواكب لحكم الليل **لأن إلى الأبد رحمته**" (مز ١٣٦).

وبعدما تلامس النبي مع محبة الله العميقة في معجزاته هذه، عاد يتلمسها في المعجزات الأخرى الخارقة لقوانين الطبيعة، فقال: "الذي شق بحر سوف إلى شقق، **لأن إلى الأبد رحمته...** الذي سار بشعبه في البرية **لأن إلى الأبد رحمته**" (مز ١٣٦).

فالحب الذي دفع الله أن يخلق لأجلنا العالم وما فيه بنظامٍ دقيقٍ، هو نفسه الذي دفعه أن يشق البحر الأحمر (بحر سوف)، مناقضًا طبيعة الماء، وأن يعول الشعب في البرية بطريقة تشذ فيها عن كثير من القوانين التي نعرفها، فتُظَلِّلهم سحابة تسير معهم، ويضيء لهم عمود ويقودهم ليلاً، ويأكلون منًا من السماء لا يتعبون في صنعه، وترافقهم صخرة تخرج ماءً وتسير معهم، وأحذيتهم لا تتهرأ، وأقدامهم لا تتورم الخ.

فالعجب في كَسْر القوانين لا يقل عنه في إيجاد القوانين ذاتها، لكن **العجب كل العجب في حب الله الذي لأجلنا يصنع القانون ولأجلنا يكسره.** حقًا "**مبارك الرب لأنه قد جعل عجبًا رحمته لي**" (مز ٣١:٢١).

هذا هو مفهوم المعجزة في الكتاب المقدس. إنها تكمن في حب الله للإنسان.

فالله الذي اختار إيليا نبيًا عندما أمره أن يذهب إلى نهر كريت (١ مل ٣:١٧) أعطاه أن يشرب من النهر (وهذا وضع طبيعي لكن من صُنْعِ الله أيضًا)، وإذ ليس له وقت لإعداد الطعام، يقول له: "وقد أمرت الغربان أن تعولك هناك" (١ مل ٤:١٧). الغربان الخاطفة تنسى طبيعتها وتعول الإنسان. يا لحب الله لأولاده!

كان القديس الأنبا بولا يأكل بلحًا من النخلة، لكن إذ ليس للأرض الصحراوية أن تنتج قمحًا، كان الله يرسل له نصف كسرة خبز يوميًا بواسطة غراب!

أما الراهب الذي كان يعوله الله بواسطة الغربان في الجبل، امتنعت الغربان عن إعالته بعدما أُختير أسقفًا في المدينة، لا يعني إلا أن الله لا يود أن يكون كاسرًا لقوانين هو واضعها، إنما يريد أن تعمل كل الأمور في مجراها الطبيعي الذي خلقها عليه، اللهم إلا إذا كانت الظروف تستدعي كسر القانون، يكسره الرب من أجل محبته للإنسان وعنايته به.

وقد أكَّد ربنا يسوع هذا؛ فكان جمال معجزاته يبرز أولاً وقبل كل شيء في ترفقه بالبشرية. أجملها النبي إشعياء في قوله: "تفرح البرية والأرض اليابسة، ويبتهج القفر ويزهر كالنرجس. قولوا لخائفي القلوب: تشددوا لا تخافوا. هوذا إلهكم... حينئذ يقفز الأعرج كالأيل، ويترنم لسان الأخرس..." (إش ٣٥) "ولكن أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحملها" (إش ٥٣).

وإن أخذنا بعض المعجزات فرادى ينكشف لنا دافع ربنا يسوع من صُنْعِ المعجزات.

ففي شفاء الأعميين الجالسيْن على الطريق يقول: "**فتحنن يسوع** ولمس أعينهما فللوقت أبصرت أعينهما فتبعاه" (مت ٢٠: ٣٤). تحنن من أجل فقدانهما البصيرة الداخلية، فوهب لهما البصر الخارجي ينظران الطريق، وبصيرة داخلية "فتبعاه".

وعند إقامته للشاب وحيد الأرملة، قال الكتاب: "فلما رآها الرب **تحنن عليها**، وقال لها لا تبكي" (لو ٧: ١٣).

وعند إقامته للعازر حبيبه، شهد الكتاب أنه لما رأى مريم ومرثا تبكيان "**بكى يسوع**" (يو ١١:٣٥).

وعندما جاءه أبرص يطلب إليه جاثيًا أن يطهره "**تحنن يسوع** ومد يده ولمسه" (مر ١:٤١).

ويقول القديس متى الإنجيلي: "وكان يسوع يطوف المدن كلها والقرى يُعَلِّم في مجامعها ويكرز ببشارة الملكوت ويشفي كل مرض وكل ضعف في الشعب. ولما رأى الجموع **تحنن عليهم**، إذ كانوا منزعجين ومنطرحين كغنمٍ لا راعي لها" (مت ٩:٣٥-٣٦).

وهكذا أيضًا التلاميذ والرسل والآباء القديسون، إذ كانوا يصنعون المعجزات باسم ربنا يسوع وبروحه، كان الدافع هو "**الحب والترفق**" كأنبا أبرام الذي ضرب لنا مثلا قويًا في ترفقه بالفقراء، وحنوه نحو الخطاة التائبين، وعطفه على الجميع مسيحيين وغير مسيحيين. لأنه بدون المحبة لا يبقى للمعجزة قيمة، "وإن كانت لي نبوة، وأعلم جميع الأسرار، وكل علمٍ، وإن كان لي كل الإيمان حتى أنقل الجبال، ولكن ليس لي محبة فَلَستُ شيئًا" (١ كو ١٣:٢).

المعجزة والإيمان

في العهد القديم كان الشعب بدائيًا في معرفته الله، وتفهمه للروحيات، لا يقدر أن يسمو كثيرًا فوق الملموسات والحسيات لهذا لا عجب إن كان الله يتراءى لهم في صور مختلفة عيانًا، دون أن تتغير طبيعته. وأن يقدّم لهم البركات الأرضية كجزاءٍ سريعٍ لتنفيذيهم وصاياه، والعقاب الزمني السريع كعقوبةٍ تأديبيةٍ عن زيغانهم (راجع تث ٢١). **ولأجل تثبيت إيمانهم كانت المعجزة حجر الزاوية في العبادة.**

فموسى النبي كان محتاجًا لإرساله أن يعطيه الرب قوة لصُنْعِ المعجزات من تحويل العصا إلى حية، وبرص يديه، وإتمام الضربات العشرة. والشعب كان يلزمه أن يرى المعجزات العجيبة التي تمت في بحر سوف وفي البرية ودخولهم أرض الموعد الخ.

بالمعجزات عرفوا الرب مرنمين قائلين: "من مثلك بين الآلهة يا رب... من مثلك معتزًا في القداسة، مخوفًا بالتسابيح، **صانعًا عجائب**" (خر ١٥:١١). لهذا لم يكف الله عن أن يعلن لهم نفسه بهذه الطريقة قدر إدراكهم الروحي البسيط. "ها أنا قاطع عهدًا قدام جميع شعبك، **أفعل عجائب لم تخلق في كل الأرض وفي جميع الأمم**. فيرى جميع الشعب الذي أنت في وسطه فعل الرب، إن الذي أنا فاعله معك رهيب" (خر ٣٤:١٠).

أما **في العهد الجديد**، فقد جاء ربنا يسوع متجسدًا، رافعًا مؤمنيه إلى مستوى روحي أعمق، انتقل بهم إلى السماويات وهم بعد الأرض، ووهبهم أن يتذوقوا ملكوت الله في داخلهم ويحيوا فيه، محتملين آلام الجسد والضيقات والأحزان في العالم على رجاء الميراث الأبدي الذي يتذوقون عربونه الآن.

هذا وقد **ارتفع بهم أيضًا في نظرتهم نحو المعجزة.** إنه لم ينفِ المعجزة بل بالعكس أكدها، وجاء بالكثير منها، ووهب تلاميذه أن تتم باسم يسوع معجزات على أياديهم.

ليعطنا الرب فهمًا لندرك مفهوم المعجزة وموقفنا نحن منها.

أن نتلمس فيها محبة الله

لم تعد نظرتنا للمعجزة مجرد عمل خارق للطبيعة، ولكنها لمسة من لمسات محبة الله لنا، فلم يعد لنا أن نقول: "ليشفني الرب حتى أؤمن به" أو "ليصنع الله كذا وكذا كخارق للقوانين حتى يؤمن الناس به". إنما صرنا نرى في معجزات ربنا يسوع أنها علامة حبه لنا.

لم يصنع ربنا يسوع في يوم من الأيام معجزة ليلتف الناس حوله، بل لكي يتراءف على متألم أو حزين، أو ليكشف لإنسان بصيرته الداخلية، أو يعطيه فرصة للتوبة والرجوع.

لقد كان يتعمد أحيانًا أن يشفي في يوم سبت، حتى يعطي الشكليين والحرفيين في العبادة فرصة للتساؤل والإدراك أنه رب السبت. ليعرفوه أنه مخلص نفوسهم، وليحررهم من الشكلية والحرفية القاتلة.

وكان يقف أمام مريم ومرثا باكيًا ليشاركهما في حزنهما، وفي نفس الوقت يرتفع بقلبيهما إلى أنه هو القيامة والحياة من آمن به ولو مات فسيحيا.

وأحيانًا يحجم عن المعجزة إلى حين كما حدث مع المرأة الكنعانية ليعلن في حب من هما أمام الجميع أن إيمانها فاق إيمان الكل (مت ١٥: ٢٢ الخ).

ليت الله يعطينا فهمًا ألا ننشغل بالمعجزة في ذاتها، بل نتلمس أعماق مقاصد الله، لئلا تصير هذه المعجزات شاهدًا علينا في ذلك اليوم الرهيب!

هذا ما نلحظه في كتابات **القديس أغسطينوس**، كما في غيره من الآباء القديسين، في دراساتهم وتأملاتهم للمعجزات التي صنعها ربنا يسوع أو تلاميذه باسم الرب يسوع. إنهم يقفون متعجبين من حب الله للبشرية كما لهم شخصيًا.

لننظر إلى معجزة المعجزات

إن كنا في كل معجزة حقيقية صادرة من ربنا يسوع وباسم السيد المسيح نتلمس محبة الله، فما أظن أن هناك معجزة يمكننا أن نتلمس أعماق حبه قدر تلك التي وجه الكتاب المقدس أنظارنا إليها، فيقول إشعياء النبي: "ولكن يعطيكم السيد نفسه آية. ها العذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانوئيل" (إش ٧:١٤). "لأنه يولد لنا ولد، ونُعطَى ابنا، وتكون الرياسة على كتفه، ويُدعَى اسمه عجيبًا مشيرًا إلهًا قديرًا أبًا أبديًا رئيس السلام" (إش ٩:٦).

هذه هي معجزة المعجزات، أن الكلمة، الابن الوحيد الجنس، الخالق، يتجسد من أجلنا، مشابهًا إيانا في كل شيءٍ ماعدا الخطية. وفي دائرة إخلائه، يقبل في طاعة كاملة موت الصليب.

هذا هو العجب أن كلمة الله يرى النفس البشرية غارقة في زناها فينزل إليها، رغم وجوده في كل مكان. ينزل إلى مكان سكرها، الأرض التي نجستها بأفعالها، ويشابهها في كل شيء – ماعدا الخطية – بتأنسه حتى لا ترتعب منه ولا تخافه، بل تقبل أن يخطبها له عروسًا ويحتضنها ويقدسها ويطهرها بدمه كعذراء عفيفة له، ويوجدها معه لتصعد إلى حيث أمجاده.

هذه هي المعجزة التي تفتن عيني العروس وتسحر قلبها. تراه في أعماق حبه صاعدًا إلى الصليب ليجذبها إليه. "وأنا إن ارتفعتُ عن الأرض، أجذب إليَّ الجميع، قال هذا مشيرًا إلى أية ميتة كانت مزمعًا أن يموت" (يو ١٢:٣٢-٣٣).

هذه هي الآية التي أراد ربنا يسوع ولازال يريد أن يوجه أنظارنا إليها لأجل خلاص نفوسنا وحياتنا وشركتنا معه إلى الابد. لذلك عندما تحجرت أعين البعض كجسديين لا يريدون إلا إلى مجرد التمتع برؤية بعض آيات ومعجزات خارقة للطبيعة، لا ليتنفعوا بها أو يتلمسوا حب الله لهم فيها، رفض ربنا يسوع ذلك، قائلاً: "لماذا يطلب هذا الجيل آية؟ الحق أقول لكم **لن يعطى هذا الجيل آية**..." (مر ٨:١٢). مرة أخري يقول: "انقضوا هذا الهيكل، وفي ثلاثة أيام أقيمه... وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده" (يو ٢:٢١). كذلك يوبخهم قائلاً: "جيل شرير وفاسق يطلب آية، ولا تُعطَى له آية إلا آية يونان النبي. لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلثة أيام وثلاث ليال، هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلثة أيام وثلاث ليال" (مت ١٢:٣٩-٤٠).

عزيزي... لتسمُ بفكرك متلامسًا مع الحب الإلهي الذي دفع به إلى الموت، فالقبر، فالقيامة... هذه هي الآية الأولي أنه قادر أن يقيمك من ضعفك، ويفتح عيني بصيرتك، ويُكَرِّس حواسك وأعضاءك، ويغير أنظارك وأهدافك، ويعطيك إمكانية أن تحيا في السماويات وأنت بعد على الأرض!

هذا الحب الإلهي، خلق من اللص قاطنًا الفردوس، ومن الأشرار قديسين، ومن الزناة بتوليين، ومن قساة القلب مبشرين بالحب.

مرة أخري يؤكد الكتاب المقدس أن التلاميذ انجذبوا إلى ربنا يسوع بحبه وترفقه وشخصه وليس بمجرد صنعه للمعجزات، فعندما دعى كل منهم إلى التلمذة لم يصنع أمامه معجزات بل بكلمة... بسلطان دعاهم. أية معجزة صنعها ربنا يسوع حتى جذب زكا والسامرية ومريم المجدلية وغيرهم، إلا الحب والترفق نحوهم!

لقد شهد الكتاب أن البعض آمنوا لما شاهدوا معجزات للسيد المسيح، هؤلاء أدركوا هدف رب المجد من عمل معجزاته، وهو السمو بهم إلى الروحيات، حتى يدركوا بكيانهم الروحي لاهوته وخلاصه الذي يقصد به ارتفاعنا فوق الأرضيات. وآخرون أغلقوا على أنفسهم إلا يقبلوه ويتلامسوا مع حبه، فصارت معجزاته بالنسبة لهم موضوع تجديف وتشكيك، فزادت دينونتهم.

لا تتعلق بالأرضيات في المعجزة

رب المجد يسوع الذي خلق الإنسان، جسده وروحه، يهتم بأمورنا الجسدية والروحية. يتألم لآلامنا الجسدية والروحية، لكنه في كل مرة يؤكد لنا أنه يلزمنا ألا نهتم بالأرضيات الفانيات، بل بالباقيات الأبديات.

عندما يصنع ربنا يسوع معجزة يريد أن ينزع آلامًا جسدية وآلامًا روحية أيضًا، فإن تحجَّرتْ إرادة الإنسان عند قبول الشفاء الجسدي، ورفض الشفاء الروحي، صارت المعجزة له خسارة عظمى ووزنة يُعاقب عليها في حينه.

فبعد معجزة إشباع الجموع التفَ الشعب حول السيد المسيح، لا للإيمان به والتوبة والرجوع عن خطاياهم، بل لأنه يشبع أجسادهم. لهذا وبَّخهم الرب قائلاً: "الحق الحق أقول لكم أنتم تطلبونني، ليس لأنكم رأيتم آيات، بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم. اعملوا لا للطعام البائد، بل للطعام الباقي للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابن الإنسان، لأن هذا الله الآب قد ختمه" (يو ٦:٢٦-٢٧).

وقبيل إقامة لعازر وجَّه أنظار مرثا إلى إقامة نفسها من موت الخطية. "أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي ولو مات فسيحيا. وكل من كان حيًا وآمن بي، فلن يموت إلى الأبد، أتؤمنين بهذا؟" (يو ١١:٢٥-٢٦)

وعندما طهَّر العشرة برص لم يرجع إليه إلا واحد تلاقى مع محبته وجاء يشكره، أما التسعة فقد شغلتهم العطية عن العاطي، وفرحوا بهدايا العريس عن العريس ذاته، لهذا بدأ يتساءل في ألمٍ من نحوهم: "أليس العشرة قد طهروا فأين التسعة... ثم قال له (للواحد) قم وامضِ، إيمانك خلصك" (لو ١٧:١٧، ١٩).

هكذا تشهد معجزات ربنا يسوع أنه كان يود أن يصل بالمعجزة إلى شفاء النفس وحياتها!

ليعطنا الرب ألا ننشغل بالمعجزات في ذاتها، ولا تلهينا العطية عن العاطي!

حول نزول الزيت من أجساد البعض ومن صور القديسين

رأينا أن الكتاب المقدس يشهد بأن الله صانع معجزات ويهب بعض أولاده سلطانًا لتتم على أياديهم آيات وعجائب، وقد رأينا ما هو مفهوم المعجزة وما هو هدفها، وفي نفس الوقت يحذرنا الرب قائلاً: "لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة يعطون آيات عظيمة وعجائب" (مت ٢٤:٢٤). لا هدف لها إلا إبهار الناس وتضليلهم. والآن نتساءل

ما هو موقف الكنيسة أو الكتاب المقدس من تلك الآيات التي انتشرت بصورة واضحة في بلاد كثيرة مثل السيدة التي تقول بأن زيتًا يخرج من جبهتها يشفي كل من يُدهَن به. وشاب منذ سنوات ظهر في شبرا ادَّعى أنه يرى قديسين وفي كل مكان يحل فيه يجدون على الحوائط صلبان مرسومة بل وصورة ربنا يسوع مكتوب حولها أنه مخلص العالم، وعلي النجف يجدون اثني عشر شمعة وبجواره قربانًا في داخله شمع... هذه الأشياء (الأخيرة) رأيتها بعيني. وأيضًا في الأقصر وجرجا ظهرتْ الصور التي بالمنازل تسكب زيتًا، وقد دهن بها كثيرون وشُفي البعض منهم. بل وكثير من أهالي الأقصر أخذوا صورًا كثيرة إلى هذا البيت، فصارت تسكب زيتًا، فعادوا بها إلى بيوتهم.

ليعطنا الرب حكمة وتمييزًا، حتى لا نقول عن الخير شرًا ولا عن الشر خيرًا. وليعطك الرب فهمًا حتى تدرك ما هو من الرب وما هو من الشيطان.

وأما عن "زيت صورة العذراء بالأقصر" أريد أن أخذ الاحتماليْن الاحتمال الأول هو أن الزيت فعلاً من العذراء مريم والاحتمال الثاني إنه ليس سوى خداع من الشيطان.

لنفرض أنه من السيدة العذراء والدة الإله. في الحقيقة إن السيدة العذراء لا تريد هي أو ابنها الحبيب يسوع مجرد إعلانات وتجمعات ومناقشات في كل بيت حول الزيت، لأن الله يريد – وكذلك أولاده – أن الجميع يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون. لهذا فإنه حتى في المعجزات التي تتم على أيدي القديسين يلزمنا أن نهتم لا بالمعجزة في ذاتها، بل لتكن مجالاً لتمجيد الله وللتوبة والرجوع والاعتراف والتناول الخ. ليتنا نسأل أنفسنا كم نفس وصلت إلى ربنا يسوع أو تعمقت في الشركة معه من أولئك الذين ينشغلون كثيرا بهذه المعجزة؟

والسؤال التالي ماذا يحدث لو أننا رفضنا الزيت وهو من العذراء الطاهرة مريم؟ أقول – بل تقول الكنيسة – إننا في إيماننا الأرثوذكسي لا نقدر أن ننكر حب العذراء مريم لإخوتها الأصاغر المجاهدين هنا. وأنها تشفع وتصلي من أجل ضعفنا أمام ابنها ليغفر لنا خطايانا. كما تطلب أيضًا أحيانا من أجل احتياجاتنا الجسدية والنفسية. ومن يقدر أن ينكر فاعلية صلواتها أمام ابنها من أجل كثيرين نالوا بركات روحية وسماوية بصلواتها! إن معجزاتها تملأ المسكونة، ولا يخلو بيت من أن يذكر عملا من أعمالها أو أعمال القديسين الآخرين بقوة الرب.

لكن إن رفضنا هذا الزيت، فنحن لا نرفض شفاعتها ولا ننكر قوة صلواتها، فلا تغضب هي ولا ابنها.

أما من جهة احتمال أنه من خداع الشيطان... فليعطنا الرب أن نتبصر:

أ. إن الصورة وبقية الصور لم تكرس بزيت الميرون. وكان الأولى من كل الصور التي في القاهرة أو الأقصر أو جرجا أن تكون تلك التي الأيقونات التي في الكنائس لا التي في البيوت.

ب. لسنا ننكر أن كثيرين صلوا للرب أمام صور قديسين طالبين شفاعتهم. والرب أعطاهم شفاء ولكن دون أن ينزل زيت لأن في نزول الزيت تشويه لزيت سر مسحة المرضي الذي يحل فيه الروح القدس بصلاة الكاهن ويهب فاعلية الشفاء الروحي والجسدي، كقول يعقوب الرسول: "أمريض أحد بينكم، فليدعُ قسوس الكنيسة، فيصلوا عليه ويدهونه بزيت باسم الرب، وصلاة الإيمان تَشفي المريض، والرب يقيمه، وإن كان قد فعل خطية تُغفَر له" (يع ٥:١٤-١٥).

لقد تشفعت العذراء في عرس قانا الجليل والرب نفذ طلبتها ولازالت تشفع والرب يستجيب. لكنه لم يعطها رغم كونها أقدس من جميع الرسل أن تدهن أحدًا زيتًا كالتلاميذ والرسل فكيف يأخذ النساء الزيت من الصورة أو من جباههن، كما يحدث في الآيات الأخرى، ليدهنَ المرضي!

ج. يطالب أصحاب هذه الصور بخلع الأحذية عند دخول الحجرة التي بها الصورة، وهنا تحدث بلبة وخطأ بين الهيكل وأي مكان آخر.

د. قالت العائلة التي بالأقصر- مع محبتي لهم - إن الصورة سكبت يومًا ما حوالي كيلو ونصف ماء ورد... لماذا؟ وما مدلوله؟

هـ. رأيت الصلبان المرسومة وإذ بها غير منتظمة الشكل... مع أن الله خالق الكون ومنظم الكل!

و. أما من جهة الذين شفوا... فإنني لا أقدر أن أنكر لأني سمعت وتأكدت، ولكن هؤلاء قبلوا بإيمان وبساطة أنه "زيت العذراء"، وبإيمانهم شفوا. وهذا ليس بعجيب إذ يذكر لنا بستان الرهبان عن اللص الذي لبس زي الرهبان ودخل دير الراهبات ليلاً على أنه الأنبا دانيال قس البرية، فجاءتْ الأم والأخوات بماء وغسلنَ رجليه، وكن يغسلن وجوههن من هذا الماء، وكانت بينهن بنت عذراء عمياء من بطن أمها، أحضرن إياها له، لكي يصلي على عينيها، أما هو فقال لهن: "قدمن لها فضلة الماء الذي في اللقان" استهزاءً بالماء واستصغارًا لعقولهن. فلما أخذت الأخت الماء ورشمت عليه باسم المسيح، قائلة: "بصلاة

القديس أنبا دانيال"، للوقت انفتحت عيناها وذلك الإنسان ينظر فأخذ يبكي تائبًا. والتقي بالأنبا دانيال معتذرًا باكيًا على خطاياه.

وقد تقول أن توجد علامات صليب مرسومة بالزيت على الحائط. فأقول إن ربنا يسوع يهمه أن يُصلَبَ في قلوبنا، هذا وأن الشيطان يقدر أن يتشبه بملاك نور بل وقد ظهر لأحد الرهبان على أنه المسيح.

فنحن في هذه الحياة نؤمن، ولا نطلب عيانًا، وإلا أفقدنا الإيمان جوهره. نحن لا نريد أن نرى ربنا يسوع أو أحد قديسيه عيانًا ولا نطلب رؤى، إلا إذا أراد الرب لنفعٍ خاصٍ يمس خلاص نفوسنا. إذ يذكر لنا **القديس بلاديوس**:

[قيل عن أحد الآباء أن الشيطان تراءى له في شبه ملاك نوراني، وقال له: "أنا غبريال قد أُرسلت إليك". أجاب الشيخ: "لعلك أُرسلت إلى غيري، وأما أنا فخاطي".]

[ظهر الشيطان لشيخٍ، قائلاً: "أنا هو المسيح". فأغمض الشيخ عينيه. فقال للشيخ: "أنا المسيح، وتغمض عينيك مني؟" فأجابه الشيخ، قائلاً: "لا أريد أن أبصر المسيح ههنا".]

[قال أحد الشيوخ: "حتى ولو ظهر لك ملاك حقيقي، فلا تقبله، بل حقر ذاتك، قائلاً: "أنا عايش بالخطايا، فلا أستحق أن أنظر ملاكًا".]

يقول **القديس أغسطينوس**:

[لا تعودوا بعد إلى التفكير في الله بوجه جسدي بل بوجه قلبي فقط. اغصبوا قلوبكم على التفكير في الأمور الإلهية. انزعوا عنكم الأمور شبه الجسدية، ولا تدعوها تشغل تفكيركم... فإن كان الرسول يقول بأنه أُختطف إلى الفردوس، وسمع كلمات لا يُنطق بها (٢ كو ١٢:٤)، فكم بالأكثر يكون ذاك الذي كلماته لا يُنطق بها!

إذًا فلتبحثوا بأي وجه تستطيعون رؤية الله... ليلقي الطفل دميته، وليتعلم كيف يتمسك بأمورٍ أعظم، فإننا كثيرا ما نكون أطفالاً. ولكن يلزمنا أن نسمو عما نحن عليه. "اتبعوا السلام مع الجميع، والقداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب" (عب ١٢:١٤).

لأن بهذا يتنقى القلب وفيه يكمن الإيمان العامل بالمحبة، ومن ثم "طوبى لأنقياء القلب، لأنهم يعاينون الله" (مت ٥: ٨).]

هل تصنع الشياطين خيرًا؟

إن كان عن طريق هذه الآيات يُشفَى كثيرون. ومنهم من رأيت في بيته رسمًا بالزيت بصورة السيد المسيح، وقد كُتِبَ حولها: "أنا مخلص العالم"، فهل تريد الشياطين أن تصنع خيرًا؟

لا يكف الشيطان عن أن يصنع أي شيء لكي نثق فيه، وبعد ذلك يضللنا. لقد شهد صارخًا عن الرب يسوع: "أنت قدوس الله" (مر ١: ٢٤)، لكن الرب أبكمه وأخرجه، حتى لا يثق الناس فيه.

وكان يظهر لبعض الرهبان في شكل ملائكة يحثهم على حضور الاجتماعات في الكنيسة، لكن خداعاته كانت واضحة.

بل وجاء في سفر أعمال الرسل عن العرّافة التي بها شيطان "هذه اتبعت بولس وإيانا وصرخت قائلة هؤلاء الناس هم عبيد الله الذين ينادون لكم بطريق الخلاص. وكانت تفعل هذا أيامًا كثيرة. فضجر بولس والتفت إلى الروح وقال، أنا آمرك باسم يسوع المسيح أن تخرج منها، فخرج في تلك الساعة " (أع ١٦:١٧-١٨).

ليكن لك يا عزيزي إيمان أن تتلامس مع ربنا يسوع داخليًا، طالبًا التمتع بالحياة الأبدية، وأن يشفي نفسك أولاً، وأن يعمل إرادته في احتياجاتك الروحية كما الجسدية، طالبًا صلوات الآباء القديسين الذين دخلوا الفردوس وصلوات الكنيسة المجاهدة – رعاة ورعية – لكن لا تربط إيمانك بمعجزة مادية تتلمسها بالحواس. وإن سمح الرب بمعجزة فمجده من أجل محبته وترفقه، ولتكن هذه المعجزة باعثًا لتوبتك وتوبة من هم حولك، وليس لمجرد التفاف جسدي حولَ المعجزة ذاتها.

أخيرًا، أريد أن أقول بأن قداسة الإنسان أو البيت الذي تتم فيه المعجزات لا تعني تأكيدًا أنها من قبل الرب. لأنه حيثما وجدت العبادة ازدادت الحرب، وحاول الشيطان بكل حيلة أن يخدع. ليعطنا الرب فهمًا!

من كلمات القديس يوحنا الذهبي الفم عن المعجزة

- لقد كان التلاميذ أبلغ استقصاء في إيمانهم، لأنهم لم يتقدموا إلى المسيح بسبب آياته فقط، لكنهم تبادروا إليه بسبب تعليمه، لأن الآيات جذبت الذين كانوا أكثف عقولاً من غيرهم، إذ **أن جميع الذين اقتنصهم تعليمه كانوا أثبت عزمًا من الذين اجتذبتهم آياته**. ويدعوهم المسيح "مطوبين"، قائلاً: "طوبى للذين آمنوا ولم يروا" (يو ٢٠: ٢٩)[1].

[1] *Homilies on St. John, Hom. 24:1.*

❖ كما أكرر كثيرًا، أن الجسدانيين ينقادون لا بالتعاليم ولا بالكرازة وإنما بالمعجزات[1].

❖ إن أردت أن تصنع معجزات أيضًا عليك أن تتخلَّص من المعاصي بهذا تحقّق المعجزات تمامًا[2].

❖ مرة أخرى انظروا كيف أنه أبكمهم، لا بالمعجزات، وإنما بالناموس والأنبياء، وكيف أننا نجده دائمًا يفعل هذا. ومع هذا ربما صنع آيات أيضًا، لكنها لم تكن عندئذ موضوع إيمان. بالحقيقة هذا عينه هو آية عظيمة: حواره معهم من الناموس والأنبياء[3].

الآن نترك **القديس يوحنا الذهبي الفم** يكشف لنا قدر الإمكان ما هي حكمة الرب ومقاصده في كل تصرُّف وكل كلمة وكل عمل في معجزتي المفلوجيْن.

الإسكندرية في أبريل ١٩٦٦

القس تادرس يعقوب ملطي

---

[1] *Homilies on St. John 50: 2.*
[2] *In Matt. hom 32:11.*
[3] *Homilies on Acts, hom. 55.*

المفلوج يُعلِّمنا عدم التذمر

بين الغنَى المادي والغِنَى الروحي

في حديثنا عن موضوع المفلوج المُلقَى على سريره بجوار البِرْكَةِ (يو ٥)، نكتشف كنزًا وفيرًا وعظيمًا. لا بالحفر في الأرض، بل بالتعمُّق في داخل القلب. نجد كنزًا، لا من الفضة أو الذهب أو الحجارة الكريمة، بل من الاحتمال والحكمة والصبر والرجاء العظيم في الله. الأمور التي تفوق كل صنوف اللآلئ ومصادر الغِنَى.

فمادة الغنى يمكن أن يسلبها اللصوص، وتكون موضع حيل المحتالين الأشرار ودناءة الخدم... بل وتُسَبِّب عواصف من المتاعب لا حصر لها. أما الغِنَى الروحي، فليس فيه مجال للتعرض لمثل هذه المساوئ، بل يسمو على كل فساد من هذا النوع، ويضحك مستهزئًا باللصوص وسراق المنازل والقتلة والمحتالين الأشرار بالموت ذاته.

الغنى (الروحي) لا يُعَرِّض صاحبه للموت بل يعطيه صونًا منه، فيرحل معه في رحلته إلى العالم الآخر... ويصير مدافعًا عجيبًا عنه، يحنن قلب القاضي عليه.

مريض عجيب غير متذمر!

لنتأمل في الإله الرحيم. ونتطلع متفرسين في عبده المريض هذا الذي له ثمانية وثلاثون عامًا يناضل مع ضعف يُستعصى شفاؤه... ومع ذلك لم يتذمر قط، ولا تفوَّه بكلمة تجديف. لم يتهم خالقه، بل في شجاعة ووداعة عظيمة جدًا احتمل كارثته.

قد تقول: ومن أين يظهر ذلك، لأن الكتاب المقدس لم يذكر لنا شيئًا بوضوح في حياته الأولى، وكل ما قاله عنه أن له ثمانية وثلاثين عامًا في ضعفه؟

إنه لم يذكر كلمة تؤكد أنه لم يُظهِر تذمرًا أو غضبًا أو حدة، ومع ذلك فمن يمعن النظر جيدًا في الكتاب المقدس يجده قد أوضح هذا...

عندما اقترب منه السيد المسيح الذي كان بالنسبة له غريبًا، ونظر إليه كإنسانٍ عاديٍ، تحدث معه بوداعة عظيمة، منها تدرك مقدار حكمته السابقة (قبل المرض). لأنه عندما قال له الرب يسوع: "أتريد أن تبرأ؟" لم يجبه بهذه الإجابة الطبيعية: "ها أنت تراني هكذا مُلقَى منذ أمد طويل بمرض الفالج، ومع هذا تسألني إن كنت أريد أن أبرا؟ هل أتيت لكي تزيد من كارثتي وتوبخني وتضحك عليَّ وتحتقرني، مستخفًا بمصيبتي؟"

إنه لم يقل شيئًا من هذا، ولا فكر بهذا، بل بوداعة أجاب: "نعم يا سيد"[1].

إن كان له هذه الوداعة وذلك النبل بعد ثمانية وثلاثين عامًا إنهار فيها نشاطه وقوته التي لقدراته النبيلة، فتأمل كم كانت وداعته وكم كان نبله قبل ان تحل به هذه الآلام؟! إنه بالتأكيد لا يكون رضا المرضى في بداية مرضهم مثله بعد ما يطول بهم المرض... بل يزدادون انفعالاً. فإن كان لهذا المريض هذه الحكمة، ويجيب بصبرٍ عظيمٍ هكذا بعد مرضٍ طال سنوات هذا عددها، بالتأكيد كان قبلاً يحتمل التجربة بشكرٍ عظيمٍ.

فلنقتدِ بصبر هذا العبد زميلنا، لأن الفالج المُصاب به يكفي لإنعاش روحنا. لأنه من يلاحظ عظم هذه الكارثة... ويبقى في جسده منبطحًا على ظهره؟ أما يحتمل بشجاعة كل ما يحيق به من شرورٍ ولو كان أثقل بكثير مما نعرفه؟

لقد صار هذا المفلوج لنا فيه نفع عظيم، لا في صحة جسده، بل وفي مرضه. فشفاؤه يبعث في أرواح المستمعين أن تمجد الله، أما مرضه وضعفه فيشجعانك على الاحتمال، ويحثانك على الإقتداء بغيرته، إذ بالحري يكشفان لك عن حب الله.

يسمح الله بامتحان البشر بالضيقات حتى يتنقوا!

شفاء هذا الرجل من مثل هذا المرض بعد ما كل هذا الزمان، إنما هو إحدي علامات العناية (الإلهية) العظيمة لأجل نفعه...

كما يُلقِي مُمَحِّص الذهب بقطعة الذهب في الفرن لتحتمل النار إلى حين حتى يراها قد تنقت، هكذا يسمح الله بامتحان البشر بالضيقات حتى يتنقوا ويحصلوا على نفعٍ عظيمٍ من عملية الغربلة. وهذا من أعظم المنافع التي ننالها. فليتنا لا نضطرب ولا نيأس عندما تحل بنا التجارب. لأنه كما أن مُمَحِّص الذهب يعلم الزمن الذي ينبغي أن يُترَك فيه الذهب في الفرن، فيخرجه في الوقت المُعَيَّن، ولا يتركه بعد في النار حتى لا يفسد ولا يحترق، هكذا كم بالأكثر يعلم الله ذلك، عندما يرانا قد تنقينا بالأكثر، يعتقنا من تجاربنا حتى لا نُطرح ونُطرد بسبب تزايد شرورنا.

عندما يحل بنا أمر ما لم نكن نتوقعه، لا نتذمر ولا تخُرْ قلوبنا، بل نتحمل ما يسمح به الله الذي يعرف هذه الأمور بدقة، حتى يمتحن قلوبنا بالنار كيفما يُسَر، إذ يفعل هذا بهدفٍ

[1] هذا لم ينطق به حرفيًا، إنما كما تصوره القديس يوحنا الذهبي الفم من واقع إجابة الرجل لرب المجد يسوع.

نافعٍ، وبقصد فائدة المُجَرَّبين، لذلك يوصينا الحكيم قائلاً بأن نخضع الله في كل الأمور، لأنه يعرف تمامًا متى يُخرجنا من فرن الشر (حكمة يشوع ٢: ٥).

لنخضع لله طبيب نفوسنا!

لنخضع له على الدوام، ونشكره باستمرار، محتملين كل شيءٍ برضا، سواء عندما يمنحنا بركات أو يقدم لنا تأديبات. لأن هذه الأخيرة هي نوع من أنواع البركات.

فالطبيب ليس فقط عندما يسمح لنا بالاستحمام (في الحمامات) أو الذهاب إلى الحدائق المبهجة هو طبيب، بل وأيضًا عندما يستخدم المبضع (المشرط) والسكين!

والأب ليس فقط عندما يلاطف ابنه هو أب، بل وعندما يؤدبه ويعاقبه...!

وإذ نعلم أن الله أكثر حنوًا من كل الأطباء، فليس لنا أن نستقصي عن معاملته، ولا أن نطلب منه حسابًا عنها، بل ما يحسن في عينيه يفعله، فلا نُمَيِّز إن كان يعتقنا من التجربة أو يؤدبنا، لأنه بكلا الطريقيْن يود ردنا إلى الصحة، ويجعلنا شركاء معه، وهو يعلم احتياجاتنا المختلفة، وما يناسب كل واحد منا وكيف، وبأية طريقة يلزمنا أن نخلص، وخلال هذا الطريق يقودنا.

لنتبعه حيثما يأمرنا، ولا نفكر كثيرًا إن كان يأمرنا أن نسلك طريقًا سهلاً وممهدًا، أو طريقًا صعبًا وعرًا كما في حالة المفلوج.

الله يعين أثناء التجربة

عندما كانت نفس المفلوج تعاني لفترة طويلة من الأتعاب، فإن إحدى منافعها الحقيقية هي تسليم نفسه للتجربة المتقدة المحزنة كأحد أنواع الأفران، وأما المنفعة الأخرى التي لا تقل عن هذا فهي أن **الله كان حاضرًا مع المفلوج في وسط بلاياه مُقدِّمًا له عزاءً عظيمًا**.

الله هو الذي قواه وسنده وأمسك بيده حتى لا يسقط، فإننا إن كنا حكماء بلا حدود، حتى وإن كنا قادرين وأقوياء أكثر من كل البشر، لكن في غياب النعمة الإلهية لا نقدر أن نقف حتى أمام التجارب العادية جدًا.

ولماذا أتكلم بخصوص من هم كلا شيء (في مستواهم الروحي) مثلنا، لأنه حتى بولس أو بطرس أو يعقوب أو يوحنا، لو نُزِعَتْ العناية الإلهية عن أحدهم لسقط للحال في العار، وطُرِح مستلقيًا أرضًا.

أمثلة: عن هؤلاء أقرأ لك كلمات المسيح نفسه. إذ يقول لبطرس: "هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة. ولكني طَلَبتُ من أجلك لكي لا يفنى إيمانك" (لو ٢٢: ٣١-٣٢).

ماذا يعني بقوله "يغربلكم"؟ أي يدور بكم ويثنيكم ويثيركم ويحطمكم ويقلقكم، الأمور التي تحدث أثناء الغربلة. يقول الرب: لكنني أصده، عارفًا بعجزك عن احتمال التجربة، لأن قوله: "لكي لا يفنى إيمانك"، ينطق بها ذاك الذي يعني أنه لو سمح بها لهلك إيمانه.

فإن كان بطرس، الذي كان هكذا غيورًا في حبه للرب، مُقَدِّمًا حياته عنه مرات كثيرة، نائلاً رتبة الرسولية، ودعاه سيده "مُطَوَّبًا"، ولقَّبَه "بطرس" لحفظه إيمانًا ثابتًا قويًا وتمسكه به، بطرس هذا كان يمكن أن يهلك وتُنزَع عنه وظيفته لو سمح المسيح للشيطان أن يُجَرِّبَه بالقدر الذي كان الشيطان يريده. فمن يقدر أن يثبت بدون معونة المسيح؟

لذلك يقول القديس بولس الرسول أيضًا: "ولكن الله أمين الذي لا يدعكم تُجَرَّبون فوق ما تستطيعون، بل سيجعل مع التجربة أيضًا المنفذ" (١ كو ١٠: ١٣). إن الله لا يسمح فقط بالتجربة فوق طاقتنا، بل وحتى لتلك التي هي قدر طاقتنا فإنه يحملها معنا ويسندنا، **فقط إن كنا من جانبنا نعمل قدر استطاعتنا، مظهرين الغيرة والرجاء في الله والشكر والاحتمال والصبر.**

فليس فقط في التجارب التي هي فوق استطاعتنا، بل وتلك التي هي في قدرتنا، نحتاج إلى العون الإلهي، إن كنا ثابتين بشجاعة، فقد قيل في موضع آخر إنه كلما كثرت آلام المسيح فينا، نعزي الذين هم في أية ضيقة بالتعزية التي فينا من الله (كو ١:٥، ٤).

هكذا إذًا الذي عزَّى المفلوج، هو نفسه الذي سمح له بالتجربة أن تحدق به.

يسوع يهتم بنا!

انظر بعد شفائه، أي حنو قدَّمه المسيح له. لأنه لم يتركه ولا تخلَّى عنه بعد الشفاء، بل إذ وجده في الهيكل، قال له: "ها أنت قد برئتَ فلا تخطئ أيضًا لئلا يكون لك أشر" (يو ٥: ١٤).

فلو أن الرب يسوع كان قد سمح له بالتأديب، لأنه يكرهه ما كان قد أبرأه، ولما كان قد دبَّر له سلامه المقبل قائلاً له: "لئلا يكون لك أشر". إنما نطق بهذا ذاك الذي يرغب أن يصد عنه شرورًا مقبلة تلحق به. لقد وضع حدًا للمرض. لكنه لم يضع حدًا للصراع (للجهاد).

نزع الضعف لكنه لم ينزع الخوف من الضعف. حتى تبقى الفائدة التي قدَّمها له ثابتة. هذا هو عمل الطبيب طيب القلب، ليس فقط ينزع الآلام الحالية، بل ويحتاط للمستقبل بالوقاية. هذا هو ما صنعه السيد المسيح مشددًا روح المفلوج بتذكيره الأحداث الماضية،

لأنه بنظره أن الأشياء التي تضايقنا قد انتهت، وإن ذكراها ينتهي، يود أن يذكرنا بها دائمًا قائلاً "فلا تخطئ أيضًا لئلا يكون لك أشر".

الله يستر علينا!

علاوة على هذا، فانه يمكننا أن نفطن إلى بُعد تفكيره، لا في هذا الأمر فحسب، بل وفي كون الرب يسوع يظهر كمنتهرٍ. لأنه لم يشهر بخطاياه علنًا، ومع ذلك فقد أخبره أن ما عاناه كان بسبب خطاياه. أما ما هي خطاياه فلم يكشفها الرب يسوع، ولا قال له: "أنت مخطئ" أو "أنت عاصٍ"، بل أشار إلى حقيقة كخاطئ بتعبير واحد بسيط "لا تخطيء أيضًا".

وبقوله هذا مُذَكِّرًا إياه بخطاياه السابقة، ينبهه بالأكثر أن يحتاط في المستقبل. وفي نفس الوقت أعلن لنا جميعًا صبره وشجاعته وحكمته... دون أن يكشف خطاياه عنًا.

فكما نرغب نحن في ستر خطايانا، كذلك يريد الله أن يستر علينا أكثر مما نريد نحن لهذا شَفَى المفلوج علنًا في حضرة الجميع، لكنه قدَّم له النصيحة خفية. فانه لن يفضح خطايانا علنًا، إلا إذا رأى الإنسان مستهترًا لا يشعر بخطاياه.

يوبخ لكنه يحب!

عندما يقول: "لأني جعت فلم تطعموني، عطشت فلم تسقوني" (مت ٢٥:٤٢)، **ينطق بهذا في الوقت الحاضر حتى لا نسمعها في العالم الآتي. إنه يهددنا، إنه يفضحنا في هذا العالم حتى لا يفضحنا في العالم الآخر**. وعندما هدَّد أهل نينوى بهلاك مدينتهم (يونان ١:٢) هدّد لهذا السبب، أي لكي لا يهلكها.

فلو أنه يود التشهير بخطايانا ما كان يهددنا بالتشهير، إنما ينطق بذلك لكي يرتقي بنا، حتى يخفينا من الفضيحة. وإن لم نرتدع يستخدم التخويف بالعقاب، بهذا نتنقى من خطايانا.

هذا أيضًا ما يحدث في حالة العماد، فإن الرب يسوع يقود الإنسان إلى بركة الماء من غير أن يفضح خطايا أي إنسان منا، لكنه يُقَدِّم النعمة علنًا، ويظهرها للجميع...

هذا أيضًا ما قد حدث في حالة هذا المفلوج، فإن الرب يسوع وبَّخه في غير حضرة شهود، بل بالحري إن كلماته لم تكن توبيخًا بل أيضًا تبريرًا. برر الرب يسوع نفس المفلوج... مؤكدًا له أنه حمله هذا الحزن لمدة طويلة ليس بلا سبب أو بلا هدف. فإذ ذكره بخطاياه، أعلن له سبب ضعفه، إذ نقرأ "بعد ذلك وجده الرب يسوع في الهيكل"، قال له... "لا تخطيء أيضًا لئلا يكون لك أشر".

حكمة ربنا يسوع في المعجزتيْن

والآن بعدما استخلصنا نفعًا عظيمًا من جهة المفلوج السابق فلنحول أنظارنا تجاه المفلوج الذي قدَّمه لنا القديس متى (الذي دلوه أربعة من السقف الأصحاح ٩) لأنه عندما يجد إنسان قطعة ذهبية ينقب في نفس المكان أكثر[١]...

بقي لنا أن نعود إلى بداية القصة وننظر كيف شَفَى المسيح الواحد والآخر، فاختلفت الطريقة في حالة عنها في الأخرى.

لماذا شفى واحد يوم السبت والآخر في غير السبت.

لماذا جاء إلى أحدهما بنفسه، بينما انتظر الآخر يحضره أصدقاؤه.

لماذا شفى جسد أحدهما أولاً، بينما شفي روح الثاني أولاً!

لم يصنع شيئًا الرب يسوع اعتباطًا بغير معنى... بل لنصغِ إليه ونلاحظه وهو يهب الشفاء...

---

[١] أثبت القديس يوحنا الذهبي الفم أن المفلوجين ليسا شخصية واحدة، وقد استحسنت عدم ذكر هذه الأدلة منعًا للإطالة.

أولاً: الإيمان والشفاء

تقديم[1]

أبرز لنا ربنا يسوع في شفائه للمفلوج الذي كان في بيت حسدا (يو ٥) عدم تذمره، وفي نفس الوقت علَّمنا أنه ساتر الخطايا، يظهر ما للمفلوج من حسنات بينما ينتهره خفية.

والدرس الثالث الذي يُقَدِّمه لنا، أنه رغم عدم إيمانه لكنه لم يحرمه من الشفاء. فالله الخالق يحب الكل، ويعطي البركات الجسدية بلا حساب، حتى للذين يسيئون إليه. "فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين" (مت ٥:٤٥). لكنه في الشفاء الروحي لا يهبه إلا للمؤمنين به كفادٍ لهم ومخلصٍ لنفوسهم.

شفاء رغم عدم الإيمان!

دعنا نتأمل السيد المسيح وهو يشفي المفلوج "فدخل السفينة واجتاز إلى مدينته، وإذا مفلوج يقدمونه إليه مطروحًا على فراش. فلما رأى يسوع إيمانهم، قال للمفلوج: ثق يا بني مغفورة لك خطاياك" (مت ٩:١-٢).

إنه كان أقل إيمانا من قائد المائة، لكنه أكثر إيمانًا من المفلوج الملقى بجوار البركة، لأن قائد المائة لم يدعُ الطبيب لزيارته، ولا جاء بالمريض إليه، بل تلامس معه كإله قائلاً: "قل كلمة فيبرأ غلامي" (لو ٧:٧).

هؤلاء الرجال (حاملو المفلوج) ما دعوا الطبيب (لزيارة المريض) في البيت، وكانوا أبعد ما يكون عن أن يتساووا مع قائد المائة، إذ أحضروا المريض إلى الطبيب، ولم يقولوا "قل كلمة فقط".

غير أن هؤلاء كانوا أكثر إيمانًا من المريض المُلقَى عند البركة، لأن هذا قال: "يا سيد ليس إنسان يلقيني في البركة متى تحرك الماء" (يو ٥:٦). أما هؤلاء الرجال فعرفوا السيد المسيح أنه ليس بمحتاجٍ إلى ماء أو بركة أو شيء من هذا القبيل.

وقد شَفَى الرب يسوع غلام قائد المائة من مرضه، وكذلك الاثنيْن الآخريْن، ولم يقل لأحدهما: لأنك قدمت درجة قليلة من الإيمان يكون شفاؤك قليلاً، "إنما صرف الرجل الذي

---

[1] من وضع المُعرِّب.

أعلن إيمانا عظيمًا بمديحٍ وكرامةٍ... أما الذي أظهر إيمانًا أقل، فلم يمدحه لكن لم يحرمه من الشفاء. لا بل حتى الذي لم يظهر إيمانًا بالمرة شفاه!

وكما أن الأطباء عندما يعالجون نفس المرض، يأخذون من شخص مئة قطعة من الذهب، ومن آخرين نصف المبلغ، وآخرين لا يأخذون منهم شيئًا بالمرة، هكذا أيضًا المسيح أخذ من قائد المائة إيمانا عظيمًا لا يُنطق به (لو ٧:٩)، والثاني إيمانًا أقل، والثالث لم يأخذ منه حتى الإيمان العادي... لكنه شَفَى الجميع.

لماذا وهب الشفاء لمن لم يقدم إيمانا بالمرة؟ **لأن فشله في إظهار الإيمان، لم يكن عن كسلٍ أو عدم إحساس في الروح، إنما عن جهله بالمسيح وعدم سماعه قط عن أية معجزة صنعها، لا كبيرة ولا صغيرة.**

لهذا السبب نال هذا الرجل ترفقًا. وقد أشار الإنجيلي عن ذلك بطريقة غامضة، بقوله: "فلم يكن يعلم من هو" (يو ٥:١٣). إنما عرفه فقط... عندما أضاء عليه في المرة الثانية.

ثانيًا: الرب يسوع يريد إيمانك أنت

يقول البعض بأن هذا الرجل قد شُفِيَ لمجرد إيمان الحاملين له ولكن هذه ليس الحقيقة لأن القول "فلما رأي يسوع إيمانهم" (مت ٩:٢) لا يشير إلى إيمانهم وحدهم بل وإيمان الذي كانوا يحملونه لماذا؟

تقول: ألم يشفِ أحدًا لأجل إيمان آخر؟

في رأيي ما أظن هذا إلا في حالة عدم نضج السن (القاصر) أو الضعف الشديد لدرجة عدم القدرة على الإيمان.

تقول كيف هذا، فإنه في حالة المرأة الكنعانية، الأم آمنت والابنة شُفِيَتْ. وفي حالة غلام قائد المائة آمن القائد أن الرب يسوع قادر أن يقيم الغلام من فراش المرض، وقد تم ذلك... ذلك لأن المريضيْن في الحالتيْن كانا عاجزيْن عن أن يؤمنا.

أما في الحالة التي أمامنا فلا نقدر أن نقول هذا، لأن المفلوج آمن. كيف يظهر هذا؟

من طريقة اقترابه للسيد المسيح فلا تصغِ بلا اهتمام إلى العبارة القائلة إنهم دلوه من السقف، بل **تأمل كيف أن مريضًا يمكن أن يكون له الثبات على مكابدة إنزاله مدليًا من السقف**. أنت تعلم أن المرضى قلوبهم واهية، حتى أنهم غالبًا ما يرفضون المعاملة التي يلاقونها وهم على أسرة مرضهم، غير راغبين في احتمال آلام العلاج مفضلين احتمال آلام المرض عنها.

أما هذا الرجل فكان له **من العزم أن يخرج من المنزل، ويُحمل وسط السوق، ويصير منظرًا وسط الجماهير. مع أن عادة المرضى أنهم يفضلون الموت عن أن تُفضح مصائبهم الخاصة.**

هذا المريض لم يفعل هذا فحسب، بل وعندما رأى أن مكان الاجتماع مزدحم والمقربين متكتلين، وميناء الأمان مُعاق، خضع لتدليته من السقف.

لم يقل لأصدقائه ما معني هذا؟ لماذا هذا الإزعاج؟ لماذا هذا التعجل؟ لننتظر حتى يفرغ البيت، وينفض الاجتماع، وتنصرف الجموع. فنقترب إليه على إنفراد متداولين في هذه الأمور. لماذا تُعرِضون مصائبي وسط كل المشاهدين، وتدلونني من قمة السقف، سالكين طريقًا شاذًا؟

لم ينطق هذا الرجل بشيءٍ من هذا في فكره ولا على لسانه لحامليه، بل نظر على أنها كرامة في أن يشهد كثيرون شفاءه.

ونحن نتفطن إلى إيمانه لا من هذا فحسب، بل ومن كلمات السيد المسيح أيضًا. لأنه بعدما ألقوا به وقدموه للسيد، قال له: "ثق يا بني مغفورة لك خطاياك". وعندما سمع هذه الكلمة لم يغتظ ولا تذمر، ولا قال للطبيب: "ماذا تقصد بهذه الكلمات؟ إنني أتيت لتشفيني من شيءٍ، وها أنت تشفيني من شيءٍ آخر، هذا عذر وإدعاء وإخفاء للعجز. هل تغفر الخطايا لأنها غير منظورة؟"

إنه لم يفكر في هذا، ولا نطق به، بل انتظر تاركًا للطبيب أن يتبنى طريقة الشفاء التي يريدها.

لهذا السبب أيضًا، **لم يذهب السيد المسيح إليه، بل انتظره حتى يأتي إليه، لكي يعلن إيمانه أمام الجميع**. لأنه، ألم يكن في قدرة الرب يسوع أن يسهل له طريق الدخول إليه؟ لكنه لم يفعل شيئًا من هذا، حتى يعلن غيرة هذا الرجل، واتقاد إيمانه أمام الجميع.

فكما ذهب السيد المسيح إلى الرجل الذي كان يعاني من المرض ثمانية وثلاثين عامًا إذ ليس له إنسان يعينه، هكذا انتظر هذا المريض أن يأتي إليه، لأن له أصدقاء كثيرين حتى يعلن إيمانه.

وهكذا يُعلِّمنا عن وحدة الرجل الآخر (المخلع) بذهابه هو إليه، كاشفًا صبره واحتماله، ويكشف عن غيرة الآخر أمام الجميع خاصة بالنسبة للذين كانوا حاضرين.

ثالثًا: شفاء الروح أولاً!

اعتاد بعض اليهود الحاقدين أن يحسدوا أقرباءهم على البركات التي تُوهب لهم، محاولين إيجاد خطأ يوجهونه ضد السيد المسيح في صنعه للمعجزات. فأحيانًا من جهة الزمن (أنه كاسر للسبت)، وأحيانًا من جهة سلوك من تصنع معهم المعجزة. لو كان هذا نبيًا لعلم من هذه المرأة التي لمسته وما هي (إنها خاطئة)" (لو ٧:٣٩)، غير عارفين أن هذه هي علامة الطبيب أنه يضم الضعفاء، ويراعي المرضى دون أن يجتنبهم، أو يهرب منهم. وهذا ما عبَّر عنه بقوله للمتذمرين: "لا يحتاج الأصحاء إلى طبيبٍ بل المرضى" (مت ٩:١٢).

فلكي يصدهم عن توجيه الاتهامات ضده مرة أخرى، أكد قبل كل شيءٍ أن الذين يأتون إليه ينالون الشفاء بالإيمان، فأعلن انعزال الأول (أي له عذره في عدم إيمانه) وكشف اتقاد إيمان الثاني وغيرته.

كذلك شفى الأول في السبت والثاني في غير السبت، حتى إذا ما اتهموه في المرة الثانية تنكشف نيتهم أنهم لم يتهموه (ككاسر للسبت) من أجل احترامهم لحفظ الشريعة بل لأنهم لم يقدروا أن يضبطوا خبثهم.

ولكن لماذا لم يقدم للمفلوج الشفاء، بل قال له: "ثق يا بني، مغفورة لك خطاياك" (مت ٩:٢).

لقد صنع هذا بحكمةٍ، لأن هذه عادة الأطباء أن ينزعوا أصل المرض قبل أن ينزعوا (أعراض) المرض ذاته. فكمثال عندما تكون العين موعوكة بسبب مرض مفسد، فإن الطبيب قد لا يصنع بالنظر شيئًا، بل يهتم بالرأس الذي عن طريقه أصل الضعف. هذا ما صنعه الرب يسوع، إذ أزال أولاً مصدر الشيء، لأن الخطية هي أصل كل الشرور ومصدرها، هذه التي (قد) تتعب أجسادنا. لهذا قال له: "ثق يا بني مغفورة لك خطاياك"، وفي موضع آخر قال: "ها قد برأت فلا تخطيء أيضًا لئلا يكون لك أشر"، موعزًا إلينا أن هذه الأمراض ينبوعها الخطية...

وقد أكد القديس بولس الرسول هذا عندما وبخ أهل كورنثوس عن خطية معينة، قائلاً: "من أجل هذا فيكم كثيرون ضعفاء ومرضى" (١ كو ١١:٣٠).

لهذا أزال السيد المسيح سبب الشر، وقال: "ثق يا بني مغفورة لك خطاياك". لقد رفع الروح، وأقام النفس المطروحة، لأن قوله هذا كان كافيًا... فلا شيء يخلق السرور ويعيد

الثقة قدر التحرر من العذاب الداخلي (الناجم عن الخطية)، وحيثما توجد مغفرة للخطية توجد البنوة، لذلك لا نقدر أن ندعو الله الأب إلا بعدما تزال خطايانا في بركة الماء المقدس (المعمودية)... فنقول: "أبانا الذي في السماوات".

لكن في حالة الرجل الذي كان له ثمانية وثلاثين عامًا في مرضه، لماذا لم يفعل معه شيء من هذا بل شفى جسده أولاً؟

لأنه لم يحصل بعد على أي درجة عالية من الإيمان بخصوص السيد المسيح (إذ لم يسمع عنه قط)، فقدَّم له احتياجه الأقل، الشيء الواضح والمكشوف، أي صحة جسده، أما الثاني فلم يفعل معه ذلك، إذ له إيمان أعظم وروح ألطف. فحدثه أولاً بخصوص مرضه الأكثر خطورة، هذا مع هدف آخر هو إعلان مساواته للآب.

رابعًا: الكشف عن مساواته للآب

في الحالة السابقة (شفاء مخلع بيت حسدا) شفاه يوم سبت، إذ أراد أن يقود الناس بعيدًا عن طريقة اليهود في حفظهم للسبت (حرفيًا)، ولكي ما يهيئ خلال توبيخاتهم مجالاً لتأكيد مساواته للآب. هكذا أيضًا في هذه الحالة... نطق بالكلمات التالية: "ثق يا بني مغفورة لك خطاياك"، ليستخدمها كنقطة بداية وعلة ليؤكد بها مساواته في الدرجة مع الآب.

لماذا لم يناقش السيد المسيح مساواته للآب مباشرة؟

وقد كان يمكن للسيد المسيح أن يناقش هذه الأمور تلقائيًا من غير أن يتهمه أحد بشيءٍ، لكن هذا يختلف عما إذا **هيأ للآخرين مجالاً للحديث حتى ينطق بما يريد في شكل دفاع**. فالطريقة الأولي للبرهنة يكون فيها حجر عثرة للسامعين، أما الطريقة الثانية فإنها تكون أكثر قبولاً وأقل مقاومة، لهذا يستخدم المسيح هذه الطريقة في كل مكانٍ، **معلمنا مساواته للآب بالأعمال أكثر منها بالكلام.**

هذا ما أكده الإنجيلي عندما قال بأن اليهود أرادوا قتل الرب يسوع، ليس فقط لأنه كسر السبت، بل أيضًا لأنه قال بأن الله هو أبوه (يو ٥:١٦). الأمر العظيم جدًا الذي تبينوه من أعماله.

كيف حاول الحاسدون والأشرار والمتذمرون على الأعمال الحسنة أن يجدوا فرصة للاهتمام في أي جانب؟ لقد قالوا: "لماذا يتكلم هذا بتجاديف؟ من يقدر أن يغفر خطايا إلا الله وحده؟" (مر ٢:٧)

وكما أرادوا قتله لأنه كسر السبت (يو ٥:١٦)، فأوجدوا فرصة من اتهاماتهم للإعلان عن مساواته للآب في شكل دفاعٍ، قائلاً: "أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل" (يو ٥:١٧). هكذا هنا أيضًا باتهاماتهم التي وجهوها ضده يؤكد مساواته التامة للآب، لأنهم ماذا قالوا؟ "من يقدر أن يغفر خطايا إلا الله وحده". وبقدر ما وضعوا هذا التعريف، فإنهم قد وضعوا بأنفسهم مقدمة الحُكْم، معلنين بأنفسهم القانون، إذ جعلهم يرتبكون بواسطة كلماتهم ذاتها. فكأنه يقول لهم: "لقد اعترفتم أن غفران الخطايا من اختصاص الله وحده، إذًا مساواتي له أكيدة لا تحتاج إلى استفسار. "وليس فقط هؤلاء الرجال فحسب، بل والنبي أيضًا أعلن هذا، إذ يقول: "من هو إله مثلك" (ميخا ٧:١٨). وعندئذ يشير إلى ما يخص الله وحده، قائلاً: "غافر الإثم وصافح

عن الذنب". فإن كان آخر يظهر هذا، صانعًا نفس الشيء يكون هو الله أيضًا، مع إنه واحد هو الله.

مغفرة الخطايا وفحص القلوب من اختصاص الله وحده

لكن دعنا نلاحظ كيف باحثهم السيد المسيح بوادعةٍ ولطفٍ وكل حنوٍ. فقد نظر قومًا من الكتبة يفكرون في قلوبهم، قائلين: "لماذا يتكلم هذا بتجاديف" (مر ٢:٦). إنهم لم ينطقوا بكلمة، بل فكروا بها داخل قلوبهم. فأعلن الرب يسوع ما في أفكارهم قبل أن يؤكد شفاءه لجسد المفلوج، راغبًا في البرهنة لهم على قوة لاهوته، لأن هذا من اختصاص الله وحده، إذ يقول الكتاب: "لأنك أنت وحدك قد عرفت قلوب كل بني البشر" (١ مل ٨:٣٩).

تأمل كلمة "وحدك" لا تعني التباين بين الابن والآب. لأنه لو كان الآب وحده الذي يعرف قلوب البشر، فكيف يعلم الابن أفكارهم؟ فقد قيل عنه: "لأنه علم ما كان في الإنسان" (يو ٢:٢٥). والقديس بولس الرسول يؤكد معرفة الأسرار أنها من اختصاصه، قائلاً: "ولكن الذي يفحص القلوب" (رو ٨:٢٧)، مظهرًا أن هذا التعبير "فاحص القلوب" مساو للقب "الله" تمامًا، كأن أقول "الذي يمطر" قاصدًا الله لا غيره، و"الذي يشرق الشمس" بدون أن أضيف إليه كلمة "الله"، مشيرًا إليه بالعمل الذي من اختصاصه وحده. هكذا بولس الرسول عندما يقول: "الذي يفحص القلوب"، يؤكد أن **فحص القلوب هو من اختصاص الله وحده. لأنه لو أن هذا التعبير ليس له نفس قوة الاسم "الله" مشيرًا بذلك إليه، فإنه ما كان يستخدم هذا التعبير أو لا يكتفي به وحده.** فلو كان العمل (السلطان) مشتركًا بين الله وكائنات مخلوقة، لما كنا نعرف عمن يعني الرسول، إذ اشتراك السلطان يسبب ارتباكًا في ذهن السامع.

وبقدر ما ظهر أن هذا من اختصاص الآب، فإن مساواته للآب لا تحتاج إلى نقاشٍ، لذلك نقرأ قوله: "لماذا تفكرون بهذا في قلوبكم. أيما أيسر أن يقال مغفورة لك خطاياك، أم أن يُقال قم احملْ سريرك وامشِ" (مر ٢:٨-٩).

انظر فإنه وضع بذلك برهانًا آخر عن سلطانه لمغفرة الخطايا. لأن مغفرة الخطايا عمل أعظم بكثير من شفاء الجسد، فكما أن الفالج مرض الجسد، هكذا الخطية هي مرض الروح، ولكن بالرغم من أن هذه أعظم لكنها غير ملموسة، أما تلك فرغم قلة أهميتها عن الأولى لكنها واضحة. لذلك استخدم الأقل كبرهان على حدوث الأعظم، مؤكدًا أن هذا صنعه لأجل ضعفهم، ومن باب تنازله لحالهم الضعيف، قائلاً: "أيما أيسر أن يقال قم واحمل سريرك وامش" (مر ٢:٩). فلماذا أصنع الشيء الأقل إلا بسببهم، لأن ما هو واضح يتأكد في صورة

مميزة، لذلك لم يعطِ الرجل القدرة على القيام إلا بعدما قال لهم: "ولكن لكي تعلموا أن لابن الإنسان سلطانًا على الأرض أن يغفر الخطايا (قال للمفلوج) لك أقول قم واحملْ سريرك واذهبْ إلى بيتك" (مر ٢: ١١). وكأنه يقول إن لمغفرة الخطايا أهمية عظيمة، لكن لأجلكم قد أضفت ما هو أقل أيضًا، لكي تكون برهانًا على الأخرى.

فكما أنه في حالة مدحه لقائد المائة القائل: "قل كلمة فيبرأ غلامي، لأني أنا إنسان... أقول لهذا اذهبْ فيذهب ولآخر ائتِ فيأتي" (لو ٧: ٨)، قد أكد فكرة قائد المائة عن طريق مدحه له.

وهكذا عندما وبخ اليهود أو أمسكوا عليه خطأ بخصوص يوم السبت أكد سلطانه على الشريعة، هكذا أيضًا في هذه الحالة (مخلع بيت حسدا) عندما قال البعض: "قال أيضًا إن الله أبوه، معادلاً نفسه بالله" (يو ٥: ١٨). فإنه عن طريق اتهاماتهم أكد لهم بأفعاله أنه لم يجدف، بل أمدنا بشهادة لا نزاع فيها أنه يعمل نفس الأعمال التي يعملها الآب.

خاتمة

الحاجة إلى التعليم الكنسي المستمر

لنتمسك إذًا بهذه الأمور جيدًا، تلك التي تحدثنا عنها بالأمس وأول أمس، ملتمسين من الله أن يثبتها في قلوبنا، ويجعلنا من جانبنا نساهم بالغيرة واللقاء الدائم في هذا المكان (الكنيسة)، لأنه بهذه الطريقة نحافظ على الحقائق التي تحدثنا عنها قبلاً، ونضيف إلى مخازننا أشياء أخري، وإن نسينا شيئًا منه بحكم الزمن، فبالتعليم المستمر يمكن استعادة ما نسيناه بسهولة.

ونحن لا نبقى أصحاء وغير فاسدين بالتعليم وحده، بل وبطريقة الحياة التي نعيش بها يكون لنا نفع... فنقدر أن نعبر الحياة الحاضرة بفرحٍ ومسرةٍ. لأننا عندما نعاني من أي نوع من المتاعب التي تضايق روحنا، فانه إذ نأتي إلى هنا نتخلص منها بسهولة، ناظرين الآن أن الرب يسوع حاضر أيضًا، وأن من يقترب إليه بإيمان يقبل الشفاء منه للحال.

أ. فان افترضنا أن **البعض يعانون من فقرٍ دائمٍ**، ومحتاجون إلى القوت الضروري، وغالبًا ما يذهبون إلى مخادعهم جائعين، فإنه إن جاء هنا وسمع عن القديس بولس الرسول يقول عن نفسه أنه عَبَرَ حياته في جوعٍ وعطشٍ وعريٍ، لا يوم أو يومين أو ثلاثة بل على الدوام هذا على الأقل ما أشار إليه في قوله: "إلى هذه الساعة نجوع ونعطش ونتعرى" (١ كو ٤:١١)، ينال عزاءً وفيرًا، متعلمًا من هذه الكلمات أن الله لم يسمح له بالفقر، لأنه يكرهه أو لأنه تخلَّى عنه. فلو كان ذلك من قبيل الكراهية، لما سمح به لبولس الذي كان من أعزائه الأخصاء، إنما يسمح به من قبيل حنو حبه وعنايته كطريق لقيادته نحو حكمة روحية سامية.

ب. **هل يكتنف أحد جسده مرضًا وآلامًا لا حصر لها؟** فإن حال هذيْن المفلوجيْن ينبوع تعزية واسعة، هذا إلى جانب تلميذ الرسول بولس الطوباوي الشجاع الذي كان يعاني من الأمراض على الدوام من غير أن تتوقف ضعفات جسده، حتى قال له الرسول بولس: "استعمل خمرًا قليلاً من أجل معدتك وأسقامك الكثيرة" (١ تي ٥:٢٣).

ج. أو **هل خضع إنسان لاتهامٍ باطلٍ**، فصارت له سمعة رديئة عند الناس، فصار دائم الانزعاج وروحه متضايقة، فليدخل إلى هذا المكان، ويسمع: "طوبي لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين. افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السماوات" (مت ٥:١١-١٢). عندئذ يلقي بكل قنوطه، ويمتلئ فرحًا، إذ مكتوب:

"إذا... اخرجوا اسمكم كشرير، افرحوا في ذلك اليوم وتهللوا" (لو ٦:٢٢-٢٣) بهذا يريح الله الذين ينطقون عليهم بالشر، بينما يخيف الناطقين بالشر، قائلاً: "إن كل كلمة بطالة يتكلّم بها الناس يعطون عنها حسابًا" (مت ١٢:٣٦).

د. **ربما يكون آخر فقد ابنته الصغيرة أو ابنه أو أحد أقاربه،** هذا أيضًا بمجيئه إلى هنا يستمع إلى القديس بولس الرسول متنهدًا على الحياة الزمنية، مشتاقًا أن يرى الحياة المقبلة، ويراه متضايقًا بكونه نزيلاً في هذا العالم، ويريد أن يرحل، عندئذ سيجد علاجًا كافيًا لحزنه، اذ يسمعه يقول: "ثم لا أريد أن تجهلوا أيها الإخوة من جهة الراقدين. لكي لا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم" (١ تس ٤:١٣). فلا يقول: "من جهة الأموات"، بل "من جهة الراقدين"، مؤكدًا أن الموت هو رقاد.

فكما إننا عندما نرى إنسانا نائمًا لا نضطرب ولا نقلق متوقعين استيقاظه، بالتأكيد هكذا عندما نرى أحدًا ميتًا، لا نضطرب ولا نغتم لهذا، فإنه مجرد نائم، نومًا طويلا بحق لكنه مع ذلك هو نوم.

فبإعطائه لقب "رقاد" يريح الحزانى وينزع شكوى غير المؤمنين. فإن كنت تحزن بإفراط على ذاك الذي رحل عنك، تكون كغير المؤمنين الذين لا يترجون القيامة.

حقًا انه يحزن، لكنه بقدر عدم قدرته على إدراك الحكمة الروحية بخصوص الأمور المقبلة. أما أنت يا من أخذت البراهين الأكيدة بخصوص الحياة المقبلة لماذا تسقط معه في ضعفه؟ لذلك مكتوب "ثم لا أريد أن تجهلوا أيها الأخوة من جهة الراقدين لكي لا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم" (١ تس ٤:١٣).

ليس ذلك في العهد الجديد فحسب بل وفي العهد القديم أيضًا يمكن أن نأخذ منه تعزية كبري، لأنك عندما تسمع عن أيوب بعدما فقد ممتلكاته وخسر قطعانه، وفقد لا ابنًا أو اثنيْن أو ثلاثة من أولاده بل جميعهم وهم في ريعان شبابهم، ولم يكن حاضرًا لحظات كان الموت يصارعهم، إذ لم ينظرهم وهم يُسَلِّمون أنفاسهم الأخيرة... ماذا قال "الرب أعطى الرب أخذ ليكن اسم الرب مباركًا ".

ليكن هذا القول هو نطقنا في أي حادث يحل بنا سواء في فقدننا لممتلكات أو ضعف جسدي أو اهانتنا بشتائم أو اتهامات باطلة أو إصابتنا بأي شر من جهة الناس...

إن طبقنا هذه الحكمة السمائية فإنه لن يصيبنا شر مهما سقط علينا من آلام لا حصر لها، إنما سيكون ربحنا أعظم من الخسارة، والخير يزيد على الشر.

بهذه الكلمات تجعل الله يترفق بك، ويدافع عنك قبالة ظلم الشيطان.

حالما ينطق بها لسانك يهرب من أمامك الشيطان، وإذ يهرب من أمامك، تتبدد عنك سحابة الحزن، وتهرب الأفكار التي تدخل معنا في حربٍ، بالإضافة إلى هذا فانك ستربح كل وسائل التطويب هنا وفي السماء.

وها هي لك أمثلة مناسبة في حالة أيوب وحال الرسول الذي احتقر كل متاعب هـذه الحياة لأجل الرب، طالبًا البركات الأبدية.

إذًا، لنكن مؤمنين، ولنفرح في كل الأمور التي تحل بنا، ونشكر الله الرءوف حتى نعبر هذه الحياة الزمنية بهدوءٍ، وننال البركات المقبلة، بنعمة ورأفة ربنا الرب يسوع المسيح الذي له المجد والكرامة والقدرة دائمًا الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور. آمين.

القديس يوحنا الذهبي الفم

الكنيسة تحبك

عظتان عن أتروبيوس

مع عرض روحي رائع عن

"التجسد الإلهي"

للقديس يوحنا الذهبي الفم

تعريب

القمص تادرس يعقوب ملطي

مُعرب عن:

Nicene and Post-Nicene Fathers, Series 1 Volume 9.

Two Homilies On Eutropius.

قصة هذا الكتاب

من هو أتروبيوس؟

وُلِدَ أتروبيوس كعبدٍ في حُكْمِ الميسوبتيميا (ما بين النهرين أو دولة العراق القديم) واجتاز سن الطفولة كعبدٍ يقوم بأعمال دنيئة موكلة إليه بواسطة سادته الذين كانوا يتاجرون به فيبيعه سيد لآخر. وأخيرًا اشتراه أرينيثيوس الذي كان يقوم بعمل عسكري هام، هذا قدمه لابنته عند زواجها. لكن السيدة تضايقت من العبد بعدما صار عجوزًا، فلم تحاول أن تبيعه، بل أطلقت سراحه.

ذهب العبد إلى القسطنطينية حيث صار في عوزٍ شديدٍ، فرثى لحاله أحد الموظفين في البلاط، وهيأ له عملاً بسيطًا بين حجاب الإمبراطور. ومن هنا بدأ نجمه يتألق ومركزه يرتفع. إذ باجتهاده في أعماله البسيطة، ولباقة حديثه، وسرعة خاطره جذب أنظار الإمبراطور ثيؤدوسيوس الكبير (٣٧٨ - ٣٩٥م)، فوثق به وأوكل إليه القيام بمهام خطيرة وحساسة.

وعند موت ثيؤدوسيوس اقتسم ابناه المملكة، فصار أنوريوس إمبراطور الغرب وأركاديوس إمبراطور الشرق. وكان في ذلك الوقت أتروبيوس له من القدرة أن يقوم بأعمال رئيس الحجاب والمشير الخاص والمساعد الدائم لأركاديوس. لكن هذه المهمة كانت في يد روفنيوس *Rufinus* الذي كان المدبر الرئيسي لشئون المملكة في بداية حكم أركاديوس، وقد كانت له دسائسه ومطامعه الخبيثة مما أثار سخط الشعب ضده، فاغتالته جماعة في حضرة الإمبراطور.

أما أتروبيوس فكان يتودد لروفنيوس بخبثٍ زائدٍ، واستطاع بحيله أن يبطل تدابير روفنيوس في تزويج ابنته بأركاديوس، مستبدلاً بها افدوكسيا.

فلما أُغتيل روفنيوس كانت السلطة الحقيقية كلها في يد أتروبيوس يساعده في ذلك افدوكسيا التي كان هو السبب في زواجها، وقد امتازت بسيطرتها على أركاديوس لضعف إرادته ووهن عقله. هذا بجانب ما كان لها من الجمال يعضده شدة همتها وإقدامها. هذا وقد اتسمت بشراسة أخلاقها ومحبتها للانتقام، وقد سودت تاريخها بطردها للقديس يوحنا الذهبي الفم.

أظهر أتروبيوس اجتهادًا عظيمًا في عمله، لكنه استغل مركزه استغلالاً سيئًا، إذ ألغى حق الكنيسة في حماية اللاجئين إليها[1]، وذلك حتى يقطع آخر رجاء لضحاياه في الهروب. كما باع المراكز الرئيسية للدولة، فصار يلتف حول الإمبراطور جماعة من المستهترين. هذا وقد عمل على خلق جوٍ من الترف والتنعم حول الإمبراطور ليلهيه عن أي تفكيرٍ سامٍ.

هكذا صار أتروبيوس في يده السلطان الواقعي. أما أركاديوس فكان أقل من تمثال صغير يرتدي العظمة. وهكذا ارتفع هذا الخصي العبد ليصير السيد الحقيقي لنصف العالم الروماني.

وقد كانت رسامة القديس يوحنا الذهبي الفم ٣٩٧م بناء على نصيحة أتروبيوس لأركاديوس. وقد تظاهر بمساعدته لأعمال الكنيسة التبشيرية.

هذا كله لم يثنِ القديس يوحنا الذهبي الفم عن أن يتكلم بطلاقة ووضوح عن شرور الغِنَى، ورذائل الكثير من الأغنياء الجشعين، موبخًا إياهم بشدة. فشعر أتروبيوس أنه هو الرجل الأول الذي ينطبق عليه هذا الكلام، وأن رذائله بدأت تنكشف، مما وتَّر العلاقة بينه وبين القديس يوحنا الذهبي الفم.

أخيرًا، فإن أتروبيوس لم يقنع بنواله السلطان التنفيذي، بل أراد أن يأخذ له لقبًا مكرمًا، وهو في هذا كان يعد لنفسه الهلاك. فقد أغرى الإمبراطور وأعطاه لقب *Patrician and Consul* مما أثار سخط عظماء الملكة الغربية، إذ رأوا عبدًا خصيًا ينال هذه الرتبة في المملكة الرومانية!

على أي الأحوال، إذ أخذ أتروبيوس هذا اللقب جاء أعضاء مجلس السانتو وكل الذين في وظائف عسكرية أو مدنية كبرى، مجتمعين في قصر قيصر يقدمون ولاءهم له، ويتنافسون على نوال كرامة لثم يديه.

لكن ضربة قاضية أوشكت أن تحل بالعاصمة الشرقية على يد عسكري متبربر عنيف اسمه *Tribigild*، كان قد بلغ رتبة *Tribani* في الجيش الروماني وقد طلب منصبًا أعظم، فرفض أتروبيوس طلبه. استاء هذا الرجل من هذه الإهانة، فأثار فرقة من الجيش

---

[1] سنتكلم بمشيئة الرب عن مدى حماية الكنيسة للاجئين إليها، لأن الكنيسة لا تتستر على الأشرار والهاربين من القانون.

للتمرد فارتجت القسطنطينية، وسرت فيها موجة من السخط. وإذ طُلب من جاينس *Gainus* أن يصد موجة التمرد، فرد ذلك طالبًا استبعاد أتروبيوس الذي هو مصدر لشرور كل الدولة.

أخيرًا استُبعد أتروبيوس وصودرت ممتلكاته وطلب الجند إعدامه ولم يكـن لهـذا التعيس البائس مكان للالتجاء إليه سوى الكنيسة التي حرمها من حق الالتجاء إليها في مثـل هذه الحالات (حتى يهدأ الجو). فلجأ إلى الكاتدرائية التي كانت بقرب القصر، وذهـب إلـى المذبح وتعلق بالعامود. رأى القديس يوحنا الذهبي الفم حاله يُرثَى له بينما الجنود يطلبـون قتله، فلم يخيب رجاءه بل احتضنه وخبأه في غرفة الأشياء المقدسة وملابس الكهنوت وواجه الذين يقتفون أثره... واتصل بالإمبراطور ليقنعه هو والجنود بالعفو عنه.

وفي اليوم التالي – يوم الأحد – كانت الكاتدرائية قد اكتظـت بالجمـاهير لتـسمع القديس يوحنا الذهبي الفم متحدثًا عن حب الكنيسة للناس، حتى لأتروبيوس رغم عداوته لها، والذي سنَّ قانونًا يمنعها من حماية أي إنسان. هذه هي العظة الأولى للقديس يوحنا الـذهبي الفم عن أتروبيوس.

بقي أتروبيوس أيامًا قليلة في تخم الكنيسة، لكن يبدو أنه لم يأتمن الكنيسة أو خشى من النفي. على أي الأحوال هرب من الكنيسة. وكان مصيره الإعدام بالسيف في خالقيـدون *Chalcedon*، وعندئذ نطق القديس يوحنا الذهبي الفم بالعظة الثانية.

موضوع العظتين

القديس يوحنا الذهبي الفم كما هي عادته، ينتهز كل فرصة لكسب النفوس، وتمتعها باللقاء مع ربنا يسوع، والكشف عن المفاهيم الحقيقية للمسيحية والخدمة والرعاية الروحيـة الكنسية. وقد انتهز فرصة هروب أتروبيوس إلى الكنيسة، وهروبه منها، فتحدث في العظتين عن هذه الأمور:

- ❖ هل المال أو المتملقون أو المظاهر الخادعة تقدر أن تحبك؟
- ❖ هل الكنيسة تحبك؟ وما هو مفهوم حبها لك؟
- ❖ هل الإله المتجسد يحبك؟ وما هي الإمكانيات التي قدَّمها لك؟

الكنيسة تحبك... رغم شرورك!

الكنيسة – رعاة ورعيّة – لا تعرف غير الحب للجميع بلا تمييز، تحب كعريـسها كل البشرية، وتحتضن الكل، وتريد خلاصهم والوصول بهم إلى معرفة الحق.

بهذا فالكنيسة ليس لها عدو غير الشيطان، ولا خصم غير الخطية، ولا مناضل غير التجديف والإلحاد. أما الخطاة أو الأشرار، فتنظر إليهم نظرة عطف وحنان، نظرة أم تطلب شفاء أولادها المرضى، تترفق بهم بالأكثر كلما اشتد بهم المرض، وتبكي عليهم من كل قلبها كلما رأت فيهم اعوجاجًا.

هذه هي رسالة الكنيسة نحو البشر، لهذا فكل إنسان يظن في نفسه أنه عضو حيّ في الكنيسة – سواء كان راعيًا أو من الرعيّة، كاهنًا أيا كانت درجة كهنوته، أو من الشعب، راهبًا ولو في درجة السواح، أو متزوجًا – ولكن لم يعرف أن يحب الكل ويتحنن على الجميع، ويترفق بالأكثر على الخطاة والأشرار الساقطين، مثل هذا أجهل ما يكون برسالة مخلصه ربنا يسوع، وأبعد عن أن يكون في الكنيسة.

فالكنيسة قبل أن تكون بناء أو كهنة ورعاة، إنما هي في جوهرها وكيانها إيمان وحياة. إيمان يحيا به الذين التقوا بشخص ربنا يسوع تحت قيادة الكهنة الذين لهم روح الله، متعبدين في البيت المدشن لاسم يسوع.

في الكنيسة الإيمان بالذي يخلص من الخطية، وثقة بقدرة الله على خلق قديسين من الأشرار، وحياة هي الحب عينه للجميع بلا تمييز، كمحبة الفادي للعالم "كما أحببتكم أنا تحبون أنتم" (يو ١٣: ٣٤).

فالإنسان الذي يسكن في قلبه عداء أو ضغينة أو كراهية لشخص ما، ولو كان مجرمًا أو شريرًا أو حتى مضطهدًا للكنيسة، مثل هذا خارج عن الحظيرة. لأنه لم يعرف أن يميز بين الخاطئ والخطية، والشرير والشر. فلنكره الشر والخطية والعداوة، ولنحب الكل، لأنهم إخوتنا من صنعة يديّ الله الذي يحبهم ويحبنا، يترفق بهم كما يترفق بنا، يود خلاصهم كما خلاصنا. لأن الله ليس عنده محاباة (رو ٢: ١١) ، ولا يعرف التمييز[١].

هل الكنيسة أن تتستر على الخطايا؟

رسالة الكنيسة تتركز في الوصول بكل نفس – مهما بلغ شرها – إلى عريسها وفاديها ربنا يسوع. وهي في ذلك لا تعمل على إخفاء الشر أو التستر عليه، بل بالعكس كشفه والاعتراف به مع إعطاء التائبين إمكانية لعدم العودة إليه.

---

[١] راجع كتاب: "حبي لرعية يسوع"، فصل "حب بلا تمييز".

فالكنيسة في ترفقها بالخطاة والأشرار، لا تساعدهم على شرهم، بل تعمل على نزعه عنهم، وحفظهم منه.

هذا ما يلزم لأب الاعتراف أن يضعه نصب عينيه. فإن جاءه شاب ساقط ارتكب خطية مع فتاة، فأفقدها عذراويتها، لا يقف الكاهن عند حد بكاء الشاب وانسحاق قلبه وندامته، لأنه كما هو أب لهذا الشاب، هو أيضًا أب لهذه الفتاة، ولو لم يعرفها باسمها، ولو كانت تقطن في غير مكان رعايته. إنه في حب مع ترفق يلزمه أن يقنع الشاب بالتزوج من الفتاة التي أصابها الضرر، مهما كان مركزها المالي أو الاجتماعي، ولو كانت خادمة تعمله عنده!

إنسان آخر أضر آخر، فليعوض المضرور عن ضرره. وإنسان قتل، فليقنعه أب الاعتراف بحنان بأن يلزمه تسليم نفسه إلى أقرب بوليس معترفًا بجريمته، محتملاً تأديب المجتمع له.

والكنيسة بهذا لا تكره الخطاة أو المجرمين أو حتى القتلة، إنما تحبهم، ولأجل حبها لهم تطلب منهم – وبكامل رضاهم – ألاَّ يهربوا من تأديب المجتمع أو المضرور لهم.

إنها تحبهم كأبناء، وتشفق عليهم كمرضى، وتغفر لهم بالروح القدس خطاياهم، لكنها لا تحميهم عما يقع عليهم من تأديبات مدنية أو جنائية، إلاَّ بموافقة المضرور أو الدولة.

والسؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا: لماذا قَبِلَ القديس يوحنا الذهبي الفم أتروبيوس في الكنيسة وأعطاه حصانة؟

ما كان للقديس يوحنا الذهبي الفم أن يحمي أتروبيوس لولا الدالة القوية التي بينه وبين الإمبراطور، مع علمه وتأكده من رحمة الإمبراطور وطيبة قلبه وتسامحه، وإلاَّ كان القديس يوحنا الذهبي الفم قد تدخل في أمورٍ لا شأن للكنيسة فيها.

فالكنيسة تسند الدولة في عمل الخير، ولا تُحَرِّض أولادها على العصيان، إنما بالعكس تؤكد لهم ضرورة الخضوع لقوانينها المدنية والجنائية. ما دامت لا تتدخل في شئون إيمانهم وعباداتهم، بل والكنيسة تربي أولادها منذ الطفولة على الوطنية القلبية الخالصة، واحترام السلطات وقوانينها[1].

---

[1] راجع كتاب: "بنوتي لأبي الكاهن" عن وطنية الكاهن.

والسؤال التالي: ماذا كان يفعل القديس يوحنا الذهبي الفم لو طلـب الإمبراطـور محاكمة أتروبيوس؟

ليس للقديس يوحنا الذهبي الفم أن يلزم الإمبراطور المضرور بالعفو. إذ هذا لـيس من سلطانه، إنما كل ما في وسعه أن يقبل أتروبيوس إن رجع تائبًا نادمًا عن خطاياه. يقبلـه كعضو حيّ تائب، لكنه ما كان له أن يخفيه ليحميه من العقوبة، بل يشجعه على احتمال نتيجة ما ارتكبه من شرور. وهكذا وإن حُكم على أتروبيوس بالإعدام، لكنه إن كان تائبًا عما أخطأ به، فسيقبله الله في الحياة الأخرى.

المُعرِّب

٧ يناير ١٩٦٦

٢٩ كيهك ١٦٨٢

العظة الأولى[1]

هل أباطيل العالم تحبك؟

أباطيل زائلة!

"باطل الأباطيل الكل باطل" (جا ١: ٢).

يليق بنا دومًا أن ننطق بهذه العبارة، وبالأخص فيما يخص الحياة الزمنية.

أين هي الأمور الباهرة التي كانت تحيط بك كوالٍ؟!

أين ذهبت المشاعل المتألقة؟!

أين الراقصات وأصوات أقدام الراقصين والموائد والولائم؟!

أين أكاليل الزهور وستائر المسارح؟!

أين كلمات المديح التي كانت تقدَّم لك في المدينة، والهتافات التي تُسمَع في ملاعب الخيل وتملُّق الممثلين لك؟!

هذا كله قد ذهب... الكل قد ذهب. لقد هبَّتْ الرياح على الشجرة، فسقطت أوراقها، وصارت عارية تمامًا. واهتزت من جذرها ذاته. هكذا كانت قوة العواصف، حتى صدم كل صغير وكبير فيها، وهدد باقتلاعها من جذرها!

أين ذهب الآن أصدقاؤك المراءون؟!

أين موائد الشرب وولائم العشاء التي كُنتَ تُقيمها؟!

أين حشود المتطفلين والخمور التي تقدمها طوال اليوم، والأطعمة المتنوعة؟!

أين ذهب أولئك الذين كانوا يخضعون لسطوتك، الذين ما كانوا يصنعون شيئًا أو ينطقون إلاَّ لينالوا رضاك؟!

لقد صار جميعهم أشبه بخيالات الليل، وأحلام تبددت ببزوغ النهار. لقد كانوا أزهارًا ربيعية ذبلت بانتهاء الربيع. كانوا ظِلاً وقد عبر. كانوا دخانًا وتبدَّد. كانوا فقاعات وانفجرت. كانوا نسيج عنكبوت وتهرأ إربًا.

---

[1] العظة الأولى عن أتروبياس عندما التجأ إلى الكنيسة.

فلنُغَنِّ دومًا بتلك الأغنية الروحية: "باطل الأباطيل الكل باطـــل". ولنكتبهـــا علـــى حوائطنا وثيابنا، في السوق والبيت والشوارع، على الأبواب والمداخل، وفوق هذا كله ليكتبها كل منا على ضميره، ولتكون موضوع تأمل دائم.

أباطيل غاشة

هذه الأشياء بقدر ما هي خادعة وغاشة إلاَّ أنها تبدو بالنسبة لكثيرين أنها حقـــائق. لذلك يلزم لكل إنسانٍ يوميًا، في العشاء والإفطار، وفي كل مجتمعٍ أن يقول لصاحبه ويستمع من قريبه هذا القول المتكرر: "باطل الأباطيل الكل باطل".

أما كنت أخبرك دومًا أن الثروة ليست إلاَّ عابر طريق؟ لكنـــك لـــم تكـــن تريـــد الاستماع إليّ.

أما كنت أقول لك إن الثروة هي خادم ناكر للجميل؟ لكنك لم ترد أن تصغي إليّ.

تأمل كيف تؤكد الخبرة اليومية أن الثروة ليست إلاَّ عابر طريـــق وخـــادم نـــاكر للمعروف، بل ومجرم، إذ تجعلك في حالة خوفٍ ورعبٍ.

الكنيسة تحبك!

بين حب الكنيسة وتملُّق الأشرار

عندما كنت تنتهرني لكي لا أقول الحق، أما كنت أقول لك: "إنني أحبك أكثر من أولئك الذين يتملقونك. إنني في انتهاري لك، أهتم بك أكثر من كل الذين يقدمون لك الاحترام؟"

ألم أكن أقول لك أيضًا: **"إن جراحات الأحباء أمينة عن قبلات الأعداء الغاشة"** (أم ٢٧: ٦). لو أنك أذعنت لجراحاتي ما كان يمكن لقبلاتهم أن تؤدي بك إلى الهلاك، لأن جراحاتي تعمل على شفائك، أما قبلاتهم فتدفع بك إلى مرض يُستعصى شفاؤه.

أين ذهب الذين كانوا يحملون لك الكؤوس؟

أين هم أولئك الذين كانوا يهيئون الطريق قدامك في السوق، ويصوتون بالهتافات غير المحصية في آذان الكل؟!... لقد هربوا. نبذوا صداقتك، ووجدوا سلامهم في حلول الكارثة بك.

أما أنا فلن أكون مثلهم، إنني لن أتركك في كارثتك! لن أتركك الآن، وأنت ساقط أحميك، وأتحنن عليك.

الكنيسة التي كنتَ تعاملها كعدوٍ، تفتح لك حضنها وتستقبلك، بينما المسارح التي كنت تتودد إليها، والتي بسببها كثيرًا ما كنت تنازعني تخونك وتهلكك.

والآن فإن الملاعب التي سببت لك غنى عظيمًا تستل السيف ضدك، أما الكنيسة التي كنت دائمًا تغضب عليها، تسرع في كل اتجاه لإنقاذك من داخل الشبكة.

صار أتروبيوس درسًا عمليًا لكثيرين

وإنني لا أنطق بهذا لكي أقلق نفسك وأنت مطروح على الأرض، إنما أرغب في أولئك الذين لا زالوا قائمين أن يكونوا أكثر أمانًا؛ لا عن طريق تهييج قروح إنسان مجروح، إنما بالحري لكي أحفظ الذين لم يُجرحوا في صحة كاملة؛ لا بإغراق إنسانٍ تصدمه الأمواج، بل بتعليم أولئك الذين يبحرون في جوٍ هادئٍ حتى لا يهلكوا.

وكيف يتم هذا؟ بتأملهم في التغيير الذي يصيب الشئون البشرية. لأنه ذاك (أتروبيوس) الذي وقف مرتعبًا من التغيير الذي حدث له، لم يكن له خبرة قبل ذلك، ولم يفلح

عن طريق ضميره كما لم يأخذ بمشورات الآخرين. وأنـــتم يـــا مـــن تفتخـــرون بغنـــاكم، أما تستفيدون بما حدث (لأتروبيوس)، إذ لا شيء أوهن من الشئون البشرية.

سرعة تغيير الشئون البشرية

إنني أعجز عن أن أُعَبِّر بدقة عن مدى تفاهة الشئون البشرية (أي سرعة تغيُّرها). فإن دعوناها دخانًا أو عشبًا أو حلمًا أو أزهارًا ربيعية، أو أي لقبٍ آخر، فإنه هكذا هي أمور هالكة بل وأقل من العدم. بل وبالإضافة إلى كونها عدم، فإن تتسم بعنصر خطير جدًا تؤكده (وهو سرعة التغيير).

أي إنسان كان أكثر عظمة من هذا الرجل (أتروبيوس)؟

ألم يفق العالم كله في الغنى؟!

ألم يتسلق إلى برج الرفعة ذاته؟!

ألم يكن الكل يخافه ويرتعب منه؟!

آه، ولكنه مع ذلك ألم يصر أكثر بؤسًا من السجين؟ ويُرثي له أكثر من العبد الذليل؟ وأكثر إعسارًا من الفقير المتضور جوعًا؟! إذ يرى كل يوم منظر السيوف الحادة، ومنظـــر إجرام القاتلين والمعذبين يقودونه نحو موته. وهو مع هذا لا يعرف إن كان قد سبق وفـــرح ولو مرة واحدة في الماضي، بل ولا يشعر حتى بأشعة الشمس. إنما في وسط النهار يكـــون نظره معتمًا كما لو أن ظلامًا دامسًا قد اكتنفه.

وإنني سأحاول قدر المستطاع، رغم عجز اللغة البشرية أن أعبر عن الآلام التـــي يخضع لها طبيعيًا إذ يتوقع الموت كل ساعة.

ولماذا أعبر عن ذلك بكلماتٍ من عندي، إن كان هو بنفسه قد رســـم لنـــا صـــورة منظورة. إذ بالأمس لما جاءوا إليه يطاردونه بالقوة، هرب ليلتجئ في مكانٍ مقدس. وكـــان وجهه لا يختلف عن هيئة إنسانٍ ميتٍ، وصرير أســـنانه وارتجـــاف كـــل بدنـــه ورعدتـــه، واضطراب صوته وتلعثم لسانه، بل وكل مظهره العام يكشف عن روحٍ مضطربةٍ.

أيتها الكنيسة... حبي الجميع!

أحبوا أعداءكم

إنني أنطق بهذه الأمور، لا لتوبيخه (أتروبيوس)، أو لكي نشمت بمصيبته، إنما لأجل تلطيف أذهانكم من جهته... فإنني أستعرض آلامه، رغبة في تليين قسوة قلوبكم بحديثي.

أخبرني أيها الأخ الحبيب، لماذا تخاصمني؟

قد تقول لأن ذاك الذي كان يشن حربًا ضد الكنيسة أوجدت له ملجأ في داخلها. ومع ذلك يلزمنا بالتأكيد في الدرجات العليا أن نمجد الله الذي سمح له أن يُوضع في هذا الضيق العظيم **حتى يختبر قوة الكنيسة وعطفها.**

قوة الكنيسة حيث يعاني هذا التغيير العظيم (الضيقة) نتيجة هجومه عليها.

وعطفها حيث يرى أن التي كان يحاربها هي الآن تحميه، وتقبله تحت جناحيها، وتحفظه في أمان تام، غير مستاءة من الأضرار السابقة التي وجهها ضدها، بل تحبه بالأكثر فاتحة أحضانها له.

أروع عمل من أعمال الكنيسة

في هذا يكون للكنيسة مجد أعظم بكثير من أي نوع من أنواع النصرة. إنه نصر لامع يخجل الأمم واليهود، إذ في هذا يظهر **أروع عمل من أعمال الكنيسة**. إنها بذلك تكون قد أسرت عدوها (بالحب) وقتلته (أبادت عداوته).

فبينما الكل يحتقره في أثناء دماره، إذ بالكنيسة وحدها كأم حنون تخبئه تحت ساعتها[1]، مهدئة غضب الملك، وهياج الشعب، وكراهيتهم التي تغلي ضده.

هذه هي زينة المذبح (أن تحب الكنيسة من يعاديها ويقاومها). نقول إنه نوع جديد من الزينة (الحلي)، عندما يسمح للخاطئ المتهم والذي يبغضها، اللص أن يتمسك بالمذبح.

---

[1] ربما يشير إلى المذبح حيث توضع الساعة أمام المذبح.

إن الزانية أمسكت بقدمي يسوع، تلك التي وُصمت بأنجس خطية وأكثرها كرهًـــا. ومع ذلك فإن يسوع لم ينتهر عملها، بل بالحري أُعجب منه ومدحه، لأن المــرأة الــشريرة لم تؤذِ نقاوته بلمسها ذاك البار الذي بلا خطية.

لا تتذمر إذن أيها الإنسان. فإننا خدام للمصلوب القائل: "اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ما يفعلون" (لو ٢٣: ٣٤).

بركات محبة الأعداء

لكنك قد تقول: ألم ينزع أتروبيوس حقه في الالتجاء هنا بواسطة قوانينه وشــرائعه المختلفة؟!

نعم. لكنه يتعلم بالخبرة ما قد صنعه، وسيكون هو بأفعاله أول من يكســر قوانينـــه (ضد الكنيسة)، ويصير مشـــهدًا للعالم كله، وبالرغم من صمته فإنه ينطق بــصوتٍ عـــالٍ محذرًا الجميع قائلاً: "لا تفعلوا ما قد فعلته أنا، حتى لا تعانوا مما أعانيه".

إنه في نكبته يصير معلمًا، وينال المذبح مجدًا عظيمًـــا، موحيًـــا برهبـــة عظيمـــة في ذلك الأمر. إذ قد أُمسك الأسد (أتروبيوس) أســيرًا (بخـــضوعه للكنيـــسة). لأنـــه هـــل تتجلى المملكة بالأكثر عندما يجلس ملكها على عرش ويرتدي الأرجوان ويلـــبس الإكليـــل، أم بخضوع الملوك المتبربرين تحت أقدامه، مقيـــدة أيـــاديهم خلـــف ظهـــورهم، منكـــسين رؤوسهم؟!

وإذ ليس لي براهين مُقْنِعة أقدمها (عن نفع محبة الكنيسة لمضايقيها)، فـــإنكم أنـــتم بأنفسكم لشهود عن حمية الشعب وتجمهرهم، إذ مشهد اليوم بالحق واضح أمامنا، وعظيم هو هذا الاجتماع إذ أراه كما لو كنا في عيد الفصح.

هكذا فإن هذا الإنسان يعظ دون أن ينطق بكلمة، ويتكلم بأعماله بصوتٍ أعلى من صوت بوق.

اليوم يحتشدون جميعًا هنا، من خادمات هاربات، وربات بيوت، ورجال ســوق... وترون أن الطبيعة البشرية مدانة (أن الكل مخطئ). ويتأكد لكم عدم ثبات أحـــوال العـــالم، ووجه الزانية (المظاهر الخادعة) الذي كان منذ أيام قلائل متلألأً، يظهر لكم أنه أقـــبح مـــن وجه أي عجوز وجهها مجعد. أقول لكم إن هذا الوجه ترونه وقـــد أزيلـــت عنـــه الألـــوان والأصباغ التي هي من وضع العدو كما بإسفنجة (تطلى بها ألوان الوجه).

١. درس للأغنياء المُتكلين عن غناهم

هكذا هي قوة هذه الكارثة، أظهرت أن إنسانًا عظيمًا ومشهورًا كان أكثر الناس تفاهة. لذلك إن دخل غني في هذا الاجتماع ينتفع كثيرًا من هذا المنظر، إذ يرى (أتروبيوس) الإنسان الذي كان يهز العالم، قد انسحب من علو تشامخ سلطته، راكضًا على ركبتيه في خوفٍ، أكثر رعبًا من الأرنب البرّي أو الضفدعة، مسمرًا على عمود هناك بدون أربطة. لأن خوفه يقوم بما تقوم به القيود، فيرتعب الغني، وينكسر تعاليه، ويتنازل عن كبريائه، طالبًا الحكمة الخاصة بالأعمال البشرية، مستخلصًا تعليمًا من مثلٍ عمليٍ، عن درس يعلمنا إياه الكتاب المقدس، موصيًا: "كل جسد عشب، وكل جماله كزهر الحقل. يبس العشب ذبل الزهر" (إش ٤٠: ٦). أو "فإنهم مثل الحشيش سريعًا يقطعون، ومثل العشب الأخضر يذبلون" (مز ٣٧: ٢). أو "أيامي قد فنيت في دخان" (مز ١٠٢: ٤). وكل العبارات التي من هذا النوع.

٢. درس للفقراء

مرة أخرى، فإن الفقير عندما يدخل هذا الاجتماع ويتأمل هذا المنظر، لا ينظر إلى نفسه بدناءة، ولا يسب نفسه بسبب فقره...

انظروا إذن كيف أن الغني والفقير، العالي والصغير المركز، العبد والحر، الكل ينتفعون ليس بقليلٍ من التجاء هذا الرجل إلى هنا؟!

تأملوا، كيف يخرج كل واحدٍ من هنا معه دواء، إذ يُشفى بمجرد تطلعه إلى هذا المنظر؟!

حسنًا! هل هدأت من غضبكم وأزلت حنقكم؟!

هل أزلت قساوتكم؟!

هل جذبتكم نحو الترفق؟!

إنني أظن إنني فعلت هذا، وها هى هيئتكم وغزارة دموعكم التي تسكبونها تشهد بذلك.

٣. ليكن لكم ثمرة الرحمة مع الإمبراطور الرحوم

إذ قد تحولت صخرتكم الصمّاء إلى تربة عميقة مخصبة، فلنسرع إذن بحمل ثمر الرحمة، ونظهر محصولاً وفيرًا من العطف، باستعطافنا الإمبراطور من أجل أتروبيوس،

أو بالحري بإعلان مراحم الله حتى نسكن غضب الإمبراطور، ونجعل قلبه مترفقًا... فإن الإمبراطور لما عرف بأنه أسرع إلى هذا المأوى، فبالرغم من وجود الجنود الثائرين بسبب أفعاله الشريرة وطلبهم أن يُسلم للإعدام، فإن الإمبراطور تكلم كثيرًا مهدئًا غضبهم، طالبًا منهم أن يأخذوا في اعتبارهم لا أخطاءه فحسب، بل وكل عمل صالح صنعه، معلنًا أنه يشعر بالامتنان من أجل أعماله الحسنة، وأنه مستعد أن يسامحه عن الأولى كمخلوقٍ زميلٍ له.

وعندما أثاروه مرة أخرى للانتقام بسبب سبه له، صارخين وواثبين، مُلوحين برِّماحهم، مسح الإمبراطور عواطف الدموع من عينيه الوديعتين، **مذكرًا إياهم بالمائدة المقدسة التي هرب إليها الرجل محتميًا**، وأخيرًا نجح في إخماد غضبهم.

٤. اغفروا يُغفر لكم

علاوة على هذا، اسمحوا لي أن أضيف بعض البراهين بخصوصنا نحن، **فإنه أي عذر نقدمه إن كان الإمبراطور لا يحمل أي غيظ عندما يُشتم، بينما أنتم الذين لم يصبكم شيئًا تحنقون؟!**

وكيف بعدما ينتهي الاجتماع تقتربون إلى الأسرار المقدسة، وتكررون تلك الصلاة... قائلين: "اغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا" (مت ٦: ١٢)... إنه ليس وقت الدينونة بل الرحمة.

ليس لنا أن نُطلب الحساب، بل نُظهر الحب.

ليس لنا أن نستقصي الدعاوى، بل نتنازل عنها.

ليس وقت للحكم والانتقام، بل للرحمة وعمل الصلاح.

إذن، لا يثر أحد ولا يغتظ، بل لنطلب مراحم الله أن تمهله عن الموت، وأن تنقذه من الهلاك المحدق به، حتى يتوب عن خطاياه، وأن نتحد مقتربيّن من الإمبراطور الرحوم، متوسلين إليه من أجل الكنيسة، من أجل المذبح، مقدمًا حياة هذا الرجل كتقدمة للمائدة المقدسة...

العظة الثانية

الكنيسة تهتم بحماية نفسك أكثر من جسدك

تقديم[1]

في العظة الأولى كشف القديس يوحنا الذهبي الفم عن بطلان العالم، وخداع محبة المتملقين لنا، وعن حقيقة حُب الكنيسة لنا، كما كشف عن قلب الإمبراطور الرحيم الذي كان يهدئ من روع رجال الدولة والشعب من جهته، مطالبًا أن يتذكروا محاسنه لا أخطاءه. أما في هذه العظة التي ألقاها بعد أن رفض أتروبيوس الالتجاء إلى الكنيسة وهرب منها، فبدأ يعلن للشعب مفهوم حب الكنيسة لأولادها. إنها لا تهتم بحماية الجسد بل الروح، وأنها **تطلب خلاص الروح أولاً**، وتوضح لهم طريق الملكوت السماوي. ثم تحدث عن حُب المسيح للنفس البشرية كعروسٍ له.

هذا وقد ابتدأ الحديث بضرورة التأمل في الكتاب المقدس الذي لم أترجمه حرصًا على التركيز حول موضوع "**حب الكنيسة وعريسها المتجسد لنا**"...

الكنيسة هي طريق الحياة

منذ أيام قليلة، كانت الكنيسة مُحاصَرة[2]؛ الجنود قاموا، والنار تتقد من عيونهم، لكنها لا تقدر أن تلفح (تلمس) شجرة الزيتون.

السيوف قد استلت لكن أحدًا لم يُجرح...

لدينا سور أكيد هو ذلك القول: "أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها" (مت ١٦: ١٨).

وعندما أقول: "الكنيسة" لا أقصد فقط المكان بل "طريق الحياة". لا أقصد حوائطها بل شرائعها.

---

[1] هذا التقديم من وضع المعرب.

[2] راجع المقدمة... حيث قام الكل بطلب تسليم أتروبياس.

عندما تريد أن تحتمي في الكنيسة لا تطلب ملجأ في مكانٍ، بل في روح المكــان. لأن الكنيسة ليست حائطًا أو سقفًا بل إيمان وحياة...

لن تلقي الكنيسة بك في أيدي العدو

لا تقل لي بأن هذا الإنسان (أتروبيوس) الذي استسلَم، كان ذلك بواسطة الكنيــسة. فإنه لو لم يهجرها ما كان قد استسلم. لا تقل لي بأنه هرب إلى ملجأ والملجأ تركه، فالكنيسة لم تتركه بل هو الذي تركها.

إنه لم يستسلم وهو داخل الكنيسة بل وهو خارجها...

هل تريد أن تحمي نفسك؟ تمسك بالمذبح. إنه لا توجد فيه حصون، لكن فيه عناية الله الحارسة.

هل كنت خاطئًا؟ الله لا يرفضك، لأنه ما جاء ليدعو أبرارًا، بل خطاة إلى التوبــة (مت ٩: ١٣). فالزانية قد خلصت إذ أمسكت بقدميه...

تمسَّك بالكنيسة، والكنيسة لن تلقي بك في أيدي العدو. لكنك إن هربت منها، فليست هي السبب في أسرك. لأنك **لو كنت مع القطيع، ما يقدر الذئب أن يدخل. لكن إن خرجـت خارجًا فستصير فريسة للوحوش الضارية**، ولا يكون للقطيع ذنبًا في ذلك، بل جُبنــك هــو السبب...

الكنيسة حصن لا يشيخ

لا تحدثني عن الحصون والجيوش، لأن الحصون تشيخ بمرور الزمن، أما الكنيسة فلا تشيخ.

الحصون يحطمها المتبربرون، لكن الكنيسة **ما تقدر حتــى الــشياطين أن تتغلــب عليها**. وكلماتي هذه ليست على سبيل المباهاة، بل من الواقع. فكم مــن كثيــرين هــاجموا الكنيسة، **فهلك الذين هاجموها، أما هي فحلَّقت في السماء.**

هكذا يكون حال الكنيسة عندما يهاجمونها إنها تنتصر، وإذ يلقون لها الــشباك تغلــب، وإذ يشتمونها تزدهر أكثر. إنها تُجرح لكنها لا تخور بسبب جراحاتها، تصدمها الأمواج لكن لا تغــرق، تُهاجمها العواصف لكنها لا تهلك، تصارع لكنها لا تُقهَر، يحاربونها لكنها لا تُنهزم. وإذ هي تعاني من هذه الحرب القائمة يظهر بالأكثر سمو نصرتها.

لقد جئنا إلى هذا اليوم[1]، وهــا أنتم ترون تلك الســيوف المُصَوَّبة ضد الكنيــسة، وكيف يغلي هيجان الجنود بشدة أقسى من النار، وقد أُخذت إلى القصر الملكي، لكــن مــاذا يكون هذا؟! إنه بنعمة الله لا يخيفني شيء من هذا.

اقتدوا بي!

إنني أذكر لكم هذه الأمور حتى تتمثلوا بي، ولكن كيف لا أرتعب من شيء؟ لأنني لا أبالي بأية مخاوف زمنية.

ماذا يخيفني؟ الموت؟ لا. لأنه ليس بمرعبٍ، بل به نصل إلى الميناء الأمين.

أنهب الخيرات الزمنية؟ "عريانًا خرجت من بطن أمي، وعريانًا أعود إلى هنــاك" (أي ١: ٢١).

هل أخاف النفي؟ "للرب الأرض وملؤها" (مز ٢٤: ١).

أو أخاف السب باطلاً؟ "افرحــوا وتهللــوا لأن أجــركم عظــيم فــي الــسموات" (مت ٥: ١٢).

إنني أنظر السيوف فأتأمل في السماء. أتوقع الموت فأُفكر في القيامة. أنظر إلــى متاعب هذا العالم السفلي، فآخذ في اعتباري المكافآت السمائية.

أدرك خداع العدو فأتأمل الإكليل السماوي. وهكذا فإن عمل الخصم هــو فرصــة لتشجيعي وتعزيتي.

حقًا لقد سُحبت على الأرض مربوطًا جبرًا، لكنني لم أشعر في هذا العمل بإهانــة لي، لأنه لا توجد فيه إهانة حقيقية، التي هي صنع الخطية.

فالعالم كله قد يهينك، لكنك إن لم تهن نفسك بنفسك لا تكون مهانًــا. لأن الخيانــة الوحيدة الحقيقية، هي خيانة الضمير، فلا تخن ضميرك، عندئذ لا يقدر أحد أن يخونك.

إنني قد سُحبت على الأرض، وتحققت أمورًا هي تجسيم لمقالاتي، وهــا أنــا أرى أحاديثي ينادَى بها في الأسواق العامة بواسطة الأحداث الجارية.

أي مقالات هذه؟! إنها نفس المقالات التي أعيد تكرارها. إن الريح تهب والأوراق تسقط "يبس العشب ذبل الزهر" (إش ٤٠: ٨)...

---

[1] ربما يتكلم عن إحدى المرات التي هوجم فيها بسبب افدوكسيا زوجة الإمبراطور الشريرة.

لماذا تطلب حماية الزمنيات؟

هل رأيتم تفاهة الأعمال البشرية؟... هل رأيتم المال الذي كنت أدعوه شاردًا، وليس بشارد فحسب، بل وقاتل أيضًا، لأنه ليس فقط يتخلى عن صاحبه بل ويذبحه...

لماذا إذن تعشق المال الذي هو لك اليوم وغدًا لغيرك؟! لماذا تتودد إلى المال الذي لا تقدر أن تمسكه دائمًا؟!

هل ترغب في السيطرة على المال أو تشتهي أن تحفظه؟! لا تشتره بل أعطه في أيدي الفقراء. لأن المال وحش مفترس، إن أمسكته بإحكام يهرب، وإن تركته بلا رباط يبقى. إذ قيل: "فرق أعطي المساكن برّه قائم إلى الأبد" (مز ١١٢: ٩).

فَرِّقه إذن حتى يبقى معك، ولا تدفنه لئلا يهرب منك.

يسرني أن أسأل الذين رحلوا "أين هو الغِنَى؟!" وأنا لا أقصد بقولي هذا التوبيخ. الله لا يسمح. ولا أقصد إثارة القروح القديمة، بل **أسعى لإيجاد ملجأ لكم بعيدًا عن الهلاك الذي أصاب الآخرين.**

لماذا تخاف على أموالك؟

عندما يهدد الجنود وتستل السيوف، عندما تقوم المدينة ملتهبة هيجانًا، عندما تكون العظمة الملكية لا قوة لها (إذ كان وكيلاً للإمبراطور)، ويُهان الأرجوان، ويمتلئ كل مكانٍ هيجانًا. ماذا يكون نفع المال في ذلك الوقت؟! ماذا تكون قيمة صفحتك الذهبية؟! أين تكون أسرّتك الفضية؟!

أين هم عبيد بيتك؟ الكل يؤخذون للحرب. أين هم خصيانك؟ الكل يهربون. أين هم أصدقاؤك؟ سيغيرون وجوههم المستعارة، فيظهرون كما هم أنهم ليسوا بأصدقاءٍ. أين هي منازلك؟ الكل قد أُغلق. أين هو مَالك؟ إن كان صاحبها قد هرب، فأين يكون المال ذاته؟ لقد دفن... لقد اختبأ.

هل أكون ظالمًا وقاسيًا عليك إن أعلنت لك دائمًا بأن الغِنَى يخون أولئك الذين يستخدمونه بطريقة شريرة؟!

لقد حان الوقت الذي فيه تتأكد من صحة كلماتي، فلماذا تتمسك بالثروة بشدة هكذا، إن كانت في وقت الشدة لن تجديك شيئًا؟! إن كانت لها قوة، فلتدعها تعينك في وقت شدتك، أما إن كانت تهرب منك، فما حاجتك بعد إليها؟!

إن الوقائع تشهد بهذا، فأي نفعٍ يكمن في الثروة؟! هوذا السيف قد سُن، والموت محدق، والجيش هائج، وصار هناك إدراك لكارثة أوشكت أن تحل، ولم يصرّ للثروة مكان.

أين هرب الشارد (المال)؟ إنه بسببه حدثت كل هذه الشرور، وعند الضرورة يهرب. ومع هذا فإن كثيرين ينتهرونني قائلين: "إنك دائمًا تُضيق على الأغنياء وهم بالتالي يُضيقون على الفقراء".

حسنًا، إنني أُضيق على الأغنياء، أو بالحري ليس الأغنياء، بل أولئك الذين يسيئون استخدام الأموال. فأنا لا أهاجم أشخاصهم بل جشعهم. فالغِنَى شيء والجشع شيء آخر، وجود فائض شيء والطمع شيء آخر...

هل أنت غَنِي؟ إنني لا أمنعك من هذا. لكن هل أنت جشع؟ إنني أتوعدك... إنني لن أسكت. هل ترجمني بسبب هذا؟ إنني مستعد أن يُسفك دمي، لكنني أريد أن أمنعك عن أن تخطئ. إنني لا أُكن لك بغضة، ولا أُشن عليك حربًا، إنما أمرًا واحدًا أريده هو نفع المستمعين إليّ.

إن الأغنياء هم أولادي، والفقراء أيضًا أولادي. إن رحمًا واحدًا تمخض بهم بشدة. فالكل هم نسل لمن قد تمخض بهم. فإن كُنت تكيل التوبيخات للفقير، فإنني أتوعدك، لأن الفقير في هذه الحالة لا يحمل خسارة كتلك التي تحيق بالغني. لأنه لا يسقط الفقير في الخطأ، إنما الخسارة التي تصيبه تخص فقدانه للمال، أما أنت كغني، فإن الخسارة تلحق بروحك.

من يريد فليطردني خارجًا، ومن يريد فليرجمني وليبغضني، فإن دسائس الأعداء ضدي هي الدعامات لنوالي أكاليل النصرة، وكثرة جزاءاتي تتوقف على عدد جراحاتي.

لماذا نخاف الأشرار أو الشيطان؟

لهذا لا أخاف من مؤامرات الأعداء، إنما أخاف أمرًا واحدًا هو الخطية. فإن كان أحد لا يقدر أن يجبرني على الخطية، فليقم العالم كله بحربٍ ضدي. لأن مثل هذه الحرب تجعلني بالأكثر ممجدًا.

أريد أن أُلقِّنك درسًا، وهو ألاَّ تخاف من خداعات ذوي السطوة، لكن خف من سطوة الخطية. لا أحد يضرك، إن لم تضر نفسك بنفسك.

إن كنت تخطيء، فإن عشرات الألوف من السيوف تهددك، لكن الله ينتشلك منها حتى لا تقترب إليك. ولكن إن كنت ترتكب شرًا، فإنك وإن كنت داخل فردوس فستطرد منه.

آدم كان في فردوس لكنه سقط، وأيوب كان في مزبلة، لكنه انتصر متوجًا. ماذا أفاد الفردوس آدم، وماذا أضرت المزبلة أيوب؟!

لا ينصب أحد شبكة لآخر، وهذا الآخر يقهر (لمجرد نصب الشبكة).

فالشيطان نصب شباكه لغيره، لكن الغير قد تُوِّج. ألم يأخذ الشيطان ممتلكاته؟! نعم. لكنه لم ينزع عنه صلاحه. ألم يلقِ بيديه القاسيتين على أولاده؟! نعم. لكنه لم يهز إيمانه. ألم يمزق جسده؟! نعم. لكنه لم يجد كنزه. ألم يجند زوجته ضده؟! نعم. لكنه لم يهزم الجندي (أيوب). ألم يرشقه بسهامه ونباله؟! نعم. لكنه لم يقدر أن يجرحه. لقد استخدم كل أدواته لكنه لم يقدر أن يهز البرج. لقد أهاج الأمواج العظيمة ضده، لكنه لم يقدر أن يُغرِق السفينة.

أتوسل إليك، بل وأُقَبِّل قدميك (ركبتيك)، وإن لم أُقبِّل يديك الجسديتين، لكنني أصنع ذلك في الروح، ساكبًا دموع التوسل إليك أن تلاحظ هذا الأمر... وعندئذ لا يقدر أحد أن يؤذيك.

لتحمِ نفسك الداخلية

لا تُسَمِ الغني سعيدًا ولا تُسَمِ إنسانًا أنه بائس إلاَّ ذاك الذي يسلك في الخطية. ادعُه سيدًا ذاك الذي يحيا في البرّ، لأن الإنسان لا يكون سعيدًا أو بائسًا بحسب الظروف بل حسب أحواله الداخلية.

لا تخف قط من السيف إن كان ضميرك لا يسيء إليك، ولا تخف من الحرب إن كان ضميرك نقيًا...

مقارنة بين المُتملقين والمُحبين الحقيقيين

أخبرني، أين ذهب أولئك الذين رحلوا عنه؟... هوذا المتملقون يصيرون جلادين له، والذين كانوا يُقبِّلون يديه يجرونه من الكنيسة... الذين كانوا يُقبِّلون يديه، الآن هم أعداؤه. لماذا؟ لأنه لم يكونوا بالأمس يحبُونه بإخلاص، وقد جاءت الفرصة ليرفع الممثلون وجوههم الصناعية...

أما أنا فكنت موضوع هذه المؤامرات، والآن ها أنا قد صرت حاميًا له. قد عانيت متاعب لا حصر لها على يديه، ومع ذلك لن أنتقم لنفسي. إنما أقتدي بمثال سيدي القائل على الصليب: "اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون".

الآن أقول هذا لكي لا تضلكم شرور الأشرار.

لماذا تخاف على الأرضيات وأنت غريب هنا؟!

... إلى أي مدى يدوم المال؟ إلى متى يبقى الذهب والفضة وبراميل الخمور وتَملُّق العبيد، والكؤوس المزينة بالزهور، وولائم الشرب الشيطانية المملوءة بالأعمال الإبليسية؟!

أما تعلم أن الحياة الحاضرة ليست إلاَّ تغرّب في أرض بعيدة؟! لأنك هل تقيم فيها دومًا؟! لا، بل أنت عابر طريق.

افهم ما أقول. إنك لست مقيمًا هنا بل عابر سبيل ومسافر. لا تقل إنني أمتلك هذه المدينة أو تلك... إن حياتك الزمنية ليست إلاَّ مجرد رحلة. إننا كل يوم نرحل، فالطبيعة بطبعها تجري... البعض يُخزِّنون خيراتهم في الطريق، والبعض يدفنون الجواهر في الطريق.

عندما تدخل إلى فندق هل تزينه؟ لا، بل تأكل فيه وتشرب وتسرع راحلاً. الحياة الحاضرة هي فندق، دخلنا فيه، وقد أغلق الزمن الحاضر علينا. إذن لنتشوق إلى الرحيل برجاء حسن، غير تاركين شيئًا هنا حتى نفقده.

عندما تدخل فندقًا، ماذا تقول للخدم؟ تيقظوا جيدًا عندما تأخذون الأشياء التي لنا، لئلا تنسوا شيئًا فنفقده. لا تتركوا شيئًا لنا، مهما كان صغيرًا أو تافهًا، حتى نرد كل ما لنا إلى بيتنا.

إنك عابر طريق ومسافر، وبالحقيقة أكثر من هذا. كيف ذلك؟ إنني أُخبرك... إن عابر الطريق يعرف متى يدخل الفندق ومتى يخرج منه، فالخروج والدخول كلاهما تحت تصرفه. ولكن عندما أدخل هذا الفندق، أعني هذه الحياة الزمنية، فإنني لا أعرف متى أخرج منه. وقد يحدث إنني أقوم بتخزين أشياء كثيرة لنفسي، بينما يوبخني السيد (الله) فجأة قائلاً: "يا غبي، هذه الليلة تطلب نفسك منك، فهذه التي أعددتها لمن تكون؟" (لو ١٢: ٢٠)

إن وقت رحيلك غير معروف، وملكيتك لممتلكاتك غير أكيدة. وتُقابلك هوى لا حصر له، وتُضربك أمواج عنيفة من كل جانب. فلماذا تتحدث كثيرًا عن الظلال؟ لماذا تهجر الأمور الحقيقية وتجري وراء الظلال؟...

قد تقولون: ماذا نفعل نحن؟ اصنع أمرًا واحدًا. اكره المقتنيات، وحب حياتك. ألقِ بها، لا أقول جميعها، بل انزع الكماليات. لا تطمع في ممتلكات غيرك. لا تظلم الأرملة ولا تنهب اليتيم، ولا تغتصب بيته.

إنني لا أقصد بحديثي هذا أشخاصًا معينين، بل أشير إلى حوادث عامة. فإن كان أحد يثور ضميره عليه، فليست كلماتي هي المسئولة عن ذلك، بل هو المسئول. لماذا تتمسك بالأمور التي تجعل إرادتك الشريرة تقوم على نفسك. تمسَّك بالأمور التي بها تستطيع أن تربح الإكليل. جاهد أن تتمسك لا بالإكليل الأرضي بل السماوي. "ملكوت السموات يُغصب، والغاصبون يختطفونه" (مت ١١: ١٢). لماذا تقبض على الفقير الذي ينتهرك؟! اغتصب المسيح، فيمدحك على هذا... هل تمسك الفقير الذي لديه القليل، وهوذا المسيح يقول: "اغتصبني وأنا أشكرك على هذا. اغتصب ملكوتي وخذه بالقوة. إن كنت تود أن تغتصب الملكوت الأرضي أو بالحري إن كنت تتمسك أن تصنع تدابير لأجل ذلك، فإنك ستُعاقب. أما بالنسبة لملكوت السموات، فإنك تُعاقَب إن لم تغتصبه".

وحيثما يوجد اهتمام بالأمور الزمنية، توجد الإرادة الشريرة، وحيثما يوجد اهتمام بالأمور الروحية يوجد الحب... لا تمدح غنيًا، بل ذاك الذي يسلك في البرّ، ولا تشتم فقيرًا، بل تعلَّم أن يكون حُكْمك في الأمور صائبًا ودقيقًا.

الكنيسة ملجأ لروحك

لا تنعزل عن الكنيسة، لأنه لا شيء أقوى منها (كإيمان وحياة). الكنيسة هي رجاؤك، خلاصك، ملجأك. إنها أعلى من السماء وأوسع من المسكونة. إنها لن تشيخ قط، بل هي دائمًا في كامل حيويتها. لذلك يشير الكتاب عن قوتها وثباتها بدعوتها "**جبلاً**".

وعن نقاوتها بدعوتها "**عذراء**"،

وعن عظمتها بدعوتها "**ملكة**"،

وعن علاقتها بالله بدعوتها "**ابنة**"،

وعن نموها بدعوتها "**العاقر التي لها سبعة بنين**".

وبالحقيقة إن الكنيسة لها أسماء كثيرة تعبر عن نبلها فكما أن سيدها له أسماء عدة، فدُعي أبًا، والطريق والحياة (يو ١٤: ٦)، والنور (يو ١: ٨-٩؛ ٨: ١٢)، والذراع (إش ٥١: ٩)، والشفيع (١ يو ٢: ٢)، والينبوع (١ كو ٣: ١١)، والباب، والكنز (مت ٦: ٢١؛ ٨: ٤٤)، والرب، والله، والابن، والابن الوحيد، وصورة الله (في ٢: ٦؛ كو ١: ١٥)... هكذا بالنسبة للكنيسة نفسها، فإنه هل يمكن لاسمٍ واحدٍ أن يكفي للتعبير عن الحقيقة كلها؟!... لا يمكن!

الإله المتجسد يحبك!

يخطبك عروسًا له

زانية تصير عذراء![1]

كلمة الله – الابن الوحيد – في حبه للنفس البشرية وعشقه لها **قَبِلَها عروسًا له.** أراد أن يقترن بها رغم ضعفاتها ونجاساتها وزناها القبيح... ويجعلها عذراء عفيفة مقدسة له.

وعندما نتحدث عن الزواج أو الاقتران يلزمنا ألاَّ يخطر ببالنا التصور العام للزواج، وارتباطه في أذهان البشر بالعلاقة الجسدية الجنسية. لأن الزواج في أعماقه هو حب... أعمق من أن تعبر عنه أية أمور محسوسة أو حتى عواطف ومشاعر جسدية. هذا الحب يلازمه بالنسبة لنا كبشرٍ العلاقة الجسدية بين العريس وعروسه كعلامة من علامات الحب بينهما. وليس هذا هو كل الارتباط بينهما، فقد يمتنعا عن الاتصال الجسدي إلى حين للتفرغ للصوم والصلاة (١ كو ٧: ٥)، دون أن ينفصل ارتباطهما الزيجي العميق، بل وأحيانًا لأسباب مرضية أو لظروف قاهرة (كأن يؤسر أحدهما أو يُسجن) لا تكون بينهما علاقة جسدية... ومع ذلك هما جسد واحد.

أود أن أوضح أن زواج الرجل بالمرأة هو صورة خفيفة جدًا لاقتران ربنا يسوع بالنفس البشرية[2].

وكلمة الله في اقترانه بنا اختارنا ونحن في أدنس صورة، آتيًا إلينا متجسدًا حتى نقبله، مقدمًا دمه ثمنًا ومهرًا لنا، مقدسًا إيانا حتى يصعد بنا إلى حجاله "ملكوت السموات".

هذه هي أعماق الحب الإلهي التي يتحدث عنها القديس يوحنا الذهبي الفم في بقية العظة قدر ما يمكن للقلم أن يعبر عنه، مفسرًا ترنيمة النبي القائل:

"قامت الملكة عن يمينك بثوب موشى بالذهب.

مزينة بأنواعٍ كثيرةٍ.

اسمعي يا ابنتي وانظري وأميلي أذنك.

---

[1] من وضع المعرب.

[2] راجع كتاب الحب الأخوي، ص٢٤٨.

وانسي شعبك وبيت أبيك،
فإن الملك قد اشتهى حسنك.
لأنه هو ربك وله تسجدين...
كل مجد ابنه الملك من داخل".

مز ٤٤ *LXX*

معجزة المعجزات!

دُعيت الكنيسة **عذراء**، بينما كانت قبلاً زانية.

هذه هي المعجزة التي صنعها العريس. أنه أخذها زانية وجعلها عذراء.

آه! يا له من أمر جديد عجيب! **بالنسبة لنا، بالزواج نفقد البتولية. أما بالنسبة لله فالزواج يعيد للكنيسة بتوليتها.** بالنسبة لنا من كانت عذراء فبزواجها لا تعود بعد عذراء، أما بالنسبة للمسيح فإن النفس متى كانت زانية عندما تتزوج تصير عذراء...

التعبير عن الإلهيات بلغة بشرية

من أين للكنيسة التي دعيت قبلاً زانية تصير عذراء؟ وكيف تنجب أولادًا لها، ومع ذلك تبقى في عذراويتها؟

يقول الرسول بولس: "فإني أغار عليكم **غيرة الله** لأني خطبتكم لرجل واحد لأُقَدِّم عذراء عفيفة للمسيح" (٢ كو ١١: ٢)... فهل الله يغار؟ نعم يغير غيرة لا عن عاطفة بل غيرة الحب، والتهاب الشوق...

هل لي أن أخبرك كيف يعلن الله غيرته؟ إنه رأى العالم تفسده الشياطين، فأسلم ابنه لينقذه.

فالكلمات التي ننطق بها بخصوص الله ليس لها نفس القوة عندما ننطق بها فيما يخصنا نحن كبشرٍ. مثال ذلك عندما نقول أن الله غيور، الله يغتاظ، الله يندم، الله يكره، **فإن هذه الكلمات بشرية، ولكن لها معاني تخص طبيعة الله.**

كيف يغير الله؟ "فإني أغار عليكم غيرة الله" (٢ كو ١١: ٢).

هل الله يغتاظ؟ "لا تؤدبني بغيظك" (مز ٦: ٢).

هل الله ينام؟ "استيقظ. لماذا تتغافى يا رب" (مز ٤٤: ٢٢).

هل الله يندم؟ "فحزن الرب أنه عمل الإنسان والأرض فتأسف في قلبه" (تك ٦: ٦).

هل الله يكره؟ "رؤوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسي" (إش ١: ١٤).

حسنًا! لا تأخذ في اعتبارك ضعف التعبير، بل تمسَّك بمفاهيمه الإلهية. فالله غيور، لأنه يحب، والله يغتاظ، ليس لأنه خاضع للعواطف بل لأجل التأديب... الله ينام، ليس لأنه ينعس، بل تعبيرًا عن طول الأناة.

هكذا عندما تسمع بأن الله يلد الابن، لا تفكر في انقسام في وحدة الجوهر، لأن الله يستخدم هذه الكلمات التي لنا، كما نستعير نحن منه كلمات تخصه هو، حتى ننال بذلك شرفًا...

توجد أسماء إلهية وتوجد أسماء بشرية. الله قد أخذ مني، وهو أيضًا أعطاني. الله يقول لي: "أعطني ذاتك وخذني لك. إنك محتاج إليّ، أما أنا فلست محتاجًا إليك... ولكن بقدر ما أن طبيعتي لا تقبل الامتزاج... اقبل تعبيرات جسدية حتى بواسطة هذه التعبيرات المعروفة لك يا من لك جسد تقدر أن تفهم أمورًا تسمو عن فهمك".

أية أسماء أخذها الله مني وأية أسماء أعطاني إياها؟

هو نفسه "الله"، وقد دعاني بذلك. فبالنسبة له هو الله من حيث طبيعة جوهره... أما أنا فآخذ مجرد شرف الاسم فحسب "أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلي كلكم" (مز ٨٢: ٦)... لقد دعاني إلهًا لمجرد نوال شرف. وهو نفسه دُعيَ إنسانًا وابن الإنسان والطريق والباب والصخرة... هذه الكلمات استعارها مني.

لماذا دُعيَ **الطريق**؟ لكي نفهم أن بواسطته نلتقي بالآب.

لماذا دُعيَ "**الصخرة**"؟ لكي نفهم أنه حافظ الإيمان ومثبته.

لماذا دُعيَ "**الينبوع**"؟ لكي نفهم أنه مصدر كل شيء.

لماذا دُعيَ "**الأصل**"؟ لكي نفهم أن فيه قوة النمو.

لماذا دُعيَ "**الراعي**"؟ لأنه يرعانا.

لماذا دُعي "**الحَمَل**"؟ لأنه قُدِّم فدية عنا وصار تقدمة.

لماذا دُعي "**الحياة**"؟ لأنه أقامنا ونحن أموات.

لماذا دُعي "**النور**"؟ لأنه أنقذنا من الظلمة.

لماذا دُعيَ "**الذراع**"؟ لأنه مع الآب جوهر واحد.

لماذا دُعيَ "**الكلمة**"؟ لأنه مولود من الآب، فكما أن كلمتي هي مولودة مني، هكذا أيضًا الابن مولود من الآب.

لماذا دُعيَ "**ثوبنا**"؟ لأني التحفت به عندما اعتمدت.

لماذا دُعيَ "**المائدة**"؟ لأنني أتغذى عليه عندما أشترك في الأسرار.

لماذا دُعيَ "**المنزل**"؟ لأني فيه أقطن.

لماذا دُعيَ "**العريس**"؟ لأنه قَبِلنيّ كعروسٍ له.

لماذا دُعيَ "**بلا دنس**"؟ لأنه أخذني كعذراء.

لماذا دُعيَ "**السيد**"؟ لأنني عبد له.

لاحظ أيضًا كيف أن الكنيسة – كما قلت – هي أحيانًا عروس وأحيانًا ابنة، وعذراء، وأمة، وملكة، وعاقر، وجبل، وفردوس، والتي لها أولاد كثيرون، زنبقة، ينبوع... إنها كل شيء.

فإن سمعت بهذه الأمور، أرجوك ألاَّ تفهمها بمعنى مادي، بل حلِّق بفكرك عاليًا، لأنها لا تؤخذ بمعنى جسدي.

مثال ذلك، أن الجبل غير الجارية، والأمة غير العروس، والملكة ليست أمة، ومع ذلك **فالكنيسة كل هذه معًا**. كيف ذلك؟ لأن عنصر الكنيسة التي يعيشون فيها ليس جسدي بل روحي. ففي المجال الجسدي تفهم هذه الأمور في حدود ضيقة، أما في المجال الروحي فتفهم على مستوى متسع.

الكلمة يصير عبدًا لتصير هي ملكة!

"جلست الملكة عن يمينك" (مز ٤٥: ١٠). الملكة؟! كيف أن التي كانت موطئ الأقدام وفقيرة صارت ملكة؟! إلى أين صعدت؟! الملكة نفسها جلست في الأعالي بجوار الملك. كيف حدث ذلك؟

لأن الملك صار خادمًا، ليس بحسب الطبيعة (أي لم تتغير طبيعته)، بل هو صار هكذا. افهمْ الأمور التي تخص اللاهوت، وما يخص تنازله.

افهم من هو (الله)؟ وماذا صار لأجلك؟ ولا تخلط الأمور الواضحة، وتجعل من البراهين الحية مجالاً للتجديف. لقد كان مرتفعًا، أما هي فكانت منحطة. كان مرتفعًا لا لمجرد مركزه، بل بطبيعته. جوهره نقي وغير قابل للفساد، طبيعته لا تفسد وغير مدركة ولا منظورة ولا يمكن إدراكها، أبدي، غير متغير، فوق الطبيعة الملائكية، أسمى من القوات السمائية، فوق إدراك العقل، وأسمى من الفكر، تُدرك طبيعته بالإيمان وحده لا بالعيان.

الملائكة نظرت الله وارتعبت. الشاروبيم يغطون أنفسهم بأجنحتهم في رعدةٍ. نظر الله إلى الأرض فارتعدت. انتهر البحر وشقه (إش ٥١: ١٠). لقد أوجد أنهارًا في القفار، ووزن الجبال بموازين، والوديان في ميزان (إش ٤٠: ١٢)... عظمته ليس لها حدود، حكمته غير محصاة، أحكامه لا يمكن إدراكها، طرقه لا يمكن معرفتها. هكذا هي عظمته، وهكذا هي قوته، إن كان يمكن بالحقيقة أن نستخدم مثل هذه التعبيرات.

ماذا أفعل؟ إنني إنسان وأنطق بلغة بشرية. لساني من الأرض، لذلك ألتمس العفو من ربي (لأنني أعبر عن أمورٍ روحيةٍ بلسانٍ بشريٍ). فإنني لم أستخدم تلك التعبيرات الخاصة بالروح من قبيل الاستهتار، بل لفقر مصادري الناجم عن ضعفي وطبيعة لساني البشري.

تراءف عليّ يا رب، فلست أنطق بهذه الكلمات من قبيل الوقاحة، بل لأنه ليس لدي إمكانيات غير هذه. ومع هذا فإني لست بقانعٍ تمامًا بمعاني كلماتي. إنما أحلق متساميًا بأجنحة فهمي.

هكذا هي عظمته، وهكذا هو سلطانه، إنني أنطق بهذا بدون الارتكاز على الكلمات، أو على التعبير الضعيف... وهكذا يلزمك أنت أيضًا أن تعمل على منوالي.

لماذا تتعجب من أني فعلت هذا، إن كان الله بنفسه يصنع هذا عندما يريد أن يقدم لنا معنى معينًا في أذهاننا يسمو فوق القدرات البشرية؟! وذلك عندما يخاطب الكائنات البشرية، مستخدمًا التوضيحات البشرية، التي هي بحق تعجز عن أن تمثل ما يتكلم عنه (تمثيلاً كاملاً)، ولا تقدر أن تعرض كل جوانب الأمر، لكنها تكفي للسامعين قدر ضعفهم...

(تعرَّض القديس يوحنا الذهبي الفم هنا إلى ظهورات الله وتجسد الكلمة. كيف أن تم ذلك دون تغيُّر في طبيعته أو جوهره، إنما لأجل ضعفنا... حتى في التجلي أيضًا كشف ذاته قدر ما يحتمل التلاميذ حتى سقطوا وناموا... بل وحتى الشاروبيم والسمائيين لا يدركون الله كما هو إلاَّ قدر احتمالهم...)

خلق منا عذراء

كما قلت إن ذاك الذي هو عظيم وقوي، هكذا رغب في زانية، وإنني أتكلم عن الطبيعة البشرية تحت ذلك الاسم: "زانية".

إن كان إنسان يرغب في زانية فإنه يُدان، فكيف يرغب الله في زانية حتى يصير عريسًا لها؟! ماذا يفعل؟ إنه لم يرسل لها واحدًا من خدامه، لا ملاكًا، ولا رئيس ملائكة ولا شاروبيم ولا سيرافيم بل نزل بذاته إلى من يحبها مقتربًا إليها.

مرة أخرى عندما تسمع كلمة "يحبها"، لا تنظر إليها، بل استدعِ الأفكار التي تعنيها هذه الكلمة "الحب"... (أي لا تنظر إلى كلمة حب بالمعنى البشري). فلتكن كالنحلة الممتازة التي تستقر على الزهور وتأخذ رحيق العسل تاركة العشب...

إنه لا يقودها كزانية إلى العُلَى، بل هو بنفسه نزل إليها، لأنه لا يريد أن يُدخل زانية إلى السماء. فطالما تعجز هي عن أن تصعد إلى العُلَى، نزل هو على الأرض. جاء إلى الزانية ولم يخجل أن يمسك بها وهي في سُكرها.

وكيف جاء؟ جاء ليس (معلنًا) جوهر طبيعته مجردًا، إنما صار مثلما الزانية عليه (فيما عدا الخطية)، لا بحسب النية، بل بالحقيقة صار مثلها، **حتى لا ترتعب عندما تراه فتجري وتهرب!** جاء إلى الزانية، وصار إنسانًا. وكيف صار هذا؟ أنه حُبل به في الرحم، ونما قليلاً قليلاً مثلي من جهة النمو البشري.

من هو هذا الذي يصنع هذا؟! الإله قد ظهر، لكن اللاهوت لم يُعلَنْ. له شكل العبد لا السيد، له الجسد الذي لي، ولم يظهر جوهر طبيعته الخاص به. لقد نما قليلاً قليلاً مكونًا علاقات مع البشرية، بالرغم من أنه وجدها – الزانية – مملوءة قروحًا ومستوحشة وخاضعة للشياطين... لكنه اقترب إليها، وإذ رأته يقترب إليها هربت. فدعى الحكماء قائلاً: "لماذا تخافون مني؟ إنني لم آت لأدين العالم، بل لأُخلِّص العالم" (يو ٢: ٤٧).

آه إنه حادث فريد وغريب!... ذاك الذي يرفع العالم اضطجع في مذود، والذي يعتني بكل الأشياء صار طفلاً مقمطًا بلفائف. الحكماء يأتون ويتعبدون له للحال، العشار يأتي إليه ويصير إنجيلي. الزانية تأتي وتصير له خادمة. الكنعانية تأتي وتأخذ نصيبًا من عطفه.

العُرْسُ السماوي

بين يسوع والنفس البشرية (الكنيسة)

أولاً: خاتم الزواج

هذه هي علامة واحد يحب، أنه يحمل أجرة الخطايا ويغفر الآثام والمعاصي.

وكيف صنع يسوع هذا؟ لقد أخذ الخاطئة (نفوس الخطاة التائبين)، وخطبها لنفسه.

وماذا قدَّم لها؟ خاتم الزواج.

وما هو معدن الخاتم؟ **الروح القدس.** إذ يقول بولس: "ولكن الذي يثبتنا معكم في المسيح، وقد مسحنا هو الله، الذي ختمنا أيضًا، وأعطى عربون الروح" (٢ كو ١: ٢١، ٢٢). لقد أعطاها الروح القدس.

بعد ذلك قال (على لسان العريس): ألم أغرسك في الفردوس؟، فتجيبه "بلى".

ثم يسأل: وكيف سقطتِ من هناك؟ تجيبه: "الشيطان جاء، وطردني من الفردوس".

فيقول لها: "لقد غرستكِ في الفردوس والشيطان طردك، انظري فإنني أغرسك في أنا. إنني أسندك فلا يعود الشيطان يقدر أن يجسر ويقترب إليك. إذ لا أرفعك إلى السماء، بل إليّ حيث ما هو أعظم من السماء. أحملك في نفسي أنا هو رب السماء. الراعي يحملك فلا يقدر الذئب أن يقترب إليك بعد، أو بالحري لا أسمح له أن يقترب إليك".

وهكذا حمل الله طبيعتنا وإذ اقترب إليه الشيطان هلك. لذلك يقول لك الرب: هذا أنا قد غرستك فيّ، أنا الأصل، وأنتم الأغصان (يو ١٥: ٥). هوذا قد غرسها في ذاته.

كيف ينزع نجاستها

إنها تقول: لكنني خاطئة ونجسة.

يقول لها الرب يسوع: لا تضطربي بسبب هذا فإنني طبيب. إنني أعرف الإناء الذي ليّ، وأعرف كيف فسد، فأعيد تشكيلك بواسطة جُرن المعمودية مُسلِّمًا إياه لعمل النار.

تأمل. لقد أخذ الله ترابًا من الأرض وخلق الإنسان وشكله، لكن جاء الشيطان وأفسده. عندئذ جاء الرب وأخذه مرة أخرى وعجنه من جديد وغيَّر شكله في المعمودية، ولم يعد بعد ترابيًا بل ذا صلابة شديدة. لقد خضع التراب اللين (الطين) لنار الروح القدس "سيعمدكم بالروح القدس ونار" (مت ٣: ١١).

يتعمد الإنسان بالماء لكي يتشكل، وبالنار لكي يتقوى، لذلك فإن النبي يتنبأ بحسب الإرشاد الإلهي قائلاً: "مثل آنية الخزاف يسحقهم" (مز ٢)... وحتى تتأكد أنني لا أنطق بكلمات فارغة، اسمعْ ما يقوله أيوب: "اذكر أنك جبلتني كالطين" (أي ١٠: ٩)، وما يقوله بولس: "ولكن لنا هذا الكنز في أوانٍ خزفية" (٢ كو ٤: ٧). لكن تأمل قوة الإناء الترابي، إذ قد صار قويًا بواسطة الروح القدس.

انظر كيف أكَّد الرسول أنه إناء ترابي، قائلاً عنه: "خمس مرات قبلت أربعين جلدة إلاَّ واحدة، ثلاث مرات ضربت بالعصي، مرّة رجمت" (٢ كو ١١: ٢٤... الخ). ومع هذا هذا الإناء الترابي لم ينكسر. "ليلاً ونهارًا قضيت في العمق". لقد كان في العمق، لكن الإناء لم يفسد. عانى من انكسار السفينة، لكن الكنز لم يُفقد. كانت السفينة تغرق، لكن الحمولة طفت. يقول: "ولكن لنا هذا الكنز"... يسنده الروح القدس والبرّ والتقديس والخلاص.

وما طبيعته؟ "**باسم يسوع** الناصري قم وامش" (أع ٣: ٦). "يا اينياس **يشفيك يسوع** المسيح" (أع ٩: ٣٤). "أنا آمرك **باسم يسوع المسيح** أن تخرج منها" (أع ١٦: ١٨).

هل رأيت كنزًا كهذا أكثر بريقًا من الكنوز الملكية؟! ماذا تقدر جواهر الملك أن تفعل مثلما تفعل كلمات الرسول؟!...

"ولكن لنا هذا الكنز". يا له من كنز ليس فقط محفوظًا، إنما يحفظ المسكن الذي يوجد فيه. هل تفهم ما يقول؟ إن ملوك الأرض وحكامها عندما يكون لهم كنوز يجهزون لها أماكن عظيمة للتخزين: من حصون عظيمة وقضبان وأبواب وحواجز للوقاية، مزلاج... هذا كله لكي يحفظوا الكنوز. أما المسيح فصنع العكس، إذ لم يضع الكنز في آنية حجرية (حتى تحميه)، بل في إناء خزفي (لكي يحميه الكنز). إن كان الكنز عظيمًا، فهل لهذا السبب يجعل الإناء ضعيفًا؟! لا... بل لأن **الكنز لا يحفظه الإناء، بل هو الذي يحفظه.**

إنني أودع الكنز (في الإناء الضعيف)، فمن يقدر أن يسرقه من هناك؟! الشيطان يأتي، والعالم يأتي، والجموع تأتي، ومع ذلك لا يسرقون الكنز. فالإناء قد يُنكَل به، أما الكنز فلا يُفقَد. **قد يغرق الإناء (الجسد) في البحر، لكن الكنز لا يغرق.** الإناء قد يموت، أما الكنز فيحيا، لذلك فهو يعطي حرارة الروح.

ثانيًا: مهر العروس

تأمل "الذي يُثَبِّتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله الذي... **أعطى عربون الروح** في قلوبنا" (٢ كو ٢١: ٢٢).

أنتم تعلمون أن العربون هو جزء صغير من الكل، دعوني أخبركم معنى العربون.

قد يذهب واحد ليشتري منزلاً بثمنٍ عالٍ، فيقول له البائع "أعطني عربونًا حتى أثق فيك". وواحد يذهب ليتخذ له زوجة فيدفع لها مهرًا.

فحيث أن المسيح قد عمل عُقْدًا معنا (إذ سيقْبلنا عروسًا له) لذلك **فإنه عيَّن المهر ليّ، لا بمال بل من الدم**. ولكن هذا المهر الذي عيَّنه هو عربون لأشياء صالحة "ما لم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على بال إنسان" (١ كو ٢: ٩).

لقد عيَّن هذه كمهر وهي: الخلود، تسبيح الملائكة، التخلص من الموت، التحرر من الخطية، ميراث الملكوت الذي ثروته عظيمة هذا مقدارها، البرّ، التقديس، الخلاص من الشرور الحاضرة، اكتشاف البركات المُقْبِلة، عظيم هو مهري!

جاء يأخذ الزانية، لأنه هكذا أدعوها أنها نجسة، حتى تدرك مقدار حب العريس. لقد جاء وأخذني وعيَّن لي مهرًا قائلاً: "**أعطيك غناي**".

كيف ذلك؟ يقول: هل فقدت الفردوس؟ خذه مرة أخرى. خذ كل هذه الأمور، ومع ذلك فإنه لا يعطي لي كل المهر هنا.

أما يعطينا هنا شيئًا من المهر؟

تأمل... فإنه كفَّل ليّ في المهر قيامة الجسد، والخلود. لأن الخلود لا يتبع دائمًا القيامة. بل إن الاثنين متمايزان، فكثيرون قاموا، لكنهم رقدوا مرة أخرى، مثل لعازر وأجساد القديسين (يو ١١، مت ٢٧: ٥٢). لكن الوعد هنا ليس كذلك، بل وعد بالقيامة والخلود والتَمَتُّع بشركة الملائكة، واللقاء بابن الإنسان على السحاب، وتحقيق القول: "وهكذا نكون كل حين مع الرب" (١ تس ٤: ١٧)، والتخلص من الموت، والتحرر من الخطية، والتخلص التام من الهلاك.

من أي نوعٍ هذا المهر الذي "ما لم ترَ عين، وما لم تسمع أذن، ولم يخطر على بال إنسان، ما أعده الله للذين يحبونه". هل تعطيني أشياء حسنة لا أعرفها؟! نعم، فقط لتُخطب ليّ ها هنا، ولتحبني في هذا العالم.

ولماذا لا تعطيني المهر ها هنا؟

سأعطيه لك عندما تأتي إلى أبي، عندما تدخل المكان الملكي. فهل أنت (أيها الإنسان) أتيت إليّ، لا بل أنا (يسوع) جئت إليك. لقد أتيت إليك، لا لتقطن عندك، بل لكي آخذك معي وأرجعك. فلا تطلب مني المهر عندك في هذه الحياة بل لتكن معتمدًا على الرجاء والإيمان.

أما تعطي شيئًا في هذا العالم؟

يجيب: أعطيك هنا "الغيرة" حتى تثق فيّ فيما يختص بالأمور المقبلة، وأعطيك خاتم الخطبة وهدايا الخطبة. لذلك يقول بولس: "لأني خطبتكم" (٢ كو ١١: ٢). أما هدايا الخطبة فهي البركات الحاضرة التي تشوقنا إلى البركات المقبلة. أما المهر بكماله فيُعطَى في الحياة الأخرى.

كيف ذلك؟ هنا أصير كهلاً، هناك لا أشيخ قط.

هنا أموت، هناك لا أموت.

هنا أحزن، هناك لا أحزن.

هنا يوجد فقر ومرض ومكائد، هناك لا يوجد شيء من هذا القبيل.

هنا توجد عبودية، أما هناك فحرية...

هنا توجد حياة لها نهاية، أما هناك فحياة بلا نهاية.

هنا توجد خطية، أما هناك فيوجد برّ...

هنا يوجد حسد، أما هناك فلا شيء من هذا.

قد يقول قائل: "أعطني هذه الأمور ها هنا"، لا. بل انتظر حتى يخلُص أيضًا العبيد رفقاؤك. وأقول أيضًا انتظر ذاك الذي يثبتنا ويعطينا عربون الروح.

وأي عربون هذا؟ الروح القدس وعطاياه.

دعني أتكلم عن الروح القدس

لقد أعطى خاتم الخطبة للآباء الرسل قائلاً: "خذوا هذا، وأعطوه للجميع"، فهل خاتم الخطبة يوزع على كثيرين ومع ذلك لا ينقسم؟! نعم هكذا. دعني أعلمكم معنى عربون الروح القدس.

أخذ بطرس عربون الروح القدس وكذلك بولس. فبطرس (بالروح القدس) جال في العالم، وغفر الخطايا، وشفى مقعدين، وكسى عراة، وأقام موتى، وطهَّر برص، وأخرج

شياطين، وتحدث مع الله، وعمل في الكنيسة. أزال المعابد، هدم المذبح، وأباد رذائل وأقـام من البشر ملائكة!... كل هذه الأمور أخذناها فملأ عربون الروح العالم كله...

وعندما أقول العالم كله، أقصد من جهة المكان... لقد ذهب بولس إلى هنا وهنـاك كطائر ذي أجنحة. وبفمٍ واحدٍ (بالتبشير) حارب ضد العدو... كان الخيَّام (بولس) أقوى مـن الشيطان... **إذ نال العربون وحمل خاتم الزواج.**

كل البشر رأوا الله قد خطب طبيعتنا، والشيطان رأى ذلك وتقهقر. رأى العربـون (الروح القدس) وارتعب منسحبًا، رأى ملابس الرسـل فهـرب (أع ١٩: ١١). يـا لقـوة الروح القدس. لقد أعطى سلطانًا لا للجسد فحسب بل وللثوب أيضًا، وليس فقط للثـوب بـل وللظلِ أيضًا.

ظله كان يشفي الأمراض (أع ٥: ١٥) ويخرج الشياطين ويقيم الموتى.

وبولس جال في العالم نازعًا أشواك الشر، باذرًا بذار الصلاح على نطاق واسـع، مثل صاحب محراث حكيم ممسك بمحراث التعاليم... لقد غيَّر هؤلاء (الأمم). وكيف ذلـك؟ بواسطة العربون (الروح القدس).

هل كان بولس كفؤًا لهذا العمل كله؟ لا بل بواسطة الروح... إذ كان يسنده، إذ نال عربون الروح. لذلك يقول: "ومن هو كفؤ لهذه الأمور" (٢ كو ٢: ١٦)، لكن "كفايتنا من الله الذي جعلنا كفاة لأن نكون خدام عهد جديد لا الحرف بل الروح" (٢ كو ٣: ٥، ٦).

تأمل ماذا فعل الروح؟ لقد وجد الأرض مملوءة من الشياطين فجعلها سماء.

فقبل ذلك (قبل التجسد الإلهي) كان في كل مكان مراثٍ ومذابح للأوثـان. وفـي كـل موضع يصعد دخان الأصنام وبخوره، وفي كل منطقة تُقام فرائض نجسة وأسرار وثنية وذبائح، في كل مكان تعمل الشياطين على الهتك بالشرف، في كل مكان توجد حصون للشيطان... ومـع هذا كله وقف بولس وحده... فكيف قدر أن يبشر؟! لقد أسرّ البشر (في الإيمان).

دخل قصر الملك وتلمذ الملك على يديه[١].

دخل دار القضاء، فقال له الوالي: "بقليل تقنعني أن أصير مسيحيًا" (أع ٢٦: ٢٨). وهكذا صار القاضي تلميذًا.

دخل السجن، فأسر حافظ السجن (في الإيمان) (أع ١٦: ٣).

---

[١] ربما يقصد سرجيوس بولس (أع ١٣: ١٢).

زار جزيرة البرابرة، واستخدم الأفعى وسيلة للتعليم (أع ١٨: ٣).
زار الرومان وجذب الوالي (السيناتو) لتعاليمه.
زار الأنهار والصحاري في المسكونة...

إن الله يعطي للطبيعة البشرية عربون خاتم الزواج الذي له، وعندما يعطيه يقول لها: أمور كثيرة أعطيها لكِ الآن، أما بقية الأشياء الأخرى فأعدِك بها.

ثالثًا: ثوب الملكة (اختلاف المواهب)

يقول النبي: "قامت الملكة عن يمينك **بثوب موشى بالذهب**" (مز ٤٥). لا يقصد ثوبًا حقيقيًا بل الفضيلة، إذ يقول الكتاب المقدس في موضع آخر للذي حضر الوليمة بغير لباس العرس: "لماذا أتيت إلى هنا بدون لباس العرس"؟! فهنا لا يقصد عدم لباسه ثوبًا ما، بل أن حياته مملوءة زنا ونجاسة.

وكما أن الثوب النجس يشير إلى الخطية، هكذا الثوب الموشى بالذهب يشير إلى الفضيلة. هذا الثوب ينتسب للملك وهو وهبها إياه، لأنها كانت عارية... عارية وقبيحة...

انظر إلى التعبير "ثوب موشى بالذهب"، فإنه يحمل معنى ساميًا، إذ لم يقل ثوبًا ذهبيًا، بل "موشى بالذهب"...

الثوب الذهبي يكون ذهبًا بكامله، أما الموشى (المنسوج) بالذهب، فإن جزء منه ذهب والآخر حرير... إنه يعني أن حال الكنيسة في مظاهرها متعدد، فحالنا جميعًا ليس على نمط واحد، فمنا من هو بتول، ومن هو أرمل، ومن هو مُكَرَّس... هكذا ثوب الكنيسة يعني حالها.

فبقدر ما عرف سيدنا أنه لو رسم لنا طريقًا واحدًا فقط يضل كثيرون، رسم لنا طرقًا كثيرة.

إن لم تقدر أن تدخل الملكوت عن طريق البتولية، ادخله بزواج واحد (لا تقبل طرفًا أخرًا بعد وفاة الطرف الثاني)، وربما بالزواج الثاني (بعد وفاة الأولى).

إن لم تقدر أن تدخل الملكوت عن طريق الزهد، الشفقة والعطاء... أو الصوم. إن كنت لا تستطيع استخدام طريق ما (لأسباب قهرية) استخدم الطريق الآخر... فالنبي لم ينطق عن ثوب ذهبي، بل منسوج بالذهب، إنه من الحرير أو الأرجوان أو الذهب.

إن لم تكن أنت جزءًا من الذهب، كن حريرًا، فإنني أقْبلُك فقط إن كنتَ منسوجًا في ثوبي. هكذا يقول بولس: "إن كان أحد يبني على هذا الأساس ذهبًا فضة حجارة كريمة" (١ كو ٣: ١٢).

إن لم تقدر أن تكون ذهبًا كن فضة، إن ما يلزمك هو أن تكون مستقرًا على الأساس.

وفي موضع آخر يقول: "مجد الشمس شيء، ومجد القمر آخر، ومجد النجوم آخر" (١ كو ١٥: ٤١). إن لم تقدر أن تكون شمسًا كن قمرًا... وإلاً فكن نجمًا. اقبل أن تكون أصغر شيء ولكن المهم أن تكون في السماء.

إن لم تقدر أن تكون بتولاً، كن عفيفًا في زواجك، إنما ارتبط بالكنيسة.

إن لم تقدر أن تبيع ممتلكاتك كلها، قدِّم صدقة، إنما ارتبط بالكنيسة لابسًا الثوب اللائق، خاضعًا للمملكة (الكنيسة).

الثوب موشى بالذهب، إنه ثوب في نسيجه مواد متنوعة، فلا أغلق الطريق قدامك...

"ثوب موشى بالذهب" أي متنوع في نسيجه، متمايز في تركيبه؛ أرجوك أن تكشف المعنى العميق لهذا التعبير المستعمل هنا، مثبتًا نظرك إلى الثوب الموشى بالذهب.

فهنا يوجد أناس يعيشون في عزوبة (بلا زواجٍ)، والبعض في حياة زوجية مكرمة، وهؤلاء ليسوا أقل بكثير من أولئك.

البعض تزوج مرة واحدة، والبعض قَبِلَ الترمل في زهرة عمره (ولم يتزوج بعد).

... في الفردوس زهور كثيرة وأشجار متنوعة... لكنه فردوس واحد...

هناك الجسد والعين والأصبع، لكنها هذه كلها معًا إنسان واحد!

هناك أيضًا الصغير والعظيم والأقل... البتول تحتاج إلى المتزوجة، لأن البتول ولدتها أم متزوجة، فلا تحتقر البتول الزواج.

هكذا يرتبط الكل ببعضه البعض، الصغير مع العظيم والعظيم مع الصغير.

رابعًا: انتظار بيت الزوجية

"قامت الملكة عن يمينك،

بثوب موشى بالذهب،

مزينة بأنواعٍ كثيرة،

اسمعي يا ابنتي وانظري وأميلي أذنك".

قائد العروس يقول لها بأنها قد اقتربت أن تذهب إلى بيتها بيت العرس، الذي بطبيعته يعوقها كثيرًا جدًا...

"اسمعي يا ابنتي"... إنه خطبها زوجة، وأحبها كابنة له، ويعولها كخادمة، ويحافظ عليها كعذراء، ويسيج حولها كحديقة ويدللها كعضو في جسد هو رأسه، إنه هل كأصل (جذر) يهبها النمو، وكراع يطعمها، وكعريس يقترن بها، وكفادٍ يغفر لها، وكخروف يذبح لأجلها، وكعريس يحفظها في جمال، وكزوج يعولها...

"**اسمعي يا ابنتي وانظري**" متأملة في الأمور التي تخص الرأس، والتي هي روحية.

"**اسمعي يا ابنتي**" إنك كنت قبلاً ابنة الشيطان، ابنة أرضية، غير مستحقة للأرض، والآن صرت ابنة للملك (لله). وهذا ما يريده الذي يحبها. لأن من يحب أحدًا لا يستقصي عنه، فالحب يجعله لا يبالي بنجاستها القديمة (بل يقدسها)... هكذا صنع الرب يسوع. فقد رآها نجسة، وأحبها وجعل منها ابنة له بلا عيب ولا دنس. يا له من عريس يزين بالنعمة العروس النجسة.

"**اسمعي يا ابنتي وانظري وأميلي أذنك**"

يقول أمريْن: اسمعي، انظري.

أمران تعتمدين فيهما على نفسك: عيناك، أذناك.

الآن مهرها يعتمد على السمع (إذ لم ترَ بعد ملكوت السموات)... فالإيمان جاء بالسمع. الإيمان يناقض ما هو بالعيان، أي ما حدث وتم حاليًا.

لقد سبق فقلتُ بأن خاتم الزواج قد قُسِّمَ إلى قسميْن:

نصيب أعطاه للعروس هنا كعربون، والآخر وعد به في المستقبل...

أعطى الأول، أما الثاني فيعتمد على الرجاء والإيمان...

لننصت إلى ما أعطانا... وما وعدنا به...

افهم ما يُقال حتى لا تفقد شيئًا... إن خاتم العرس قد قُسِّمَ إلى قسميْن:

أشياء حاضرة، وأشياء آتية؛

أشياء تُرَى، وأمور يُسمَع عنها؛

أشياء تُعطَى هنا، وأخرى نثق أننا سنأخذها؛
أشياء نستخدمها هنا، وأخرى نتمتع بها هناك؛
أشياء تخص الحياة الحاضرة، وأخرى تأتي بعد القيامة.

الأشياء الأولى نراها، والأخيرة نسمع عنها... "اسمعي يا ابنتي وانظري وأميلي سمعك"... ها أنا أعطيك الآن بعض الأشياء وأعدك بالأخرى. هذه الأخرى تعتمد على الرجاء، أما الأولى فتَقَبَّليها كهدايا للعرس وعربون ودليل يؤكد نوال الأمور المُقْبِلة.

إنني أعدك بالملكوت، وأجعل الأمور الحاضرة كأساس لتثقي فيّ...

هل تعطيني الملكوت؟... نعم وقد وهبتك النصيب الأكبر لأنني أعطيتك حتى رب الملكوت، لأنه "الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا أيضًا معه كل شيء"؟! (رو ٨: ٣٢)

هل تهبني قيامة الجسد؟... نعم وقد وهبتك النصيب الأكبر... وهو غفران الخطايا... لأن الخطية هي التي تجلب الموت، فأنا أهلكت الوالد، أفما أزيل المولود (الموت)؟!...

وبماذا تُساهم العروس؟

وأي إمكانيات أقدر أن أساهم بها؟ قل ليّ؟

ساهمي بإرادتك وإيمانك.

"اسمعي يا ابنتي وانظري". ماذا تريد منيّ أن أفعل؟

"**انسي شعبك**[1]"... وأي نوع هو هذا الشعب؟ إنه الشياطين وعبادة الأوثان ودخان الذبائح والدم...

"انسي شعبك وبيت أبيك" اتركي أباك وتعالِ اتبعيني... إنني كما لو تركتُ (بلا انفصال) أبي وجئت إليك، أفلا تتركي أباك؟ وعندما نقول إن الابن ترك الآب لا نفهم أنه ترك حقيقي يعني الانفصال، بل بمعنى "إنني نزلت ووفقت بيني وبينك واتخذت ليّ جسدًا. هذا هو واجب العريس والعروس..."

---

[1] يفسر القديس يوحنا الذهبي الفم الشعب هنا ليس الناس الذين نتعامل معهم بل الشر الذي نحيا فيه.

"**فإن الملك قد اشتهى حسنك**". سيكون الرب هو حبيبك وإذ يكون حبيبًا لك، فكل ما له يكون لك.

إنني أثق أنكم تفهمون ماذا أقول... لأن "الحسن" هنا يظنه اليهود (قليلو الفهم) الجمال المحسوس لا الجمال الروحي...

يوجد جمال جسدي وجمال روحي. الجمال الجسدي يكْمُنُ في اتساع حاجب العين وبريقها، وملامح الوجه التي فيها حياء، والشفاه الحمراء والأنف المستقيمة... هذا الجمال الجسدي مصدره الطبيعة وليس حسب اختيارنا... فالمرأة السمجة المنظر (إن صح هذا التعبير) وإن أرادت بطرقٍ لا حصر لها أن تتجمل لا تقدر أن تصير رشيقة جسديًا، لأن الطبيعة حددت أمورًا لا تقدر أن تتجاوزها...

الآن دعنا نجول داخلنا في الروح... انظر إلى ذلك الجمال الروحي، أو بالحري أصغِ إليه، لأنك لا تقدر أن تراه طالما هو غير منظور.

أصغِ إلى هذا الجمال. ما هو جمال الروح؟ إنه العفة، اللطف، الصدقة، الحب، الحنان الأخوي، العطف، الطاعة لله، تنفيذ الوصايا، البرّ، انسحاق القلب. هذه الأمور هي جمال الروح.

هذه الأمور لا تنجم عن الطبيعة... بل إن كل من ليس لديه هذه الأمور يقدر أن يمتلكها، ومن يمتلكها إن أهمل فيها يخسرها. فكما أنه في حالة الجسد كنت أقول إن المرأة السمجة لا تقدر أن تكون رشيقة، هكذا بالنسبة للروح، أقول العكس إن النفس الجاحدة تقدر أن تمتلئ بالنعمة. لأنه من كان أكثر جحودًا من روح بولس عندما كان مجدفًا ومضطهدًا، وأي روح مملوءة نعمة أكثر منه عندما يقول: "قد جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعي، حفظت الإيمان" (٢ تي ٤: ٧).

أي روح فاسدة كروح اللص، وأي روح مملوءة نعمة أكثر منه، عندما سمع "الحق أقول لك اليوم تكون معي في الفردوس" (لو ٢٣: ٤٣).

من كان أكثر شرًا من العشار عندما كان مغتصبًا، ومن صار أكثر نعمة منه، عندما أعلن عن ثبات تغيره (لو ١٩: ٨).

انظرْ إذن أنك لا تقدر أن تغيِّر في جمال الجسد، لأنه نتيجة حتمية الطبيعة لا نتيجة تصرُّف الإنسان. أما جمال الروح فيأتي حسب اختيار تصرفنا...

إن جمال الروح ينبع عن الطاعة لله، إذ النفس الفاسدة متى خضعت لله انتُزِع عنها فسادها وصارت مملوءة جمالاً.

لقد قيل: "شاول، شاول لماذا تضطهدني؟"، فأجابه "من أنت يا سيد"... "أنا يسوع" (أع ٩: ٤-٥). فأطاع، وبطاعته صارت روحه الشريرة مملوءة بركة.

مرة أخرى قال للعشار: "اتبعني" (مت ٩: ٩)، فقام العشار وصار رسولاً، وصارت الروح الشريرة مقدسة. كيف؟ بالطاعة.

ومرة ثالثة قال لصيادي السمك: "هلم ورائي فأجعلكما صيادي الناس" (مت ٤: ١٩). وبطاعتهما صارت أفكارهما مملوءة جمالاً...

"**اسمعي يا ابنتي... وانسي**"... إنه يتكلم عن جمال روحي، إذ يقول لها: "اسمعي، انسي"، أمور لها حق الاختيار فيها... إنه يقول للمرأة الخاطئة: "اسمعي"، فإذا أطاعت فسترى أي نوع من الجمال يُوهب لها.

فحيث أن قُبح العروس لم يكن قبحًا جسديًا بل روحيًا لأنها عصت الله ولم تطعه... فإنه بالطاعة تصير مملوءة نعمة...

يلزمك أن تتعلمي أنه لا يقصد أي معنى منظور عندما يقول "حسنكِ". لا تفكري في العين والأنف والفم والرقبة، بل في العطف والإيمان والحب والأمور الداخلية، لأن "**كل مجد ابنة الملك من داخل**".

والآن من أجل هذه الأمور نُقَدِّم التشكرات لله المعطي، لأن له وحده يليق المجد والكرامة والقدرة إلى أبد الآبدين. آمين

الفكر المتواضع

للقديس يوحنا الذهبي الفم

طبعة منقحة

٢٠٠٧

تعريب

القمص تادرس يعقوب ملطي

مُعرب عن:

Nicene and Post-Nicene Fathers, Series 1 Volume 9.
Lowliness of Mind.

مفهوم التواضع

يسوع مُعَلِّم التواضع

"**فليكن فيكم هذا الفكر** الذي في المسيح يسوع أيضًا. الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خُلسة أن يكون معادلاً لله. لكنه أخلى نفسه، آخذاً صورة عبدٍ، صائرًا في شبه الناس. وإذ وُجِدَ في الهيئة كإنسانٍ، وضع نفسه، وأطاع حتى الموت موت الصليب" (في ٢: ٥-٨).

إذ أعلن كلمة الله أعماق حبه لنا نحن البشر بتواضعه، تاركًا أمجاده بإرادته حاملاً هذا الجسد الضعيف الذي لنا، مهانًا منا، مضروبًا ومبصوقًا على وجهه من خليقته، حاملاً عار الصليب في طاعة لأبيه وحبه لنا، أخذ كثيرون يتسابقون في اللقاء مع هذا الحبيب في دائرة التواضع.

لكن للأسف، كثيرون حتى ممن تحدَّثوا عن التواضع بحديثهم هذا سقطوا وأسقطوا آخرين في أعماق الكبرياء. وكثيرون ممن حاولوا ممارسة التواضع، بممارستهم هذه انحطوا بالأكثر إلى أَمَر درجات الكبرياء. لذلك لنترك ربنا يسوع يُعَلِّمنا بنفسه حقيقة التواضع.

ماذا نرى في ربنا يسوع المتواضع، وأي فكر فيه إلا القلب الملتهب حبًا نحو البشرية. فالتواضع لم يكن إلا حُلَّة للاهوت، لبسها الله الكلمة عندما أخلى نفسه ظاهرًا لنا في الجسد، وآخذًا صورة العبد، وتاركًا عظمته السمائية، مولودًا في مزودٍ حقيرٍ ليس له باب ولا بوّاب، يدخل كل ما يريد أن يتلامس مع الحب الإلهي. فيأتيه الأطفال والرضع ولا يرتعبون منه، بل يُسبِّحونه ويمجدونه، يأتيه اللصوص فيصيرون ورثة الملكوت، ويصير من العشارين إنجيليون، ويأتيه الزناة فيصيرون قديسين مرافقين له. يأتيه الكل بآلامهم ونجاسات قلوبهم، فيرونه حمل الله الذي يرفع خطايا العالم كله.

هذا هو التواضع الحقيقي! إنه أَحَبَ ويبقى يحب. بذل، فترك كل شيء لأجل المحبوبين، حتى إلى الموت، موت الصليب!

هذا هو التواضع، كما أعلنه لنا ربنا يسوع، يستحيل على البشرية أن تمارسه أو حتى أن تدركه، لأنه حب للآخرين حتى إلى الموت بفرحٍ. وكما يقول مار اسحق: "**أريد أيها الإخوة أن أفتح فمي وأتكلم عن خبر التواضع الشريف، ولكنني خائف كمن يريد أن يتكلم عن الله**".

لكن التواضع يصير سهلاً، إن تركنا ربنا يسوع يعمل فينا. إنه ينادينا، قائلاً: "اثبتوا فيّ وأنا فيكم. كما أن الغصن لا يقدر أن يأتي بثمرٍ من ذاته إن لم يثبت في الكرمة، كذلك أنتم أيضًا إن لم تثبتوا فيَّ. أنا الكرمة وأنتم الأغصان. الذي يثبت فيَّ وأنا فيه، هذا يأتي بثمرٍ كثيرٍ. لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئًا" (يو ١٥: ٤-٥).

لكي نتواضع يليق بنا أن نحمل ربنا يسوع ونتركه يعمل فينا، فيصير لنا تواضعه هو، ويذوب كبرياؤنا الداخلي.

بقدر ما تتركز أنظارنا وأفكارنا وقلوبنا وعيوننا الداخلية نحو ربنا يسوع، ننسى ذواتنا وكل ما لنا، ويكون لنا التواضع الحقيقي من مصدره الأصلي "من ملئه نحن جميعًا أخذنا" (يو ١:١٦).

أمَا نجاهد لننال التواضع؟

التواضع هبة يقدمها ربنا يسوع لأولاده بثبوته فيهم، لكنه لا يُعطي هذه الهبة ما لم يجاهدوا. لذلك يأمرهم: "تعلموا مني، لأني وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم" (مت ١١:٢٩).

وفى مقدمة عظته المشهورة على الجبل أمرهم بالتواضع بكونه **الفضيلة الأولى** في المسيحية "طوبى للمساكين بالروح" (مت ٥:٣). وأول طريق الجهاد لنوال التواضع هو **الصلاة بلجاجة**. "إن كان أحد تعوزه حكمة، فليطلب من الله الذي يعطي الجميع بسخاء" (يع ١:٥). ولم تقف تعاليم الكتاب المقدس عن حد الصلاة فحسب، رغم أنها الأساس الأول لنوال كل عمل صالح، لكنها تطالبنا بالجهاد ومحاسبة أنفسنا بتدقيقٍ، وألا ندين أحدًا، ملقين باللوم على أنفسنا، وألا نعطي للمظاهر الباطلة اهتمامًا زائدًا، أو يكون لها أي مكان في قلوبنا ننشغل بها. كذلك طالبنا ألا نطلب كرامة الناس ولا نحب مديحهم أو نخشى ذمهم، وألا نطلب الأماكن الأولى في المتكآت والولائم والاجتماعات وألا نشتهي النصيب الأكبر في شيءٍ ما.

على أي حال، الله يهب التواضع من عنده، إن جاهدنا بنعمته بالصلاة والعمل.

مفاهيم ناقصة

١. **التواضع مجرد شعور بالضعف:** حسن جدًا أن يَعلَمَ الإنسان شره ويعترف بعجزه، فإن هذا هو **بداية اللقاء مع الرب**. لذلك يُرَدِّد المرتل: "خطيتي أمامي في كل

حين" (مز ٥٠). ويقول قائد المائة بانكسار لربنا يسوع: "لست مستحقًا أن تدخل تحت سقفي" (مت ٨:٨)، ويقرع العشار صدره قائلاً: "اللهم ارحمني أنا الخاطئ".

على أي الأحوال، لا يقدر أحد من البشر أن يتلامس مع الفادي ما لم يشعر بحاجاته للفداء، معترفًا بثقل خطاياه، مدركًا عجزه عن القيام بذاته. لكن لو كان هذا هو كل التواضع، لكان مصيرنا كيهوذا اليائس. ولتحولت المسيحية إلى بؤسٍ وقنوطٍ ودمدمةٍ، تُفقِد الإنسان إنسانيته وحيويته. لكن التواضع بحق هو الشعور بالضعف والاعتراف به مع الإيمان بيسوع المسيح الذي يقيم الأموات من الخطية بعدما أن أنتنوا. هو تلامس مع ربنا يسوع المتواضع.

فالمرتل وهو يُرَدِّد: "خطيتي أمامي في كل حين"، يؤمن بالقادر أن يقيمه، فيقول: "قلبًا نقيًا اخلق فيّ يا الله، وروحًا مستقيمًا جدده في أحشائي". وقائد المائة لم يقف عند قوله: "يا سيدي لست مستحقًا أن تدخل تحت سقفي"، بل آمَن بحب الله له وقدرته. "ولكن قُلْ كلمة فيبرأ غلامي".

هذا هو التواضع الحقيقي، الذي لا يقدر أن يتطرق إليه اليأس. لهذا مهما بلغت خطاياك ونجاسات قلبك، وإن شعرت بالخجل أن تقف على عتبة باب بيته أو ترفع نظرك إليه، آمن أنه يحبك، ويفتح لك حضنه، ويشتاق إليك، ويطلبك لا لكي يدينك، بل لكي يُقَدِّسك ويرفعك إلى السماويات وأنت بعد على الأرض.

٢. **التواضع مجرد مظهر التخلِّي**: كثيرون اشتهوا التواضع كفضيلة مُجَرَّدة دون أن يطلبوها كلقاء مع رب التواضع، فاكتفوا بالمظهر دون الجوهر، فانحرف بهم إلى قمة مرتفعات الكبرياء دون أن يدروا.

إنسان كلما التقى بغيره يردد: "أخطأت. سامحني. صلِ من أجلي"، لكنه لا يشعر بخطيته، بل في أعماق قلبه يشعر أنه أفضل من غيره. هذا رياء لا علاقة له بالتواضع. وآخر يلبس ملابس وضيعة، حاسبًا أنه بهذه الملابس وحدها يقدر أن يقتنى التواضع. إذ يظن في نفسه أنه متواضع يصير متكبرًا. فقد يتعلق قلبه بالملابس والمظهر أكثر من الذين يلبسون ملابس ثمينة لكنهم لا يعطونها من أوقاتهم أو قلوبهم شيئًا.

وأخيرًا يمكننا أن نقول باختصار أن التواضع هو الجانب الآخر لحب الله والناس، وله جانبان متلازمان: الالتقاء بربنا يسوع، وترك العالم. فبقدر ما يتلامس المؤمن مع ربنا يسوع يستخف بالماديات والكرامة الزمنية، وبالتالي يندفع إلى حب الله أكثر، وهذا بدوره

يزيد من قطعه لرباطات العالم. هكذا يحيا الإنسان في تواضعه ناميًا يومًا فيومًا إلى أن يُكَمِّلَ أيام غربته وهو يحسب أنه لم يصل بعد إلى التواضع.

التواضع و الاستهتار

قلنا إن التواضع الحقيقي هو التسليم والإيمان بيسوع المسيح العامل فينا. "ولكن بنعمة الله أنا ما أنا، ونعمته المعطاة لي لم تكن باطلة بل تعبت... ولكن لا أنا بل نعمة الله التي معي" (١ كو ١٥:١٠). ونعمة الله لا تعرف الاستهتار، وتواضع ربنا يسوع ما كان يعلن تهاونًا، بل بالعكس كان يعلن الحق بقوةٍ وشجاعةٍ، ولو كان فيه مضايقة للآخرين. فلم يفتر عن أن يوبخ هيرودس المخادع أو الكتبة والفريسيين المرائين.

هذا ما أراد القديس يوحنا الذهبي الفم أن يعلنه لشعبه، إذ قامت جماعة من الهراطقة تضلل الشعب تحت اسم المسيح، ولكي يستكين الشعب كانوا يرددون لهم قول الرسول: "غير أنه على كل وجه سواء كان بعلةٍ أو بحقٍ ينادى بالمسيح"، مفسرين ذلك تفسيرًا خاطئًا، مطالبين الشعب أن يقبلوا الهرطقات في تواضعهم طالما كان الحديث عن المسيح.

وقد ألقى هذه العظة في أنطاكيا سنة ٣٨٦م.

التواضع والمثابرة

ربنا يسوع المسيح في تواضعه يعمل دومًا، مجاهدًا في كل عملٍ وخدمةٍ؛ إنه لا يعرف الخمول. هكذا كل من له روح التواضع الحقيقي، يشعر بالضعف الذاتي، لكنه يؤمن بقوة ربنا يسوع العامل، فلا يكف عن الجهاد في صلواتٍ وأسهارٍ وأصوامٍ وتعبٍ وكَدٍ بلا كسل، عاملاً بثقة أكيدة بلا يأس أو قنوط أو خوف من الفشل.

ليعطني الرب وإياك روح التواضع الحقيقي، فنثابر كل أيام غربتنا، مغتصبين ملكوت السماوات.

٢٦ نوفمبر ١٩٦٥

١٧ هاتور ١٦٨٢

المُعرِّب

الفريسي والعشار

(أشار القديس يوحنا الذهبي الفم في عظته الخامسة ضد أنوميانس *Enomoens* إلى مَثَلِ الفريسي والعشار، بأن لكل منهما مركبة، الأول مركبته يجرها البرّ والكبرياء، والثانية تجرها الخطية والتواضع).

عندما أشرتُ أخيرًا إلى الفريسي والعشار، وافترضت أن لهما مركبتين هما الفضيلة والرذيلة، فإنني إنما أشير إلى حقيقة كل منهما. كم هو مفيد تواضع الروح، وكم هو فساد الكبرياء؟!

فالكبرياء وإن لازمه البرّ والأصوام وتقديم العشور، فإن مركبته تتقهقر. وأما تواضع الروح، وإن لازمته الخطية، لكن يسبق حصان الفريسي، ولو كان الذي يقوده فقيرًا (من جهة البرّ)! لأنه من كان أشر من العشار، ومع ذلك إذ كانت روحه متواضعة ودعا نفسه خاطئًا، وهو بحق خاطئ، إلا أنه سما على الفريسي الذي كان له أن يتكلم عن أصوامه ودفعه العشور...

لقد نُزِعَتْ الشرور من العشار. إذ أُنتُزِعَتْ عنه أُمِ كل الشرور، أي المجد الباطل والكبرياء. وعلى هذا الأساس يعلمنا الرسول بولس قائلاً: "ليمتحن كل واحدٍ عمله، وحينئذ يكون له الفخر من جهة نفسه فقط لا من جهة غيره" (غل ٦:٤).

أما الفريسي فتقدَّم متهمًا العالم كله جهرًا، حاسبًا نفسه أفضل من جميع البشر. مع أنه ولو فضَّل نفسه عن عشرة فقط أو خمسة أو اثنين أو حتى واحد، فإن هذا ليس بمقبول. لكنه لم يقف عند حد تفضيل نفسه عن العالم كله، بل واتَّهم البشرية كلها، وبهذا تخلَّف وراء الركب كله.

وكما أن السفينة إن جرت كثيرًا بسبب الأمواج غير المحصاة والعاصفة الشديدة، فإنها تتحطم على الصخور في داخل الميناء، وتفقد كل ما تحمله من كنوز، هكذا فعل الفريسي، إذ قدَّم أصوامًا وصنع بقية فضائله إلا أنه لم يحكم لسانه، فتحطمتْ نفسه داخل الميناء، ورجع إلى بيته بعد الصلاة - أي في داخل الميناء - وقد أصابه دمار عظيم، وبدلاً من أن ينال نفعًا أدركه التحطيم!

أيها الإخوة... إذ قد عرفنا هذا كله، فلننظر إلى أنفسنا أننا آخر الكل، ولو كنا قد بلغنا قمة الفضيلة عينها، عالمين أن الكبرياء قادر أن يسقط حتى السمائيين إن لم يحترسوا،

بينما تواضع الفكر يرفع من هاوية الخطايا أولئك الذين يعرفون كيف يسمُون، وهذا ما جعل العشار يسبق الفريسي.

فالكبرياء - أقصد غرور النفس- أقوى حتى من القوات غير المتجسدة، أي الشيطان، بينما تواضع النفس ومعرفة الإنسان لخطاياه التي ارتكبها، جعلا اللص يسبق الآباء الرسل إلى الفردوس.

الآن إن كان الذين يعترفون بخطاياهم تصير حياتهم عظيمة هكذا، كم بالأكثر يكون أولئك الذين وهم يصنعون الفضائل يكونون متواضعي الروح؟! أية أكاليل عظيمة يعجزون عن نوالها؟! لأنه عندما نربط مع ارتكاب الخطية تواضع الفكر، فإن المركبة تجري بسهولة وتعبر وتفوق (المركبة التي بها) البرّ ملاصقًا للكبرياء. فكم بالحري إن لاصق التواضع البرّ أما تصل المركبة؟! أية سماوات لا تعبرها؟! إنها بالتأكيد تعبر بسلامٍ عظيمٍ حتى تستقر عند العرش الإلهي وسط الملائكة...

ومن جانب آخر، فإن الكبرياء إن لازمه في النير البرّ، فإنه بشره وثقله تفقد المركبة سلامتها. فإلى أي جحيمٍ عميقٍ لا يهوي بصاحبه إن ارتبط الكبرياء بالخطية؟!

إنني لا أنطق بهذا لكي نهمل البرّ، بل لكي نتجنب الكبرياء، ولا لكي نخطئ بل لكي نسمو بأفكارنا، إذ إن تواضع الروح هو ينبوع الحكمة الخاصة بنا. فإن قمت بتشييد بناءٍ شامخٍ من أشياء غير محصاة هي صدقات أو صلوات أو أصوام أو جميع الفضائل، فإنك إن لم تلقِ بالتواضع كأساس لهذا البناء... فسيكون بناءً بلا هدفٍ وباطل، ويسقط سريعًا، كالبناء المقام على الرمل.

لا يوجد شيء، ولا يوجد عمل من الأعمال الصالحة لا يحتاج إلى التواضع. ولا يمكن لفضيلةٍ ما أن تثبت بدون التواضع. فإن كنت تشير إلى العفة والبتولية أو احتقار المال، فإن هذه جميعها بدون التواضع تصير غير نقية ودنيئة، بل وكريهة.

لنأخذ التواضع أينما ذهبنا: في كلماتنا وأعمالنا وتفكيرنا، وفيه نبني هذه البركات (الفضائل).

تواضع لا استهتار

يلزمني أن أوضح قول الرسول الذي قُرِئَ على مسامعكم اليوم... "سواء كان بعلةٍ أم بحق يُنادَى بالمسيح" (في ١:١٨). إذ يفسد البعض هذا القول تمامًا... دون أن يقرأوا

ما يسبقه وما يليه، بل يبترونه عن بقية الجزء المرتبط به (ارتباطًا حيًا)، وذلك لأجل هلاك نفوسهم، واضعين هذا النص أمام الذين هم أكثر منهم تراخيًا.

هؤلاء يحاولون تضليل أولئك عن الإيمان المستقيم (بالهرطقات)، وإذ يرونهم خائفين ومرتعبين... يُقَدِّمون لهم هذا القول الرسولي لتسكين خوفهم، مُدَّعين أن بولس قد سمح بهذه (الهرطقات)... لكن هذا ليس بصحيحٍ، وهم ليسوا بصادقين.

الرد عليهم

أولا: لم يقل الرسول: "يلزمهم أن ينادى بالمسيح"، بل قال "ينادى بالمسيح"... الأولى عبارة من يأمر ويُشَرِّع، والثانية من يصف ما يحدث. فالرسول لم يَسِنْ قانونًا يلزم بضرورة قيام هرطقات... بل بالعكس قطعها من بين الذين هم تحت رعايته، قائلاً: "ولكن إن بشرناكم نحن أو ملاك من السماء بغير ما بشرناكم فليكن أناثيما (محرومًا). كما سبقنا فقلنا أقول الآن أيضًا إن كان أحد يُبَشركم في غير ما قبلتم فليكن أناثيما" (غل ١: ٨-٩). مرة أخرى يقول: "فإني أغار عليكم غيرة الله، لأني خطبتكم لرجلٍ واحدٍ، لأُقَدِّم عذراء عفيفة للمسيح. ولكنني أخاف أنه كما خدعت الحية حواء بمكرها، هكذا تفسد أذهانكم عن البساطة التي في المسيح" (٢ كو ١١:٢-٣)... فلو كان في السماح لا يوجد خطر... ما كان لبولس أن يخاف. وما كان للمسيح أن يأمر بحرق الزوان لو أن الإصغاء إلى هذا وذاك يكون بلا تمييز...

ثانيًا: يلزمك أن تعرف الظروف التي كانت تحيط ببولس أثناء كتابته هذه الأحرف... لقد كان في السجن مُقَيَّدًا، تحيط به مخاطر لا تُطاق... إذ كتب في نفس الرسالة يقول: "ثم أريد أن تعلموا أيها الإخوة أن أموري قد آلت أكثر إلى تَقَدُّم الإنجيل حتى أن وثقي صارت ظاهرة في المسيح... وهم واثقون في الرب بوثقي يجترئون أكثر على التكلم بالكلمة بلا خوف" (في ١:١٢- ١٤).

الحب يدفع إلى التواضع دون الاستهتار[1]

ألقى نيرون بولس في السجن. وكما أن اللص إذا دخل منزلاً ليغتصب كل شيء والكل نيام، فإنه إذا رأى إنسانًا أشعل مصباحًا يطفئ النور، ويقتل حامل المصباح، حتى

[1] الحديث التالي افتراضي، إذ كشف القديس يوحنا الذهبي الفم عن "الحب والتواضع" على ضوء ظروف بولس القاسية، على أنه سيعود مرة أخرى إلى الرد بأن القول لا يعني السماح للهراطقة بالتبشير.

يتمكن من السرقة في أمان، مغتصبًا أموال الغير، هكذا فعل القيصر نيرون كأي لصٍ. بينما كان الكل مستغرقين في نومٍ عميقٍ وبلا شعورٍ، أخذ يسرق ممتلكات الكل، وينتهك الحرمات، ويخرب البيوت، صانعًا كل أصناف الشرور. وإذ رأى بولس قد أضاء وسط العالم مصباحًا، هو كلمة تعليمه، موبخًا شره، سعى نيرون إلى إطفاء تعاليمه، وإهلاك المُعَلِّمين، حتى يقدر بسطوته أن يصنع ما يلذ له، فقيَّد الرجل الطوباوي، وألقى به في السجن.

هذا هو الوقت الذي كتب فيه بولس هذه الأمور (بروح الحب وفي تواضع)...

إنه وهو مُقيَّد ومسجون في روما، وعلى بعد مسافة كبيرة يكتب رسالة إلى أهل فيلبى؟!... فلا بُعْد المسافة، ولا الوقت الذي يبدو غير مناسب، ولا ضغط العمل ولا المخاطر أو الكوارث التي تلحق به واحدة تلو الأخرى... **تقدر أن تنزع حبه لأولاده أو تذكره لهم...**

لم تكن يداه مقيدتيْن بالسلاسل قدر ما كانت روحه مرتبطة ومُسَمَّرة باشتياقه نحو أولاده. الأمر الذي أعلنه في مقدمة الرسالة قائلاً: "لأني حافظكم في قلبي، في وثقي، وفى المحاماة عن الإنجيل وتثبيته" (في ١:٧).

وكما أنه عندما يتولى ملك عرشه... ويحتل مكانه في البلاط الملكي، ترد إليه خطابات لا حصر لها، هكذا كان بولس وهو في السجن المعتم كما في بلاط ملكي يتقبل ويرسل رسائل إلى كثيرين وفى كل يوم. يهتم مرة بأهل كورنثوس، ومرة أخرى بأهل مكدونية، وأيضًا بأهل فيلبى وكبادوكية وغلاطية وأثينا وبنتس.

كيف يهتم بهؤلاء جميعًا معًا؟!

وإذ وضع العالم بين يديه، لم يكن يهتم بالأمم ككل فحسب، بل وكان يهتم بالأفراد أيضًا. فيبعث برسالة لأجل أنسيموس، وأخرى لأجل نفع الزاني بين أهل كورنثوس... ناظرًا إليه كمخلوقٍ بشريٍ كائن، له قيمته الكبرى في نظر الله، إذ لأجله لم يضن الآب عليه بالابن الوحيد.

فلا تقل إن هذا أو ذاك عبد هارب أو لص أو قاتل أو إنسان مُثَقَّل بخطايا لا حصر لها، أو متسول أو حقير... بل تأمل أن لأجله مات المسيح. أما يكفي هذا أن يكون أساسًا لكي تعطيه كل اهتمام؟!...

فلو أن ملكًا مات فدية عن إنسانٍ، لا نحتاج إلى دليل آخر يؤكد تقدير الملك له تقديرًا عظيمًا، لأن موته عنه دليل كافٍ لإعلان حبه له. فإن كان الذي قدَّم نفسه بإرادته

لأجلنا، ليس بالإنسان العادي، ولا ملاك ولا رئيس ملائكة، بل رب السماوات ابن الله الوحيد نفسه، آخذًا جسدًا... أفما نصنع كل شيءٍ، ونحتمل كل تعبٍ، لكي يتمتع أولئك الذين المسيح هو قيمتهم، باهتمام أيادينا؟!... هذا على الأقل ما أعلنه الرسول بقوله: "لا تُهلك بطعامك ذلك الذي مات المسيح لأجله" (رو ١٤:١٥)...

فبولس، مع كونه في السجن في مكانٍ بعيدٍ جسديًا، كتب رسالة إلى أهل فيلبى. هذا هو الحب بحسب إرادة الله (٢ كو ٧:١٠). فلم يعق حبه شيئًا بشريًا، **طالما أن جذوره من فوق في السماء وجزاءه سماوي...**

تأمل عناية المعلم واهتمامه بتلاميذه؟! اسمعْ أيضًا عن الحب الذي للتلاميذ نحو معلمهم، حتى تَعلم كيف أن الحب جعلهم أقوياء غير مقهورين، إذ اتَّحد بعضهم مع بعض. لأنه إن ساعد الأخ أخاه صار مدينة حصينة.

عظيم هو رباط الحب بينهم، فإنه يفسد خطط الشيطان الشرير!

فمن جهة بولس، فبالحقيقة كان مرتبطًا بتلاميذه... إذ وهو مُقَيَّد يهتم بهم بشغفٍ، ويموت كل يومٍ لأجلهم، مُحتَرِقًا بحبه لهم.

أما من جهة تلاميذه، فكان لا الرجال فقط بل والنساء أيضًا مرتبطين به تمامًا. أصغِ ماذا يقول عن فيبي؟ "صارت مساعدة لكثيرين، ولي أنا أيضًا" (رو ١٦:٢). في هذا المثال شهد لفيبي عن غيرتها إلى حد مساعدتها له، أما بريسكلا وأكيلا فقد بلغ حبهما لبولس إلى درجة الموت لأجله... "اللذين وضعا عنقيهما من أجل حياتي" (رو ١٦:٣-٤). وكتب عن آخر أيضًا (أبفرودتس)... "قارب الموت، مخاطرًا بنفسه، لكي يجبر نقصان خدمتكم لي" (في ٢:٣٠)...

إنني أنطق بهذا، لا لكي نسمع فحسب بل لكي نتمثل أيضًا. وأنا لا أتكلم بهذا للرعية فقط بل وللذين يرعونهم أيضًا. فيُقَدِّم كل التلاميذ اهتمامًا زائدًا نحو معلميهم، ويكون للمعلمين نفس الحب الذي كان لبولس نحو رعيته، لا الحاضرين معه فحسب، بل والبعيدين عنه أيضًا. هكذا **كان بولس يقطن في العالم كله كما في بيت واحد هكذا كان دائم التفكير في خلاص الكل، غير مبالٍ بشيء، لا بقيودٍ أو مضايقاتٍ أو ضرباتٍ أو ضيقاتٍ تحل به من كل جانب.**

وبهذا الهدف وحده أرسل تيموثاوس، وتيخيكس الذي يقول عنه: "الذي أرسلته إليكم لهذا بعينه لكي تعلموا أحوالنا ولكي يعزي قلوبكم" (أف ٦:٢٢). وعن تيموثاوس: "من أجل

هذا إذ لم أحتمل أيضًا أرسلته لكي أعرف إيمـــانكم لعـــل المُجَـــرِّب يكـــون قـــد جـــربكم" (١ تس ٣:٥). وتيطس أرسله إلى مكان آخر، وغيره إلى مكان آخر. فبولس إذ أُلزِمَ بالوجود في مكانٍ محدودٍ ولم يكن قادرًا على اللقاء مع أعضائه الحية بسبب القيود قابلهم عن طريق تلاميذه.

وإذ هو في القيود كتب إلى أهل فيلبي قائلاً: "ثم أريـــد أن تعلمـــوا أيهـــا الإخـــوة" (في ١٢:١)، **مُلَقِّبًا أولاده "إخوة"**، لأن هذا هو الحب، يزيل الفوارق فلا يعرف الإنـــسان أن يكون متمسكًا بالارتفاع على غيره أو الكرامة، بل حتى وإن كان فوق الكل، فإنه ينزل إلـــى آخر الكل. وهذا ما اعتاد أن يفعله بولس.

عودة إلى ظروف بولس

القيود شجَّعتْ التلاميذ

لنصغِ ماذا يرغب منهم أن يعملوا؟ "إن أموري قد آلت أكثر إلى تَقَدُّم الإنجيل" (في ١:١٢).

كيف؟ وبأية وسيلة؟

هل تخلصتَ من قيودك؟ هل نُزعتَ عنك سلسلتك؟

هل صار لك حرية الكرازة في المدينة؟

هل صار لك أن تحضر وتُلْقِيَ عظات إيمانية حتى تربح تلاميذ كثيرين؟

هل تقيم ميتاً، فيتعجبون منك؟

هل تُطَهِّر برص، فيندهش الكل منك؟

هل تُخرج شياطين فيصير لك فخر؟

لم يقل شيئاً من هذا، فكيف تقدَّم الإنجيل؟ أخبرني؟

يقول: "حتى إن وثقي صارت ظاهرة في المسيح في كل دار الولاية وفي باقي الأماكن" (في ١:١٣). اسمعْ أيضًا ما جاء بعد ذلك حتى تَعرِفَ كيف أن الوثُق لم تؤدِ فقط إلى عدم اختفاء الإنجيل، بل بالحري صارت أساسًا أعظم للحديث بحرية "وأكثر الإخوة وهم واثقون في الرب بوثقي يجترئون أكثر على التكلم بالكلمة بلا خوف" (في ١:١٤).

ماذا تقول يا بولس؟ هل وثقك بعثت فيهم ثقة لا اضطرابا؟ شوقًا أعظم لا خوفًا؟... حقًا ما حدث فوق الطبيعة، والنجاح كان بحسب النعمة الإلهية. لأن المُر الذي يستخدم كوسيلة لإقلاق الآخرين قدَّم له ثقة.

لأنه عندما يستعبد أحد قائدًا ويسجنه ويعلن ذلك جهرًا، هذا يبعث إلى هزيمة المعسكر كله في الحرب، وإذا أستُبعد راعيًا عن قطيعه، يصير القطيع في خطرٍ عظيمٍ. أما بالنسبة لبولس فكان الأمر على النقيض. فإذا قُيّد القائد ارتفعتْ روح الجنود المعنوية، وصارت ثقتهم ضد الأعداء (الشيطان) أعظم. وإذ سُجِنَ الراعي لم تفنَ الرعية ولا تبددتْ.

من رأى قط أو سمع عن تلاميذ عندما صار معلميهم في خطرٍ تشجعوا بالأكثر؟ كيف صاروا هكذا بلا خوف؟ كيف لم يرتعبوا؟ لماذا لم يقولوا لبولس: "أيها الطبيب اشفِ نفسك" (لو ٤:٢٣). خلِّص نفسك من الأخطار المحصاة، وعندئذ تقدر أن تهبنا أشياءً

صالحة؟... ذلك لأنهم تعلَّموا في مدرسة "نعمة الروح القدس"، أن هذه المخاطر لا تحدث عن ضعفٍ بل بسماحٍ من السيد المسيح، حتى يشرق الحق بالأكثر جدًا، وعن طريق القيود والسجن والضيقات والمتاعب يرتفع الحق إلى أعلى ويسمو. **هذه هي قوة المسيح التي في الضعف تُكْمَلُ** (٢ كو ١٢: ٩).

فلو أن القيود أسقطته وجعلته يجبن، هو أو الذين ينتمون إليه، لكانت تقف عائقًا أمام كل واحدٍ، لكن بالحري إذ أعدته القيود أن يشعر بالطمأنينة، وينال كرامة أعظم، فإن الإنسان يندهش كيف آلت الأمور التي تخزي إلى أن تكون سببًا لكرامته. إذ وهو في وسط القيود أوصى بالطمأنينة، واستقرت الشجاعة على الجميع. فمن لا يعجب منه وهو مقيد؟ لذلك هكذا **التاج الذي على الرأس الملكي ليس في سمو السلسلة التي في يدي بولس، وذلك ليس ناتجًا عن طبيعة يديه، بل بسبب النعمة التي أشعت بالنور عليهما.**

على هذا الأساس استقرت شجاعة عظيمة على التلاميذ. لأنهم رأوا جسده مربوطًا، لكن لسانه غير مقيَّدٍ، يديه موثقتين بشدة، لكن صوته لم يهتز، **عابرًا في العالم كله أسرع من أشعة الشمس.** هذا صار مشجعًا لهم، متعلمين من الحوادث نفسها أنه لا شيء من أمور هذه الحياة مخيف.

فالروح عندما تنتعش بالحب والشوق الإلهي بغير تَصَنُّع، لا تبالي بأمور الزمان الحالي. على هذا الأساس، إذ يروا معلميهم مقيدين يتشجعون بالأكثر...

خطط الأعداء

إذ صارت الأمور هكذا، فإن بعض أعداء بولس، رغبةً في إثارة الحرب ضده على أشدها، ولكي يثيروا كراهية الطاغية (نيرون) عليه... بشروا بالإيمان المستقيم حتى تنتشر التعاليم بسرعة. وذلك لا بقصد بذر الإيمان، بل لكي يعلم نيرون أن التبشير كان يتزايد والتعاليم تنتشر مما يجعله يسرع في تعذيب بولس.

لقد كانت هناك مدرستان: مدرسة بولس، ومدرسة أعداء بولس. الأولى تُبَشِّر عن إخلاص، والثانية بغير اقتناع، إنما بسبب كراهيتهم له. وقد أعلن ذلك بقوله: "أما قوم فعن حسدٍ وخصامٍ يكرزون بالمسيح، وأما قوم فعن مسرةٍ" (في ١: ١٥). وتبع قوله عن أولئك: "فهؤلاء عن تحزبٍ" ظانين أنهم يضيفون إلى وثقي ضيقًا، وأولئك عن محبة عالمين إني موضوع لحماية الإنجيل. فماذا؟ غير أنه على كل وجه سواء كان بعلةٍ أم بحقٍ يُنَادَى بالمسيح" (في ١: ١٦-١٨).

فباطل أن ننسب هذا القول إلى هراطقة، لأن الذين كانوا يبشرون، لم يبشروا بتعاليم فاسدة وبما يخالف تعاليم الرسول بولس... وإنما لم يكن الدافع للتبشير سليمًا... على هذا الأساس كان يتهمهم... "ظانين أنهم يضيفون إلى وثقي ضيقًا". لم يقل "يضيفون" بل "ظانين أنهم يضيفون"، مشيرًا إلى أنهم افترضوا ذلك، لكنه لم يحدث، بل بالعكس يفرح بالأكثر لأجل انتشار البشارة. لذلك يقول: "وبهذا أفرح. بل سأفرح أيضًا". فلو كان في تعاليمهم غش ما كان يفرح... إنه يفرح لأنهم بغير إرادتهم يقوون دعوته.

انظروا إذن ما هي قوة بولس؟ كيف أنه لم تقدر أية مكائد شيطانية أن تمسك به؟... لأنه حقًا عظيم هو مكر الشيطان وشر أولئك الذين يسيطر عليهم... إذ رغبوا أن يفسدوا البشارة، لكن آخذ الحكماء بمكرهم. (١ كو ٣:١٩)، لذلك لم يسمح بتنفيذ هذا...

التواضع والمثابرة

لنثابر بالصلاة

لنتفطن إذن بدقة إلى تلك الأمور السابقة حتى يمكنكم أن تفحموا بحكمة أولئك الذين يستخدمون الكتاب المقدس دون الرجوع إلى الظروف المحيطة، أو يفسرونه كيفما كان، وذلك لأجل هلاك إخوتهم.

إننا سنكون قادرين على إدراك ما يُقال (في الكتاب المقدس)، وأن نصحح أخطاء الآخرين في تفسيرهم، ذلك إن عمدنا إلى الصلاة كملجأ، مترجين الله واهب الحكمة أن يعطينا الذكاء في السمع والحرص والحيطة غير المغلوبة، لهذه الوديعة الروحية التي بين أيدينا. لأنه ليس لنا القدرة على الإصلاح بمجهودنا الشخصي، بينما يمكن إصلاحها بالصلوات بسهولة...

ثابر بالصلاة حتى يستجيب لك

هل لم يسمع لك؟ ثابر حتى يستجيب لك.

لأنه إن كان قد تأخر الله في العطاء، فذلك لا عن كراهية أو اشمئزاز، بل يرغب في التأجيل لكي تتعلق به، كما يفعل الآباء المحبون...

إنك لست بمحتاج إلى وسيطٍ للمثول بين يدي الله، ولا أن تتذلل لغيرك، ولو كنت مُعدَمًا، ولو لم يوجد من يدافع عنك، ولو كنت بمفردك تصلي لله لكي يساعدك، فإنك على أي الأحوال تنجح.

إنه لم يعتد أن يعطي بناء على التماس الآخرين عنا بقدر ما يعطينا عندما نطلب نحن بأنفسنا نحن المحتاجين، حتى ولو كنا مثقلين بعشرات الألوف من الخطايا.

لأنه إن كنا نحن في معاملتنا مع البشر، حتى إن كنا قد اصطدمنا معهم في أمورٍ كثيرةٍ غير محصاة، فإننا عندما نظهر أمامهم في الفجر ومنتصف النهار والمساء، لأولئك الذين هم غاضبون علينا، فبمثابرتنا الدائمة ومقابلتنا لهم على الدوام ولقائنا معهم بسهولة نفسد عداوتهم، فكم بالحري في حالة الله يكون للقائنا الدائم معه تأثيره؟!

مثال: المرأة الكنعانية

لكنك غير مستحق!

ثابر فتصير مستحقًا، فبالمثابرة يصير غير المستحق مستحقًا.

فإن الله يقبلنا أكثر عندما نطلب بأنفسنا، أكثر مما نعتمد على مجرد طلب الآخرين[1]... وهو غالبًا ما يؤجل العطاء ليس لأنه يود أن يجعلنا مرتبكين، أو لكي يرسلنا فارغين، بل **لكي يعطينا عطايا أعظم.**

هذه الأمور الثلاثة أجتهد أن أؤكدها بالمثال الذي قُرِئَ اليوم عليكم.

جاءت المرأة الكنعانية إلى السيد المسيح تطلب لأجل ابنتها التي بها شيطان، صارخة بشغفٍ عظيمٍ، قائلة: "ارحمني يا سيد يا ابن داود. ابنتي مجنونة جدًا" (مت ١٥: ٢٢).

انظرْ إلى المرأة غريبة الجنس المتبربرة... التي ما كانت إلا مثل كلب ولا تستحق أن تنال طلبتها... (في نظر اليهود مت ١٥: ٢٦). لكن على أي الأحوال، بمثابرتها صارت مستحقة أن تأخذ.

لم يضمها إلى صفوف البنين فحسب، بل وارتفع بها إلى هذا المستوى العظيم مادحًا إياها قائلاً: "يا امرأة عظيم إيمانك. ليكن لك كما تريدين" (مت ١٥: ٢٨)...

أتريد أيضًا أن تتعلم أننا نأخذ طلبتنا عندما ندعوه نحن أكثر من (مجرد) اعتمادنا على طلب الآخرين؟! لقد صرخت المرأة الكنعانية والتلاميذ جاءوا إليه قائلين: "اصرفها لأنها تصيح وراءنا" (مت ١٥: ٣٣).

---

[1] لم ينكر القديس يوحنا الذهبي الفم في عظاته قوة الشفاعة أو قوة صلوات الغير بالنسبة لنا، لكن هنا يؤكد لنا ضرورة الصلاة أمام الله بالرغم من شرورنا غير معتمدين على مجرد صلاة الغير عنا. في تعليقه على قول الملاك للقديس بولس: "هوذا قد وهبك الله جميع المسافرين معك" (أع ٢٧: ٢٤)، يقول: [إن كان هنا وُجدت سفينة في خطر تعاني من الغرق وقد خلص المساجين من أجل بولس، تأملوا ماذا يكون الأمر بالنسبة للشخص القديس في بيته، فإنه كثيرة هي التجارب التي تهاجمنا، تجارب أكثر خطورة من تجارب الطبيعة، لكن الله قادر أن يهبنا أن نخلص إن كنا فقط نطيع القديسين كما فعل الذين في السفينة، إن كنا نتمم ما يأمروننا به. فإنهم ليس فقط خلصوا، وإنما ساهموا في إيمان آخرين. بينما يكون القديس في قيود يصنع أعمالاً أعظم ممن هم في حرية. انظروا فإن الحال هنا هو هكذا قائد المائة الحر كان في حاجة إلى سجينه المقيد، ربان السفينة الماهر كان في عوزٍ إلى من لم يكن ربانا، بل بالأحرى كان هو الربان الحقيقي. فإنه قاد كربان سفينة ليست من هذا النوع (أرضية) بل كنيسة العالم كله، متعلمًا من ذاك الذي هو رب البحر أيضًا. قادها لا بفنٍ بشريٍ بل بحكمة الروح. في هذه السفينة يوجد تحطيم كثير للسفن، أمواج كثيرة، أرواح شر "من خارج خصومات، من داخل مخاوف" (٢ كو ٧: ٥)؛ فكان هو الربان الحقيقي.]

Homilies on Acts, hom. 53.

وعندئذ قال: "لم أُرسَلْ إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة"، لكن لما جاءت بنفسها وألحتْ في الصراخ، قائلة: نعم يا سيد والكلاب أيضًا تأكل الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها، عندئذ أعطاها طلبتها...

مرة أخرى في البداية وفى مقدمة طلبها لم يجبها بشيءٍ، ولكن إذ جاءته مرة واثنتين وثلاثة، عندئذ وهبها العطية، وبذلك جعلنا نؤمن أنه أجَّلَ العطية لا لأنه يريد أن يصدها، بل **لكي يكشف لنا عن احتمال المرأة... فلو أنه أعطاها منذ البداية ما كنا قد عرفنا فضيلتها.**

لقد قالوا: "اصرفها لأنها تصيح وراءنا"، ولكن ماذا قال المسيح...؟

أنتم تسمعون صوتها أما أنا فأرى فكرها.

أنا أعرف ما ستقول. **أنا أريد ألا يختبئ الكنز المدفون في فكرها دون أن يراعيه أحد، حتى عندما ينكشف الكنز يراه الكل.**

الخاتمة

إذ قد تعلمنا هذا كله، ليتنا لا نيأس، حتى إن كنا نرتكب خطايا... عـالمين أنـه بمثابرة الروح يمكننا نحن غير المستحقين أن نصير مستحقين للأخذ. حتى وإن لم يكن لنـا وسيط يعيننا لا نخور، عالمين أن لنا مدافعًا عظيمًا هو الذهاب إلى الله نفسه بغيرةٍ عظيمـةٍ، حتى إذا تأخر أو أجّل العطية لا نَغتَم، لأن عدم استجابته وتأخيره برهانٍ أكيد على عنايتـه وحبه للبشرية.

إن كنا نستميل أنفسنا، ونأتي بروح متألمة وغيورة رافعين أهدافنا، مقتـربين إليـه كالمرأة الكنعانية، فإننا ولو كنا مثل الكلاب، ولو كنا مرتكبين أمورًا مهلكة، فإننا ندفع عنـا جرائمنا، ونحصل على حرية عظيمة للحديث معه، ولو كنا وسطاء عن غيرنا، متبعين نفس الطريق الذي سلكته المرأة الكنعانية، إذ لم تنل حرية الحديث وعشرات الألوف من الثناء، بل وكان لها القوة أيضًا أن تُنقَذ ابنتها من آلام غير محتملة.

إنه لا شيء أعظم من الصلاة متى كانت متقدة ونقية، حتى أنها تبـدد المخـاطر الزمنية، وتنقذ من العقاب الذي سيحل في تلك الساعة.

إذ يمكننا بالصلاة أن نعبر رحلتنا بسهولة وطمأنينة في هـذه الحيـاة الحاضـرة، مكملين بغيرةٍ واشتياقٍ وإلى النهاية حتى نفوز بالأمور الصالحة المحفوظة لنا ونتمتع بالرجاء الحسن الذي يهبه الله كي نأخذه، بنعمة ورأفات وحنو ربنا يسوع المسيح، الذي يليق به مـع الآب والروح القدس المجد والكرامة والعز إلى الأبد الأبد. آمين.

القديس يوحنا الذهبي الفم

أودع بدار الكتب تحت رقم ٢٧٠٥ لسنة ١٩٦٩

تفسير

عظة ربنا يسوع المسيح على الجبل

للقديس يوحنا الذهبي الفم

٢٠٠٥

تعريب

دكتور جرجس كامل يوسف

مراجعة وتقديم

القمص تادرس يعقوب ملطي

كنيسة الشهيد مارجرجس بسبورتنج

بِاسم الآب والابن والروح القدس،
الإله الواحد، آمين.

بين عربون الحياة السماوية واتساع القلب لكل البشرية

بعد قراءتي لهذه العظات المقتبسة عن عظات **القديس يوحنا الذهبي الفم على إنجيل متى** أستطيع في اختصار أن ألخص نظرته للموعظة على الجبل في العبارة التالية: شهوة قلب السيد المسيح أن يقيم من البشرية عروسًا سماوية، تحمل أيقونته فتنعم **بعربون الحياة السماوية مع اتساع القلب لكل البشرية**. إنها تدعو للكمال العملي لنكون كاملين كما أن أبانا السماوي هو كامل.

على أي الأحوال تكشف هذه العظات عن معالجته الحازمة والذكية لسمات مدرسة أنطاكية. كان الذهبي الفم حريصًا على تأكيد المعنى الحرفي، معارضًا إلى حد كبير استخدام الرمزية. وفي منهجه يتحد المعنى الروحي للنص بالتطبيق الحيّ العملي لإرشاد رعيته بطريقة سلسة. ويتمتع أسلوبه بفكرٍ روحاني عميق ودقة فريدة في التفسير، فاجتذب العديد من القراء. كان عمق تفكيره مع قدرته السليمة على التفسير فريدًا وجذابًا، ولا يزال جذابًا للمعاصرين لنا. ويُعتبر **الذهبي الفم** على دراية تامة بالعهدين القديم والجديد على السواء، وتتجلى مهارته في استخدام العهد القديم وملائمته للظروف الحاضرة ومشاكل الحياة اليومية[1].

يمزج الذهبي الفم بين التفسير التاريخي لسلفائه بالموهبة الخاصة به للتعليم. ويقسم **القديس يوحنا الذهبي الفم**[2] النصوص الكتابية إلى ثلاثة أنواع:

أ. نصوص تحتمل "النظرية" إلى جانب المعني الحرفي.

ب. نصوص تُؤخذ بالمعنى الحرفي فقط.

ج. نصوص لا تؤخذ بالمعنى الحرفي على الإطلاق، وإنما هي عبارات رمزية.

القمص تادرس يعقوب ملطي

---

[1] *J. Quasten: Patrology, vol. 3, p. 433.*
[2] *De creat. PG 56:459 , Kelly 76.*

العظة الخامسة عشرة

التطويبات

أسمى من حُب الاستعراض

"**ولما رأى (يسوع) الجموع صعد إلى الجبل، فلما جلس تقدم إليه تلاميذه، ففتح فاه وعلَّمهم قائلاً: طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السماوات**" (مت ٥: ١-٢).

١. انظروا كيف كان (الرب) أسمى من التطلعات البشرية وبعيدًا عن التشامخ؛ إذ لم يجمع الناس حوله، بل كلما تطلَّب الأمر شفاءهم، ذهب بنفسه يجول في كل مكان، مفتقدًا المدن والقرى. وإذ أصبح الجمع عظيمًا جدًا، جلس في بقعة واحدة - لا في وسط أية مدينة أو ساحة - بل في برية على جبلٍ؛ ليعلمنا ألا نفعل شيئًا لمجرد التظاهر، وأن نعزل أنفسنا عن ضوضاء الحياة العادية، خاصةً إذا كنا نتأمل الحكمة ونبحث في أمورٍ نحن في أمَسِّ الحاجة إلى فعلها.

شوق التلاميذ إلى التعليم لا إلى رؤية معجزات

لكنه حين صعد إلى الجبل و"**جلس، تقدم إليه تلاميذه**"، فنرى مقدار نموهم في الفضيلة، كيف صاروا إلى حالٍ أفضل في لحظة؟... لقد كانت الجموع تلهث فقط خلف المعجزات، أما هم فقد اشتاقوا منذ تلك اللحظة أن يسمعوا أمرًا عظيمًا له شأنه. كان هذا حقًا هو السبب الذي جعله يجلس ليعلِّمَهم، ويبدأ معهم هذا الحديث. لأنه لم يهتم بشفاء الأجساد فقط، بل كان يقوِّم نفوس البشر أولاً، ثم يهتم بأجساد آخرين. ولهذا قام على الفور بتنويع العون المقدم لهم، وبالمثل كان يمزج التعليم الذي تحويه كلماته بإعلان مجده الذي تظهره أعماله.

يهتم بأجسادنا كما بنفوسنا

كما أسكت أفواه الهراطقة الذين لا يعرفون الخزي، معلنًا أنه يهتم بأجسادنا ونفوسنا معًا، لأنه جابل الخليقة كلها. ومن هنا يدبر بعنايته الإلهية الفائقة كل طبيعة روحية وجسدانية، فيُصلح هذه تارةً، ويقوِّم تلك تارةً أخرى.

يعلم بالصمت كما بالكلام

هكذا كانت طريقته في العمل، إذ قيل في الإنجيل: "**فتح فاه وعلَّمهم قائلاً**". فلماذا أضيفت عبارة "فتح فاه"؟... ليخبركم أنه حتى في صمته الكامل كان يعلِّم. فقد كان يعلِّم ليس فقط حين كان يتكلم، بل حين "يفتح فاه" مرةً، وحين كان ينطق بأعماله مرة أخرى.

يعلِّم الجميع من خلال تلاميذه

حين تسمعون أنه علَّمهم، لا تفتكروا أنه كان يعظ تلاميذه فقط، بل كان بالأحرى يعلِّم الجميع من خلال تلاميذه.

لأنه حين كان الجمع عظيمًا جدًا من حشود كبيرة تزحف على الأرض، جعل تلاميذه صفوفًا (خوارس). فكان يسلمهم العظة، وإذ يتحدث إليهم كان يضمن أن ينتقل درسه عن إنكار الذات إلى بقية الحاضرين الذين كانوا في مواضع بعيدة جدًا عن مكان حديثه. وقد أشار القديس لوقا إلى هذا الأمر حين قال: "رفع عينيه إلى تلاميذه، وقال" (لو ٦: ٢٠). أي أنه كان يوجه كلماته مباشرةً إلى التلاميذ. كما أعلن أيضًا القديس متى بنفس الوضوح، فكتب: "تقدم إليه تلاميذه، ففتح فاه وعلمهم قائلاً..." لأنه هكذا كان الآخرون أيضًا يضمنون أن يكون اشتياقهم والتفاتهم إليه أكثر مما لو وجَّه حديثه إلى الجمع مباشرةً.

٢. فمتى كان يبدأ حديثه إذن؟ وما هي الأسس التي أرساها لأجلنا حين كان يعلمنا؟ فلننصت بانتباهٍ شديدٍ إلى ما يُقال، لأنه وإن كان هذا الكلام قد قيل لهم، إلا أنه كُتب لأجل الآتين فيما بعد. ولهذا السبب وبالرغم من أن الرب كان واضعًا في اعتباره تلاميذه عندما كان يلقي عظته العامة، إلا أنه لم يحصر أقواله فيهم وحدهم، بل نطق بكل تطويباته بلا تحديد؛ فهو لم يقل: "طوباكم أنتم يا من صرتم مساكين"، ولكن "طوبى للمساكين". بل يمكنني أن أقول: حتى وإن كان يعنيهم بالذات فيما قال، إلا أن العظة ستظل مشاعًا للجميع.

وبالمثل ما يقوله (الرب): "ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر" (مت ٢٨: ٢٠)، فالوعد هنا لم يكن موجهًا لمن سمعوه وحدهم، بل أيضًا لكل العالم من خلالهم.

وعندما يطوِّب المضطهدين والمطرودين من أجل البرِّ، لم يكن يعني تلاميذه وحدهم فقط، بل أيضًا من نال هذا الامتياز مثلهم، فهو يُعِدُّ إكليله لأجل كل الذين يبلغون نفس الدرجة من السمو.

تطويب المساكين

لكي يكون هذا الكلام أكثر وضوحًا لديكم، ولكي يحثكم على المزيد من الاهتمام بأقواله، وهكذا أيضًا تفعل البشرية كلها: اسمعوه كيف يبدأ بالكلمات العجيبة:

"طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السماوات" [ع ٣].

ماذا يعني بـ "المساكين بالروح"؟ **إنهم المتواضعون ومنسحقو القلب**، فـ"الروح" يشير بها هنا إلى نفس الإنسان والقدرة على اختيار ذلك، إذ يوجد كثيرون متواضعون ومذَلُّون، ولكن ليس عن اختيار وطواعية، بل مُجبَرين تحت وطأة ظروف الحياة. إنه لا يقصد مثل هؤلاء في هذا الصدد، بل يطوِّب هنا أولئك الذين باختيارهم يتواضعون ويذلون أنفسهم.

لماذا إذن لم يقل: "طوبى للمتواضعين"، بل "للمساكين"؟ لأن هذه الأخيرة أكثر اتساعًا من تلك. فهو يعني هنا: أولئك الذين يمتلئون بالخشية والرهبة لدى سماعهم وصايا الله. هؤلاء أيضًا الذين يقول الله عنهم بفم نبيِّه إشعياء: "إلى هذا أنظر، إلى المسكين والمنسحق الروح، والمرتعد من كلامي" (إش ٦٦: ٢). لأنه بالحقيقة يوجد أنواع من المتواضعين: متواضع على قدر قامته، وآخر ينزل إلى أقصى حدود التواضع. هذا الأخير (الذي هو من القلب) يمتدحه النبي المبارك مصورًا لنا انكسار النفس كليةً - لا مجرد خضوعها - وذلك عندما يقول: "الذبيحة لله روح منسحق، والقلب المنكسر المتواضع لا يرذله الله" (مز ٥١: ١٧). ها هم الفتية الثلاثة يقدمون انسحاقهم كذبيحة عظمى لله، قائلين: "ولكن في نفس منسحقة وروح متواضعة ليتنا نكون مقبولين لديك" (دا ٣: ٣٩) هذا هو ما يطوِّبه المسيح هنا.

الكبرياء أكثر الشرور جسامة

٣. ولما كانت أكثر الشرور جسامة هي الكبرياء، تلك التي بسببها دخل الذين جلبوا الخراب على العالم (الشياطين)، لأن إبليس إذ لم تكن له فضيلة التواضع الأولى بل تبع الكبرياء، صار شريرًا، كما يعلن ذلك بولس الرسول بكل صراحة ووضوح قائلاً: "لئلا يتصلف، فيسقط في دينونة إبليس" (١ تي ٣: ٦). كذلك أيضًا الإنسان الأول، لما انتفخ بواسطة الشيطان الذي أوعز إليه بتلك الأمنيات الكاذبة، جُعل عبرة، وصار قابلاً للموت

[ومع إنه كان من المنتظر أن يكون حاملاً سمات إلهية[1] فقد ما كان له، أما الله فاستاء منه بسبب ذلك، ووبخ حماقته قائلاً: "هوذا الإنسان قد صار كواحدٍ منا" (تك ٣٣: ٢٢)]... وورَثَ هؤلاء الذين جاءوا بعده الكبرياء والطمع، وقد أقحم كل منهم بنفسه في طريق الضلال، متوهمًا وراغبًا أن يكون مثل الله، لهذا أقول **إن هذه الرذيلة هي أصل آثامنا، ومنبع كل شرورنا.**

قانون التواضع هو الدواء الناجح

والله في إعداده الدواء الناجح للداء، وضع أولاً قانون التواضع كقاعدة قوية وآمنة، ترسيخها كأساس يجعل البناء الذي يُقام عليها مضموناً وآمنًا كله. أما إذا غاب الأساس، وإن بلغ الإنسان عنان السماء في سيرة حياته، فسوف يتلف كل شيء لا محالة، ويهوي إلى نهاية سحيقة.

لو اجتمع فيك الصوم والصلاة والصدقة والعفة وكل صلاح آخر مهما كان بدون تواضع، فإن كل شيء سيتلاشى حتمًا وينتهي إلى زوالٍ.

كان هذا هو نفس الحال في مثل الفريسي، لأنه حتى بعد أن بلغ الذروة (في تقواه) رجع خاسرًا كل شيءٍ، إذ لم تكن له دعامة الفضائل، **فكما أن الكبرياء هي أساس كل الشرور، هكذا التواضع هو مبدأ كل انضباط للنفس**؛ من أجل ذلك أيضًا نجد أن الرب يبدأ باقتلاع جذور التعالي من داخل نفوس سامعيه.

ورُب سائلٍ يقول: "وكيف يكون هذا وتلاميذه كانوا، على أي تقدير، متواضعين. لأنه في الحقيقة لم يكن لهم شيء يتفاخرون به، لكونهم صيادين فقراء، وليسوا ذوي حسب أو نسب، أُمِّيين. لكن حتى ولو كانت تلك الأمور لا تعني تلاميذ الرب، إلا أنها بالتأكيد كانت تهم الحاضرين والذين سيؤمنون به بواسطة التلاميذ فيما بعد، فلا يحتقرهم أحد بسبب هذا الأمر حال كونهم فقراء وضعاء.

مع هذا كان من الأصوب أيضًا قولنا إن تعاليم الرب كانت تخص تلاميذه، حتى لو لم تكن هكذا... فمن المؤكد أنهم كانوا محتاجين إلى تلك المعونة، بعد الآيات والعجائب التي أجروها، والكرامة التي نالوها من العالم، وثقتهم في الله. لأنهم إذ لم يكونوا قد حصلوا على النعمة ولا القوة ولا السلطان الملوكي كالذي اقتنوه في الملء، كان أمر طبيعيًا، حتى قبل صُنع الآيات، أن يرتفعوا حينما كانوا يرون الجماهير الغفيرة من تابعيهم والمستمعين ملتفين

---

[1] جاءت في النص "أن يصير إلهًا *to become a god*".

حول معلمهم، لابد وأنهم كانوا يشعرون بشيءٍ من الزهو الناجم عن الضعف البشري؛ لذا أراد الرب أن يقمع زهوهم على الفور.

كان يقدم أيضًا أقواله هذه، لا على سبيل إسداء النصح أو صورة فرض الوصايا، بل بطريق المدح والتطويب، جاعلاً كلمته هكذا أقل حدةٍ، وفاتحًا للجميع مجال تطبيق تعليمه الضابط للسلوك والعمل، فلم يَقُلْ هذا الشخص أو ذاك مُطوَّب، بل قال: "أولئك الذين يعملون هكذا جميعهم مطوَّبون (طوباهم)". حتى وإن كنت عبدًا، متسولاً، مسكينًا، غريبًا، جاهلاً. فلا شيء يمكنه إعاقتك من أن تكون مطوبًا إذا ما تقلَّدت تلك الفضيلة (المَسْكنة بالروح).

تطويب الحزانى

٤. حين كانت الحاجة مُلحَّة فإنه كما ترون يبدأ في التقدم إلى وصية أخرى، والتي تبدو ضد أحكام العالم أجمع، لأنه بينما يظن الكل أن الفرحين هم موضع حسد الناس، وأن المرفوضين والفقراء والحزانى هم البؤساء، فإن الرب يدعو هؤلاء البؤساء مطوَّبين أكثر من غيرهم قائلاً: "**طوبى للحزانى**" [ع ٤].

كان جميع الناس يصفون الحزانى بأنهم تُعساء، ولهذا صنع السيد المعجزات قبل أن يضع تشريعاته، حتى إذا ما سن هذه التشريعات لهم يكتسب ثقتهم.

أ. الحزن الذي بحسب مشيئة الله

لا يتحدث هنا عن كل الحزانى، بل عن الذين يحزنون بسبب خطاياهم، لأن الحزن على غير ذلك ممنوع، كالحزن على فقدان أشياء العالم. هذا ما أوضحه بولس الرسول صراحة حين قال: "حُزن العالم يُنشئ موتًا، أما الحزن الذي بحسب مشيئة الله (الصالح) فيُنشئ توبة للخلاص" (قابل ٢ كو ٧: ٩-١٠). فالذين لهم الحزن للتوبة هم الذين يطوِّبهم الرب. وليس الذين يحزنون فحسب، إنما يحزنون حزنًا عميقًا، لهذا لم يقل: "طوبى للذين يتأسفون"، بل "طوبى للحزانى"، أي الذين يئنون حزنًا على الدوام. هذه الوصية مناسبة لتعليمنا ضبط النفس الكامل. لأنه إن كان الحزانى لأجل فقدان أولاد أو زوجة أو قريب رحلوا عنهم لا يجنون من وراء أحزانهم هذه ربحًا أو متعة ما أثناء حزنهم، ولا يسعون وراء مجدٍ، ولا تؤثر فيهم إهانات، ولا يتملك عليهم حسد، ولا يتأثرون بأي هوى، بل يستحوذ عليهم الحزن فقط إلى أقصى الحدود، فكم بالأحرى أولئك الذين يحزنون بسبب خطاياهم؟ **كم ينبغي أن يكون الحزن؟ إنما يظهرون إنكارًا للذات أكثر من غيرهم.**

وما هي مكافأة الحزانى؟ إنهم يتعزون! أخبروني إذن أين يتعزون؟ أقول لكم يتعزون هنا وهناك أيضًا، لأنه إذ يرى أن ما أَمَرَ به يفوق القدرة والطاقة، فإنه يَعِدُ أن يجعل هذا الحمل خفيفًا.

ب. تعزية لا انقباض

لهذا إذا أردتم تعزية، احزنوا! **لا تحسبوا في هذا القول انقباضًا، لأن الله حين يعزيكم، مهما توالت عليكم الأحزان بغير عددٍ كسقوط الثلج، يجعلكم ترتفعون فوقها جميعًا.** ولما كانت المنافذ التي يضعها الله أكبر من أمثالنا دائمًا، فقد أعلن حينذاك أن الحزن مطوَّب، ليس بحسب استحقاق ما نفعله، بل بحسب محبته الخالصة لنا. لأن الذين يحزنون على سوء أعمالهم يكفيهم أن ينعموا بالمغفرة، وأن ينالوا سؤل قلبهم وما يطلبون. ولأن الرب يفيض حبًا نحو الإنسان، فإنه لا يحد مكافأته برفع العقوبات عنا أو خلاصنا من خطايانا، بل يباركنا أيضًا، ويمنحنا تعزيات وفيرة.

ج. حزن على خطايا الآخرين أيضًا

وهو **يأمرنا أن نحزن لا على خطايانا نحن فقط، بل على خطايا الآخرين أيضًا.** هكذا كانت نفوس القديسين مثل موسى وبولس وداود، فإن هؤلاء جميعًا حزنوا حقًا بسبب شرورٍ لم يصنعوها.

الودعاء يرثون الأرض

٥. "**طوبى للودعاء، لأنهم يرثون الأرض**" [ع ٥].

أخبروني عن أي أرض يتكلم الرب؟ يقول البعض[1] إنها **أرض رمزية. كلا ليس الأمر كذلك،** لأننا لا نجد في الكتاب المقدس كله أي ذِكْر لأرضٍ رمزية، فما معنى القول إذن؟

إن الرب يُعد لنا مكافأة حسية، مثلما يقول القديس بولس الرسول أيضًا: "أكرم أباك وأمك" (أف ٦: ٢). ويضيف: "وتكونوا طوال الأعمار على الأرض". والرب نفسه يقول للص أيضًا: "اليوم تكون معي في الفردوس" (لو ٢٣: ٤٣).

---

[1] كممثل لمدرسة أنطاكية يرفض هنا التفسير الرمزي الذي اتسمت به مدرسة الإسكندرية (راجع كتاب: مدرسة الإسكندرية والتفسير الرمزي).

فهو لا يعدنا بالبركات العتيدة فقط، بل وبالحاضرة أيضًا. لأجل الذين يسعون وراءها من سامعيه ذوي الطبيعة الأرضية جدًا، أما الآخرون فيعدهم ببركات عتيدة. فمثلاً يقول في موضع آخر: "كن مراضيًا لخصمك" (مت ٥: ٢٥)، ثم يُعيِّن مكافأة هذا الانضباط للنفس، فيقول: "لئلا يسلِّمك الخصم للقاضي، ويسلِّمك القاضي إلى الشرطي" (مت ٥: ٢٥). هل ترون كيف ينذرنا بالحواس، وبما يحدث أمام عيوننا؟ ويقول أيضًا: "من قال لأخيه رقا (يا أحمق) يكون مستوجبًا المجمع" (مت ٥: ٢٢). والقديس بولس الرسول أيضًا يصف بالتفصيل المكافآت الحسية، ويستخدم أمورًا حاضرة في مباحثاته، مثلما يحدث عندما يتناول موضوع البتولية. فإذ لم يقل شيئًا عن السماوات هناك، فإنه يحثنا على بلوغها في الزمان الحاضر، قائلاً: "لسبب الضيق الحاضر"، "وأما أنا فإني أشفق عليكم، وأريد أن تكونوا بلا همّ" (١ كو ٧: ٢٦، ٢٨، ٣٢). هكذا السيد المسيح أيضًا يمزج الأمور الروحية بالأمور الحسية، إذ بينما نظن أن الإنسان الوديع يفقد كل ما لديه، يعده الرب بالنقيض قائلاً: كلا، بل الوديع هو من يمتلك خيراته في أمان، أعني هذا: الشخص الذي لا يكون مشهورًا أو متباهيًا، فإن مثل هذا النوع من الناس من غير الودعاء، غالبًا ما يفقد ميراثه وحياته كلها.

وقد اعتاد النبي في العهد القديم أن يقول باستمرار: "أما الودعاء فيرثون الأرض" (مز ٣٧: ١١). ينسج الرب في عظته الكلمات التي اعتادوا على سماعها، حتى لا يتحدث إليهم بلغة غريبة. وهو **يقول ذلك لا بغرض اقتصار المكافأة على أمور الزمان الحاضر، بل ليربط بها عطايا من نوعٍ آخر. فهو لا يستبعد الزمنيات عند حديثه عن الروحيات، ولا يجعل وعده قاصرًا على عطايا الزمان الحاضر.** لأنه يقول: "اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرَّه، وهذه كلها تُزاد لكم". وأيضًا: "ليس أحد ترك بيتًا أو إخوة، إلا ويأخذ مئة ضعف الآن في هذا الزمان، وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية" (مر ١٠: ٢٩-٣٠؛ لو ١٨: ٢٩-٣٠).

تطويب الجياع والعطاش إلى البرّ

٦. "**طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ**" [ع ٦].

أي نوعٍ من البرّ؟ إنه يعني إما كل الفضائل أو تلك الفضيلة المضادة للاشتهاء. لأنه وهو مزمع أن يعطي وصيته عن الرحمة، ليعلمنا كيف نصنع الرحمة، لا بغرض السلب أو الاشتهاء، يطوِّب المتمسكين بالبرّ.

لنتأمل كيف يطرح الوصية بكل قوةٍ، إذ لم يقل: "طوبى للذين بالبرّ يحفظون صومًا"، بل "طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ"، أي الذين لا يصنعون برًا هكذا ببساطة، بل يشتاقون من كل القلب إلى إكماله. ولما كانت تلك هي أعظم صفة تميز الاشتهاء، ولما كنا غير مفتونين إلى هذا الحد بالطعام والشراب، مثلما نشتهي الربح، فنجمع لأنفسنا المزيد والمزيد، يأمرنا أن ننقل هذه الرغبة إلى شيء جديد، هو التحرر من الشهوة المادية. ثم يعين المجازاة أيضًا من الأمور الحسِّية قائلاً: "**لأنهم يُشبَعون**". هكذا لأنه من المعتقد أن الأغنياء يُشبَعون من الاشتهاء – لكنه يقول كلا – بل النقيض هو الصحيح، لأن البرّ يُشبع النفس. لهذا إن كنتم تصنعون البرّ، فلا يرهبكم فقر ولا يرعبكم جوع. لأن الغاصبين هم الذين يخسرون كل شيءٍ، تمامًا مثل من يشتهي البرّ، ويحبه يمتلك كل خيرات الأرض في أمان. فإن كان الذين لا يشتهون خيرات الآخرين ينعمون هكذا بفيض البركة العظيمة، فكم بالأحرى وبالأكثر الذين يتخلون عن كل ما يخصهم للآخرين!

تطويب الرحماء

"طوبى للرحماء" [ع ٧].

يبدو لي أن الرب لا يتحدث هنا عن الذين يصنعون الرحمة فقط بتقديم المال، بل الرحماء في أعمالهم أيضًا، لأن **للرحمة طرقًا عديدة، وهذه الوصية واسعة**، لكن ما هي مجازاة عمل الرحمة؟ "لأنهم يُرحَمون". تعويض عادل، لكنه شيء أبعد مما يكون عن فعل الخير، لأنه بينما يصنع الناس رحمة كبشرٍ، ينالون رحمة من إله الجميع، وليست رحمة الإنسان كرحمة الله مطلقًا، فالفارق بينهما شاسع وكبير جدًا كبعد الشر عن الخير.

تطويب أنقياء القلب

"طوبى للأنقياء القلب، لأنهم يعاينون الله" [ع ٨].

لاحظوا هنا أيضًا أن المكافأة روحية، فهو يدعو من بلغوا قمة الفضائل ولم يُضمروا في نفوسهم أي شر "أنقياء"، وكذلك من يضبطون أنفسهم في كل شيءٍ، ويتعففون عن الشهوات. لأنه ما من شيءٍ نحتاج إليه بالأكثر لنعاين الله مثل هذه الفضيلة الأخيرة. حيث يقول القديس بولس الرسول أيضًا: "اتبعوا السلام مع الجميع، والقداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب" (عب ١٢: ١٤).

هنا يتكلم عن إمكانية رؤية الله بشكلٍ نسبيٍ ومحدودٍ، أي على قدر ما يتحمل الإنسان بسبب محدوديته البشرية[1]. فكثيرون يمارسون عمل الرحمة ولا يسلبون أحدًا ولا يشتهون ما للغير، ومع هذا يوجدون متلبسين بخطايا الزنا والنجاسة. فلكي يُظهر (السيد الرب) أن عمل الرحمة وحده غير كافٍ، أضاف هذا التطويب. وهو نفس ما يعنيه القديس بولس الرسول تمامًا في رسالته إلى أهل كورنثوس شاهدًا للمقدونيين أنهم كانوا أسخياء ليس فقط في العطاء، بل وفي كل فضيلة، لأنه بعد أن تكلم عن روحهم النبيلة التي أظهروها من جهة كرم عطاياهم، يقول أيضًا: "بل أعطوا أنفسهم أولاً للرب، ولنا" (٢ كو ٨: ٥).

تطويب صانعي السلام

٧. "طوبى لصانعي السلام" [ع ٩].

هنا لا يُزيل عنا فقط الخصام والكراهية اللذيْن نحملهما في نفوسنا، من جهة بعضنا بعضًا، بل يطالبنا بجانب ذلك بشيءٍ أكبر، هو أن نجتهد لمصالحة الآخرين، أما المكافأة التي يكشف لنا عنها فهي أيضًا روحية: فما نوعها إذن؟ "**لأنهم أبناء الله يُدعَون**". نعم، لأن هذا هو عمل الابن الوحيد، أن يوحِّد المتفرقين، ويصالح المتباعدين. ولئلا نتوهَّم أن السلام في كل الأحوال بركة مطوبة، أضاف قائلاً: "طوبى للمُضطهَدين من أجل البرّ" أي من أجل الفضيلة، وإعانة الآخرين، ومن أجل كل عملٍ صالحٍ. فقد اعتاد الرب أن يعني بالبرّ كل عمل حكيم تمارسه النفس.

تطويب المضطهدين من أجله

"طوبى لكم إذا عيّروكم وطردوكم، وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين، افرحوا وتهللوا" [ع ١١-١٢].

ويعني بقوله هذا: حتى وإن قالوا عنكم إنكم لصوص وغشاشون وخارجون على القانون، أو أي اتهام آخر، فطوباكم. هكذا يقول ولكن ما الشيء الأكثر حداثة من هذه الوصايا؟ بينما يتحاشى الآخرون هذه الأمور عينها، فإنه يعلن أنه علينا أن نرغب في أن نكون فقراء حزانى مضطهدين، وموضع شرور الناس وأقاويلهم. والرب بذلك لا يقنع حفنة من الناس بل العالم أجمع. وإذ سمع الجموع أمورًا محزنة ومؤلمة بعكس ما اعتادوا أن يسمعوه كانوا "مبهوتين" (قابل مت ٧: ٢٨)، إذ كان سلطان المتكلم عظيمًا.

---

[1] كتب القديس يوحنا الذهبي الفم مقالاً بعنوان: "طبيعة الله غير المُدركة"، يُظهِر فيه استحالة رؤية الله في جوهره كما هو.

وبالرغم من ذلك، وحتى لا تفتكروا أن مجرد الحديث بكلام الشر علينا يجعلنا مطوّبين، فقد وضع شرطيْن: **أن يكون ما قيل من كلامٍ كذبًا، وأن يكون هنا الكلام أصلاً بسببه هو**. بدون هذيْن الشرطيْن، يكون من تحدث الناس عليه بشرٍ، من التعساء، ولا ينعم ببركة أبدًا.

ثم تأملوا المكافأة مرة أخرى: "**لأن أجركم عظيم في السماوات**".

لكنكم حتى وإن لم تسمعوا أيّ ملكوت يُعطَى لكم من الرب من بين بركاته، لا تيأسوا. لأنه بالرغم من تعدد أسماء المكافآت، فإنه يأتي بها كلها إلى ملكوته. فإن قال: "طوبى للحزانى لأنهم يتعزون"، و "طوبى للرحماء لأنهم يرحمون"، و "طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله"، و "طوبى لصانعي السلام لأنهم يدعون أبناء الله"، فإن لا شيء يمكن أن يعطي كل هذه العطايا وبسخاء إلا الملكوت، لأن جميع الذين ينعمون بتلك المكافآت سينالونها في الملكوت. فلا تظنوا أن هذه المجازاة هي للمساكين بالروح فقط، بل وللجائعين من أجل البرّ، والودعاء، ولأجل الجميع بلا استثناء، لأنه وَهب بركته لهم جميعًا. حتى لا تفتكروا في أي أمور حسية. لأن مثل هذا الإنسان لن يُبارَك، الذي يشغل رأسه بمثل تلك الأمور الزائلة في هذا الدهر الآتي والتي تبلى سريعًا كالظل.

شركة مع الأنبياء

٨. لكنه حينما قال "لأن أجركم عظيم" أضاف أيضًا تعزية جديدة قائلاً: "**فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين كانوا قبلكم**". لأنه إذ كان الوعد أولاً بالملكوت هو وعد عتيد وكل ما يتعلق به ننتظره ونرجوه، فإنه يقدم لهم تعزية وراحة من عناء هذا الدهر ومن شركة الذين كانوا قبلهم يعانون من سوء المعاملة.

وهو يقول ما معناه: "لا تظنوا أنكم تقاسون هذه الأمور لعيبٍ ما في كلامكم وأفعالكم وقراراتكم، أو كأنكم معلِّمون لتعاليم شريرة ولهذا يضطهدونكم، بل بسبب شرور سامعيكم. فلا لوم عليكم إذا عانيتم من سوء أفعالهم، بل اللوم يقع على من يسيء معاملتكم. وتشهد كل الأزمنة الماضية على هذه الحقيقة، لأنهم لم يجدوا علَّة على الأنبياء مثل تَعَدٍ للناموس، أو لم يعثروا على مخالفات من عدم التقوى، ولكنهم رجموا البعض، وطردوا البعض الآخر، وعذَّبوا آخرين بآلام بغير حصرٍ. لهذا لا تدعوا هذه الأمور تزعجكم، لأنهم الآن يعاملونكم بنفس الفكر عينه.

أرأيت كيف يرفع السيد الرب معنوياتهم، بأن يجعلهم في شركة مع موسى وإيليا، وهكذا قال القديس بولس في رسالته إلى أهل تسالونيكي: "فإنكم صرتم شركاء كنائس الله التي هي في اليهودية، لأنكم تألمتم أنتم أيضًا من أهل عشيرتكم تلك الآلام عينها، كما هم أيضًا من اليهود الذين قتلوا الرب يسوع وأنبياءهم واضطهدونا نحن، وهم غير مُرضين لله، وأضداد لجميع الناس" (١ تس ٢: ١٤-١٥). وهي نفس النقطة أيضًا هنا التي أرساها السيد المسيح، والتي في تطويبات أخرى قال: "طوبى للمساكين" و"للرحماء" وهو هنا لا يخاطب عموم الناس، بل يوجِّه حديثه إليهم هم أنفسهم، قائلاً: "طوبى لكم، إذا عيّروكم وطردوكم، وقالوا عليكم كل كلمة شريرة"، مشيرًا إلى أن هذه ميزة خاصة بهم، وأن المعلّمين يختصون بها عن سائر البشر. وفي نفس الوقت فإنه هنا وبشكل سري **يشير إلى كرامته الخاصة، ومساواته مع الآب في الكرامة، إذ يقول: لأنهم مثلما تكبدوا لأجل الآب، هكذا أنتم أيضًا تحتملون هذه الأمور لأجلي**. ولكنه حين يقول: "الأنبياء الذين قبلكم" فإنه يؤكد ضمنًا **أن التلاميذ قد صاروا أيضًا أنبياء في هذا الزمان.**

وبعد أن شرح أن ذلك ينفعهم ويمجدهم لم يقل: "إنهم سيتجمهرون عليكم ويضطهدونكم ولكني سأمنعهم". لأن الرب يمنحهم الثبات والاطمئنان، لا بهروبهم من كلام الشر عنهم، بل تحملهم لهذا الشر في شرفٍ، وتفنيدهم لهم بأعمالهم. فهذا أعظم بكثير من هروبهم. على سبيل المثال عندما يضربك الناس ولا تؤذيهم، فهذا أعظم كثيرًا من الهروب من تَلَقِّي الضربة.

عظمة المكافأة

"لأن أجركم عظيم في السماوات" [ع ١٢].

٩. ويذكر القديس لوقا البشير أن الرب قال ذلك في حزمٍ، وفي تعزية كاملة، لأنه كما تَعَلَّمون، لم يطوِّب فقط أولئك الذين يتكلم عنهم الناس بالشرور لأجل الله، بل يضيف: من يقول الناس عنهم قولاً حسنًا أنهم بؤساء. إذ لم يقل: "الويل لكم، إذا ما قال الناس فيكم حسنًا"، بل حين يفعل كل الناس ذلك؛ لأنه من غير الممكن أن الذين يحيون وهم يعلِّمون صالحًا يتكلم الناس عنهم حسنًا، يقول مرة أخرى: "إذا أخرج الناس اسمكم كشريرٍ، افرحوا وتهللوا" (قابل لو ٦: ٢٢-٢٣).

يحدد الرب المكافأة العظيمة، ليس لأجل المخاطر التي يواجهونها فحسب، بل لأجل ما وقع عليهم من تشويه السمعة، لهذا لم يقل: "إذا اضطهدوكم وقتلوكم"، بل "إذا عيَّروكم

وقالوا عليكم كل كلمة شريرة". لأنه من المؤكد فعلاً أن كلام الناس بالشرور على الآخرين هو أشد قسوة من أعمالهم الشريرة نفسها. لأننا مهما واجهنا من أخطارٍ، فإن هناك أمورًا كثيرة تخفف من وطأة الألم، مثلما يشترك الجميع في إدخال الفرح على نفوسنا، أو حين يصفق لنا الكثيرون، أو حين نكلل، أو يمدحنا الآخرون ويثنون علينا جهارًا. بينما حين يوبخنا الناس نفقد مثل هذه التعزيات، لأننا نبدو أمامهم وكأننا لم نحقق شيئًا عظيمًا. الأمر الذي يثير غضب الخصوم أكثر من إثارة مخاطرهم. فعلى الأقل نعلم أن كثيرين شنقوا أنفسهم، غير محتملين أن يقول الناس عنهم شرًا!

فلماذا تتعجبون من الآخرين؟ فإن هذا الخائن العاري من الخجل، والملعون الذي توقف إحساسه بالخجل، قد أسرع بعد فعلته إلى حبل المشنقة. وأيوب أيضًا، العنيد الذي لا يلين، الأصلب من الصخر، حين فقد كل أملاكه، وكابد تجارب مروعة وأسقامًا يستحيل علاجها، وأصبح فجأة محرومًا من أطفاله، وقد نضح جسده بالدود في كل أجزائه، ولم تكف زوجته عن مهاجمته، لم يخضع لكل هذه البلايا، بل نفض عنه كل شيء أليم، لكنه حين جاءه أصدقاؤه يوبخونه ويدوسون عليه، ويقولون فيه رأيًا شريرًا متلذذين بتوبيخه، وأنه عانى كل هذه الآلام بسبب معاصيه، وأنه كان يدفع ثمن شروره، تعب الرجل العظيم كريم القلب وانزعج وتوتر.

وداود أيضًا بعد أن تجاوز محنته، توسل إلى الله طالبًا أن يُنزل عقابًا على تشويه سمعته وحدها. إذ يقول: "دعوه يسب، لأن الرب قال له. لعل الرب ينظر إلى مذلتي، ويكافئني الرب خيرًا عوض مسبته بهذا اليوم" (٢ صم ١٦: ١١-١٢).

ويعلن القديس بولس عن نصرة أولئك الذين يجلبون على أنفسهم المخاطر أو الذين يُحرَمون من خيراتهم. بل الذين يحتملون أيضًا، إذ قال: "تذكروا الأيام السالفة التي فيها بعدما أُنرتم صبرتم على مجاهدة آلام كثيرة" (عب ١٠: ٣٢-٣٣). ويُكَمِّل "من جهة مشهرين بتعييرات وضيقات". على هذا الأساس وصف المسيح إذن المكافأة بأنها عظيمة. وبعد هذا ولئلا يقول أحد هنا أنتم لا تعطون تعويضًا، ولا تسكتون أفواه الناس، فهل تعينون لهذا الأمر مكافأة؟

لقد وضع السيد أمامنا مثال الأنبياء ليُظهِر أن الله لم يُقَدِّم تعويضًا في حالتهم، وإذا كانت المكافآت جاهزة ومتاحة، فقد أدخل المسرة عليهم بأمورٍ مستقبلة. وأكثر منها الآن، حينما يصبح هذا الرجاء أكثر وضوحًا، ويزداد إنكارنا للذات.

لاحظوا أيضًا أنه وضع هذه الوصية بعد عدة وصايا مثلها، وقد فعل ذلك عن حكمةٍ دون شكٍ، ليظهر أنه من غير الممكن لإنسانٍ لا يتسامح ولا يتزود بالفضائل الأخرى، أن يواجه مثل هذه الصراعات والضيقات.

الربط بين التطويبات

لهذا ترون أنه في كل حالةٍ، وبإعداد وصية ما يمهد الطريق أمام وصية أخرى تالية، **قد نسج لأجلنا عقدًا من ذهبٍ. فنرى أن المتواضع أولاً "يحزن" بسبب خطاياه، ومن يحزن يكون "وديعًا" و"بارًا" نادمًا ندمًا حقيقيًا. يكون أيضًا نقي القلب، ونقي القلب يكون صانع سلام. والذي يبلغ كل هذه الفضائل، يصمد ضد الأخطار ولا يزعجه شر يتقوّل به الناس عليه، ويحتمل ضيقات شديدة بغير حصرٍ.**

أنتم "ملح الأرض"

١٠. وبعد أن قدَّم الرب النصيحة اللائقة في الوقت المُحدد أخذ ينعش نفوسهم مرة أخرى بالثناء. ولما كانت وصاياه أعظم من وصايا العهد القديم، وحتى لا يضطربوا ويتحيروا، متسائلين: كيف لنا أن ننفذها؟ يقول لهم: "**أنتم ملح الأرض**" [ع ١٣].

يُلَمِّح الرب بهذا إلى مدى أهميتهم القصوى للآخرين، وكأنما يقول: إن قيمتكم الاعتبارية ليست في حياتكم الخاصة منعزلين عن الناس. فها أنا أرسلكم لا إلى مدينة واحدة أو عشرة مدن أو عشرين أو إلى أمة بأجمعها كما أرسلتُ الأنبياء قديمًا، بل إلى كل الأرض والبحر والعالم بأسره الذي انغمس في الفساد.

وبقوله: "**أنتم ملح الأرض**" يشير إلى أن الطبيعة البشرية كلها أنها تفقد مذاقها الجيد، وتفسد بسبب خطايانا، ولأجل هذا يطلب منهم تلك الفضائل لضرورتها القصوى لتقويم الجنس البشري كله، لكونهم صاروا قادة روحيين لهم ومَثلاً أعلى يُحتذى به.

فالودعاء والمسالمون والرحماء والأبرار لا ينغلقون أبدًا على أنفسهم، ولا يقصرون أعمالهم الصالحة على ذواتهم، بل يعملون بكل ما في وسعهم أن تفيض هذه الينابيع الصالحة لخير الآخرين.

ثم أيضًا من هو نقي القلب، وصانع السلام، أو المطرود والمضطَهد لأجل الحق، إنما يضع حياته من أجل الصالح العام. وكأن الرب يقول لتلاميذه: لا تظنوا إذًا أنكم قد خــرجتم لأجل جهاد هيِّن، أو أنكم صرتم مسئولين عن أمورٍ تافهةٍ بسيطةٍ، بل أنتم "ملح الأرض".

وماذا إذن؟ هل سيُصلحون ما فسد؟ كلا! لأنه لا يمكن إصلاح ما تلف مهما نثرتَ عليه من ملحٍ. فهذا ليس واجبهم، بل الذين قد سبق وتجددوا واُستعيدوا بالمسيح، وأوكل إليهم أمر رعايتهم - بعد تحررهم من المذاق الرديء - هؤلاء يملِّحونهم لصيانتهم وحفظهم وبقائهم على استمرارية جدة الحياة العذبة (freshness) التي قبلوها من الرب، لأن العمل الصالح الذي أتمه السيد المسيح هو أن يحرر أولئك من فساد خطاياهم، أما (الرسل) فهم بخدمتهم الدءوبة وعملهم الغيور، إنما يَضمنون عدم عودتهم مرة أخرى إلى فساد خطاياهم.

سموهم على الأنبياء

أترى كيف يتدرج الرب في الكشف عن سموهم على الأنبياء، بدعوته لهم ليكونوا مُعلِّمين، لا لفلسطين وحدها، بل للعالم أجمع. وليسوا كمُعلِّمين بسطاء بل ذوي مهابة وسلطان يرهبه الجميع. وهذا هو العجب؛ أنه ليس بالمداهنة والإطراء والملاطفة، بل بشحذ هممهم بقوة كملح الأرض، ليكونوا محبوبين وأعزاء على قلوب الناس جميعًا.

وكأن الرب يقول لهم: "لا تندهشوا الآن إن كنتُ أخصكم أنتم بحديثي دون الآخرين، وأدفعكم إلى مخاطرٍ عظيمةٍ بهذا القدر، حتى تدركوا إني سأرسلكم لا لترأسوا مدنًا وقبائل وأممًا كثيرة، وأقيمكم رعاة عليها. حيث لا أريد أن تكونوا أنتم أنفسكم حكماء، بل أن تجعلوا الآخرين أيضًا كذلك. فإن مثل أولئك الأشخاص الذين اُستؤمنوا على خلاص الآخرين هم في حاجة شديدة أن يكونوا على قدر كبير من الفطنة، وينبغي كذلك أن تكون حياتهم زاخرة بالتقوى لينفعوا الآخرين أيضًا. لأنه إن لم تصيروا أنتم هكذا، لن تنفعوا حتى أنفسكم.

فلا تضيقوا ذراعًا بكلامي لكم، حتى وإن بدا لكم صعبًا بعض الشيء. فبينما من السهل على الذين فقدوا مذاقهم الطيب أن ينصلحوا بكم، فإنكم أنتم إن فسدتم تفسدون آخرين معكم. فأنتم في حاجة إلى اجتهادٍ أعظمٍ بقدر ما كان ما اُستؤمنتم عليه جسيمًا."

لهذا يقول الرب: "**ولكن إن فسد الملح فبماذا يُملَّح؟ لا يصلح بعد لشيءٍ إلا أن يُطرح خارجًا ويُداس من الناس**" [ع ١٣]. لأن عامة الناس حتى وإن تكرر سقوطهم، إلا أنه يمكنهم بسهولة نوال المغفرة. أما المُعلِّم فإن سقط فهو بلا عُذر، بل ويُحرم من كل عفوٍ، ويكون عقابه أشد على كل إثم ارتكبه. ولئلا يتجنبوا ويحجموا عن الانطلاق للكرازة من قوله لهم: "إذا ما عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة"، يصارحهم قائلاً: "ما لم تستعدوا بالصمود أمام كل ضيقة فقد صار اختياركم عبثًا، فلا ينبغي أن تخيفكم السمعة

السيئة، بل أن تخشوا المظاهر الكاذبة التي تفسد ملوحتكم، وعندئذ تُداسون بالأقدام. أما إذا ظللتم تحتملون كل ما يأتي عليكم من محنٍ في وعيٍ روحيٍ يقظ، مهما قيل عنكم من كلامٍ شريرٍ، افرحوا وتهللوا. لأن تلك هي منفعة الملح؛ أن يكون ترياقًا للفساد ويجعل الفاسد عديم فساد. فإن جاءتكم من الناس ملامة أو تعنيف، لا يقدر أحد أن يضركم بأي حال، بل يشهد على ثباتكم. لكن إن تخليتم بسبب الخوف عن رزانتكم اللائقة بكم، لدفعتم الثمن باهظًا خصمًا من سمعتكم الطيبة، فتصيرون سيِّئي الصيت، محتقرين من الجميع؛ هذا هو معنى "**تداسون من الناس**".

أنتم "نور العالم"

١١. ثم يسمو بهم إلى صورة أعلى: "**أنتم نور العالم**" [ع ١٤]

من جديد، هم "نور العالم" ليس لأمَّة واحدة أو لعديد من الدول، بل للمسكونة كلها.

وهم نور الذهن الأسمى كثيرًا من أشعة الشمس. كما سبق وشبههم "بالملح الروحي"، الآن يدعوهم "نورًا"، ليكشف لنا عن مدى عظمة هذه الوصايا الدقيقة والنفع الجزيل الذي لهذا النظام البالغ: كيف تلزم وتمكن من عدم صيرورتنا فجار تؤدي إلى رؤية واضحة للبشر تقودهم إلى حياة التقوى.

تدريبهم على حياة التدقيق

"**لا يمكن أن تُخفَى مدينة موضوعة على جبل، ولا يوقدون سراجًا ويضعونه تحت مكيال**" [ع ١٣-١٤].

بهذا الكلام يدربهم أيضًا على حياة التدقيق. يعلمهم أن يكونوا شديدي الحرص في جهادهم؛ فإليهم تتجه أنظار الجميع، كأبطالٍ يجاهدون في وسط العالم. وكأنه يقول لهم: "لا تنظروا إلى كوننا الآن جالسين هنا في بقعة صغيرة من أرجاء الأرض، لأنكم ستكونون محط أنظار العالم أجمع، كمدينةٍ قائمةٍ على قمة جبلٍ عالٍ، وكسراجٍ في بيتٍ على منارةٍ ينير لكل من فيه."

أين هم الآن الذين يصرون على إنكار الإيمان بقوة المسيح؟ ليتهم يسمعون هذه الأمور، ويمجدون قدرته، ويندهشون لهذه الرؤية النبوية لما هو عتيد أن يكون. فهؤلاء الذين كانوا مجهولين حتى في وطنهم الخاص، سوف يعرفهم البرّ والبحر، وسيبلغ صيتهم إلى أقاصي المسكونة، ليس كمجرد شهرة أو اسم يذيع في كل مكان، وإنما لأعمال الخير التي

سيصنعونها، والتي كانت واضحة للعيان أمام الكل، وكأن لهم أجنحة يطيرون بها أسرع من أشعة الشمس، يجوبون المسكونة كلها يبذرون نور التقوى والصلاح.

ويبدو لي في قول الرب لهم: "**لا يمكن أن تُخفى مدينة على جبل**"، أنه يدربهم على الجرأة في الحديث، والقوة في كرازتهم، وعلى قدرته التي سيعلنها بواسطتهم. لأنه مثلما لا يمكن إخفاء مدينة قائمة على جبل، هكذا من المستحيل أن يغمر الصمت كرازتهم، وتغوص تعاليمهم في الظلام. كما سبق وتكلم معهم عن الاضطهادات والوشايات والمكايد والحروب المزمع أن يواجهوها، فلا يظنوا أن تلك الأمور يمكنها أن تعوق كرازتهم حتى يشجعهم، نجده يقول: إن حياتهم وكرازتهم بالإنجيل لا يمكن أن تُخفى؛ بل تنير كل العالم، ولهذا ستطير شهرتهم إلى الآفاق، و يُذاع صيتهم في كل الدنيا.

بهذا يعلن الرب قوته. وبعد هذا يطلب الله منهم الشجاعة في التكلم، وهكذا قال:

"ولا يوقدون سراجًا ويضعونه تحت مكيال، بل على منارة ليضيء لكل من في البيت. فليضيء نوركم هكذا قدام الناس، لكي يروا أعمالكم الحسنة، ويمجدوا أباكم الذي في السماوات" [ع ١٥-١٦]

وكأنه يقول لهم: "لقد أشعلت حقًا النور، أما الذي يحفظه دائمًا مشتعلاً فهو اجتهادكم في الخدمة. ليس لأجل أنفسكم وحدكم، بل أيضًا من أجل أولئك الذين يمكنهم أن ينتفعوا بهذا الضوء الذي به يهتدون إلى الحق. لأن الوشايات لا يمكن أبدًا أن تحجب بهاء ضيائكم إن كنتم تحيون حياة الاستقامة. أنتم الملتزمون أن تهْدوا العالم أجمع إلى معرفة الحق؛ أظهروا إذًا للعالم حياة جديرة بنعمته، حتى إذا ما كُرز بها في العالم أجمع يرافقكم هذا النور نفسه على الدوام."

لا شيء يرفع من شأن الإنسان مثل الفضيلة!

يضع الرب بعد ذلك أمامهم نوعًا آخر من الربح بجانب خلاص البشر الجديد. إنه يجعلهم يسعون بكل ما في عزيمتهم وجهدهم. يقول لهم: إذا ما عشتم بالاستقامة لا تُقوِّموا شأن العالم فقط، بل أيضًا ستهيئون الفرصة لكي يتمجد الله بكم. أما إن فعلتم عكس ذلك، تكونون سببًا لهلاك البشر، وبسببكم يُجَدَّف على اسم الله.

ورُبَّ سائلٍ: كيف يمكن أن يتمجد الله بنا إذا تقاول الناس علينا شرًا؟ من يفعلون ذلك بدافع الحسد فإنهم، في قرارة أنفسهم، معجبون بكم ويمتدحوكم.

ماذا إذن؟ هل يأمرنا الرب بالتفاخر والمجد الباطل؟ حاشا! فهو لم يقل: "اجتهدوا أن تروا أعمالكم الصالحة"، ولم يقل: "أظهروها لهم". لكنه قال: **"ليضئ نوركم"**، أي لتنمُ فضيلتكم وتتوهج نارها، وينتشر نورها فائق الوصف. عندما تتسامى الفضيلة لا يمكن أن تظل مخفية، حتى ولو حاول الخصم أن يحجب نورها آلاف المرات. هكذا قدموا للناس حياة بلا لوم ولا عيب؛ فلا يجد العدو فيها فرصة ليقول عليكم كلامًا شريرًا بعد. حينذاك حتى إن وجد آلاف من المتكلمين بالسوء، فلن يستطيع إنسان أن يلقي عليكم أي ظل، ولن يقدر أن يحجب نوركم.

حسنًا قال: "نوركم"، **فلا شيء يرفع من شأن الإنسان مثل الفضيلة، ولو تحايل الفرد على إخفائها. كأن صاحبها مزين بالشمس، إنما يلمع بنور أكثر بهاءً منها، ويسطع نوره على كل الأرض، بل ويرتقي إلى السماء نفسها.**

هكذا كان يكثر من تعزيته لهم، كأنه يقول: مهما كان التشهير يؤلمكم؛ لديكم آخرون كثيرون يمجدون الله بسببكم، وفي كلا الأمرين تكون مجازاتكم عظيمة؛ الله تمجد بكم من ناحية، ومن أخرى افترى الناس عليكم لأجل الله.

ولئلا نتعمد أن يوبخنا الآخرون عندما نسمع أن لنا بسبب ذلك مكافأة، فإنه في بادئ الأمر لم يعبر عن هذا الرأي هكذا ببساطة، بل جعل له شرطيْن: أعني، حين يكون ما يُقال غير صحيح، وأن يكون لأجل الله. يقرر بعد ذلك أن هذا الأمر ليس بالأمر الوحيد، بل إن هذا الكلام الطيب (عنكم) له فائدته العظيمة، حين يعبر المجد منكم إلى الله. ويُظهر الرب لهم هذا الرجاء المبارك إذ يقول: "الدخول في الباب الضيق يجلب تشويهًا لسمعتكم، لكنه لا يدوم كثيرًا، فيضعه آخرون في الظلمة إذ يرون نوركم. إنه فقط حين يفسد ملحكم، أي تفقدون مذاقكم، يدوسونكم تحت الأرجل، لكن ليس حين يتهمونكم باطلاً يفعلون حسنًا، بل بالحري يلتف حولكم كثيرون معجبون بكم، لا لأجلكم أنتم فقط، بل لأجل أبيكم الذي في السماوات. لم يقل الرب: " يمجدون الله" بل "**يمجدون أباكم**" مُظهرًا أصل هذا الميلاد الشريف مسبقًا، والذي كان عتيدًا أن يجلبه لهم. وحتى يشير أيضًا إلى مساواته في كرامة الآب مثلما قال قبلاً: "لا تحزنوا إذا ما قال عليكم الناس كلامًا شريرًا، لأنه يكفيكم أنهم تكلموا عليكم بسببي". لهذا يذكر هنا الآب موضحًا مساواته له كما يفعل في كل موضع آخر.

لا نحزن لأنهم يشهرون بسمعتنا!

١٢. وإذ نعلم مدى المنفعة التي نجنيها بسبب جديتنا هذه، وخطر تراخينا (لأنه لو كان الناس يجدفون على الرب بسببنا، لصار حالنا أسوأ بكثير من هلاكنا). علينا ألا نكون عثرة لأحدٍ، لليهود أو للأمم أو لكنيسة الله (١ كو ١٠: ٣٢). وبينما تكون حياتنا التي يراها الناس أكثر إشراقًا من الشمس، فحتى إن تقوّل الناس علينا بشرٍ لا نحزن، لأنهم يشهرون بسمعتنا، فقط نحزن إن شهروا بنا عن حق. لأنه من جهة إن كنا نحيا حياة الشر، ولم يتحدث علينا أحد بسوء لصرنا أشقى جميع الناس، ومن جهة أخرى إن كنا نسلك حسب الفضيلة حتى وإن تقوّل العالم كله بشر، نصير في الوقت عينه محل حسد الناس أكثر من الآخرين، فنجذب إلينا الذين اختاروا أن يخلصوا، لأن حياتنا الصالحة هي التي تسترعى انتباههم، وليس تشهير الأشرار بنا. **لأنه ما من بوق يشهد على استقامتنا أكثر من أعمالنا التي نمارسها، فإن الحياة النقية أكثر شفافية من النور نفسه، حتى وإن فاق الذين يشهِرون بنا كل حد.**

أقول إن كانت كل الخصال السابق ذكرها هي من نصيبنا، وإن كنا ودعاء ومتواضعين ورحماء وأنقياء القلب وصانعي سلام، إن كنا نسمع التوبيخ ولا نخاصم أحدًا، بل بالحري نفرح ونسرّ، فإننا نجذب جميع الذين يلاحظون سيرتنا، مثلما تجتذبهم المعجزات. ويتعاطف الكل معنا، حتى ولو كان وحشًا كاسرًا أو شيطانًا أو أي شيءٍ آخر. فإن كان البعض يتكلمون عليكم بالشر، فلا تنزعجوا آنذاك٠ حتى إن هم وبخوكم علانية. اهتموا أن تفتشوا في ضمائرهم، ستجدونهم يهتفون لكم، ويعجبون بكم، ويمدحونكم مديحًا لا حدود له.

تأملوا مثلاً، كيف يمتدح نبوخذنصر الفتية في أتون النار بالرغم من خصومته معهم، لكنه حين رآهم واقفين في شموخ أعلن عن انتصارهم وكللهم بالتيجان، لا لشيء، إلا لأنهم لم يطيعوه وأطاعوا ناموس الله. لأن الشيطان حين لا يحقق شيئًا، يهرب خشية أن يكون سببًا في حصولنا على مزيد من الأكاليل. وبرحيله، فإن الذي كان الجميع يكرهونه، وكان يحيا في عزلة بينهم، نراه يسلك طريق الفضيلة، إذ انقشع الضباب من أمامه.

إن كان الناس لا يزالون يتجادلون ضدكم، ستنالون من الله أعظم مديحٍ وإعجابٍ. فلا تحزنوا بعد. أرجوكم لا تيأسوا، لأن الرسل أنفسهم كانوا بالنسبة للبعض "رائحة موت" (١ كو ٢: ١٦)، ولآخرين "رائحة حياة"، وإن لم يكن في نفوسكم شيء تتمسكون به، فيكفي أنكم تخلصتم من كل اتهاماتهم لكم، أو بالحري قد صرتم مطوَّبين بالأكثر. فليضيء نوركم

إذن في حياتكم، ولا تهتموا بالذين يقولون عنكم شرًا. لأنه من المستحيل، أقول من المستحيل، أن من يمارس الفضيلة تخلو حياته من الأعداء، مع ذلك فإن الرجل الصالح لا يهتم بهذه الأمور، لأنه يزداد بها بريقًا ويفيض إشراقه بالأكثر.

السمو بالانشغال بالحياة السماوية

إن كنا نشغل بالنا بهذه الأمور، فلنضع نصب أعيننا كيف نضبط حياتنا بالرصانة. لأننا بهذا نسير الحياة الأخرى ونقود معنا الجالسين في الظلمة. هذه هي خاصية النور: أن ينير هنا وأن يقود تابعيه إليه. لأن الناس حين يروننا نزدري بكل شيءٍ في هذا الزمان الحاضر، ونعد أنفسنا للدهر الآتي، تحثهم أعمالنا أسرع من أية عظة. لأن الإنسان... حين يرى من كان يعيش في بذخٍ يومًا ما، يتجرد الآن من كل الترف، ويتشح بأجنحة، ويستعد لقبول الفقر والجوع والصعاب والأخطار والذم والذبح وكل شيء رهيب، يستطيع إذا عاين كل هذا أن يكتشف أمور الزمان العتيد، المستقبل الأبدي. لكن إن كنا ننغمس في أمور الزمان الحاضر، وننزلق فيها أكثر فأكثر لا يقتنع الآخرون بأننا مرتحلون في عجالة إلى وطنٍ آخر.

فما هو عذرنا بعد إن لم نعش في مخافة الرب كما يليق، مثلما ساد مجد البشر بين الفلاسفة اليونانيين. إذ تخلَّى بعضهم عن ثروتهم، واحتقروا الموت، ولكن كان غرضهم التباهي أمام الناس، لهذا كان رجاؤهم باطلاً.

فما العذر الذي ينجينا إذن، رغم عِظَم الأمور الموضوعة أمامنا، ورغم المبدأ السامي لإنكار الذات المُتاح لنا نجد أنفسنا عاجزين حتى عن إتيان ما أتوه هم من أعمال، بل ونُهلك أنفسنا والذين معنا؟

خطأ المسيحي أخطر من خطأ الأممي

لأن الأممي (الوثني) إذا ارتكب خطية لا يقع عليه ضرر كبير، مثلما يخطئ المسيحي بنفس الخطية. فالأمم أصلاً فقدوا أخلاقياتهم، لكننا بنعمة الله مكرَّمون ومطوَّبون بين الأشرار. لهذا إذا تقولوا علينا شرًا، وزاد كلامهم الشرير علينا إلى حد كبير، ونادوا علينا في تهكم مرير ساخرين: "يا مسيحي"، فإنهم ما كانوا يستعملون هذا النداء التهكمي لو توفرت لديهم سرًا فكرة سديدة عن عقيدتنا.

ألم تسمعوا كيف أن السيد المسيح قد أوصى وصايا عظيمة وكثيرة؟ فمتى تقدرون أن تنفذوا إحدى هذه الوصايا، هل وأنتم عازفون عنها كلها، منصرفون إلى اللهث وراء اللذة،

متكالبون على جمع أموال الرِبا الفاحش، جالسون عند عتبات الصفقات التجارية، متاجرون في قطعان العبيد، جامحون في دأب للتحف الفضية، مبتاعون بيوتًا وحقولاً وبضائع لا نهاية لها؟

كنت أتمنى أن يكون هذا كل شيءٍ، لكنكم حين تضيفون إلى هذه المساعي التي لا لزوم لها، ظلمًا ونهبًا بإزالة علامات الأراضي واغتصاب بيوت الناس بالعنف، تعملون على تفاقم الفقر وازدياد حالات الجوع، فمتى تقدرون أن تثبّتوا أقدامكم على هذه الأعتاب؟

لا تنتظروا تسديد الدين مني بل من الله المدين!

١٣. لكنكم تُظهِرون الرحمة للمساكين أحيانًا. أعرف ذلك مثلما تعرفون أنتم، لكن حتى هذا المسلك سيء أيضًا، لأنكم تفعلون ذلك إما من باب الكبرياء أو المجد الباطل، فلا تنتفعون حتى بأعمالكم الصالحة، فأي حال أتعس من حالكم هذا، إنكم تحطمون سفنكم وأنتم في مرفأ الأمان. فإن فعلتم صلاحًا وأردتم منع ذلك، لا تنتظروا مني شكرًا، لأن الله هو المدين لكم. إذ يقول: "اقرضوا الذين لا ترجون أن تستردوا منهم" (قارن لوقا ٦: ٣٤).

فإن كان الله هو المدين لكم، فلماذا تتركونه وتطالبونني أنا المسكين المائت بهذا الدين؟

ماذا؟ إن الله يُسرّ أن تسترد الدين منه فهو ليس بفقيرٍ، وإنه لا يرفض أن يفي بالديون. ألا ترون عظم كنوزه الفائقة الوصف؟ ألا تنظرون سخاءه الذي لا يُنطَق به؟

تمسكوا إذن بطلب الدين منه، فإنه من غير اللائق أن نتركه ونطلب سداد الدين من آخر سواه، فإنه يرى فيما تفعلونه خطأ، وكأنه يقول لكم: لماذا تفعلون هذا وبأي جحود تتهمونني، هل تزعمون إنني فقير، حتى إنكم تعتزمون أخذ الدين من آخرين؟ هل تقرضون (الله الواحد) ثم تطلبون من آخر أن يسدد هذا القرض؟ لأنه رغم أن الإنسان هو الذي أخذ القرض، فإن الله هو الذي أوصاكم أن تعطوه، ومشيئته أن يكون هو المدين بكل ما تحمله الكلمة من معنى. في الحقيقة، إن الرب يعطيكم أضعاف أضعاف الفرص لاسترداد الدين منه في كل حين وفي كل مكان. فلا تدعوا هذه الفرصة السانحة تضيع منكم هكذا بسهولة، ولا تبددوا هذا السخاء الوفير، طالبين الدين ممن لا يملكون شيئًا. فلأي غرض تظهرون رحمتكم بالمساكين؟ ماذا؟ ألم أكن أنا الذي قلت لكم أعطوا؟ ألم تسمعوا مني: إني سأرد لكم عطاياكم؟ ألم أقل: "من يرحم الفقير، يقرض الرب" (أم ١٩: ١٧)؟ وأنتم قد أقرضتم الله،

فضعوا هذا الدين على حسابه، حتى وإن لم يسدد لكم الدين كله الآن. حسنًا، إنه إنما يفعل ذلك لخيركم أيضًا. فيا له من مدينٍ، ليس ككثيرين يرغبون هكذا ببساطة أن يردوا ما اقترضوه من دين، بينما الرب يدبر كل شيء، لاستثماره في أمانٍ لأنه قرض مُعطَى للرب. لهذا كما ترون يسدد بعضه هنا ويؤجل الدين للبعض الآخر.

لا تجبن عن أن تنقذ إنسانًا

١٤. وإذ نعلم هذه الأمور، فلنرحم بسخاء ووفرة، ولنُقَدِّم دليلاً على محبتنا الكثيرة للإنسان باستخدام أموالنا تارة وأفعالنا تارة أخرى. فإن رأينا إنسانًا تُساء معاملته، ويتلقى الضرب في ساحة السوق، فإن كنا نقدر على سداد الدين عنه فلنفعل. وإن كنا نقدر بالكلمات وباللسان أن نفض المشاجرة، فلا نجبن. فحتى الكلمة لها مكافأة، وما أكثر الكلمات التي ترفع التنهدات، حسبما يقول المطوَّب أيوب: "ألم أبكِ لكل متعثرٍ، ألم أتنهد حين رأيت إنسانًا في ضيقة" (أي ٣٠: ٢٥ *LXX*).

لكن إن كانت هناك مجازاة للدموع والتنهدات، وللكلمات أيضًا، والاجتهاد الدؤوب وأعمال أخرى نضيفها، تكون المكافأة عظيمة جدًا. أجل، إذ كنا نحن أيضًا أعداءً لله، فصالحنا الابن الوحيد، طارحًا نفسه في الوسط متلقيًا عنا الجلدات والضربات ومحتملاً الموت لأجلنا. فلنفعل نحن مثله، فنجتهد أن نُخَلِّصهم من شرور أصابتهم بغير حصرٍ، وليس كما نفعل الآن، حين نرى البعض يمزقون ويضربون بعضهم، فنقف مكتوفي الأيدي. نتلذذ باحتقار الآخرين، صانعين مسرحًا شيطانيًا. إنه مشهد في منتهى القسوة حين ترون أشخاصًا يتخاصمون ويتنازعون، ويمزقون بعضهم بعضًا ويقطعون ملابسهم، ويلكمون وجوه بعضهم بعضًا، ورغم ذلك تحتملون مشاهدة هذا الشجار في هدوء؟ ما هذا؟ هل الذي يتصارع أمامكم دب؟ حيوان مفترس؟ حيَّة؟ إنه إنسان، شريك لكم في كل شيء، أخوكم في عضويته معكم (قارن أف ٤: ٢٥). فلا تقفوا متفرجين، بل فضوا المشاجرة، لا تتلذذوا بها، بل بالحري فرّقوا المتجمهرين.

إن المتلذذين بهذه الفرجة هم من السادة والعبيد، يرفضون شركة المصالحة لأسباب واهية. أقول لكم: هل إذا رأيتم إنسانًا يسلك بعدم لياقة، لا يهمكم سلوكه، وكأن الأمر لا يعنيكم؟ لماذا لا تتدخلون وتمزقون قوات الشيطان، وتضعون حدًا لمشقات مثل هذا الإنسان؟

ورُبَّ سائلٍ: "ربما تلقيت أنا نفسي بعض اللكمات". هل هذا هو تبريرك لعدم مشاركتك؟ ألا تقبل هذه المعاناة أيضًا؟ **ألا تعلم أنك إذا احتملت آلام الآخرين، حُسِبَ احتمالك هذا نوعًا من الاستشهاد**، لأنك تتألم لأجل الله. فإن كنت متباطئًا في تلقّي الضربات، تذكّر أن الرب يسوع لم يبطئ في تحمُّل آلام الصليب لأجلك.

أنقذوا الظالم من ثورة الغضب!

المتنازعون سكارى يسيرون في ظلمة، قد أعمى الغضب مشاعرهم، فسادَ عليهم وطغى، يحتاجون إلى العقل السليم ليساعدهم. ففاعل الشر والواقع عليه الأذى، كلاهما في حاجة إلى عون وتقويم: الأول حتى أن يكف عن شره، والثاني حتى نخلصه من آلامه ومعاناته.

اقتربوا إذن، مدوا أيديكم أيها المنتبهون لنفوسكم لمساعدة ذلك الغافل كالسكير، **لأنه تحت سيطرة غضب أخطر من سُكر الخمر**. ألا ترون البحارة حين يواجهون حادثة تحطم سفينتهم، يفردون قلاعهم، ويستعدون بأقصى سرعة لإنقاذ زملائهم من نفس المهنة من خطر الأمواج العاتية، فإن كان أبناء المهنة الواحدة يهتمون هكذا بعضهم ببعض، فكم بالأكثر يكون واجب المشتركين في نفس الطبيعة أن يفعلوا كل هذه الأمور. لأننا هنا أمام سفينة محطمة فعلاً، تتعرض لخطر أكبر من ذاك. إننا أمام إنسان تحت ثورة الغضب والاستفزاز يجدف ويلعن، ويطرح كل شيءٍ ويلقيه أرضًا، أو تحت ثورة الغضب يحلف كذبًا، وهو طريق يقود إلى جهنم. أو أن يضرب ضربته، ويقترف جريمة القتل، فنراه كالذي يعاني من حطام سفينته.

انطلقوا إذن وضعوا حدًا للشر، أنقذوا الغرقى. حتى إذا نزلتم إلى أعماق الأمواج الهائجة، تحطمون مسرح الشيطان، وتعزلون كل واحدٍ بمفرده، وتنصحونه أن يخمد نيران الغضب، وأن يهدئ من ثورة أمواجه.

حتى إن بَدتْ كومة النار مشتعلة بنارٍ شديدةٍ، وبدا الأتون مشتعلاً بضراوة، لا تخافوا ولا تفزعوا! لأن معكم كثيرين يهرعون لمساعدتكم. أبسطوا أيديكم وأنتم في بداية النزاع، وإله السلام يكون معكم قبل كل شيء. فإن بدأتم في إخماد النيران أولاً، فإن كثيرين آخرين أيضًا سيحذون حذوكم، وتنالون أنتم مكافأة أعمالهم الحسنة. اسمعوا السيد المسيح وهو يوصي اليهود والذين كانوا يزحفون على الأرض لنجدة حمارٍ: "إذا رأيت حمار عَدوِّك واقعًا تحت حِمله لا تعدل عنه، بل ارفعه" (خر ٢٣: ٥).

وعليكم أن تدركوا أن الفصل بين شخصيْن متنازعيْن ومصالحتهما، لهو أهون كثيرًا من حمّل حمار ساقط. فإن كان من اللازم علينا المساعدة على رفع حمار عدوّنا، فكم بالأحرى نفوس أصدقائنا. وكم بالأحرى يكون سقوط المتخاصمين عظيمًا، لأن أولئك لا يسقطون في الأوحال، بل في نيران الجحيم، غير حاملين أثقال غضبهم، فأنتم حين ترون أخاكم ساقطًا تحت الثقل والشيطان واقفًا بجواره يضرم نيران الكوة، فإنكم تجرون هاربين، في قسوةٍ وبلا رحمةٍ. وهو تصرف ليس من الأمان فعله، حتى إن اختص الأمر بضرر واقع على حيوانات ضارية. فالسامري الصالح حين رأى إنسانًا جريحًا لا يعرفه، ولا يمُت له بصلة قرابة لا من بعيد ولا من قريب، وقف وحَمَلَه على حمارٍ، وأتى به إلى بيتٍ، إلى حانةٍ، واستأجر طبيبًا، وأعطاه بعض النقود ووعده بالمزيد. أما أنتم فترون إنسانًا لا يسقط بين لصوص، بل بين براثن عصابة من الشياطين قد استشاطوا غضبًا، وليسوا في برية، بل في وسط ساحة، ولستم مضطرين إلى دفع نقود لفض النزاع، ولا إلى استئجار حمارٍ، ولا أن تأتوا به عبر طريق طويل، بل أن تقولوا فقط بضعة كلمات، فهل تحجمون عن فعل ذلك؟ هل تمتنعون وتفزعون في قسوةٍ وبلا رحمةٍ؟ هل تظنون أن الله ليس هو صانع الخيرات؟

كيف انقلبتم إلى حيوان مفترس؟

١٥. لكن دعوني أخاطبكم، فإنكم تجلبون على أنفسكم الخزي هكذا علنًا، وأن أخاطب كل من يسلك سلوكًا مزريًا تشوبه الأخطاء. هل توجهون اللكمات؟ اخبروني. وهل تركلون بالأرجل وتعضون غيركم؟ هل أصبحتم خنزيرًا بريًا متوحشًا أو حمارًا بريًا؟ ألا تخجلون من أنكم انقلبتم إلى حيوان مفترس، وأنكم تخونون شرفكم الخاص؟ فبالرغم من أنكم فقراء، فأنتم أحرار. وبالرغم من أنكم أُجراء، فأنتم مسيحيون.

كلا! بل لأنكم فقراء وجب عليكم أن تكونوا مسالمين، لأن القتال من طبع الأغنياء لا الفقراء. فإن للأغنياء أكثر من سبب يدفعهم إلى الصراع، أما أنتم فلا تعانون من ملذات الغِنَى، لكنكم تنشغلون بجمع شرور الثروة والعداوة والمنازعات، فتخنقون أخاكم من رقبته، وتحاولون شنقه، وتطرحونه أرضًا هكذا علنًا أمام الناس جميعًا. أفلا تظنون أنكم بهذا تجلبون الخزي على أنفسكم حينما تقلدون نزعة العنف عند البهائم، بل هذا أسوأ، إذ تشتركون معًا في صفات وسلوكيات القطيع من فوضى ومشاجرات وصراعات ومنافسات وعداوة وإهانات،

فلا نوقر السماء التي تتجه إليها دعوتنا جميعًا، ولا الأرض التي وهبها الرب لنا كلنا مجانًا بلا ثمن، ولا نُكرم طبيعتنا كبشرٍ، بل نغضب حين يكتسح حب المال كل ما نملك.

ألم تروا ذاك الذي كان يملك المواهب بغير حصر ولكنه كان مدينًا، وحينما سومح عن ذلك الدين خنق الخادم زميله بسبب مبلغ زهيد (مائة وزنة)، وكان شره عظيمًا فعوقب عقابًا أبديًا (مت ١٨: ٢٣-٣٤). ألا ترتعدون من هذا المثل، ألا ينتابكم خوف خشية أن يقع عليكم نفس الأمر، لأننا نحن أيضًا مدينون لربنا بديون هذا عددها، ومع ذلك فإنه يسامحنا ويتأنى طويلاً ولا يضايقنا، مثلما نفعل مع أتباعنا ورفقائنا، فلا يخنقنا ولا يمسك برقابنا، بل يسعى ليصلح فينا ولو أصغر عضوٍ أفسدناه.

اعفوا عن المدينين!

١٦. هيا أيها الأحباء - ونحن متفكرون في هذه الأمور - أن نتواضع، وأن نكون شاكرين للمدينين إلينا. لأننا إن عاملناهم برفقٍ، تصير لنا فرصة اغتنام صفح وخير. وإذ نعطي قليلاً، نأخذ كثيرًا. فلماذا نلجأ إلى العنف؟ رغم أن الآخرين مستعدون للسداد، بينما في استطاعتكم مسامحتهم لنوال كل الدين من الله. لكنكم تلجأون الآن إلى العنف والمخاصمات الكثيرة، فلا تسامحون فيما لكم من ديون. وتفتكرون في احتقار جيرانكم، فيقع السيف على رقابكم أنتم، وتزداد عقوبتكم في الجحيم، بينما لو أظهرتم جميعًا قليلاً من ضبط النفس هنا لجعلتم حسابكم يسيرًا. لأن الله يريدنا حقًا أن نكون أُمناء في هذا النوع من الخير، ليكافئنا بزيادة في حينه.

فإن كان لكم كثيرون مدينون بمالٍ أو بتعديات، أسقِطُوها كلها، واطلبوا من الله أن يعوضكم عن شهامة أعمالكم، لأنهم إن ظلوا مدينين لكم طويلاً، يكون الله أيضًا مدينًا لكم، لكن إن أطلقتموهم تحتجزون الله لديكم، وتطلبون منه التعويض العظيم المقدار عن ضبط النفس.

إن افترضنا أن إنسانًا جاء وراءكم وأنتم تلقون القبض على أحد المدينين لكم، وطلب منكم أن تعتقوه وتأخذوا الدين منه شخصيًا، مظهرًا أنه عادل ويريد نقل حساب الدين عليه. فكيف لا يقدر الله أن يعوضنا مئة ضعف، بل أكثر من هذا بكثير لأجل وصيته، إن كان أحد مدينًا لنا ولم نشكوه مهما كانت قيمة الدين كبيرة أو صغيرة، بل نعفيه من كل ما عليه من ديون؟

فلا تفكروا إذن في تلك الفترة الوقتية التي تنالونها حين تسوُّون ديونكم، بل بالحري، نفكر في فداحة الخسارة التي نتكبدها في الحياة الأخرى، فنؤذي نفوسنا بشدة فيما يخص الأمور الأبدية. ولكن إن ارتفعنا فوق الجميع، فلنسامح الذين يجب عليهم سداد الديون لنا، من أموال أو إساءات حتى نجعل من حسابنا حساب صفح وتسامح.

وما لا نقوى على فعله بكل فضيلة، نناله إن كنا لا نحمل أية ضغينة ضد أحد جيراننا، فننعم بالبركات الأبدية، بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح للإنسان، الذي له المجد والقوة الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور. آمين.

العظة السادسة عشر

الناموس القديم وناموس ربنا يسوع المسيح

"لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء" [ع ١٧].

١. لماذا يقول ذلك؟ هل ارتاب أحد في الرب؟ أو اتهمه أحد حتى يدفع عنه هذا الاتهام؟ وهل ساور الناس الشك بسبب ما قيل قبلاً. كيف هذا؟ وهو يوصي الناس بالوداعة والتواضع والرحمة ونقاوة القلب والجوع والعطش لأجل البرّ. فهل يدل ذلك على مِثْلِ هذا الشك، أم أن العكس هو الصحيح، ولأي سبب يا ترى يقول ذلك؟ إنه لم يقل ذلك عبثًا أو جزافًا.

فهو مزمع أن يشرِّع وصايا أعظم من وصايا العهد القديم، قائلاً: "**قيل للقدماء لا تقتل، أما أنا فأقول لكم لا تغضبوا**"، وحتى يمهد لهم الطريق إلى حديث إلهي سماوي، وحتى لا تضطرب نفوس السامعين لغرابة ما يسمعونه، ولئلا يتمردوا ضد ما يقوله، اتبعَ هذه الوسيلة ليعدهم إعدادًا جيدًا سلفًا.

فعلى الرغم من أنهم لم يكملوا الناموس إلا إنهم كانوا يمتلكون وعيًا كبيرًا تجاهه. وبينما يقاومون الناموس كل يومٍ، كانوا يتمسكون بحرفيته، ولا يبدلونه أبدًا. وحتى لا يضيف أحد إليه أي شيء جديد، فإنهم ربما كانوا يدفعون رؤساءهم أن يضيفوا المزيد لا للأفضل بل للأسوأ. لأنهم هكذا اعتادوا أن يتخلوا عن الكرامة اللائقة بآبائنا بإضافاتٍ من عندهم، بل كانوا يتحررون من كثير من الأمور الموصى بها (مر ٧: ١١-١٣) بإضافات في غير محلها. ولأن المسيح في المقام الأول لم يكن من السبط الكهنوتي، ولأن الأمور التي كان مزمعًا أن يقدمها كانت بمثابة إضافات، لا تقلل بل تزيد من الفضيلة، وإذ كان يعلم بسابق عِلْمه أن تلك الأمور ستزعجهم، وقبل أن يدوِّن في أذهانهم هذه القوانين العجيبة، طرح أولاً ما تراكم عندهم من أمورٍ ماضيةٍ، فما هو ذلك الشيء الراكد الذي كان يشكل عقبة؟

٢. لقد ظنوا أنه يتكلم هكذا بغرض إلغاء أو نقض القوانين القديمة، لهذا راح يعالج شكَّهم هذا في كل مناسبة. فحين حسبوه مقاومًا لله، إذ بحسب ظنهم لم يحفظ السبت، وحتى يعالج ارتيابهم فيه، كان يعلّل ما يقول بأسبابٍ تليق بشخصه وطبيعته مثلما يقول: "أبي يعمل... وأنا أعمل" (يو ٥: ١٧)، وبعض أعماله تلك كانت أعمال تنازل وعطف، مثلما كان

يأتي بالخروف الضال في يوم سبت (مت ١٢: ١١)، مشيرًا إلى أن عمله هذا لا يؤثر في حفظ السبت، فذكر لهم الختان كأمرٍ له نفس التأثير (يو ٧: ٢٣).

حرصه أن يزيل كل لَبس لديهم أنه مقاوِم لله

لذلك نجده في أحوال كثيرة ينطق بكلمات أدنى من مرتبته، ليزيل كل لَبس لديهم أنه مقاوِم لله. لهذا السبب فإن الذي أقام آلاف الموتى بكلمة واحدة منه، وحتى قبْل أن ينادي على لعازر من القبر صلى، ولئلا يظهر لهم وكأنه أدنى من الآب، وحتى يصحح هذا الشكل أضاف "قلت ذلك... لأجل هذا الجمع الواقف ليؤمنوا أنك أرسلتني" (يو ١١: ٤٢). ولم يكن يعمل كل الأعمال كواحدٍ يعملها بقدرته الذاتية، حتى يقوِّم ضعفهم بشكل صحيح، ولا كان يفعل كل شيء بالصلاة، لئلا يترك في قلوبهم ارتيابًا شديدًا من جهته، وكأنه مُجَرَّد من القوة والسلطان، وكان يمزج هذا بذاك بحكمةٍ لائقةٍ بشخصه، لأنه وهو يصنع الأعمال العظيمة بسلطانه كان يرفع عينيه نحو السماء.

هكذا حين كان يغفر الخطايا، ويعلن عن أسراره، ويفتح الفردوس، ويطرد الشياطين، ويطهر الأبرص، ويقيد الموت، ويقيم الموتى بالآلاف. كان يفعل كل ذلك بسلطانه وأمره، لكنه في أمورٍ أقل من هذه بكثير حين كان يبارك الخبزات القليلة لتصبح كثيرة بوفرة، كان يرفع عينيه إلى السماء مشيرًا إلى أنه لم يكن يفعل ذلك عن ضعفٍ، لأن **الذي يقدر أن يحقق عظائم الأمور بسلطانه، كيف يصلي في الأمور الأقل؟** ومثلما كنت أقول لكم إنه يفعل ذلك ليخرس خزيهم، وأنا أطلب منكم نفس الشيء حيال كلماته عن الأمور الصغيرة. ومن حيث كلامه أو أعماله، فإن هناك أسبابًا كثيرة نُعللها.

فمثلاً لا يليق بنا أن نعتبره غريبًا عن الله من حيث تعليمه وانتظاره للناس كلهم، ومن حيث تعليمه التواضع. ومن حيث أخذه جسدًا، وعدم قدرة اليهود سماع كل ذلك في الحال، وتعليمه لنا ألا نتحدث عن أنفسنا بكبرياء، ولهذا السبب عينه كان في كل الأوقات يتكلم بتواضعٍ عن نفسه، أما عظائم الأمور فكان يترك للآخرين مهمة الحديث عنها. وفي حديثه إلى اليهود والرد على مجادلاتهم كان يقول: "قبل إبراهيم أنا كائن" (يو ٨: ٥٨).

أما تلميذه فكتب يقول: "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله" (يو ١:١). وأيضًا هو نفسه الذي خلق السماوات والأرض والبحر، وما يُرى وما لا يُرى، فإنه لم يكن يكشف عن شخصه في أي موضع، لكن تلميذه كان يقول ذلك بصراحة،

ولم يخفِ شيئًا، وكان يؤكد ذلك المرة تلو المرة أن: "به كان كل شيءٍ، وبغيره لم يكن شيء مما كان، وأنه كان في العالم وكُوِّن العالم به" (يو ٣: ١-١٠).

ولا نتعجب أن كثيرين آخرين قالوا عنه أمورًا أعظم من التي ذكرها هو عن نفسه في كل الأحوال. فما أظهره بأعماله وكلامه لم يجاهر به علانية. فالذي خلق كل البشر أظهر ذلك بكل وضوح مع المولود أعمى، لكن في حديثه عن خلقتنا في البدء لم يقل أنا صنعت، بل قال: "الذي خلق من البدء، خلقهما ذكرًا وأنثى" (مت ١٩: ٤). والذي خلق العالم كله بكل ما فيه من موجودات، أظهر ذلك باستخدامه السمك والخمر والأرغفة (أرغفة القمح) وإسكات البحر وشعاع الشمس الذي حجبه عن عود الصليب، وأمور أخرى كثيرة لكنه لم يقل ذلك صراحة في أي موضوع تكلم فيه. مع أن تلاميذه ظلوا يعلنون ذلك باستمرار. هكذا فعل يوحنا وبولس وبطرس. وهم الذين كانوا يسمعون عظاته ليل نهار. ويرونه وهو يصنع المعجزات، وهم الذين شرح لهم الرب كل شيءٍ على انفراد، ووهبهم قوة عظيمة لإقامة الموتى، وجعلهم كاملين، حتى تركوا كل شيء لأجله وتبعوه. فإن هؤلاء حتى بعد أن مارسوا أعظم الفضائل في إنكار ذات، لم تكن لديهم القدرة على الشهادة بذلك، قبل حلول الروح القدس عليهم، فكيف كان يمكن لليهود العديمي الفهم، البعيدين كل البعد عن هذا السمو، أن يقتنعوا بكلامه، ولا يزعموا أنه غريب عن الله، وهم كانوا حاضرين بدون ترتيب وعن غير قصد حين كان يقول أو يفعل شيئًا، إن لم يكن قد قصد هو عمليًا أن يمارس التواضع في كل حين، وكان تواضعه عظيمًا.

على هذا الأساس نرى حتى وهو يبدو لهم أنه يكسر السبت، لم يأتِ بمثل هذا التشريع، وكأنه عن عمدٍ مقصودٍ، بل يضع معه العديد من الأسانيد للدفاع عن الحق، فحين كان يوشك أن يبطل وصية ما (في حرفيتها)، كان يتحفظ كثيرًا في كلامه حتى لا يربك السامعين. بل أكثر من ذلك أنه حين كان يضيف إلى الناموس السابق تشريعًا أو قانونًا آخر، كان يريد أن يظهر منتهى الانضباط، والانتباه، وليس فقط بغرض إنذار سامعيه. ولهذا السبب عينه، لا نراه يعلِّمُ في أي مكان بوضوح حول لاهوته، لأنه إن كانت إضافته للناموس تحيرهم كثيرًا، وهذا مؤكد، فكم بالحري إعلانه عن نفسه أنه هو الله.

ما جئتُ لأنقض بل لأُكَمِّلَ

٣. لهذا السبب، نطق المسيح بأمورٍ كثيرةٍ، أدنى بكثير من الكرامة التي تليق به. وهنا وإذ يوشك أن يضيف إلى الناموس، أدخل عددًا وفيرًا من التصحيحات مسبقًا، فهو لم

يقل إنه "لا يريد أن ينقض الناموس" مرة واحدة وكفى، بل كان يكرر هذا القول مرات عديدة، بل وأضاف شيئًا آخر أعظم، فعند قوله: "لا تظنوا إني جئت لأنقض"، أردف قائلاً: "**ما جئتُ لأنقض بل لأُكَمِّلَ**"، وهكذا أوقف عناد اليهود وسد أفواه الهراطقة الذين يقولون إن العهد القديم هو من الشيطان. لأنه إن كان المسيح قد جاء ليحطم طغيان إبليس، فكيف يبيد القديم، بل أن يكمِّله. لأنه لم يقل فقط: "أنا لا أنقضه"، وكان يكفيهم هذا القول، بل يقول "**بل لأُكَمِّل**"، وهي كلمات إنسان لا يناقض نفسه بل بالحري لديه كل الثقة فيما يقول. ورُب سائلٍ: وكيف لا ينقضه؟ وما البرهان على أن الرب قد أكمل بالأحرى كلاً من الناموس والأنبياء!

أ. أكمل الرب الأنبياء

أكمل الرب الأنبياء بقدر ما أكمل من أعمال أيدت كل ما قيل عنه "بالأنبياء"، حيث اعتاد الإنجيلي أن يقول في كل ما يُجرَى بواسطة الرب، "**لكي يتم ما قيل بالأنبياء**" وذلك حين وُلِدَ (مت ١: ٢٢-٢٣)، وحين ترنم الأطفال له الترنيمة العجيبة عندما امتطى ظهر الأتان (مت ٢١: ٥-١٦). وفي مناسبات عديدة أكمل أمورًا سبق التنبؤ بها والتي لم تكن لتتحقق كلها لولا مجيئه في الجسد.

ب. أكمل الرب الناموس فيه وفينا

أما الناموس، فقد أكمله بعدة طرق: إنه لم يتعدَّ أية فريضة في الناموس، بل أكمل الناموس كله. اسمعوا ما يقوله ليوحنا المعمدان: "يليق بنا أن نكمل كل برّ" (مت ٣: ١٥). ويقول لليهود أيضًا: "من منكم يبكتني على خطية؟" (يو ٨: ٤٦) ويقول لتلاميذه كذلك: "رئيس هذا العالم يأتي، وليس له فيِّ شيءٍ" (يو ١٤: ٣٠). وقال النبي عنه منذ القديم: "إنه لم يعمل خطية" (إش ٥٣: ٩). هذا كله جانب واحد من جوانب إكماله للناموس.

أما الجانب الآخر فقد **أتم الناموس فينا**، وهذا هو العجيب في أنه ليس هو نفسه فقط الذي أكمله، بل منحنا هذا بالمثل. وهو ما يعلنه القديس بولس الرسول قائلاً: "لأن غاية الناموس هي المسيح للبرّ لكل من يؤمِن" (رو ١٠: ٤). وقال أيضًا: "دان الخطية في الجسد، لكي يتم حكم الناموس فينا، نحن السالكين ليس بحسب الجسد" (رو ٣: ٨-٤)، ثم قال: "أفنبطل الناموس بالإيمان؟ حاشا، بل نثبت الناموس" (رو ٣: ٣١) لأن الناموس كان يهدف إلى أن يتبرر الإنسان، ولما لم تكن له القدرة على ذلك، جاءنا الرب عن طريق الإيمان، فأسس ما أراده الناموس. وما لم يستطعه الناموس حرفيًا، أتمه المسيح بالإيمان، وعلى هذا الأساس يقول: "لم آتِ لأنقض الناموس".

٤. لكن لو سأل إنسان بإمعان أكثر، فسنجد معنى آخر في سياق الأمر، خاص بقول المسيح: "ما جئت لأنقض بل لأُكَمِّل"، فما هو هذا المعنى؟ وما هو مفهوم الناموس المستقبل الذي يوشك المسيح أن يُسَلِّمه لهم؟ لأن **أقواله لم تكن نقضًا للسابق، بل امتدادًا له حتى الكمال**، فمثلاً وصية: "لا تقتل"، لم ينقضها بقوله "لا تغضب"، بل بالحري أكملها، إذ وضعها في صيغة أكثر أمانًا. وهكذا الحال بالنسبة للوصايا الأخرى.

هكذا ترون أنه كما سبق وطَرَحَ بذار التعليم دون ما شك، حتى إذا ما جاء الوقت الذي فيه يقارن بين الوصايا القديمة والجديدة ويتعرض لما يبدو كأنه وضعها متناقضة! فقد سبق فوضع النتيجة النهائية لصياغة الوصية القديمة بعد تكميلها بالجديدة، فقد نشر الرب قبلاً هذه التعاليم بِشكل سري مخفي. فمثلاً عندما قال: "طوبى للمساكين" كانت هي نفسها، وإن كانت بصورة أخرى، عندما طالبنا أن لا نغضب. و"طوبى لأنقياء القلب"، تعادل "لا تنظر إلى امرأة وتشتهيها في قلبك". ووصية النهي عن "كنز كنوزنا في الأرض" تتطابق مع "طوبى للرحماء". فالحزن وقبول الاضطهاد والطرد والتعيير تتفق كلها مع "الدخول من الباب الضيق". و"الجوع" و"العطش" من أجل البرّ هو نفس ما قاله الرب فيما بعد: "كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوه أنتم أيضًا بهم" (مت ٧: ١٢). وعندما أعلن الرب "طوبى لصانعي السلام" كان يعني نفس الشيء عندما أوصى أن يترك المسيحي "قربانه على المذبح" ليتصالح مع أخيه الذي أحزنه، وأن "يتراضى مع الخصم".

وإذا كان في بداية عظته قد بدأ بوضع المكافأة لمن يعملون الصلاح، فكما قال في ذلك الموضع: "الودعاء يرثون الأرض"، هكذا هنا يقول: "من قال لأخيه يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم". هناك قال: "أنقياء القلب يعاينون الله" وهنا يعتبر كل من نظر نظرة شهوانية بغير تعفف زانيًا بالفعل. وإذ قال هناك: "إن صانعي السلام يدعون أبناء الله"، يحذرنا هنا من خطر الوقوع في يدي الخصم لئلا يُسَلِّمنا إلى الحاكم.

هكذا أيضًا مثلما يبارك ويطوِّب الحزانى والمضطهدين، نراه في المرة التالية وهو يؤسس نفس التشريع، يهدد بالهلاك أولئك الذين لا يسلكون الطريق الضيق، بل يدخلون من الباب الواسع، حيث يلقون في النهاية حتفهم. وحين يقول: "لا تقدرون أن تخدموا الله والمال"، يؤكد نفس المعنى السابق في قوله: "طوبى للرحماء" و"طوبى للعطاش والجياع إلى البرّ".

وكما قلت، ولأن الرب مزمع أن يوضح تلك الأمور لهم أكثر، بل ولكي يضيف إليها المزيد؛ لأنه لم يعد يطلب من الإنسان أن يكون رحيمًا فحسب، بل طالبنا بالأكثر، أن

نعطي ثيابنا، ولا يطلب أن يكون الإنسان وديعًا فحسب، بل أن نحول خدنا الآخر لمن لطمنا على خدنا الأول، لهذا يبدأ أولاً في إزالة أي تناقض ظاهري "لا تظنوا أني جئت لأنقض"، ثم يضيف: "ما جئت لأنقض بل لأُكَمِّل".

تكميل الناموس كله

"**فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل**" [ع ١٨]. وكأنه يقول هكذا: لا يمكن أن يبقى شيء ما من أمور الناموس متروكًا هكذا دون تكميل، بل لابد أن يتحقق ولو أدنى شيء فيه، وهو نفس الشيء الذي فاه به هو ذاته وأكمله بنفسه بمنتهى الدقة. وهو هنا يشير سرًا إلى زوال هيئة العالم كله، وتغييرها إلى الأكمل، وأنه لم يقل شيئًا بغير قصدٍ ولغرضٍ سامٍ يُقْبِلُ على تشريع عهد آخر جديد طالما أن نظام الخليقة كلها سوف يتغير، وهذا شيء لا يقارن بدعوة البشرية كلها إلى وطن آخر جديد تُمارس فيه حياة أكثر سموًا وكمالاً.

٥. "**فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى، وعلّم الناس هكذا، يُدعَى أصغر في ملكوت السماوات**" [ع ١٩].

وإذ يخلصهم من شرورِ الشك ويسد أفواه المعارضين، يستمر في تحذيراته الشديدة تدعيمًا للوصايا المُقدم على تشريعها. وهو يقول ذلك لا نيابة عن النواميس القديمة، بل لأجل الذي يخاطبهم من أجل تفاعلهم معها وتحقيق الوصايا الكاملة. فأنصتوا لما يلي:

"**فإني أقول لكم إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين، لن تدخلوا ملكوت السماوات**" (مت ٥: ٢٠). لأنه إن كان يقصد إلغاء ونقض ناموس العهد القديم، كيف يقول: "إن لم يزد بركم على..." لأن من يفعل نفس ما فعله القدامى لا يمكن أن يكون برّه زائدًا عنهم، فما هو المطلوب؟ ألا نغضب؟! ألا نشتهي امرأة ما شهوة رديئة؟!

لأي سبب يا ترى يسمّي تلك الوصايا القديمة "الأصغر" رغم عظمتها وسموها؟ ذلك لأنه هو نفسه كان مزمعًا أن يُظهر لهم تحقيقه لنفس الوصايا. فكما وضع نفسه، وكان يتحدث عن ذاته بتواضعٍ، هكذا كان يفعل بالنسبة لما يشرِّعه من قوانين، فحين علَّمنا أن نتواضع في كل شيءٍ، وإذ استشعر شكًا ما حول هذه الوصية الجديدة، كان يتحفظ في كلامه بعض الشيء. لكن إذا سمعتموه يقول: "الأصغر في ملكوت السماوات"، لا تفتكروا في الجحيم والعذابات، لأنه اعتاد أن يقصد بكلمة "ملكوت" لا التنعم هناك فقط، بل أيضًا ما يحدث في

يوم القيامة عند مجيئه المخوف. فكيف يمكن أن يُعقل أن من يدعو أخاه أحمق ويخالف وصية واحدة، ينزل إلى الجحيم؟ بينما من يكسر الوصايا كلها ويخالفها قد يدخل الملكوت؟ كلا، ليس هذا ما يعنيه أبدًا، بل إن مثل هذا الإنسان سيكون بمثابة "الأقل أو الأصغر" في ذلك الزمان. أي يعني أنه سيُطرَح في النهاية خارجًا. وبالتأكيد أن الأخير سوف يُطرَح في الجحيم، لأن السيد المسيح هو نفسه الله الذي يعرف بسابق علمه رخاوة الكثيرين، ويعرف مسبقًا أن البعض سوف يظنون أن أقواله مُغَالَى فيها!

لهذا هم يجادلون في الناموس قائلين: ماذا لو أن أحدًا دعا آخر يا أحمق، هل يُعاقَب؟ وإذا نظر شخص مجرد نظرة إلى امرأة، هل يصبح زانيًا؟ ولهذا السبب عينه، وحتى يستأصل كل تمردٍ على وصاياه، يضع مسبقًا أقوى تحذير ضد كل من يتعدى الوصية فيُعثِر الآخرين.

من عَمِلَ وعلَّم يُدعى عظيمًا في ملكوت السماوات

وإذ نعرف نحن هذا التهديد إذا خالفنا وصاياه، فلنكف عن هذا العصيان، وأن نمتنع عن إحباط همم حافظي الوصايا. يقول الرب: "**لكن من عمل وعلَّم، فهذا يُدعى عظيمًا في ملكوت السماوات**". لأنه لا يليق بنا أن ننفع أنفسنا فحسب، بل وننفع الآخرين أيضًا. لأن من يقود آخرين معه تَعظُم مكافأته. لأنه كما يدان المُعَلِّم الذي يُعَلِّم دون أن يعمل بتعاليمه حسب المكتوب: "فأنت الذي تُعلِّم غيرك، ألست تُعلِّم نفسك" (رو ٢: ٢١)، هكذا من يفعل ذلك دون إرشاد الآخرين تنقص مكافأته جدًا. على الإنسان إذن أن يكون متميزًا في العمل، لكي يصلح نفسه بنفسه، ثم يتقدم برعاية الآخرين وخدمتهم. على هذا الأساس شدد المسيح على العمل قبل التعليم، ليؤكد أنه إن كان يوجد من يقدر على تعليم الناس كلهم فلا سبيل أن يفعل ذلك، قبل أن يعمل أولاً بما يعلِّمه. حتى لا يقول له أحد: "أيها الطبيب اشفِ نفسك" (لو ٤: ٢٣). لأن الذي لا يستطيع أن يُعلِّم نفسه، ومع ذلك يحاول أن يقوِّم آخر سيُسخَر منه كثيرًا، ولن تكون لهذا الإنسان القدرة على التعليم على الإطلاق، فأعماله تناقض كلامه. لكنه إن كان كاملاً في الأمريْن معًا "**يُدعى عظيمًا في ملكوت السماوات**".

بِرُّ الناموس وبرّ النعمة

٦. "فإني أقول لكم، إنكم إن لم يزد برّكم على الكتبة والفريسيين، لن تدخلوا ملكوت السماوات" (مت ٥: ٢٠)

يعني الرب بالبرّ هنا كل فضيلة، مثلما كان يتحدث عن أيوب أيضًا فقال: "كان بلا لوم، رجلاً بارًا" (راجع أي ١: ١). وبنفس هذا المعنى، يدعو القديس بولس أيضًا ذلك الإنسان الذي لم يوضع لأجله ناموس بارًا. إذ يقول: "إن الناموس لم يوضع للبـــار" (١ تـــي ١: ٩). وفي مواضع أخرى كثيرة نجد أن كلمة برّ تشير إلى كل فضيلة عمومًا.

لكن لاحظوا أرجوكم، تسامي النعمة في أن "الرب" يجعل تلاميذه القادمين حديثًا أفضل من معلمي العهد القديم، لأنه يعني "بالكتبة والفريسيين" هنا ليس فقط الذين بلا ناموس، بل فاعلي الصلاح، لأنهم لولا أنهم يعنون الخير ما قال عنهم إن لهم برًا، ولا قارن البرّ الحقيقي بغير الحقيقي.

لاحظوا أيضًا هنا، كيف يمدح ناموس العهد القديم بعقد مقارنة بينه وبين ناموس آخر، حيث يذكر أمورًا تتفق مع نفس السبط ونفس الجنس، حتى يكونا تقريبًا على نفس الدرجة، فهو كما ترون لا يجد في الناموس القديم أي خطأ، بل يجعله أكثر حزمًا، لأنه لو كان الناموس القديم شريرًا لما طلب مزيدًا منه، ولا جعله أكثر كمالاً، بل لكان قد نزعه ونقضه. ورُبّ قائل يقول: "فإن كان الناموس بهذا القدر، فلماذا لا يستطيع، أي الناموس، أن يدخلنا الملكوت؟"

نعم لا يقدر الناموس أن يفعل ذلك بعد مجيء السيد المسيح، إذ يصبح الذين يعرفون المسيح أكثر تذوقًا لمزيدٍ من القوة، وأكثر جهادًا لتحقيق مزيد من الأمور الأعظم. فكما كان ناموس العهد القديم يصنع بأبنائه السابقين، هكذا الجديد يأتي إلينا بالمسيح الكامل. إذ يقول السيد المسيح: "إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتّكئون مع إبراهيم واسحق ويعقوب" (مت ٨: ١١). ويقبل لعازر أيضًا الجُعالة العليا، إذ تراه في حضن إبراهيم. وكل الذين أظهروا في التدبير القديم سُموًا ورفعة، يستضيئون بالناموس. **فلو كان الناموس شريرًا أو غريبًا عن المسيح نفسه، لما أكمله حين جاء.** لأنه لو كان يفعل ذلك لجذب اليهود فقط، وليس لكي يبرهن أنه صاحب الناموس الجديد ومكمله أيضًا، لكان قد تمم نواميس وعادات الأمم ليجذبهم هم أيضًا؟

واضح إذن من كل الاعتبارات أن الناموس فشل في أن يأتي بنا إلـــى الملكـــوت، لا لشرٍ فيه أو عيبٍ، بل لأن الوقت الآن هو وقت الوصايا العظمـــى. وإن كـــان النـــاموس أقل كمالاً من الجديد، فليس هذا لشرٍ فيه، وإلا كان الجديد بحسب هذا المبدأ هو شر أيـــضًا. لأن معرفتنا الآن، إذ ما قورنت بما هو عتيد وآتٍ هي في الحقيقة معرفة ناقصة وجزئيـــة،

بل وتزول متى جاء الجديد. إذ يقول الرب على لسان القديس بولس الرسول: "متى جاء الكامل فحينئذٍ يبطل ما هو بعض" (١ كو ١٣: ١٠). ومثلما يحدث للقديم متى حل الجديد، هكذا نحن أيضًا لا نلوم الناموس الجديد لأنه يدبر لنا أيضًا موضعًا في الملكوت، إذ يقول المسيح: "فحينئذٍ يبطل البعض (أو الجزء)". لكننا ندعوه عظيمًا، لأن المكافأة أيضًا أعظم، والقوة التي يمنحها الروح هي أوفر، وتتطلب أن تكون أعمالنا المُرضية أعظم أيضًا. إذ لم يعد أمامنا الآن "الأرض التي تفيض لبنًا وعسلاً"، ولا العهد القديم المعزِّي والمريح، ولا كثرة النسل والأولاد، ولا القمح والخمر، وقطعان الماشية، بل السماوات بوفرة خيراتها، والتبني الذي لنا بالابن الوحيد، وشركة ميراث المجد، والجلوس مع الرب في عرشه. وبتلك المكافآت التي لا حصر لها ولا يُحصَى لها عدد، وإذ نقبل عونًا أوفر، فلنسمع القديس بولس الرسول يقول: "لا شيء من الدينونة الآن، على الذين هم في المسيح يسوع، السالكين ليس حسب الجسد، بل حسب الروح... لأن ناموس روح الحياة... قد أعتقني من ناموس الخطية والموت" (رو ٨: ١-٢).

الغضب والقتل

٧. بعد تحذير الرب للمتعدين على وصاياه، وبعد كشفه عن المجازاة العظيمة للذين يفعلون الصلاح، وبعد أن أشار إلى أنه يطالبنا بمعايير تفوق تلك المعايير القديمة، يبدأ السيد الرب منذ تلك اللحظة في التشريع، ليس بطريقة مقارنة بسيطة هكذا مع الوصايا القديمة. بل يشير إلى كلا الأمرين، الأول أن تشريعه لا يتعارض مع الناموس السابق، بل بالحري يتفق معه اتفاقًا كاملاً. ومن جهة أخرى، أن الوقت كان مناسبًا ليضيف وصايا جديدة تكون أكثر وضوحًا. لهذا فلننصت إلى كلمات المشرِّع التي يقولها لنا: "**سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل**" [ع ٢١].

الرب نفسه هو الذي شرَّع الوصايا القديمة، لكنه لم يُصَرِّح بذلك شخصيًا حتى هذه اللحظة، لأنه لم يقل لهم: "سمعتم أنني قلتُ لهم في القديم". حتى لا يصعب عليهم هذا القول، ولا يضع عقبة في طريق سامعيه. ومن جهة أخرى لا يقول لهم: "سمعتم أنه قيل للقدماء بواسطة أبي"، ولم يقل أيضًا: "ولكنني أقول لكم"، حتى لا يبدو وكأنه يفضل نفسه على الآب أبيه. لهذا يقول ببساطة وفي إيجاز إنه في الوقت المحدد جاء يقول لهم هذه الوصايا. لأنه بعبارة "قد قيل للقدماء" قد أشار إلى المدة الزمنية التي انقضت على استلامهم هذه الوصية، وهو يفعل ذلك ليخزي السامع الذي يحجم عن التقدم إلى المقام الأعلى لوصاياه. مثلما يقول

لطفل بطيء النمو وكسول: "ألا تعلم كم قضيت وقتًا طويلاً في تعلُّم مقاطع الكلمات؟" وهذا ما يفعله بتصريحه سرًا بالتعبير "القدماء". أما بالنسبة للمستقبل، فإننا نجده يجمع كل هذه التعبيرات في رتبة أعلى في توجيهاته. وكأنه يقول لقد تعلمتم هذه الدروس بما فيه الكفاية. وعليكم أن تجاهدوا لتتعلموا دروسًا أعلى منها. وقد فعل حسنًا إذ بدأ بترتيب الوصايا، فقدم أولها والتي بدأ بها الناموس أيضًا. مظهرًا ما بينهم من تناغم: "وأما أنا فأقول لكم: إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم" (مت ٥: ٢٢). فهل ترون هذا السلطان في تكميل الوصايا. هل ترون مثل هذا التأثير الذي يتلاءم مع خصال المشرِّع؟ فمَن من الأنبياء تحدث بمثل هذا قط؟ ومَن من بين الأبرار فعل هذا؟ ومن وسط الآباء؟ لا أحد.

ولكن – هذا ما يقوله الرب – ليس الابن كذلك. لأنهم إنما كانوا ينشرون وصايا سيدهم، ووصايا أبيه هو، وحين أقول "أبيه" أعني خاصته، إذ يقول المسيح "لأن ما لي هو لك، وما لك هو لي" (يو ١٧: ١٠). فإن كان لهم رفقاؤهم يشرّعون لهم، فإن له خدامه وعبيده الأخصَّاء.

فلنسأل الآن أولئك الذين يرفضون الناموس: **هل وصية "لا تغضب" تناقض وصية "لا تقتل"؟** أم أن الثانية تتمم الأولى وتكملها؟ بل أن الثانية أعظم من الأولى: لأن من يكتم غضبه لا يسقط في خطية القتل، ومن يكبح لجام الغضب يتحكم في يديه، فالغضب جذر القتل وأصله. وتعلمون أن كل من يستأصل الجذر يستطيع أن ينتزع الأغصان، بل بالحري لا يجعلها تتكاثر أبدًا.

لم يضع الرب تلك الوصايا لينقض الناموس بل ليكمله. لأن الكيفية التي يوصي بها الناموس هي هذه: لم ينص أن يقتل الإنسان قريبه، بهذا يناقض الناموس الذي يأمر بعدم القتل. لكنه إذ يطالب الإنسان ألا يغضب مجرد غضب، يكون قد أكمل فكر الناموس إلى التمام، لأن من يحرص على تجنب القتل، يسعى إلى الامتناع عنه تمامًا، مثلما يفعل كل من يطرح عنه مشاعر الغضب، فيسلم من السقوط في القتل.

يجرد الهراطقة الله من فعل الخلق وينتقدون ناموس

٨. يمكننا أن ندينهم بطريقة أخرى، دعنا نأتي بكل ادعاءاتهم، فإن كانوا يزعمون أن الله الذي خلق العالم و"الذي يجعل شمسه تشرق على الأشرار والصالحين. والذي يمطر على الأبرار والظالمين" (قارن مت ٥: ٤) هو إله شرير! وحتى المعتدلين منهم رغم أنهم

يزعمون مثلهم، إلا أنهم رغم تأكيدهم أنه إله عادل وبار، يجردونه من الصلاح. وآخرون من بينهم حتى وإن كانوا لا يزعمون مثلهم، بل يجعلون ما للآب خاصًا بالمسيح، إلا إنهم يزعمون أن ذلك الإله الشرير يبقى على ما هو عليه، ويحفظ خاصته، أما الصالح الآخر فإنه يطلب ما للآخر ويرغب هكذا فجأة أن يصبح مخلِّصًا لأناس لم يخلقهم.

هل ترون كيف ينطق أولاد إبليس بما يتفوه به أبوهم. إذ يجردون الله من فعل الخلق، بينما يصرخ القديس يوحنا قائلاً: "إلى خاصته جاء" و"كُوِّن العالم به" (يو ١: ١٠-١١). وفي موضع آخر، نراهم ينتقدون ناموس العهد القديم، الذي يأمر قائلاً: "عين بعين، وسن بسن"، فيرتكبون إهانة صريحة بقولهم: "كيف يكون صالحًا من يأمر بشيء مثل هذا؟

وصية: عين بعين وسن بسن

نرد عليهم فنقول: "إن في ذلك التشريع أسمى مظاهر محبة الله للبشر". فقد شرَّع هذا القانون، لا لكي يقلع أحدنا عين الآخر، بل حتى تمنحنا خشية أذى الآخرين لنا من إيذائنا نحن لهم. فالله قد هدد أهل نينوى بالانقلاب، لا بغرض إهلاكهم (لأنه لو كانت تلك مشيئته نحوهم، لما تكلم بل صمت وفعل)، بل فعل ذلك ليجعلهم يصيرون أفضل حالاً بسبب مخافتهم، ومن ثم يُهَدِّئ من غضبه ضدهم. ولهذا أيضًا عيَّن عقابًا ضد الذين يقلعون عيون الآخرين عن عمدٍ، حتى إذا لم يرد عنهم مبدأ الصلاح عن إتيان هذه القسوة، يمنعهم الخوف من إلحاق الأذى بأبصار جيرانهم، فإن كان في ذلك قسوة، فإنه من القسوة أيضًا أن يردع القاتل ويعاقب الزاني.

لكن أقوالهم هي أقوال إنسان عديم الفهم، قد بلغ جنونهم حدًا لا يُوصف. فحاشا لي أن أقول إن هذه الوصايا فيها قسوة، بل يليق بي القول إن عكس ذلك يناقض الناموس.

بحسب مفاهيم الناس، قد تقولون: إنه قاسٍ، لأنه يوصي أن نقلع عيناً بعينٍ وسناً بسنٍ. وأقول إن لم يكن أمر بذلك، لكان بحسب حكم الناس قاسيًا كما تزعمون. ولنفترض زوال مثل هذا القانون، فإنه لا يخشى أحد العقوبة التي يحكم بها مثل هذا التشريع، بل يحصل للجميع من الأشرار على ترخيص بالسلوك وفقًا لمُيولهم الشريرة في أمان، ودون رادعٍ، فيشمل الترخيص أيضًا للزناة والقتلة والحانثين بالقسم، وقتلة أبويهم، أفلا ينقلب كل شيء رأسًا على عقب؟ ألا تمتلئ المدن وساحات الأسواق والمنازل والبحار والأرض بل والعالم أجمع بنجاسات وقتل بغير حصر؟ إن الجميع يدركون ذلك، لأنه بالرغم من القوانين

القائمة والخوف الذي يعترينا من جراء التهديد بالعقاب، لا تزال ميولنا الشريرة خفية ودفينة يصعب التكهن بها حتى زال الأمان في وسطنا. فلا رادع يمنع رذائل الناس، وتعم الفوضى السلوكيات كلها في العالم أجمع ويشمل الخراب الإنسانية كلها، بل بالحري، إن القسوة لا تكمن فقط في السماح للأشرار بفعل ما يشاءون، بل في أمر آخر قد يبدو أكثر مسالمة من ذلك، هو أن تتغاضى عن الذين لم يرتكبوا شرًا، فنهملهم ونتركهم يتكبدون الآلام والمعاناة هكذا دون سببٍ.

أخبروني أنتم، هل نحشد كل أشرار العالم من جميع ربوع الأرض ونسلحهم بالسيوف، ونأمرهم بالذهاب إلى كل أطراف المدينة وذبح الجميع ممن يصادفونهم في طريقهم؟ هل هناك حيوان أكثر افتراسًا من الشخص الذي يفعل ذلك؟ لكن لو كان يوجد من يقيد في حزم شديد ويضبط أولئك المسلحين، وأن يُكبِّل أيادي الجزارين، لأصبح هذا التصرُّف في منتهى الإنسانية.

أريدكم الآن تطبيق تلك الأمثلة على الناموس وبنفس القدر، لأن الذي أوصى "عين بعين"، قد آثار فينا الخوف كقيدٍ قويٍ صارمٍ يُكَبِّل نفوس الأشرار الأردياء. وهو يشبه الذي يلقي بالقتلة في السجن، بينما الأبرياء من كل عقاب يسلحهم بالأمان، فيقوم بدور من يجردهم من السيوف التي في أيديهم حتى لا يفتكوا بكل من في المدينة. أرأيتم أن الوصايا بمنأى عن القسوة، بل هي بالحري تفيد بالرحمة. فإن كنتم على هذا الأساس تدعون المشرِّع قاسيًا يصعب التعامل معه، فأخبروني أية وصية أشد وأقسى من "لا تقتل" أو "لا تغضب"؟ ومن يكون أكثر تطرفًا: ذاك الذي ينفذ العقوبة بسبب القتل، أم بسبب غضب؟ ذاك الذي يعاقب الزاني بعد افتضاح أمره، أم الذي يأمر بالعقوبة بمجرد الشهوة؟

ألا ترون أن تفكيرهم متناقض تمامًا؟ فكيف أن إله العهد القديم الذي يدعونه قاسيًا، يصبح هكذا رقيقًا ووديعًا، وأن إله العهد الجديد، الذي يقرون بصلاحه، يصبح صعبًا ومتشددًا، حسب ظنهم المجنون؟

بينما نؤمن نحن أن المشرِّع لكلا العهدين واحد ولا آخر سواه. وهو الذي شرَّعهما متوافقين معًا بمنتهى الدقة، وجعلهما يتفقان حتى مع اختلاف الزمان – قديمه وجديده – لهذا **فلا الوصية الأولى قاسية ولا الثانية مثلها، بل كل الوصايا قد شرَّعتها العناية الإلهية،** عناية إله العهد القديم الذي بحسب تأكيد النبي: "أقطع معكم عهدًا جديدًا، ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائكم" (قابل إر ٣١: ٣١-٣٢). وإن لم يقبل بهذا من أصابه مرض بدْعة

المانويَّة[1]، فليسمع قول القديس بولس الرسول الذي يذكر نفس الأمر في موضع آخر: "كان لإبراهيم ابنان، واحد من الجارية، والآخر من الحرة". وكل ذلك رمز؟ لأن هاتين ترمزان إلى العهديْن (قارن غل ٤: ٢٢). ورغم أن الزوجتيْن مختلفتيْن، لكن الزوج واحد، هكذا أيضًا فإن العهديْن وإن اختلفا، لكن المشرِّع واحد، وحتى نبرهن لكم أنهما من نفس الأصل العادل، فإنه يقول في واحد منهما: "عين بعين"، ويقول في الآخر: "من لطمك على خدك الأيمن، فحوِّل له الآخر" (مت ٤: ٣٩).

لأنه مثلما كان يكبح جماح المخطئ خوفًا من وقوع الألم على آخرين، هكذا الحال أيضًا في هذه الوصية، فهو حين يأمرنا أن نحوِّل الخد الآخر، يجعلنا نسمح لمن يلطمنا أن يبلغ ذروة غضبه. لكنه لم يقل إن هذا الضارب سيفلت من العقاب، بل بالأحرى، لا تعاقبه أنت في الحال، حتى تثير خوف من يلطمك – إن قاوم – ولتنال تعزية من تلقِّيك هذه اللطمة.

من يغضب على أخيه باطلاً

٩. وما سبق أن ذكرنا، بخصوص الوصايا، يدفعنا إلى الاستمرار في إكمال الحديث عنها. فلنلتقط أول الخيط في قوله: "**من يغضب على أخيه باطلاً، يكون مستوجب الحكم**" هكذا قال السيد المسيح. والإنسان بحسب طبيعته لا يقدر أن يتحرر تمامًا من الشهوات، فنحن قد نتسلط عليها، لكننا لا نقوى على التجرد منها نهائيًا. فهذا مستحيل. وأيضًا لأن هذه الشهوة نافعة، إن عرفنا كيف نوظفها حسنًا.

فمثلاً دعونا نتأمل الخير الكبير الناتج عن غضب القديس بولس الرسول، والذي شعر به تجاه أهل كورنثوس، في تلك الحادثة الشهيرة، وكيف حررهم خوفهم من مأزق شديد، وبنفس الأسلوب استرد شعب غلاطية، الذي كان قد انحرف، فأنقذ آخرين أيضًا معهم، **فما هو إذن الوقت المناسب للغضب؟** هو حين لا ننتقم لأنفسنا، وحين نكبح جماح وثورة الآخرين بسبب نزواتهم المخالفة للناموس، وحين نحثهم على السهر واليقظة إذا ما صمدوا.

وما هو الوقت الغير مناسب للغضب؟ حين ننتقم لأنفسنا، الأمر الذي يحذرنا منه القديس بولس أيضًا قائلاً: "لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء، بل أعطوا مكانًا للغضب" (رو ١٢: ١٩). وإن كنا نعتمد على ذواتنا، فقد حذرنا منها أيضًا وانتزعها من وسطنا بقوله: "لماذا لا تُظْلَمُون بالْحري؟ لماذا لا تُسْلَبُون بالْحريّ؟" (١ كو ٦: ٧). لأنه مثلما يكون هذا

---

[1] يرفض أتباع ماني العهد القديم، ويحسبون إله العهد القديم قاسيًا.

الخير الأخير فائضًا عن الحاجة، هكذا يكون الخير الأول نافعًا وضروريًا. لكن مُعظَم الناس يفعلون النقيض! فصاروا مثل حيوانات مفترسة تؤذي نفسها بنفسها، لكنهم حين يرون الأذى يلحق بالآخرين يسامحون ويجبنون. وكلا الأمريْن مناقض لناموس الإنجيل، وأن يغضب الإنسان لا يصنع التعدي، ولكنه إن **غضب في غير أوان الغضب (المقدس) فهذا هو التعدي.** لهذا السبب يقول المرنم النبي أيضًا: "اغضبوا ولا تخطئوا" (مز ٤: ٥ *LXX*).

من قال لأخيه رقًا

١٠. "**ومن قال لأخيه رقًا (Raca) يكون مستوجب المجمع**" [ع ٢٢]. وهو يعني بالمجمع هنا، محكمة العبرانيين، وقد ذكر ذلك الآن، حتى لا يبدو في كل موضع وكأنه غريب أو دخيل.

لكن كلمة "**رقًا**" ليست من الكلمات التي تُسَبِّب إهانة كبيرة، بل بالحري تُظهِر بعض الازدراء أو التحقير الخفيف من جانب قائلها، مثلما يحدث حين نصدر أمرًا لخدام البيت أو لأي شخص آخر أدنى رتبة منا، نقول بالعامية: امضِ من ههنا، أو "قل لبني آدم ده". هكذا فإنهم يستخدمون اللغة السريانية فيقولون رقًا وهي لفظة تحل محل الضمير "أنت" لكن الله محب البشر، يريد أن يحذف من قاموسنا حتى أدنى الأخطاء، ويطالبنا بالسلوك اللائق بعضنا نحو البعض، باحترام واجب، واضعين في الاعتبار التخلُّص أيضًا من الأخطاء الأكبر. "**ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم**". قد تبدو هذه الوصية عند الكثيرين قاسية ومزعجة. أن نجازي لمجرد كلمة، بمثل هذه العقوبة الجسيمة. ويزعم البعض أن هذا الكلام قيل على سبيل المبالغة أو الغلو. ولكنني أخشى أن تُخدَع نفوسنا بهذا الكلام، فنعاني فعلاً من عقوبة شديدة. لأنني أريد أن تخبروني كيف تبدو الوصية ثقيلة الحِمل؟ ألا تعلمون أن كل العقوبات ومعظم الخطايا تبدأ من الكلام؟ أجل، فالكلام أصل التجديف، وبالكلام ننكر الله، ونخاصم الناس، ونوبخ ونحلف باليمين ونشهد بالزور. فلا تقولوا إذن إنها مجرد كلمة قلناها، لا تأثير خطير لها، فهذا ما تودون الاستفسار عنه، فهل تجهلون أنه في وقت العداوة، وحين يشتعل الغضب وتتوقد النفس – فتبدو حتى أقل الأشياء فادحة – ومن غير اللائق التهاون في محاسبة الآخرين على التوبيخ، فإن تلك الصغائر قد تؤدي إلى القتل، وتهلك مدنًا بأكملها.

إذا كانت أثقل الأمور تبدو خفيفة في وجود الصداقة، فإن أتفه الأمور تبدو غير مُحتَمَلة في وجود العداوة. ومهما بدتْ الكلمة بسيطة في ظاهرها، فإن قائلها لابد أنه كان

يقصد معنى شريرًا من قولها. ذات الحال مع النار، فإن مستصغر الشرر إذا صادف ألواحًا خشبية تُعَد بالآلاف تأتي عليها كلها. وإذا اشتد اللهب وارتفع فإنه يحرق الخشب والحجر أيضًا معه وكل ما يصادفه في طريقه، ومهما حاولنا إطفاء النار تزداد اشتعالاً. ويعلم الجميع أن الخشب والكتان والمواد القابلة للاشتعال، بل والماء نفسه (أحيانًا) يزيد النار اشتعالاً. هكذا الحال مع الغضب، الذي يجعل الإنسان في لحظة طعامًا للشر المُسيطر. ومن بين كل الشرور التي ذكرها المسيح، أدان الغضوب باطلاً، وجعله "مستوجب الحكم"، وأن من يقول رقًا يكون مستوجب المجمع (أي المحكمة العليا اليهودية). وهي أمور ليست بالجسيمة، إذ يكون عقابها هنا، لكن كل من يدعو الآخر رقًا أو أحمق فقد بلغ نار جهنم، وهي أول مرة يذكر فيها المسيح لفظة جهنم، فقد تحدث طول الوقت عن الملكوت، حتى جاء ذكر الجحيم هنا، ليشير ضمنًا إلى أن الملكوت هو هبة محبته الخاصة لنا، وعنايته الفائقة بنا، أما جهنم فبسبب إهمالنا.

التدرج في إظهار العقوبات

١١. انظروا كيف يتدرج الرب شيئًا فشيئًا في إظهار عقوباته، حتى لا يكون لأحد عذر، وليُظهر أن رغبته الأكيدة ليست في تهديده لنا بالعقوبات، ولا بغرض أن نتهمه بأنه دائم التحذير لنا بلا أدنى سبب. إذ يقول كما تلاحظون: "آمركم ألا تغضبوا باطلاً، حتى لا تجلبوا الحكم على أنفسكم". لقد احتقرتم الوصية الأولى (القديمة)، فانظروا ما جلبه الغضب.

لقد قادكم على الفور إلى التحذير من الشتيمة، لأنكم تدعون أخاكم "رقًا" مرة أخرى، فها أنذا أحذركم من عقوبتها: وهو "حُكْم المجمع". فإن أهملتم هذا وفعلتم ما هو أشد، فإنني لن أنزل عليكم تلك العقوبات المحدودة هنا، بل العقاب الأبدي الذي لا يزول في جهنم، لئلا تتزلقوا بعد ذلك إلى القتل. لأنه ما من شيء في العالم أكثر إيلامًا من الإهانة، فهي تؤذي نفس الإنسان إلى أقصى حد، وحين تكون الكلمة المنطوقة أيضًا أكثر إيذائًا وجرحًا من الإهانة، فإن ثورة الغضب تصبح أشد أذى وإيلامًا. فلا تظنوا أن دعوتنا للآخر بالأحمق هي من الأمور الهينة. لأنه إن كان العقل (والفهم) هو ما يميزنا عن البهائم، وهو الذي يجعلنا بشرًا عاقلين مدركين، وإن كنا بنفس هذا العقل نسلب أخانا ونجرده من شرفه، فلنهتم لا بالكلمات وحدها، بل بأمورنا التي تؤثر في مشاعر الآخرين. ولنتأكد أن الكلمة الجارحة تسبب جرحًا غائرًا وشرًا مستطيرًا. لهذا يتحدث القديس بولس الرسول عن المطرودين من

الملكوت، لا من الزناة والفاسقين وحسب، بل من "الشتَّامين" أيضًا. ولهذا الكلام سبب حكيم: فالشتَّام يفسد جمال المحبة الأخوية، ويلحق بجاره آلامًا مبرحة، وعداوات لا نهاية لها. ويُمَزِّق أعضاء المسيح إلى أشلاء، ويُبَدِّد كل يوم السلام الذي يريده الله، مُمهدًا للشيطان أرضية صالحة بسبله الشريرة، فيجعل إبليس الأقوى.

اهتمام الرب بالمحبة

لهذا نجد السيد المسيح يمزق أوصال الشيطان، فيشرِّع هذا الناموس بجديد. لأن الرب يهتم جدًا بالمحبة، فهي أم كل صلاح، وهي العلامة التي يعرف بها الناس تلاميذه، والرابطة التي تجمعنا كلنا معًا. لهذا يشرِّع الرب ناموس المحبة ليستأصل كل جذور الكراهية المفسدة لكل شيءٍ.

فلا تظنوا أبدًا أن هذه الأقوال مُغَالَى فيها، بل بالحري تفكروا فيما تجلبه من خيرات. وتعجبوا من اللطف الذي تحويه. لأن كل اهتمام الله هو باتحادنا وترابطنا معًا.

لهذا يهتم الرب جدًا بهذه الوصية في شخصه الذاتي وفي تلاميذه، وفي العهدين القديم والجديد، بل ويعاقب بشدة كل من يحتقر وصية المحبة، لأن نزع المحبة يفتح الباب على مصراعيه أمام كل الشرور، بل ويكون جذرًا وأصلاً للشر. لهذا قال أيضًا: "لكثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين" (مت ٢٤: ١٢). لهذا صار قايين قاتلاً لأخيه، وهكذا فعل عيسو، كذلك إخوة يوسف، وكل الجرائم التي ارتكبناها والتي بغير حصر، وتسببت في حل أواصر المحبة بيننا. لهذا يستأصل (رب المجد) الأمور التي قد تضر بالمحبة. نراه يفعل ذلك في كل أحاديثه بمنتهى الدقة.

اصطلح أولاً مع أخيك

١٢. إنه لم يتوقف عند تلك الوصايا فقط - السابق ذكرها - بل أضاف إليها وصايا أخرى أكثر منها، ليؤكد على أمور يريد الإشارة إليها. أعني بعد أن هدَّد "بالمجمع" و "بالحكم" و "بالجحيم" أو جهنم. أضاف ما يتفق مع قوله السابق قائلاً: "**فإن قدَّمتَ قربانك إلى المذبح، وهناك تذكَّرتَ أن لأخيك شيئًا عليك فاترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولاً اصطلح مع أخيك، وحينئذٍ تعال وقدم قربانك**" (مت ٥: ٢٣-٢٤).

يا لصلاح الرب، ومحبته الفائقة للإنسان! لم يهتم بالكرامة الواجبة له، بل بالأكثر اِهتم بمحبتنا لأقربائنا، فلم ينطق بالتهديدات السابقة، وكأنه عدونا أو كأنه يرغب في عقابنا،

بل بدافع عاطفة حب رقيقة جدًا. فهل هناك أقوال تضاهي رقة كلامه الذي يقول: "فلتقطع خدمتك ليدوم حبك للآخر؛ لأن المحبة ذبيحة أيضًا، حين تتصالح مع أخيك". أجل!

لهذا السبب لم يقل: "بعد القربان أو التقدمة"، بل والقربان موضوع على المذبح، وليس بعد رفعه، ولا بعد تقديم الذبيحة أو رفع التقدمة، بل بينما هي في وسطنا، يأمرنا أن نسرع إلى المصالحة. **تُرَى ما هو الدافع الذي لأجله يوصيكم أن تفعلوا ذلك. وما هي الأسباب؟**

يتراءى لي أن هاتيْن الغايتيْن يرسمهما لنا سرًا هنا:

أولاً: تشير مشيئته كما قلتُ قبلاً إلى أنه **يضع المحبة في أعلى مقام سام**، ويعتبرها أعظم ذبيحة، والتي بدونها لا يقبل منا أية ذبيحة أخرى.

ثانيًا: **يضع الرب على كاهلنا هذه الضرورة لأجل المصالحة**، لأن كل من أمره بألا يرفع تقدمته قبل أن يتصالح، سيهرع إلى مَنْ أحزنه ليزيل العداوة إن لم يكن بدافع المحبة نحو جاره، فلكي لا تكون ذبيحته بغير تقديس. لهذا السبب اِهتم المسيح بالأمر اهتمامًا بالغًا، وأنذرنا بإحكام ليوقظنا، فحين قال: "اُترك هناك قربانك"، لم يكتف بذلك، بل قال: "قدام المذبح". ربما في نفس المكان الذي كان يُروِّع جاره فيه. وقال: "اذهب" ليس هذا فحسب، بل أضاف: "أولاً"، أي على الفور. ثم قال: "وقدِّم قربانك" معلنًا بكل مجاهرة أن المذبح لا يقبل من هم في عداوة مع آخرين.

فليسمع المعمَّدين هذا أيضًا – أجلّ، لأن الأمر متعلق بهم – فهم بالمثل يقدمون قربانًا وذبيحة، أعني صلاة وصدقة، فهذه أيضًا ذبائح. فالنبي يقول في المزمور: "تمجدني ذبيحة تسبيح، وأيضًا الذبيحة لله "ذبيحة تسبيح" و"رفع يديَّ ذبيحة مسائية" (مز ١٤١: ٢).

فالصلاة إذن ذبيحة ترفعونها في تعقل، ومن الأفضل أن تتركوا صلاتكم، لأنه لهذه الغاية قد صارت كل الأمور، بل ولهذه الغاية قد صار الله إنسانًا وعمل كل ما عمله ليجمعنا في واحدٍ. لهذا في هذا الموضع يرسل فاعل الشر إلى المظلوم، بينما في الصلاة (الربانية) يقود (الرب) المتألم إلى فاعل الشر ليصالحهما معًا. إذ يقول: "اغفر للناس زلاتهم". هكذا أيضًا يقول: "إن كان قد فعل شيئًا ضدك، اذهب أنت إليه"، أو بالحري يبدو لنا هنا وهو يرسل المتألم من الأذى.

بينما يبدو لي هذا القول موجهًا إلى الشخص المتضرِّر. ولسببٍ ما لم يقل: "صالح نفسك مع أخيك"، بل "**اصطلح**". وبينما يبدو القول كأنه يخص المعتدي، ففي الحقيقة إنه يخص المُعتدى عليه. هكذا يقول المسيح: "إن اصطلحت مع أخيك بمحبتك له، سأكون

مسامحًا لك أيضًا. وتكون قادرًا على تقديم ذبيحتك بثقة كاملة". لكن إن كنت لا تزال متذبذبًا، فتذكر إنني بالفعل قد أمرت أن تهتموا بأموري الخاصة اهتمامًا طفيفًا، لتصيروا أصدقاء وتلطّفوا من غضبكم.

لم يقل: إذا عانيتم من الأخطاء الأشد، تصالحوا، بل حتى وإن كان ما أساء به إليك تافهًا ولم يضف سواء كان بحقٍ أو بغير حقٍ، بل قال فقط: "إن كان لأخيك شيء عليك"، لأنه إن كان بحق، فحتى في هذه الحالة، لا يليق ولا يجب أن نرجئ المصالحة. لأن المسيح أيضًا قد غضب منا بالحق. ورغم ذلك فقد بذل نفسه ذبيحة لأجلنا. "غير حاسب تلك الخطايا" (٢ كو ٥: ١٩). وللسبب عينه، يحثنا القديس بولس الرسول أيضًا وبطريقة أخرى على المصالحة: "لا تغرب الشمس على غيظكم" (أف ٤: ٢٦).

ومثلما فعل المسيح بحديثه عن تقديم القربان على المذبح، هكذا بولس في حديثه عن ذلك النهار، يحضنا على فعل نفس الأمر، لأنه في الحقيقة يخشى أن يُخيم الليل على المضروب وحده، فيجعل جرحه أشد إيلامًا. لأننا في النهار يتشتت فكرنا مع كثيرين غيرنا – فنبتعد بعيدًا عن مشاكلنا – لكن في الليل وحده يشتد التفكير في النفس، وترتفع الأمواج وتثور العواطف أكثر. ولكي يمنع القديس بولس الرسول حدوث ذلك، ألزمه أن يمضي الليل في التصالح، فلا يصبح النهار إلا ويكون قد تصالح، وحتى لا تتوفر للشيطان فرصة بعد علينا، وهو بعد في وحدته، فيشعل أتون غضبه بدرجةٍ أشد.

هكذا طلب السيد المسيح أن يُؤجل تقديم القربان دون تأخير ولو بسيط، حتى لا يصير هذا الشخص أكثر إهمالاً، فيؤجل المصالحة يومًا بعد يوم، لأن الرب يعلم أن الأمر يتطلب علاجًا سريعًا وحاسمًا، وكطبيبٍ ماهرٍ لا يعالج أمراضنا فقط، بل ويقيمنا منها ويشفينا. وحتى يمنع المناداة بكلمة "يا أحمق" وقاية لنا من العداوة، يأمرنا بالمصالحة كوسيلة لاستئصال الأمراض التي تسبب نفس العداوة.

ونلاحظ أنه وصف كلتا الوصيتيْن بمنتهى الحزم والدقة. فمثلما كان الحال في السابق، حين توعد المخالفين بجهنم، هكذا أيضًا هنا لا يقبل القربان قبل المصالحة، مؤكدًا عدم رضاه الكامل إن لم نتصالح أولاً، وبهذا ينزع جذر الشر وثماره معًا. أول كل شيء يقول: "لا تغضب"، ثم، "لا تخاصم"، لأن الواحدة إنما تسند الأخرى: فمن العداوة يأتي الخصام، ومن الخصام تأتي العداوة. ولهذا يعالج جذر العداوة ثم ثمرتها، مانعًا إيانا من ثورة الشر. وحتى إن استفحلت العداوة وأتت بثمارها الشريرة كلها، فإنه يحرقها ويخمدها بكل الوسائل.

كن مراضيًا لخصمك

١٣. وبعد أن تحدث السيد المسيح عن الحكم ثم المجمع فجهنم، وبعد أن تحدث أيضًا عن قربانه الخاص. يضيف أمرًا جديدًا فيقول: "**كن مراضيًا لخصمك سريعًا ما دمت معه في الطريق**" (مت ٥: ٢٥).

وحتى لا تقول عن خصمك، وماذا لو تضررت منه؟ "ماذا لو كنت قد طُرِحتُ في السجن بسببه وسُحبت أرضًا أمام المحكمة"؟ لقد استبعد المسيح هذا العذر أيضًا، إذ يأمرنا ألا نعادي أحدًا. ولما كانت هذه الوصية عظيمة، فإنه يقدم نصحه من واقع الحياة، ومن الأمور الحاضرة أكثر من المستقبلية، وكأنه يقول: "لماذا تقولون إن خصمكم أقوى، وإنه يدفعكم إلى ارتكاب الخطأ؟"

بالطبع، إنه سوف يدفعكم إلى مزيد من الأخطاء إن لم تنهوا الأمر. قد يجبركم على المثول أمام المحاكم، لأنه في الحالة الأولى إذا دفعتم بعض المال لحفظتم أنفسكم أحرارًا. لكنكم تحت طائلة القانون بحكم القاضي، سوف تقيدون وتنالون عقوبة أشد. إن تجنبتم المواجهة والخصام، تجنون ثمرتين صالحتين:

أولاً: أن تتخلصوا من معاناة الألم.

ثانيًا: أن يكون العمل الصالح من نصيبكم أنتم، وليس كنتيجة قهرية مجبرون عليه من جانب خصمكم.

لكن إن لم ترتدعوا بهذه الأقوال، لا تخطئون في حقه بقدر ما تخطئون في حق أنفسكم. فهو يقول: "كن مراضيًا لخصمك" ثم يضيف على الفور "سريعًا" ولا يكتفي بهذا الأمر، بل بالسرعة المقررة لإنهاء المصالحة. ولهذا يضيف قائلاً أيضًا: "ما دمت معه في الطريق". هكذا فإنه يحثه ويدفعه بشدةٍ وبحزمٍ على ذلك. لأنه ما من شيءٍ يقلب حياتنا رأسًا على عقب، مثل التأجيل والتسويف في إنجاز أعمالنا الصالحة، فقد يتسبب التأجيل فعلاً في خسارتنا لكل شيءٍ. لهذا يقول القديس بولس: "لا تغرب الشمس على عداوتكم". وكما يقول المسيح قبلاً: "تصالحوا قبل تقديم قرابينكم".

هكذا يقول هنا أيضًا، تصالح سريعًا ما دمت مع خصمك في الطريق؛ قبل أن تبلغ أبواب المحكمة، وقبل أن تقف خلف القضبان، وتصبح في قبضة الحاكم. لهذا وقبل أن تبلغ هذا الحد، دع القرار في يدك أنت. لكن إن وطأت قدماك عتبة القضاء، ما عدت تقدر على ترتيب أمورك بإرادتك، حتى لو بذلت جهودًا مضنية، ما دمت في قبضة الآخرين.

لكن ما معنى "كن مراضيًا لخصمك"؟ إن الرب يعني الاتفاق مع خصمك، حتى لا تُعاني مُعاناة مُرة. أو أن تلتمس العذر للآخرين وكأنك في محلهم، وحتى لا تفسد العدل بمحبتك لذاتك، بل بالحري أن تتعامل مع قضية الآخرين على أنها قضيتك، فتحرر نفسك، وتنجو بذاتك من الأمر. فلا تندهش لهذا الأمر العظيم، فقد أطلق بهذا كل بركاته، حتى إذا ما أعد نفوس سامعيه يجعلهم أكثر استعدادًا لقبول وصاياه.

من هو الخصم؟

يقول البعض إن الرب يشير سريًا إلى **الشيطان** نفسه بإطلاق اسم "الخصم" عليه، بينما أمرنا ألا نتعامل معه؛ بألا تكون لنا معه شركة.

الآن هذا هو معنى "كن مراضيًا له"؟ فليس من مساومات ممكنة بعد رحيلنا عنه، ولا ننتظر منه شيئًا، إلا العقوبة التي لا يمكن لأية صلاة أن تنجينا منها. لكن يبدو لي أنه يتحدث عن **قضاة هذا العالم**، والطريق إلى محكمة العدل، والسجن الذي نعرفه. لأنه بعد أن أنذر الناس بشتى الطرق والوسائل، فإنه ينذرهم أيضًا بأمور تحدث في هذه الحياة. وهو نفس ما يفعله القديس بولس الرسول في حديثه عن الحاضر والمستقبل، للتأثير في سامعيه، ومثلما حين يردعه عن الشر، يشير إلى ذاك الذي يميل إلى الشر، وهو الخادم المتسلح، إذ يقول: "ولكن إن فعلت الشر فخف، لأنه لا يحمل السيف عبثًا، إذ هو خادم الله" (رو ١٣: ٤).

وإذ يربطنا أيضًا بالقضية التي تشغله، فإنه لا يعوض خوف الله فقط، بل الوعيد أيضًا للفريق الآخر، وعنايته وسهره. "لذلك يلزم أن يُخضع له، ليس بسبب الغضب فقط، بل أيضًا بسبب الضمير" (رو ١٣: ٥). لأنه كما قلت سابقًا فإن الأكثر انحرافًا عن التعقل سرعان ما تقوِّمهم هذه الأمور. وهي أمور ظاهرة ومتاحة. لهذا السبب فإن المسيح لم يذكر جهنم فقط، بل ذكر أيضًا **محكمة العدل**، وذكر السحب إلى السجون، وكل ما يلاقيه الإنسان من معاناة. وبهذه الوسائل كلها، يستأصل جذور القتل، لأن الذي لا يخاصم ولا يَمثل أمام القضاء – ولا يطيل العداوة – لا يمكن أن يقتل أبدًا. من هنا نعرف أن منافع أقربائنا هي منافعنا، لأن من يتصالح مع خصمه ويتراضى معه ينتفع هو بالأكثر جدًا؛ إذ **يصبح حرًا بفعل إرادته من محاكم القانون، والسجون والبؤس الذي يلاقيه هناك.**

غاية الوصية تحول الألم إلى فرح

١٤. إذن فلنطع أقواله، ولا نناقض أنفسنا، ولا نكثر من الخصام، لأن تلك الوصايا، حتى وإن كانت قبل كل شيء وصايا بمجازاة، فإنها في حد ذاتها **لها نفعها وبهجتها**. حتى وإن بدتْ في معظم الأحوال ثقيلة الحمل، وما تسببه من متاعب جمة، فإنه من الواجب عليكم أن تنفذوها لأجل المسيح. حينئذٍ **يتحول الألم إلى فرح**، فلو كان هذا هو فكرنا دائمًا لما شعرنا بثقلها أبدًا، بل نجني لذة عظيمة من كل جانب. إذ لن يبدو تعبنا تعبًا بعد، بل كلما زاد زادت مسرتنا وصارت أكثر حلاوة مع الأيام. فإن لازمتكم عادات شريرة وشهوة الغنى وحاربتكم، قاوموها بالفكر القائل: "ما أعظم المجازاة التي ننالها، إذا ما احتقرنا الملذات الزائلة التي لا تدوم إلا فترة". قل لنفسك: "لماذا تكتئبين يا نفسي لأنني حرمتُكِ من اللذة" أجل، **افرحوا وتهللوا لأنني آتي بكم إلى السماء.**

أنتم لا تفعلون ذلك لأجل إنسانٍ، بل لأجل الله. كونوا إذن صابرين بعض الشيء، وسترون كم هي عظيمة أرباحكم.

تحملوا في هذه الحياة الحاضرة؛ وستنالون ثقة لا يُنطق بها. لأننا إن كنا نخاطب أنفسنا هكذا. فلا نهتم فقط بأثقال الفضيلة، بل نفكر أيضًا في أكاليلها، لانسحبنا فورًا من مجالات عمل الشر. لأن الشيطان إن كان يخدعكم بلذة زائلة، فإنه يجلب عليكم آلامًا أبدية تدوم طويلاً، أما نحن فإننا **إن كنا نتعب يسيرًا ونتألم قليلاً، فإن مسرتنا ونفعنا يدومان إلى الأبد.**

أي صفح نناله إن كنا بعد هذا التشجيع لا نعمل الصلاح؟! نحن نعلم أن أتعابنا وأعمالنا تكفي لمقاومة الشر، ونحن موقنون أننا نفعل ذلك لأجل الله. لأن الإنسان إذا علم أن الملك مدين له، يعتقد أنه في مأمن مدى حياته. إذ جعل الله المُنعم الأبدي مدينًا له. وهو عمل عظيم بما لا يُقاس، يفوق كل الأعمال الصالحة مهما صغرت أو كبرت.

فلا تتذرع بأنك مثقّل بالمتاعب والآلام، عالمًا أنك بسبب رجاء الأمور العتيدة، ومعونة الله لنا في كل مكان – إذ سهل لنا طريق التقوى – يضع يده في كل عمل نعمله. فإن بذلتم ولو أقل جهد من الغيرة والحمية، لأصبح كل شيء بعده سهلاً. إذ جعلكم السيد المسيح تتعبون قليلاً أيضًا لهذا الغرض، لتظفروا بالنصرة.

ومثلما يتوقع الملك حضور ابنه بين صفوف المحاربين، هكذا يسمح له أن يطلق سهمه ويضرب ليكون النصر حليفه. بينما الملك (الرب) يفعل كل شيء بنفسه. هكذا يفعل الله

في حربنا ضد الشيطان، وهو يطلب منكم شيئًا واحدًا فقط: أن تظهروا كراهية صادقة ضد هذا العدو. فإن فعلتم ذلك لصالح الرب، فإنه ينهي الحرب كلها بنفسه.

حتى وإن اشتعل فيك الغضب، واشتهيت الغِنَى، وثارت فيك عاطفة الاستبداد والسيطرة، فإن رآك تتجرد بنفسك وتستعد للعدو، فإنه يأتيك سريعًا، ويسهل عليك كل شيء، بل ويرفعك الله فوق ألسنة اللهب والنار. مثلما فعل مع الفتية الذين طُرِحوا في أتون النار في بابل؛ أولئك الذين لم يحملوا معهم شيئًا في النار إلا مشيئتهم الصالحة.

ولكي نطفئ نحن أيضًا أتون اللذة المضطربة هاربين من الجحيم المعد هناك، وحتى نجتذب إلينا إحسانات الله بمشوراتنا واهتماماتنا وأعمالنا الصالحة، وبمقاصدنا الكاملة في الأعمال الحسنة، وبصلواتنا كل حين، وإن بدت لنا بعض الأعمال أنها فوق الاحتمال الآن، فإنه سرعان ما يجعلها سهلة لطيفة هينة ومحبوبة للغاية. وطالما نحن تحت نير الشهوة، نظن أن الفضيلة بعيدة المنال ومرهقة وبالية. ونعتقد أن الرذيلة هي مشتهانا ومصدر مسرتنا البالغة، لكننا لو ابتعدنا قليلاً عنها، لظهرت لنا كريهة تعافها النفس، ولرأينا الفضيلة سهلة لطيفة ومشتهى نفوسنا حتى المنتهى.

وهذا ما يمكنكم أن تتعلموه من الذين عملوا أعمالاً صالحة؛ فمثلاً أنصتوا إلى قول القديس بولس وكيف كان يخجل من شهوات تخلَّص منها: "فأي ثمر كان لكم حينئذٍ من الأمور التي تستحون بها الآن" (رو ٦: ٢١).

لكنه رغم تعبه، كان يؤكد أن الفضيلة خفيفة، لهذا كان يدعو مشقة وتعب ضيقاتنا أنها وقتية وخفيفة. وكان يتهلل في آلامه، ويتمجد في ضيقاته، ويتفاخر بالضربات التي يتلقاها لأجل المسيح (قابل ٢ كو ٤: ١٧، ١٢: ١٠، رو ٥: ٣، غل ٦: ١٧، كو ١: ٢٤).

فلكي نثبت نحن أيضًا في هذه العادة، فلنضبط ذواتنا كل يوم بتلك الأقوال: "تنسى ما هو وراء، ونتقدم إلى ما هو قدام، ونسعى نحو الغرض لأجل جُعالة دعوة الله العليا" (في ٣: ١٣-١٤)، التي يهبها الله لنا بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح للإنسان، الذي له المجد والقوة إلى أبد الأبد. آمين.

العظة السابعة عشر

الزنا

لماذا لم يبدأ بالوصية الأولى في الناموس؟

"سمعتم أنه قيل للقدماء: لا تزنِ. وأما أنا فأقول لكم: إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها، فقد زنى بها في قلبه" (مت ٥: ٢٧-٢٨).

١. بعد أن أنهى الرب الوصية السابقة، ورفعها إلى مستوى إنكار الذات، فإنه يتقدم في الحديث وفي الترتيب منتقلاً بشكلٍ يتفق مع الوصية التالية، وهو هنا أيضًا يطيع الناموس.

وقد يقال، مع ذلك فهذه ليست الثانية، بل الثالثة، لأن الأولى ليست هي "لا تقتل"، بل "الرب إلهنا رب واحد" (تث ٦: ٤)، لهذا فإنه أمر جدير بالاستفسار أيضًا، لماذا لم يبدأ بتلك، ولماذا جاءت بعدها؟

ذلك لأنه قد بدأ من هنا. ولابد أن يوسع من دائرتها ويجمعها في نفسه مع أبيه، لكن لم يحن الوقت بعد ليعلِّم الناس مثل هذا الأمر عن نفسه. وأيضًا كان يمارس لبرهة تعليمه الأخلاقي فقط، قاصدًا من هذا أولاً، كما من معجزاته، أن يقنع السامعين أنه ابن الله.

فإن قال على الفور: "سمعتم إنه قيل للقدماء" أو "أنا الرب إلهكم، لا يكون لكم إله غيري"، لكني أقول لكم اعبدوني مثلما تعبدونه، لو كان قال ذلك قبل أن يعمل شيئًا أو يتحدث بشيءٍ، لجعل الجميع يظنون إنه مجنون فهم قد ظنوا أن به شيطانًا (يو ٨: ٤٨)، حتى بعدما سمعوا تعليمه ورأوا معجزاته العظيمة، وحتى دون أن يصرح لهم بلاهوته علنًا. فكيف لو حاول أن يقول شيئًا من هذا القبيل قبل كل ما فعله، لقالوا فيه ما لم يقولوه قبلاً، ولظنوا فيه ما لم يظنوه.

لكن الرب يحجز تعليمه حول موضوعات بعينها في الوقت المناسب، ليجعل تعليمه مقبولاً من الجميع. لهذا السبب فإنه قد تجاوزها بسرعة، وبعد أن أسس تعاليمه بمعجزاته وبتعليمه الفائق، بدأ فيما بعد يكشفها بالكلمات أيضًا، وكشف عن الأسرار في الحاضر باستعلان معجزاته وطريقة تعليمه ذاتها، هكذا في حين حسن وبالتدريج وبشكل هادئ. وبدأ يشرح القوانين الجديدة والتي صاحبتها تصويبات الناموس بسلطان، ليقود سامعيه ويرشدهم

بالتدريج إلى عمق تعليمه إن كانوا منتبهين ومتفهمين لما يقول. لكن الكتاب يقول: "كان يعلمهم كمن له سلطان، وليس كالكتبة" (مت ٧: ٢٨).

أسئلة حول التحرر من الشهوة

٢. ابتداءً من هذه الأهواء التي تخص جنسنا البشري كله، أقصد الغضب والشهوة (التي تسيطر بطريقة رئيسية على جوانحنا الداخلية، وهذا أمر طبيعي أكثر من بقية الأهواء)، وبسلطان عظيم يليق بالمشرِّع يقوم بإصلاحها، ويخضعها إلى التدبير اللائق بكل صرامة. فإنه لم يقل إن الزاني يُعاقب فحسب، بل ما يفعله مع القاتل، يفعله هنا بالمثل في عقاب النظرة الشهوانية غير العفيفة، ليعلمكم أن لديه من التعليم ما هو أكثر من الكتبة في أي موضع من مواضع التعليم. ولهذا يقول: "من ينظر إلى امرأة ليشتهيها، فقد زنى بها في قلبه"، أي كل من يجعل شغله الشاغل الالتفات إلى الأجساد المثيرة، ويتصيد الملامح الجميلة. لأن المسيح جاء ليحرر النفس مع الجسد من الأعمال الشريرة، ولأننا نقبل نعمة الروح القدس في القلب، فإن الرب يطهر قلوبنا أولاً.

أ. رب سائلٍ: "**كيف نتحرر من الشهوة؟**"

أجيب أولاً، بالإرادة تموت الشهوة فينا أو تبقى خاملة بلا نشاط. والمسيح لا ينتزع الشهوة منا تمامًا، بل تلك الميول الشهوانية التي تثيرها النظرات، لأن من ينشغل برؤية المفاتن المثيرة هو الذي يوقد أتون الشهوة الجسدية فيقع أسيرًا لها، وسرعان ما تتحول الشهوة فيه إلى حيز التنفيذ. لهذا لم يقل: كل من يشتهي ليرتكب الزنا، بل كل من نظر بشهوةٍ. في حالة الغضب تحدث عن تمييز خاص، قائلاً: "**باطلاً**"، لكن الرب هنا يستأصل الشهوة مرة وإلى الأبد. ومن المعروف يقينًا أن الغضب والشهوة من الصفات الطبيعية للإنسان، وكلاهما موضوع فينا للمنفعة: فبالغضب نطارد الشر، ونقوِّم السالكين بعدم استقامة. وبالشهوة ننجب نسلاً لنحفظ جنسنا البشري من الأمور الفائقة العظيمة، وتحتاج إلى كل اهتمامنا وإدراكنا. فالرب لم يقل ببساطة: "كل من يشتهي"، لأنه من الممكن للإنسان أن يشتهي حتى لو كان وحيدًا في الجبال. بل قال: "كل من ينظر بشهوة"، أي ذلك الذي يشعل الشهوة في داخله، ذلك الشخص الذي لا يضطره أحد إلى ذلك، بل يأتي بالوحش الكاسر إلى فكره الذي كان هادئًا من قبل، فليس من طبيعة الإنسان أن تهيِّج الأفكار، بل من تورط النفس في الشهوة الرديئة. وهذا ما يؤكده الكتاب المقدس في العهد القديم أولاً قائلاً: "لا تشتهِ جمال امرأة قريبك" (خر ٢٠: ١٧؛ تث ٥: ٢١).

ب. ولئلا يقول قائل: **ماذا لو اشتهيت دون أن أسقط في الأسر؟** إن الرب يعاقب النظرة الرديئة لئلا تقع أنت في الخطية وأنت تظن أنك في مأمن منها.

ج. ورُبَّ قائل آخر: "**ماذا لو نظرت واشتهيت فعلاً، لكن دون أن أفعل شرًا؟**" حتى إن فعلت ذلك، فأنت محسوب من الزناة، لأن مشرِّع الناموس يقول ذلك، وليس من حقك أن تطرح أية أسئلة أخرى، لأنك إن نظرت مرة أو مرتين أو ثلاثًا لاستطعت أن تضبط نفسك، لكنك إن كنت تفعل ما تفعله باستمرار وتُشعل أتون الشهوة، فإنك ساقط لا محالة؛ لأنك لا تفوق طبيعة البشر، فأنت منهم.

ونحن إذا رأينا طفلاً يمسك سكينًا، نضربه أو ننتهره حتى لو لم يؤذِ نفسه بها، ونمنعه من أن يكرر ذلك مرة أخرى أبدًا. هكذا يفعل الله معنا، إذ ينتزع منا النظرة الرديئة، حتى قبل الفعل، لئلا نسقط في أي وقت؛ لأن من يشعل مرة لهيب الشهوة، حتى وإن غابت عنه المرأة التي نظر إليها، فإنه يصنع في عقله خيالات مستمرة لأمور مخزية، ينتقل بسببها إلى ذات الفعل، لهذا ينزع السيد المسيح الفكر الذي يحتضنه القلب.

د. **ما القول فيمن يعيشون مع عذارى ويشاطرونهن المسكن؟** ألا يكونوا بموجب سلطان هذا القانون مذنبين آلاف المرات بالزنا، فهم يرونهن كل يوم وينظرون إليهن بشهوة، لهذا السبب فإن أيوب المبارك (أي ٣١: ١) يرسي قانونًا منذ البداية ليسد كل جوانب التحديق في العذارى. لأن جهاد النفس ضد النظر أمر عظيم، إذ يحرم الإنسان نفسه من مصدر اللذة، ونحن لا نجني مسرة أبدًا من النظر، بل نقع في خطأ تزايد الرغبة، فنجعل خصمنا أقوى، ونوفر للشيطان مجالات أوسع، ولا نقوى على طرده، إذ أتينا به إلى عمق أعماق كياننا الداخلي، وتركنا له عقلنا مفتوحًا على مصراعيه. لهذا يقول: "**لا تزْن بعينك ولا تقترف إثمًا بعقلك**".

نظرات الأطهار

فإنه يمكن لإنسانٍ أن ينظر بطريقةٍ أخرى، مثل **نظرات الأطهار**. فهو لم يمنع نظرنا بالكلية، بل النظرة الشهوانية، لأنه لو لم يكن يعني ذلك، لقال ببساطة: "من نظر إلى امرأة" واكتفى بهذا القول. لكنه أضاف "ليشتهيها"، أي كل من ينظر ليتلذذ بنظره. لأن الله لم يخلق عينيك لهذا الغرض أبدًا، أي لكي تكون سببًا في الزنا، لكنه خلقها لكي تعاين بها مخلوقاته وتُمجد الخالق. ومثلما يشعر الإنسان بالغضب عشوائيًا دون قصد، هكذا يمكنه أن ينظر

عشوائيًا وبلا تعمد، وهذا عكس ما يفعله حين ينظر بشهوة. فإن كنت ترغب في النظر للذة، انظر إلى امرأتك – خاصتك – وأحببها على الدوام، فما من ناموس أو قانون يحرِّم عليك ذلك. لكن إن كنت تلهث في فضول خلف محاسن الأخريات، فإنك تؤذي زوجتك. لا تدع عينيك تتجولان في كل مكان، وتؤذي مشاعر من تنظر إليها بشهوة. إذ تتلامس معها على خلاف الناموس. حتى وإن لم تلمسها باليد، فقد عانقتها بعينك، لهذا يحُسب ما تفعله زنا. وعاقبة هذا الجرم الفادح ليست هينة؛ إذ يمتلئ صاحب هذا الأمر بالاضطراب والانزعاج ويسقط في دوامة تجربة شديدة، ويصير ألمه عنيفًا، **ولا شيء من قيود العالم وسجونه أقسى من قيود العقل**. وحتى إن مضت التي أطلقت عليك سهم الشهوة الأليمة، يبقى الجرح ولا يزول. أو بالحري ليست هي التي أطلقت السهم، بل أنت الذي أصبتَ نفسك بجرحٍ مميتٍ – نظرتك الشهوانية غير العفيفة – أقول هذا لأعفي السيدات المحتشمات من المسئولية.

لأنه من المؤكد أن إحدى النسوة قد تخرج لتلفت الأنظار والعيون إليها، فتسبب للناس في الطريق عثرة السقوط في النظر، حتى وإن لم تصدم المارين في الطريق، فإنها تسبب في إنزال أقصى العقوبة بهم، لأنها خلطت السم، وأعدت الشراب المسموم، وحتى إن لم تقدِّمه في قدح، أو بالأحرى كانت قد قدَّمتْ الكأس المسمم ولكنها لم تجد من يشرب من يدها.

الوصية للنساء أيضًا

٣. ورُبّ قائل: "**لماذا لم يتحدث مع النساء أيضًا؟**"

نقول رغم أنه كان يخاطب الرجال فقط، حول قوانين مطروحة وشائعة للجميع، إلا إنه عند مخاطبته للرأس، يجعل وصاياه عامة لكل الجسد، إذ خلق الرجل والمرأة وجعلهما كيانًا واحدًا، ولا يمكن التمييز بينهما في أي مكان. لكن هذا لا يمنع أن الرب وبخ النساء أيضًا، كما في إشعياء (إش ٣: ١٦) حيث يقول الكثير ضدهن، موبخًا ملابسهن ومظهرهن وطريقة مشيهن، وثيابهن المذيلة والتي يجرونها خلفهن على الأرض، وأقوالهن المتراقصة ورقابهن الممدودة.

اسمعوا أيضًا الطوباوي بولس (١ تي ٢: ٩) وهو يضع عدة قوانين حول الملابس والحُليّ ومصوغات الذهب وتسريحة الشعر وصبغته، وأسلوب الحياة المرفَّهة وأشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل، ليوبخ خبث النساء بعنف (تي ٢: ٣-٥).

السيد المسيح أيضًا ومما يلي من أقوال، يقصد نفس القصد ولكن بشكل خفي لأنه حين يقول: "اِقلع العين التي تعثرك، والَقها عنك"، إنما يدلل على غضبه ضدهن، أي ضد بعضهن ممن يعثرن الرجال. ولهذا يضيف أيضًا: "**فإن كانت عينيك اليمنى تعثرك، فاقلعها وألقها عنك**" (مت ٥: ٢٩).

ورُبّ قائل: **ماذا لو كانت قريبتي، ماذا لو كانت تخصني بأي شكل ما؟** أقول لهذا وضع الرب هذه الوصايا والأوامر، فهو لا يتحدث هنا عن الأعضاء الجسدية (الأطراف مثلاً)، حاشا! لأنه لم يذكر أيضًا أن جسدنا ملوم، لأي سبب من الأسباب، بل **يضع الفكر الشرير موضع الاتهام.** لأنه ليست العين هي التي ترى، بل الفكر والعقل. وكثيرًا ما يلتفت كياننا كله إلى الشيء المرغوب، أما عيوننا فلا ترى إلا ما هو مائل أمامنا. ولو كان السيد المسيح يتحدث عن أعضاء الجسد، لما ذكر ذلك عن عين واحدة، ولا عن العين اليمنى فقط، بل عن العينين، لأن من يتأذى بعينه اليمنى، لابد وأن يتضرر أيضًا بعينه اليسرى. فلماذا ذكر العين اليمنى، ثم اليد؟ ليريكم أن حديثه ليس عن الأعضاء أو الأطراف، بل عن القريبين منا، وكأنه يقول: "إن كنت تحب شخصًا ما، وكأنه محل عينك اليمنى، وإن كان ذا قيمه بالنسبة لك، حتى أنك تحسبه محل يدك، لكنه يؤذي نفسك، فإنك تقطعه. تأملوا تأكيده للأمر، إذ لم يقل "ابتعد عنه"، بل وحتى يؤكد على الانفصال الكامل عنه، يقول "اقطعه"، "والقه عنك". مظهرًا أن الأمر حاسم وبتر، لكنه يظهر الربح من جهة أخرى، سواء جاءنا من المنافع أو الشرور – مستمرًا في تقديم الصورة المجازية – إذ يقول: "**لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقَى جسدك كله في جهنم**" (مت ٥: ٢٩-٣٠). فهو إذ لا يقدر أن يخلص نفسه ويفشل في تحطميك، القِ هذا العضو عنك. فأيّ عطف هنا إذا غرق الاثنان وهلكا معًا، بينما إذا انفصلا، فإن واحدًا على الأقل سوف ينجو. ورُبّ قائل: لماذا اختار بولس إذن أن يكون محرومًا لأجل إخوته (رو ٩: ٣)، نقول: ليس من قبيل الخسارة يفعل ذلك، بل لأجل خلاص الآخرين. أما في الحالة الأخرى فالخسارة من نصيب الطرفين. لهذا لم يقل الرب فقط "اقلعها" بل "القها عنك" أيضًا. حتى لا تقبل هذا العضو فيك مرة أخرى، إذا ما استمر على ما هو عليه. وهكذا تخلصه هو من حمل ثقيل وتحرر نفسك من الهلاك.

وحتى نرى مزيدًا من منفعة هذا القانون (الناموس) اسمحوا لي أن نجرب ما قيل بشأن الجسد ذاته – على سبيل الافتراض أعني – أن نمنح الإنسان حرية الاختيار، بين

الاحتفاظ بعينه مع الطرح في الأتون والهلاك، وبين اقتلاع العضو الفاسد والاحتفاظ بباقي الجسد. فهذا سلوك إنسان لا يكره عينيه بقدر ما يحب باقي جسده كله.

ينطبق نفس المثال على رجال أو نساء نحبهم أو نعرفهم، فإن كان صديقك يؤذيك بصداقته ويظل هكذا دون علاج، فإن قطعه عنك يحررك من رداءة سلوكه. أما هو فيتحرر من أثقال عسرة الحمل، فتتخلص من هلاكك ومن أعماله الشريرة.

فما أعظم الناموس وما ألطفه وما أجمله وهو يعتني بكم، فما يبدو للناس قسوة يكشف عن عمق المحبة نحو الإنسان. فليسمعْ هذه الأمور المسرعون إلى اللهو في المسارح كل يوم والزناة، لأنه إن كان الناموس يوصي بقطعه عنكم، أعنى الذي يؤذينا بارتباطنا به، فما عذر الذين يرتادون تلك الأماكن، ويجتذبون إليهم كل يومٍ حتى الذين لا يعرفونهم، فيوفرون لهم فرص الهلاك بغير حصرٍ، لهذا حرم السيد المسيح النظرة الشريرة لما يعقبها من خطايا، ولهذا يأمر بناموس العهد الجديد أن نقطعها عنا ونطرحها بعيدًا. وهو الذي نطق بأقوال المحبة التي لا يُحصَى لها عدد، لتدركوا في كل وقت قوة رعايته الإلهية. وسعيه الدائم إلى منفعتنا.

الطلاق

٤. "وقيل من طَلَّقَ امرأته، فليعطها كتاب طلاقٍ. وأما أنا فأقول لكم، إنَّ من طَلَّقَ امرأتهُ إلا لعلة الزنا يجعلها تزني. ومن يتزوج مطلقةً فإنه يزني" [ع ٣١-٣٢]

وبعد أن أوضح جيدًا الأمور السابقة، بدأ الرب في عرض مفهوم الزنا بشكل جديد، فقد كان هناك ناموس قديم معمول به (تث ٢٤: ١-٤). من يكره امرأته لأي سبب من الأسباب (حتى لو كان تافهًا) يمكنه أن يطلقها، وأن يأتي بزوجة أخرى إلى البيت بدلاً منها. والناموس يأمره أن يفعل هكذا ببساطة، بل أن يعطيها كتاب طلاق حتى لا تعود إليه أبدًا، حتى يبقى الزواج في شكله الشرعي قائمًا، لأنه لو لم يشرِّع الناموس ذلك، لكان من الشرع أولاً أن يطلِّقها ويرتبط بأخرى، ثم يعود فيأخذ الأولى التي طلقها، فتعم الفوضى بشكلٍ كبيرٍ، ويتزوج الرجال زوجات الآخرين باستمرار، ولأصبح الأمر بمثابة زنا مباشر. لهذا يشرِّع الرب كتاب الطلاق كنوع من تلطيف الأمور، فالطلاق ليس بالأمر الهيِّن، لكن الناس أساءوا استغلاله لشرورهم العظيمة. ولأسباب أخرى غير اللطف، أعني أن الرب قصد أن يترك الزوج الكاره زوجته في بيته، ويطلقها حتى لا يقتلها بسبب كراهيته لها. لأنه هكذا كان طبع اليهود

الذين لم يشفقوا على الأطفال وذبحوا الأنبياء "وسفكوا الدماء كالماء" (قارن مز ٧٩: ٣)، وهم لا يرحمون النساء بل يبطشون بهن. لهذا يسمح السيد المسيح بالضرر الأقل ليزيل الضرر الأكبر، حتى لو لم يُشرِّعه الناموس الأصلي؛ إذ يقول: "إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم و لكن من البدء لم يكن هكذا" (مت ١٩: ٨). حتى لا يذبح الرجال نساءهن في البيوت، بل بالأحرى يطلقوهن (أيّ يسرِّحوهن بمعنى يُطلِّقن سراحهن).

هكذا لا يُحَرِّم الرب القتل فقط، بل ينزع كل مشاعر الغضب، وإلهنا يشرِّع هذا الناموس في يسرٍ. ويستحضر في الأذهان كلمات سابقة مؤكدًا أن أقواله ليست مناقضة لما سبقها، بل تتفق معها وتقويها، ولا تنقضها بل تُكَمِّلها.

تأملوا في كل مرة يخاطب فيها الإنسان فيقول: "من يطلق امرأته يجعلها تزني. ومن يتزوج بمطلقة يزني". ففي الحالة الأولى ورغم أن الرجل لم يتزوج بأخرى بعد، فإنه ملوم لمجرد الفعل، إذ جعل زوجته تقترف الزنا، ويصبح من تزوج بمطلقة (لم يطلقها زوجها شرعًا) زانيًا، لأنه أخذ زوجة لا تزال على ذمة رجل آخر! فزوجها لم يطلقها، وحتى لا تتشبث المرأة برأيها، إذا أُلقي باللائمة على الزوج الذي يطلق. لهذا أغلق في وجهها الأبواب أمام من يقبلها في بيته. إذ يقول: "ومن يتزوجها (أيّ التي لم تطلَّق شرعًا) يجعلها تزني". والمسيح بذلك يريد عفة المرأة حتى لو ضد رغبتها، وحتى لا تصبح في متناول الجميع. وحتى تعي جيدًا أن عليها واجب الحفاظ على زواجها وزوجها الذي كان من نصيبها أصلاً. وحتى لو كانت موجودة في بيت زوجها ومطلقة، فإنها تحاول أن تبذل أقصى ما في وسعها لأجل استمرار الزواج، حتى وإن كان هذا ضد إرادتها.

وإن لم يكن (السيد المسيح) قد أفصح عن هذه الأمور كلها؛ لا تتعجب، فلأن المرأة مخلوق ضعيف (جسمانيًا)، يدعها تخرج. لهذا بتهديد الرجال يُصلح من لينها بشكل كامل. مثلما يكون لإنسانٍ ابن ضال يتركه ويوبخ الذين تسببوا في ذلك، ويوبخ الذين منعوا الأب من أن يتصل به أو يتحدث إليه أو يوبخه. فإن تضايقتم من هذا التصرف، أرجوكم تذكروا أقوال الرب السابقة، وكيف يُطَوِّب سامعيه. **وسترون أنه من السهل على من يلتزم بكل الوصايا، الوديع، المسالم، المسكين بالروح والرحيم ألا يطلق امرأته. فمن اعتاد التصالح مع الآخرين، لا يمكن أن يتخاصم مع زوجته.** والسيد المسيح ينير بصيرتنا ومداركنا حين يتطرق إلى قضية إطلاق المرأة (أو تسريحها)، حين يقول "لا يتم هذا إلا لعلة الزنا" لأنه إذ أوصى منذ البدء أن يحتفظ الزوج بها في بيته، لكنها إن كانت تدنس نفسها مع كثيرين،

لانتهى بها الأمر إلى الزنا. هكذا تتفق تلك الأقوال مع سابقاتها لأن من ينظر إلى امرأة غيره بعيون عفيفة، لن يرتكب الزنا، وبذلك لن يعطي لزوجْ المرأة الأخرى أية فرصة لطلاقها. بهذا يشدد الرب على هذه الجزئية دون تحفظ، ويجعل من المخافة حصناً منيعًا، ملقيًا على الزوج خطرًا جسيمًا إن طلق امرأته. إذ يحسب مسئولاً مسئولية شخصية عن زناها. لهذا يصحح المسيح الوضع لئلا يفتكر أحد في قوله "تقلع عينيك" بمعنى "تتخلص من زوجتك" جاعلاً بيد الرجل أن يدعها تمضي ويطلقها. (إن كانت زانية، أو إن كان هو زانيًا) وليس أمامه من حل آخر يلجأ الزوج إليه.

القَسَم والصِدق

٥. "أيضًا سمعتم أنه قيل للقدماء لا تحنث بل أوفِ للرب أقسامك. وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة" [ع ٣٣-٣٤].

قبل أن يتحدث السيد المسيح عن السرقة، تناول موضوع شهادة الزور، متجاوزًا وصية "لا تسرق". ترى لماذا يفعل ذلك؟ لأن من يسرق يحلف باطلاً في هذه المناسبة، أما من لا يعرف كيف يشهد بالزور أو يتحدث زورًا، لا يعرف بالأكثر كيف يسرق.

لهذا تجاوز الرب الحديث عن السرقة إلى شهادة الزور، لأن منها تتولد السرقة. لكن ما معنى: "أوفِ للرب أقسامك" (انظر عد ٣٠: ٢، تث ٢٣: ٢٣)، حيث نقرأ: "إذا أقسم رجل قسمًا، أن يلزم نفسه... فلا ينقض كلامه"، "وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة". وحتى يبعدهم عن القسم بالله، يقول: "لا بالسماء لأنها كرسي الله، ولا بالأرض لأنها موطئ قدميه، ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم" (قارن إش ٢٦: ١، مز ١٨: ٢)، مقتبسًا من الكتابات النبوية، ومشيرًا إلى أنه هو ذاته لا يناقض القدماء. والسبب في ذلك؛ أنهم اعتادوا القسم بتلك الأشياء، والرب يعلن في نهاية الإنجيل عن هذا (مت ٢٣: ١٦) ويوضح جسامة هذا الأمر، لا بسبب طبيعتها الجسيمة، بل لعلاقتها بالله. ولنتأمل كيف تم الإعلان عنها بمثل هذا القدر من التنازل؛ إذ كان طغيان الوثنية شديدًا، وكان لا بد أن ينفي أيّ استحقاق بالكرامة لهذه الأشياء والأوثان. لهذا يذكرها هنا لمجد الله، لأنه لم يقل: "لأن السماء جميلة وبديعة وعظيمة"، ولم يقل "لأن الأرض نافعة"، بل "لأن السماء عرش الله، والأرض موطئ قدميه". هكذا يحثهم في الحالتيْن إلى الاتجاه نحو ربهم، ثم يُكَمِّل قائلاً: "ولا تحلف برأسك؛ لأنك لا تقدر أن تجعل شعرةً واحدةً بيضاء أو سوداء" (مت ٥: ٣٦).

وهو هنا لا يثير الإعجاب بالإنسان حين يذكر القسم برأسه، (وإلا صار الإنسان معبودًا)، بل يشير إلى مجد الله، وللتأكيد على أن الإنسان لا يسود حتى على نفسه، ومن ثم لا تمتلك السيادة حتى تحلف برأسك. لأنه مثلما لا يعطي أب ابنه لآخر، هكذا لا يعطي الله عمله الخاص به لك. فبالرغم من أن الرأس هي رأسك أنت، إلا إنها مملوكة لله، وما دمتَ لست سيدًا على رأسك في هذا الشأن، فلا قدرة لك على التصرف في الذي لا تمتلكه، ولا في أدنى شيءٍ آخر؛ لأن الرب لم يقل: "أنت لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة تنمو"، بل يقول: "أنت لا تقدر حتى أن تُعَدِّل من صفاتها".

ورُبَّ قائل: لكن ماذا لو أقسم إنسان قسَمًا تحت إكراه؟ إذن فليكن خوفك من الله أقوى من الإكراه على القسَم، لأنك إن اعتدت على الأعذار، لن تنفذ وصية واحدة من وصايا الرب. فبالنسبة لزوجتك، ستقول: ماذا لو كانت مشاكسة وعنيفة؟ وبالنسبة لعينك اليمنى ستقول: ماذا لو كنت أحبها، حتى وأنا في النار فعلاً؟ وعن النظرة الشهوانية غير العفيفة تقول: ماذا لو كنت لا أقوى على الامتناع عن النظر؟ وعن غضبك ضد أحد الإخوة تقول: ماذا لو كنت متسرعًا لا أقدر على ضبط لساني؟

وبوجه عام تدوس هكذا على كل أقوال الرب، مع أنك لا تقدر أن تتدرج بنفس الحجم بالنسبة لقوانين البشر ولا تقول: ماذا لو كان هذا أو ذاك هي الحالة؟ ولكن سواء أردت أو لم ترد فإنك تقبل ما هو مكتوب. بجانب هذا لن تكون ملزمًا أن تخضع لها نهائيًا. لأن من سمع بالبركات السابقة، ووضع على عاتقه تنفيذ وصايا المسيح، لن يكون مُكرَهًا على المعاناة من جراء أيّ قانون عالمي؛ إذ هو يوقرها ويحترمها كلها.

ما زاد على ذلك فهو من الشرير

"بل ليكن كلامكم نعم نعم، لا لا. وما زاد على ذلك فهو من الشرير (الشيطان)" (مت ٥: ٣٧). فما الذي يزيد على "نعم" وعلى "لا"؟ إنه القسم وليس الحنث بالقسم. لأن الحنث بالقسم معلوم لدى الجميع، ولا يحتاج الإنسان أن يعرف أنه من الشرير. بينما ما زاد على ذلك لا لزوم له، إذ يتجاوز الحد المسموح.

ورُبَّ قائل: **هل القَسم من الشرير؟ وإذا كان من الشرير فكيف يكون من الناموس؟**

حسنًا، فإنكم تقولون نفس الشيء عن الزوجة أيضًا، كيف ما كان مسموحًا به قبلاً قد صار الآن زنى؟ فما قولك: لقد كانت الوصايا التي قيلت قديمًا تتعلق بأناس استلموا

الناموس وهم ضعفاء. ولأنه لا يليق بالله أبدًا أن نعبده على بخار ذبيحة - مثلما لا يليق التلعثم في النطق بفيلسوف - لهذا يكشف الرب الآن أن هذا النوع من الأمور هو زنا، وأن القسم من الشرير، إذ تقدَّمت الآن مبادئ الفضيلة. **لكن لو كانت هذه الأمور منذ البدء هي نواميس الشرير، لما أدت إلى مثل هذا الصلاح العظيم.**

أجل، لو لم تكن تلك الوصايا رائدة وسبَّاقة في المقام الأول، ما نلنا نحن ما نلناه الآن بهذا القدر من السهولة. فلا تُحقِّقوا الآن في سموها، وقد مضى على استعمالها زمان طويل، بل حين كان الأمر يتطلب وجودها. أو بالأحرى إن أردتم ولو حتى الآن، لأن الآن وقت مناسب، لأن ظهورها في وقت مثل هذا هو أعظم مديح لها. لأنها لو لم تقوَّم سلوكنا جيدًا، وتهيئنا لقبول وصايا أعظم، لما ظهرت هكذا على ما هي عليه.

فالثدي مثلاً له وظيفة هي توفير الطعام للطفل ليساعده على النمو والنضج، وهي وظيفة يكملها على أتم وجه. لكنه وبعد أن يكبر الطفل قد يبدو بعدها بلا فائدة، وقد يسخر منه الأبوان اللذان كان يعتقدان مثلاً بضرورته للطفل! بل وقد يسيئان استخدامه ويسخران منه كل السخرية. قد لا يكتفيان بكلمات تحقير يقولانها أمام الطفل بغية فطامه، فيدهنانه بعقاقير مُرة، ليطفئوا اشتياق الطفل إليه. هكذا **يقول السيد المسيح إنها (الوصايا) من الشرير، لا ليشير إلى أن الناموس القديم هو من الشرير، بل ليقودهم بعيدًا عن فقرهم القديم بكل جدية.** لكن اليهود عديمي الإحساس والإدراك والمتحفِّظين في كل طرقهم، فقد دهن كل مدنهم برعب الأسر والسبي كما بعقارٍ مرٍ، ليجعل الدخول إليها صعبًا. ولكن إذا فشل معهم هذا الأسلوب، ولم يروعهم، بل اشتاقوا أن يعودوا إلى ما اشتهوه تمامًا مثلما يَهرع الطفل إلى الثدي، فقد أخفاه عنهم تمامًا. وانتزعه منهم ليبعد معظمهم عنه (تم تدمير أورشليم عام ٧٠م الكاتب الأصلي)...

لكن لو كان الناموس القديم ينتمي إلى الشيطان، لما أبعد الناس عن الوثنية، بل بالأحرى كان سيلقي بهم في أحضانها، فهذه هي شهوة الشيطان.

لكننا الآن نرى التأثير العكسي للناموس القديم. فلهذا السبب عينه قد سن هذا التشريع عن القَسم، حتى لا يحلفوا بالأوثان (إر ٤: ٢ *LXX*). إذن لم تكن فوائد الناموس صغيرة بل كبيرة جدًا. ولهذا كانوا يأتون إلى الطعام القوي. وهو ما اهتم به الناموس قديمًا.

قد يُقال: وماذا بعد، أليس القَسم من الشرير؟ بلى، إنه فعلاً من الشرير. وهو المفهوم الذي يدركه الآن من بلغوا حد الانضباط إلى درجة عالية، لكن لم يكن الأمر كذلك قديمًا.

ورُبّ قائل: "هل نفس الشيء يكون في وقت ما صالحًا، وفي وقت آخر شريرًا؟

كلا، بل النقيض تمامًا هو الحق. فما الذي يمنع أن يكون الأمر صالحًا وغير صالح معًا؟ بينما تصرخ كل الأشياء أنها كذلك، الفنون، ثمار الأرض، وكل الأشياء الأخرى؟

تأملوا مثلاً ما يحدث لبني جنسنا، فمن الجيد أن يحملنا الوالدان ونحن صغار، لكن لا يصلح هذا الأمر بعد ذلك. وفي مستهل حياتنا نأكل اللبن طعام الصغار نتناوله بالفم وهو صالح لنا، لكن بعد ذلك يصبح غير صالح. وفي طفولتنا من النافع والصالح أن نهرع إلى أثداء أمهاتنا لنرضع اللبن الصحي، لكن لا يصلح هذا الأمر بعد أن نكبر، بل يضرنا ويؤذينا.

أرأيتم كيف تصلح أشياء لزمنٍ ما ولا تصلح هي نفسها لزمنٍ آخر؟

أجل؛ فثوب الطفل يليق بك ما دمت صغيرًا، لكن حين تصبح رجلاً لا يصلح هذا الأمر، بل يصبح مخزيًا. ثم فكروا في عكس هذا الأمر. فهل يصح أن يتناول الطفل طعام البالغين؟ هل يمكنك أن تعطي طفلاً ثوب إنسان بالغ ليرتديه؟ إنه سيصبح محل سخرية كبيرة. وكذلك قد يسبب السير به خطرًا محدقًا به؛ إذ قد يتعثر ويسقط. وهل نسمح لطفل أن يدير شؤوننا العامة، وأن ينظم المرور، وأن يبذر الأرض، وأن يجني المحصول؟ إنه سيثير بالطبع سخرية الناس منه.

فلماذا أذكر هذه الأمور لكم؟ إن الجميع يسلِّم بأن القتل من اختراع الشرير. أقول إن القتل قد وجد له فرصة مواتية مع الإنسان الذي ارتكبه فكرَّم الكهنوت (قابل عد ٢٥: ٨)، إذ كان القتل عمل ذاك الذي ذكرته الآن. اسمعوا ما يقوله المسيح: "تُريدون أن تعملوا شهوات أبيكم، وذاك كان قتالاً للناس من البدء" (مت ٨: ٤٤). لكن فينحاس أصبح قتالاً للناس، ولكن كتب عنه: أنه حُسب له برًا (مز ١٠٦: ٣١).

وإبراهيم أيضًا، والذي لم يصبح قتالاً للناس، بل ما هو أسوأ من ذلك بكثير أيّ قتالاً وذابحًا لابنه، هذا قد لاقى إحسانًا كبيرًا بغير قياسٍ. والقديس بطرس الرسول أيضًا الذي ارتكب قتلاً مضاعفًا، ومع ذلك فإن ما فعله كان من الروح القدس (حنانيا وسفيرة أع ٥).

دعونا إذن لا نهمل فحص هذه الأمور، بل نضع في الاعتبار أيضًا الفترة الزمنية والأسباب والأساليب الفكرية واختلاف الأشخاص، وكل ما يصاحب هذه الأمور، لتبلغ المطلوب بدقة أكبر؛ إذ ما من سبيل لبلوغ الحق غير هذا السبيل. ولنجتهد إن أردنا بلوغ الملكوت، أن نتجاوز الوصايا القديمة إلى ما هو أعمق منها؛ لأنه لا يمكننا أن نقتني

السماويات بغير هذا الطريق. لأننا إن بلغنا فقط قامة القدماء سنقف خارج العتبة السماوية. لأنه "إن لم يزد بِرُّكم على الكتبةِ والفريسيين، لن تدخلوا ملكوت السماوات" (مت ٥: ٢٠).

هل يمكن تصحيح العادات السيئة؟

٦. مع ذلك، وبالرغم من ثقل التهديد الموضوع أمامنا، فإن البعض ورغم بعدهم عن عبور أعمال البرّ هذه، فإنهم كثيرًا ما يقصرون في بلوغه. ورغم بعدهم عن الحنث باليمين كثيرًا ما يحلفون باطلاً. ورغم بعدهم عن النظرة الشهوانية، كثيرًا ما يسقطون في ذات الشر، وكل المحرمات، بل ويتجاسرون على ممارستها، وكأن الشعور بالذنب أمر قد ولّى لا يتذكرونه. منتظرين شيئًا واحدًا هو يوم العقاب؛ اليوم الذي يدفعون فيه ثمن خطيتهم عقوبةً فادحة لقاء سوء أعمالهم. وهذا هو نصيب الذين أنهوا حياتهم في فعل الشرور فقط. ولهؤلاء عذرهم إن يئسوا، فهم لا يتوقعون أيّ عقاب ينزل بهم! حتى وهم لا يزالون على الأرض هنا، وهي فرصتهم لتجديد قوتهم والغلبة ونوال الإكليل في يسرٍ.

لا تيأس أيها الإنسان ولا تقلع عن استعدادك الجاد، أرجوك. فما هي مشكلتك في أن تكف عن القسم؟ هل يكلفك هذا الأمر مالاً؟ هل يكلفك عرقًا ومشقة؟ يكفي أن تتوفر الإرادة لك وسوف يتم كل شيء. لكن إن كنتَ تتذرع لي بعاداتك، فإنني أقول لك لهذا السبب عينه، إن فعل الصواب سهل عليك، لأنك إن سادت عليك عادة أخرى، فقد تمارس كل العادات. تأمل مثلاً ما يحدث وسط الإغريق في حالات كثيرة أن الأشخاص الذين يعانون من التلعثم في الكلام يتم علاج ألسنتهم المتعثرة. بينما آخرون من الذين اعتادوا هزّ أكتافهم بشكل غير لائق، ودائمًا ما يحركونها باستمرار هؤلاء ما إن يضعوا سيفًا على أكتافهم حتى تنتهي تلك العادة عندهم. وإن كنتَ لا تقتنع بالكتب المقدسة فإنني ملزم أن أخجلكم بها. وهذا ما فعله الله أيضًا مع اليهود حين قال: "فاعبروا جزائر كتيم وانظروا وأرسلوا إلى قيدار وانتبهوا جدًا... هل بدّلتْ أمة آلهةً وهي ليست آلهةً" (إر ٢: ١٠-١١).

بل ويرسلنا بالمثل إلى البهائم أو الحيوانات العجماوات قائلاً في هذا الصدد: "اذهب إلى النملة أيها الكسلان، تأملْ طرُقها. واذهب إلى النحلة" (أم ٦: ٦-٨ *LXX*). وهذا هو ما أقوله لكم الآن أيضًا.

تأملوا فلاسفة اليونانيين وستعرفون كم من عقاب شديد نستحقه نحن الذين نعصى قوانين الله. فهم أمام الناس ومن أجل اللياقة، يبذلون أقصى ما في وسعهم، أما أنتم فلا تبذلون

نفس السعي الدؤوب لأجل السماء. فإن كان ردكم على هذا الأمر أن "للعادة قوة عجيبة في خداع حتى الذين يجتهدون اجتهادًا عظيمًا. أقول لكم بالمثل حتى إن كانت إلى هذا الحد قوية في الخداع، فإنه من السهل أيضًا تقويمها. لأنكم إن جعلتم في بيوتكم آخرين يراقبونكم مثل خادمك أو زوجتك أو صديقك، لأقلعت فورًا عن العادات المذمومة؛ إذ يضغط عليك الآخرون لمنعك من الاستمرار فيها، فإن نجحت في ذلك طيلة عشرة أيام، فلن تحتاج بعدها إلى مزيد من الوقت، بل يصبح كل شيء آمنًا عندك، ويعود من جديد وقد تأصلتْ فيك العادات الجديدة الفائقة السمو.

لا أريد التصفيق

لهذا إن بدأت في تصحيح عادة سيئة. فحتى لو تعديت الناموس مرة أو مرتين أو حتى عشرين مرة، لا تيأس، بل قم مرة أخرى، واستعدْ نفس حماسك الأول، وسوف تنجح يقينًا. لأن الحنث باليمين ليس من الأمور الهينة. فإن كان القسم من الشرير، فكم وكم يكون العقاب أشد من جرَّاء القسم الزائف. هل تمتدحون قولي؟ كلا، لا تفعلوا. فأنا لا أريد التصفيق أو صنع شغب أو ضوضاء. إني أريد شيئًا واحدًا فقط: أن تنصتوا في هدوءٍ وجديةٍ، ثم أن تفعلوا ما يُطلب منكم، فهذا هو التصفيق والمديح. لكن إن كنتم تمتدحون قولي دون أن تفعلوا ما تهللون له، فإن العقاب يكون أشد وأكثر إيلامًا وقسوة. يجلب علينا الخزي والسخرية، لأن أمور الزمان الحاضر ليست مشهدًا دراميًا في مسرحية ما، ولا أنتم متفرجون تحدقون في بعض الممثلين مكتفين بالتصفيق وحسب.

إن هذا المكان مدرسة روحية، وهناك نهاية واحدة فقط علينا أن نسعى لتحقيقها في حينها؛ بأن ننفذ المطلوب منا، مظهرين طاعتنا بأعمالنا، لأننا حينئذٍ ننال كل ما نريده. لأننا إن توخِّينا الصدق لأدركنا أن واقعنا يصيب الجميع باليأس. لأنني لم أكف عن إسداء النصائح لأولئك الذين أقابلهم على انفراد، أو في العظات العامة معكم. ومع ذلك لا أرى تقدمًا ملحوظًا على الإطلاق، بل لا تزالون متعلقين بالسلوكيات الفظة السابقة. الأمر الذي يضايق المعلم كثيرًا ويقلقه. انظروا مثلاً القديس بولس الرسول وهو لا يكاد يحتمل أن يؤجل تلاميذه دروسهم الأولى لفترات طويلة، أو يقول لأنكم إذ كان ينبغي أن تكونوا معلِّمين لسبب طول الزمان، تحتاجون أن يعلِّمكم أحد ما هي أركان بداءة أقوال الله (عب ٥: ١٢).

لهذا السبب ننوح نحن أيضًا ونبكي، فإن رأيتم أن تظلوا على حالكم، فسوف أمنعكم في المستقبل من أن تطأ أقدامكم هذه الأعتاب المقدسة، وتشتركوا في السرائر الأبدية، مثلما نفعل مع الزناة والزانيات والقتلة.

أجل لأنه من الأفضل أن نرفع صلواتنا المعتادة مع اثنين أو ثلاثة، يحفظون نواميس الله، من أن نحشد جمعًا من العصاة والمفسدين للناس. لا أريد الغني ولا الحاكم الذي يتشامخ عليَّ هنا، ويرفع منهم الواحد حاجبه عاليًا. فإن كل هذا هو بالنسبة لي بهتان وظل وحلم. لأنه ما من غني من أغنياء هذا الدهر يتشفع لي هناك، حينما أَمْثُل للحساب والمحاكمة؛ بأنني لم أصن نواميس الله جيدًا، وفي جدية ولياقة. ولهذا فإن مثل هذه الأمور قد حطمت العجوز الممتدح (عالي الكاهن ١ صم ٣: ١٣)، رغم أنه في حياته لم يكن ملامًا من أحد، ولكن لأنه تغاضى عن الدوس على نواميس الله، طُرد هو وابناه وعوقب بأشد العقاب. فإن كان سلطان الطبيعة المطلق هكذا عظيمًا، فعلى من يفشل في معاملة أولاده بحزمٍ إن يتحمل هذه العقوبة الشديدة. فكم وكم يكون إهمالنا، إذ ونحن متحررون من هذا السلطان لا نزال ندمر كل شيء بنفاقنا؟ وحتى لا تهلكونا وتهلكوا أنفسكم أيضًا معنا، أرجوكم أن تقتنعوا بكلامنا، فتقيموا حولكم كثيرين يراقبونكم، يدبرون أحوالكم، ويدعونكم لحساب أنفسكم. فتحرروا ذواتكم من عادة القسم، حتى إذا ما سلكتم بتدبيرٍ حسن، تنجحوا جميعكم وبكل يسرٍ أن تمارسوا الفضائل الأخرى، فتنعموا بالصلاح العتيد أن يمنحه الله لكم حتى يكون لجميعنا ربح. بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح للبشر، له المجد والقدرة الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور كلها. آمين.

العظة الثامنة عشرة

في الترفق بالآخرين

لا تقاومُوا الشر

"سمعتم أنه قيل عينٍ بعين، وسنٍ بسن. وأما أنا فأقول لكم، لا تقاومُوا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن، فحوِّل له الآخر أيضًا" [ع ٣٨-٤٠].

١. هل رأيتم أنه لم يكن يتكلم عن العين قبلاً؛ عندما وضع الشريعة الخاصة بقلع العين المعثرة، بل عن ذاك الذي يؤذينا بصداقته، ويلقي بنا في لجة الهلاك؟ فالسيد الذي يستعمل هذه القوة العظيمة للتعبير في هذا الموضع، والذي لا يسمح لك بضرب من يقلع عينك، كيف يَشرع بضرب الآخر؟

لكن إن كان أحد يتهم الناموس القديم بأنه يأمر بالثأر والانتقام، فهو يبدو لي بلا خبرة كافية عن حكمة المشرع واضع الناموس. إنه يجهل مدى الربح الذي يجنيه من التنازل. لأنه لو عرف من هم السامعون لهذه الأقوال، وكيف كانت ميولهم وهم يستلمون مثل هذه الشرائع، لأدرك على الفور حكمة معلِّم الناموس الإلهي، ولعلم أن الواحد نفسه هو الذي وضع الناموسيْن: ناموس العهد القديم وناموس العهد الجديد. وأنه هو الذي كتب كليهما لنفعنا إلى أقصى درجات النفع وفي وقتها المناسب. لأنه إن كان الرب قد أدخل هذه الوصايا الفائقة السمو منذ البداية، وما استطاع الناس قبولها، لا هي ولا وصايا أخرى، لكنه شرَّع كل شريعة منها مفردة وفي وقتها المناسب، فقوَّم العالم كله بالناموسيْن: ناموس العهد القديم وناموس العهد الجديد.

وقد أمر السيد الرب ألا تضرب عين الآخر، ليس هذا فحسب، بل أن تكف أيدينا عن ملاحقته. لأن التهديد بالألم يمنعنا كليةً أن نميل إلى هذه الأمور. لهذا يضع السيد المسيح وفي صمت بذرة ضبط النفس. على الأقل وهو يوصي بعدم الثأر لنفس الأعمال، فإن الذي بدأ بتعدٍ مثل هذا يستحق حتمًا عقوبة أشد، وهذه هي متطلبات وطبيعة العدل المجردة.

وإذ يمزج الرب الرحمة بالعدل، فإنه يدين من كانت تعدياته فادحة بالنسبة لعقوبة أقل يستحقها، ليعلمنا أنه حتى ونحن نتألم علينا أن نظهر مزيدًا من الاهتمام.

وبعد أن ذكر ناموس العهد القديم، وأقر بكل ما فيه، يشير مرة أخرى أن من فعل كل ذلك ليس أخونا بل الشرير. ولهذا يكمل قائلاً: "أما أنا فأقول لكم، لا تقاوموا الشر"، فهو لم يقل "لا تقاوموا أخاكم" بل "**الشر**"، مشيرًا إلى أن الناس يتجاسرون على ذلك بإيحاء من الشرير، ومن ثم فإنه يهدئ من روعنا، ويزيل بطريقة سرية معظم غضبنا ضد المعتدي، بتحويل اللوم إلى آخر (الشيطان).

قد يقال: وماذا بعد؟ ألا ينبغي علينا مقاومة الشرير؛ حقًا يجب ذلك لكن ليس بهذه الطريقة، بل كما أوصى الرب بتسليم الإنسان نفسه إلى احتمال الألم بشكلٍ سليمٍ. بهذا يستطيع أن يغلبه، **لأن النار لا يُمكن إطفاؤها بنار أخرى، بل بالمياه نطفئ النيران**. ولكي يعرِّفكم أنه في ظل ناموس العهد القديم، من يتألم هو الذي يظفر في النهاية وينتصر ويربح الإكليل، عليكم أن تفحصوا ما تم لتروا أن ربحه كان عظيمًا. لأن من يبدأ بأعمال ظالمة، يُهلك عينيّ جاره وعينيه هو. ولهذا يكرهه الجميع، ويتهمه الكل.

أما المتضرر فلا يكون قد فعل شيئًا مروعًا، بل يتعاطف الجميع معه. حتى بعد ثأره المتعادل، ورغم أن الخسائر واحدة لدى الطرفين، إلا أن الحكم الواقع على كلٍ منهما ليس بنفس القدر، سواء لدى الله أو الناس. لهذا تبدو الفاجعة في النهاية غير متساوية.

وفي حين قال الرب في البداية: "من يغضب على أخيه باطلاً" و"من يدعو أخاه يا أحمق" يكون مستوجب نار جهنم. فإنه هنا يطالب بمزيد من ضبط النفس، فيأمر المتضرر بألا يكون هادئًا فحسب، بل **أن يكون أكثر جدية بدوره بأن يحوِّل الخد الآخر**. وهو لا يقول هذا بهدف تشريع وتقنين اللطمة الثانية، بل ليعلمنا كيف نمارس مبدأ احتمال الآخر في كل ظروف حياتنا. لأنه مثلما يقول: "من يدعو أخاه بالأحمق يكون مستوجب نار جهنم"، فإنه لا يتحدث عن هذه الكلمة فقط (كلمة أحمق) بل كل كلمة خصومة أخرى.

هكذا هنا أيضًا، حين يشرع قانونًا ما، ليس لكي نصبح أكثر رجولة واحتمالاً إذا ما تلقينا لطمة من آخر، بل حتى لا نضطرب مهما كابدنا من آلام. لأنه يشير هنا إلى أكثر الإهانات ألمًا وقسوة وهي لطمة الخد، والتي تسبب تحقيرًا بالغًا للمضروب. لهذا يوصي الضارب والمضروب معًا. فلا يظن المُهان أنه يعاني أية أذية، إذ يمارس ضبط النفس، بل إنه قد لا يشعر بالإهانة، إذ يجتهد لأجل الجعالة التي ينالها بسبب اللطمة. ومن يلطم سوف يشعر بالخجل، فلا يكرر لطمته رغم أنه يكون أشد قسوة من حيوان مفترس، بل بالحري سيدِين نفسه من كل قلبه بسبب ما فعله. لأنه ما من شيءٍ يمنع فاعلي الشر أكثر من موقف

المضروب حين يتلقى الضربة في رقة، بل إن رقته لا تمنع ضاربيه من الاندفاع الأهوج وحسب، بل تدفعهم إلى التوبة بسبب فعلتهم. وعندما يواجه المضروب ضرباتهم بالترفق والاحتمال، فإنهم سرعان ما يتراجعون، بل يحوّلهم رفقنا بهم إلى أصدقاء وخاصة لنا، ويصيرون خدامًا وليسوا أصدقاء فقط لنا، بدلاً من كارهين وأعداء. وبدلاً من أن ينتقم المرء لنفسه، عليه أن يفعل النقيض، لأن الانتقام يخزي الطرفين، ويجعل حالهما أسوأ، ويزيد من لهيب غضبهما الذي يشتعل أكثر فأكثر. فلا ينتهي هذا الأمر إلا بالموت، ويتبدل الحال من سيءٍ إلى أسوأ.

لهذا لم يحرم الرب فقط أن يغضب الإنسان إذا لُطم على وجهه، بل يشجعنا أن نُشبع رغبة الطرف الآخر، حتى لا تبدو اللطمة الأولى وكأنها ضد إرادتنا. لهذا وحتى توقعوه في خزي، لا تلطموه بالمثل بضربه بقبضتكم، حتى تجعلوه رقيقًا بعض الشيء ويصير خزيه كبيرًا.

أُترك له الرداء أيضًا

٢. **"ومن أراد أن يُخاصمك ويأخُذ ثوبك. فاتُرك له الرداء أيضًا"** [ع ٤٠]. فلا يقتصر الأمر على اللطمات وحدها، بل على حاجاتنا أيضًا. فهو يطالبنا بنفس الاحتمال، بل يعطينا صورة بنفس القوة وربما أكثر.

إنه يوصينا مثلاً بأن نقهر المعاناة، وهو يأمرنا هنا بأن نسمح لأنفسنا أن نكون محرومين أكثر مما يتوقعه الشرير. لهذا يعطي الوصية ومعها التحفيز فلم يقل: "أعطِ ثوبك لمن يطلبه"، بل "لمن أراد أن يخاصمك"، وحرفيًا لمن أراد أن يقاضيك أمام المحاكم. أيّ الذي يجُرّك إلى المحكمة، ويُسَبِّب لك المتاعب. وبعد أن نصحَ ألا ندعو الآخر بكلمة أحمق، وألا نغضب بلا سبب، استمر في المزيد من الإرشاد والطلب، إذ أمر أن نُسلِّم الخد الآخر أيضًا. حتى هنا وبعد أن قال: "كن مراضيًا لخصمك" يعمق من مفهوم الوصية؛ إذ لا يأمرنا أن نُقَدِّم للآخر ما يطلبه منا، بل أن **نظهر مزيدًا من العطاء والتسامح**. قد يقول قائل: وماذا بعد، هل أترك له كل شيءٍ وأمشي عريانًا؟ أبدًا، لن نكون عراة إذا أطعنا هذه الوصايا بكل أمانة، بل بالحري سوف نرتدي أوفر وأكثر مما يرتديه الآخرون.

أولاً: لأن أحدًا لا يهاجم أصحاب الميول الصالحة.

ثانيًا: حتى وإن تصادف وجود أحد بهذه الوحشية والغلظة، فتمادى في الإساءة إلينا، فإن كثيرين سيهرعون لنجدة وستر المعتدَى عليه، إذا رأوه لا يزال يسلك في إنكار ذاته. فلا يكسونه بملابسهم فقط، بل بأجسادهم أيضًا إن أمكن. وحتى لو اقتضت الضرورة أن يمشي الإنسان عريانًا في إنكار ذاته، وألحقه خزي من جرّاء ذلك. فإن **آدم** أيضًا كان عريانًا (تك ٢: ٢٥) في الفردوس "ولم يخجل". **ويوسف** كذلك (تك ٣٩: ١٢) حينما ترك ثوبه وهرب عريانًا، كان يسطع ببهاء أعظم. لأن العري ليس شرًا. إذ كان **إشعياء** أيضًا عريانًا حافي القدمين، ولكنه كان أكثر مجدًا من كل اليهود (إش ٢٠: ٢-٣).

لكن إن كنا نكتسي مثلما نفعل الآن بأغلى الثياب، نجلب على نفوسنا خزيًا وسخفًا. لهذا ترون أن أولئك أخذوا من الله مجدًا، أما هؤلاء فقد أظهر الأنبياء والرسل خزيهم.

فلا نظن أن وصايا الرب ثقيلة ومستحيلة، كلا، فهي بجانب منفعتها سهلة جدًا، إن تحلّينا برصانة العقل، نجني من وراءها ربحًا عظيمًا، فهي خير عون لنا، ليس لنا فقط، بل وللذين يسيئون معاملتنا. هنا يكمن سموها، فهي إذ تحثنا على تحمل الصعاب والمضايقات، فإنها في نفس الوقت أيضًا تعلم الخطاة أن يضبطوا أنفسهم. بينما يظن الذي يسلب الآخرين أشياءهم أنه يصنع عملاً عظيمًا، يراك وأنت تعطيه ما لم يطلبه منك، فتقابل خسته بسخائك، وشراهة طمعه باعتدالك ولطفك. فأيّ درس تراه يتعلمه منك؟ فهو لا يتعلم بكلام مجرد، بل بذات الأفعال، حينئذٍ يحتقر الرذيلة، ويسعى للفضيلة. لأن الله يريدنا أن نكون نافعين لا لذواتنا فحسب، بل لكل أقربائنا أيضًا. فإن أعطيت الآن وامتنعت عن مقاضاة الآخرين، فإنك تفيد نفسك فقط. لكن إن أعطيته شيئًا آخر غير الذي طلبه منك، فإنك تجعله في حال أفضل حينما يرحل عنك.

هذه هي طبيعة الملح الذي يريدنا الرب أن نكونه، فهو يصلح ذاته، ويحفظ أيضًا المواد الأخرى التي يُملَّح بها.

وهذه هي طبيعة النور، فهو يكشف كل شيء، لنفس الإنسان ولنفوس الآخرين أيضًا. فإن وضعكم السيد المسيح في هذه المرتبة، أعينوا الجالسين في الظلمة. وعلموا الغاصبين، وأقنعوهم أن يأخذوا منكم دون عنف. وهكذا تصيرون أنتم أنفسكم أكثر احترامًا ووقارًا؛ إن أظهرتم للناس أنكم تعطون بمحض إرادتكم ومجانًا، لا بالاغتصاب والسرقة. اجعلوا إذن من خطية الآخر فرصة لنفعكم وخيركم وذلك بلطفكم واعتدالكم.

من سخَّرك ميلاً فاذهبْ معهُ اثنينِ

٣. وإن كنتم تظنون أن هذا عمل عظيم، تريَّثوا وسترون أنكم لم تبلغوا بعد حد الكمال، فالسيد الرب لا يكتفي بهذا القدر. فالذي شرَّع نواميس التحمل والصبر وطول الأناة يقول أيضًا: "**من سخَّرك ميلاً فاذهبْ معهُ اثنينِ**" [ع ٤١]. هل ترون سمو إنكار الذات، على الأقل بشأن هذا الأمر، فبعد أن تعطي ثوبك ورداءك، وحتى إن طالبك عدوك بأن يسخر جسدك العاري في المشقات والصعاب، فلا تمنعه. لأن الرب يعطينا أن نملك كل شيء مشتركًا، أجسادنا وأغراضنا مع ذوي الاحتياجات. وهكذا أيضًا مع الذين يلحقون الإهانة بنا، لأن الرجولة تلزمنا بذلك تجاه من يسبب الأذى لنا، وتدفعنا الرحمة أن نهتم بكل ذي حاجة. ولهذا يقول: إذا ألزمك أيّ أحد أن تسير معه ميلاً، فاذهب معه ميلين. هكذا يرفعكم الرب إلى درجة أخرى أعلى، فيأمركم أن تظهروا قدرًا وافرًا من التضحية والبذل.

وإن كانت الأمور التي تحدث عنها مثلاً هي أقل سخاءً من ذلك، ولها كل هذه البركات الوفيرة، فكم بالأحرى يكون نصيب الذين يتممون تلك الوصايا الجديدة، وما حالهم بعد نوالهم المكافآت في جسد بشري قابل للتألم، إذ ينال حرية كاملة من الشهوة والتألم. إذ لا تؤثر فيه لا الإهانات ولا اللطمات ولا سلب ممتلكاته ولا التحرش به. صاروا يتجاوزون تلك الأمور، بل ويحتملون أكثر منها. هكذا يعكسون نوعًا من مرونة النفس التي يمارسونها عمليًا. ومثلما هو الحال مع الضربات وما نحوزه من خيرات، هكذا أيضًا في مثل هذه الحالة، يأمرنا الرب قائلاً: لماذا أتحدث عن الإهانة والممتلكات، فرغم أن خصمك يريد أن يستغل أعضاءك في المشقة والعمل المضني بغير حقٍ، يمكنك أن تقهر شهوته الظالمة تلك وتغلبها. لأن كلمة "يسخرك" أو "يلزمك" تعني أن يجبرك دون حقٍ ودون سبب، فقط لغرض قهرك.

ومع ذلك، كن مستعدًا أيضًا لهذا الاحتمال، واستعد أيضًا لمزيد من الألم أكثر مما يميل الآخرون إلى دفعك وإيلامك. فأعطه رداءك أيضًا، ومن سألك فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك، فلا ترده (مت ٥: ٤٢). وهو مطلب أقل كثيرًا مما سبقه، فلا تتعجبوا؛ لأن هذا ما يريده الرب منا على الدوام أن نمزج القليل مع الكثير، فإن بدا هذا الأمر قليلاً بالمقارنة بغيره من عظائم الأمور، فليسمع المغتصبون لخيرات غيرهم، والمبددون لثرواتهم بين الساقطات ليوقدوا في أنفسهم نارًا أعظم بسلوكهم غير التقي، وبالإنفاق الضار بهم.

وكلمة "يقترض" هنا لا يعني بها الرب سوء استخدام المال في الربا، بل حتى في الاستعمالات اليومية أو الإقراض العادي بغير مرابحة - ليعمق من الوصية - قائلاً: إنه ينبغي أن نعطيهم دون أن ننتظر منهم أن يردوا لنا ما اقترضوه (لو ٦: ٣٥).

محبة أعدائنا وكمال الخصال

٤. **"سمعتُم أنه قيل تُحبُّ قريبك وتُبغضُ عدُوَّك. وأما أنا فأقول لكم: أحبُّوا أعداءكُم، باركُوا لاعنيكُم، أحسنُوا إلى مُبغضيكم. وصلُّوا لأجل الذين يُسيئون إليكم ويطرُدونكُم، لكي تكونوا أبناء أبيكمُ الذي في السماوات. فإنه يُشرقُ شمسهُ على الأشرار والصالحينَ، ويمطرُ على الأبرار والظالمينَ"** [ع ٤٣-٤٥]

هنا يكشف الرب عن ذروة العمل الصالح، لهذا لا يعلمنا فقط أن نحتمل اللطمة، بل أن نحوِّل الخد الآخر أيضًا، ولا أن نعطي الثوب فقط، بل أن نسلِّم الرداء أيضًا، وأن نمشي ميلين مع من يسخِّرنا لنمشي معه ميلاً واحدًا، لكي نقبل في سهولة ما هو أعظم من ذلك من صعابٍ ومتاعبٍ. وربَّ قائل: ولكن ما هو المطلوب أكثر من ذلك؟

المطلوب، **ألا نحسب من يفعل شرًا ضدنا بأنه عدونا**، بل ومن يفعل ما هو أصعب من هذا. فإنه لم يقل: "لا تكره"، بل "أحب"، ولم يقل "لا تجرح مشاعر أحدٍ"، بل قال "أحسنْ إليه". وإذا فحص أحدكم أقوال الرب جيدًا، لوجد أنه أضاف شيئًا آخر أعظم بكثير مما سبق؛ فإنه لم يطلب هكذا ببساطة أن نحب الآخر بل أن نصلي لأجله. انظروا كيف يرفعنا إلى درجات أعلى، ويضعنا على قمة كل الفضائل.

فالخطوة الأولى: ألا نبدأ نحن بالظلم.

الثانية: ألا نقابل الخطأ بخطأ، وألا نثأر بانتقام موازٍ.

ثالثًا: ألا نعامل من يضرنا بنفس المعاملة، بل أن نهدأ تمامًا.

رابعًا: أن نبذل ذواتنا لأجل من يخطئ إلينا.

خامسًا: أن نعطي أكثر مما يطلب الآخر أو يعطي.

سادسًا: ألا نكره من يفعل بنا شرًا.

سابعًا: أن نحب هذا الآخر.

ثامنًا: أن نحسن إليه أيضًا.

تاسعًا: أن نصلي لأجل من يسيء إلينا.

أترون سمو هذه الوصية للنفس؟ وسترون عظم مجازاتها لنا؛ إذ أنها وصية عظيمة تتطلب نفسًا متقدة تتحلى بكل الحمية والجهاد. لهذا يعيِّن الرب لها هـذه المكافـأة، والتـي لم تتوفر لأحد من قبل. فهو لا يتحدث هنا عن ميراث أرضي مثلما هو الحال عند الوداع، ولا عن الراحة والرحمة، مثلما هو الحال للحزانى والرحماء. ولا يتحـدث عـن ملكـوت السماوات، بل تكلم عن أمر أروع من هذا كله، **أن نصير مثل الله**.

هذه هي الحكمة المطلوبة من كل الناس، وهذا هو المطلوب منهم أن يتمثلوا به. لأن الكتاب يقول: "لتكونوا مثل أبيكم الذي في السماوات".

لاحظوا كيف أن الرب لم يدعُ الله أباه، لا في هذا الموضع ولا في مواضع أخـرى سابقة، بل دعاه "الله" و"الملك العظيم" حين تناول وصية القسم. أما هنا، فهو يدعوه "**بـأبيكم**" وهو يفعل ذلك حافظًا "باقي" الأمور لوقتها المناسب حين يعلمنا شيئًا منها.

التشبه بالله بقدر ما يمكنه كإنسانٍ!

٥. وإذ يقترب من الشبه كثيرًا يقـول: "**فإنـه يُـشرقُ شمـسهُ علـى الأشـرارِ والصالحينَ، ويمطرُ على الأبرارِ والظالمين**" [ع ٤٥]. فإن الله الآب – حاشا له أن يعـرف الكراهية لأحدٍ – فيمطر خيراته على الذين يسيئون إليه، والحالة هنا لا مثيل لها أبدًا. لـيس فقط بسبب الطبيعة الفائقة لخيرات الله الآب نحو الجميع، بل بسبب السمو الفائق لكرامة الله. لأنكم قد تُهانوا حقًا من خدامكم الذين تشتركون معهم في العبودية لله. لكن ماذا عن الله حين يُهان من عبيده، وهم الذين يعطيهم بسخاءٍ منافع لا حد لها. وأنتم لا تُقَدِّمون في صلواتكم إلا كلمات، أما الله فيُقَدِّم أفعالاً عظيمة وعجيبة جدًا للغاية؛ إذ يشرق شمسه وينزل مطره. ويقول لنا الآب: "ومع ذلك فإني أهبكم أيضًا أن تتشبهوا بي، بقدر ما يمكنه أن يكون مـساويًا لـي كإنسانٍ".

لا تكرهوا حتى من يسيء إليكم، فهو يفعل خيرًا معكم، ويهبكم كرامـة عظيمـة. ولا تلعنوا حتى من يلعنكم، لأنكم إن لعنتم حرمتم أنفسكم من الثمار العظيمة، وتكبدتم خسارة جسيمة، وخسرتم الجعالة العليا بسبب حماقتكم. فبعد أن تكبدتم ما هو أكثر إيلامًا لا تحتملون ما هو أقل من ذلك.

ورُبّ قائل: **وكيف يمكن أن يحدث هذا؟** لقد علمتم أن الله صار إنـسانًا، وتنـازل تنازلاً عظيمًا، وتألم كثيرًا لأجلكم، فهل لازلتم تتساءلون وتشكُّون في الأمر؟ وكيف يمكـنكم

أن تغفروا لجيرانكم آثامهم؟ ألا تسمعونه وهو على الصليب يقول: "**اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون**" (لو ٢٣: ٣٤). ألم تسمعوا القديس بولس الرسول يقول: "الذي ارتفع إلى يمين الله في الأعالي، الذي أيضًا يشفع فينا" (رو ٨: ٣٤).

ألا ترون أنه حتى بعد الصلب والقيامة والصعود، يرسل الرسل إلى اليهود الذين صلبوه، ليمنحهم ربوات بركاته، رغم أن رسله قد عانوا على أيدي اليهود ربوات الأهوال؟

تشبهوا بالمصلوب، وحرروهم من شيطان الغضب!

٦. ولكن هل أساء الناس إليكم إساءة فادحة؟ كلا، فما تحتملونه أنتم لا يرقى إلى ما تحمَّله ربكم، الذي جُلد بالسياط على ظهره، وضُرب بالقصبة على رأسه وجسده، وبَصق عليه العبيد والخدم، واحتمل الموت، وذاق أكثر الميتات خزيًا وعارًا، بعد أن أظهر لنا ربوات النعم؟

حتى وإن أساء إليكم الناس أشد إساءة، فلهذا السبب عينه، أحسنوا أنتم إليهم، ليصير إكليلكم أكثر مجدًا. ولتحرروا أخاكم من أثقل أنواع النقائص. لأنه هكذا يفعل الأطباء، إذا لطمهم أحد المجانين وأساء إليهم بشكل يبعث على الخزي، فإنهم يشفقون عليه جدًا، ويسعون إلى إكمال علاجه، عالمين أن الإهانة صادرة منهم بسبب شدة أمراضهم.

أسألكم أن يكون لكم نفس الفكر حينما تتعاملون مع المتآمرين ضدكم، والمسيئين إليكم، والذين يضرونكم، فإن من يتعاملون بمنتهى العنف معكم هم أكثر الناس مرضًا. فحرروهم أنتم من حالهم المؤلم، وامنحوهم أن يبددوا غضبهم، وحرروهم من قيود الغضب، التي يكبلهم بها الشيطان الكريه. أجل، لأننا إن رأينا أشخاصًا بهم شياطين، نبكي لأجلهم، ولا نسعى أن نكون مثلهم فتدخلنا الشياطين.

هكذا فلنفعل مع الذين يتملكهم الغضب، لأن الهائجين غضبًا يشبهون الممسوسين بالشياطين، بل هم أقسى منهم، إذ يهتاج ضميرهم المجنون، ولهذا فإن هياجهم بلا عذر. فلا تدوسوا على الساقطين، بل بالحري ترفقوا بهم، وأشفقوا عليهم. لأننا حين نرى إنسانًا يتخبط من داء سوء الطبع (المرارة)، وقد عُميتْ بصيرته، وانفلتت أعصابه، نسعى لطرد هذا الروح المستهتر والشرير، نمد أيدينا ونظل نعينه على جهاده. ورغم تلطيخ ثيابنا، فلا نهتم بهذا، بل نسعى وراء شيءٍ واحدٍ فقط، هو أن نحرره من هذا الداء الثقيل.

هكذا أيضًا علينا أن نفعل حيال الغضب، فنتحملهم حين يتقيأون، وحين يصارعون المرض، ولا ندع المصروع يمضي حتى نُخلِّصه من كل أثر للمرارة عنده. **حينئذٍ يشعر بمنتهى الامتنان والشكر من نحوكم حين يستريح، وحين يعلم كيف حررتموه من كل ما حل به من متاعب.**

ولكن لماذا أذكر امتنانه وشكره لكم؟ لأن الله سيكللكم بنفسه، وسيجازيكم بكرامات لا حدود لها. لأنكم حررتم أخاكم من مرضه الخطير، وهذا الأخ سيكرمكم أيضًا، ويقدر احتمالكم له ويوقره. ألم تروا النسوة حين يأتيهن المخاض، وكيف ينشبن أسنانهن فيمن حولهن، فلا يُظهر المساعدون ألمًا بل يتحملون، وحتى لو تألموا منهم يحتملون الألم ببسالة ويتعاطفون مع الذين يسحقهم الحزن وتمزقهم الآلام. عليكم أن تتفوّقوا على هؤلاء، وتبرهنوا أنكم رجال متميزون، فإن ثمة رجالاً يظهرون أضعف عقلاً من النساء.

وإن كانت الوصايا تبدو ثقيلة، فاعلموا أن المسيح قد جاء لهذه الغاية؛ أن يزرع في عقولنا وصاياه، وأن يجعلنا نافعين للأعداء وللأصدقاء. ولهذا يوصينا أن نهتم بالإخوة، مثلما قال: "إن قدَّمتَ قربانك". ويوصينا بالأعداء - حينما يشرِّع قانونًا - بمحبتهم والصلاة لأجلهم.

لنسمو على العشارين!

٧. والرب لا يحثهم على هذا فقط بواسطة المثال الذي يعرفونه عن الله، بل يحدثهم عن أمر آخر مختلف. فيقول: "**لأنه إن أحببتُم الذين يحبونكُم فأيَّ أجرٍ لكم؟ أليس العشّارون أيضًا يفعلُون ذلك؟**" (مت ٥: ٤٦). هذا ما يقوله القديس بولس الرسول أيضًا: "لم تقاوموا بعد حتى الدم، مجاهدين ضد الخطية" (عب ١٢: ٤). فإن فعلتم ذلك اتخذتم مركزكم مع الله، وإن لم تفعلوا، صرتم كالعشّارين. هل ترون كيف أن المسافة بين الوصايا ليست بهذا الاتساع، كالفارق بين الأشخاص؟ لهذا **فلنكف عن وصف الوصايا بأنها ثقيلة، بل نهتم بالمجازاة**، ونفكر فيمن نشبه، إن نحن نفذناها كما يجب وفي حينها، وبمن نشبه إن تنحَّينا عنها.

فإن كان الرب يأمرنا أن نتصالح مع أخينا، وألا نتوقف عن عملنا حتى نزيل العداوة بيننا، فإنه لم يفرض علينا هذه الضرورة حين تحدث عن الأشخاص عمومًا، بل طالبنا بما نحن مسؤولون عنه من جهتنا. وبهذا يسهل علينا الناموس. لأنه بمقدار ما قال إنهم

"اضطهدوا الأنبياء الذين قبلكم" ليتحول ميلهم إلى الآخرين إلى حسن الحوار بتأثير هذه الكلمات، فإنه يأمرهم أن يحبوهم أيضًا مع احتمالهم لأفعالهم ضدهم.

التحرر من القيود الداخلية

٨. أترون كيف يقتلع جذور الغضب، وكيف ينتزع الشهوات الحسية، ومحبة الغنى والمجد الباطل، وكل ما يخص أمور هذه الحياة؟ لهذا فعل كل شيء من بدايته، وها هو يفعل المزيد الآن: فالمسكين والمتواضع والحزين يفرغ نفسه من غضبه، والبار والرحيم يفرغ نفسه من شهوة الغنى، والنقي القلب يتطهر من الشهوات الشريرة. والمضطهد والمتألم بسبب الشتائم وأقوال الشر، يمارس في الحقيقة احتقارًا كاملاً لكل أمور الزمان الحاضر، ويتحرر من الكبرياء والمجد الباطل.

وإذ يفرغ السيد الرب من تحرير السامع من تلك القيود، وبعد أن يمنحه استعدادًا للصراع، فإنه ينتزع جذور شهواته بمزيد من الحزم، لأنه إذ بدأ بالغضب واستأصل أوتار الشهوة من كل جانب، بقوله: "من يغضب على أخيه" و"من يدعوه يا أحمق" أو "رقًا" فليُعاقب. ومن يقدم قربانه عليه ألا يقترب من المذبح قبل أن يزيل العداوة مع أخيه، ومن له خصم عليه أن يجعل من عدوه صديقًا قبل أن يدخل المحكمة. فإنه ينتقل إلى موضوع الشهوة مرة أخرى ليقول: "كل من ينظر نظرة شهوانية يُعاقب كزانٍ"، وكل من تغويه امرأة شهوانية أو رجل شرير أو شيء آخر، فليقطع عنه كل هؤلاء. ومن عنده زوجة شرعية لا يطلقها أبدًا، ولا ينظر إلى أخرى، فإنه بذلك يستأصل جذور الشهوات الشريرة. ثم يمنع محبة الغنى، فيأمر ألا يحلف المرء أو يكذب، أو يحتفظ بثوبٍ يطلبه منه آخر، تصادف أننا نرتديه، بل أن يعطيه الرداء أيضًا، وأن نسعى لخدمة حاجات الناس المادية، فلا نشتاق أبدًا إلى الغنى والثروة.

بعد هذا كله يبلغ الذروة أكاليل الوصايا، فيقول: "**صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم**"، ليقودنا إلى قمة ضبط النفس. أن يكون الإنسان وديعًا لا يساوي أن يتلقى الركلات والضربات، وأن يكون رحيمًا، لا يعادل إعطاءه ثوبه والرداء أيضًا لمن يطلب. أن يكون الإنسان بارًا لا يتساوى مع احتمال الضرر والأذى. ولا كون الإنسان صانع سلام يعادل أن يتعايش مع الآخر الذي يلطمه ويقهره. ولا كون الإنسان مضطهدًا يساوي أن يبارك مضطهديه. هل ترون كيف يقودنا الرب بالتدريج إلى أقواس السماء ذاتها؟

الكشف عن المكافآت الفائقة، لا التهديد!

٩. ماذا نستحق إذن، نحن الذين أوصانا أن نتمثل بالله، بينما نحن نشبه العشَّارين؟ لأنه "إن كنا نحب من يحبنا"، فإننا نلعب دور العشَّارين والخطاة والوثنيين. فكم وكم إن كنا حتى لا نفعل ذلك، بل نحسد إخوتنا المكرمين؟

أسألكم، أية عقوبة لا نتعرض لها، ونحن قادرون أن نفوق الكتبة، بينما نحن أدنى من الوثنيين كيف لنا إذن أن نعاين الملكوت؟

كيف نطأ تلك العتبة المقدسة ونحن لم نعرف كيف نتفوق على العشَّارين، إذ أن هذا ما ألمح إليه السيد سرًا قائلاً: "أليس العشَّارون أيضًا يفعلون ذلك؟"

وهذا ما يثير إعجابنا بتعليمه بوجه خاص، إذ يعرض في كل جزئية تلك المكافأة العظيمة جدًا في وقت الضيقة، مثل "**معاينة الله**" و"**ميراث ملكوت السماوات**" و"**صيرورتنا أولاد الله**" و"**تشبهنا بالله**" و"**توال الرحمة**" و"**التعزيات**" و"**المجازاة العظيمة**"، في كل مرة يذكر فيها الضيقات الشديدة.

وهو يفعل ذلك بنبرة لطيفة. هكذا في المقام الأول ذكر جهنم مرة واحدة فقط في كل هذه العبارات، وفي حالات أخرى أيضًا كان يهذب سلوكيات السامع في تحفظ، وكأنه يلقي عظته وحديثه بإثارة مشاعر الخجل لدى السامع وليس بالتهديد، حين يقول: "ألا يفعل العشَّارون ذلك؟" وقوله: "إذا فسد الملح" و"يدعى الأصغر في ملكوت السماوات".

توجد مواضع يسحق فيها الخطية نفسها بحزمٍ في إظهار العقوبة، تاركًا السامع يقدِّر بنفسه مدى فداحة هذا العقاب، كأن يقول "فقد زنى بها في قلبه" و"يجعلها تزني" و"ما زاد على ذلك فهو من الشرير". لأن الفاهمين لا يحتاجون أن يذكرهم أحد بالعقوبة. إذ يكفي إظهار فظاعة الخطية وانعدام الصلاح. لهذا يذكر العشَّارين والأمم، واصفًا التلميذ في حالة من الخجل من هذا الصنف من الناس.

هذا ما يفعله القديس بولس الرسول أيضًا، قائلاً: "لا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم" (١ تس ٤: ١٣). و"كالأمم الذين لا يعرفون الله" (١ تس ٤: ٥). ولكي يشير إلى ذلك لا يحتاج السيد المسيح إلى شيءٍ فائق جدًا في قوته، بل إلى أكثر قليلاً من المعتاد، إذ يقول: "ألا يفعل الأمم ذلك" (مت ٥: ٤٧).

ومع ذلك، فهو لم يوقف العظة عند هذا، بل ختمها بحديثه عن المجازاة التي يهبها لنا. وعن هذه **الآمال الصالحة** قائلاً: "**فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات**

هو كامل" (مت ٥: ٤٨). وهو يثير في كل مكان وبوفرة **اسم السماوات**، بقصد أن يرفع من عقولهم بشكل كامل. والذي لا أفهمه حتى الآن لماذا كانوا هكذا ضعفاء وأغبياء.

لنبادر بالحب العملي

١٠. لنتفهم كل ما قيل، ولنظهر كل الحب لأعدائنا. ولنطرح عنا تلك العادة السخيفة، التي يخضع لها الذين بلا تفكير منتظرين ممن يقابلهم أن يبدأوا هم أولاً بالتحية، وليست لديهم أية غيرة نحو تلك العادة التي لها بركة كبيرة، لكنهم يتبعون ما هو سخيف. لأنه لأي سبب لا تبدأون بتحية الآخر؟ ويكون ردكم "لأنه ينتظر منا أن نفعل ذلك" كلا، فهذا عذر واهٍ وضعيف. وعليكم أنتم أن تبدأوا بمخاطبة الآخر من أجل ربح الإكليل المُعَدّ.

ورُبّ قائل: كلا، فإن هذا هو ما يهدف إليه. فهل هناك أسوأ من هذه الحماقة؟ أن يقول إن هذا هو ما يهدف إليه، أن يهدف إلى نوال الإكليل كحافزٍ لي. إنني لن أقبل مثل هذا الاقتراح، فإن كان هو الذي بدأ بتحيتك، فلن تجني شيئًا، حتى وإن بادرت أنت بالكلام وتخاطبت معه بعدها. لكن إن كنت أول من يبادر بتحيته والحديث إليه، فقد استفدت وربحت من كبريائه، وحصدت ثمارًا عظيمة وعديدة من جرّاء امتناعه هو عن الحديث إليك.

أية غباوة تلك، إن كنا نجني ثمارًا عظيمة لمجرد النطق ببضع كلمات، ولا نفعل، فنفقد الربح. وعوضًا عن ذلك ندين الآخر، فنقع في نفس خطيته. لأنك إن كنت تلومه على تقصيره في تحيتك أولاً، فلماذا تفعل أنت نفس الشيء الذي تتهمه به؟ فلماذا تحاكي الشر، وكأنه شيء صالح؟ ألا ترى أن الحماقة هي أن تكون لك شركة مع الشر؟ لهذا أرجوكم أن تهربوا من هذا الشر وهذا السلوك المعيب. فإن معظم الصداقات قد اتخذت هذه المسائل فتسببت في عداوات بلا حصر.

لهذا السبب **إذن فلنسبق الآخرين في فعل الخير**، فالذين يوصيهم الرب أن يتلقوا الضربات ويقبلون السير أميالاً، ويجردون أنفسهم من ثيابهم على أيدي أعدائهم، ويحتملون كل ضيقة، لا يليق بهم أن يتورطوا في هذا الفعل الشائن؛ فيحجمون عن مخاطبة الآخرين أولاً.

لماذا نقبل الاحتقار؟

١١. ورُبّ قائل: لماذا نقبل الاحتقار والبصق علينا، لحظة قيامنا بهذا الإحساس نحو الآخر؟ هل تخالف الله حين لا يحتقرك إنسان؟ وحتى إن احتقرك قريب مختل عقليًا،

فهل تزدري أنت بالرب الذي وهبك هذه المنافع العظيمة؟ كلاً. فإن كـان مـن الخطـأ أن يحتقرك نظيرك، فكم يكون أشد مرارة أن تحتقر أنت الإله الذي خلقك؟

وعلينا أن نتأمل نقطة أخرى، أنه حين يحتقرك قريبك، فإنه في نفس اللحظة عينها يدبر لك فرصة نوال جائزة أعظم، لأنك تخضع لله وتسلم له ذاتك، لأنك تسمع وصاياه. فأية كرامة يعادلها هذا الأمر؟ ويا لها من أكاليل كثيرة نستحقها إذا ما قبلتُ أنا أن يـزدري بـي الآخرون لأجل الله عن أن يكرِّمني كل ملوك الأرض. فلا شيء يعادل هذه الكرامة. فلنسـع وراء هذه الوصية مثلما أوصانا الرب بحكمة، فلا نهتم بأمور الناس، بل نضبط أنفسنا في كل شيءٍ ونوجه حياتنا نحو هذا الهدف. لأننا منذ الآن، ومنذ هذه اللحظـة، سـننعم بـالخيرات السماوية وبالأكاليل العلوية، فنسلك كملائكة بين الناس، متجولين في الأرض كقوات ملائكية، ممتنعين عن كل شهوة، ومن كل التواء، فننال مع كل ما نلناه بركات لا يُنطق بها، يعطينا أن نحصل عليها بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح الذي له المجد والقوة والتسبيح مع الآب غيـر المخلوق والروح القدس الصالح الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور كلها. آمين.

العظة التاسعة عشرة

الصدقة

جنون المجد الباطل

"احترزوا من أن تصنعوا صدقتكُم قُدَّام الناس لكي ينظرُوكُمْ" [مت ٦: ١].

١. يستأصل (الرب) ما تبقَّى من أشد الشهوات طغيانًا، أي هياج وجنون المجد الباطل، والذي يتعمق في صدور من يصنعون خيرًا وصلاحًا لم يذكر. (المسيح) هذا أبدًا في بداية حديثه، حتى لا يصبح كلامه من نافلة القول، وقبل أن يحثهم على فعل أيّ أمر يجب عليهم فعله، ليعلمهم كيف يمارسون العمل الصالح في حينه. لكن بعد أن قادهم إلى ضبط النفس، بدأ يتعامل بشكل سرِّي لإزالة وغسل ما علق بالنفس من زغلٍ. لأن هذا الداء لا يتولد هكذا فينا بشكل عشوائي، بل ينمو حينما نمارس العديد من الوصايا. لهذا كان من اللائق أولاً أن يزرع فينا الفضيلة، ثم يزيل الشهوة التي تحجب ثمار العمل الصالح، فانظروا كيف بدأ.

لقد بدأ بالصوم والصلاة والصدقة؛ لأن الفضيلة تتأصل في ظل هذه الأعمال الصالحة. لهذا فإن الفريسي كان قد انتفخ وتكبر حين قال: "أصومُ مرتينِ في الأسبوعِ، وأُعشرُ كُل ما اَقتنيهِ" (لو ١٨: ١٢). هكذا كان يمجد نفسه باطلاً أيضًا في صلاته، فجعلها صلاة للتباهي والتفاخر. وإذ لم يجد أحدًا من الحاضرين سوى العشَّار. أشار إليه قائلاً: "إني لستُ مثل باقي الناس... ولا مثل هذا العشَّار" (لو ١٨: ١١).

لاحظوا كيف بدأ السيد المسيح، كما لو كان يتكلم عن حيوان مفترس، من الصعب اصطياده، فهو حيوان ماكر يعرف كيف يخدع غير المتيقظين. هكذا يقول: "احترزوا أن تصنعوا صدقتكم علانيةً". وهكذا يقول القديس بولس الرسول لأهل فيلبي: "احترزوا من الكلاب" (في ٣: ٢). ولقوله هذا سبب؛ فالشيطان يشبه حيوانًا شريرًا يأتينا خلسة دون جلبة، فيملأنا بالكبرياء ودون أن نلاحظ ينتزع ما بداخلنا. لهذا اهتم السيد المسيح جدًا أن يتحدث عن الصدقة كثيرًا. وأن يذكر أعمال الله "الذي يشرق على الأشرار والأبرار" (مت ٥: ٤٥). وكان يحثهم بكل شكلٍ ويحضهم بكل دافعٍ أن يكثروا من صدقاتهم. فينتهي حديثه وقد انتزع كل ما يعوق نمو شجرة الزيتون اليانعة ولنفس السبب يقول: "احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدَّام الناس". لأن هذا الذي سبق الحديث عنه هو "صدقة الله".

نية الصدقة لا طريقة تقديمها

٢. وحين قال "**ليس قدَّام الناس**"، أضاف "**لكي ينظروكم**". ورغم ما قد يبدو أن ما قاله أولاً قد كرره ثانية، فإن من يمعن النظر يرى أن الأمر ليس كذلك، بل يختلف ما قاله أولاً عما قيل مرةً ثانية، وأن ما قاله يوفر لنا الأمان كله، والرقة والاهتمام الفائقين للوصف. فالذي يُقَدِّم صدقاته أمام الناس قد لا يفعل ذلك لينظروه، وأيضًا قد لا يدفع آخر صدقته قدام الناس، ومع ذلك فإنه يفعل هذا لينظره الآخرون. لهذا فإن المشكلة ليست في طريقة تقديم الصدقة، بل في النية والتي بسببها ينال الإنسان عقابًا أو مكافأة. وما لم تكن الصدقة بهذه الدقة، لأحجم الكثيرون عن تقديمها. لأنه ليس من الممكن إعطاؤها سرًا في كل حالة. ولهذا فالرب يحرركم من هذا الالتزام، ويحدد العقاب والمكافأة، لا بسبب الفعل، بل بسبب نية الفاعل. وحتى لا تقول: ماذا؟ هل أكون الأسوأ إذا رآني أحد أتصدق؟ فإن الرب يقول لك: "لا ليس الأمر كذلك، وليس هذا ما أقصده، بل إني أقصد الفكر الذي فيك، ومشاعرك المصاحبة للفعل"، لأن مشيئته أن يضع نفوسنا معًا في إطارها الصحيح، وأن يُخَلِّصها من أيّ مرض يعتريها. وإذ يمنع الناس من أفعال التظاهر والعرض أمام الناس.

بعد أن أظهر لهم عقوبة هذا الفعل، وبطلانه، فإنه يثير نفوسهم مرة أخرى، بأن يضع فيهم فكر الآب وفكر السماء، فهو لا ينبههم بالخسارة فقط، بل يخزيهم بتفكرهم فيمن وهب لهم الكيان؛ إذ يقول لهم: "وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السماوات" (مت ٦: ١).

ولا يتوقف عند هذا الحد، بل يتقدم أيضًا مظهرًا دوافع أخرى تزيد من نفورهم. فمثلما تحدَّث عن العشَّارين والأمم مشبهًا الشخص الذي يحاكيهم بأنه شخص يحيا في خزي، هكذا أيضًا يتحدث عن المنافقين. "**فمتي صنعت صدقةً فلا تُصوّت قُدَّامك بالبوقِ كما يفعل المراؤون**" [ع ٢]. ولا يقصد أن لديهم أبواقًا يصوتون بها، بل يعني إظهارهم على الملأ لشدة هياجهم. وهو يعبِّر عنها بلغة مجازية، قاصدًا أنهم يعرضون أنفسهم للجميع. ويسمِّيهم بالمرائين، **لأنهم يضعون قناع الرحمة، بينما روحهم هو روح القسوة المُجَرّد من الإنسانية.** لأنهم يتصدقون، ليس لأنهم يرثون لأقربائهم ويشفقون عليهم، بل ليستمتعوا هم أنفسهم بالصدقة على الآخرين. وهو عمل في منتهى القسوة. فبينما يهلك الآخر جوعًا، يطلبون هم المجد الباطل، ولا يضعون حدًا لمعاناته. إذن ليس المطلوب أن نعطي صدقة، بل المطلوب هو غاية هذا العطاء، وأن يكون إعطاؤها كما يليق.

كيف نمارس صدقتنا؟

وبعد أن سخر السيد من هؤلاء الناس، وتعامل معهم بهذا الأسلوب، ليخجل السامع منهم، فإنه للمرة الثانية يعود ليقوِّم فكرهم المختل تمامًا. وبعد أن قال إنه لا ينبغي هكذا، يشير إلى ما يجب علينا فعله، فكيف إذن نصنع صدقتنا؟ يقول: "**لا تُعرِّف شمالك ما تفعلُ يمينك**" [ع ٣].

لا يتحدث هنا بشكل مباشر عن الأيدي، بل بتعبير مجازي يقول: إن أمكن أن تجهل أنت نفسك ما تفعله، فلتسع إلى هذا الهدف في إعطاء الصدقة. فإن أمكن، احجبْ الصدقة حتى عن أيدي مُقَدِّمها. ولا يعني ذلك حسب زعم البعض أن تخفيها عن أصحاب الأفكار الخاطئة عن الصدقات، لأن الرب يوصي هنا أن نخفيها حتى عن أعين الكل.

الله إله الكل يراك في حضور العالم كله!

فكِّروا في عِظَمِ المكافأة التي تنالونها، لأنه بعد حديثه عن عقاب سلوك ما، يشير أيضًا إلى كرامة سلوك آخر، وفي الحالتين يحثهم ويقودهم إلى دروس سامية. أجَـلّ، فهو يحضهم أن يعرفوا أن الله حاضر في كل مكان، وأن اهتماماتنا لا تنحصر في هذا الزمان الحاضر، بل إن محكمة رهيبة سوف تنعقد لنا هناك. فنعطي حسابًا عن كل أعمالنا، وكرامتنا، وعقوباتنا، ولن يخفي أحد أي شيء مهما كان عظيمًا أو حقيرًا، حتى وإن بدأ مخفيًا عن أعين جميع الناس. وهو يشير إلى كل هذا سرًا بقوله: "**فأبوك الذي يرى في الخفاء هو يجازيك علانيةً**" [ع ٤]. وإذ أعد لنفسه حشدًا عظيمًا ومهيبًا من السامعين الناظرين. وإذ يريد أن يضفي على الأمر مهابته الوفيرة يقول: ماذا ترغب؟ أليس أن يجتمع البعض ليشاهد ما يحدث؟ انظر إذن. إن لديك ها هنا بعضًا من هذا الجمع، ليس من الملائكة ولا رؤساء الملائكة، بل "الله إله الكل". وإن أردتَ أن يكون لديك أُناسًا أيضًا كناظرين، فإنه لا يحرمك من رغبتك تلك، في حينه، بل يعدها لك وبوفرة كبيرة. لأنك إن أردت أن تتباهى الآن فسوف تتباهى لعشرة فقط أو عشرين، أو لنقل: مائة شخص، ولكن إن بذلت الآن بهذا جهدًا لتحجب شيئًا، فالله نفسه يظهرك آنذاك في حضور العالم كله.

لهذا وإن كان الناس يرون أعمالك الصالحة فأخفها الآن، حتى يراها الناس فيما بعد بكل كرامةٍ، ويظهرها الله ويرفعها ويعلنها أمام الجميع. وإن كان الذي يراك الآن ويدينك بأنك تسعى وراء المجد الباطل، فإنه سيراك آنذاك مكللاً وبدون إدانة، ويعجب بك كل الناس.

لهذا إن تريثت قليلاً نلت أجرك، وحصدت إعجاب الجميع، فأية حماقة أن تطرح نفسك بعيدًا عن كل هذا.

وإذ تطلب أجرك من الله وهو الذي ينظر إلى أعمالك، فيحشد أناسًا ليعرض ما يجري وما سيكون، فلماذا نتباهى؟ وإن كان لزامًا أن نفعل، فليكن افتخارنا هذا انطلاقًا من أن محبتنا التي للآب فيها كل الفضل، والذي به وحده يجب أن نتباهى، خاصة ولأبينا السماوي القدرة أن يهبنا الأكاليل، أو أن يُنزل بنا العقاب.

دعوني أضيف، حتى لو لم تكن هناك عقوبة، فإنه لا يليق بمن يطلب مجدًا أن يبرح مكان التباهي والتفاخر بالصلاح، كمن يعرض مشاهد في مسارح الناس. أما البائس والشقي فإن جاءه الملك ليرى أعماله سيدعه يذهب، ويجمع كل حشوده من الناظرين من بين المساكين والأشقياء والبؤساء والشحاذين. لهذا يأمرنا بألا نتباهى أبدًا. وأن نجاهد لنخفي أعمالنا الصالحة، وألا نجاهد لنوال الشهرة من الناس، بل نجتهد بالأوفر أن نختفي عن أنظار هؤلاء الناس.

الصلاة

أين نقدم الصلاة؟

٣. ويقول: "**ومتى صلَّيت، فلا تكن كالمرائين. فإنهم يُحبون أن يُصلُّوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع، لكي يظهروا للناس. الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم**" [ع ٥]. "**وأما أنت فمتى صلَّيت، فادخل إلى مخدعك، وأغلق بابك، وصلِّ إلى أبيك الذي في الخفاء**" [ع ٦].

هؤلاء أيضًا يدعوهم بالمرائين، لأنهم وهم يتظاهرون أنهم يصلُّون لله، يتطلعون حولهم بحثًا عن الناس، مرتدين لا ثوب التوسل بل ثوب السخف. لأن من يتوسل يتخلى عن كل شيءٍ آخر، وينظر إلى هذا وحده، إلى الذي يملك القوة ليهبه مطلبه، ولكن إن ترك هذا الواحد، وراح يتجول ويزوغ بعينيه في كل مكان فإنه سوف يمضي صفر اليدين، لأن هذه هي إرادته.

لم يقل السيد إن مثل هذا لن ينال أجرًا، بل قد "**استوفاه**"، بمعنى أنه ينال أجره من الذين هم أنفسهم يطلبون هذه الأجرة. فإن الله لا يريد ذلك، بل أن يهب الناس المجازاة التي

تأتي من عنده هو وحده. لكنهم يطلبون ما في أيدي الناس، مثل هؤلاء لا يستحقون بعد أن ينالوا شيئًا من الله، لأنهم لم يفعلوا معه شيئًا.

ولكن أسألكم لاحظوا أن رأفة الله هي في أنه يعدنا بأن يهبنا الأجر، حتى عن الأمور الصالحة التي نطلبها منه. لكنهم إذ يزدرون بها فلا يطلبون ما يجب وما ينبغي سواء من الموضع المناسب، أو بحسب ميولهم وتفكيرهم، يظهرون أنفسهم سخفاء جدًا. لهذا يقدم لنا أمثل الطرق للصلاة، فيقدم الأجر، قائلاً: "**ادخل إلى مخدعك**".

فما قولنا إذن؟ **ألا ينبغي علينا أن نصلي في الكنيسة؟** بلى. علينا في الحقيقة أن نصلي هناك دون أدنى شك. لكن بالروح الذي يتكلم عنه هنا. لأن الله **يطلب في كل مكان قصد الجميع أن يتم ما يأمرهم** به، لأنه إن كنت وأنت في مخدعك وقد أغلقت بابك، تفعل ذلك للتباهي، فلن تنفعك الأبواب المغلقة بشيء. هنا يجدر بنا أن ننتبه إلى ما يعنيه هذا التعريف بدقة، والذي ذكره حين قال: "لكي يظهروا للناس".

لهذا، حتى وإن أغلقت بابك، فإنه يطلب منك أن تفعل ذلك بشكل ملائم، **فالمقصود ليس إغلاق الأبواب الخشبية، بل أبواب ذهنك**. لأنه مثلما هو الحال في كل شيءٍ آخر، أن تتحرر من المجد الباطل، بالأخص يكون الحال في الصلاة، لأنه إن لم نفعل ذلك، يتشتت ذهننا ولا نركز ولا ننتبه إلى ما نقوله، فهل ندخل في هذا المرض أيضًا. وإن كنا نحن الذين نصلي لا ننتبه، كيف نتوقع من الله أن يفعل هكذا؟

فلنُصَلِّ بجدية أذهاننا

٤. ورغم ذلك، فإن البعض مع كل هذه التحذيرات الجادة، يسلكون بشكلٍ غير لائقٍ في الصلاة. حتى وإن أخفوا شخصهم، فهم يجعلون من أنفسهم ظاهرين للكل بارتفاع أصواتهم، إذ يصرخون دون لزوم، فيجعلون من ذواتهم موضع سخرية الآخرين؛ سواء بالإيماءات أو الأصوات. ألا تعلمون أنه إن جاءنا أحد في السوق وفعل هكذا وتوسل في ضجيج وإلحاح مستفز، نطرده حتى لو توسل إلينا. لكنه إن جاءنا في هدوء وبإيماءة لائقة وصحيحة، فإنه يكسب عطف من يتوسل ويحسن إليه. فلنُصلِّ لا بإيماءات الجسد وحركاته، ولا بارتفاع أصواتنا، بل بجدية أذهاننا. لا في جلبة وضوضاء للتباهي أمام الناس القريبين منا، بل بكل هدوءٍ وتواضعٍ، وتركيز الذهن وبآذاننا الداخلية.

لكن هل أنتم مشتتو الذهن، ولا تقدرون على الكف عن الصراخ؟ صحيح إن المتألم ذهنيًا يفعل ذلك، يصلي ويتوسل مثلما قلت. لكن **موسى النبي** أيضًا كان متألمًا وصلَّى بهدوء وتواضع فسمع الله له، ولهذا قال له الله: "ما لك تصرخ إليَّ" (خر ١٤: ١٥). **وحَنَّة** أيضًا لما كان صوتها غير مسموعٍ، تحقق لها كل ما أرادت. "إذ كان قلبها يصرخ" (١ صم ١: ١٣). **وهابيل** لم يُصَلِّ وهو صامت بل وهو يحتضر! وصراخ دمه أقوى وأشد من صوت البوق (تك ٤: ١٠). فهل تئنون أنتم أيضًا مثل هذا القديس. أرجو ألا يكون جوابكم بالنفي. ومثلما يأمرنا النبي: "مزقوا قلوبكم لا ثيابكم" (يؤ ٢: ١٣). عليكم أن تصرخوا من الأعماق إلى الله، لأنه مكتوب: "من الأعماق، صرخت إليك يا رب" (مز ١٣٠: ١٠).

إذن من العمق من القلب أخرجْ صوتًا واجعل صلاتك سرية. ألا تعلمون أنه في قصر الملك الأرضي تصمت كل جلبة، ويرنو صمت في المكان العظيم. أنتم أيضًا، تصرَّفوا هكذا بلياقة عظيمة وأنتم تدخلون إلى قصر ليس على الأرض، بل هو مهيب أكثر، الذي هو في السماء. أجلّ، لأنكم منضمُّون إلى طغمات الملائكة ورؤساء الملائكة وتشتركون مع السيرافيم، وكل هذه الطغمات تُظهر نظامًا صالحًا جدًا، مرتلة في رعدةٍ عظيمةٍ ذلك اللحن السري وترانيمها المقدسة لله ملك الجميع. فامتزجوا إذن مع هؤلاء حينما تصلون واقتدوا بترتيبهم السري.

لأنكم لا تصلون للناس بل إلى الله، الحاضر في كل مكان، الذي يسمع حتى قبل خروج الصوت، الذي يعرف أسرار ذهنكم. فإن صليتم هكذا، فما أعظم ما تنالونه من أجر، "**فأبوك الذي يرى في الخفاء هو يجازيك علانية**" (مت ٦: ٦). ولم يقل "سيعطيك مجانًا" بل قال "سيجازيك" أجل، لأنه قد جعل نفسه مدينًا لك، وبهذا كرَّمك تكريمًا عظيمًا. **فلأنه هو نفسه غير منظور، سيجعل صلاتك هكذا تكون أيضًا.**

بنود الصلاة

٥. ثم يذكر محتوى الصلاة نفسها بقوله: "**حينما تصلّون لا تُكرروا الكلام باطلاً كالأممِ**" [ع ٧]. رأيتم أنه حينما تحدَّث عن الصدقة، أزال العائق الذي يسببه المجد الباطل. ولم يضف شيئًا آخر، ولا قال حتى متى يجب أن يعطي الإنسان صدقة. هل يعطيها من عمل شريف، وليس من السلب أو الجشع؟ لأن هذا أمر مسلَّم به من الجميع، وقد أوضح وبمنتهى الدقة هذا الأمر، حين طوَّب "الجياع لأجل البرّ". أما فيما يخص الصلاة، فقد أضاف شيئًا

أكثر: "**لا تُكرروا الكلام باطلاً**". ومثلما يوبخ المرائين هناك، هكذا أيضًا هنا يوبخ الأمم، مخجِّلاً السامع بسبب تفاهة الأشخاص (الأمم الوثنيين). لأنه منذ ذاك الزمان وحتى الآن تَحْدُثُ أمور مؤلمة ومزعجة، أعني ظهورنا متشبهين بالمرفوضين من الناس. بهذا الوصف، ينصح بالعدول عن ذلك الأمر، ويسمى تلك التفاهة "**بالتكرار الباطل**"، مثلما نطلب من الله أشياءً غير لائقة وممالك ومجدًا، وتفوقًا على الأعداء لقهرهم، ووفرة في الغنى والثروة، وعمومًا نطلب منه ما لا نحتاج إليه. إذ يقول الرب "**فهو يعلم ما تحتاجون إليه**" [ع ٨].

يبدو لي أنه يأمرنا هنا ألا نطيل الصلاة، لا في الوقت، ولا في عدد الأشياء المطلوبة والمذكورة، لأن واجبنا حقًا هو المثابرة على الطلبة نفسها، إذ أن كلمته هي "مواظبين على الصلاة" (رو ١٢: ١٢). وهو نفسه قد سمح لنا بأن نتضرع إليه بشكلٍ متواصلٍ، وذلك على مثال الأرملة اللحوح التي توسلت إلى القاضي القاسي القلب العديم الرحمة، فغلبته بمداومتها على التوسل والطلبة (لو ١٨: ١). وعلى غرار الصديق الذي أتى متأخرًا ليلاً وأيقظ النائم من فراشه (لو ١١: ٥)، لا من أجل صداقته بل لأجل لجاجته.

لا يأمرنا في أيّ حال أن نؤلف صلاة من ربوات العبارات المطولة، ونأتي إليه لمجرد تلاوتها أمامه، لأن ذلك هو ما أشار إليه خفية بقوله "إنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يُستجاب لهم" (لو ٦: ٧). ويقول: "لأن الآب يعلم ما تحتاجون إليه".

ورُب سائلٍ: " **فإن كان يعلم احتياجاتنا فما ضرورة الصلاة إذن؟**" نحن لا نصلي لكي نعلمه، بل لكي نصارع معه، وأن نكون في علاقة حميمة معه، بالمواظبة على التضرع، لنصير متواضعين ونتذكر خطايانا.

الصلاة الربانية

أبانا الذي في السماوات

٦. "**فصلوا أنتم هكذا: أبانا الذي في السماوات**" [ع ٩]. هل ترون كيف يلهب قلب السامع مباشرة، ويذكِّره بكل بركات الله الوفيرة منذ البداية. لأن الذي يدعو الله أبًا، بهذا الاسم ينعم بغفران خطاياه، ورفع العقوبة والبرّ والتقديس والفداء والتبني والميراث، وأخوة الابن الوحيد الجنس وعطية الروح القدس.

لأنه لا يمكن للإنسان أن يدعو الله أبًا ما لم يكن قد اعتاد على نوال هذه البركـات. لهذا يضاعف فيهم إيقاظ الروح، والإحساس بكرامته التي يدعو إليها من جهة، ولعظم المنافع التي يتمتعون بها من جهة أخرى.

لكنه حين يقول "**في السماوات**"، لا يقول ذلك وكأنه يغلق على الله هناك، بل ليرفع من يصلي من مستوى الأرض إلى فوق، ليثبته في الأعالي، وفي المساكن العلوية. وحتـى يعلمنا أكثر من ذلك، ليجعل صلاتنا عامة نيابة عن إخوتنا أيضًا. لأنه لم يقل: "أبي الذي في السماوات" بل "**أبانا**"، رافعًا توسلاته نيابة عن الجميع، غير مهتم بطلباته هو فقط، بل بخيـر جاره في كل مكان. وبهذا ينتزع الكراهية على الفور، ويستأصل الكبرياء، ويطرح الحسـد بعيدًا عنه. إذ يستحضر أم كل الفضائل- أعني المحبة - ويقضي على الفوارق بين النـاس، مظهرًا كيف يتساوى الملك والفقير، على الأقل في الأمور الأعظم التي لا غِنَى عنها، والتي تخصنا كلنا. لأنه أيّ ضرر يلحق بنا من أقربائنا السفليين (الذين على الأرض). إن تساوينا معًا في الأعالي وترابطنا سويًا، حيث لا أحد يملك أكثر من غيره، ولا الغني أفـضل مـن الفقير، ولا السيد أفضل من الخادم، ولا الحاكم أفضل من الرعية، ولا الملك أكرم من الجندي البسيط، ولا الفيلسوف أشرف من البربري، ولا الماهر متميز عن الجاهل، لأن الله أعطـى الجميع نفس السمو الواحد، إذ تنازل ليدعوه الجميع "**أبانا**".

ليتقدس اسمك

٧. لذلك حينما يذكِّرنا بهذا الشرف، وبالعطية التي من فوق، وبمساواتنا لإخوتنـا وبالمحبة، وحينما أبعدنا عن الأرض، ورفعنا وأقامنا في السماء، فلنر ما الذي يوصـي بـه لنفعل به، وليكون ما يأمرنا به في المقام الأول، كافيًا ليرشدنا إلى كل الصالحات.

لأن من يدعو الله "أباه" وأبًا للكل تتوفر لديه دالة الحديث معه. وليس كمن يظهـر غير مستحقٍ لهذا الشرف. وأن يبدي اجتهادًا ملحوظًا يتناسب مع العطية التي أخذها. ومـع ذلك فالرب لا يكتفي بهذا، بل يضيف أيضًا عبارة أخرى: "**ليتقدس اسمك**".

فجدير بمن يدعو الله أبًا أن يصلي لا ليطب شيئًا وهو في حضرة مجد أبيه، بل أن يحسب كل الأشياء ثانوية بالنسبة لتسبيحه. لأن كلمة "يتقدس" تعني "يتمجـد"، لأن مجـد الله الشخصي مجد كامل، ويدوم إلى الأبد هكذا. لكنه يأمر من يصلي إليـه أن يطلـب منـه أن يتمجد أيضًا بحياتنا. ونفس الأمر قاله قبلاً: "فليضئ نوركم هكذا قدام النـاس لكـي يـروا

أعمالكم الحسنة و يمجدوا أباكم الذي في السماوات." (مت ٥: ١٦). أجل، والسيرافيم أيضًا يمجدونه قائلين: "قدوس، قدوس، قدوس" (إش ٦: ٣ ؛ رؤ ٤: ٨)، وكلمة "يتقدس" تعني "يتمجد" كما قلنا، أيّ "يمنح ويهب" كما يقول: "**حتى نحيا هكذا بكل طهارة ومن خلالنا يُمَجِّدك الكل**". وهو نفس الأمر الذي يتعلق بضبط النفس، لنقدم للكل حياة بلا لوم، حتى أن كل من يراها يُسَبِّح الرب بالتسبيح اللائق به.

ليأتِ ملكوتك

"**وليأتِ ملكوتك**" [ع ١٠]. هذه أيضًا لغة ابن مستقيم الرأي، لا تأسره أمور الزمان الحاضر المنظورة، ولا يحسب الأشياء المنظورة أعظم، بل يسرع إلى أبينا الآب، مشتاقًا إلى الأمور العتيدة. وينبع هذا من ضمير صالح، وتتحرر النفس من الأرضيات، وهذا ما كان يشتاق إليه كل يوم. ولهذا قال: "نحن الذين لنا باكورة الروح، نحن أنفسنا أيضًا نئن في أنفسنا متوقعين التبنِّي فداء أجسادنا" (رو ٨: ٢٣).

لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض

مثل هذا الإنسان الذي له هذا الاشتياق، لا ينتفخ بأمور العالم الحاضر ولا تغلبه أحزانه، بل كمن يعيش في السماوات ذاتها، يتحرر من كل اضطراب "**لتكن مشيئتك. كما في السماء كذلك على الأرض**" [ع ١٠]. تأملوا تسلسل الأفكار السامية للغاية، إذ يأمرنا أن نشتاق إلى الأمور العتيدة، مسرعين إلى هذه الإقامة. وإلى أن يتم ذلك، وبينما نحن مستقرون هنا، نجتهد بالأكثر أن نسلك في نفس السيرة عينها التي يحياها السمائيون. إذ يقول الرب: عليك أن تشتاق إلى السماء، وأمورها حتى قبل أن تصل إلى السماء. وإذ أمرنا أن نُصيِّر الأرض سماءً، وأن نقول وأن نفعل كل شيء حتى ونحن مستمرون هنا - وكأن لنا سيرة هناك - مثلما يصبح الآخرون أيضًا موضوع صلاتنا للرب.

ما من شيءٍ يعوق بلوغنا أن نصير مثل القوات العلوية ونحن مستوطنون في الأرض. **ونحن مقيمون هنا، من الممكن أن نفعل كل شيء كأننا مقيمون في الأعالي**. كأن الرب يقول: كل الأشياء تتم دون أية إعاقة. كما لا يكون الملائكة طائعين جزئيًا أو عصاة جزئيًا، بل في كل شيء يخضعون ويطيعون، لأن الكتاب يقول: "ملائكته المقتدرون قوة، الفاعلون أمره" (قارن مز ١٠٣: ٢٠)، هكذا أعطنا يا رب نحن البشر ألا نصنع مشيئتك جزئيًا، بل أن نصنع كل شيءٍ كمشيئتك.

أرأيتم كيف يُعَلِّمنا أيضًا أن نكون متواضعين، موضحًا أن **الفضيلة ليست من جرّاء سعينا نحن، بل أيضًا بفضل النعمة التي من فوق**. وقد أمر كل واحدٍ من الذين يصلّون **أن يأخذ على عاتقه مسئولية العالم كله**. لأنه لم يقل أبدًا "**لتكن مشيئتك**" فيَّ أو فينا، بل في كل مكان على الأرض. بحيث يزول الضلال، ويُزرَع الحق، ويُستأصل الشر من جذوره، وتعود الفضيلة. فلا يصير هناك فرق بين السماء والأرض، حتى وإن كان هناك فاصل بينهما في الطبيعة. **فإن الأرض تعرض لنا طغمة أخرى من الملائكة.**

خبزنا كفافنا، أعطنا اليوم

٨. "**خبزنا كفافنا، أعطنا اليوم**" [ع ١١]. ما هو خبزنا كفافنا أو خبزنا اليومي أو خبزنا يومًا فيومًا؟، أيّ خبز يكفينا يومًا واحدًا. لأنه إذ قال: "لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض"، لكنه إذ كان يخاطب بشرًا جسدانيين خاضعين لضروريات الطبيعة الجسدية، وعاجزين عن التمثل بالملائكة في إدراك عدم التألم (الهوى) والشهوات. وهو يضع الوصايا لننفذها نحن أيضًا، مثلما ينفذونها هم أيضًا، يعرف ضعف طبيعتنا، فيعلمنا أن نصلي لأجل حاجات الجسد. وكأنه يقول: أنا أطالبكم بأمرٍ عظيمٍ، هو كمال السلوك، لكن لا يخلو هذا الأمر من الأهواء والشهوات الطبيعية، والتي يفرضها سلطان الطبيعة الجسدانية، إذ تحتاجون إلى الطعام الضروري.

لكن تأملوا، أنه حتى في الأمور الجسدية، فإن الروحانيات هي الأبقى. لم يأمرنا السيد لأجل وفرة الثروات ولا الحياة المرفهة الناعمة، ولا الثياب الغالية الثمن، ولا لأجل أيّ شيء آخر مشابه، بل لأجل الخبز وحده. قد أمرنا بالصلاة لأجل "خبزنا اليومي"، أيّ الخبز الذي يكفينا يومًا واحدًا.

ولم يكتف بهذا التعبير، بل أضاف شيئًا آخر قائلاً: "أعطنا اليوم"، حتى لا نرهق أنفسنا بالاهتمام باليوم التالي الذي يلي "هذا اليوم". لأن هذا "اليوم" لا نعلم ما يليه من زمن، ولا نعرف ما الذي فيه، فلماذا نخضع لهمومه؟ وإذ يستمر في الصلاة يقول بصورة أكمل: "**لا تفكروا (تهتموا) في الغد**"، لأنه يريدنا أن نكون غير مثقلين على الدوام، ولا أصحاب أجنحة نطير بها، بل أن نحصل فقط على ما تحتاجه الطبيعة الجسدية من ضروريات لازمة.

اغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا

٩. وفيم يختص بما قد يحدث، حين نخطئ بعد أن اغتسلنا للتجديد، يُظهر محبته

للإنسان ليصير عظيمًا، حتى وهو في حال الخطية. فيأمرنا أن نـصلي لله لأجـل غفـران خطايانا لأنه محب للبشر، لهذا يقول: "**واغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا**" [ع ١٢].

هل تدركون مقدار رحمته الفائقة لكل الحدود. فبعد أن اِنتزع شرورٍ هذا مقـدارها، وبعد أن عظَّم عطاياه التي لا يُنطق بها. فإن الناس إن أخطأوا مرة أخرى، يحسبهم مستحقين للغفران. وهذه الصلاة خاصة بالمؤمنين. وهذا ما نراه في كلٍ من قوانين الكنيـسة وبدايـة الصلاة (أي الصلاة الربانية). لأن غير المُعَمَّدين لا يستطيعون أن ينادوا الله بلقب "أبانا". فإن كانت الصلاة تخص المؤمنين، وهم يصلّون متضرعين أن يغفر الله لهـم خطايـاهم، فمـن الواضح أنه حتى بعد غسل المعمودية "الروحي" تبقى حاجتنا الشديدة إلى انتفاعنـا بالتوبـة. لأنه لو لم يكن يعني ذلك، لما وضع قانونًا للصلاة التي يجب أن نصليها، و يأمرنـا بتـذكر خطايانا، ويطالبنا أن نسأله الغفران، ويعلمنا كيف علينا أن ننال الصفح ليسهل علينا الطريق.

من الواضح تمامًا أنه قد وضع هذه القاعدة للتضرع، وهو يُعلِّم ويؤكـد أنـه مـن الممكن حتى بعد جرن المعمودية، أن نغسل أنفسنا من ذنوبنا، بتذكرنا لخطايانا. إنه يحثنا أن نكون متواضعين، بأمره لنا أن نغفر خطايا الآخرين، ليحررنا من كل شهوة للانتقام. ويعدنا في المقابل أن يغفر هو لنا نحن أيضًا خطايانا، واضعًا أمامنا هذا الرجاء الصالح. وليعلمنـا أن تكون آراؤنا سامية حيال رحمة الله الواسعة التي لا يُنطَق بها من نحو الإنسان.

لكن أكثر ما يجب علينا ملاحظته هو أن الرب في كل عبارة كان يذكر الفـضيلة بأكملها، وبهذه الطريقة يذكر الصفح عن الأخطاء. لأن عبارة "**ليتقدس اسمك**" هـي إتمـام سيرة كاملة، وعبارة "**لتكن مشيئتك**" تؤكد نفس الأمر أيضًا. وحال كوننا نقدر أن نـدعو الله أبانا، فإنها تليق بحياة بلا لوم، وفي كل هذه الأمور المدركة هناك أيضًا واجب غفران خطايا الآخرين، وحجب غضبنا عن الذين أذنبوا في حقنا.

يتوقف الحكم عليكم أنتم

وحتى الآن لا يزال يريد منا المزيد، وحتى يشير إلى مدى جدية الأمـر، يـذكره بوجه خاص هنا – وبعد الصلاة – لا يذكر وصية أخرى سوى تلك قائلاً: "**إنْ غفرتُم للناسِ زلاتهم، يغفرْ لكم أيضًا أبوكُم السماويُّ**" [ع ١٤]. إذن نحن الذين نبدأ. ونحن الذين نملـك مسار الدينونة التي نجلبها على أنفسنا. لأنه حتى لا يشتكي أحد من بين الذين لا مشاعر لهم،

مهما كانت شكواه عظيمة أو قليلة، إذا ما وقف يوم الدينونة ليشكو ضدكم أنتم الذين ستعطون حسابًا، فقد **جعل الرب الحكم يتوقف عليكم أنتم**، بقوله: مهما حكمتم على أنفسكم، فإنه بنفس القدر إن غفرتم للناس سوف تنالون نفس الغفران مني، حتى وإن لم تكن هناك مساواة بينكم، لأنكم تغفرون لحاجة لديكم، لكن الله لا يغفر لاحتياجه لأحدٍ. أنتم تغفرون لبشر مثلكم، أما الله فيغفر لعبيده. أنتم معرضون لاتهامات بلا حصر، أما الله فهو بلا خطيئة. ولكن حتى والحال هكذا، يُظهر الله رأفات محبته للإنسان. لكن الله حتى وإن لم تغفروا للناس، فهو قادر أن يغفر لكم كل خطاياكم، لكنه يريد لكم النفع، **معطيًا لكم في كل وقتٍ فرصًا بغير حصر توفر لكم رأفته ومحبته**، ليطرح عنكم كل مشاعر وحشية، فيطفئ فيكم الغضب، ويثبتكم فيه كأعضائه الأخصاء، وذلك بكل السُبُل.

لأنه ما قولك، هل احتملت بعض الضيق من جارك؟ (لأن تلك فقط هي التعديات، فالفعل إن تم بعدلٍ ليس تعديًا). لكنكم أنتم أيضًا تقتربون من نوال الغفران بسبب هذه الأمور، ولأجل أمور أخرى أعظم. وحتى قبل نوال الغفران، قد نلتم عطية كبيرة، إذ تعلمتم أن تكون لكم نفس بشرية، وتدربتم على كل أعمال اللطف. وهنا أيضًا يوجد أجر عظيم مُعَد لكم، أن لا يحسب الله لكم أخطاءكم. فأيّ عقاب لا نستحقه أننا بعد أن نلنا هذه الميزة نخون خلاصنا؟ وكيف نزعم أن طلباتنا مسموعة لدى الله، في أمور تعتمد علينا، ونحن لا نحافظ على نفوسنا؟

لا تدخلنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير

١٠. **"ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير. لأن لك المُلك والمجد إلى الأبد. آمين"** [ع ١٣]. هنا يُعَلِّمنا الرب بكل وضوح مدى تفاهتنا، ويقمع كبرياءنا، ويرشدنا أن نستنكر كل صراعاتنا وننبذها، بدلاً من اندفاعنا إليها. لأنه هكذا تصير نصرتنا أكثر مجدًا، وتزداد هزائم الشيطان. أعني، ينبغي أن نصمد في سموٍ إذا ما تم سحبنا أو جرنا. وإذا لم يستدعنا أحد أن نبقى في هدوء وسكينة، منتظرين قدوم الصراع، فإن أتى، نُظهر للناس تحررنا من المجد الباطل وتمتعنا بسمو الروح.

هنا يدعو (الرب) الشيطان "**الشرير**"، فيأمرنا أن نشن عليه حربًا بلا هوادة، قائلاً لنا ضمنًا إن الشيطان لم يكن هكذا بالطبيعة، لأن الشر ليس من الأمور الطبيعية، بل هو من صُنعنا نحن وباختيارنا. وقد دُعي الشيطان هكذا، باعتباره متميزًا في الشر بطريقة مُبَالَغ فيها

جدًا. ولأننا إذا قاومناه أو ألحقنا به ضررًا، شنَّ علينا حربًا ضروسًا. لهذا لم يقل الرب: "نجنا من الأشرار" بل "**من الشرير**"، معلمًا إيانا ألا نثير المتاعب مع جيراننا، لأنه مهما عانينا من قلاقل على أيديهم، **علينا أن نوجه عداوتنا للشيطان وحده**، فهو أصل كل آثامنا. وإذ يجعلنا مترقبين متحفزين لما قبل الصراع بأن يركز فكرنا في العدو الحقيقي، مستأصلين من داخلنا كل تراخٍ، يعود فيشجعنا ويرفع من أرواحنا، بأن يذكِّرنا بالملك الذي يرأس صفوفنا، فيصفه أنه أقوى من الجميع، إذ يقول: "**لأن لك الملك والقوة والمجد**".

لك الملك والقوة والمجد

نفهم من ذلك، أن الله هو صاحب المُلك (الملكوت). وأنه يجب ألا نخشى أحدًا، لأنه لا يقوى أحد أن يقاوم أو يقسِّم المملكة معه. لأنه حين يقول: "**لك الملك**"، يضع أمامنا من يثير الحرب علينا، ليخضعه لنا. حتى وإن بدا معارضًا لنا. فإن الله يسمح بذلك إلى حين. لأن الشيطان أيضًا من عبيد الله رغم أنه من رتبة متجردة، ومن المذنبين بالمعصية، ولا يجرؤ أن يقاوم أيًا من العبيد رفقائه، إن لم يسمح له الله من فوق. ولماذا أقول "العبيد رفقاؤه" فهو لا يثير هياجه مثلاً ضد الخنازير، إن لم يسمح الرب له (قارن لو ٨: ٣٢). ولا ضد قطعان الماشية ولا الأغنام، حتى يأخذ السماح من فوق (أي ١: ١٢).

ويقول: "**ولك القوة**"، فمهما كانت ضعفاتك ومهما كثرت، عليك أن تثق تمامًا أن لك واحدًا يحكمك قادرًا أن يفعل كل شيءٍ وبمنتهى اليسر لأجلك.

"**لك المجد إلى الأبد. آمين**". هكذا فإنه لا يُحَررك من الأخطار المحدقة بك فقط، بل يقدر أن يمجدك أيضًا، ويجعلك مكرمًا. لأنه مثلما أن قوته عظيمة، هكذا أيضًا مجده لا يُنطَق به وبلا حدود، ولا نهاية. هل ترون كيف أنه يكلل بطله المقاتل بكل السبل ويعده ليمتلئ ثقة.

نغفر للناس زلاتهم

١١. ومثلما قلت قبلاً، إنه من بين كل شيء، فإنه يكره جدًا كل من يحمل في قلبه خبثًا، ويقبل جدًا كل من يقبل الفضيلة المضادة لهذه الرذيلة. فبعد الصلاة يضع في فكرنا نفس الصلاح من خلال ما يظهره من عقاب ومكافأة، ليحث السامع على طاعة الوصية. إذ يقول "**فإنه إن غفرتُم للناس زلاتهم، يغفر لكُم أيضًا أبوكُم السماوي**". **وإن لم تغفُروا للناس زلاتهم، لا يغفر لكم أبوكُم أيضًا زلاتكُم**" [ع ١٤-١٥]. هنا أيضًا، وبهذا المفهوم يذكر الرب السماء ويذكر أبانا، ليخجل السامعين، فيرى السامع أنه من بين كل الناس، ورغم أن له مثل

هذا الآب، يتحول إلى وحشٍ كاسرٍ، بدلاً من أن يجمع كل أفكاره إلى السماء، لكنه يتفكر في الأرضيات وفي أمور العقل العادية. فنحن لا نصير أولاده بالنعمة فقط، بل وبأعمالنا أيضًا.

ولا شيء يجعلنا مثل الله، كاستعدادنا أن نغفر للأشرار وفاعلي الإثم. مثلما علّمنا هو قبلاً حينما تكلم قائلاً إن "شمسه تشرق على الأشرار والصالحين" (مت ٥: ٤٥). ولهذا السبب عينه، نجده في كل عبارة يأمرنا ويوصينا أن نجعل صلاتنا عامة لأجل الجميع، قائلاً: "أبانا"، و"لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض"، و"خبزنا كفافنا أعطنا"، و"اغفر لنا ذنوبنا ولا تدخلنا في تجربة"، و"نجنا". في كل مرة يأمرنا أن نستخدم صيغة الجمع هذه، حتى لا نضمر لأحدٍ ولو أدنى إحساس بالغضب. فكم عقابًا يكون أشد يستحقه أولئك الذين بعد هذا كله لا يعرفون الغفران أبدًا، بل يسألون الله الانتقام من أعدائهم، وبكل ما تحمله الكلمة من معانٍ يتعدون على الناموس، وبينما يحث الرب الجميع ويشجعنا على أن نمنع أنفسنا من الصراع الواحد ضد الآخر.

وإذ المحبة هي أصل كل صلاح، فإنه يبعد عنها كل ما يمكن إعاقتها، فيجمعنا معًا، ويثبتنا سويًا الواحد مع الآخر. لأنه ما من أحدٍ، وأقول ما من أحدٍ، أبًا كان أو أمًا أو صديقًا أو مهما كان، قد أحبنا مثل الله الذي خلقنا.

وفوق هذا كله، فإن خيراته اليومية لنا ووصاياه لنفعنا قد جعلها ظاهرة لنا، لكن إن كنت تخبرني عن الآلام والأحزان، وشرور الحياة، ففكر في كمّ من الآثام التي تُسيء بها إليه كل يوم. ولن تتعجب، مهما حلت بك شرور أكثر من هذه، لكن إن كنت تنعم بأي صلاح، فإنك ستتعجب وتندهش.

لكن والحالة هكذا، فإننا نفكر فيما يأتي علينا من كوراثٍ، لكننا لا نفكر في ما نفعله من آثام كل يوم ولا نُعيرها اهتمامًا. لهذا نحن نتحير، لأننا إن كنا نحاسب أنفسنا بشدةٍ كل يوم على خطايانا، أو حتى ليومٍ واحدٍ فقط، لأدركنا كم من الشرور التي نتعرض لها. وإن اعترفنا بآثامنا، كل واحدٍ بنفسه، وإن تحدثنا عما ارتكبناه هذا اليوم - رغم أنني بالطبع لا أعرف ما الذي أخطأ به كل واحدٍ منا - فإنه رغم كل ذلك، تبدو آثامنا الكثيرة التي لا يمكن حتى لمن يعرضها أن يحصي عددها.

فمثلاً، أيّ منا لا يبدو مهملاً في صلواته؟ أيّ منا لم يكن مزدريًا بالنعمة، أو ساعيًا إلى المجد الباطل؟ من منا لم يتكلم بالشر على أخيه؟ أو لم يشته شهوة شريرة؟ أو لم ينظر بعينين دنستيْن؟ أو لم يتذكر أشياءً بمشاعر عدائية؟ أو حتى لم يرتفع قلبه؟

وإن كنا ونحن في الكنيسة وفي وقت قصير نذنب بشرورٍ هكذا كثيرة، فماذا يكون حالنا بعد خروجنا من هناك؟ فإن كانت الأمواج عالية في الميناء، فماذا إذا خرجنا إلى روافد الشر؟ أعني إلى معترك الحياة، وإلى أعمالنا العامة، وإلى اهتماماتنا في البيت، فهل نقدر حقًا أن ندرك ذواتنا من جديد؟

ولكن ومن بين كل خطايانا الكثيرة والخطيرة، قد أعطانا الله وسيلة سهلة وقصيرة للنجاة، وخالية من أية مشقة. لأنه أية مشقة نجدها في غفران خطايا من أساء إلينا؟ لا شيء، بل المشقة ألا نغفر، بل نظل محتفظين بالعداوة. لكننا حين نتخلص من الغضب، ننتعش كثيرًا، ويصبح سهلاً على من يريد الغفران أن يغفر. لأنه لم يُطلب منا أن نعبر بحرًا، ولا رحلة طويلة نقطعها، ولا قمم جبال نتسلقها، ولا أموال ننفقها، ولا حاجة أن نعذب أجسادنا، بل يكفي فقط أن نريد، وحينئذٍ تُمحَى كل الخطايا.

كيف نطلب من الله المغفرة لنا والانتقام من إخوتنا؟

لكن إن كنت بعيدًا عن غفران خطية جارك كل البعد، بل تتضرع إلى الله ضده، فأي رجاء بالخلاص يكون لك، إن كنت في نفس الوقت حين كان ينبغي عليك تسترضي الله (بالمغفرة لأخيك)، إذا بك تغضبه! مرتديًا زي المتوسلين، بينما تصرخ بصوت حيوانٍ مفترسٍ، قاذفًا نفسك بكل أوجاع الشرير. لهذا السبب، فإن القديس بولس أيضًا، حين يذكر الصلاة، لا يطلب شيئًا آخر سوى حفظ هذه الوصية، إذ يقول: "رافعين أيادي طاهرة، بدون غضب ولا جدال (شك)" (١ تى ٢: ٨)، فإن كنت وأنت المحتاج إلى الرحمة، تطلق العنان لغضبك، بدلاً من ضبطه بالأحرى. ورغم أنك تَعلَم أنك تطعن نفسك بسيفٍ، فهل يمكن لك أن تصبح رحيمًا، وأنت تنفث سموم الشر؟

لكن إن كنت لم تبلغ بعد هذه الثورة من الغضب بكل حدته، افترض أن هذا يحدث بين الناس، حينئذ تدرك مدى التحقير الزائد هكذا. هل يقترب إلينا أحد كإنسان طالبًا الرحمة، وبينما هو راقد على الأرض يرى عدوًا له، فيغادر متوسلاً إليك، بينما يبدأ هو في ضرب عدوه، ألا تغضب أنت منه بالأكثر؟

فكّرْ أن يكون هذا هو وضع الله أيضًا، فأنك أنت أيضًا بينما تتوسل إلى الله وتتضرع، تنصرف لتضرب عدوك بكلماتك، فتهين نواميس الله، الذي وضع ناموس تخليك عن كل مشاعر الغضب. بينما أنت في صراع مع الذين أغاظوك، تطالب الله بمخالفة

وصاياه. ولا يكفيك انتقامًا أنك تتعدى على ناموس الله، بل تطالبه أن يفعل هو ذلك أيضًا؟ ما هذا؟ هل نسي الله ما أوصى به؟ ما هذا؟ هل الذي أوصى بهذه الأقوال إنسان؟ إنه الله، الذي يعرف كل شيءٍ، والذي يشاء أن نحفظ وصاياه بكل دقة، والذي حاشا له أن يفعل ما نفعله، وما نريد منه أن يفعله، بل يحاسبك أنت القائل بهذه الأمور، فقط لمجرد أنك تقولها في انحراف وكراهية، فينزل بك أشد العقوبة. كيف إذن تسعى أن تنال منه أشياءً يمنعك هو بشدة أن تفعلها؟

ومع هذا، فإن هناك من بلغوا هذه الدرجة من الوحشية والبهيمية، فلا يكتفون بالتشفع ضد أعدائهم، بل أن يلعنوا أولادهم، وينهشوا لحمهم إن استطاعوا، بل هم ينهشونها فعلاً.

فلا تقل لي إنك لم تغرس أسنانك في جسد من أغاظك. وإن كنت قد قلتَ ذلك على الأقل فيما يخصك، فأي شيء أخطر من ذلك الفعل، **أن تزعم أن غضبًا يحل به من فوق.** فإنه لابد أن يُسلَّم لعقابٍ أبديٍ! وأن يُفنَى هو وكل بيته. لماذا؟ وأيّ ألم أشد ضررًا من هذه القضمات (العض كما بالأسنان)؟ وما أشدها من أسلحة مُرَّة؟ لم يرشدك المسيح إلى هذا، ولم يوصيك أن تخضب دمك بالدماء. كلاً. فالأفواه التي تُدمي بأجساد الناس ليست في فظاعة تلك الألسنة التي تنهش في الآخرين. كيف ستُحيِّي أخاك إذن؟ وكيف ستلمس الذبيحة؟ كيف تتناول دم الرب، وقد امتلأ فكرك بكل هذا السم؟

لأنك حين تصرخ: مزقه إربًا ودمِّرْ بيته وحطِّمْ كل حاله. وحين تدعو عليه بميتات بلا حصر، فأنت لا تقول شيئًا عن قاتلٍ، ولا تختلف كثيرًا عن وحش كاسر يفترس الناس.

فلنكف إذن عن هذا المرض والجنون، ولنُظهرْ لمن أغاظونا رأفة أوصانا بها المسيح. لنصبح مثل "أبينا الذي في السماوات"، حينئذ سنكف عن الشر، إن تذكرنا خطايانا. وإن فحصنا بجدية كل أفعالنا السيئة، في البيت أو خارجه، في السوق وفي الكنيسة.

لنكرم الرب ووصاياه

١٢. فإن لم يكن لأي شيءٍ آخر، فعلى الأقل بسبب احتقارنا لأنفسنا فعلاً، نستحق أن يقع علينا أشد العقاب، لأنه حين كان الأنبياء يرنمون والرسل يرتلون الأناشيد والله يتكلم، كنا نحن نضل بعيدًا، ونجلب على أنفسنا ضيقات العالم، ولا نراعي وصايا ونواميس الله،

جالسين في هدوء، مثلما ينصت المشاهدون في المسارح لرسائل الإمبراطور في صمتٍ وهدوءٍ. لأنه حينما تتلى هذه الرسائل هناك، والولاة حاضرون مع المحافظين ورجال مجلس الشيوخ، والشعب وقوف في صمتٍ مطْبق أمام الكلمات، فإن قفز أحد فجأة وسط هذا السكون الشديد وصرخ، فإنه يلقى أشد العقاب؛ إذ أهان الإمبراطور. لكن هنا، فإن الرسائل قادمة من السماء، وبينما تُتلى تسود فوضى في كل مكان، مع أن مُرسِل هذه الرسائل أعظم بما لا يقاس من ملكنا الأرضي، والحشد المجتمع أكثر وقارًا، فالحاضرون ليسوا من الناس فقط، بل من الملائكة أيضًا، والرسائل تنقِل إلينا أخبار الانتصارات، والأخبار السارة التي تثير فينا رهبة أكثر من أمور الأرض. لهذا لا يحتشد الناس فقط، بل الملائكة ورؤساء الملائكة وكل شعوب السماء وكل سكان الأرض يُؤمَرون بالتسبيح، كالمكتوب: "باركُوا الربَّ يا جميع أعماله" (مز ١٠٣: ٢٢).

أجل، فإن أعمال الرب ليست بالإنجازات الهينة، بل هي تفوق كل حديثٍ، وكل فكرٍ، وكل فهمٍ للإنسان.

الكرازة بالنصرة المجيدة وتكريم الرب

هذه الأعمال يعلنها الأنبياء كل يومٍ، كل منهم بطريقةٍ مختلفةٍ، كارزين بهذه النصرة المجيدة. إذ يقول أحدهم: "صعدت إلى العلاء، سبيت سبيًا، قبلت عطايا بين الناس" (مز ٦٨: ١٨). وأيضًا: "الربُّ قديرُ وجبارُ في القتالِ" (مز ٢٤: ٨). ويقول آخر: "هو يقسمُ غنائم الأقوياء" (إش ٥٣: ١٢ *LXX*). لأنه حقًا جاء لهذه الغاية. أن "ينادي للمسبيين بالعُتق، وللمأسُورين بالإطلاق، وللعُمي بالبصر" (إش ٥١، لو ٤: ١٩).

وحين أعلن صيحة النصرة على الموت قال: "أين غلبتك يا موت؟ أين شوكتك يا هاوية؟" (هو ١٣: ١٤). ويعلن آخر الأنباء السارة بخصوص أعمق سلام قائلاً: "فيطبعون سُيوفهم سككًا، ورماحهمُ مناجل" (إش ٢: ٤، مي ٤: ٣). بينما ينادي آخر أورشليم بقوله: "ابتهجي جدًا يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت أورشليم. هُوذا ملكُكِ يأتي إليكِ... وديعًا وراكبًا على حمارٍ وعلى جحشٍ ابن أتانٍ" (زك ٩: ٩). وآخر يُعَلِّق عن مجيء الرب الثاني قائلاً بنفس الطريقة: "السيد الذي تطلبونه... هوذا يأتي... ومن يحتمل يوم مجيئه؟" (ملا ٣: ١-٢). وتطفرون كعجولٍ تحررت من القيود" (مل ٢: ٤ *LXX*). وآخر وهو مندهش لهذه الأمور يقول: "هذا إلهنا، ولا نحسب آخر مثله" (با ٣: ٣٥).

مع كل هذا، وبينما نطقت تلك الأقوال وغيرها كثيرًا، وبينما **يجدر بنا أن نرتعد، ولا نحسب أنفسنا أننا على الأرض بعد،** لا نزال وكأننا في وسط سوق كبيرة، نزأر ونثير الاضطراب، ونقضي كل أوقات اجتماعاتنا في جدل حول أمور لا قيمة لها، ولا تعنينا.

وإذ نحن مهملون في كل شيء، في توافه الأمور كما في عظائمها، في السمع كما في الفعل، في الخارج وداخل البيت، وفي الكنيسة، ومع هذا كله أيضًا نصلي ضد أعدائنا. كيف يتوفر لنا أيّ رجاء بالخلاص، ثم نضيف إلى كل هذه الخطايا خطية أخرى شديدة تساويها كلها؛ وهي الصلاة الباطلة؟

فهل لنا بعد أيّ حق أن نتعجب إن أصابنا مكروه من أمورٍ مؤلمةٍ وغير متوقعة، بينما كان يلزم أن نتعجب بالحري حين لا تصيبنا مثل هذه الأمور؟ لأن الأولى هي من طبيعة الأشياء، بينما الثانية تفوق كل الأسباب وكل التوقعات، لأنه من المؤكد أن يحدث ما سيفوق العقل؛ إن الذين صاروا أعداءً لله يستفزونه ليغضب، ينعمون بأشعة الشمس والشتاء، وكل ما عدا ذلك. ومع كونهم بشرًا، يفوقون الحيوانات المفترسة وحشية، إذ يضاد الواحد الآخر، وينهش الواحد لحم جيرانه، وتصطبغ ألسنتهم بالدماء، حتى بعد المائدة الروحية (الإفخارستيا)، وبعد تمتعهم ببركاتها العظيمة النفع ووصاياه التي لا تعد.

لهذا ونحن نفتكر في هذه الأمور، فلنطرح عنا هذا السم، ولنضع حدًا لعداوتنا، ونجعل صلواتنا تتفق مع ما نحن عليه الآن، وعوضًا عن وحشية الشياطين، لنكتسِ بوداعة الملائكة، ومهما تضررنا في أيّ أمر، لنفكر فيما نحن فيه، وفي أجرنا الذي يعينه الله لنا لهذه الوصية.

فلنُلطِّف غضبنا، ونهدِّئ انتفاضنا وكبرياءنا، حتى نعبر هذه الحياة الحاضرة في هدوء. وإذا ما رحلنا إلى هناك، نجد ربنا يلاقينا ويعاملنا مثلما عاملنا جيراننا، وإن بدا هذا الأمر ثقيلاً ومخيفًا، فلنجعله خفيفًا ومرغوبًا. ولنفتح الأبواب المجيدة للثقة فيه، وإن لم تتوفر لدينا قوة للامتناع عن الخطية، نفعل ذلك بأن نكون لطفاء مع الذين أخطأوا إلينا (لأن هذا بالتأكيد ليس صعبًا، ولا ثقيل الحمل). وإذ نترفق بأعدائنا نجلب على أنفسنا رحمة كثيرة، هكذا يحبنا كل من يعرفنا في هذه الحياة الحاضرة. وفوق الجميع، يصادقنا الله ويكللنا، ويحسبنا مستحقين لكل الخيرات العتيدة، التي ننالها جميعًا بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح نحو الإنسان الذي له المجد والقوة الآن وكل أوان. آمين.

العظة العشرون

الصوم

أردأ من عمل المرائين!

"ومتى صُمتُم، فلا تكونوا عابسين كالمُرائيين، فإنهم يُغيِّرون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين" [ع ١٦].

١. جيد أن نئن هنا بصوتٍ عالٍ وأن نبكي بمـرارة، لا لأننـا نحـاكي المـرائين فحسب، بل لأننا تفوّقنا أيضًا عليهم. لأنني أعرف جيـدًا أن كثيـرين لا يـصومون فقـط بل ويتباهون بأصوامهم أمام الناس. يهملون الصوم، ومع ذلك يرتـدون أقنعـة الـصائمين، متّشحين بعذر أسوأ من خطيئتهم؛ إذ يقولون إننا نفعل ذلك حتى لا نعثر الآخرين. مـا هـذا القول؟ إن هناك ناموسًا إلهيًا يأمرنا بهذه الأمور، وأنتم تتكلمون عن العثـرة أو الإسـاءة؟ ظانين أنكم حين تفعلون هذا وأنتم تسيئون إلى الناس بتعديكم للوصية، تخلصون الناس مـن عواقب الإساءة؟

أيّ شيء أسوأ من هذه الحماقة؟ ألا يصير عملكم أردأ من عمل المرائين؟ ألا يكون رياؤكم مضاعفًا؟ وإذا ما تفكرتم في عظم هذا الشر، ألا ترتبكون خجلاً لقوة ما أمامنا مـن تعبير؟ فالرب لم يقل إنهم يتظاهرون جزئيًا، بل يكشف أعماقهم أكثر، فيقول: "إنهم يُغيِّـرون وجوههم" أيّ أنهم يشوِّهونها ويفسدونها. لكن إن كان الأمر مجرد تغييـر "الـسحنة" ليبـدو الإنسان باهتًا لأجل المجد الباطل، فما قولنا في نساءٍ يلطخن وجوههن بـالألوان والأصـباغ لتدمير شباب دنسين؟ وبينما يؤذي مثل هؤلاء الشبان أنفسهم فقط، فإن أولئك النسوة يـؤذين أنفسهم والناظرين إليهن. لهذا يجب علينا أن نهرب من هذا الفخ ومن فخاخ أخرى بعيدًا بُعدًا كافيًا كي ننقذ أنفسنا.

فالرب لم يوصِ فقط بألا نُغير وجوهنا، بل أن نسعى لحفظ نفوسنا أيـضًا. وهـو الأمر الذي أوصى به قبلاً. ففي مسألة الصدقة، لم يعرض الأمر هكذا ببساطة بل إذ قـال: **"احترزوا أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس"**، وأضاف **"لكي ينظـروكم"**. فإنـه فـي الـصلاة والصوم لا يذكر نفس الشيء، ولا يضع نفس القيد، فلماذا أراد ذلك؟ لأنه مـن المـستحيل أن نخفي الصدقة عن أعين الناس، لكن من الممكن أن يتم الأمر بالنسبة للصلاة والـصوم.

ومثلما قال: "لا تعرف شمالك ما تفعل يمينك" لم يكن يتحدث عن الأيدي بحصر المعنى، بل عن واجب إخفاء الأمر عن الناس في حزمٍ. ومثلما أمرنا أن ندخل إلى مخادعنا، لم يكن يقصد المكان بشكلٍ مطلقٍ، ولكنه يثير فينا مشاعر الرهبة المقدسة للمرة الثانية حول مسألة الصلاة.

هكذا هنا أيضًا، حين يأمر أن **"تدهن جسدنا"** لا يعني حرفيًا أن ندهن أجسامنا، وإلا تعدّينا على الناموس - إن لم نفعل ذلك - والأكثر من ذلك أن أولئك الذين اجتهدوا بمشقة لحفظ أجسادهم في مجتمعات الرهبان، والذين اختاروا سكناهم في الجبال، لن يقدروا على هذا. إذن لم يكن هذا هو ما يأمرنا به، بل إذ رأى أن للقدماء عادة دهن أنفسهم باستمرار، ويتلذذون ويتهللون (مثلما نرى مع داود في ٢ صم ١٢: ٢٠)، ومع دانيال (دا ١٠: ٣)، وقال إن علينا أن ندهن أجسامنا - ليس بمعنى حرفي - بل أن نسعى بكل السُبُل وأن نجتهد بكل حزم أن نُخفي عن الناس نُسكَنا.

وحتى يقنعكم بالأمر، فإنه هو نفسه فعل ما أوصى به، إذ صام أربعين يومًا، وصامهم سرًا، فلا دهن نفسه ولا حتى غسل جسده، ومع ذلك ورغم أنه لم يفعل هذه الأمور، فقد أكمل الوصايا كلها دون سعي وراء مجدٍ باطلٍ. وهكذا يوصيا نحن بنفس الأسلوب، إذ يكشف لنا عن المرائين، ويكرر اتهامه لهم مرتين لينبه ذهن السامعين.

وفي موضع آخر يذكر نفس صفة المرائين، أعني ليس فقط بإظهار سخافة الأمر، ولا بتوقيع أقصى عقوبة عليه، بل أيضًا بإظهار أن مثل هذا الخداع لا يدوم طويلاً، فهو يبعدنا عن هذه الرغبة الشريرة. فالممثل يبدو رائعًا أمام الجالسين من المشاهدين، لكن معظمهم يعرف حقيقة أمره، ولهذا لا يبدو رائعًا أمام الكل. والذين يعرفون الدور الذي يلعبه، رغم ذلك وحين يتفرق المتفرجون ينكشف أمره للجميع. وهذا هو حال الباحثين عن المجد الباطل، والمعروفين للكل بأنهم يضعون أقنعة على وجوههم، وسوف يفتضح أمرهم في اليوم الأخير، حين تصير كل الأشياء "عارية ومكشوفة"، والرب يقدم الفرصة لانتشالهم من بين المرائين حين يكشف أن وصيته خفيفة، لأنه لم يجعل الصوم أشد صرامة، ولا طالبنا أن نمارسه بكثرة، بل ألا نفقد الإكليل المُعد لنا.

ما قد يبدو صعب الاحتمال، يبدو أمرًا مشتركًا بيننا وبين المرائين - لأنهم يصومون أيضًا - ولكن الأخف في الأمر، أيّ ألا نخسر الأجرة بعد أتعابنا، حسب قول الرب الذي أوصى به دون أن يضيف شيئًا إلى أتعابنا، بل يجمع الأمور لنا بكل أمانٍ، دون أن

يحرمنا من المكافأة. مثلما يفعل المراءون، كلا، بل أن نحاكي المصارعين في الألعاب الأوليمبية، الذين رغم جلوس حشد عظيم أمامهم، ورغم وجود الكثيرين من الأمراء، يشتاقون أن يدخلوا السرور على واحدٍ فقط، ذاك الذي يحقق الفوز حتى لو كان أدنى من مستواهم بكثير.

لكن أنتم، ورغم أن دافعكم مضاعف بإظهار الفوز أمام الله، أولاً، لأنه هو الذي يقضي بنصركم، وأيضًا، لأنه لا يقارن بأعظم المحتشدين في مسرح اللعب. فإنكم قد تشتركون مع آخرين لا نفع لهم، بل ضررهم أعظم. ومع ذلك يقول الرب: فإني لا أمنعكم، فإن اشتقتم إلى التباهي أمام الناس، فانظروا وسوف أمنحكم أعظم الفرص والمنافع، لأن ما تفعلونه هنا قد يحرمكم من المجد الذي تنالونه معي، فاحتقروا هذه الأمور، واتحدوا معًا وتقاربوا سويًا، لتنعموا بأمان، لأن ثمار العالم لا تدوم، وإن وطأت أقدامكم كل مجدٍ بشريٍ، وتحررتم من أسر الناس الأليم، تصيرون بالحق عاملين الفضيلة.

بينما الآن، مادمتم تميلون للظهور، حتى وإن كنتم في صحراء تهجركم كل فضيلة لكم، ولا تبقى فضيلة ما تتطلع إليكم. هذا موقف من يهين الفضيلة ذاتها، إن كنتم تسعون إليها لا لأجلها بل كمن يحدق إلى صانع الحبال والنحاس والعامة في الأسواق ليعجب بكم الأردياء، البعيدون عن الفضيلة، فتدعونهم إلى المشهد أمامكم. وكأن المرء قد اختار أن يعيش في حال صوم ونسك وتعفف ليس لسمو التقشف بل ليتباهى أمام الساقطات.

ويبدو أنكم لا تختارون الفضيلة لذاتها – بل لأجل أعدائها – بينما يجب عليكم الإعجاب بها على أساس آخر. إن للفضيلة أعداءها الذين يعجبون بفاعليها. لهذا لا أريدكم أن تُعجَبوا بالصالحات لأجل الناس بل لأجلها هي، مثلما يحبنا الآخرون لا لأجل ذواتنا نحن، بل لأجل نفعهم، الأمر الذي نعتبره نحن إهانة لنا.

هكذا أيضًا أريدكم ألا تحبوا الفضيلة لأجل الناس، أو لأجلهم تطيعون الله، بل تطيعون البشر لأجل الله. لأنكم إن فعلتم العكس، فحتى وإن بدا أنكم تصنعون الفضيلة، تكونون كمن لا يصنعها تمامًا، وتبدون بدون طاعة، هكذا أنتم حين تفعلون ما يخالف الناموس.

الكنز الحقيقي وعين النفس

الفقر الاختياري

٢. **"لا تكنزوا لكم كنوزًا على الأرض"** [ع ١٩]. بعد أن أقصى الرب مرض المجد الباطل وفي حين مناسب، يتحدث عن الفقر الإرادي. إذ لا شيء يدرب الناس على الولع بالثروات مثل الولع بالمجد. وهذا هو السبب الذي يدفع الناس إلى ابتكار هذه الجماعات من العبيد. وهذا الحشد من الخصيان والجياد ذات السرج الذهبية، والموائد المزدانة بالفضيات وما شابه ذلك. والأكثر سخفًا من هذا كله، أن رغباتهم لا تشبع، ولا يكفون عن الاستمتاع باللذة، بل يتباهون بما لديهم أمام الجموع.

بعد أن قال الرب إن علينا إظهار الرحمة، يشير هنا إلى ما يجب أن نظهره من رحمة أعظم، بقوله: **"لا تكنزوا لكم كنوزًا على الأرض"**، لأنه من غير الممكن أن يستهل حديثه باحتقار الغنى والثروات بسبب طغيان الشهوة. لهذا يقسم حديثه إلى أجزاء صغيرة، وبعد أن حرر ذهن السامع، يعده لقبول وصايا تالية، ولهذا ترون أنه قال أولاً "طوبى للرحماء" ثم "كن مراضيا لخصمك" وبعدها "من أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك، فاترك له الرداء أيضًا". لكنه هنا يتحدث عن أمر أعظم من كل ما مضى. لأنه كان يعني قبلاً: إن رأيت مخاصمة أمام القضاء قد أوشكت على البدء، فافعل هذا.

لأنك إن كنت في احتياج مصحوب بالتحرر من المعاناة، أفضل من أن تملك وأنت تعاني. لكن افترض أن لا خصم يعاديك ولا أحد يقاضيك، فإنه يعلمنا أن نزدري بالثروات نفسها لذاتها، مشيرًا إلى أن الإنسان لا يجد من وراءها رحمة، مثلما هو الحال مع المعطي. لهذا يشرع القوانين حتى لو لم يكن هناك أحد يؤذينا، أو يجرنا إلى ساحات القضاء، حتى في هذه الأحوال، لابد أن نحتقر ممتلكاتنا، فنعطيها لمن يحتاج، ولا يذكر الرب الأمر كاملاً هنا، بل يتحدث في رفقٍ، رغم أنه صارع في البرية صراعًا شديدًا (مت ٤: ٩-١٠). وحتى يحين الوقت المناسب للإفصاح عن وصاياه، فضّل السيد المسيح أن يكون في مركز النصح أكثر من واضع الناموس، لأنه بعد أن قال: "لا تكنزوا كنوزًا على الأرض" أضاف **"حيث يفسد السوس والصدأ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون"**. ويشير بالنسبة للزمان الحاضر، إلى أضرار الكنز هنا، ومنافع ما لنا هناك، من حيث المكان والأشياء التي تفسده، ولم يتوقف

عن هذيْن الأمريْن، بل يوسع من دائرة النقاش، فيشير إلى ما يخيفهم من أمور ويسأل: مـمَ تخافون؟ هل تخشون ضياع خيراتكم، إن أعطيتم صدقة؟ كلا.

إذن، قدِّموا صدقة، ولن تضيع خيراتكم. بل والأكثر من هذا، إنكم ستنالون زيـادة مضاعفة. أجل، لأن خيرات السماء تضاف إلى ما عندكم. ولا يقول الكلام وكأنـه محفـوظ لزمن ما، بل يقنعهم أن الكنز سيبقى محفوظًا لهم دون ضياع، ليجذبهم. ولا يكتفي بالحـديث عن منافع إعطاء الصدقة، وأنها تظل محفوظة لهم، بل يشير إلى العكس بأن عـدم تقـديمها يجعلها تفنى من أيديهم. وتأملوا مدى حكمته في أنه لم يقل: أُتركوها لآخرين، لأن هذا فيـه مسرة الناس، بل يحذرهم على أساس جديد. إن لم يتحايل الآخرون لـسلب خيـركم، فـإن "**السوس والصدأ**" سيفعلان، وكبح هذا الأذى من الصعب السيطرة عليـه، ومهمـا حـاول الإنسان منعه لن يقوى. وحتى لو لم يفسد السوس الذهب، فاللصوص سيقومون بـذلك. وإن لو لم ينهبوه كله، فعلى الأقل الجزء الأعظم منه.

حيث يكون كنزك، هناك يكون قلبك أيضًا

٣. لهذا يضيف الرب تكملة للمناقشة بقوله: "**لأنه حيث يكون كنزك، هنـاك يكـون قلبك أيضًا**" [ع ٢١]. وحتى لو لم يحدث شيء من هذا كله، فإنـك سـتتعرض لأذى لـيس بالقليل. لأنك إن تعلقتَ بهذه الأشياء الأرضية، وأصبحت عبدًا بدلاً من كونك حرًا، وطرحتَ عنك الأمور السماوية، ولم تعد لديك قدرة على التفكير في أيّ أمر من أمور الـسماء، بـل انحصر فكرك كله في المال والملكية والقروض وربا الأرباح والمتاجرات الخسيـسة، فقـد صرت أسوأ من العبد وما أتعس حالك! إذ تجلب على نفسك أقسى أنواع الطغيان، محرومًـا من أعز شيء في الوجود، من شرف الإنسان وحريته. ومهما تكلم إليكم أحد تعجزون حتـى عن الإنصات إلى ما يهمكم، لأن عقولكم مُسمرة بالمال وذهنكم مقيد مثل كلب مربوط بقبـرٍ بسبب استبداد الثروات، مقيدين بشدة تنبحون على كل من يقترب منكم، ولا عمل لكم سـوى هذا. أي شيءٍ يمكن أن يكون أكثر بؤسًا من هذا؟

ويعتبر (السيد) قوله أعلى من إدراك سامعيه، وإذ لا يدرك الجميع سوء أفعـالهم، ولا حتى منفعة تصرفاتهم، بل هم في حاجة أكثر إلى روح يدرك ونفس تعي كلا الأمـريْن، يأتي بالنقاش ببعض أمورٍ أخرى كانت واضحة لهم. فيقول: "**حيث كنز الإنسان هناك يكـون قلبه أيضًا**".

سراجُ الجسدِ هو العينُ

ثم يعيد توضيح الأمر مرة أخرى بإبعاد سامعيه عن الأمور العقلية إلى الأمور المحسوسة، فيقول: "**سراجُ الجسدِ هو العينُ**" [ع ٢٢]. ويعني بهذا: لا تدفنوا ذهنكم في الأرض، ولا في أيِّ شيء مماثل، لأنكم إنما تحفظونه للسوس وللصدأ، وللسارقين. وحتى إن نجوتم من مثل هذه الشرور، فلن تهربوا من استعباد قلوبكم وانشغالها بالأذى من هذه الأمور. "**لأنه حيث يكون كنز الإنسان، هناك يكون قلبه أيضًا**". فإذا صنعت لك مخازن في السماء، فلن تحصد هذه الثمرة فقط، بل تنال مكافأتك على هذه الأمور، وتنال مجازاتك في هذا العالم أيضًا. وعند وصولك إلى الميناء هناك، ووضع مشاعرك في الأمور العلوية، والاهتمام بما فوق. لأنه حيث تنقل كنوزك، فمن الواضح جدًا أنك تنقل إلى هناك عقلك أيضًا. لهذا إن فعلت ذلك على الأرض، فسوف تختبر العكس، لكن إن كان القول غامضًا بالنسبة لك، فاسمع ما سيأتي في حينه: "**سراج الجسد هو العين، فإن كانت عينيك بسيطة، فجسدك كله يكون نيرًا. وإن كانت عينيك شريرة، فجسدك كله يكون مظلمًا. فإن كان النور الذي فيك ظلامًا، فالظلام كم يكون**" [ع ٢٢-٢٣].

ها هو ينقل حديثه هنا إلى أمور أكثر تواجدًا في دائرة حواسنا، أعني، إذ يتكلم عن الذهن كمستعبد وواقع تحت الأسر، وأن كثيرين لا يدركون هذا بسهولة، فإن الرب ينقل الدرس إلى أمور خارجية، واضعًا أمام عيون الناس ما يمكن أن يفهمه الآخرون معهم. فيقول: "إن لم تفهم ما يضر الذهن، يمكنك أن تدركه من أمور الجسد، لأنه مثلما تكون العين بالنسبة للجسد، هكذا الذهن بالنسبة للنفس، فإن لم تختر أن ترتدي ذهبًا، أو تتوشح بملابس الحرير، وكانت عيناك مطفأتين، فإن صحتهما وسلامتهما أهم عندك من كل هذه الأمور السطحية. لأنك إن خسرت صحتك أو بددتها، لن تنفعك حياتك كلها بشيءٍ. لأنه عندما تكف العينان عن النظر، تضيع طاقات بقية أعضائك، وينطفئ نورها، هكذا إذا فسد الذهن، تمتلئ حياتك بشرور لا حصر لها.

وكما نهدف في جسدنا أن نحافظ على عيوننا سليمة، هكذا الذهن في النفس، لكننا إن أفسدنا العينين اللتين تمدان الجسد بالنور، لا نستطيع أن نرى بوضوح بعد، تمامًا مثلما ندمر منبعًا للمياه، فنتسبب في جفاف النهر. هكذا مَنْ أطفأ الفهم يربك كل أفعاله في هذه الحياة.

لهذا يقول الرب: "**فإن كان النور الذي فيك ظلامًا. فالظلام كم يكون؟**" لأنه حين يغرق القبطان أو تنطفئ الشمعة، أو يسقط القائد الحربي في الأسر فأي رجاء يبقى بعد في صدور الذين تحت قيادتهم؟

وإذ يحذف السيد الآن في كلامه الحديث عن مؤامرات الثروة والمال والمعاناة والمحاكمات القضائية والتي تناول الحديث عنها قبلاً، حين قال يسلمك الخصم إلى القاضي، ويسلمك القاضي إلى الشرطي، فإنه يعرض هنا أمورًا أخرى أشد وطأة، مؤكدًا أنها تحدث، ليبعدنا عن كل شهوة رديئة. فالطرح في السجن أقل وطأة من استعباد الذهن للشهوة المريضة. وربما لا يحدث أن نُلقى في السجن، لكن استعباد الفكر أمر محتم، إذا اشتهي الإنسان المال والثروة. لهذا يأتي ذكرها الآن باعتبارها أخطر من سابقتها، ومن المؤكد حدوثها، فيقول إن الله أعطانا فهمًا أن نبتعد عن كل جهلٍ، وأن نحكم على الأشياء حكمًا سليمًا مستخدمين هذا الفهم كسلاحٍ ونورٍ ضد كل خطرٍ وضررٍ لنبقى في أمان.

لكننا نخون العطية لصالح أشياء تافهة عديمة النفع. لأنه ما فائدة الجنود المصطفين بدروعٍ من ذهبٍ، وقائدهم أسير في السجن؟

وما فائدة سفينة مزدانة بألوان جميلة وربانها غارق تحت لجة المياه والأمواج؟

وما ميزة جسد جميل متناسق وقد ضاع منه البصر؟

وما نفع الطبيب المطروح في فراش المرض ومن المفترض أن يكون صحيحًا ليعالج أمراضنا، حتى لو جلس في مقعد من فضة وفي غرفة حوائطها من ذهب، فإن ذلك لن يجدي المرضى شيئًا.

هكذا، إذا فسد الذهن، الذي يملك القدرة على إطفاء نار شهواتنا، فحتى إن وضعناه في كنز، لن ينفعه شيئًا، فالخسارة عظيمة، والضرر الذي لحق بنفوسنا بالغ.

لأية غاية تشتهون الغنى والمال؟

٤. هل ترون كيف أن الناس يلحقون الأذى بأنفسهم من خلال هذه الأمور وكيف يريد الرب إبعادهم عنها، ليعيدهم إلى الصالحات، إذ يقول: "لأية غاية تشتهون الغنى والمال، هل للتمتع باللذة والثروة؟ فلماذا تفشلون بينما من المفترض أن تنالوا كل ما تريدون".

السبب أن إصابة عيوننا تجعلنا لا ندرك مباهج أيّ شيء، وتحل بنا الكوارث، ويسود حالنا إذا ما فسد ذهننا وانحرف. فلماذا تريدون دفن المقتنيات في الأرض؟

هل لحفظها في أمان؟ ولكن العكس هو الذي يحدث، فمثلما يحدث مع طالبي المجد الباطل، إذ يصومون ويعطون صدقة ويصلون، لهذا المجد الباطل، فإن (الرب) يحصن الإنسان ألا يسعى وراء ذلك فيقول: لأي غرض تصلي وتعطي صدقة؟ هل لمحبة مجد الناس؟ لا تصلِ بهذا الهدف، لكي تنال مجدًا في اليوم العتيد؟

ثم يستأثر (المسيح) أيضًا قلب الإنسان الجشع، من خلال اجتهاده في أمور الأرض، فيسأله لماذا تحتفظ بثروتك وتنعم بالمسرة؟ إنني سأمنحك كلا الأمريْن بوفرة عظيمة إن وضعت ذهبك حيث آمرك أن تضعه.

ويكشف في الحقيقة وبوضوح أكثر فيما بعد عن التأثير الشرير لهذا العقل على الذهن، حين ذكر الشوك (مت ١٣: ٢٢)، لكنه هنا في الوقت الراهن، يهدد بنفس الأمر وبشكلٍ مثيرٍ، حين يشبه من يسلك هذا الطريق بالإنسان المظلم، إذ لا يرى السائرون في الظلمة شيئًا بشكل واضح ومتميِّز. لكنهم إذ نظروا حبلاً ظنوه ثعبانًا، وإن رأوا جبالاً أو وديانًا خافوا هلعًا. هكذا أيضًا المبصرون الذين لا ينذرهم أي شيء بل ينتابهم الشك، ويرتعدون بسبب الفقر، بل ولأية خسارة تافهة.

نعم. وإن هم خسروا شيئًا زهيدًا يحزنون، ولا يحزن مثلهم الذين في حاجة إلى الطعام الضروري. وكثير من الأغنياء يأتون إلى حبل المشنقة، ولا يحتملون سوء الطالع، ولا الإهانة، ولا أن يستغلهم أحد بسوءٍ، فيبدو لهم الأمر فوق الاحتمال، حتى أن كثيرين منهم قد يحطمون أنفسهم، وينفصلون عن هذا الزمان الحاضر. إذ جعلتهم ثرواتهم مترفين مدللين لا يفعلون شيئًا سوى انتظار مزيد من الأموال. لهذا إذا أَمَرَهم بخدمة ما، سارعوا إلى القتل والجلد والانتقام بكل خزيٍ، ساقطين في منتهى البؤس. ولا يضبطون أنفسهم، متشبهين بالمخنثين من الناس.

وإذا تطلب الأمر مزيدًا من الحيطة ليصبح الإنسان عفيفًا بلا خزي، فإنهم لا يفعلون نفس الشيء بعد أن أنفقوا كل أموالهم في أشياء لا تنفع. وإذا ما احتاج إلى ضرورة للإنفاق، لا يجد بين يديه شيئًا يوفره، فيعاني من شرورٍ لا علاج منها، فقد بذر كل ما يملك من قبل.

الجشع يفقد التعقل والبصيرة

إنه يشبه الواقفين على خشبة المسرح الماهرين في الفنون الشريرة، يعانون من اضطرابات جمة غريبة وخطيرة، لكنهم يبدون سخفاء في الأمور الأخرى الضرورية

والنافعة. فيشبهون أناسًا يمشون على حبل مشدود، يستعرضون قدرًا كبيرًا من الشجاعة، لكن إن حل بهم أمر طارئ يتطلب جرأة أو شجاعة، لا يقدرون على التحمل أو التفكير. هكذا هم الأغنياء (الجشعين)، يتحدون الكثير من أجل المال، لكنهم لا يقبلون أن يضبطوا أنفسهم، ولا يقدرون على الخضوع لأي شيء يحرمهم من المال، قليلاً كان أم كثيرًا. وكما أن ممارسة العمل السابق خطيرة وبلا ثمر، هكذا أولئك أيضًا يعانون من مخاطر وانتكاسات كثيرة، لكنهم لا يبلغون أبدًا أية نهاية سعيدة ونافعة. ويعانون من ظلمة مضاعفة، إذ تفسد عيونهم بسبب انحراف أذهانهم، وبسبب خديعة اهتماماتهم يتورطون في عتمة ضبابية شديدة، فلا يقوون أبدًا على الرؤية.

ومن يسير في الظلمة يتحرر منها حين تشرق الشمس، لكن من له عينان تالفتان حتى وإن ظهرت الشمس - كحالة هؤلاء - حتى وإن أشرق عليهم شمس البرّ، وأخذ يحثهم، فإنهم لا يسمعون، فقد أعمت الثروة عيونهم. لهذا صارت لهم عتمة مضاعفة، يسيرون فيها بسبب ذواتهم، وأخرى بسبب إهمالهم لمعلمهم.

أحفظوا ثرواتكم!

٥. فلننصت إلى المُعَلِّم بكل اهتمام ودقة إذن، حتى وإن فات الأوان، نستعيد أبصارنا أخيرًا. ولكن كيف للإنسان أن يستعيد بصره؟ إن علمت أنك كنت أعمى، عليك أن تعرف لماذا صرت أعمى؟

بسبب شهوتك الشريرة، لأن محبة المال مثل ظلمة ضارة تتجمع حول العين الصافية، فتسبب ضعف الإبصار. **لكن هذه الغشاوة يمكنها أن تزول وتنقشع بسهولة؛ إن نحن تلقينا شعاع تعليم المسيح وإن استمعنا إليه يحثنا على الصلاح**، بقوله: **"لا تكنزوا لكم كنوزًا على الأرض"**. ورُبّ قائل: ولكن ما جدوى السمع مادمتُ مستعبدًا للشهوة؟

نقول في المقام الأول إن الاستماع الدائم يوفر قوة هائلة للقضاء على هذه الشهوة. ثم عدم الاستمرار في ضبط النفس، لا يسبب شهوة أو رغبة بل عبودية مرة، وطغيان، وقيود وظلمة، واضطرابات وأتعاب دون نفع. والاحتفاظ بالثروة للآخرين أو حتى للأعداء، لا يجدي منفعة، بل يولِّد الهروب والانحراف دائمًا. فالكنز أنت واضعه بين لصوص، أما إن كنت تشتهي ثروة ما، ففي كل الأحوال أبعدها، حيث تكون آمنة دون تخريب، ودون شهوة. لأن الشهوة قيود وإهانة وخسارة ومصدر إغاظة دائم. ولن تتوفر لكم في الأرض بقية آمنة

أبدًا، حتى إن قادكم الإنسان إلى عمق الصحراء، ووعدكم بالأمان لحفظ ثـروانكم. فـإن أسرعتم ووثقتم فيه ووضعتم خيراتكم هناك، ما حفظتم شيئًا.

ولكن إن كان الله لا الإنسان هو الذي يعدكم بهذه الأمور، وحيث لا يضع كنـوزكم في صحراء بل في السماء، فهل تقبلون؟ ومهما كانت درجة الأمـان هنـا علـى الأرض، فلن تحرركم أبدا من الاهتمامات، وحتى لو لم تفقدوا ثرواتكم، فلن تسلموا من القلـق علـى فقدانها.

لكنك هناك لن تعاني من كل هذا، ولن تدفن ذهبك، بل تـستثمره. فـالكنز مثـل البذرة، أو بالحري هو أكثر من ذلك، لأن البذرة لا تبقى إلى الأبد، أما الكنز السماوي فيبقى إلى الأبد، والكنز لا يزهر، لكن كنوز السماء تحمل ثمارًا أبدية لا تموت.

الوقت مقصر!

٦. لكن إن أخبرتني عن الوقت، وتأخير المجازاة، فإنني أستطيع أيضًا أن أخبـرك كم تلقيت بالمقابل هنا، ومن طبيعة الأشياء المتوفرة في هذه الحياة سأحاول إقناعكم أنكم في هذه الدنيا تقتنون أشياء كثيرة بغير منفعةٍ ولا تستمتعون بها، وإن لفت أحد أنظـاركم إلـى الخطأ، فإنكم قد تلتمسون الأعذار لأولادكم وأحفادكم، ظانين أن لديكم عذرًا كافيًا تبررون به أعمالكم التي لا لزوم لها. لأنك وبعد أن يتقدم بك العمر جدًا، وتبني منازل فخمة ترحل عن الدنيا قبل إكمالها، وحين تزرع أشجارًا تثمر بعد سنوات طوال، وتشتري أملاكًـا وتـؤول مواريث إليك بعد زمن طويل، وتكون منشغلاً بشكلٍ كبيرٍ في مثل هذه الأمور، وأمور أخرى غيرها لا تجني متعتها. فهل تفعل ما تفعله لأجلك أنت، أم لأجل الذين يعيشون بعدك؟ ولمن تنشغل كل هذا الانشغال؟ أليس فيم تفعله منتهى الحماقة؟ وتراك وأنت لا تتوانى لحظة هنـا خشية ضياع الوقت، ورغم هذا كله تخسر كل أجرة أعمالك!

لكن هناك في السماء، يبقى انتظارك وصبرك في سكينة وسلام، وتنال بهما ربحًـا أعظم، ولا تتبدد خيراتك للآخرين، بل تُحفظ كل العطايا لك. ولا يكون الانتظار طويلاً جدًا، لأنها أمور وشيكة وعلى الأبواب، وقد يتحقق بعضها في جيلنا، من يعلم! وقد يصل هذا اليوم المرهوب، ونقف أمام المحاكمة المخوفة التي بغير فساد. أجل! فقد تحققت العلامات كلهـا، وكُرِز بالإنجيل في كل المسكونة، وتحققت كل نبوات الحروب والزلازل والمجاعات، وليست الفترة الزمنية ببعيدة ، فهل لا ترى أية علامة؟

إن في ذلك لآية عظيمة. لأنه في زمان نوح لم يَرَ أحد منهم علامات الفناء للكــون كله وقتها، لكن في وسط لهوهم وأكلهم وزواجهم، وكل ما اعتادوا عليه، بغتة أخذتهم الدينونة المخيفة. وشعب سدوم أيضًا وبنفس الطريقة، عاشوا في بذخ ولهو، ولم يشُكْ أحد منهم، فجأة أبادتهم الرعود والبروق التي نزلت بهم.

فإذا تأملنا كل هذا، فلنُعد أنفسنا لرحيلنا عن هذا العالم، لأنه حتى لو لم ينقض علينا يوم القضاء بعد، فإن نهاية كل واحدٍ وشيكة وعلى الأبواب، سواء كان كبيرًا أو صغيرًا.

ومن المستحيل على الناس إذا رحلوا، أن يشتروا زيتًا بعد (مت ٢٥: ٩)، أو ينالوا غفرانًا وصفحًا بالصلاة بعد، فالذي توسل إلى إبراهيم (لو ١٦: ٢٤)، أو نوح أو أيــوب أو دانيال (حز ١٤: ٤) لم ينل شيئًا.

بينما نحن أمامنا الفرصة، فلنهيِّئ لأنفسنا وفرة من ثقة، ولنجمــع الزيــت بغِنَــى، ولنخزن كل ما لدينا في السماء، حتى حينما نحتاج إليه بالأكثر وفي الوقت المحدد، ننعم بكل شيء. بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح للإنسان الذي له المجد والقوة الآن وكل أوان وإلــى الأبد آمين.

العظة الحادية والعشرون

محبة المال

عبودية للمال وحرمان من خدمة الله

١. **"لا يقدرُ أحد أن يخدم سيديْن؛ لأنه إما أن يُبغض الواحد ويُحب الآخر، أو يُلازم الواحد ويحتقر الآخر"** [ع ٢٤].

أترون كيف يتدرج في إبعادنا عن الأمور التي لدينا الآن، ويُقَدِّم ما يريد قوله على فترات طويلة، فيتحدث عن الفقر الاختياري أو الإرادي، ويطرد سلطان شهوة الجشع، لأنه لم يكتفِ بما قاله قبلاً، رغم كثرته وعظمته، بل يضيف أيضًا أقوالا أخرى، كإنذارات مزيدة.

لأنه ماذا يكون أكثر إنذارا مما يقوله الآن، إن كنا نحن حقًا وبسبب غنانا وثرواتنا نبتعد عن خدمة المسيح. أو ما الذي يمكن أن نشتهيه أكثر، إن كنا حقًا باحتقارنا للثروة نوجه حُبُّنا وعواطفنا إليه، لتصبح محبتنا له كاملة. وأعود فأكرر وأقول نفس الشيء، إنه يضغط على السامع بكلا الوسيلتيْن ليطيع كلامه، وكطبيب ماهر للغاية، يشير إلى المرض الناجم عن الإهمال، كما يشير إلى الصحة الناتجة عن الطاعة.

تأملوا مثلاً، نوع الربح المشار إليه وميزته بأن يتخلص الإنسان من أمور مضادة. فيقول الرب: إن الثروة لا تؤذيكم في هذا فقط، بل هي تثير اللصوص ضدكم أيضًا، وتعتم ذهنكم إلى أقصى حد، وتقصيكم عن خدمة الله، فتحولكم إلى أسرى ثروات ميتة، وهي في كلا الحالتين تضركم. **فهي من جهة تجعلكم عبيدًا لا أسيادًا يأمرون الآخرين، ومن جهة أخرى تطرحكم بعيدًا عن خدمة الله الذي يجب خدمته قبل الجميع.**

ومثلما أشار في موضع سابق عن مضاعفة سوء التدبير حيث "يَفسد السوس" هنا على الأرض، بينما لا يحدث هذا هناك، حيث الحراسة منيعة لا يمكن اختراقها، هكذا هنا أيضًا، يظهر مضاعفة الخسارة عندما نبعد عن الله، وتجعلنا الثروة عبيدًا لمال الظلم (mammon). لكنه لا يعرض الأمر مباشرة، بل يؤسس تعليمه على اعتبارات عامة، قائلاً: "لا يقدر أحد أن يخدم سيديْن". وهو يتحدث عن أمريْن متناقضيْن لأنه لو لم يكن هناك تضاد، لما تحدَّث عن اثنيْن، بعكس ما قيل: "كان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة" (أع ٤: ٣٢). فرغم أنهم منقسمون إلى أجساد عديدة، إلا أن اجتماعهم واتفاقهم قد جعل الكثيرين واحدًا.

وإذ يريد الرب أن يدعم شرحه يقول إن من يخدم سيديْن، يكره ويبغض، بدلاً من أن يخدم، "**لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الأخر**"، موضحًا أن التغيير للأفضل أمر سهل، لئلا يقول قائل: "لقد صرت عبدًا إلى غير رجعة، لقد أصبحت تحت سيطرة الثروة"، مؤكدًا أن الإنسان يمكنه التغيير من حالٍ إلى حالٍ.

محبة المال لا الغنى ذاته

٢. وكما ترون، وإذ يتحدث بشكل عام، ليقنع سامعه أن يكون قاضيًا نزيهًا على كلمات السيد الرب، وأن يحكم حسب طبيعة الأشياء ذاتها حين يتيقن من صدقه، حينئذ وليس قبل هذا الوقت يكشف السيد نفسه قائلاً: "**لا يمكنكم أن تخدموا الله والمال**" [ع ٢٤].

فلنرتعد ونحن نتأمل هذا الأمر، ونفكر ما الذي جعل المسيح يقول ذلك، وكيف يضع المال مع اسم الله. لكن إن صدمنا هذا الأمر، فإن حدوثه في أعمالنا وتفضيلنا لطغيان الذهب على مخافة الله، هو أمر يصدم أكثر بكثير. ماذا إذن؟ ألم يكن هذا ممكنًا بين القدماء؟ أجل دون شك، وربّ قائل: كيف حصل إبراهيم إذن على شهرة طيبة؟ وكيف نالها أيوب؟ **لا تخبرني عن الأغنياء، بل عن الذين يخدمون المال والثروات**. فإن أيوب كان غنيًا، لكنه لم يخدم مال الظلم، بل تملّك عليه وتحكم فيه، وكان سيدًا لا عبدًا، لهذا اقتنى كل شيء وكأنه وكيل لأملاك شخص آخر، وهو لم يكن يسلب الآخرين، بل كان يعطي المحتاجين من ماله الخاص. والأكثر من ذلك، إنه حين توفرت لديه الثروات لم تكن مصدر فرحه، "ما فرحتُ إذ كثُرت ثروتي" (أي ٣١: ٢٥). ولهذا أيضًا لم يحزن حين ضاعت ثروته.

لكن أغنياء هذه الأيام ليسوا مثل أيوب، بل بالحري هم في حال أسوأ من حال العبيد، وكأنهم يدفعون الجزية لطاغية جبّار، وكأن ذهنهم قلعة مشغولة بمحبة المال، تبعث إليهم بأوامرها من هناك يوميًا، ملآنة إثمًا، ولا يقوى أحد على مُخالفتها.

لهذا لا تكونوا معاندين بزيادة، لأن الله أعلن مرة وإلى الأبد ونطق أنه من المستحيل على الإنسان أن يوفق في خدمة سيديْن. فإن قلتم لا بل هذا ممكن، فلماذا تقولون ذلك وأحد السيديْن يأمركم أن تسلبوا حقوق الآخرين بالعنف؟ بينما يطالبك السيد الآخر أن تُجَرِّد نفسك من محبة المقتنيات، الأول يطالبك أن تكون عفيفًا، والثاني أن تكون سكيرًا مترفًا. واحد يأمرك أن تحتقر الموجودات، بينما يجذبك الآخر إلى الأمور الحاضرة.

واحد يأمرك أن تحتقر المصنوعات الرخامية والحوائط والأسقف، والآخر أن تُعجب بها. فكيف لهذيْن الاثنيْن أن يتفقا؟

إنه يدعو هنا مال الظلم بالسيد، لا بسبب طبيعة المال، بل بسبب تعاسة الذين ينحنون أسفله. وهكذا أيضًا يدعو البطن إلهًا (في ٣: ١٩)، ليس بسبب كرامة هذا العضو، بل بسبب بؤس المستعبدين للبطون والأكل. وهو أمر أسوأ من أي عقاب، وهذا يكفي، أنه قبل حلول العقوبة ينهمك بطريق الانتقام. لأن حال المجرمين المدانين حال سيِّئ، الذين إذ كان الله لهم ربًا، بسبب توافه الأمور يهجرونه إلى طغيان المادة الخطير، فيجلب عملهم عليهم منتهى الأذى، هنا في الزمان الحاضر، فيعانون من القضايا والانتهاكات والمضايقات والأتعاب، التي تعمي النفوس وتكون خسارتهم فائقة. والأخطر من ذلك كله، أن يفقد الإنسان البركات الثمينة، وأعظمها بركة خدمة الله.

هموم الحياة والثقة في الله

هل إن أقصينا عنا كل شيء، يمكننا أن نعيش؟

٣. بعد أن علَّم السيد الرب بكل الطرق فوائد احتقار الثروات، وكيفية حفظها بشكلٍ جيدٍ، واكتساب صفة ضبط النفس للمسرة والمداومة على الصلاح، يتقدم لتأسيس الجانب العملي للوصية. إذ أنها تخص أفضل تشريع، ليس فقط فيما يتصل بما هو نافع، بل أن يجعله أيضًا ممكنًا. لهذا يقول: **"لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون"**. لئلا يقول قائل: ماذا إذن؟ هل إن أقصينا عنا كل شيء، يمكننا أن نعيش؟

للرب وقفة مع هذا الاعتراض تأتي في حينها، إذ يقول منذ البداية "لا تهتموا". وقد تبدو الكلمة ثقيلة بعض الشيء، لكنه من المؤكد أوضح سوء التدبير الناجم عن الجشع، فجاءت نصائحه بعد أن جعل أمر استقبالها سهلاً، لهذا لم يقل: "لا تهتموا" فحسب بل أضاف المسبب في أمره هذا. وبعد أن قال: "لا تقدروا أن تخدموا الله والمال"، أضاف "لذلك أقول لكم، لا تهتموا لحياتكم". فلماذا يطلب ذلك؟ لأن الخسارة لا تُوصف، والثروة لا تلحق بكم الأذى فحسب، بل إن جرمها يصيب أكثر الأجزاء حيوية، وتعطل خلاصكم، إذ تطرحكم بعيدًا عن الله خالقكم والمعتني بكم والذي يحبكم. لهذا أقول: "لا تهتموا".

بعد كشفه لفداحة الضرر الذي لا يُمكن وصفه، يجعل الوصية أكثر صرامة. فهو لا يأمرنا فقط أن نطرح ما نملكه، بل يمنعنا حتى أن نهتم بالطعام الضروري، قائلاً: "لا تهتموا لحياتكم ولنفوسكم، بما تأكلون". ليس لأن النفس الحية لا تحتاج إلى طعام، فهي نفس غير جسدانية، بل يتكلم وفقًا للعادة الشائعة؛ فعلى الرغم من عدم احتياجها للأكل، لا يمكنها البقاء في جسد لا يتغذى بالطعام.

والسيد لا يضع الأمر هكذا ببساطة، بل يناقشه بعدة طرق، بعضها وفقًا لما ذكرنا قبلاً، وبعضها من أمثلة أخرى، مما هو لدينا بالفعل. فيقول "**أليست النفس (الحياة) أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس؟**" [ع ٢٥]. فالذي يعطينا الأعظم، ألا يهبنا الأقل أيضًا؟ والذي خلق الجسد ليأكل، كيف لا يمنحنا الطعام؟ لهذا لم يقل هكذا ببساطة: "لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون" أو "بما تلبسون"، بل قال "لأجسادكم ولحياتكم"، على أساس أنه قصد عرض النماذج بأسلوب المقارنة. فالنفس التي أعطاها مرة وإلى الأبد في الجسد، والتي تبقى كما هي، رغم ازدياد الجسد يوميًا لهذا حين يشير السيد الرب إلى هذيْن الشيئيْن، أيّ إلى **خلود النفس وضعف الجسد**، يربط بينهما قائلاً: "**ومن منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعًا واحدة**" (مت ٦: ٢٧).

هكذا لا يذكر شيئًا عن النفس، لأنها لا تزيد في القامة، بل يتحدث عن الجسد فقط، موضحًا هذه النقطة أيضًا، أن الطعام وحده لا يزيد من حجم الجسد، بل هي عناية الله التي تفعل ذلك. هذا يوضحه القديس بولس الرسول بطرق أخرى قائلاً: "إذ ليس الغارس شيئًا ولا الساقي، بل الله الذي ينمي" (١ كو ٣: ٧). ومما توفر لدينا هنا، نراه يحثنا بهذه الطريقة، وأيضًا بواسطة أمثلة أخرى: "**انظروا إلى طيور السماء**" [ع ٢٦].

ولئلا يعترض أحد، نحن نفعل حسنًا باهتماماتنا بتلك الأمور، فإن السيد يثنيهم بالعدول عن أفعالهم، تارة بما أعظم وتارة بما هو أدنى. فبالأعظم أيّ النفس والجسد، بالأدنى: أيّ الطيور.

لأنه **إن كان يهتم أولاً بالأدنى جدًا من الأشياء اهتمامًا كبيرًا، فلماذا بالأكثر لا يهتم بالأعظم؟** مثلما يقول، وعلى نفس المنوال يتحدث إلى الجموع الغفيرة. لكن لم يكن الأمر هكذا مع الشيطان: كيف؟ "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله" (مت ٤: ٤). لكن هنا يذكر الطيور ويريد بها أن يخجلهم، وهو أمر في غاية الأهمية كأسلوب تحذير.

لماذا صمت عن موسى وإيليا ويوحنا وتحدث عن طيور السماء؟

٤. ومع ذلك، فقد وقع بعض غير الأتقياء في حفرة جنون عميقة جدًا، فراحوا يهاجمون الأمثلة التي جاء بها السيد الرب! زاعمين أنها لا تصلح كمبدأ لتقويم الأخلاق ودعمها، إذ يستخدم - حسب مزاعمهم - مزايا طبيعية كمحفزات لهذا الغرض. ثم يضيفون قائلين: إن هذه الأمور تخص الحيوانات بالطبيعة فما ردنا على مثل هؤلاء.

حتى وإن كانت هذه الأمور تخصهم بالطبيعة، فمن المحتمل أيضًا أننا يمكن أن نكتسبها بالاختيار، لأن الرب لم يقل: "انظروا كيف تطير الطيور" وهو أمر مستحيل على الإنسان أن يفعله... لهذا يليق بنا أن نعجب باهتمام خالقنا واضع الناموس أشد الإعجاب. إذ أنه بدلاً من أن يأتي بأمثلة من بين البشر، وبينما كان ينبغي عليه أن يتحدث عن موسى وإيليا ويوحنا، وآخرين مثلهم لم يهتموا بشيء- ليؤثر في السامعين بسرعة - فإنه يذكر الكائنات غير العاقلة، لأنه لو كان قد تكلم عن أولئك الأبرار، لاستطاعوا أن يقولوا "لم نصر مثلهم بعد". لكن إذ يُعَبِّر عنهم في صمت، ويتحدث عن طيور السماء والهواء، فقد فوت عليهم كل حذر، مقتديًا بالناموس القديم. أجل فإن العهد القديم بالمثل يبعث بنصائحه إلى النحل والنمل" (أم ٦: ٦-٨ *LXX*). وإلى السلحفاة والعصفور (السنونةُ) (إر ٨: ٧)، وليس في هذا أية علامة دالة على تدني الكرامة. ونحن باختيارنا نستطيع أن ننجز نفس الأمور التي تفعلها تلك الحيوانات بالطبيعة. فإن كان الرب يهتم بكائنات موجودة لأجلنا، فهو يهتم بالأكثر بنا. وإن كان يهتم بالعبيد، فأيضًا بالأحرار. لهذا يقول: "**وانظروا إلى طيور السماء**"، ولم يقل: لأنها لا ترتبك بأمور الحياة، ولا تقيم أسواقًا للتجارة، لأنه من البديهي لا يحدث هذا. لكن ماذا قال؟ إنها لا تزرع ولا تحصد.

ورُبّ قائل: ماذا إذن، ألا يجب علينا نحن أن نزرع؟ لم يقل ذلك. **ولا يحبنا أن نمتنع عن الزراعة، بل أن نمتنع عن الاهتمام. وهذا لا يعني أن نكف عن العمل، بل أن يكف المرء عن ضيق الأفق ويربك نفسه بالهموم.** لأنه يأمرنا أيضًا أن نأكل، لكن دون "أن نهتم"، وداود أيضًا منذ القديم يقول بشكل سري: "تفتح يدك فتُشبع كل حي رضًى" (مز ١٤٥: ١٦). وأيضًا: "المُعطِي البهائم طعامها، ولفراخ الغربان التي تدعوه" (مز ١٤٧: ٩).

ورُبّ قائل: مَنْ إذن لم يفكر في الأمر؟ ألم تسمعوا بعدد الأبرار الذين تحدثت عنهم: ألم تروا فيهم يعقوب وقد رحل عن بيت أبيه وقد انتابه اليأس من كل شيء؟ ألم تسمعوه يصلِّي قائلاً: "أعطاني الرب خبزًا لآكُل، وثيابًا لألبس" (تك ٢٨: ٢٠). وهذا لم يكن

دور شخص مهموم، بل إنسان يبحث فقط عن الله. وهذا أيضًا ما ناله الرسل الذين ألقوا عنهم كل شيء، ولم يكونوا مهمومين. وأيضًا "الخمسة آلاف" و"الثلاثة آلاف" (أع ٤: ٤؛ ٢: ٤١).

أمثلة عملية لمن يعيشون بلا قلق

٥. لكنكم إن كنتم عند سماعكم تلك الكلمات السامية، لا تحتملون أن تحرروا أنفسكم من هذه القيود الخطيرة. لاحظوا عدم نفع هذا الأمر (القلق)، وضعوا نهاية لاهتماماتكم، إذ يقول الرب: "من منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعًا واحدة؟" (مت ٦: ٢٧).

أترون كيف يعلن عن الغامض بكل ما هو واضح ومؤكد؟ إذ يقول: بالنسبة للجسد، مهما كان اهتمامك، لن تقدر أن تضيف شيئًا. ومهما كان ما تجمعه قليلاً، ومهما جمعت من طعام، لا تعتقد أنك فاعل شيئًا. واضح إذن أن الأمر لا يتعلق باجتهادنا الدؤوب، بل بعناية الله. مهما بدا علينا أننا نشطون، فلا شيء من أعمالنا بدون عناية الله يمكنه أن يؤثر. فإن تخلَّى الله عنا، فلا اهتمام ولا قلق ولا تعب ولا أيّ شيء آخر من جانبنا يصنع شيئًا، بل الكل يزول تمامًا.

لهذا لا نفترض أن وصاياه مستحيلة، لأن كثيرين ينفذونها حسنًا، كما هي تمامًا. وإن كنت لا تعرف عنهم شيئًا، فليس هذا بعجيب. لأن إيليا أيضًا ظن أنه كان وحيدًا. لكن قيل له: "أبقيتُ لنفسي سبعة آلاف رجل" (١ مل ١٩: ١٨؛ رو ١١: ٤). ومن الظاهر الآن أن كثيرين يحيون حياة حسب الآباء الرسل مثل "الثلاثة آلاف" و"الخمسة آلاف" (أع ٢: ٤١؛ ٤: ٤). وإن كنا لا نؤمن بهذا، فليس بسبب عدم وجود من يصنعون الصلاح، بل لأننا نحن لا نصنع صلاحًا. تمامًا كما يلزم على السكير أن يصدق أن هناك أناسًا لا يتذوقون حتى الماء (وهو ما يحدث مع العديد من المتوحدين النساك بيننا).

والذي يقيم علاقات متعددة مع أكثر من امرأة، لا يصدق أنه من السهل أن يعيش الإنسان حياة البتولية. والذي يسلب خيرات الناس، لا يمكنه أن يتخلى بسهولة عن خيراته الخاصة. والذين ينصهرون يوميًا تحت قلق كثير بلا حصرٍ، يصعب عليهم قبول الأمر.

ولما كانت الحقيقة أن كثيرين بلغوا تلك الحالة، وجب علينا أن نظهر ذلك من بين أولئك، الذين مارسوا إنكار الذات حتى في جيلنا. أما بالنسبة لكم، يكفي أن تتعلموا ألا تشتهوا ما للغير، وأن الصدقة أمر طيب. وأن تعرفوا كيف تعطون ما لديكم. لأن هذه الأمور أيها الأحباء، إن كنتم تفعلونها في حينها، فإنها تنتقل بسرعة منكم إلى الآخرين.

التدرب على عدم الجشع والتقدم المستمر

٦. وفي الوقت الراهن، فلندع جانبًا إسرافنا المفرط ونحيا باعتدال، وأن نتعلم كيف نكتسب كل ما لدينا بالعمل الأمين. فالطوباوي يوحنا المعمدان أيضًا، حينما كان يتحدث إلى أولئك الذين كانوا يتعاملون بالجزية من الجنود، أمرهم "أن يكتفوا بأجورهم" (لــو ٣: ١٤). وإذا اشتاق أن يقودهم إلى ضبط النفس على مستوى آخر وأكبر، وإذ كانوا في حالة لا تسمح لهم بذلك، تحدث عن أمور أخرى أقل. لأنه لو ذكر لهم أمورًا أعلى منها، لفشلوا في تكييف أنفسهم معها، ولسقطوا عن إكمال الأصعب. ولهذا السبب عينه، فإننا ندربكم على الواجبـــات الأدنى.

نعم، لأننا نعلم أن الحِمل الطوعي ثقيل عليكم جدًا في الوقت الراهن، وليست السماء بعيدة عن الأرض، مثلما أنتم بعيدون عن إنكار الذات. فنتمسك إذن ولو بالوصايا الأقل. لأن في التمسك بها تشجيع ليس بالقليل. فإن البعض، حتى من بين الأمم قد أتموا ذلك، وإن كانوا بغير الروح اللائق، وقد تجردوا من كل ممتلكاتهم. ومع ذلك، نحن قانعون فـــي حـــالتكم إن أعطيتم صدقاتكم بسخاء، سرعان ما تتجزون باقي الواجبات الأخرى أيضًا، إن كنا نتقدم في هذا الطريق.

لكن إن كنا لم نحقق شيئًا يذكر بعد، فأية نعمة نستحقها؟ نحن الذين يحثنا أن نتفوق على شعب الناموس القديم. ومع ذلك نظهر أدنى من الفلاسفة بين الأمم.

ماذا نقول، إذ نحن ملزمون أن نكون ملائكة وأبنـــاء الله. لا نقدر حتى أن نظـــل على حالنا كبشر؟ لأن إفسادنا للحال، واشتهاءنا ما للغير لا يصدران عن رقة البشر، بل عن عنف الحيوانات المفترسة، بل أن مغتصبي حقوق جيرانهم لهم أسوأ حالاً مـــن الحيوانـــات الضارية. لأن الحيوان المتوحش يفعل ذلك بدافع طبيعته، لكننا ونحن المكرمين بالعقـــل، إذ ننحرف عن هذه الوحشية غير الطبيعية، لا ننال مغفرة أبدية.

فلنهتم بمعايير هذا الإرشاد الموضوع أمامنا، وعلى الأقل نصل إلى حالة وســـط، فننجو من العقاب الآتي، ونتقدم بانتظام لنبلغ منتهى قمم الصالحات، التي نصل إليها بنعمـــة ومحبة البشر اللواتي لربنا يسوع المسيح الذي له المجد والسلطان إلى أبد الآبدين. آمين.

العظة الثانية والعشرون

احتياجات الحياة والعناية الإلهية

يحررنا حتى من التعب

"تأملوا زنابق الحقلِ، كيف تَنموُ. لا تتعبُ ولا تغزلُ، ولكن أقُولُ لكم إنه ولا سُليمانُ في كل مجده كان يلبسُ كواحدةٍ منها" [ع ٢٨- ٢٩].

١. بعد أن تحدث عن طعامنا الضروري، وبعد أن أشار إلى وجوب عدم الاهتمام حتى بهذا الأكل، ينتقل إلى ما هو أسهل، لأن الملبس ليس ضروريا كالطعام، فلماذا لم يستخدم هنا نفس المثال عن الطيور؟ ولم يذكر الطاووس والإوز والغنم. لأنه من المؤكد أن هناك أمثلة عديدة يستقى منها، لأنه سيوسع من دائرة النقاش بطريقتين: أحداهما بتفاهة الأشياء التي تشترك معًا في هذا الجمال الظاهري. ومن الأناقة التي يسبغها الله على الزنابق من حيث بهائها. لهذا السبب وبعد ذكره إياها، لا يسميها بالزنابق، بل "عشب الحقل" (مت ٦: ٣١). بل لم يكتف بهذا الاسم، بل يوضح أيضًا مدى خستها بقوله: "**الذي يوجد اليوم**" ولم يقل: "ولا يوجد غدًا" بل ما هو أكثر رخصًا، "**ويطرح غدًا في التنور**". ولم يقل "يلبسه" بل "يلبسه... هكذا". أرأيتم كيف يكثر الرب من التأكيدات والتركيز في كل مكان؟ وهو يفعل ذلك ليلمس شغف قلوبهم، ولهذا أضاف "**أفليس بالحري جدًا يلبسكم أنتم**" (مت ٦: ٣٠) ويظهر التأكيد من قوة اللفظة "أنتم" موضحًا أنه ما من جنس آخر قد أضفى عليه هذه العطية العظيمة بسخاء ووهبه هذا القدر من الاهتمام.

وكأنه يقول: "أنتم الذين أعطاكم الله نفسًا، وشكّل لكم جسدًا"، الذين من أجلهم خلق كل الأشياء المنظورة، الذين من أجلهم أرسل الأنبياء ومنح الناموس، وصنع تلك الأعمال الصالحة الغير معدودة، الذين من أجلهم بذل ابنه المولود الوحيد، وبعد أن أوضح برهانه جيدًا، يبدأ السيد في توبيخهم قائلاً: "يا قليلي الإيمان"؛ إذ أن هذه هي صفة الناصح، أنه لا ينصح فقط بل يوبخ أيضًا، لكي ينبه الناس أكثر إلى القوة المقنعة لكلماته.

بموجب هذا فإنه لا يُعلِّمنا فقط ألا نهتم، بل ألا ننبهر أيضًا بالمظاهر لملابس الناس النفيسة، وينبههم إلى جمال العشب الظاهري، والرونق الأخاذ للعشب الأخضر، أو بالحري

أن العشب وهو أكثر قيمة من تلك المظاهر، فلماذا تتفاخرون بأشياء ينعم النبات بأجمل منها في مظهره الباهر.

انظروا كيف يستهل درسه بالإشارة إلى سهولة الأمر، بواسطة الأضداد أيضًا وتارة بواسطة أمورٍ كانوا يخشونها؛ لإبعادهم عن مثل هذه الهموم. حين قال "تأملوا زنابق الحقل"، ثم أضاف "لا تتعب"، **ورغبة منه أن يحررنا حتى من التعب. فالتعب في الحقيقة لا يكمن في عدم التفكير بل في الاهتمام بهذه الأشياء.** ومثلما يقول "لا تزرع" ليس بغرض التخلُّص من الزرع، بل التخلص من الاهتمام القلق. وكما في قوله "لا تتعب ولا تغزل"، لا يضع حدًا للعمل بل ينهي عن الاهتمام.

فاقت الزنابق سليمان بجمالها ونافسته

لقد فاق جمال الزنابق سليمان لا مرة ولا مرتيْن، بل طوال مدة حكمه، لأنه ما من أحد يقدر أن يقول إنه قد لبس كواحدة منها ذات مرة، ثم صار بعدها بدونه. ولا حدث أن الرب قد أظهره هكذا في جمال فائق ذات مرة، لأنه يقول عنه "في كل مجده أو في كل حكمه"، هكذا فاقت الزنبقة كل جمال سليمان بل ونافسته. لهذا قال عنها "كواحدة منها". لأن هذا هو الفارق بين الحق والباطل، ولهذا كان الفارق شاسعًا بين تلك الملابس وهذه الزهور.

فإن كان سليمان قد أقر بأنه أدنى رتبة، مع أنه كان أكثر مجدًا من كل ملوك الأرض أبد الدهر. فكيف يتسنى لكم التفوق أو بالحري الاقتراب ولو بقدر ضئيل من كمال الشكل في هذه الزخارف؟

بعد هذا يعلمنا ألا نسعى أبدًا إلى زخرفةٍ مثل هذه على الإطلاق. انظروا على الأقل غايته من هذا الإرشاد أن تنتظر إلى النهاية. فإن هذه الزهور الباهرة الجمال "تُطرح في التنور". فإن كان الله قد أظهر عناية فائقة جدًا بأشياء وضيعة عديمة النفع والقيمة، فكيف لا يهتم بكم أنتم أكثر من كل المخلوقات الأخرى؟ وما السبب أنه يخلقها بهذا الجمال؟ أليس ليُظهر مدى حكمته، وامتياز قدرته، لنتعلم ونعرف مجده في كل شيءٍ. أو ليست السماوات "تحدث بمجد الله" (مز ١٩: ١) والأرض أيضًا. هذا ما أعلنه داود المُرَنِّم حين قال: "سبحي الرب أيتها الأشجار المثمرة وكل الأرز" (مز ١٤٨: ٩). لأن البعض بثمارها، والبعض الآخر بعظمتها، والبعض بجمالها، يرسلون التسبيح إلى الذي صنعهم. وتلك أيضًا علامة على الامتياز الفائق للحكمة، أنه حتى مع الأشياء التافهة جدًا (وهل هناك ما هو أتفه من شيء يوجد اليوم

ويزول غدًا؟) فإن الله يسكب جمالاً باهرًا كهذا. فإن كان قد أعطى العشب ما لا يحتاجه (لأنه ما فائدة الجمال في إشعال النيران؟) كيف لا يعطيكم أنتم ما تحتاجونه؟ إن كان قد أضفى الله هذا الرونق الرائع على أكثر الأشياء تفاهة، ولم يفعل ذلك لاحتياج تلك الأشياء لهذا الرونق، بل لسخائه، فكيف بالحري يكرمكم وأنتم أكرم المخلوقات في أموركم الضرورية؟

لماذا ينسب للآب كل شيءٍ؟

٢. وكما ترون، وبعد أن أظهر عظمة العناية الإلهية، تجاه الخليقة كلها، ووبخهم في الأمور التي تلي هذا التعليم، فإنه لم يلقِ على عاتقهم ومسئوليتهم انعدام الإيمان، بل قلَّته قائلاً: "**إن كان الله هكذا قد ألبس عشب الحقل، فكم بالحري أنتم يا قليلي الإيمان؟**" (مت ٦: ٣٠).

ويقينًا فإنه هو نفسه يفعل كل هذه الأمور حقًا. "لأن به كان كل شيء، وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يو ١: ٣). ولكنه لا يذكر شيئًا عن نفسه في أيّ موضع، إذ يكفي في الوقت الراهن أن يدلك على قدرته الكاملة، إذ قال في كل وصية: "سمعتم أنه قيل للقدماء، وأما أنا فأقول لكم". فلا تتعجبوا إذن أنه في ظروف لاحقة أيضًا كان يحجب نفسه، أو يتحدث عن ذاته بتواضعٍ. إذ أن له في ذلك الوقت غرض واحد فقط، أن تحقق كلمته هدفها، وتثبت فيهم، ليستقبلوها بسهولة. ويبرهن في كل أوان أنه لم يكن أبدًا مضادًا لله الآب، بل له نفس فكره الواحد. وهو ما يفعله هنا أيضًا. لأنه وبالرغم من كلمات كثيرة فاه بها، لم يكف عن أن يضع أمامنا ما يجعلنا نعجب بحكمته وعنايته الإلهية، واهتمامه الرقيق اللطيف والدائم بكل شيء – الكبير منها والصغير – فحين كان يعلِّم عن أورشلِيم دعاها "مدينة الملك العظيم" (مت ٥: ٣٥). وحين ذكر السماوات، أطلق عليها أيضًا اسم "عرش الله" (مت ٥: ٣٤). وحين كان يتحدث عن تدبيره للعالم، ونسب إلى الآب كل شيء أيضًا، قائلاً: "إنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار". وعلَّمنا في الصلاة أن نقول: "للآب المُلك والقوة والمجد". وفي حديثه هنا عن العناية الإلهية، وكيف أن الآب في أدنى الأشياء وأتفهها هو أعظم الفنانين قاطبة، إذ "يُلبس عشب الحقل ويكسوه"، ولا يدعو السيد الرب هنا أباه هو، بل أباهم، لكي يوبخهم على ذات الكرامة نفسها، حتى إذا ما دعاه هو أباه، لا يعودون مُستائين منه بعد.

فإن كان الإنسان لا يهتم حتى بالضروريات، فأي صفح نستحقه، ونحن نُفتكر في أشياء باهظة الثمن أو بالحري أولئك الذين لا ينامون ليلتهم حتى يغتصبوا حاجات الآخرين؟

لنسمُ فوق الأمم!

٣. **"فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس، فإن هذه كلها تطلبها الأمم"** (مت ٦: ٣٢). أترون كيف يُخجلهم من جديد، ويُظهر أنه لم يأمرهم بشيء مرهق أو ثقيل، لذلك عندما قال: "إن أحببتهم الذين يحبونكم، فأي أجر لكم، أليس العشارون أيضًا يفعلون ذلك؟ أو ليس الأمم يفعلون ذلك؟" وهو يحثهم هنا على شيء أعظم، وهكذا يدفعهم للأمام ويوبخهم مشيرًا أن ما يطلبه منا هو دَيْن ضروري. لأننا إن كان من المحتم علينا أن نسلك أفضل من الكتبة والفريسيين. فما الذي نستحقه إن كنا لا نتجاوز هذا القدر، بل نقبع على حال الأمم المتردية، ونحاكي صغر نفوسهم؟

لم يقف الرب عند حد التوبيخ، بل إثارة الهمم بهذا الأسلوب. وهو يُخجلهم بقوة التعبير لأنه في موضع آخر يعود فيعزيهم قائلاً: "أبوكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها"، ولم يقل "الله يعلم" بل "أبوكم السماوي يعلم"، ليقودهم إلى الرجاء الأعظم فيه. **لأنه هو الأب وأب كهذا، فإنه لن يتوانى عن الاهتمام بأولاده أبدًا،** في شدة الشرور، مُظهِرًا أنه حتى البشر وهم آباء لا يحتملون أن يفعلوا بأبنائهم هذا.

الله الذي يهتم حتى بالكماليات أما يهتم بالضروريات لأولاده؟

ويضيف بُعدًا آخر للنقاش هنا؛ أنهم **يحتاجون إلى هذه كلها**. فهذه الأشياء ليست من الكماليات التي لا لزوم لها، حتى لا يهتم بها. فإن كان في الأشياء قليلة الشأن يهتم جدًا، كما في حال العشب، فكم في هذه الأشياء التي تبدو ضرورية. فما تحسبونه موضع اهتمامكم، هذا فيه الكفاية أن يبعدكم عن هذا الاهتمام. فإن كنتم تقولون يجب علينا التفكير والاهتمام بهذه الأشياء الضرورية، أقول: على العكس: كلا. لأنه لأنها ضرورية لا تهتموا. لأنها لو كانت تافهة لا لزوم لها، ما وجب علينا حتى أن نيأس، بل أن نشعر بالثقة لنوالها. ولكن إذ نتحدث عن أشياء ضرورية، فلا يجب بعد أن نشك في أمر الحصول عليها، لأنه ما من أب يفشل في إعطاء أولاده ما يحتاجون إليه من ضروريات.

من المؤكد أن الله يعطيهم أيضًا احتياجاتهم، لأنه خالق طبيعتنا، الذي يعرف تمامًا احتياجاتنا. لهذا لا يمكنكم القول: "هو في الحقيقة أبونا، والأشياء التي نطلبها ضرورية، لكنه لا يعرف أننا نحتاج إليها!" لأن الذي يعرف طبيعتنا ذاتها لأنه جابلها، وقد خلقها على ما هي عليه، بالتأكيد يعرف احتياجاتها أيضًا أفضل منكم أنتم المحتاجون إلى ما يلزمها. إذ أصبحت

طبيعتنا بموجب قانونه هو في مثل هذا الاحتياج، لهذا لا يناقض نفسه فيما أراده، فيعرضها للضرورة والاحتياج. فلا يحرمها من حاجاتها الضرورية والملحة.

يعطينا احتياجات طبيعتنا التي خلقها بالأكثر حين لا نهتم

لهذا، دعنا لا نهتم، لأننا لن ننال شيئًا من جراء هذا الاهتمام. بل نعذب أنفسنا، لأنه يعطينا، سواء كنا نهتم أو لا نهتم، **وبالأكثر حين لا نهتم.** فما الذي نربحه من قلقنا غير عقوبة لا لزوم لها. لأن المرء حين يذهب إلى حفل بهيج زافر بالأطايب، لا يهتم ولا ينشغل بالطعام. والذي يسير نحو نبع ماء لا يقلق من جهة الشُرب. لهذا إذ نرى أن لنا وفرة أكثر سخاءً من أيّ شبع أو من أيّ ولائم بغير حصرٍ، مجهزة قبلاً، وهي **العناية الإلهية.** فلماذا نصير متسولين ضيقي الأفق؟

اطلبوا أولاً ملكُوت الله وبرّه

٤. مع ما قاله الرب قبلاً، يضع لنا سببًا آخر للشعور بالثقة حيال هذه الأمور قائلاً: "**اطلبوا أولاً ملكُوت الله وبرَّه، وهذه كُلها تُزادُ لكُم**" (مت ٦: ٣٣). هكذا حين حرر النفس من الاهتمام والقلق ذكر السماء، لأنه في الحقيقة قد جاء ليخلصنا من الأمور العتيقة، ويدعونا إلى وطنٍ أعظمٍ. لهذا فإنه يفعل كل شيءٍ ليحررنا من الأمور غير الضرورية، ومن عاطفتنا تجاه الأرض. لهذا يذكر الأمم أيضًا قائلاً: "**إن الأمم تطلب هذه الأشياء**"، فهم الذين يتركز كل عملهم في الزمان الحاضر، والذين لا يهتمون بالأمور العتيدة، ولا بأي فكر سماوي. أما بالنسبة لكم، فهذه الأشياء ليست أساسية، بل هناك أمور أخرى أهم. لأننا لم نُولد لهذه الغاية، أن نأكل ونشرب ونلبس، ولكن لنرضي الله، وننعم بالصالحات العتيدة.

ولما كانت الأمور الأرضية هنا ثانوية في عملنا، فلتكن أيضًا ثانوية في صلواتنا. لهذا قال أيضًا: "اطلبوا أولاً ملكوت الله، وهذه كلها تُزاد لكم"، ولم يقل "تُعطَى لكم" بل "تُزاد لكم" ليعلموا أن أشياء الزمان الحاضر ليست من بين العطايا الإلهية العظيمة، إذا ما قورنت بالأشياء العتيدة. ولهذا لم يأمرنا كثيرًا أن نطلبها، بل وبينما نطلب أشياء أخرى لنثق وكأن هذه أيضًا قد زيدت على تلك.

اطلبوا إذن الأشياء العتيدة وستنالون الحاضرة أيضًا، لا تطلبوا الأشياء المنظورة، لأنكم حتمًا تنالونها، بل لا يجدر بكم أن تقتربوا إلى ربكم بمثل هذه الأشياء، أنتم الذين يجب

عليكم أن تجعلوا غيرتكم كلها واهتماماتكم لأجل البركات التي لا يُنطَق بها، فأنكم تخـزون أنفسكم جدًا باستهلاكها في أشياء وقتية.

ورُبّ قائل: "كيف يكون هذا، ألم يأمرنا أن نطلب الخبز؟" بلـى، لكنـه أضـاف "اليومي" أو "خبز هذا اليوم" أو (خبز الكفاف)، وهو نفس ما يفعلـه هنـا. فهـو لا يقـول: "لا تهتموا" بل "لا تهتموا **بالغد**"، مقدمًا لنا الحرية في نفس الوقت التي يربط فيهـا نفوسـنا بأشياء أكثر ضرورية لنا. لأنه لهذه الغاية يأمرنا ألا نطلب كأن الله يحتاج أن نُذَكِّرَه بها، بل لكي نتعلم أننا نحقق ما نحققه بمعونته هو. **وحتى نصبح بالأكثر خاصته بـصلاتنا الدائمـة لأجل هذه الأمور**. لأن الذي يمنح الأعظم، يمنح بالحري الأصغر بدرجـة أكبـر. إذ يقـول الرب: "إني لا أقول لكم لا تهتموا بهذه الفرص ولا أن تطلبوا، حتى تعـانوا مـن الـضيق، وتتجولوا هكذا عرايا، بل لكي تتوفر لكم هذه الحاجات بوفرة أعظم"، وهو أمر كمـا تـرون يناسب قبل كل شيء أمر انجذابهم إليه.

ومثلما يحدث مع الصدقة. حين كان يمنعهم أن يتباهوا أمام الناس، يـأمرهم هنـا أساسًا، ويعدهم بأن يعطيهم حاجاتهم بحرية أوفر، إذ يقول: "لأن أباكم الذي يرى في الخفـاء هو يجازيكم علانية" (مت ٦: ٤). هكذا هنا أيضًا إذ يبعدهم عن طلب هذه الأشياء، يعدهم أن يعطيهم حتى لو لم يطلبوا، وبفيضٍ أوفرٍ. لهذا يقول إنه لهذه الغاية يأمركم ألا تطلبـوا وألا تأخذوا بأسلوبكم أنتم. فأنتم حين تقلقون حيال العطايا، تجعلون أنفسكم غير مـستحقين لهـا ولا للأمور الأخرى الروحية، فيكون قلقكم بلا مبرر وتحرمون أنفسكم من المتاح أمامكم.

يكفي اليوم شره

٥. "**فلا تهتموا للغد، يكفي اليوم شره**" (مت ٥: ٣٤)، أيّ يكفي الضيق والألم. ألا يكفيكم هذا، أن تأكلوا خبزكم بعرق الجبين؟ فلماذا تضيفون مزيدًا من الضيق بسبب القلـق، وأنتم على وشك الخلاص من متاعب سابقة؟

والرب يعني هنا بكلمة "**شر**" لا الشر بمعناه الحرفي، حاشا، بل **الضيق والألـم** - وهما شر- والمتاعب والقلاقل، وكما يقول في موضع آخر: "هل هناك شر فـي المدينـة، والرب لم يفعله؟" (عا ٣: ٦). وهو لا يعني أبدًا السلب والنهب والضرر - ولا أيّ شيء من كل هذا - بل الضربات التي يسمح بها الله من فوق. ويقول أيضًا: "أنا صانع سلام، وخـالق الشر" (إش ١٤: ٧). وهو هنا لا يعني الشرور حرفيًا، بل المجاعات والضربات، وهي أمور

يحسبها الناس شرًا. وللتعميم نطلق نحن عليها كلها شرورًا. فمثلاً كهنة وأنبياء هذه الضربات الخمس حين وضعوا النير على رقاب الأبقار، ودعوها تمضي بدون العجول (١ صم ٦: ٩) أطلقوا كلمة الشر على الضربات المُرسَلة من السماء، وعلى ما نتج عنها من عذاب وفــزع. هذا إذن هو ما يعنيه هنا أيضًا، حين يقول: "يكفي اليوم شره". **لأنه ما من شيءٍ يؤلم النفس مثل الاهتمام والقلق.** ولهذا قال القديس بولس الرسول حين كان يحث على البتولية وأشــار عليهم بالنصح: "أريدكم أن تكونوا بلا همٍ" (١ كو ٧: ٣٢).

لكن حين يقول الرب "الغد يهتم بنفسه"، لا يقولها كأن اليوم يهتم بهذه الأمور، بــل على اعتبار أنه يتحدث إلى أناس غير كاملين يريدون أن يجعلوا قوله أكثر تعبيرًا. لهذا يجعل من الزمن شخصًا للتعميم، وهو هنا ينصح بحقٍ، وحين يتقدَّم في حديثه ويشرع كلامه ليصبح قانونًا، يقول: "لا تقتنوا ذهبًا ولا فضة ولا مزودًا للطريق" (مت ١٠: ٩-١٠) مظهــرًا كــل الحق في أعماله، وبعد أن يقدم لهم الوصية الفعلية بشكل أكثر تحديدًا، تصبح الوصية أيــضًا أكثر سهولة في قبولها، وقد وثقها بأعماله الذاتية كما في سابقاها، فأين إذن كان قد وثق هذه الأقوال بأعماله؟

اسمعوه يقول: "ليس لابن الإنسان أين يسند رأسه" (مت ٨: ٢٠) ولا يكتفي بهذا، بل يظهر في تلاميذه أيضًا الدليل الكامل على هذه الأمور، إذ يشكلهم كما هو أيــضًا – وعلــى نفس النمط – ولا يجعلهم معوزين شيئًا. لكن لاحظوا اهتمامه الرقيق، وكيف تفوق عواطفه عواطف أيّ أب، إذ يقول: أوصيكم بهذا، لا لشيءٍ آخر سوى أن أحرركم من أية اهتمامات زائدة. لأنه إن فكرتم اليوم في الغد، عليكم أيضًا أن تفكروا مرة أخرى فــي الغــد. لمــاذا تهتمون بما هو أكثر وفوق الطاقة؟ ولماذا تلزمون اليوم بأكثر من ضيقه الخاص به فتضيفون إليه ضيقًا أكثر خاصًا باليوم التالي، وبهذا لا تتوفر لكم الفرصة للتخفيف عن اليــوم الآخــر بمجرد الإضافة التي تصنعونها، إنما تتراكم عليكم المتاعب الزائــدة بــسبب الجــشع. إنــه (المسيح) هنا يجعل الزمن حيًا ويصفه ككائنٍ مضرور، ويعجب لعدم اكتراثهم، قــائلاً لهــم: لماذا قبلتم اليوم لتهتموا بما فيه من أمور، ولأي سبب تضيفون إليه أمور يوم آخر ألا تكفي متاعب اليوم؟ أتوسل إليكم الآن، لماذا تجعلون اليوم أثقل وأصعب؟ حــين يقــول واضــع الناموس هذه الأمور الآن وهو دياننا، فكِّروا في الرجاء الموضوع أمامنا، وهو رجاء طيب، والرب يشهد بنفسه أن هذه الحياة بائسة ومرهقة. حتى أن الاهتمام بيومٍ واحدٍ يمكن أن يلحق بنا الأذى والضيق.

للتأجيل عزاؤه

٦. مع ذلك، فإنه بعد عدة كلمات شديدة، لا نزال نهتم بهذه الأمور، ولم نعد نهتم بأمور السماء، بل عكَسنا ترتيب الله، فنقاوم أقواله في كل مرة. لاحظوا كيف يقول: "لا تهتموا بالأمور الحاضرة"، لكننا نهتم بها إلى الأبد. وحين يقول: "اهتموا بالسماويات"، لا نطلبها نحن ولو لساعةٍ واحدةٍ، بل لشدة اهتمامنا بأمور العالم نهمل الأمور الروحية، وهي الأعظم بما لا يقاس. لكن هذا الانتعاش لا يدوم أبدًا إلى الأبد، ولا يمكنه أن يدوم أبدًا. فماذا لو احتقرنا كلامه لعشرة أيام؟ أو عشرين يومًا؟ أو مئة؟ ألا نقع في غير الضروري وقوعًا بالغًا، فنسقط بين يدي الديَّان؟

لكن للتأجيل عزاؤه. أيّ نوع من العزاء والراحة؟ هل ننتظر العقاب والانتقام يوميًا؟

فإن كان لكم بعض العزاء بسبب التأجيل، فاستثمروه في تجميع ثمار تغييركم بالتوبة. طالما أن مجرد التأجيل للانتقام قد يبدو لكم نوعًا من الإنعاش! فإن تجنُب الانتقام هو المكسب! إذن فلنوظف هذا التأجيل أعظم توظيف، ليكون خلاصنا كاملاً من المخاطر المحدقة بنا، فلا شيء مما يحيط بنا يبدو ثقيلاً أو خطيرًا. كلها أمور سهلة وهينة جدًا، إن كان هدف القلب أصيلاً. عندئذٍ يمكن لنا أن نحقق كل شيءٍ، حتى إن كنا مثقَّلين بعيوب عدة.

لأنه هكذا فعل منسَّى الكثير من الآثام، فألقى الأيادي على القديسين، ودنس الهيكل، وملأ المدينة قتلاً، وارتكب حماقات تفوق الوصف. ورغم شره المستطير، غسل عن نفسه كل هذه الخطايا (٢ أي ٣٣: ١-٢٠؛ ٢ مل ٢١: ١-١٨)، كيف؟ بالتوبة والاهتمام بالتغيير. **فما من خطية، أجل أقول ما من خطية، لا تخضع لقوة التوبة وتأثيرها، أو بالحري لنعمة المسيح.** لأننا إن أردنا التغيير فعلاً، علينا أن نستعين بالسيد المسيح. وإن رغبتم في الصلاح، فلا شيء يعوقكم، ولا أحد يمنعكم، حتى الشيطان ليس لديه قوة عليكم. طالما اخترتم الأفضل، واجتذبتم الله لعونكم. لكن إن لم تريدوا ذلك بأنفسكم، بل تحاشيتم الأمر، فكيف يحميكم؟ لأنه ليس عن ضرورة ولا عن إلزامٍ، بل بمحض إرادتكم الذاتية يريد أن يخلصكم.

لأنه إن كان عندكم خادم يمتلئ قلبه بالكراهية والحقد نحوكم؛ يخالفكم على الدوام، ويهرب منكم، فإنكم لا ترغبون بعد في الاحتفاظ به، رغم احتياجكم لخدماته، أفلا يفعل الله ذلك؟ وهو الذي يفعل كل شيء، لا لصالحه هو، بل لخلاصكم. أيختار أن يحجزكم بالقهر؟

فإن أظهرتم من جهة أخرى نية صادقة فقط، لا يريد الله أبدًا منعكم من التوبة، مهما حاول الشيطان مقاومتكم والوقوف ضدكم.

إذن نحن الملامون إن دمرنا أنفسنا؛ لأننا لم نقترب إليه ولم نسع، ولم نتوسل إليه كما ينبغي. لكن رغم أننا نقترب، فإننا لا نفعل ذلك كأشخاص يحتاجون إلى القبول، وليس بإيمان صحيح، وليس كمن يحتاج فيطلب، بل نفعل ذلك كله بتكاسلٍ وفتورٍ.

يريدنا أن نطلب

٧. الله يريدنا أن نطلب منه احتياجاتنا. ولهذا يعتبر نفسه في علاقة عظيمة معكم؛ لأنه وحده من بين كل المدينين يعتبر الدين نعمة، ويعطينا ما لم نقرضه له. وإن ألح أحد على الطلب، يعطيه حتى ما لم يأخذه منه. لكن إن كان الطلب في بلادةٍ وفتورٍ، فإنه هو أيضًا يظل يؤجل الاستجابة مرة تلو الأخرى، لا بسبب عدم مشيته في العطاء، بل لمسرته يريدنا أن نكرر الطلب عليه. ولهذا يخبركم بمثال الصديق الذي جاء ليلاً وطلب رغيف خبز (لو ١١: ٥-٨)، والقاضي الذي لم يكن يخشى الله ولا يضع اعتبارًا للناس (لو ١٨: ١-٨). لم يقل الرب ذلك على سبيل المثال، بل فعل ذلك عمليًا، حينما صرف المرأة الكنعانية بعد أن ملأها بنعمته العظيمة (مت ١٥: ٢١-٢٨؛ مر ٧: ٢٤-٣٠). فبواسطتها أظهر لنا أنه يعطي من يسأله في جدية، حتى الأشياء التي لا تخصهم. إذ قال لها قبلاً: "لا يليق أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب"، لكنه أعطاها كل ما سألته، لأنها طلبت منه بإلحاح.

لكنه أظهر بواسطة اليهود غير المبالين، أنه لا يعطيهم حتى ما يخصهم، ولذلك لم يأخذوا منه شيئًا، بل فقدوا كل مالهم. وبينما لا يسألونه شيئًا، لا يأخذون حتى ما يخصهم أيضًا، أما الكنعانية فلأنها ألحتْ عليه في جدية، صارت لها قوة الحصول على ما يخص الآخرين. فنال الكلب ما للبنين.

يا لها من فرصة عظيمة طيبة؛ لأنه حتى لو كنتَ كلبًا، لكنك تداوم على الطلبة، فستنال وتُفَضَّل على الابن إن كان مهملاً، لأن ما لا تحققه مشاعر المحبة والود، يحققه الإلحاح، فلا تقل أبدًا: "الله عدوي، ولن يسمعني"، فإنه يجيب طلبتك على الفور، إن داومت على إزعاجه!

إن لم يكن بسبب أنك صديقه، فعلى الأرجح بسبب لجاجتك، ولا يمكن أن يعوق ذلك أية عداوة ولا وقت غير مناسب للطلبة ولا أيّ شيء آخر. فلا تقل: "لست مستحقًا، ولن

أصلي"، لأن المرأة الكنعانية كانت كذلك، فهي لم تقل: "لقد أخطأت كثيرًا، ولست قادرة على التوسل إلى من أغضبته". لأن الله لا ينظر إلى الاستحقاق بل إلى ميل القلب.

لأنه إن كان القاضي الذي لا يخشى الله ولا يخجل من الناس، قد غلبته أرملة، فكم بالأحرى الصالح. وكيف لا نكسب مراحمه بلجاجتنا في التوسل. حتى إن لم تكن صديقًا، وحتى إن لم تطلب في حينٍ حسن، وحتى إن أزعجت طبيعة الآب! وكنت بعيدًا عن الأنظار طويلاً، وبلا كرامة، وآخر الكل. حتى وإن اقتربت منه في غضبه ،وإن كنت لا ترضيه أبدًا، لكن إن أردت فقط أن تصلي وترجع إليه، تنال كل شيء وسرعان ما تطفئ الغضب الهادر والدينونة.

ورُبّ قائل: لكن أنظر، هأنذا أصلي، ولكن بلا نتيجة! فلماذا لا يصلي مثل هؤلاء؛ أعنى المرأة الكنعانية والصديق الذي جاء متأخرا ليلاً، والأرملة التي ظلت تلح باستمرار حتى ضايقت القاضي، والابن الذي أنفق كل خيرات أبيه؟

لأنه إن كنت تصلي كهؤلاء، فستنال بسرعة كل ما تريد. فبالرغم مما فعلته به، هو لا يزال أبًا، حتى إن أغضبناه، فهو لا يزال يحب أولاده، وهو يطلب شيئًا واحدًا فقط: ألا ننتقم من أعدائنا، أن يراكم تتوبون وتتوسلون إليه. فإن كنا جادين بهذا المقدار، تتحرك أحشاء محبته نحونا، لكن هذه النار تنتظر إشارة البدء فقط، فإن وفرتم لها ولو شعلة لهب صغيرة، لأوقدتم نارًا كاملة من الإنسان. لأن الله لا يثور غضبًا، حتى إن أهانه أحدنا. لكنه يغضب لأن الإهانة صادرة منك شخصيًا. لأننا ونحن أشرار، إذا أغضبنا أولادنا، نحزن بسببهم، فكم بالأحرى الله، الذي إذا ما ألحقتم به إهانة، يغضب لأجلكم، لأنكم ارتكبتم خطأ، فإن كنا نحن البشر نحب بطبيعتنا، فكم بالأكثر هو الذي تفوق محبته محبتنا وكل طبيعة أخرى. ألا يقول الرب: "إن نسيت الأم رضيعها، فأنا لا أنساكم" (إش ٤٩: ١٥).

ليس وقت غير مناسب أبدًا للاقتراب منه

٨. فلنقترب إذن منه، ونقول: "نعم يا سيد، والكلاب أيضًا تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها" (مت ١٥: ٢٧). فلنقترب إليه في وقت مناسب ووقت غير مناسب. في الحقيقة لا يقترب الإنسان إليه في وقت غير مناسب أبدًا، لأنه من غير المناسب أن نكف عن التوسل والتضرع إليه باستمرار، والاقتراب منه على الدوام. لأن الذي يريد أن يعطي دائمًا يناسبه أن نطلب ونقترب منه دومًا. ومثلما لا يكون التنفس بالأمر غير المناسب، هكذا

لا تكون الصلاة بالأمر غير المناسب، بل إن عدم الصلاة هو الأمر الذي لا يناسبنا. لأنه مثلما نحتاج إلى كل نَفَسَ في صدورنا، هكذا نحتاج أيضًا إلى المعرفة التي تأتينا من عند الله - فإن أردنا - يسهل علينا أن نجتذب الله إلينا. يوضح النبي ذلك، ويشير إلى استعداد الله الدائم لفعل الخير والإحسان بقوله: "سنجد الرب مستعدًا كالفجر" (هو ٦: ٣ *LXX*).

كلما اقتربنا إليه، نراه ينتظر تحركاتنا نحوه، وإن أخفقنا في الاقتراب من نبع صلاحه الدائم التدفق، فلا نلُمْ إلا أنفسنا. وتلك كانت شكواه من بعض اليهود حين قال: "رحمتي كسحاب الصبح، وكالندى الباكر سرعان ما يمضي" (هو ٦: ٤ *LXX*). وهو يعني: لقد فعلت في الحقيقة كل شيءٍ وكل ما في وسعي، وكشمس حارة تبزغ لكي تشتت السحاب والندى، وتجعلهما يتلاشيان، هكذا أنتم بشروركم العظيمة قد حجبتم الخير الذي لا يُنطَق به.

تلك أيضًا حالة من العناية الإلهية، أنه وهو يرانا غير مستحقين لنوال الخير يمنع إحساناته عنا، حتى لا يجعلنا كسالى غير مبالين. لكن ما أن نتغير قليلاً أو ندرك فعلاً أننا أخطأنا، فإنه يفجر فينا ينابيع صلاحه وخيره، ويغمرنا بسخاءٍ يفوق المحيط. وكلما أخذتم أكثر، كلما سُر قلبه بالأكثر. وبهذه الطريقة تتحرك أحشاء محبته ليهبنا بوفرة أكثر فأكثر، لأنه يحسب أن هذه هي خيراته الخاصة حتى نخلص.

وحتى يعطي الذين يسألونه بغنى؛ وهذا ما أعلنه الرسول بولس بقوله إن الرب: "غني لكل ولجميع الذين يدعون باسمه" (رو ١٠: ١٢). لأننا حين لا نصلي يغضب، ويبتعد عنا. ولهذا السبب "افتقر وهو غني لكي تستغنوا" (٢ كو ٨: ٩) ولهذا احتمل كل هذه الآلام القاسية لكي يحثنا على الطلبة.

فلا ندع اليأس يتملكنا، بل إذ لنا حوافز كثيرة في رجاء صالح، حتى وإن أخطأنا كل يوم، لنتقرب إليه، متوسلين، متضرعين، طالبين المغفرة من خطايانا. لأنه هكذا نبتعد عن الخطية أكثر، كلما حان الوقت العتيد الآتي، وهكذا نطرد الشيطان، ونستدعي محبة ورأفات الله، وننال بركات الدهر الآتي، بالنعمة والمحبة التي لربنا يسوع المسيح للإنسان، الذي له المجد والقوة إلى أبد الآبدين، آمين.

العظة الثالثة والعشرون

إدانة إخوتكم!

بين الإدانة وسلطان الكنيسة

١. "**لا تدينوا، لكي لا تُدانوا**" [مت ٧: ١]. ماذا إذن؟ ألا نلوم من يرتكبون الخطيئة؟ لأن القديس بولس الرسول أيضًا يقول نفس الشيء أو بالحري يتكلم المسيح أيضًا بواسطة القديس بولس قائلاً: "وأما أنت، فلماذا تدين أخاك؟ أو أنت أيضًا لماذا تزدرى بأخيك؟ ومن أنت الذي تدين عبد غيرك؟" (رو ١٤: ٤، ١٠). وأيضًا: "إذن، لا تحكموا في شيءٍ قبل الوقت، حتى يأتي الرب" (١ كو ٤: ٥). فكيف يقول في موضع آخر "وبخ، انتهر، عظ" (٢ تي ٤: ٢). و"الذين يخطئون وبخهم أمام الجميع" (١ تي ٥: ٢٠). أيضًا يقول المسيح للقديس بطرس: "إن أخطأ إليك أخوك، فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما، وإن لم يسمع، فخذ معك أيضًا واحدًا أو اثنين... وإن لم يسمع منهم فقل للكنيسة" (مت ١٨: ١٥-١٧). فكيف يعيِّن علينا كثيرين لتوبيخنا، وليس لتوبيخنا فقط، بل لعقابنا أيضًا. ومن لا يسمع لأي من هذه كلها، فإن الرب يأمر أن يكون "كوثنيٍ أو كعشارٍ" (مت ٧: ٣)؟

وكيف أعطاهم الرب المفاتيح أيضًا؟ طالما أنهم لا يحكمون على أحدٍ، فلا يكون لهم سلطان في أيّ موضوع، وعبثًا يكون لهم سلطان الحل والربط. وإن كان ذلك سيعم، فسيطيح الجميع على حد سواء في الكنيسة، أم في الدولة أم في البيوت. لأنه إن لم يدن السيد خادمه، والسيدة خادمتها، والأب ابنه، والأصدقاء بعضهم بعضًا، سيزداد الشر. ولماذا أقول الأصدقاء، فإننا حتى إن لم نحكم على أعدائنا، لن نقدر أبدًا أن نضع نهاية لعداوتهم، وسوف ينقلب كل شيء رأسًا على عقب، فما معنى هذا القول إذن؟

فلننتبه جيدًا؛ وحتى لا يحسب أيّ أحد أن أدوية الخلاص وقوانين السلام هي قوانين تشويش وفوضى... فبواسطة ما سيلي، أشار السيد إلى أولئك الذين فهموا سمو ذلك القانون بقوله: "لماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك. وأما الخشبة التي في عينك فلا تفطن لها" (مت ٧: ٣)؟

لكن إن كان الأمر يبدو غامضًا عند الكثير من غير المبالين، فإنني سأشرح الموضوع من بدايته، ففي هذا الموضع - كما يبدو لي - لم يأمرنا هكذا ببساطة ألا ندين أيّ

أحد بسبب خطاياه، ولا هو يمنعنا أن نفعل ذلك، بل بالنسبة للذين تمتلئ حياتهم بأنواع أمراض كثيرة ويدوسون الناس بتفاهاتهم. وأعتقد أن المسيح يلمح إلى بعض اليهود هنا، فهم يتهمون أقرباءهم بمرارةٍ بسبب أخطاء صغيرة. لهذا يوبخهم الرب: "يحزمون أحمالاً ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس، وهم لا يريدون أن يحركوها بإصبعهم" (مت ٢٣: ٤). وأيضًا "تُعشِّرون النعنع والشبث... وتركتم أثقل الناموس: الحق والرحمة والإيمان" (مت ٢٣: ٢٣).

حسنًا، فإنني أظن أن هذا الأمر مفهوم في توبيخه، إذ يفحصهم أولاً بخصوص هذه الأمور، وهم الذين اتهموا تلاميذه فيما بعد. ورغم أنهم لم يكونوا مذنبين، حسبوهم قد فعلوا إثمًا في عدم حفظهم السبت، والأكل بأيدٍ غير مغسولة، والجلوس مع العشارين، فقال عنهم الرب في موضعٍ آخر: "الذين يصفون عن البعوضة ويبلعون الجمل" (مت ٢٣: ٢٤). ويضع الرب هنا قانونه العام حول هذه الأمور وأيضًا بالنسبة لأهل كورنثوس (١ كو ٤: ٥). فإن القديس بولس الرسول أيضًا لم يأمرهم على الإطلاق بعدم إدانة الآخرين، بل ألا يحكموا على رؤسائهم على أسس غير مدروسة. وألا يحجموا أبدًا عن تقديم الذين يخطئون. ولم يكن يوبخ الجميع دون تمييزٍ، بل كان موضع توبيخه التلاميذ الذين يفعلون ذلك بمعلمهم والمذنبون بخطايا بغير حصرٍ، ويرددون تقريرًا شريرًا عن غير المذنبين. هذا ما كان المسيح يقصده هنا، بتوبيخه لا لمجرد التوبيخ، والذي أحاطه أيضًا بفزعٍ رهيبٍ، وبالعقوبة التي لا يمكن للصلاة أن تخلصهم منها.

لا تدن الآخرين بل دن نفسك

٢. إذ يقول الرب: **"لأنكم بالدينونة التي بها تدينون، تُدانون"** [ع ٢]. وكأن المسيح يقول ما معناه، إنك لا تدين الآخرين بل تدين نفسك، وتجعل كرسي الدينونة أمرًا مخيفًا لك وتجعل حسابك صارمًا. تمامًا كما يتم غُفران الخطايا حين نبدأ نحن في غفران خطايا الآخرين، هكذا في الدينونة أيضًا. إننا نضع معايير دينونتنا بأنفسنا. فلا يليق بنا أن نقسو على الناس وندوس عليهم بل نوبخ ولا نلعن، ننصح دون أن نقهر في تعالي، ونعامل الآخرين بلطف، لأنكم لا تُسلمون إلا أنفسكم إلى انتقامٍ شديدٍ، إذ أنكم لا تخلصون الآخر حين تحكمون على آثامه. وهاتان وصفتان سهلتان، تمنح الطائعين بركات جزيلة، كما هو الحال مع الشرور من جهة أخرى لدى غير المكترثين. لأن كل من يغفر لجاره، يحرر نفسه أولاً

من أصول الشكوى ودون أية مشقة، ومن يتعامل مع آثام الآخرين برفق ودون تباطؤ يكون غفرانه عظيمًا. وما يحكم به يُحكم به عليه.

ألا نقوِّم المخطئ؟

رُبّ قائل: وماذا بعد؟ هل إن ارتكب أحد الزنا لا نخبره أن الزنا أمر رديء، وهل لا نقومه وهو يمارس خطية مشينة كهذه؟ بلى، **نقومه، ولكن ليس كخصمٍ ولا كمعاندٍ لكم يستحق العقوبة.** تعطونه الدواء اللازم، وتعاملونه كما يعامل الطبيب المريض. لأن السيد المسيح لم يقل: "لا تمنع من يخطئ"، بل "لا تدنْهُ"، أيّ **لا تحكم عليه حُكمًا مرًا.** وكما ذكرت قبلاً، لا يقول ذلك عن الأمور العظيمة ولا الممنوعة، بل عن الأمور التي لا تحسب من بين الآثام. مثلما قال "لماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك؟" [ع ٣]

أجل، لأن كثيرين الآن يفعلون ذلك، إذا رأوا راهبًا يرتدي ملابس لا لزوم لها، يطبقون عليه قانون الرب (مت ١٠: ١٠) "لا تقتنوا... لا مزودًا للطريق ولا ثوبين..."، بينما يتباهون هم أنفسهم بمظهرهم بغير حدود، ويعيرون الناس كل يوم. وإن رأوه ولو مرة واحدة يشارك في الطعام بشهية، يتهمونه بمرارة. بينما هم أنفسهم يشربون بشراهة، ويتناولون الطعام بنهمٍ شديدٍ، غير عالمين أنهم بالإضافة إلى خطاياهم، يجمعون على أنفسهم شررًا مستطيرًا، ويحرمون أنفسهم من كل فرصة للتوسل. لأنه عند هذه المرحلة، لابد أن يسألكم بحزمٍ عن أفعالكم الخاصة. فقد نفذتم أنتم القانون أولاً بأنفسكم، وتحكمون على جاركم، فلا تتألموا إذا ما حكم عليكم أنتم أيضًا بذات الحكم.

"**يا مرائي أخرج أولاً الخشبة من عينك**" [ع ٥]. هنا تظهر مشيئته في إظهار الغضب الكبير ضدهم، فهم يفعلون الشيء ذاته، وحين يكشف لهم عن جسامة الخطية وبشاعة العقاب وشدة الغضب الموفرة لهم، يبدأ بتوبيخهم. إذ قال لمن كان يتاجر بالمئة دينار وهو غاضب: "أيها العبد الشرير، كل ذلك الدين تركته لك" (مت ١٨: ٣٢). ويقول هنا أيضًا "أيها المرائي"، لأن **المرائي لا يحكم على الآخرين بغرض حمايتهم، بل بسبب إرادته الشريرة**، وبينما يضع قناعًا من الخير على وجهه، يمارس أبشع الشرور ويصدر توبيخات بغير أساس، واتهامات تسبب انشقاقه على أقربانه، متشحًا بوشاح المُعلِّم، وهو لا يستحق حتى أن يكون تلميذًا - لهذا يدعوه الرب بالمرائي - لأنكم تبدون حرارة واضحة في انتقاد أفعال الآخرين، حتى أنكم ترصدون لهم كل شيء،

فكيف تسامحون أنفسكم؟ حتى أنكم تتغاضون عــن أفظــع الأمــور: "**أخــرجْ أولاً القــذى من عينك**".

ألا ترون أنه لا يمنع الحُكْم على الآخرين، بل يأمرنا أن نُخرج أولاً الخشبة التي في عيوننا ثم نحكم على أفعال الآخرين، إن كانت خطأ أم صواب. لأن كل إنسان في الحقيقــة يعرف أمور حياته أفضل من معرفته لأمور الآخرين، فيرى أموره الأكبر أكثر من الأقــل، ويحب نفسه أكثر من قريبه. لهذا إن كنتم تحكمون على الآخرين بدافع الوصــاية والعنايــة، فإني أنصحكم أن تهتموا بأنفسكم أولاً. فإن الخطايا عندكم أكثر وضوحًا وضخامة. لكنكم إن أهملتم نفوسكم لأصبح من المؤكد أنكم لا تنصحون إخوتكم على سبيل الرعاية بــل بــدافع الكراهية، والرغبة في التشهير بهم. لأنه ماذا لو كان من الواجــب محــاكمتهم، كــان مــن الأوجب أن يتم هذا بواسطة إنسان لا يرتكب هو هذه الحماقات، وليس بواسطتكم.

ولأن السيد الرب قد أدخل تعاليم عظيمة وسامية عن إنكار الذات، فلئلا يقول أحــد إنه من السهل ممارسة ذلك بالكلام، أراد أن يظهر ثقته الكاملة، وأنه لم يكن مثقلاً أبدًا بــأيّ من الأمور المذكورة، بل أكمل كل برّ في حين حسن، قال هذا المثال، وأنه سيدين المسكونة كلها بالعدل فيما بعد، لهذا يقول: "الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون" (مت ٢٣: ١). لم تكــن في عين (الرب) قذى ليخرجها، ولا كانت في عينه خشبة، بل ولأنه طاهر في كــل شــيء، يقوِّم أخطاء الجميع ويضبطها. لهذا يقول لنا لا يليق أن ندين الآخرين أبدًا (حين يكون المرء مثقلاً بنفس الخطايا).

ولماذا تتعجبون من تأسيسه هذا القانون، واللص نفسه قد عرفه وهو على الصليب، قائلاً للص الآخر: "ألا تخاف الله، إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه" (لو ٢٣: ٤٠-٤١)، معبــرًا عن نفس المشاعر تجاه المسيح.

لكنكم إذ تعجزون عن خلع الخشبة من عيونكم، لا ترون ذلك، بل ترون فقط القذى الذي في عين الآخر، وتدينونه أيضًا. وتحاولون أن تخلعوه. وكأن شخصًا ما قد أصيب بداء الاستسقاء الخطير، أو بأيّ مرضٍ آخر يصعب شفاؤه، فيهمل حالته ويلتفت إلى إنسان أصيب ولو بورم طفيف. ومن الشر أن يغفل الإنسان عن آثامه هو، ومن الأشر بــالأكثر أن يــدين الآخرين. بينما الدائنون أنفسهم يحملون في عيونهم أخشابًا – فما من خشبة أثقل من الخطية – لهذا حثهم الرب بهذه الكلمات. فعلى المثقلين بذنوب بلا حصر ألا يدينوا الآخــرين فــي حرارة، خاصة حين تكون خطايا الآخرين تافهة.

ولا يمنع السيد التوبيخ ولا التقويم، بل يمنع الناس من إهمال خطاياهم الشخصية مع رصد خطايا الآخرين. لأن ذلك يسبب انزلاق الناس في رذائل كبار، جالبين على أنفسهم شرورًا عظيمة مضاعفة. لأن كل من يحاول التهوين من شأن خطاياه الشخصية مهما كان عظمها، ورصد والتفتيش بمرارة عن آثام الآخرين مهما كانت قلتها وتفاهتها، ينزلق إلى طريقين:

أولاً: تهاونه في خطاياه الذاتية.

ثانيًا: إقامته عداوة وخصومة مع كل الناس، متدربًا كل يوم على قسوة القلب وعدم الشعور بالآخرين.

لنعرف متى نتكلم ومتى نصمت

٣. وإذ يقصي كل هذه الرذائل بعيدًا، بتشريعه العظيم هذا، يضيف تهمة أخرى قائلاً: "**ولا تُعطوا القُدس للكلاب، ولا تَطرحُوا دُرركم قُدَّام الخنازيرِ**" (مت ٧: ٦). وحتى لا يقال إنه قد أوصى بأن "ما تسمعونه بالآذان، نادوا به على السطوح" (مت ١٠: ٢٧). فإن هذه العبارة لا تناقض الأخرى. لأن الرب أمر أن نخبر من يجب علينا إخبارهم، وأن نحدثهم بحرية (١ كو ٢: ١٤). ويصف هنا بشكل رمزي أولئك الذين يحيون بشرٍ لا علاج له، ولا رجاء في إصلاحهم أو تغييرهم إلى الأفضل، وذلك بكلمة "**كلاب**" أما كلمة "**خنازير**" فيصف بها الذين يداومون على الحياة النجسة. وهؤلاء يقول عنهم إنهم غير مستحقين أن يسمعوا تلك الأمور.

وقد أعلن القديس بولس الرسول نفس الأمر بقوله: "الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله، لأنه عنده جهالة" (١ كو ٢: ١٤). ويقول السيد الرب في عدة مواضع أخرى إن فساد الحياة هو السبب في عدم نوال الناس لمزيد من التعاليم الكاملة. ولهذا يأمرنا ألا نفتح أبوابنا لهم، لأنهم في الحقيقة يكونون أكثر ضررًا بعد التعليم. أما بالنسبة لصاحب الميول الطيبة والذكي، فإن الأشياء تبدو وقورة جديرة بالاحترام، إذا ما انكشفت أمامه. أما عديمو الإحساس فتبدو الأمور لهم مجهولة، لأنهم بسبب طبيعتهم غير قادرين على تعلمها.

ويقول السيد: "فلنُبق الأمور مخفية، حتى يوقروها وذلك بسبب جهلهم". لأنه لا يعرف الخنزير قيمة اللؤلؤة، ولما كان لا يقدِر قيمتها، فدعونا لا نكشفها له، لئلا يدوسها بأقدامه. فالسالكون سلوكًا رديًا لا يميلون إلى سماع الأمور المقدسة. فهي بالنسبة لهم دنسة،

لأنهم يجهلون طبيعتها. وهم أكثر الناس اندفاعًا لمقاومتها والتعالي علينا، وهذا هو المقصود بعبارة "**لئلا تدوسها بأرجلها، وتلتفت فتمزقكم**".

رُبّ قائل: "كلا، بالتأكيد عليها أن تكون قوية... بقدرٍ كافٍ، بعد أن يتعلمها الناس، ولا تخضع لأناس ضدنا". لكن ما قولك في أن أولئك الناس كالخنازير مثلاً، فالدُرة حتى وإن سقطت بين الأقدام لا يليق أن تداس هكذا، فهي ليست محتقرة لأنها وقعت، بل لأنها سقطت بين خنازير. ولهذا يقول: "لئلا تلتفت وتمزقكم"، لأنها تفتقر إلى الرقة واللطف. وحتى إذا تعلمت، فإنها لا تتغير من حالٍ إلى حالٍ، بل تظل تسخر منا وتستخف بنا وتهاجمنا فهم أشخاص مخادعون. لهذا يقول القديس بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس (٢ تي ٤: ١٥) "فاحترس منه أنت أيضًا، لأنه قاوم أقوالنا جدًا". ويقول في موضع آخر: "أعرض عن هؤلاء" (٢ تي ٣: ٥) و"الرجل المبتدع، بعد الإنذار مرة ومرتين، أعرض عنه" (تي ٣: ١٠).

هكذا ترون أن الحقائق لا تمدهم بالقوة، بل يصيرون أغبياء، من تلقاء أنفسهم، ويزداد عنادهم، ويخسرون كثيرًا إذا ظلوا على جهلهم، إذ يظهرون احتقارهم الشديد، لكنهم إن تعلموا، فإن سوء التقدير بسبب جهلهم يكون أشد. لأنهم لا ينتفعون بل يتأذون بالأكثر، ويسببون لكم العديد من المتاعب.

فليسمع كل الذين يشتركون مع الجميع في هذا السلوك بغير خجل، ويحتقرون الأشياء المرهوبة الجانب. لأننا نحتفل بالأسرار والأبواب مغلقة، ونُبعِد غير المعمدين، لا لأي ضعف في طقوسنا، بل لأن الكثيرين منهم غير مهيأين بالكامل لها. ولهذا السبب ذاته يتحدث السيد إلى اليهود في أمثال: "لأن لهم عيونًا، ولا يبصرون". ولهذا أيضًا يأمر القديس بولس: "أن نعلم كيف يجب أن نجاوب كل أحد" (قارن كو ٤: ٦).

عظة عن الصلاة

المعونة تأتينا من الصلوات التي تحفظنا

٤. "**اسألوا تعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم**" [ع ٧]. لأنه بقدر ما قال الرب أشياء عظيمة وعجيبة، أمر الناس أن تكون شهواتهم سامية وقادهم إلى السماوات نفسها، وأمرهم بالجهاد لبلوغ المثال المطلوب، لا تشبُهًا بالملائكة أو رؤساء الملائكة، بل بقدر المستطاع برب الجميع نفسه. وأمر تلاميذه أن يفعلوا هذا في كل حين حسن، وأن يقوِّموا

الآخرين أيضًا، وأن يميزوا بين الأشرار والأبرار، بين الكلاب وغير الكلاب، بالرغم من أن هناك أمورًا دفينة في الناس يصعب تمييزها. وألا يقولوا إن "هذه الأمور صعبة لا أحد يحتملها"، لأن القديس بطرس كان قد قال ذات مرة في الحقيقة: "من يستطيع أن يخلص؟" (مت ١٩: ١٠، ٢٥). وقال أيضًا: "إن كان هذا هو حال الإنسان، فجيد للرجل ألا يتزوج".

ولئلا يقول أحد نفس الكلام فإن الرب يُظهِر سهولة الأمر، واصفًا لنا السبب يلي الآخر، والقدرة على إقناع الناس. وبعد هذا كله، يضيف أيضًا الأساس المطلوب والسبيل الحق لتخفيف الحمل والتعب عنا، مؤكدًا أن المعونة إنما تأتينا من الصلوات التي تحفظنا.

هكذا يقول إننا لسنا نجاهد وحدنا، بل نطلب المعونة من فوق، وستأتي بالتأكيد. وتبقى معنا تعيننا في جهادنا، وتُسَهِّل علينا كل شيء. لهذا يأمرنا أن نسأل، وجعل نفسه في محل من يعطي، ولم يأمرنا فقط أن نسأل، بل أن نطلب بكل همةٍ ونشاطٍ، فهذا هو معنى كلمة "اطلبوا". لأن من يطلب وقد نقى ذهنه من كل شيء، إنما ينشغل بما يطلبه فقط، دون أن يفكر فيمن حوله من أشخاص. فقد خسر كثيرون ذهبهم أو خدامهم، ويطلبونهم بهمةٍ. والرب يعلن عن هذا الأمر بكلمة "**اطلبوا**"، وبقوله "**اقرعوا**" يعني أن نقترب إلى الله في جديةٍ وفكرٍ متوهجٍ دون تراخٍ، ودون أن نصل من غيرتنا للفضيلة مثلما نفعل طلبًا لشهوة الغنى، لأنه حين تطلبون مثل هذه الأمور واثقين أنكم تجدونها، لهذا تسعون إليها بكل ما لديكم من همة ونشاط، لكنكم في أمور أخرى ورغم أنكم قد نلتم الوعد الصادق بنوالها، لا تظهرون أدنى جهد. فإن لم تأخذوا فورًا، لا تيأسوا لأنه لهذا الغرض قال "**اقرعوا**"، ليدلل على مداومتنا للطلبة حتى لو لم يفتح لنا الباب على الفور.

داوموا على الطلبة

٥. وإن كنتم تشكُّون في تأكيدي هذا لكم، فآمنوا على الأقل بمثله، إذ يقول: "**أم أيّ إنسان منكم إذا سأله ابنه خبزًا يعطيه حجرًا**" [ع ٩]. لأن من يداوم على الطلبة بإلحاح بين الناس، قد يحسبونه إنسانًا مزعجًا ومثيرًا للاشمئزاز. لكن مع الله، إن لم تلحوا في الطلبة، فإنكم تزعجونه بالأكثر. فلو داومتم على السؤال، ولم تأخذوا على الفور، ثقوا أنكم حتمًا سوف تأخذون في وقتٍ ما. لأنه لهذا الغرض أغلق الباب، ليحثكم على مزيد من الطرق عليه. ولهذه الغاية لا يلبي الطلبة فورًا، حتى تعيدوا السؤال. فداوموا إذن على الطلبة، وستأخذون بالتأكيد.

ورُبّ قائل: "ماذا لو طلبتُ ولم آخذ؟" لقد أُغلق الباب على سعيكم لهذا الأمر، فهو بأسلوبه هذا يحثنا على الثقة فيه، ويشير علينا ألا نطلب فقط، بل أن نطلب ما يجب علينا أن نطلبه.

"**لأنه أيّ إنسان منكم إذا سأله ابنه خبزًا يعطيه حجرًا**". لهذا إن لم تأخذوا، فلأنكم طلبتم حجرًا، وهذا هو السبب أنه لم يعطكم. لأنه رغم كونك ابنًا له، فإن هذا وحده لا يكفيك حتى تأخذ، بل هذا السبب عينه يعوقك عن الأخذ! فإنك وأنت ابن قد لا تطلب شيئًا ينفعك.

أيضًا لا تطلبوا شيئًا عالميًا، بل كل الأشياء الروحية، وستأخذون يقينًا. لأنه هكذا فعل سليمان (١ مل ٣: ١٠-١٤؛ ٢ أي ١: ١١-١٢)، إذ طلب ما ينبغي طلبه، فناله على الفور دون إبطاء.

هناك إذن أمران يلتزم بهما من يصلي: أن يطلب ويسأل بإلحاح، وأن يسأل ما ينبغي عليه أن يطلبه. إذ يقول: "**إذ وأنتم آباء تنتظرون أن يطلب أولادكم منكم، وإن سألوكم شيئًا غير مألوف، ترفضون أن تعطونهم إياه، وإن كان في مقدوركم ونافعًا تعطونه لهم**". وأنتم أيضًا إذ تفتكرون في هذه الأمور، لا تنصرفوا حتى تأخذوا. لا تكُفوا عن السؤال حتى تجدوا. لا تتراجعوا ولا تقللوا همتكم في السؤال، حتى يفتح الباب، لأنكم إن اقتربتم بهذا الفكر وقلتم: "إن لم آخذ لن أرحل"، فحتمًا ستأخذون بشرط أن تطلبوا ما يليق بالرب الذي تسألونه أن يعطيكم، والنافعة لكم كطالبين. **فما هي هذه الأشياء اللائقة؟**

أن تطلبوا الروحيات، كل الروحيات، وأن تغفروا للمذنبين إليكم، فتنالوا غفرانًا متى طلبتموه، رافعين أيادي طاهرة بلا غضب ولا دمدمة (١ تي ٢: ٨). فإن طلبنا هكذا، سننال حتمًا، وإلا تكون طلبتنا كشيء من السخرية، وكفعل رجل سكير وليس عاقل من العقلاء.

ورُبّ قائل: أنا أطلب الروحيات، ولا آخذ؟ بالتأكيد أنت لا تطلبها بجدية، أو تجعل نفسك غير مستحق للأخذ، أو أنك سرعان ما تكف عن السؤال، وقد يسأل نفس الشخص: "ولأي سبب لم يذكر السيد الرب الأشياء التي يجب علينا أن نطلبها؟" لقد ذكرها كلها فيما مضى، وأشار إلى الأمور التي يجب أن نقترب منها ونطلبها، فلا تقل إذن أنا اقترب ولا آخذ. لأن الله لا يمتنع أبدًا في أيّ حال عن العطاء، الله الذي يحبنا كثيرًا جدًا، أكثر حتى من الآباء الجسديين، ويفوقهم كلهم صلاحًا. فإن طبيعة الآباء الأرضيين طبيعة شريرة. إذ يقول عنهم: "**فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة، فكم بالحري أبوكم الذي في السماوات**" [ع ١١].

يقول هذا، لا لكي يصف البشر بأن طبيعتهم شريرة، ولا لكي يدين جنسنا البشري بأنه جنس سيئ، لكن محبته للإنسان فائقة وعظيمة بما لا يقاس. هل ترون حديثًا يفوق هذا الحديث هنا، عن قدرة الله التي تنير الآمال الصالحة حتى في قلب من أصبح يائسًا بائسًا لا يُحتمل؟

ها هوذا يشير إلى صلاحه حقًا من طريق آبائنا، ومن قبل من خلال أعظم عطاياه. وهي "النفس" في داخل الجسد. وفي كل موضع لا يشير إلى أعظم خيراته، ولا إلى مجيئه في الجسد، لأن من بادر وقدم ابنه إلى الذبح، كيف لا يهبنا معه مجانًا كل شيء؟ هذا وإن لم يحدث لنا بعد. لكن القديس بولس أشار إليه حقًا بقوله: "الذي لم يشفق على ابنه، بل بذله لأجلنا أجمعين، كيف لا يهبنا أيضًا معه كل شيء؟" (رو ٨: ٣٢) لكن لا يزال حديثه إليهم يتناول الأمور الخاصة بالبشر الآن.

القاعدة الذهبية: نثق في صلواتنا ولا نهمل واجباتنا الشخصية

٦. وبعد هذا، وحتى يشير إلى أنه يجب علينا ألا نثق في صلواتنا بينما نهمل أداء واجباتنا الشخصية، وحين تحيط بنا الضيقات لا نثق في جهودنا الذاتية، بل نسعى في طلب العون من فوق من جهة، ومن جهة أخرى نؤدي واجبنا الشخصي. يضع أمامنا علاقة الأمر بالآخر، لأنه بعد شرح مستفيض يعلمنا أيضًا كيف نصلي. وبعد أن علمنا كيفية الصلاة، يتقدم في حديثه بخصوص واجباتنا، ثم ينتقل إلى ضرورة الصلاة بلا انقطاع قائلاً: "اسألوا تعطوا"، "اطلبوا"، "اقرعوا". ثمرة أخرى يحثنا على أن تكون دءوبين في ذلك.

إذ يقول: "**كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، افعلوا أنتم هكذا أيضًا بهم**" [ع ١٢]، ملخصًا كل شيءٍ بإيجاز، ومشيرًا إلى أن هذه الفضيلة سهلة ومعروفة تمامًا لكل الناس، ولم يقل هذا فقط، "كل ما تريدون"، بل قال: "فكل ما تريدون". فإن حرف الفاء لم يضعه هكذا دون سبب، بل ليكون له معنى محدد وخاص، بمعنى: إن كنتم تريدون أن تكونوا متشددين حتى بعد ما قلته لكم، افعلوا هذه الأمور أيضًا. فما هي هذه الأمور؟

"**كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم**". ألا ترون أنه مع الصلاة نحن في حاجة إلى نُسُق الحياة الصحيحة. وهو لم يقل كل ما تريدون أن يفعله الله بكم، افعلوه مع قريبكم، لئلا يقول أحد كيف يمكن هذا؟ إنه هو الله وأنا إنسان. لكنه قال كل ما تريدون أن يفعله الناس بكم هذا افعلوه أنتم أيضًا بهم. فأي شيء أخف من ذلك؟ وأي عدل أعظم من هذا؟ والمدح أيضًا

معروف من قبِل المكافأة، لذلك فهو مدح عظيم. لأن هذا هو الناموس والأنبياء. حيث يتضح أن هذه الفضيلة تتفق وطبيعتنا ذاتها لجميعنا، فنعرف واجباتنا من ذواتنا. وأنه من المستحيل أن نجد ملجأ لنا في الجهل.

الطريقان: الضيق والرحب

٧. "**ادخلوا من الباب الضيق، لأنه واسع الباب ورحب الطريقُ الذي يُؤدي إلى الهلاكِ، وكثيرون هم الذين يدخُلُون منه. وما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة، وقليلون هم الذين يجدونهُ**" [ع ١٣-١٤]. رغم ذلك، قال بعدها "نيري هين وحملي خفيف" (مت ١١: ٣٠) وما قاله فعله، فكيف يقول هنا إن طريقه ضيق وكرب؟

أولاً، إن انتبهتم، فإن الرب هنا يشير أيضًا إلى أن الطريق خفيف جدًا وسهل، ومن الممكن بلوغه. ورُبّ قائل: ولكن كيف؟ كيف يكون الطريق الضيق والكرب سهلاً؟ لأنه طريق ولأنه باب، تمامًا مثلما هو الحال مع أيّ طريق وأيّ باب. فمهما كان واسعًا أو ذا مسافة كافية، فهو في النهاية طريق وباب، ولا شيء يدوم فيهما، فكل شيء يزول- الألم وكذلك خير الحياة - وليست الفضيلة فقط هي الهينة، بل إنها في النهاية تصبح سهلة، لأن الذي يعزي الذين في الضيقة ليس زوال الأعمال والأتعاب في ظهورها في النهاية. لأنها حتمًا تنتهي من حياتنا، لهذا تكون أتعابنا مؤقتة. أما أكاليلنا فهي دائمة: **فالأتعاب تأتي أولاً، ثم تليها الأكاليل، الأمر الذي يمنحنا ارتياحًا كبيرًا في أتعابنا.**

لهذا فإن القديس بولس الرسول يدعو الأتعاب بأنها خفيفة، لا بسبب طبيعة الأحداث، بل بسبب فكر الخصوم الذين ينافسوننا، وبسبب رجائنا المستقبل. إذ يقول: "لأن خفة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبدي، ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى، بل التي لا تُرى" (٢ كو ٤: ١٧-١٨). لأنه إن كانت الأمواج والتي تُعد خفيفة ومحتملة بالنسبة للبحارة، وكذا الضربات القاضية للملاكمين، والصقيع بالنسبة للكرّامين، والمذابح والجراح بالنسبة للجنود في المعارك، فإن كل هذه هي بمثابة الرجاء بالمكافآت المُجزية المؤقتة والزائلة، فكم بالأكثر السماء المُنتظرة والبركات التي لا يُنطَق بها، والمكافآت الأبدية. كلها لا تجعلنا نستصعب المتاعب في هذا الزمان الحاضر. فلماذا نهتم بها ولا نهملها؟ فإن **الرب يجعلها هينة وخفيفة**. لذا يأمرنا ألا نتحدث إلى الكلاب وألا نقترب من الخنازير وأن نحترس من الأنبياء الكذبة. ففي كل هذه الأحوال، لا نشعر وكأننا نواجه ضيقات فعلاً،

وحقيقة أن الباب ضيق، إنما تسهل علينا الأمور بشكل كبير، إذ يتحتم علينا أن نكون ساهرين. وحين يقول القديس بولس الرسول: "فإن مصارعتنا ليست مع لحم ودم" (أف ٦: ١٢)، فإنه يفعل ذلك لا لكي يثبط من عزائمنا، بل ليرفع من أرواحنا كمقاتلين أشداء. هكذا يفعل الرب لكي يوقظ المسافرين من غفلتهم ونومهم، فيدعو الطريق كربًا. وبهذا لا يجعل الناس ساهرين فحسب، بل يؤكد لهم أن هناك أمورًا أخرى تسندهم وتشدد من أزرهم، وأن آخرين قد لا يهاجمونهم هكذا علنًا، بل يخفون أنفسهم، فهذه هي طبيعة الأنبياء الكذبة. ولهذا يقول: "لا تهتموا، حتى لو كان الباب ضيقًا، والطريق كربًا، بل اهتموا كيف ينتهي؛ إذ ينتهي إلى الرحابة والاتساع". لهذا اهتموا أن تكونوا يقظين منتبهين مستعدين، مثلما يقول في موضع آخر: "إن الغاصبين يختطفون الملكوت" (مت ١١: ١٢). هكذا حين يَعْلَمُ من يجاهد ويصارع ويتألم أنه في النهاية يظفر بالربح وترتفع معنوياته وتسمو روحه بالأكثر.

لهذا لا نتحير إذا ما اعترضتنا ضيقات كثيرة قد تربكنا، لأن **الطريق والباب ضيقان، لكن المدينة واسعة ورحبة**. لهذا لا يتوقع المرء راحة هنا، ولا ينتظر تعبًا هناك.

كيف نميز الأنبياء الكذبة؟

٧. ففي قوله "**قليلون هم الذين يجدونه**" [ع ١٤] يكشف عن إهمال الغالبية، ويرشد سامعيه إلى عدم الانتباه لآثام الأكثرية، بل إلى أتعاب الأقلية. ويقول الرب أن معظم الطريق إذا ساروا فيه – ليس هو باختيارهم والأمر يشكل جرمًا شديدًا – لكننا يجب ألا نهتم بالأغلبية، فلا تزعجنا تهديداتهم، بل أن نقتدي بالأقلية، وأن نستعد بكل وسيلة إذا ما أردنا الخوض في الطريق الضيقة، لأنه بجانب أنها ضيقة، فإن هناك الكثيرين الذين يريدون إلقاءنا في الطريق الأخرى. لهذا يضيف الرب قائلاً:

٨. "**احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة**" [ع ١٥]. يوجد بجوار الكلاب والخنازير فخ آخر منصوب لنا بمؤامرة أشد خطرًا من غيرها. لأن أولئك معروفون وعلى الملأ، أما هؤلاء فهم مختفون لهذا يحذرنا منهم. لهذا أيضًا بينما يأمرنا أن نبتعد عن أولئك، فإنه يأمر الناس أن يحترسوا من هؤلاء باهتمام بالغ. فإنه من الصعب علينا أن نراهم عند أول اقتراب لنا منهم، ولهذا السبب أيضًا يقول: "**احترسوا أو احترزوا**" ليرشدنا أن نميزهم. عندئذ ولئلا يغرقوا في كمٍ من ارتباكات حين يسمعون أن الطريق كرب وضيق، وأن عليهم السير في طريق معاكس لطرق

الكثيرين، حافظين أنفسهم من الخنازير والكلاب ومن النوع الأكثر وحشية من الذئاب. فإنه يذكرهم بما تم في أيام آبائهم حتى لا يدركهم القلق، فيستخدم تعبير "**الأنبياء الكذبة**"، إذ لم يحدث آنذاك أمور أقل من هذه. هكذا يقول: أرجوكم ألا تضطربوا، فلن يصيبكم شيء جديد أو غريب. لأن الشيطان دائمًا يبدل الحقيقة كلها سريًا بخداعاته المناسبة.

وبمجاز "**الأنبياء الكذبة**" هنا، لا أظن أنه يشير إلى الهراطقة، بل إلى الذين يعيشون حياة فاسدة، ومع ذلك يضعون أقنعة الفضيلة، وهم الذين يسمونهم الغالبية باسم الدجالين. لهذا يقول: "**من ثمارهم تعرفونهم**" [ع ١٦]. فقد يجد الإنسان صلاحًا عمليًا بين الهراطقة، أما بين أولئك الفاسدين، فلا يجد صلاحًا أبدًا.

ورُبّ قائل: "ماذا إن كانوا يخدعون في هذه الأمور أيضًا؟ كلا، بل سيتم كشفهم بسهولة. إذ هكذا هي طبيعة هذا الطريق، مؤلمة ومضايقة، ولن يختار المرائي احتمال الآلام، بل أن يتباهى فقط، لهذا تسهل إدانته. هكذا وبقدر ما قال: "**وقليلون هم الذين يجدونه**"، يكشف عن الذين لا يجدونه. ومع ذلك أولئك الذين يتظاهرون أنهم وجدوه، وذلك بأمره لنا ألا ننظر إلى الذين يضعون الأقنعة فقط، بل إلى الذين يسعون في الحقيقة وراء هذا الطريق.

وقد يقول قائل: ولكن لأي سبب لا يجعلهم الرب ظاهرين لنا، بل يحثنا على البحث عنهم؟ حتى نبقى ساهرين ومستعدين دائمًا للقتال، محترزين من أعدائنا المتنكرين وكذا العلنيين أيضًا. وهذا ما كان يشير إليه بولس الرسول قائلاً: "بالكلام الطيب والأقوال الحسنة يخدعون قلوب البسطاء" (رو ١٦: ١٨). فلا نضطرب حين نرى الكثيرين منهم الآن، كلا، لأنه لهذا أيضًا سبق المسيح وتنبأ منذ البدء.

تأملوا رقته: كيف أنه لم يقل "عاقبوهم" بل "**لا يلحقكم منهم ضرر**" ولا تقفوا بينهم غير محترسين أو منتبهين. وحتى لا تقولوا إنه من المستحيل تمييز هذا النوع من الناس، يوصي السيد الرب ثانية مثالاً بشريًا بقوله: "**هل يجني الناس من الشوك عنبًا، أو من الحسك تينًا؟ هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارًا جيدة. وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارًا ردية. لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثمارًا ردية، ولا شجرة ردية أن تصنع أثمارًا جيدة**" [ع ١٦-١٨].

ما يقوله هو هكذا: ليس عندهم شيء لطيف أو حلو، إنهم حملان فقط من جهة الجلد، ولهذا يسهل تمييزهم. ولئلا يكون عندكم أدنى شك، فإنه يقارنه بضروريات طبيعية معينة، بأمور لا تحتمل إلا نتيجة واحدة. فبأي معنى قال الرسول بولس أيضًا: "الاهتمام

الجسدي هو موت، إذ ليس هو خاضعًا لناموس الله، لأنه أيضًا لا يستطيع" (رو ٨: ٦-٧). وهو لا يكرر الأمر مرتين على سبيل الحشو، بل لئلا يقول قائل: "رغم أن الشجرة الرديئة تحمل ثمرًا رديًا، فهي تحمل الجيد أيضًا، ومن الصعب التمييز. فالمحصول جيد ورديء في آن واحد.

يقول السيد الرب: كلا، ليس الأمر كذلك، فالشجرة تحمل الثمر الرديء فقط، ولا يمكنها أن تحمل ثمرًا جيدًا، وهكذا هو الحال مع الشجرة الجيدة. فلماذا إذن؟ ألا يمكن للصالح أن يصبح شريرًا؟ والعكس صحيح. والحياة حولنا مملوءة بهذه الأمثلة. لكن المسيح لا يقول هذا، أنه ما من سبيل للتغيير عند الشرير، والصالح من الصعب انحرافه أو سقوطه. لأن الشرير ببقائه في الشر لا يعطي ثمرًا جيدًا، ماذا إذن؟ ألم يحمل داود وهو الرجل الصالح أثمارًا ردية؟ بلى إن داود لم يستمر صالحًا، لكنه تبدل من الخير إلى الشر، لأنه ودون شك قد ظل على حاله الرديء لهذا لم يثمر ثمرًا جيدًا، أما لو بقى في الفضيلة لما اقترف ما اقترفه. بهذه الكلمات يسد الرب أفواه الذين يتكلمون بالشر عشوائيًا، فيضع لجامًا على كل المفترين بكلام فارغ، بينما يرتاب كثيرون في الخير بسبب الشر، فإن الرب يحرمهم من أيّ عذر، لأنك لا يمكن أن تقول لقد خُدعت وضُلِّلت، فقد أعطانا السيد طريقة التمييز بينهم من أعمالهم. فالوصية تخصهم هم ولا تخص الجميع هكذا بشكل عشوائي.

ليس من مقارنة بين آلام جهنم والحرمان من المسيح

٩. وإذ لم يأمر بالعقاب، بل أن يكونوا على دراية به، ولكي ينذر المتحيرين ويغيرهم وضع أمامهم العقاب كمانع لهم قائلاً: "**كل شجرة لا تصنع ثمرًا جيدًا، تُقطع وتُلقي في النار**" [ع ١٩].

وحتى يقلل من شدة كلماته أضاف "**فإذن من ثمارهم تعرفونهم**" [ع ٢٠] حتى لا يبدو وقد أظهر التهديد كموضوع أساسي في حديثه، بل حتى يثير ذهنهم بطريقة النصح والإرشاد. ويبدو لي هنا أنه يلمح عن اليهود الذين كانوا يُظهرون مثل تلك الثمار. ولهذا السبب أيضًا يذكرهم بأقوال يوحنا وبنفس الألفاظ يؤسس عقيدتهم، لأنه هو أيضًا قال نفس الشيء، إذ ذكر لهم "الفأس" و"الشجرة التي قُطعت" و"النار التي لا تُطفأ"، ورغم أن الأمر يبدو كدينونة واحدة. وإذ تم حرق الشجرة، لكن إذا أوجز المرء الأمر بشيءٍ من الدقة، فإن هناك عقوبتيْن: من جهة، فإن الشجرة التي تُحرق تُطرح أيضًا من ملكوت الله. وهي عقوبة

أكثر شدة من الأخرى. وأعرف أن كثيرين الآن يرتعدون من ذكر جهنم فقط، لكنني أؤكد أن فقدان المجد لهو أشد صعوبة من جهنم ذاتها. وليس عجيبًا أن الكلمات تعجز عن إظهار هذا الأمر.

لأننا لا نعرف بركات هذه الأمور الصالحة، حتى ندرك من جهة أخرى تعاسة حرماننا منها. وإذ كان القديس بولس الرسول يدرك هذه الأمور جيدًا، فقد وعيَّ أن الحرمان من مجد المسيح هو أبشع الأمور كلها. وهذا ما ينبغي إدراكه في ذلك الزمان حينما نقف أمام الحكم الفعلي. لكن نتوسل ألا يكون هذا هو حالنا أبدًا يا ابن الله الوحيد، ولا تدعنا نختبر أبدًا هذا العقاب الذي لا علاج له، لأنه يا له من شر عظيم أن نسقط عن هذه الأمور الصالحة التي لا يمكننا بالحق أن نصفها بدقةٍ.

ومع هذا، وبقدر استطاعتي، سأحاول أن أوضح الأمر لكم، وإن كان بدرجة غير كاملة تمامًا. فلنتخيل إذن طفلاً عجيبًا، لديه بجانب فضيلته السيادة على العالم كله، وهو صالح في كل شيء، حتى أنه قادر أن يضع كل الناس في دائرة محبة الآب، فماذا تظنون في والد هذا الطفل، أما يحتمل في مسرة ألا يتخلى عن شعبه؟ وأيّ تعب، قليلاً كان أو كبيرًا، يرحب به بشرط أن يرى ابنه ويتمتع به؟ فلنفكر في الأمر بخصوص مجده أيضًا، لأنه ما من طفل حتى لو لم يكن صالحًا، يمكن لأب أن يكرهه ولا يشتاق إليه. هكذا هو الحال في نصيبنا من تلك الخيرات وأن ننطلق ونكون مع المسيح (في ١: ٢٣).

ما من شك أن جهنم والعقاب ليسا من الأمور التي يمكن احتمالها. ولو افترض المرء عشرة آلاف جهنم، فلن يقدر على وصف ما سيكون عليه الحرمان من ذلك المجد الطوباوي، أو أن يكون مكروهًا من المسيح، مثل سماعه: "أنا لا أعرفكم" (مت ٢٥: ١٢)، أو أن يتهمه بأنه لم يطعمه حينما رآه جائعًا (مت ٢٥: ٤٢). أجل، فإنه من الأفضل أن يُصعق بمائة ألف صاعقة عن أن يرى ذلك الوجه الرقيق يبتعد عنا، وعينه التي للسلام لا تحتمل النظر إلينا. فإن كنت وأنا عدو وأكرهه، قد تبعني ولم يتركني، بل ولم يشفق حتى على نفسه، بل بذلها لأجلي حتى الموت، هل بعد هذا كله لا أعطيه رغيفًا في جوعه، فبأي عينين أقدر بعد ذلك أن أنظر إليه؟

لكن انتبهوا هنا إلى لطفه ورقته فإنه لم يتحدث أبدًا عن خيراته، ولا قال "لقد أضجرت أيها الإنسان كثيرًا من فَعل لك الخير الكثير". ولا حتى قال: "أنا الذي أتيت بك من العدم، الذي نفخ فيك نفْسًا حية، وجعلتك تتسلط على كل كائنات الأرض، الذي لأجلك خلقت

الأرض والسماء، والبحر والهواء، وكل الموجودات. لقد احتقروه لأجلك، بل حسبته مستحقًا لكرامة أقل من الشيطان! ولم ينسحب هو من كل ذلك، بل كانت لديه عدة أفكار من أجلك. الذي اختار أن يصير عبدًا، الذي ضُرب بالقصبة، وبُصق عليه، الذي قُتل، والذي مات أكثر الميتات خزيًا، الذي يشفع أيضًا في الأعالي لأجلك، الذي يهبك روحه القدوس مجانًا، الذي يمنحك الملكوت، الذي يقطع وعودًا كهذه لك، الذي يشاء أن يكون لك رأسًا وعريسًا وثوبًا وبيتًا وخدرًا وطعامًا وشرابًا وراعيًا وملكًا. الذي أُخذت لتصير معه وريثًا وشريكًا، الذي أخرجك من الظلمة إلى سلطان النور". أقول إن هذه الأشياء وأكثر منها، يمكن أن يتكلم الرب عنها، لكنه لا يذكر أيًا منها، إنه يتحدث عن الخطيئة فقط.

وحتى في هذا المجال، يظهر محبته، وأنينه لأجلنا فلا يقول: ادخلوا إلى النار المعدة لكم، بل استعدوا لمواجهة الشيطان، وهو يقصد أن يخبرهم بما هو خطأ في أفعالهم، ولم يذكرها كلها، بل بعضًا منها. وقبلها تحدث عن الذين يفعلون الصلاح مشيرًا إلى أنه يلومهم بعدلٍ، فأي عقاب أشد من هذه الكلمات؟

فإن أيّ فرد لن يهمل إنسانًا جائعًا كان يومًا ينفعه، وحتى لو أهمله لن يتحرر من عذاب الضمير، بل إذا رأى صديقين أو ثلاثة على عِلْم بما فعل تمنى لو أنه غاص في باطن الأرض، فماذا يكون شعورنا لو حدث هذا على مسمع من العالم كله وأمام الرب، الذي يحكم على أعمالنا، فمهما حاول الدفاع عن نفسه، فإنه لن يُخفي تباهيه بالأمر. ولهذا يسمع الرب يقول: "اذهبوا عني" والمسيح هنا يلومنا لمنفعتنا حتى ننتبه.

الحياة الحاضرة ليست لهوًا

١٠. لهذا أيها الأحباء، فلنرتعد حتى لا نسمع هذه الكلمات المخيفة، فالحياة ليست لهوًا، وحياتنا الحاضرة ليست عبثًا، والأمور العتيدة ليست كذلك. ولا تحسبوا حياتنا لهوًا وحسب، بل هي أسوأ من ذلك، لأنها لا تنتهي بالضحك، بل تجلب دمارًا شديدًا على الذين لا يفكرون في تقويم طرقهم بشكلٍ حاسمٍ.

أرجوكم أن تعرفوا الفارق بيننا وبين أطفال يلعبون في بيوت تحت الإنشاء، حينما نبني بيوتنا الغالية الثمن. والفارق بينهم وهم يعدون طعام غذائهم وبيننا نحن في ارتحالنا الثمين؟ لا شيء، سوى أننا نفعل ذلك لأننا تحت العقاب، وينتهي بنا الحال دون أن ندرك إلى فقرٍ كاملٍ. فلا عجب أننا لم نعد بعد رجالاً، لكن حين نصبح كذلك، سندرك أن كل هذه

الأمور صبيانية. وحين نبلغ مرحلة الرجولة والنضج سوف نحتقر ما كنا نحياه. بينما لما كنا أطفالاً حسبنا هذه الأمور شيئًا مميزًا يستحق منا القلق لأجله. وحينما كنا نجمع معًا كسر الخزف المكسور والطين، لابد أن نحسب أنفسنا أقل من الذين يشيدون الأسوار العظيمة، فهي حتمًا زائلة سريعًا. وحتى وهي قائمة لا جدوى منها لنا، هكذا هو الحال مع تلك البيوت الفخمة. لأن المواطن السماوي لا يقبلها، ولا يريد أن يبقى فيها. لأن له موطنًا علويًا. لكننا حين ندوسها بأقدامنا، هكذا سيفعل هو أيضًا بالبروج الشاهقة.

وكما نضحك على الأطفال الذين يبكون إذا انسكب منهم شيء، هكذا أولئك أيضًا، حينما ننوح على كل شيء، لا يضحكون فقط، بل يبكون أيضًا، لأن أحشاءهم أحشاء رأفة. ولأن خاتمة أفعالهم ردية. لهذا فلنصر رجالاً! حتى متى نزحف على الأرض، ونتباهى بالأحجار والمباني والأرصدة؟ حتى متى نلهو ونلعب؟

هل سنظل نلعب فقط؟ بل إننا نعبث بخلاصنا ونخونه الآن، وكأطفال يهملون تعليمهم، ويجدون أنفسهم يلهون في أوقات فراغهم، يعانون من ضربات قاصمة متلاحقة، هكذا نحن أيضًا، ننفق كل حماسنا هنا، ونهمل دروسنا الروحية المطلوبة في أعمالنا، فلا نقوى على أدائها، فنستحق حينئذٍ لعقوبة قاسية، ولا أحد يقدر أن يخلصنا، لا أب ولا أخ ولا أيّ إنسان آخر.

لكن حينما تزول كل هذه الأشياء يظل عذابها إلى الأبد، بلا توقف، وهو نفس ما يحدث مع الأطفال حين يحطم أبوهم لعبهم الطفولية، بسبب تكاسلهم فيبكون بلا توقف.

بين من يجمع الذهب والذي يخلص الناس من ضيقاتهم

١١. وحتى نقنعكم بهذه الأمور، فلنتأمل حال الثروة والغنى، والتي تبدو من أكثر الأمور إيلامًا لنا، ولنضع في مقابلها فضيلة النفس، والتي ينبغي أن نطلبها مهما كان الأمر، وسترون مدى تفاهة الثروة. أقول: لنفترض أن هناك رجليْن، ولست أتكلم عن الضرر الناجم عن الغنى الفادح، بل عن الغنى المتوسط، وليجمع أحد الرجليْن مالاً وفيرًا، ويسافر بحرًا. ويفلح الأرض، ويختبر طرقًا أخرى عديدة في التجارة، مع أنني لا أعرف تمامًا إن كان سيجني من عمله هذا أرباحًا بأمانة، ومع هذا فليكن ما يكون. ويفترض أن أرباحه قد حصل عليها بأمانة واستقامة، وأنه اشترى حقولاً، واقتنى عبيدًا، وكل ما شابه ذلك، وأنه لم يمارس ظلمًا في معاملاته. لكن دعْ الرجل الآخر، يملك أموالاً طائلة ويبيع حقولاً وبيوتًا وآنية ذهبية

وأخرى فضية، ويعطي المساكين صدقة، ويطعم المحتاجين، ويشفي مرضى، ويحرر المكروبين، ويطلق سراح المقيدين، ويحرر العاملين في المناجم في السخرة، ويخلص الذين وقعوا في الشراك، ويحرر الأسرى، ويخلصهم من العقاب، فإلي أيّ من الرجلين نقف؟

ونحن هنا لم نتحدث عن المستقبل بعد، بل عن الأمور الحاضرة، فإلى أيّ جانب ستقف؟ هل إلى جانب الرجل الذي يجمع الذهب، أم إلى جانب الذي يخلص الناس من ضيقاتهم؟ مع ذاك الذي يشتري حقولاً، أم مع الذي يجعل نفسه ملجأً وحصنًا آمنًا للجنس البشري؟ مع الذي يتسربل بكل هذا الذهب، أم مع ذاك الذي يكلل ببركات لا تُحصى؟ ألا يشبه هذا الشخص ملاكًا هبط من السماء لتغيير الجنس البشري؟ بينما الآخر ليس كذلك أبدًا، بل إنه ليس إنسانًا، إنه كطفل صغير يجمع ما تصل إليه يداه ليحتضنه هكذا عشوائيًا. مثل هذا الإنسان الذي يجمع المال قد صار أمره سخيفًا، وبلغ حد الجنون المطبق. حيث لا أمانة مع المال ويصبح من أتعس الناس. وأقول إن كانت السخافة بهذا الحد فإن النواح يكون أعظم عليه حيًا أو ميتًا؛ لأنه ذاهب إلى الجحيم وخسران الملكوت.

اتركوا الأرض وما عليها وأوجدوا لأنفسكم مكانًا في السماوات

١٢. أو هل تريدون أن نستعرض جزءًا آخر من الفضيلة. فلنذكر لكم رجلاً آخر، رجلاً ذا سلطة يأمر الجميع، تحوطه كرامة عظيمة، له حاشية ضخمة، وحراس ونواب وصحبة عظيمة من العاملين لديه، ألا يبدو هذا الإنسان عظيمًا؟ ويستحق أن يكون سعيدًا؟ حسن إذن؟ فلنضع مقابل هذا الرجل رجلاً آخر أيضًا، صبورًا على الآلام، وديعًا، متواضعًا، طويل الأناة، ولنجعل هذا الأخير محتقرًا من الناس يضربونه. ولنجعله يحتمل كل هذا، ويبارك الذين يضايقونه. فأي واحد منهما يستحق الإعجاب. أسألكم: هل ذاك المنتفخ والمتعجرف، أم ذاك المتواضع النفس؟ ألا يشبه هذا الأخير واحد من القوات العلوية. العديمي الفساد والهوى. بينما يشبه الأول قِربة منتفخة، أو رجلاً يعاني من الاستسقاء والالتهاب الشديد. أحدهما كطبيبٍ روحانيٍ، والآخر كطفلٍ سخيفٍ ينتفخ ويتورم خداه؟

بماذا تفتخر أيها الإنسان، أبميلادك العالمي ووجودك في عربة محطمة؟ ألأنَّ جيادًا تحركك؟ ألا تعرف أن ما تراه أمامك هو مجرد قطع من الحجر والخشب؟ هل لأنك متسربل بثيابٍ جميلةٍ؟ ألا تنظر إلى المتشح بالصلاح كثوبٍ؟ وسوف ترى بنفسك أن كل شيء يشبه قشًا سرعان ما يزول. لكن يبقى الآخر كشجرة تحمل ثمارًا عجيبة، تُدخل الفرح المفرط على

الناظرين، وأنت تحمل في جسدك طعامًا لدود الأرض والعث؛ الذي إذ حطت عليك جرَّدتك من هذه الزينة الخارجية سريعًا. فالحقيقة أن الثياب والذهب والفضة كلها تمتلئ بالديدان، والأرض والتراب يصيران ترابًا من جديد ليس إلا. لكن من يتسربل بالصلاح يتشح بثوبٍ لا يقدر الدود أن يؤذيه، ولا أن يضره. ومن الطبيعي جدًا أن هذه الفضائل الصالحة للنفس لا يعود أصلها إلى الأرض، بل هي ثمر الروح القدس. ولهذا لا تتأثر بأفواه الديدان، لأنها ثياب منسوجة في السماء حيث لا يفسد عث ولا دود ولا أيّ شيء من ذلك. قولوا لي إذن من الأفضل؟ أن تكون غنيًا أم فقيرًا؟ أن تكون صاحب سلطان أم أن تكون بلا كرامة؟ في غنى وثروة أم في فقر واحتياج وجوع؟

الأمر في غاية الوضوح، أن نكون في كرامة وبهجة وثروة. لهذا إن كانت لديكم الأشياء لا الأسماء، فاتركوا الأرض وما عليها هنا، وأوجدوا لأنفسكم مكانًا ترسون فيه في السماوات. لأن ما على الأرض ظل، لكن كل شيءٍ هناك راسخ لا يهتز، ثابت لا يتزعزع.

فلنختر هذه الأمور إذن بكل همةٍ ونشاطٍ لنخلص من ضيقات الأرضيات هنا. حتى إذا ما أبحرنا إلى ذلك الميناء الهادئ، نوجد مع خيرنا الوفير. الذي لا يُنطق به، الذي يمنحه لنا الله بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح الإنسان. له المجد والقدرة إلى أبد الآبدين آمين.

العظة الرابعة والعشرون

الكلمات والأفعال

ليس الإيمان وحده، بل حتى صنع المعجزات، لا يفيد بدون الصلاح

١. "**ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات، بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السماوات**" [ع ٢١]. لماذا لم يقل: "الذي يفعل إرادتي؟" لأنه في ذلك الوقت كان قبولهم حتى هذا القول يُعَد ربحًا عظيمًا بسبب ضعفهم. وفي نفس الوقت فإنه يحببهم في الوصية الأولى بواسطة الثانية. ويجب أن نذكر أن إرادة الابن هي نفسها إرادة الآب. ويبدو لي هنا أن السيد الرب ينتقد اليهود بصفة خاصة، الذين وضعوا كل ثقلهم على التعاليم دون الاهتمام بالممارسة، ولهذا يوبخهم القديس بولس الرسول قائلاً: "هوذا أنتَ تُسمَّى يهوديًا، وتتكل على الناموس، وتفتخر بالله، وتعرف مشيئته" (رو ٢: ١٧-١٨). لكنك لا تجني شيئًا من وراء ذلك، طالما أن شيئًا من العطاء لا يظهر في حياتك وأعمالك، لكنه (الرب) هو نفسه لم يقف عند هذا الحد، بل قال ما هو أكثر من ذلك. "كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم: يا رب يا رب، أليس باسمك تنبأنا؟" ويقول: "لا يكفي الإنسان أن يكون مؤمنًا فقط، بينما حياته مهملة، فإنه يُطرد من السماوات، حتى وإن صنع معجزات كثيرة، ولكنه لم يصنع شيئًا صالحًا، فإن هذا الإنسان أيضًا يُطرد من الموضع المقدس".

"**كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم: يا رب، يا رب أليس باسمك تنبأنا؟**" انظروا كيف يعود إلى نفسه سريًا، ويشير ضمنًا إلى نفسه بأنه الديَّان؟ ولم يقل علانية أنا هو الديَّان. بل "**كثيرون سيقولون لي**"، للدلالة على نفس الأمر. لأنه لو لم يكن الديَّان لما قال لهم: فحينئذٍ أُصرِّح لهم "**إني لم أعرفكم قط**" [ع ٢٣]. وكأنه يقول: "إني لم أعرفكم قط، لا في زمن الدينونة فقط، بل حتى عندما كنتم تصنعون المعجزات". لهذا قال أيضًا لتلاميذه: "لا تفرحوا بهذا إن الشياطين تخضع لكم، بل افرحوا بالحري أن أسماءكم كتبت في السماوات" (لو ١٠: ٢٠). ويأمرنا في كل موضع أن نبذل قصارى جهدنا لنهتم اهتمامًا كبيرًا بأسلوب حياتنا.

فليس من الممكن لإنسانٍ يعيش حياة صالحة، وهو متحرر من الأهواء والشهوات، أن يكون مهملاً تمامًا، لكنه حتى إن حدث أن كان على خطأ، فإن الله سرعان ما يجذبه إلى

الحق. لكن هناك البعض يقولون: لقد أكدوا هذا بشكلٍ زائف، وهذا هو تقديرهم لسبب عدم خلاص هؤلاء الناس. كلا! وإلا كانت نتيجة عمل هذا الشخص عكس ما أراده (الرب). **لأن قصد (الرب) يقينًا أن يجعل هذا الإيمان بلا قيمة بدون الأعمال.** لهذا إذ يعزز الأعمال الصالحة، يضيف المعجزات أيضًا، موضحًا أن **ليس الإيمان وحده، بل حتى صنع المعجزات لا يفيد شيئًا بدون الصلاح.** وإن لم يكونوا قد صنعوا العجائب، كيف كان من الممكن أن يؤكد الأمر هنا؟ وأيضًا هم لا يتجاسرون إذا ما جاء يوم الدينونة أن يقولوا هذا الكلام في مواجهة الرب، ولا حتى الجواب نفسه. وتساؤلهم هذا يتضمن أنهم صنعوا عجائب، ولكن إذ يرون النهاية تأتي عكس توقعاتهم وبعد أن كانوا هنا محل إعجاب الجميع بسبب ما صنعوه من معجزات، ها هم يرونهم هناك كلا شيء، مع عقاب ينتظرهم، فتصيبهم الدهشة وتعقد الصدمة ألسنتهم، فيقولون: "**يا رب، أليس باسمك تنبأنا؟**" فكيف تبتعد عنا الآن؟ وما معنى هذه النهاية الغريبة التي لم نكن ننتظرها منك؟

أسدل عليهم نعمته وهم غير مستحقين

٢. لكن إن كانوا يتعجبون أنهم يُعاقبون بعد أن صنعوا مثل هذه المعجزات، فلا تتعجبوا أنتم مثلهم، ذلك أن النعمة كانت عطية مجانية من الذي أعطاها لنا. لكنهم من جانبهم لم يشاركوا بشيء، لهذا يحق عقابهم بعدل؛ إذ هم غير شاكرين وعديمي الشعور نحو الرب الذي كرَّمهم كثيرًا، إذ أسدل عليهم نعمته وهم غير مستحقين.

ورُبَّ قائل وماذا إذن؟ هل يفعلون هذا وهم يمارسون الإثم؟ يقول البعض إنهم لم يصنعوا معجزات وهم يرتكبون الآثام، لكنهم تغيروا بعد ذلك ومارسوا الإثم. لكن لو كان الأمر كذلك، لما أفلح معهم أيّ زمن آخر يعمل فيه الرب معهم؛ فلا الإيمان ولا صُنْع المعجزات يمكن أن يثمرا دون أعمال. ولهذا يقول القديس بولس الرسول أيضًا: "إن كان لي كل الإيمان حتى أنقل الجبال، ولكن ليس لي محبة، فلستُ شيئًا" (١ كو ١٣: ٢).

تسألون، إذن من هم هؤلاء الرجال؟ إن كثيرًا من المؤمنين قد نالوا مواهب؛ مثل طرد الأرواح (مر ٩: ٣٨؛ لو ٩: ٤٩). مثل يهوذا الذي كان حائزًا على موهبة مع أنه كان شريرًا. ونرى في العهد القديم نفس الأمر، أن النعمة عملت في أُناس غير مستحقين، بحيث تصنع الخير للآخرين. لهذا لما كان الناس لا يناسبهم هذا الأمر، بل يحيا بعضهم حياة الطهر، ولم يكن لديهم هذا الإيمان العظيم، بينما كان آخرون على النقيض تمامًا، فإن الرب

بهذه الأقوال يحث على إظهار مزيدٍ من الإيمان، وإذ يعطي البعض عطايا تفوق الوصف ليصيروا أفضل، فإنه يُكَمِّل لهم نعمته بكل سخاءٍ، لأنه مكتوب: "صنعنا عجائب كثيرة". ولكنه "يصرِّح لهم أني لا أعرفكم" لأنهم يظنون أنهم أصدقائي الآن حقًا، لكنهم سيعرفون حينئذٍ، إني لم أمنحهم كأصدقاء.

لماذا تتعجبون إن كان السيد الرب يعطي عطايا للمؤمنين باسمه، رغم أن حياتهم لم تكن تليق بإيمانهم، بل كان يعمل حتى مع الذين حادوا عن الطريق وعن الحياة اللائقة والإيمان، ومع ذلك عملت فيهم النعمة لخدمة الآخرين. فرعون أيضًا كان من نفس النوع، ومع ذلك فقد دله الرب على الأمور العتيدة، وكان نبوخذنصر رجلاً كثير الآثام، ومع ذلك كشف له الرب ما سيحدث بعد أجيال كثيرة (د ٣). وأيضًا ابن هذا الأخير، رغم أنه فاق أباه في الإثم، فقد تنبأ بأمور مستقبلية، آمرًا بحدث جليل وعجيب (دا ٥).

ولأن بدايات الإنجيل كانت تُجرى آنذاك، وكان إعلان قوته ظاهرًا بشكلٍ واضحٍ للجميع، فإن كثيرين حتى من غير المستحقين نالوا مواهب. وبالرغم من كل تلك المعجزات، لم تنشأ منها أية فائدة، بل بالحري عوقبوا بالأكثر. لهذا نطق لهم بهذا القول الرهيب: "**إني لا أعرفكم**". وكان هناك كثيرون قد بدأ غضبه يظهر ضدهم، وتحول عنهم وتركهم، حتى قبل الدينونة.

لهذا لنخفْ أيها الأحباء ونرتعد، ولنهتم بحياتنا أعظم اهتمام، ولا نحسب أنفسنا أسوأ حالاً، لأننا لا نصنع المعجزات الآن، لأن ذلك لن يمنحنا أية مزايا، وكما لا يسيء إلينا أننا لا نصنع معجزات، إذا كان اهتمامنا منصبًا على الفضائل، لأننا مدينون بأنفسنا للمعجزات، لكننا مدينون لله بحياتنا وأفعالنا.

الأساسان: الصخر أو الرمل

٣. بعد أن أنهى السيد الرب الحديث عن كل شيءٍ، تحدث إليهم بدقة عن الفضائل وأشار إلى المتظاهرين بها، من كل نوعٍ وصنفٍ. بخصوص تظاهرهم بالصوم والصلاة، والذين يأتوننا في ثياب حملان، والذين يدوسون المواهب، ويُدْعَون أيضًا بالخنازير والكلاب.

ثم يتقدم ليشير لا إلى كيفية عظم الربح الذي يأتي من وراء الفضيلة هنا على الأرض، ويبين فداحة الشر، بقوله: "**كل من يسمع أقوالي هذه ويعمل بها، أُشبهه برجل**

عاقل" [ع ٢٤]. ويعني هذا: قد سمعتم ما يمكن أن يعاينه أولئك الذين لا يسمعون ولا يعملون بما يسمعوه رغم أنهم يصنعون معجزات، ويجب أن تعرفوا أيضًا ما يتمتع به كل من يطيع هذه الأقوال كلها، لا في الدهر الآتي فقط، بل هنا أيضًا. "**فكل من يسمع**" كما يقول، هذه الأقوال ويعمل بها، أشبه برجل بنى بيته على الصخر. أترون كيف ينوع في حديثه؟ ففي مرة يقول: "ليس كل من يقول لي يا رب، يا رب". ثم يكشف عن نفسه في مرة أخرى. "بل الذي يفعل إرادة أبي"، ومرة أخرى يعلن نفسه "ديَّانًا"، "كثيرون يقولون لي في ذلك اليوم يا رب، يا رب. أليس باسمك تنبأنا"، "فحينئذ أُصرِّح لهم إني لم أعرفكم قط". ويشير هنا أيضًا إلى سلطانه على الجميع. لهذا يقول "كل من يسمع أقوالي". وبينما يلمس حديثه المستقبل من الملكوت، والمكافأة والتعزية التي لا يُنطق بهما. وما شابه ذلك، فإن إرادته، أيضًا بالنسبة لأمور هذا العالم هو أن يعطيهم ثمارًا، وأن يشير إلى عظم هذه الفضيلة، حتى في الحياة الحاضرة. فما هي قوة الفضيلة؟

أن نعيش في أمان، وألا يتسلط علينا أيّ رعب، من جانب الذين يحتقروننا. فأي شيء يعادل هذا الحال؟ لأنه حتى الذي يرتدي وشاح الملك لا يقدر أن يوفر لنفسه ذلك. أما من يمارس الفضيلة، فهو يملك كل شيء في وفرة، ويستمتع بهدوء عظيم في غمرة آلام الزمان الحاضر. والعجيب أن يتمتع بهذا في شدة العاصفة، وفي ثقل الضيقة. وباستمرار التجارب، لا يهتز ولو قليلاً. إذ يقول السيد المسيح: "**ينزل المطر، وتجيء الأنهار، وتهب الرياح، وتقع على ذلك البيت فلا يسقط، لأنه مؤسس على الصخر**" [ع ٢٥].

يشير رمزيًا إلى الضيقات بألفاظ مثل "المطر" و"الفيضان" و"الرياح"، وهي ضيقات تسقط على الناس مثل الاتهامات الباطلة والمؤامرات وفقدان الوالدين والأخصاء والأصدقاء، وشرور الحياة والقلاقل من الغرباء، وكل ما يمكن أن يحل بالإنسان من ضربات. ويقول الرب إن النفس المؤسسة على الصخر. وهي الكلمة التي تشير إلى الثبات في تعاليم المسيح، لأن وصاياه في الحقيقة أقوى من الصخر وتضع الإنسان أعلى من الأمواج الهادرة والحياة العاتية. لأن من يحفظ وصاياه في ثبات، لن يتهاوى إذا اضطهده الآخرون، بالعكس فإنه سينتفع من وراء المؤامرات المحاكة ضده. وليس في هذا فخر زائف. فإن أيوب شاهدنا على ذلك، فهو ذلك الرجل الذي تلقى كل ضربات الشيطان، وكان مكروهًا من الجميع.

والرسل أيضًا هم شهودنا، لأنهم حين ضربتهم كل أمواج العالم، ووقف ضدهم كل الأمم والحكام، وشعبهم أيضًا والغرباء، والأرواح الشريرة والشيطان، وكل آلة تتحرك، وقفوا

راسخين أقوى من الصخرة، فبددوا كل الاضطرابات. **وكانت حياتهم أسعد من حياة الآخرين.** فلا الثروة ولا قوة البدن ولا المجد ولا السلطان ولا أيّ شيء آخر، يمكنه أن يوفر لنا الأمان، إنما الذي يوفره هو اقتناء الفضيلة. لأنه ما من حياة أبدًا تخلو من كل الشرور، إلا هذه الحياة التي نحياها هنا، وأنتم شهود، وترون المؤامرات في قصور الملك، والضيقات والمتاعب في بيوت الأغنياء، لكن شيئًا من هذا لا تجدونه بين الرسل. ماذا إذن؟ ألم يعانوا هم من شرور على أيدي الناس؟ بلى، لقد عانوا من أبشع المؤامرات، وواجهوا أشد العواصف التي انفجرت في وجوههم، لكن أرواحهم لم تنهزم أبدًا، ولا أصابهم يأس، بل صارعوا بأجساد عارية وانتشرت كرازتهم وانتصروا.

وكذلك أنتم بالمثل، إن أردتم تحقيق هذه الأمور، فسوف تضحكون من كل المتاعب وتزدرون بها. أجل، لأنكم إن تقوَّمتم فقط بهذه الفلسفة لن يؤذيكم شيء، ولن يقدر عليكم من يحيك ضدكم المؤامرات.

هل سيسلب أحد أموالكم؟ حسنًا، لكن قبل أن يهددكم، فإن الرب أمركم أن تحتقروا المال، وأن تتعففوا عنه تمامًا. وفي نفس الوقت لا تظنوا أن هذا الأمر من تدبير ربكم.

هل يلقونكم في السجن؟ ألم يأمركم أن تحيوا هكذا؟ أن تُصلبوا عن العالم، فهل يتكلمون عنكم بالشر؟ كلا، فقد خلصكم المسيح من هذا الألم أيضًا، بوعده لكم بمكافآت عظيمة دون تعب إذا احتملتم الشر. وقد حرركم من الغضب والاضطراب الناجم منه، وهو الذي يوصيكم أن تصلوا أن يخلصكم الله منه.

هل ينفيكم أحد ويسبب لكم متاعب جمة؟ حسنًا، فإن الرب يجعل إكليلكم أكثر مجدًا.

هل يدمركم ويقتلكم؟ حتى وإن فعل هذا، فإنه ينفعكم نفعًا كبيرًا، إذ تنهال عليكم أكاليل الشهادة، وتبلغون السماء في منتهى السرعة بلا تعب، وتتوفر لكم أعظم فرص المجازاة الوفيرة والغنى. ويسمح لكم أن تستفيدوا من أكبر عقوبة تحل بالشر وهي الموت.

والأمر الأكثر عجبًا من كل ما سبق، أن كل المتآمرين ضدكم، إذ لا يقدرون إلحاق الضرر بكم، بالحري يجعلون من أنفسهم موضع ازدراء.

فما الذي يمكن مقارنته بمثل هذا النمط من الحياة؟ وإذ يدعو الرب الطريق كربًا وضيقًا ليخفف من أتعابنا من هذه الجهة أيضًا، فإنه يشير إلى الأمان العتيد والعظيم جدًا، وإلى المسرة البالغة، مهما كان حجم الضيق والألم.

وكما اعتبر الرب الفضيلة أمرًا له ثماره الصالحة من بين كل الأشياء هنـــا، فقــد أظهر العقوبات المُرة للرذيلة أيضًا.

وأكرر ما سبق أن قلته قبلاً، إن الرب يأتينا في كلا الطريقين بالخلاص لكل مــن يسمع أقواله. بالغيرة على عمل الصلاح (الفضيلة) من جهة، ومن جهــة أخــرى بكراهيــة الرذيلة. وإذا وُجد البعض من الذين يعجبون بما قاله الرب، بينما لا تدل أعمالهم على أنهــم تأثروا بما سمعوه، فإن الرب يثير مخاوفهم، فالسمع وحده ليس كافيًا لتوفير الأمان مهما كان ما سمعوه صالحًا، بل هناك الحاجة أيضًا إلى الطاعة التي تظهــر بالأعمــال، والاســتجابة الفعلية. وينهي عظته وحديثه بأن يبلغ بالخوف إلى قمة ذروته فيهم. ومثلمـــا تحــدث عــن مجازاة الفضيلة بالملكوت والسماء والمجازاة التي لا يُنطق بها، والتعزية والراحة والصالحات والخيرات التي لا تُعد ولا تُحصى، هكذا تحدث أيضًا عن أمور الحياة الحاضرة الدالة علــى ثبات الصخرة ورسوخها الذي لا يتزعزع. ولا يثير مخاوفهم من خلال أمور منتظرة فقــط. كما هو الحال مع الشجرة التي قُطع أصلها، والنار التي لا تُطفأ، والذين لا يدخلون الملكوت. ومن قوله إني لا أعرفكم، ولكن أيضًا من الأمور الحاضرة مثل سقوط البيت.

بناء البيت على الرمل

٤. لهذا السبب يوضح كلامه بالأكثر، فإنه يُظهر قوته في مَثَــل، وهــو لا يكــرر كلامه، فقوله: "الصالح أكثر ثباتًا، لكن الشرير يسهل سقوطه" لا يعد نفس الــشيء. ومثلمــا يقارن بين الصخرة والبيت، والأنهار والأمطار والرياح وما شابه.

يقول إن كل "**من يسمع هذه الأقوال ولا يعمل بها أُشبهه برجل جاهل، يبنى بيتــه على الرمل**" [ع ٢٦]. حسنًا وصف مثل هذا الرجل بالجاهل. لأنه أيّ غباء أكثر من بناء بيت على الرمل، فالجاهل يتعب إذ يمارس العمل بيديه، لكنه يحرم نفسه من الثمر ومن التعزية، بل وينال عقابًا، والذين يسلكون في الشر يُتعِبون أنفسهم، وهم ظاهرون لكل واحــد، فمــنهم المرابي والزاني والمتهم بالباطل، وكلهم يتعبون أنفسهم ويكدون كثيــرًا لجلــب شــرورهم وجعلها مؤثرة. لكنهم لا يجنون أبدًا ثمار أتعابهم، بل يصيبون أنفسهم بخسارة بالغــة. وقــد أشار بولس أيضًا إلى هذا حين قال: "من يزرع لجسده، فمن الجسد يحصد فسادًا" (غــل ٦: ٨). ويشبهون من يبني بيته على الرمل بالذين يسلمون أجسادهم للزنا والــدعارة والخمــر والغضب وكل شر آخر.

ذلك مثل آخاب، وليس مثل إيليا، لأننا حين نضع الفضيلة في مقابل الرذيلة سندرك على الفور الفارق بينهما. لأن واحدًا بنى على الصخر والآخر على الرمل، ورغم أنه كان ملكًا، خاف وارتعب عند مقابلته لنبي، ارتعب من إنسانٍ لا يملك إلا جلد غنم. هكذا كان اليهود وليس الرسل فرغم أنهم - أيّ الرسل - كانوا قليلي العدد وفي قيودٍ، فقد أظهروا رسوخًا كالصخر، أما أولئك فعلى الرغم من كثرة عددهم وتسليحهم، إذ كان عددهم ضعف عدد الرجال، لأنهم هكذا قالوا: "ماذا نفعل بهذين الرجلين" (أع ٤: ١٦).

هل رأيتم كيف أن الذين امسكوا بالقيود والسلاسل كانوا حيارى؟ بينما المقيدون ليسوا كذلك. هل تسلطتم على الآخرين؟ هل أنتم في ضيقة وكرب؟ إن كان كذلك فهذا أمر طبيعي. بقدر ما بنوا على الرمل كانوا أضعف من الجميع. ولهذا أيضًا قالوا: "تريدون أن تجلبوا علينا دم هذا الإنسان" (أع ٥: ٢٨). فماذا نقول؟ هل تجْلِد وأنت خائف؟ هل تعامل الناس باحتقار وتشعر باليأس؟ أم هل تدين ومع ذلك ترتعب؟ لأن الشر هكذا دائمًا واهن وضعيف. لكن الرسل ليسوا كذلك، إذ يقولون: "نحن لا يمكننا أن لا نتكلم بما رأينا وسمعنا" (أع ٤: ٢٠).

أرأيتم روحًا بهذا النبل، وصخرة تسخر من الأمواج وتحتقرها؟ أرأيتم بيتًا لا يتزعزع؟ إنهم لا يهتزون أمام المؤامرات المدبرة ضدهم، بل بالحري يتشجعون بالأكثر، ويلقون بالآخرين في مزيدٍ من الارتباك والقلق.

هكذا حال الذي يضرب بصلابة، ومن يضرب حجرًا صلبًا ترتد الضربة إليه هو، ومن يركل حجرًا ترتد الركلة إليه هو. أما من يثخن الآخرين بالجراح، والذي يثير المؤامرات ضد الأتقياء، فهو الذي يقع في الورطة. لأن الشر دائمًا ما يكون هو الأضعف، كلما نظم نفسه ضد الفضيلة. وكالإنسان الذي يحتضن النار في ثوبٍ، لا يُطفئ اللهب بل يحرق الثوب. هكذا كل من يضرب الفضلاء ويقهرهم ويقيدهم، يجعلهم أكثر مجدًا، ويدمر نفسه. وكلما زادت عليك الآلام وأنت تحيا حياة البرّ، صرت أقوى. لأنه كلما أكرمنا ضبط النفس أكثر، قلّ احتياجنا لأي شيء. وكلما قل احتياجنا لأي شيء صرنا أقوى وفوق كل شيء.

هكذا كان يوحنا المعمدان، الذي كان واحدًا من هؤلاء. لهذا لم يؤلمه أحد. لكنه تسبب في إلحاق الألم بهيرودس. كان الذي لا يملك شيئًا قادرًا على مقاومة الذي يحكم. والذي يرتدي وشاح المُلك والأرجوان والصولجان ويملك قوة لا تنتهي، يرتعد ويخاف من

الذي لا يملك شيئًا، بل خاف الملك حتى من الرأس المقطوعة. حتى أنه بعد موت يوحنا ظل هيرودس يرتعد منه بقوةٍ شديدةٍ، اسمعوا ما يقوله: "هذا هو يوحنا الذي قَطعت رأسه" (مت ١٤: ٢؛ لو ٩: ٩). يقصد هذا هو الذي قطعت أنا رأسه أو ذبحته، وهو ليس حديث إنسان يتباهى بما فعل، بل يرتعد ويريد أن يسكن من روعه، ويهدئ نفسه، إذ يتذكر ما فعله أنه هو نفسه قد ذبح يوحنا المعمدان.

حقًا ما أعظم قوة الفضيلة، فهي تُصيِّر صاحبها بعد موته أقوى مما كان في حياته. ولهذا حين كان الذين لديهم ثروات كبيرة كانوا يأتون إليه ويقولون: ماذا يجب أن نفعل؟ (كو ٣: ١٠، ١٤).

فهل هذا هو حالكم؟ هل تهتمون أن يتعلم من يحيا في رخاء منكم كيف تحيون أنتم الذين لا تملكون شيئًا؟ هل يتعلم الأغنياء من الفقراء؟ والأثرياء من المعدمين؟

هكذا كان إيليا أيضًا، لهذا يتحدث إلى شعبه بكل حرية. ومثلما قال يوحنا المعمدان: "يا أولاد الأفاعي" (مت ٣: ٧). هكذا إيليا قال لهم: "حتى متى تُعرِّجون بين الفرقتين" (١ مل ١٨: ٢١). وبينما قال المعمدان: "لا يحل لك أن تكون لك امرأة أخيك" (مر ٦: ١٩)، هكذا قال إيليا: "هل قتلت وورثت أيضًا" (١ مل ٢١: ١٩).

هل ترون الصخرة؟ أرأيتم الرمل، كيف يغوص بسهولة، وكيف يتأثر بالمصائب بسهولة؟ وكيف ينهزم؟ ورغم أنه مدعم بالملكية والجماعة والنبلاء، لا يسقط هكذا فحسب، بل ويكون سقوطه عظيمًا، إذ يقول "كان سقوطه عظيمًا".

فالخطورة ليست في التوافه، بل في النفس، وخسارة السماء، وتلك البركات الخالدة. وحتى قبل الخسارة، ليست هناك حياة أتعس من حياة إنسان يعيش هكذا، في شقاءٍ دائمٍ، وانزعاجٍ واضطراباتٍ وهمومٍ. والذي تحدث عنه الحكيم مرة قائلاً: "الشرير يهرب ولا مُطارد" (أم ٢٨: ١). لأن مثل هؤلاء الناس يرتعدون حتى من مجرد رؤية ظلالهم، ويرتابون في أصدقائهم وأعدائهم وخدمهم، والذين يعرفونهم والذين لا يعرفونهم. ولذلك وقبل عقابهم النهائي، يعاقبون هنا بالعقاب الشديد؛ إذ يمتنعون عن تنفيذ الوصايا الجيدة الصالحة، مخدوعين بأمور الزمان الحاضر، بدلاً من هروبهم من حياة الرذيلة. وكان اللائق بهم أن يهربوا من الشر.

لأنه وعلى الرغم من أن النقاش كان حول الأمور العتيدة بشكل أوسع وأعم، فإنه من القوة أن نمتنع عن الأمور الأخطر، هاربين من الشرور.

لهذا أنهي الموضوع بقولي إن الربح الذي يناله المداومون على الصلاح سيدوم فيهم، وإذ نعي نحن كل شيء الحاضر والعتيد، فلنهرب من الرذيلة ونحيا في الفضيلة، حتى لا تكون أعمالنا بلا ثمرٍ، وبلا ترتيب، بل نتمتع بالأمان هنا، ونشترك في المجد هناك، الذي يهبنا إياه الله بالنعمة والمحبة التي لنا نحن البشر، بربنا يسوع المسيح الذي له المجد والقوة الآن وإلى أبد الآبدين كلها، آمين.

المحتويات

١
رسالتك في الحياة

٢
ستعود بقوة أعظم
رسالتان إلى ثيؤدور بعد سقوطه

٣

من يقدر أن يؤذيك؟

لا يستطيع أحد أن يؤذي إنسانًا ما لم يؤذِ هذا الإنسان ذاته

٤

رسالة تعزية

إلى أرملة شابة

٥

العناية الإلهية

٦

هل للشيطان سلطان عليك؟

٧

يسوع والمفلوجان

٨

الكنيسة تحبك

٩

الفكر المتواضع

١٠

تفسير

عظة ربنا يسوع المسيح

على الجبل